

# عالم الفكر

## القرآن والسيرة النبوية

- القرآن والتاريخ
- العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم
- استخدام الآلات الحاسبة الإلكترونية
- في دراسة ألفاظ القرآن الكريم
- السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي





رئيس التحرير: أحمد مشاركي العدواني  
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

# عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت \* يناير - فبراير - مارس ١٩٨٢

المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

## المحتويات

### القرآن والسنة النبوية

٣	يقلم مستشار التحرير	التمهيد
١١	الدكتور عبد العزيز كامل	القرآن والتاريخ
٦١	الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد	العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم
١٥٣	الدكتور علي حلمي موسى	استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة الفاظ القرآن الكريم
١٩٥	الدكتور سعد زغلول عبد الحميد	الانبياء والمنتشرون قبل ظهور الاسلام
٢٤٩	الدكتور احمد مختار العبادي	المراجع وصداه في التراث الانساني
٢٨٣	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور	أضواء على حركة الردة في صدر الاسلام
٣٢٩	الدكتورة نبيلة ابراهيم سالم	السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي



### من الشرق والغرب

٣٦٩	الدكتور محمد توفيق بليغ	المسجد والقصص المذكرون
-----	-------------------------	------------------------



### مطالعات

٤٣٥	الدكتور محمد عثمان نجاتي	مبادئ التعلم في القرآن الكريم
-----	--------------------------	-------------------------------

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم





## تمهيد

منذ شهر قليلة صدر للكاتب الروائي الشهير نيبول V. S. Naipaul كتاب بعنوان « بين المؤمنين : رحلة في بلاد الاسلام ; Among the Believers ; An Islamic Journey » يسجل فيه انطباعاته وملاحظاته أثناء رحلة قام بها في أربع دول اسلامية هي ايران وباكستان وماليزيا واندونيسيا . وقد استغرقت الرحلة ستة شهور اتصل خلالها بقطاعات كبيرة ومتنوعة ومختلفة من الناس في تلك المجتمعات الأربعة .

ومنذ البداية نجد نيبول يركز على مسألة هامة ترددت كثيرا في صفحات الكتاب التي وصلت الى ٣٠٠ صفحة ، وهي حالة التمزق العنيف الذي أصاب « المؤمنين » - كما يسمى سكان البلاد التي زارها - وذلك لتوزعهم العقل والوجداني بين الاسلام التقليدي بكل معتقدهاته وتعاليمه وقيمه وبين متطلبات الحضارة الغربية الحديثة بكل ما تقدمه من تقدم مادي وعلمي وتكنولوجيا . ويعلق نيبول على هذا الموقف بغير قليل من السخرية والاستهزاء بهؤلاء « المؤمنين » الذين يتوقعون من الآخرين ، أى الغربيين ، أن يستمروا في الخلق والابداع والابتكار والاختراع ، بينما

## القرآن والسنة النبوية

يستمرّون هم في استخدام تلك المبتكرات والمخترعات والافادة من منجزات تلك الحضارة بوجه عام . ويقولون في ذلك « لقد كان الشعور بالتمزق عميقا الى أبعد حدود العمق لدى عدد من الأشخاص الذين قابلتهم في طهران ، وظهر ذلك واضحا بوجه خاص لدى رئيس تحرير إحدى الجرائد اليومية الذي أرسل ولديه لمواصلة تعليمهما في الولايات المتحدة . كان جزء من عقله وفكره يميل عليه ان يسلم نفسه تماما لعقيدته ودينه وإيمانه وأن يقف موقف المعارض من كل ما نشأ بعيدا وبخارجا عن ذلك الايمان . . . كان يشعر برغبة قوية في أن يظل منتشيا لأطول وقت ممكن الى ذاته في عالم غريب يشعر بابتعاده عنه وانفصاله منه باستمرار ؛ ولكنه كان يدرك ويعترف في الوقت نفسه ، وبالجزء الثاني من عقله وتفكيره ، بأن ذلك العالم الخارجي الغريب عنه هو الذى يسيطر ويسود على كل شيء وأنه يؤلف جزءا من مستقبل أولاده .

وخلال كل صفحات الكتاب يكرر نيبول مثل هذه الأقاويل التي تكشف عن مدى معارضة « المؤمنين » للحضارة الغربية ورفضهم لها ويصف موقفهم عموما بالنفاق ، على اعتبار أنهم لا يرفضون الانجازات التكنولوجية بالذات لتلك الحضارة ، ويرغبون في الوقت ذاته في تحقيق ذلك « النقاء » الذى يعتبرونه هو جوهر الاسلام ، وينادون من أجل ذلك بضرورة العودة الى ذلك الماضى الطاهر النقي الذى كان يسود في صدر الاسلام ، ومع ذلك فانهم يعجزون تماما عن تقديم أى تصور واضح لفكرة الدولة الاسلامية التي يدعون الى قيامها ، والتي يرون أنها سوف تحقق ذلك الطهر أو النقاء ، كما أنها سوف تقوم وترتكز على دعائمه ، ويشعرون ازاء ذلك العجز بكثير من الاحباط الذى يعبر عن نفسه في الغضب الثورى العنيف الذى قد يصل الى حد القتل . فرفض الحضارة الغربية ينصب اذن على كل ما أنجزته وانتجته هذه الحضارة ، ويستوى في ذلك التقدم المادى التكنولوجى أو الافكار والفلسفات والايديولوجيات الغربية ، بل وأيضا المسلمين أنفسهم الذين تأثروا بتلك الحضارة نتيجة لاقامتهم في المجتمع الغربى ، وانعكس ذلك التأثير في آرائهم ونظرتهم الى الحياة واعتناقهم لفلسفات الغرب وأيديولوجياته والتعبير عنها عن قصد أو بغير وعى . . . وقرب نهاية الكتاب يحاول نيبول تلخيص انطباعاته في عبارات قليلة فيقول : « والظاهر أن ذلك الاسلام الذى يظهر الآن في أواخر القرن العشرين يثير عددا من القضايا السياسية ، ولكنه في نفس الوقت يكشف عن ضعف وقصور أسس هذه القضايا وأصولها ، وهو قصور كان ظاهرا في الحقيقة خلال التاريخ الاسلامى كله ، ونقص بذلك أن اسلام أواخر القرن العشرين يعجز عن تقديم أية حلول سياسية أو عملية لتلك القضايا السياسية التي يثيرها ، وكل ما يقدمه في هذا الصدد هو الايمان وحده . . . انه يقدم النبى الذى سوف يحل كل شيء ، على الرغم من أن النبى ( ﷺ ) نفسه مات منذ بعيد ولم يعد له وجود . . . ان هذا الاسلام السياسى يتجسد في هيئة الغضب والفوضى » . وفي آخر فقرة من الكتاب يقول « ان الحياة التي دبّت مؤخرا في الاسلام لم تأت من داخل الاسلام وإنما جاءت من الأحداث والظروف الخارجية ، أى نتيجة لانتشار الحضارة العالمية . لقد كانت نهاية القرن العشرين هي التي

أعطت الاسلام ثورتيه بأن أضفت معاني جديدة على الأفكار الاسلامية القديمة عن المساواة والوحدة ، كما هزت تلك المجتمعات الساكنة المتخلفة هزا عنيفا . ان أواخر القرن العشرين ، وليس الايمان ، هي التي تستطيع توفير الأجوبة عن تلك المشكلات والقضايا وهذه الأجوبة تتلخص في المؤسسات والتشريعات والنظم الاقتصادية . ومن المفارقات أن نجد أنه بعد كل حركة الاحياء الاسلامي وكل الصحوة الاسلامية ، أو الملد الاسلامي الذي يبدو أنه ينظر الى الوراء أو الى الماضي فإن كل ما سوف يتبقى في كثير من الدول الاسلامية ، وبعد كل تلك العواطف والانفعالات المستمدة من الايمان بالنبى ، أقول ان كل ما سوف يتبقى هو فكرة الثورة الحديثة . »

ومثل هذه الآراء والأفكار تتردد بكثرة في الوقت الحالى فى معظم الكتابات التى ظهرت أخيرا عن الاسلام ، والتى تتناول بوجه خاص الصحوة الاسلامية الحديثة . وإذا كان نيول روائي اعتمد في هذا الكتاب على الانطباعات التى خرج بها من لقاءاته العديدة مع قطاعات كبيرة من سكان المجتمعات التى زارها أثناء رحلته ، فان بعض العلماء من الأجانب المتخصصين في الدراسات الاسلامية وبعض المؤرخين والمستشرقين يتبنون مثل هذه الآراء ويعبرون عنها في كتاباتهم . فالامر ليس قاصرا اذن على الكتابات غير العلمية او شبه العلمية وإنما يتعداها الى بعض الكتابات الأكاديمية ، حيث يتكلم اصحابها عن امور مثل كراهية المسلمين - وبخاصة « المؤمنين الحرفيين » - للغرب وحضارته المادية التى توصف في العادة بانها حضارة زائلة ومريضة . ويصل الامر ببعض هؤلاء الكتاب الى الكلام عما يسمونه بطفيلية المسلمين او ( تطفلهم ) الذي يتمثل في الاعتماد على الانجازات المادية التى حققها الغرب ، وكذلك في الثروات الهائلة التى حققها العالم الاسلامي - أو بعض دوله - بفضل استخدامهم التكنولوجيا الغربية التى يكرهون الحضارة التى انتجتها . ويأخذ هؤلاء الكتاب على هؤلاء « المؤمنين » موقف العداء الذى يقفونه من « التاريخ الدنيوى » ومن التفسير التاريخي للأحداث ، وتفضيلهم التفسير الدينى أو اللاهوتى الذى لا يرتفع - وبخاصة عند الحرفيين المتزمين منهم - عن مجرد مراعاة الشعائر والطقوس ، وأخذ القرآن والنصوص الدينية القديمة بحرفيتها ، والاعتقاد بأن كل المشكلات يمكن حلها عن طريق انشاء الدولة الاسلامية التى لا يستطيع واحد منهم تحديد مقوماتها تحديدا واضحا .

والغريب أن نجد عالما مثل المؤرخ البريطانى تريفور روبر H. R. Trevor - Roper يردد مثل هذه الأقوال في مقال له بعنوان « Born Again »، نشر في مجلة « The New York Review of Books » بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٨١ ، كما يبدو أنه يتقبل ، ولو الى حد ، وصف نيول للاسلام بأنه دين طفيل ، « وانه كان مجرد ريح جافة هوجاء هبت من الجزيرة العربية واكتسحت أمامها كل ما كانت تصادفه في المجتمعات والبلاد الأكثر استقرارا والاكثر ثقافة ، فحملت معها فنون وعلوم سوريا ومصر وبلاد

اليونان والهند . ولكنه يلاحظ أن ذلك لم يتم الا بعد انتهاء فترة الغزو والفتح وبعد أن أصبح في استطاعة الاسلام أن يكون « ديناً مفتوحاً » فيقبل التنوع والاختلاف ويعترف بالدين والفضل للثقافات الأخرى . اما الآن فان هؤلاء المحافظين الرجعيين أو الحرفيين هم أقل تسامحاً بل وأقل أمانة ، إذ بينما هم يرفضون ( ظاهرياً ) الغرب باعتباره حضارة مريضة ، كما يقولون ، فانهم يعيشون سرا عليه ويتمتعون بكل ما يبؤه لهم من ترف دون ان يقدموا هم البديل لذلك . ولكن من الانصاف ان نقول ان تريفور روبر Trevor-Roper لم يلبث في نهاية ذلك المقال ان اعترف بان الاسلام - او على الاصح « الاحياء الاسلامي » ليس مجرد ( حالة ) يمكن للمرء ان يقنع بفحصها ودراستها وتشخيصها ، او انه مجرد مجموعة من المفارقات التاريخية التي ثارت في حياة الناس هنا وهناك على ايدي عدد من الرافضين والناشرين ، انما هو في رأيه ( حركة ) بكل معاني الكلمة ، وان هذه الحركة لم تنته بعد ، بل ان هناك مرحلة تالية سوف تصل اليها في وقت لاحق .



ويصرف النظر عما يقال عن طفيلية الاسلام او تطفله فان ثمة عددا من الامور التي يحسن ان نشير اليها .

#### الامر الأول :

هو ان الاسلام جاء لكي يقيم مجتمعا متكاملا له نظمه الاقتصادية والسياسية والقانونية والاجتماعية ، وان ينشئ حضارة متكاملة لها ، كما هو الحال في كل الحضارات ، جانبها المادي بالاضافة الى الجانب الروحي الذي يتمثل في نسق المعتقدات والقيم والاخلاق . ولقد افلح الاسلام في خلق ذلك المجتمع وتلك الحضارة التي غطت منطقة كبيرة من العالم تمتد من الغرب حتى الهند واندونيسيا ، كما افلحت في ان تغزو بعض مواطن اوروبا الجنوبية وان كانت انحسرت عنها فيما بعد . وليس ادل على رسالة الاسلام الحضارية من ان أولى الآيات التي نزلت من السماء على النبي تحمل ذلك المعنى الحضاري : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . وليس المقصود بالقراءة هنا مجرد تتبع الكلمات بالعين او ترديدها باللسان ، وانما القراءة هنا رمز على طلب العلم والمعرفة . فالقراءة بهذا المعنى وسيلة من ارقى وسائل الاتصال ونقل المعلومات بين البشر وبين المجتمعات المختلفة . انها اداة لخلق الحضارة المتقدمة مثلما هي رمز على هذه الحضارة المتقدمة .

#### الامر الثاني :

هو أن الاسلام ، كحضارة ، كان قادرا دائما على الأخذ والعطاء ، شأنه في ذلك شأن كل الحضارات التي تستعير من غيرها وتعطي من مقوماتها ومنجزاتها لغيرها من الحضارات . فالمسألة هنا ليست مسألة

تطفل من الاسلام على الحضارة الغربية التي أفلحت في أن تحقق في العصر الحديث كثيرا من المنجزات التي لم تستطع الحضارة الاسلامية في حالتها الراهنة الوصول اليها . ومن الطبيعي أن تأخذ الحضارة الأكثر تحلفا من الحضارة الأكثر تقدما ، وهي في هذه الحالة النواحي العلمية والتكنولوجية ، مثلما سبق لحضارة الغرب أن أخذت عن الحضارة الاسلامية في القرون الوسطى ما أنجزته في مجال العلوم المختلفة . ولو أننا قبلنا المنطق القائل بطفيلية الاسلام لأمكن تطبيقه على غيره من الأديان . أولم تكن المسيحية في عهدها الأولى طفيلية ، حسب هذا المنطق ، على الحضارة اليونانية الرومانية « المريضة » التي رفضتها ؟ ألم يكن المسيحيون يتكلمون دائما عن الدولة المسيحية دون أن تكون لديهم فكرة واضحة عن مقومات تلك الدولة ونظمها وتنظيماتها ومؤسستها ، فيما عدا عدم التسامح مع غير « المؤمنين » ؟ والاستاذ تريفور روبر نفسه يقول في ذلك « أن المجتمعات المسيحية ازدهرت لأنها عاشت في وقت من الأوقات على غيرها وتطفلت عليها ، وذلك بعد أن مرت بمراحل وفترات من التعصب وعدم التسامح والصراع ، ثم بدأت تأخذ من غيرها من المعتقدات والمذاهب والنظريات والنظم وتمثلتها جميعا ، فاصبحت جزءا منها يعطيها كثيرا من القوة . وهذا هو ما حدث بالفعل بالنسبة للاسلام في عصور عظمته وتقدمه وازدهاره ، حين أفلح في أن يغزو ويخضع العالم من المغرب حتى أندونيسيا بفضل الرسالة التي كان يحملها ويريد تبليغها للناس » . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو العالم الاسلامي في حركته الاحيائية الحالية الى أن يتنكر تماما للحضارة الغربية ويفرضها برمتها ، بما في ذلك منجزات العلم الحديث . والمهم هو التوصل الى صيغة تحقق المزاوجة بين القيم الاسلامية ومنجزات العلم والتكنولوجيا بما لا يتعارض مع تلك القيم .

### الأمر الثالث :

وهو مرتبط بما سبق قوله ، هو أن الاسلام دين يدعو الى التجديد والى تحقيق التقدم للجنس البشري ووسيلته في ذلك كما ذكرنا هي العلم الذي جاء ذكره في الآيات الأولى من القرآن الكريم وفي مواضع أخرى كثيرة بصور مختلفة .

والمرحوم الشيخ عبد الحلیم محمود في كتابه عن « القرآن والنبي » يلاحظ أنه في هذه الآيات الأولى ترد كلمة « القرآن » مرتين وكلمة « العلم » ثلاث مرات ، كما جاء فيها ذكر « القلم » . بل لقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم : « ن ، والقلم وما يسطرون » . وكما أن القراءة ترمز الى طلب المعرفة فانها تعنى أيضا ( قراءة ) الكون بكل ما فيه من مظاهر وحياء . والقرآن الكريم يحض في كثير جدا من المواقع على التفكير وعلى طلب العلم والتأمل وتحكيم العقل : « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « ان في ذلك لآيات لأولي الاباب » ، وغيرها كثير . ووسيلة العلم في ذلك

- كما يستشف من هذه الآيات - هي النظر ، أى البحث والتجربة اللذان يفتحان أمام الانسان مجالات هائلة من المعرفة ويساعدانه على التعرف على طبائع الاشياء والقوانين التي تحكمها . وليس المقصود بالعلم هنا العلم بأمور الدين فقط ، لأن القرن الكريم يدعو صراحة الى النظر في الكون وظواهر الطبيعة وصنوف البشر وأنواع النباتات والحيوانات ، كما يدعو الى البحث في كل ما يتصل بالعالم المحسوس والنظام الدقيق الذى تسير الأمور والأحداث بمقتضاه : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » ؟ « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » . والآيات التى تعزز ذلك كثيرة ، وسوف يجد القارئ أمثلة عديدة لذلك فى الدراسات التى يضمها هذا العدد . والمهم هو أن العلم بهذا المعنى يساعد المرء على التعرف على الطريق السليم ويصبره بعظمة الله الذى أنقذ كل شىء صنعته .

والواقع أن الكتاب الغربيين المنصفين انتهبوا الى موقف القرآن والاسلام من العلم وقارنوه بموقف المسيحية والكتاب المقدس فى ذلك . ويكفى أن نشر هنا الى ما ذكره موريس بيكاى Maurice Bucaille فى كتابه : « الكتاب المقدس والقرآن والعلم La bible, le coran et la science » حيث يقول : « أما فى حالة الاسلام فإن الموقف من العلم كان مختلفا على العموم اختلافا كبيرا عما كان عليه فى الكتاب المقدس . وليس ثمة أوضح من الحديث الشهير عن النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، أو ذلك الحديث الآخر الذى يجعل من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وثمة حقيقة أخرى هامة وهى أن القرآن يبنينا يدعو الى طلب العلم يضم هو نفسه كثيرا من الملاحظات عن الظواهر الطبيعية ، كما يضم تفصيلات تفسيرية تتفق فى عمومها مع المعلومات العلمية الحديثة ، وليس ثمة ما يماثل ذلك فى الأسفار المسيحية - اليهودية » (صفحة ١١٥) .

وليس المقصود بهذا على أية حال أن نحاول أن نبحت للعلم الحديث عن مبررات فى القرآن أو أن نستشهد بنتائج العلم الحديث واكتشافاته على صدق ما جاء فى القرآن من أحكام تتعلق بالكون وبالخلق وظواهر الطبيعة وما إليها . فليس القرآن فى آخر الأمر كتابا علميا تحتمل أحكامه الصدق والكذب كما هو الحال بالنسبة للعلم ، وإن كان الملاحظ أن الحقائق التى وصل اليها العلم التجريبي لا تصطدم بالحقائق القرآنية . وهذا على أية حال يفتح الباب أمام ضرورة إعادة النظر فى اسلوب تفسير القرآن بحيث يتجه التفسير الى مجالات جديدة لم تكن ميسورة للمفسرين القدامى ، وهى مجالات تتعلق بالضرورة مع ما أحرزه العلم الحديث ومع ما توصل اليه العقل الانساني من كشوف فى مختلف فروع المعرفة . فالقرآن ،

بحكم وضعه ، كتاب يصلح لكل عصر ، ولا تقتصر أحكامه على زمن معين ، ولذا كان لا بد من قراءة القرآن بنظرة متجددة تنمى مع تطورات العلم والعصر ، مع المحافظة طيلة الوقت على روح القرآن وروح الاسلام . فليس ثمة اذن ما يبرر الأخذ بمبدأ اغلاق باب الاجتهاد ، أو التمسك بكل ما ورد في التفسير القديمة من آراء وافكار ، مع الاعتراف بان هذه التفسير كتبها علماء وفقهاء كانوا أئمة عصرهم في الفقه وامور الدين ، ولكن كان يحكمهم بطبيعة الحال ما كان متاحا لهم من علم ومعرفة في ذلك الحين . والملاحظ على العموم ان الغالبية العظمى من تفسير القرآن الكريم كانت تتم اهتماما بالغا بالناحية اللغوية البحتة ، كما ان جانبا كبيرا من الأفكار والآراء التي ابدوها حول الكون لم يثبت صحتها وتحتاج الى نقد وتمحيص . ولذا فان من الغريب ان نجد الكثيرين يقبلون في الوقت الحالي كل آراء هؤلاء الفقهاء والمجاهدين الكبار القدامى وكبار المفسرين ويأخذونها على انها اقوال ثابتة لا تخضع للنقاش ولا تقبل المراجعة . وليس من شك في ان اقفال باب الاجتهاد مسئول الى حد كبير عما نحن فيه من تخلف في مسألة النظر العقلاني الى امور الاسلام ، وبخاصة تلك الامور المتعلقة بالحياة اليومية . والملاحظ ان الكثيرين من فقهاءنا الآن لا يكادون يبدون رأيا في اي مشكلة من المشكلات التي تعن لهم او تعرض عليهم الا بالعودة الى هؤلاء العلماء السابقين او الاحالة اليهم وإلى كتاباتهم على الرغم من تغير الظروف عن تلك التي كانت سائدة في ايامهم .

ومحاولة تفسير القرآن تفسيراً حديثاً أو إعادة التفسير لن يقلل ابداً من الجهود التي بذلها هؤلاء الأئمة القدامى الكبار . ونحن نعرف على اية حال ان هؤلاء الأئمة الكبار انفسهم كانوا يراجعون احكامهم مثلاً فعل الامام الشافعي حين جاء الى مصر واطلع على آراء الليث بن سعد فأعاد النظر في مذهبه . ولم يقلل ذلك بأي حال من الاحوال من شأن الامام الشافعي ولا من مكانته ؛ بل ان الامر على العكس من ذلك تماما . كذلك يلاحظ ان بعض هذه التفسير لا يخلو من الاسرائيليات التي لم يكن في استطاعة المفسرين القدامى ان يتعرفوا على زيفها ويظهروا تفسيرهم منها ، وذلك فضلا عن الميل الواضح الى اسناد بعض القصص غير الحقيقية لبعض الانبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن ، وهي قصص لا يقبلها العقل من ناحية ، او تتعارض تعارضا تاما مع ما اثبتته البحوث التاريخية حول الاحداث والوقائع التي عاصرت هؤلاء الانبياء . ولكن لا بد من الاعتراف في الوقت ذاته بان ثمة جهودا مضنية بذلها بعض المفسرين المحدثين للتحرر من المنحى اللغوي الذي يغلب على معظم التفسير ، والذي كان يرى ان كل لفظ له معنى محدد بالذات هو المعنى الوارد في المعاجم والقواميس . وقد حاولت هذه التفسير الحديثة نسبيا ان تأخذ في الاعتبار ما حققته العلوم الطبيعية والانسانية من تقدم ومن انجازات . ويكفي ان نشير هنا الى تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى والمسمى « الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع

المكونات وغرائب الآيات الباهرات » وهو عنوان يدل على الاتجاه العام الذي يسيطر على الكتاب . فقد حاول الشيخ طنطاوي جوهرى ان يلم في ذلك التفسير بكل ما أتيح له الوصول اليه من نتائج العلوم المختلفة ، لدرجة ان البعض وصف تفسيره - حسب ما يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود - بأنه كتاب طبيعة وكيمياء وفلك وتربية أكثر مما هو كتاب تفسير . ويصرف النظر عن هذا الرأي في تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى ، فالذي لا شك فيه هو أننا في أشد الحاجة الآن الى قراءة جديدة للقرآن تتجاوز قيود التفسير اللغوي البحت ، وتأخذ في الاعتبار ما وصل اليه العلم الحديث من كشوف ، وبحيث تقرب القرآن الى ذهن القارئ العصري الذي تبهره منجزات الحضارة الحديثة لدرجة قد تصرفه عن أموريته .

أحمد أبو زيد

\*\*\*



## مدخل

آثرت ان اجعل عنوان هذه الدراسة « القرآن والتاريخ » ، لأبتعد - قاصداً - عن عناوين اكثر تحديداً مثل : « فلسفة التاريخ في القرآن » « التفسير القرآني للتاريخ » أو ، « كيف يفسر القرآن التاريخ ؟ » . وذلك لأنه - حتى في التفسير العام - تعددت المدارس الفكرية مع ايمانها جميعا بالله ورسوله ، وإن القرآن كتاب الله ووحيه المنزل على النبي عليه الصلاة والسلام . وتنوعت المداخل الى القرآن ، وتنوعت معها المناهج : ما بين التفسير المأثور الى التفسير المعقول ، الى اهتمامات بجوانب اكثر من غيرها ، كالأحكام او اللغة<sup>(١)</sup> .

من اجل ذلك ، لا تزيد هذه الدراسة عن ان تكون محاولة لفهم العلاقة بين القرآن والتاريخ وهي ثلاثة أقسام أساسية :

(١) عناصر التاريخ : من الزمان والمكان والأحداث والأشخاص والأبطال . .

(٢) منهج التاريخ : من جمع المعلومات وتحققها وتفسيرها .

(٣) صناعة التاريخ : وهي الافادة من المناهج في صناعة حياة جديدة . وهذا هو الهدف الاسمي من الدراسات التاريخية كما يصوره القرآن .

## القرآن والتاريخ

عبدالعزیز کامل\*

\* المستشار بالديوان الاميري بالكويت وقد شغل المناصب التالية :

١ - استاذ الجغرافيا البحرية بجامعة القاهرة .

٢ - مدير جامعة الكويت .

٣ - نائب رئيس المجلس الوزاري للشئون الدينية ووزير الاوقاف وشئون الازهر بجمهورية مصر العربية .

(١) السيوبي : الاطلاق في علوم القرآن : معرفة تفسير القرآن وتأويله ١٧٣: ٢ ط ١ . م الحلبي القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م وهو من اولى المراجع في علوم القرآن .

### القسم الأول عناصر التاريخ أولا - الزمان

في القرآن أنواع من الزمان أبرزها ثلاثة :

(١) الزمان الكوكبي : وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا ، من أيام واقسامها ومضاعفاتها . وفيه يقول الله تعالى :

- « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شيء فصلناه تفصيلا » . ( الاسراء : ١٢ ) .

أ - وبهذا الزمان الكوكبي تتحد اعمار الافراد ومراحل السن :

- « ووصينا الانسان بوالديه احسانا . حملته امه كرها ووضعته كرها . وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ اشده ، وبلغ اربعين سنة ، قال : رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه . واصبح لي في ذريتي . اني تبت إليك ، وإني من المسلمين » ( الأحقاف : ١٥ ) .  
ب - وهو الزمان الذي تتحدد به العبادات اليومية :

- « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر . إن قرآن الفجر كان مشهودا » ( الاسراء : ٧٨ ) .

ج - والعبادات السنوية او عبادة العمر كالحج :

يقول تعالى عن الصوم :

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام أخر » ( البقرة : ١٨٥ ) .

وعن الحج يقول تعالى من حيث ارتباطه بالزمان :

- « الحج أشهر معلومات . فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » . ( البقرة : ١٩٧ ) .

د - ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة ، بالزمان ، فيقول عن الثمار :

- « وأتوا حقه يوم حصاده » ( الانعام : ١٤١ ) .

هـ - ويربط به أعمار الامم ودورات ازدهارها وافتورها . يقول تعالى في قصة قارون :

- « أولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ( القصص : ٧٨ ) .

ويقول تعالى عن منكري البعث :

- « والذي قال لوالديه أتف لكما اتعداني أن اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين » ( الأحقاف : ١٧ ) .

وللقرون - لغويا - مدلولان :

أولهما زمني : مدته عشر سنين الى مائة سنة والثاني بشري : الأمة تأتي بعد الأمة ، وأهل كل زمان ، مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في اعمارهم وأحوالهم<sup>(٢)</sup> .

(٢) ما قبل الزمان الكوكبي :

يقول تعالى : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب » ( ق : ٣٨ ) .

والكواكب - بما فيها من اجرام نعلم بها عدد السنين والحساب داخله ضمن هذا « الخلق » . فمفهوم « يوم » في هذه الآية مختلفة عن « اليوم » الذي نتعامل به في حياتنا .

(٣) ما بعد الزمان الكوكبي :

يقول تعالى عن يوم القيامة :

- « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ويرزوا لله الواحد القهار » ( ابراهيم : ٤٨ ) .  
وفي القرآن عناية كبيرة بمشاهد القيامة :

« اذا الساء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت » . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت » . ( الانفطار : ١ - ٥ ) .

وترد في القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم ، بعد ان تبدل الأرض غير الأرض والسماوات :

« تعرج الملائكة والروح ، اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة » ( المعارج : ٤ ) .

ويقول : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » ( الحج : ٤٧ ) .

يقول الامام ابن كثير في تفسيره<sup>(٣)</sup> : ان مقدار الف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة الى حكمه . ( يعني يوم الجزاء ) .

(٤) الزمان النفسي : وفيه يبدو احساس الانسان بطول الزمن او قصره . ويضرب الله له مثالا بحوار يدور يوم القيامة :

« قال : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟

(٢) ابن منظور : لسان العرب ٣-٧٦٠ ط١ . دار لسان العرب . بيروت .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ . ١٣٥٠ ط١ . الاندلس بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٦ م .

قالوا : لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين .  
 قال : ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون . افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ؟  
 ( المؤمنون : ١١٢ - ١١٥ ) .  
 وصفوة لقول ان الزمان في القرآن : مقاييس معلومة ، ومقاييس مجهولة ، سابقة ولاحقة ،  
 واحساس به ، قصرا او امتدادا ، يطفى على القياس المعلوم .

### وليس الزمان وحده هو المتغير :

هذا التبدل في المقياس والاحساس لا يقتصر على الزمان . فلانسان - في القرآن - وجود لاحق لوجود  
 الزمان الفلكي المعروف ، ومع تبدل الارض والسموات تبدل قوى الانسان وما حوله من موجودات .  
 يقول تعالى في وصف البصر يوم القيامة :  
 « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ( ق : ٢٢ ) .  
 ويذكر عن جزاء المؤمنين :  
 « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار . كلما رزقوا منها من ثمرة  
 رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون » ( البقرة :  
 ٢٥ ) .

وما نود ان نفصل في هذه المشاهد ، وإن جمع بينها انها صور من الغيب ، يربطها مجرد التشابه ، بما في  
 دنيانا ، ويعرض لها هذا البحث بقدر ما تؤثر على حياتنا الدنيا . وبعبارة أخرى : بقدر ما تؤثر على تاريخنا  
 الانساني في ارض العمل ، لا في افق الاجزاء الأخروي .

### اجزاء الزمان : مقارنة

وهناك فارق يستوقف النظر بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان ومعالجة العهد القديم ، وبعض الكتب  
 الدينية الاخرى التي عرضت لطول الزمان كما في التراث الهندي .  
 في العهد القديم :

حصر سفر التكوين نفسه في اطار زمني ضيق جعله مجال التاريخ الانساني من بدئه الى احداث السفر  
 ويبدأ الاصحاح الخامس من سفر التكوين هكذا :

« هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله ، ذكرا وانثى خلقه وباركه ، ودعا  
 اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مائة وثلاثين سنة » ( تكوين ٥ : ١ - ٣ ) وتتعاقب بعد هذا ذرية آدم :  
 إسماعيل ، وعمرام ، حتى طوفان نوح ، ثم تتعاقب سلالة إسماعيل ، وعمرام ، وعمرام . ويعقب

موريس بوكاي على هذا بقوله . « ولكي نكون أكثر قرباً من الحقيقة ، لنقل ان خلق العالم - بحسب هذا التقدير العبري - يحدد تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد<sup>(٤)</sup> ثم يقول بعد دراسة السلاسل الزمنية في السفر « هناك اذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الانسان ، وبين أكثر المعارف تأسيساً في عصرنا<sup>(٥)</sup> .

### في القرآن :

أما القرآن فلا يعرض سلاسل أجيال تعاقبت من لدن آدم . ولا تعاقب في أسماء ولا أنبياء ، مكتفياً بمعالم بارزة في تاريخ النبوات ، ذاكراً بكل وضوح أن الانبياء في القرآن بعض المرسلين . يقول تعالى : « ولقد ارسلنا رسلاً من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وماكان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله » ( غافر : ٧٨ ) .

وهذا احتوى القرآن امتداد الزمان الذي اثبت العلم لحياة الانسان على هذه الارض ، واحتوى الاتساع المكاني في الازمان المتعاقبة ، وما قام فيها من حضارات ، وما اعتنقه اهلها من قيم واخلاقيات تقارب او تشابه ما نادى بها الأديان السماوية التي ذكرها القرآن تفصيلاً .

### مدى العناية بأجزاء الزمان :

ويعني القرآن بأجزاء الزمان بقدر ما تساعد على توضيح القصص القرآني : معرفة واعتباراً . وهو يكتفي فيها أحياناً بالاجمال ، اذا كان وحده يعني . . كما في قول الله مدافعاً عن رسوله ومبيناً ان الرحي من عند الله :

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، افلا تعقلون . فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً او كذب بآياته ، انه لا يفلح المجرمون » ( يونس : ١٦ - ١٧ ) .

وفي قصة يوسف نقرأ اسلوبين في معاملة الزمان : فبعد ان أبى يوسف الاستجابة لمراودة امرأة العزيز . وشهد شاهد من اهلها بما ثبت براءته . قال العزيز « يوسف اعرض عن هذا . واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين » ( يوسف : ٢٩ ) ولكن اصرت امرأة العزيز على متابعة ما هي فيه . ويأتي قول الله تعالى « ثم بدا لهم بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ( يوسف : ٣٥ ) وتسير القصة حتى ينهى

(٤) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٤٧ ط . المعارف القاهرة ١٩٧٨ ( الترجمة العربية ) .

(٥) بوكاي ( ١٩٧٨ ) ص ١٠ .

يوسف صاحبيه في السجن بتأويل ما رأيا في المنام ، « وقال للذي ظن انه ناج منها اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكره قلبه في السجن بضع سنين » ( يوسف : ٤٢ ) .

ونقف عند قوله تعالى « حتى حين » وقوله « بضع سنين » فالمدة التي قضاها يوسف - رغم اهميتها - غير محددة في القصة . و « بضع » لغويا قد تكون بين الثلاث والتسع . وعدم التحديد هنا يزيد من الاحساس بالظلم الواقع على يوسف ، وبفساد نظام الحكم وقتئذ ، فسادا يمكن ان يبقى فيه البريء سجيناً مدة لا حساب للزمن فيها . السجن دفعته اهواء الحكم وسلطة الحاكمين الى السجن . وقد تدفعه الى النور شهادة ساقى الخمر ، او وساطة من حاشية الحاكم .

ويبدو حساب الزمن دقيقا اذا كنا بسبيل التخطيط وانقاذ الناس من المجاعة المنتظرة . لا مجال هنا لبضع سنين او الى حين . ولكن المجال تجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل . وفي هذا يقول الله تعالى عن الخطة التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة :

« قال : تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت من الا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » ( يوسف : ٤٧ - ٤٩ ) .

والخطة ثلاث مراحل : سبع سنين لكل من المرحلتين الاولى والثانية وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الاخرى :

الاولى : تحديد مدة ، ونتاج زراعي ، ينبغي ان يرتفع فيه معدل الانتاج « دأبا » . ومع وفرة الانتاج تقييد الاستهلاك وتمثل في قوله تعالى « الا قليلا مما تأكلون » وذلك من اجل ادخار اكبر قدر ممكن من المحصول يتمثل في قوله تعالى « فما حصدتم فذروه في سنبله » .

الثانية : مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته ، فلا يأتي الاستهلاك على كل المخزون . ويتمثل هذا في قوله تعالى « يأكلن ما قدمت من الا قليلا مما تحصنون » .

الثالثة : مرحلة اعادة الاستثمار ، وذلك بعد ارتفاع الفيضان - بعد قحط السنوات السبع - فتجد الارض البذور المدخرة ، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون .

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل ، كما ارتبط اغفال الزمان بالتسبب والظلم . وكان تعريف الزمان وتنكيهه ، عاملا ساعد على ابراز الظاهرة الاجتماعية . ويبدو من هذا كيف نتخدم الحقيقة التاريخية

هدف القصة في القرآن . وإن تحديد الزمان فيه ، على أساس انتقائي ، مرتبط بالهدف وهو العبرة ، دون اختصار على مجرد المعرفة . وفي خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف في قوله تعالى :

« لقد كان من قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء » ، وهدي ورحمة لقوم يؤمنون » ( يوسف : ١١١ ) .



## ثانيا : المكان

(١) عندما شرح السيد محمد رشيد رضا قصة آدم في « تفسير المنار » قال عن المكان في القرآن :

« ولكون التاريخ غير مقصود له ، لأن مسائله من حيث هو تاريخ ، ليست من مهمات الدين ، من حيث هو دين ، وإنما ينظر الدين من التاريخ الى وجه العبرة دون غيره ، لم يبين الزمان والمكان كما يبين في سفر التكوين »<sup>(٦)</sup> .

ويبدو ان هذا رأي رشيد رضا في الامكنة والازمنة التي لم يذكرها القرآن . اما ما ذكره من الامكنة والمواضع ، فله فيه رأي آخر . فعند دراسته سورة هود خصص بحثا لقصص القرآن ، جاء في مزاياه - في اعجازها العلمي - « ما في قصص الاقوام من المسائل التاريخية والموضعية »<sup>(٧)</sup> .

(٢) ويذهب محمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن الكريم » الى ان القرآن لم يقصد الى التاريخ الا في القليل النادر الذي لا حكم له ، وانه على العكس من ذلك ، عمد الى ايهام مقومات التاريخ من زمان ومكان . ومن هنا يتبين ان القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا انفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ ، وهي غير مقصودة ، واهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني<sup>(٨)</sup> .

(٣) وكان لعلماء الاسلام في شبه القارة الهندية الباكستانية موقف آخر ، فقد عنوا بالتاريخ الجغرافي للقرآن . واخرج العلامة سليمان الندوي في هذا كتابه « ارض القرآن » . واتخذه مظفر الدين الندوي اساسا لكتاب « التاريخ الجغرافي للقرآن » وعني فيه بالتحديد الزمني للنبوات ، وتحقيق الاعلام ،

(٦) السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار ١ : ٢٧٩ ط . المنار ١٣١٧ هـ / القاهرة .

(٧) تفسير المنار ١٢ : ٤٢ .

(٨) محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ص ٩ القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٥١ .

والصلات بين أسماء الأشخاص والشعوب التي يعرض لها ومواطنهم ، دون ان يربط تلك المواطن في اطار وحدة او منط جغرافي<sup>(٩)</sup> .

ولكتاب هذه السطور وجهة نظر في مدى عناية القرآن الكريم بالمكان ، يلخصها فيما يلي<sup>(١٠)</sup> :

المسجد الحرام : مركز الخريطة .

أهم مكان يعني به القرآن الكريم هو المسجد الحرام . هو اول بيت وضع للناس . فيه آيات بينات مقام ابراهيم .. ومن دخله كان آمناً . وهو قبلة المسلمين في الصلاة . وإليه يحج المسلمون ، وتشهد الرجال .

#### منطقة القلب :

هذا البيت هو مركز منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الانساني ، التي ذكر الله فيها اكبر عدد من الاسماء متجمعة : البيت . مكة . مقام ابراهيم . الصفا . المروة . عرفات . المشعر الحرام . وتضمنها الآيات الثلاث الآتية :

١ - « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم » ( الانعام : ٩٢ ) فهذه ثلاثة .

٢ - « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما » ( البقرة : ١٥٨ ) وهذان اثنان .

٣ - « فاذا افضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » ( البقرة : ١٩٨ ) فهذان اثنان بهما تمام السبعة .

هذا الى مكان جاء بصفته لا باسمه وهو الغار الذي اوى إليه الرسول في الهجرة النبوية ( التوبة : ٤٠ ) .

(٩)

SAYED MUZAFFAR UD—DIN NADVI:  
A GEOGRAPHICAL HISTORY OF THE QUR'AN  
SH. M. ASHRAF. LAHORE, PAKISTAN. REP. 1974

وهناك ابحاث اخرى في التاريخ في القرآن والتفسير الاسلامي للتاريخ ، مستثير اليها في مواضعها من البحث . وكتاب مقرر الدين الندي - على ايمان - من الكتب التي ينبغي قراءتها في هذا المجال . كانت طبعه الاولى عام ١٩٣٩ مينة على كتاب - ارض القرآن - لولانا سليمان الندي الذي صدر باللغة الالمانية عام ١٩١٥ وهو يلخص المصادر المعتمدة حتى ذلك التاريخ . ثم كانت الطبعة الثانية لكتاب مقرر الدين عام ١٩٦٨ لم اصيحت عام ١٩٧٤ . وعنايته الرئيسية بجغرافية الجزيرة العربية ثم شعوب القرآن . (١٠) عبد العزيز كامل : معاصرة من ، مدخل جغرافي الى قصص القرآن الكريم ، القيت في كاعة الامام محمد عبده بالازهر الشريف عام ١٩٦١ ، وهي اساس الفصل الاول من كتاب عنوانه « في ارض القرآن » مع اضافات ميدانية قام بها الكاتب في الاردن عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٠ . ومبصفر الكتاب « ان شاء الله » في سلسلة « عالم المعرفة » مطبوعات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - بالكويت



نطاق الغزوات :

وحول منطقة القلب هذه نطاق اوسع يمكن ان نسميه « نطاق الغزوات » جاءت فيه الاماكن الآتية :

١ - المدينة ، في قوله تعالى « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » ( التوبة : ١٢٠ ) . ووردت باسم يثرب في سورة الاحزاب « يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجموا » ( آية ١٣ ) .

٢ - وخص الله غزوة بدر بثلاثة اماكن نقرأها في قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة » ( آل عمران : ١٢٣ ) .

« اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم » ( الانفال : ٣٤ ) وهذه تقع جميعا الى شمال غرب منطقة القلب .

٣ - وجاء مكان آخر الى الجنوب الشرقي من مكة في قوله تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتمكم كفرتم فلم تغن عنكم شيئا . . » ( التوبة : ٢٥ ) .

فهنأ نرى اتساعا في المساحة وقلة في عدد الاماكن المذكورة بأسمائها .

الدائرة الثالثة :

واذا اعتبرنا البيت الحرام او مكة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلومترا وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر تقع على محيط هذه الدائرة او قريبا منها . وفي نطاق هذه الدائرة او الحلقة الثالثة وقعت معظم احداث القصص القرآني .

١ - ومن المركز يمتد محور جنوبي الى اليمن وبه قصص عاد ونبهم هود :

« واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف » ( الاحقاف : ٢١ ) وهي جبال الرمل باليمن . ويصف الله مواطنهم بالغنى .

وجاء في هذا المحور ذكر سبأ :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال » ( سبأ : ١٥ ) ولا زالت آثار السد والجنتين باقية .

٢ - ومن المركز يمتد محور شمالي ، يذكر فيه الله عدة اماكن متتابعة على طريق التجارة ، جاءت في سورة الحجر :

أ - قرى لوط في قوله تعالى « وجاء اهل المدينة يستبشرون » ( الحجر : ٦٧ ) ثم وصفها بقوله « وانها بسبيل مقيم » ( الحجر : ٧٦ ) . وهي المؤتفكات في قوله تعالى « والمؤتفكة اهوى » ( النجم : ٥٣ ) .

ب - اصحاب الايكة في قوله تعالى « وان كان اصحاب الايكة لظالمين » ( الحجر : ٧٨ - ٧٩ ) وهي مدين في قوله تعالى . « والى مدين اخاهم شعيبا » ( الاعراف : ٨٥ ) .

ج - ديار ثمود وهم اصحاب الحجر في قوله تعالى « ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين ، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين . ( الشعراء : ١٤٦ - ١٥٠ ) .

وتضم هذه الاماكن قصص لوط وشعيب نبي مدين ، وصالح نبي ثمود .

### فروع المحور الشمالي :

ويتفرع هذا المحور الشمالي الى ثلاث شعب :

أ - الأولى شمالية تصل بنا الى المسجد الاقصى في قوله تعالى :  
« سبحان الذي اسرى بعده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » ( الاسراء : ١ ) .

وذكر الله ديار الروم في قوله تعالى :  
« غلبت الروم في اذن الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . لله الامر من قبل ومن بعد » ( الروم : ٢ - ٤ ) .  
ولم تصرح الآية بذكر قرية سورة يس وان قال بعض المفسرين انها انطاكية من بلاد الشام<sup>(١١)</sup> . ويتصل بالشام قصص ابراهيم وذريته .

ب - الثانية : شمالية شرقية : ويمكن ان نعتبرها امتدادا لقوس بلاد الشام الموصل الى العراق . واليها جاءت الاشارة في قوله تعالى :

« وما انزل على الملكين ببابل » ( البقرة : ١٠٢ ) وتتصل بالعراق قصص نوح وابراهيم .

ج - الثالثة شمالية غربية : الى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء :  
« اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي » ( الزخرف : ٥١ ) .

« وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للاكلين » ( المؤمنون : ٢٠ ) وترتبط بها قصص ادريس - في بعض الاقوال - وابراهيم . واسحق وبنيه . واسماعيل . ويوسف . وموسى . وعيسى . ومحمد في ليلة الاسراء ويولده ابراهيم من مارية القبطية .

(١١) الزخري \* تفسير الكشاف : ٤ : ٧٤ ط . الحلي . القاهرة : ١٩٤٦ .

ما وراء الدائرة الثالثة :

وهناك قصص لم يذكر الله مكانها في القرآن وإبرزها :

- ١ - مجموعة ما قبل الطوفان : وبخاصة قصة آدم .
- ٢ - مجموعة سورة الكهف وإن كثرت فيها الأقوال . وبمنا منها في هذه الدراسة أنها تعطي الامتداد المكاني في التاريخ في قول الله تعالى « حتى إذا بلغ مغرب الشمس » ( الكهف : ٨٦ ) .
- « حتى إذا بلغ مطلع الشمس » ( الكهف : ٩٠ ) .
- ولا يصرفه التجوال عن مسئوليات محددة عليه أن يحملها :
- « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » ( الكهف : ٩٣ ) وهنا أقام معهم السد محكما قويا وشاركوا في العمل . وعندما رفعه واختبره قال :
- « هذا رحمة من ربي » ( الكهف : ٩٨ ) .
- كما جاءت قصة موسى وصاحبه ، وقصة أصحاب الجنتين ، وأصحاب الكهف ، وإن تراوحت الآراء في مكان الكهف بين الأردن وآسيا الصغرى .

وصفوة القول في المكان :

إن مركز التاريخ الانساني كما يصوره القرآن هو البيت الحرام : أول بيت وضع للناس . وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الاساسية من الصلاة والحج : الوحدة والتوحيد ، والكسب الحلال للاتفاق الحلال « وارضقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ( ابراهيم : ٣٧ ) . وحولها دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن العقيدة وحمايتها ، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي وبقوّه والجنوبي ، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمزيد من الاعتبار ، سيرا الى مطالع الشمس ومغارها ، وعملا في مجال العقيدة والانشاء والتعمير ، والحصول على مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله . وهي معان ثقلها جميعا قصص صورة الكهف دون أن تنفرد بها .

مقارنة :

ولم يكن من اهداف القرآن أن يستغرق الاماكن حصرا وتسجيلا . وإنما اكتفى بأن اورد لنا نمطا واضحا من الدراسة يتمثل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاور تربط بين القلب والاطراف ، ودعوة الى مزيد من الدراسة « قل سيروا في الارض فانظروا » ( العنكبوت : ٢٠ ) وهي بدورها مهددة لتطور في المجتمعات وبناء افضل للتاريخ الانساني .

وأود هنا أن أذكر ما اتجهت إليه الدراسة التاريخية المعاصرة من نظرة عالمية وامتداد في المكان اثرته سهولة المواصلات وزيادة الاحتكاك بين الشعوب وتيسر المزيد من البحوث التاريخية والاثريّة ، وما يرتبط بها من وثائق كان النسيان قد طواها ، أو عدا عليها الخراب أو طمرتها الرمال .

وما يرتبط بهذا من دراسات ناقدة ، وعناية بالتطور العام ومقوماته الاجتماعية والاقتصادية ودور الشعوب والحضارات النائية أو المنسية فيه<sup>(١٢)</sup> . كل أولئك مما يتسع له افق القرآن . بل ما يدعو اليه القرآن من البحث عن مزيد من المعرفة عبر الزمان والمكان والتنوع الموضوعي .



### ثالثا : الأحداث

#### المدى الزماني :

تعرض أحداث القرآن لبدء الخلق :

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » ( البقرة : ٢٩ ) .

كما تعرض حياتنا وتقلبنا فيها ، وتفاعل الانسان مع الانسان ومع الكون :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ( الملك : ١٥ ) .

وتذكر نهاية هذه الحياة الدنيا وما وراءها من مشاهد القيامة والجزاء والحساب :

« يأتيها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » ( الفجر : ٢٧ - ٣٠ ) .

ومن المنطقي - وهذا هو المدى - ان تكون أحداث التاريخ المذكورة في القرآن اختيارا لا حصرا ، دون أن تمحدد - دائما - مراحل زمنية بالسنين والقرون ، الا حيث تقتضي العبرة شيئا من التحديد ، كما في قصة يوسف .

(١٢) في الاتهامات الحديثة لتكذيب التاريخ العنصري :

GEOFFREY BARRACLOUGH: HISTORY

وعمر الفصل الثالث من

UNESCO (1978) : MAIN TRENDS OF RESEARCH IN THE SOCIAL AND HUMAN SCIENCES:

القسم الثاني من المجلد الأول ابتداء من ٢٢٧ - ١٨٧ ويخاطبة ( الاتهامات المعاصرة ) من ص ٤٣٣ ، ويتلخص فيه اهم الاتهامات الحديثة : سرعة التقدم ، واتساع آفاقه - اذا ما قورن بالعمود السابق - وامتداده الى الحضارات الاسبوية والافريقية ، ودور الشعوب في حركة التاريخ ، واتر النهضة العلمية والفنية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية

### التنوع الموضوعي :

وتمثل أحداث قصص القرآن قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين مناسطها المتنوعة .  
ومع ان قصص الانبياء ابرز ما في القرآن من تاريخ ، الا ان القصص القرآني تعددت فيه المحاور وزوايا الرؤية ، وابرز الى جوار الانبياء ، شخوصا قاموا بأدوار إيجابية في تأييد الرسالة ، وشخوصا قاوموا الحق وحاربوه .

وإذا كانت هذه الدراسة تتناول « إبطال التاريخ » فيما تستقبل من اقسام ، الا ان الذي يعنينا ، في هذه المرحلة ، هو ابراز التنوع الموضوعي في القصص ، ومن امثلته : الاساس العقائدي في قصة ابراهيم - وان كان مشتركا بين الانبياء - ، الجانب الاقتصادي في قصة شعيب ، الصناعي في قصة داود ، القضائي في قصة سليمان ، التخطيطي في قصة يوسف ، التبشير والانداز في قصة يحيى ، والاتجاه الروحي في قصة عيسى ، وقد جاء يوازن ايغال اليهود وقتئذ في المادية وحرفية النصوص والرسوم .  
ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والاسرة والمجتمع والدولة ، مع الاستفادة من التراث الانساني السابق ، وبناء المستقبل ، في خاتم النبئين محمد عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام .  
يقول الله تعالى :

« قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا ، الذي له ملك السماوات والارض ، لا آله الا هو يحيي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » ( الاعراف : ١٥٨ ) .

وتتوازي مع هذا المحور الاساسي في قصص الانبياء ، محاور فرعية لقصص بعضها ملحق بها ، وبعضه مستقل عنها ، كقصة ذي القرنين واصحاب الكهف وقصة الرجلين لأحدهما جنتان ، وهذه كلها في سورة الكهف ، وقصة اصحاب الجنة في سورة القلم . وتنوع الأنشطة في هذه المحاور الفرعية ، كما تنوعت في قصص الانبياء : فبتدو متعددة الاهداف : في قصة ذي القرنين : عدلا وتشبيها ومشاركة في المشروعات ونشرا للدين . وتبدو دعوة الى التكافل والبذل في قصة اصحاب الجنة . وتبدو إيمانا بالله يعصم الانسان من الاغترار بماله ، والاستطالة به على الناس ، فهذه الاستطالة الظالمة باب من ابواب الشر وزوال النعمة ، كما في قضية صاحب الجنتين في سورة الكهف . وهي جميعا - كما في قصص الانبياء - مع تنوعها - تعود الى بناء الحياة على الايمان بالله والاخاء بين الناس ، وهو الهدف الأول للقرآن .

### وحدة القصة ووحدة السورة :

وهناك خلاف اساسي بين نهج العهد القديم والجديد في عرض القصص ونهج القرآن :  
يتبع العهد القديم السرد التاريخي التابعي : يبدأ سفر التكوين بخلق السماوات والارض ، ثم خلق الانسان ، وقصة آدم وحواء والحطية ، ونزول آدم وزوجه الارض وتتابع ذريته . .

وإذا ما سرد قصة لا يعود إليها . فالأسفار تترى في تسلسل تاريخي : بعد التكوين أسفار الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية . وهذه الأسفار الخمسة تنتهي بموت موسى . ومن بعدها أسفار أنبياء بني إسرائيل وملوكهم وقضاةهم .

أما العهد الجديد فالسرد فيه يتوازي : أربع روايات مختارة لحياة سيدنا عيسى كتبها من شهوده أو جاءوا بعده : متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ثم أعمال الرسل ورسائلهم ورؤاهم . منهج القرآن مختلف . فهو غير مسبق ، ولم يتبعه المسلمون من بعد ، في كتابة السيرة النبوية ، أو التاريخ الإسلامي ، أو التاريخ العام .

فالقصة ترد أحيانا أكثر من مرة وتبين الدراسة المستأنية انه لا تكرار ، وإنما هو عرض لزوايا متعددة لقصة واحدة . ويرجع تعدد زوايا الرواية الى تعدد أهداف العرض التاريخي في القرآن كما توضحها الآيتان التاليتان :

يقول تعالى :

١ - « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (هود : ١٢٠) .

٢ - « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) والآية الأولى في خواتيم سورة هود ، وفيها تعدد القصص ، والثانية ختام سورة يوسف وهي مخصصة لقصة برأسها .

#### نماذج لوحدة السورة :

وإذا عرضت السورة من القرآن لمجموعة من القصص ، فانها تعرضها من زاوية رؤية أساسية تركز على هدف من أهداف القصص القرآني : وكان السورة في ذاتها وحدة ، والقصة وحدة فيها ، لها انساقها مع بقية القصص في ذات السورة ، وانساقها مع زوايا أخرى من القصص ذاتها في مواقع أخرى من القرآن .

١ - ولنبداً بوحدة السورة ونأخذ « الذاريات » كنموذج :

القسم في مطلعها بالذاريات . والقصص المعروض - فيها بعد وصف الكافرين والمؤمنين - : إبراهيم ولوط وموسى وعاد وثمود ونوح . ثم ختام فيه اخذ شديد للكافرين وتثبيت للمؤمنين . والسورة ستون آية ، في نحو أربع صفحات . فالآيات قصيرة وبعض الآيات كلمتان : « والذاريات ذروا . فالخاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا . . » .

والبدء بالذاريات : الرياح ، فيه دلالة على سرعة إيقاع السورة . وما يزيد من الاحساس بسرعة الإيقاع ، قصر الآيات وسرعة الانتقال من معنى الى آخر ، ومن قضية الى أخرى ، بما يحمل الى النفس سرعة التبدل والتغير . وبعد آيات القسم تأتي آيات سريعة في وصف الكافرين :

« قتل الخراصون ، الذين في غمرة ساهون . يسألون أيا ن يوم الدين . يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فنتنكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » ( الذاريات : ١٥ - ١٦ ) .  
 حتى ختام هذا المقطع ، جاءت فيه كلمة « تستعجلون » متناسبة مع « الذاريات » و « الجاريات » .  
 وتحس بعد هذا هدوء في الايقاع في المقطع التالي في وصف المؤمنين ، وإن ربط في سرعة بين العمل  
 الدنيوي والجزاء الأخروي ، في تعاقب وتداخل :  
 « ان المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين » ( الذاريات :  
 ١٥ - ١٦ ) .

وبعد ان يصنف مظاهر احسانهم من العبادة وبذل المال والتأمل في الانفس والأفاق - وهي مصادر معرفة  
 وإيمان - ينتقل الى قصة ابراهيم في سرعة تبدو حتى في حركته وهو يكرم ضيفه .  
 « فراغ الى اهله ف جاء بعجل سمين ، فقر به اليهم قال : الا تاكلون » ( ٢٦ - ٢٧ ) ويشرونه بغلام  
 عليهم . . وفي « عليهم » دلالة على حياته - وصف فيه اختصار الزمن - وانه سيكون على علم . ثم يسأل  
 عن خطيئهم ، ويعلم انهم جاءوا لعذاب قوم لوط . وفي سرعة نقراً قوله تعالى عن القرية الظالمة :

« قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين .  
 ف اخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون  
 العذاب الأليم » ( ٣٢ - ٣٧ ) . وانظر الى السرعة في الانتقال من حديثهم مع ابراهيم ، الى عذاب  
 المسرفين ونجاة المؤمنين !

ولك ان تدرك سرعة الايقاع ، اذا نظرت الى تكثيف قصة موسى ، وكيف ان الهدف من العرض السريع  
 واحد ، وهو سرعة اخذ ربك القرى وهي ظالمة وانتصاره لأولياته :

« وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر او مجنون . فأخذناه وجنوده  
 فنبذناهم في اليم وهو ملجم » ( ٣٨ - ٤٠ ) .  
 وهكذا تتعاقب قصص عاد وثمود . حتى نوح ، تأتي قصته في آية واحدة « وقوم نوح من قبل انهم كانوا  
 قوما فاسقين » ( ٤٦ ) .

ثم دعوة فيها نفس الايقاع للمؤمنين :  
 « ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين » ( ٥٠ ) . ويأتي في ختام السورة انذار مقابل للانذار الاول :  
 « فان للذين ظلموا دنوباً مثل ذنوب اصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي  
 يوعدون » ( ٥٩ - ٦٠ ) .

حتى لفظ « يستعجلون » جاء في اولها وآخرها ، متناغما مع : الذاريات في سرعتها ، فراغ الى اهله ، ففروا الى الله . . وكان وعد الاخرة حاضريكاد يلمس باليدين ، ومن قبله انتصار الله لعباده ، وسرعة اخذه الطاغين .

## ٢ - ومن سورة الذاريات تنتقل الى سورة طه :

واذا كان محورها الاساسي قصة موسى مع مدخل مخاطب الله فيه رسوله ، وتعقيب بقصة آدم ثم خاتمة ، فانك تحس انها « مناجاة » بين الله ورسوله .  
« طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى » (٣-١) .  
وموسيقىة السورة . الفواصل . اسلوب الخطاب ، كأن يد الرحمة تمر على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتملؤه سكونية .  
والانتقال الى قصة موسى تحس فيه نفس المسار :

« وهل اتاك حديث موسى . اذ رأى نارا فقال لاهله امكنوا اني آتست نارا لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى » (١٠-٩) .  
وتستطيع العودة الى السورة لتحس هذا التدرج مع الرسول في عرض القضية ، والترقب في عرض الرسالة : آتست نارا . قبس . هدى . .  
« فلما اتاها نودي يا موسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ، وانا اخترتك فاستمع لما يوحي » (١٣-١١) .

وحتى الاستعداد للقاء فرعون ، ورحمة الله بموسى وهو يشد ازره بأخيه ، ويعطيه اكثر من معجزة : معجزة تنفصل عنه وهي العصا ، ومعجزة لا تنفصل وهي اليد . وتتوالى المشاهد ، وكلها تأييد ورعاية ، لتربط على قلب الرسول وهو في طريقه في ابلاغ رسالة ربه .

وفي قصة آدم تجدد وضوح المغفرة والثوبة بعد الخطيئة كما تجدد من قبل في رعاية الله له في الجنة :  
« ان لك الاتموج فيها ولا تعرى . وانك لا تظمأ فيها ولا تضحي » (١١٨-١١٩) .

## وبعد الخطيئة :

« وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى » (١٢١-١٢٢) . وينزل آدم ومعه من الله ، بعد الهداية ، وعد هداية ابنائه :

« قال اهبطا منها جميعا بعضهم لبعض عدو . فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » (١٢٣) .

وفي ختام السورة انذار للكافرين وبشرى للمهتدين . ويتكرر لفظ هدى في آخرها كما جاء في اوائلها وسيافها :



« قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من اصحاب الصراع السوي ومن اهتدى » (١٣٥) .

### ٣ - نعرض زاوية ثالثة من سورة القصص :

في المطلع جلال ورهبة وتصوير معسكرين ، في ايقاع جليل تكاد ان تسمع فيه مسار الجيش وانين المستضعفين ، وطول الصراع بين الايمان والطغيان :

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح ابناءهم ، ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . (١-٦) .  
ومع بروز اطراف الصراع واهدافه ، تتساءل عن القائد الذي سيدبر هذا الصراع امام فرعون . اين هو ؟ ما عمره ؟ وما كفائه ؟ فاذا بك تقرأ في الآية التالية مباشرة :

« وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فآلقيه في اليم ولا تخزي ولا تحزني ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٧) وتسير القصة وتجد فيها تفاصيل تربية موسى وكيف رعته امرأة فرعون ، وكيف انقذه ناصح امين من قوم فرعون ويمضي سنوات في اهل مدين ، ثم يكلمه الله في سيناء وتبدأ مرحلة جديدة من الصراع بينه وبين الملا من قوم فرعون . هذا البسط في القصة يتبعه قول الله مخاطباً رسوله :

« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثابوا في اهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » (٤٣-٤٥) .  
ان كلمات : القرون الاولى . تطاول عليهم العمر . . تحمل الى نفس السامع والقارىء طول الصراع بين الايمان والجحود .

وترد في السورة بعد هذا ، قصة قارون و« كان من قوم موسى فبغى عليهم » لئلين ان الحق لم يكن مرتبطاً بقوم ولا عرق : فمن قوم موسى البغاة ، ومن قوم فرعون المؤمنون « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » (الاسراء : ١٥) .

ويأتي ختام السورة محصلة للصراع فيها :

« ولا تدع مع الله ألها آخر . لا إله إلا هو . كل شيء هالك الا وجهه . له الحكم واليه ترجعون »

(٨٨) .

هذه نماذج تبين التركيز على زوايا ثلاث من اهداف القصص القرآني :

١ - انتصار الله للمؤمنين من الكافرين : في سورة الذاريات .

٢ - الربط على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : في سورة طه .

٣ - شدة الصراع بين الايمان والكفر : في سورة القصص .

ومعناك اهداف ومناهج اخرى غير هذه ، ولكن المقصود - في هذه المرحلة - بيان تعدد زوايا الرؤية في عرض الاحداث ، ومع تعدد هذه الزوايا تسقط قضية التكرار ليحل محلها التكامل . وان هناك وحدة في القصة ، ووحدة في السورة مع تعدد القصص فيها<sup>(١٣)</sup> ، وهو منهج تفرد به القرآن الكريم في عرض الأحداث .



### رابعاً : الأشخاص والابطال :

#### أسماء الاسفار والسور :

أطلق الطبري على كتابه اسم « تاريخ الرسل والملوك » ، ومن قبل نقرأ في العهد القديم : اسفار « الملوك » و « القضاة » ، واسفار تحمل اسماء انبياء بني اسرائيل ، وتحمل الاناجيل الاربعة اسماء كاتبها : متى . ومرقس . ولوقا . ويوحنا . اما اعمال الرسل فيحمل كل منها اسم صاحبها مع اشارة الى المكان الذي وجهت اليه الرسالة او قيلت فيه .

وبمراجعة فهرس سور القرآن الكريم نرى تنوعاً كبيراً في اسمائها له دلالاته وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير ، وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك<sup>١٤</sup> . كالفاتحة وهي ام الكتاب . وسورة براءة وهي التوبة . وسورة غافر وهي المؤمن<sup>١٥</sup> . وقد ثبتت اسماء السور بالتوقيف من الاحاديث والآثار وتتمثل في هذا التنوع الافاق الآتية :

#### أولاً : عالم الغيب وارتباطه بعالم الشهادة :

١ - اسماء الله الحسنى وصفاته : فاطر . غافر . الرحمن .

٢ - اسماء الانبياء وصفاتهم ومعجزاتهم وآلمهم : آل عمران . يونس . هود . يوسف . ابراهيم . مريم . لقمان . محمد . الاسراء . المزمل . المدثر .

(١٣) في العرض العام للقصة كوحدة ، انظر :

- عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء . ط . الحلبي القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

- دلي عرض الوحدة الفنية للسورة وزوايا الرؤية . انظر : محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم

- دلي متاقفة العلاقة بين الجليليين الفني والصدق التاريخي ، انظر : عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني . في منظوره ومفهومه من ص ٢٩٧ الى ص ٣٣٩ . دار الفكر العربي القاهرة . ١٣٨١هـ - ١٩٦٥م .

- دلي ترتيب القرآن وتناسب سورته : السيويني . تناسق الدور في تناسب السور . وقد نشره عبد القادر عطا باسم « اسرار ترتيب القرآن » مع مقدمه طويلة وتحقيق . دار الاضواء . القاهرة . ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

(١٤) السيويني : الاطلاق ١ - ٥٢

(١٥) نفس المرجع ١ : ٥٤١ .

٣ - الكتب التي انزلها الله : الفرقان .

٤ - الملائكة : الصفات .

بعبارة اخرى : الخالق . الرسل . الكتب . الملائكة .

ثانيا : الكون والارض :

٥ - ظاهرات فلكية وجوية : البروج . النجم . القمر . النور . الرعد . الذاريات .

٦ - الزمان واجزأؤه : العصر . الفجر . الفلق . الضحى . الليل .

٧ - الارض واجزأؤها : الحجر ( ديار ثمود ) . الاحقاف ( ديار عاد ) . الطور ( في سيناء ) . الكهف .

٨ - الصخور والمعادن : الحديد .

ثالثا : الحياة النباتية والحيوانية :

٩ - البقرة . الانعام . النمل . العنكبوت . النحل . الفيل . التين .

رابعا : الحياة الانسانية

١٠ - خلق وحياة الانسان : العلق . الانسان . الناس .

١١ - المدن والتجمعات الانسانية : البلد . قريش . سبأ . الروم .

خامسا : العقيدة والعبادات والمعاملات :

١٢ - العقيدة والعبادات : المؤمنون . السجدة . الاخلاص .

١٣ - المعاملات ونظام الاسرة والاخلاق : النساء . المنافقون . المطففين . التحريم . الطلاق .

المجادلة .

سادسا : الجهاد والشئون الدولية :

١٤ - الانفال . براءة . الفتح . العاديات . النصر .

سابعا : في الآخرة والجزاء :

١٥ - الاعراف . الجانية . الواقعة . التغابن . القيامة . النبأ . التكويم . الانفطار . الانشقاق .

الغاشية . الزلزلة . القارعة .

ففي اسماء السور شمول يتلام مع نظرة القرآن الكلية لأمر الوجود . النظرة التي تضم المبدأ والمعاد .

والانسان والكون ، ومناشط الحياة الانسانية ، ويتحدث فيها القرآن عما دق من الخلق كالنمل ، كما

يتحدث عما عظم كالمساء ذات البروج ومواقع النجوم .

تكامل النماذج :

وتعكس هذه النظرة على شخوص التاريخ في القرآن وابطاله . فالقرآن ليس مجرد تاريخ انبياء ولا

تاريخ ملوك . من الانبياء ما اغفل القرآن ذكره « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »

( غافر : ٧٨ ) وعنايته بالملوك والحكام محدودة : نماذج اعطاها تبين مشاهد من الحكم ، هي لمن بعدهم عظة وذكرى .

وشخص القرآن مجموعة بشرية متكاملة بحيث كانت مصادر للالهام وأسوة للناس مصداقا لقوله تعالى فيها قص على رسوله من الانبياء « اولئك الذى هدى الله فيهداهم اقتده » ( الانعام : ٩٠ ) . وإذا كان المصطفى - وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين - يدعو ربه الى الاهتداء بمن سبق من الانبياء ، فما احرانا ان نطيل الوقوف عند هذه النماذج الانسانية ، ومن ارتبط بقصصهم . او جاهد على فترة منهم .

### العمر :

في الانبياء نجد نماذج متكاملة من الاعمار : طفولة عيسى ، وشباب ابراهيم ، وكهولة محمد ، ثم شيخوخة ابراهيم ونوح . ويقابل هذا من النساء : طفولة مريم وشبابها ونضج امرأة فرعون وإيمانها ، ثم زوج ابراهيم وقد تقدمت بها السن « قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ، ان هذا لشيء عجيب » ( هود : ٧٢ ) .

### المؤمن في أسرته :

ونقرأ نماذج متعددة من الأسر وموقع المؤمن فيها : نجد الابن المؤمن والأب الكافر في قصة ابراهيم . والأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح . والزوج الصالح والزوجة غير الصالحة في قصة نوح ايضا . والزوجة المؤمنة والزوج الكافر في قصة امرأة فرعون . والأب الصالح وقد توزع ابنؤه بين الصلاح والحسد والأحقاد كيوسف واخوته ، حتى أكرم الله الجميع بالثوبة وجمع الشمل .

### رحمة الله :

ونرى في القصص القرآني رحمة الله وقد ادركت رضيعا لا يدرك من امره شيئا : « وأوحينا الى أم موسى إن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني . انا رادوه اليك وجاعله من المرسلين » ( القصص : ٧ ) .

وشابا وقف وحيدا يدافع عن الحق « قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له ابراهيم » ( الانبياء : ٦٠ ) . ثم كان من قومه ان : « قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نارك كوني بردا وسلاما على ابراهيم » ( الانبياء : ٦٨ - ٦٩ ) .

وتدرك شيخا كبيرا امضى السنين داعيا الى الله فلم يستجب له الا القليل . يقول الله تعالى عن نوح : « فكذبوه فأنجيناه والذين آمنوا معه في الفلك واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » ( الاعراف : ٦٤ ) .

وقد تدرك الرحمة وحيدا كيونس عندما التقمه الحوت ثم نبذه في العراء . او جمعا محصورا بين الماء والعدو :

« فلما تراءى الجمعان قال اصحاب موسى : انا لمدركون . قال : كلا ، ان معي ربي سيهدين »  
( الشعراء : ٦١ - ٦٢ ) .  
وقد تكون النجاة برا ، كما في هجرة المصطفى من مكة الى المدينة ؛ أو بحرا كما في قصة نوح والسفين .

#### الانتصار وعلاقته بحياة القائد :

وقد يرى القائد النصر بعينه كما في حياة المصطفى :  
« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره  
انه كان توابا » ( النصر ١ - ٣ ) .  
وقد يعيش عمره مجاهدا ولا يشهد وراءه الا القليل من المؤمنين . وفي قصص موسى وعيسى عبرة .  
يقول الله على لسان موسى :  
« قال : رب اني لا املك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فانها محرمه عليهم  
اربعة سنن يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين ( المائدة : ٢٥ - ٢٦ ) .

#### الاختبار :

وقد يختبر الله الانسان في صحته وماله كما في قصة أيوب . وفي الهجرة من وطنه وهي قدر اكثر من نبى  
ورسول . وقد تنهى حياته بأن يموت شهيدا كما في قصة يحيى . وقد يلقي في السجن كيوسف . وقد يختبره  
الله باقبال الدنيا كسليمان « قال : هذا من فضل ربي ليبلوني فأشكرام اكفر » ( النمل : ٤٠ ) .  
وقد يبتلى بأن يصد عنه قومه ويرمونه بالجنون والسحر والكهانة والكذب . وقد لقي الرسول هذا كله  
واحتمله ، ونفى القرآن الكريم هذا كله ، وسجل الصراع الشديد وصبر الرسول والمؤمنين معه . يقول  
تعالى « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا  
حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ الا ان نصر الله قريب » ( البقرة : ٢١٤ ) .

#### النصر :

ومع هذه الإختبارات يسجل القرآن الكريم النصر للإيمان والمؤمنين « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في  
الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » ( غافر : ٥١ ) ويعتبر هذا وعدا إلهيا « وكان حقا علينا نصر المؤمنين »  
( الروم : ٤٧ ) . هذا اذا اخذوا بأسباب النصر من مادية ومعنوية . وريطوا بين العقيدة والسلوك .  
وبغير هذا لا ينطبق عليهم تعريف الايمان كما وضعه الرسول ( ﷺ ) في حديثه الشريف :  
عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ، قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه احدا  
بعدك . قال قل : آمنت بالله ثم استقم . اخرجته مسلم .

### قصة الـاب الاول : نقطة البدء في التاريخ الانساني :

وكل انسان يشعر بارتباطه بالـأب الاول ومنه يبدأ التاريخ الانساني في القرآن :

« يأبىا الناس اتقوا ربكم .الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » ( النساء : ١ ) .

والقرآن يخاطبنا بقوله :

« يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ( الاعراف : ٢٧ ) .

وفي سفر التكوين نقرأ قصة آدم بعد خلق السماوات والارض ، ونقرأها في مطالع سورة البقرة ، بعد الفاتحة ، وبيان صنوف الناس : المؤمن والكافر والمنافق ، ودعوة الله الناس جميعا الى عبادته .

ولكن في القصة جانبا يحتاج من دارس التاريخ الى وقفة . فهنا نقطة البدء : التي يلتقي فيها عرض القرآن بالمعهد القديم في جوانب ، ويختلفان في جوانب جوهرية :

الاتفاق في أب اول وأم أولى ، وفي كرامة البدء ، ثم في تعرض الابوين للاختبار .

ولكن نقطة الخلاف الجوهرية في « التوبة » : ان الله سبحانه وتعالى تاب على آدم وغفر له ذنبه :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » ( البقرة : ٣٧ ) .

« وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى » ( طه : ١٢١ - ١٢٢ )

جاءت التوبة فيما نزل من القرآن بمكة في سورة طه ، وما نزل في المدينة في سورة البقرة .

كانت عند آدم وزوجه حرية الاختيار . وكانت تجربته الأولى نجاحا : عندما علمه ربه الاسماء ، ثم امره ان يخبر بها الملائكة ، فقام بأمر الله . ما ضل ولا نسى .

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبثوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العزيز الحكيم . قال : يا آدم انبههم باسمائهم ، فلما انباهم باسمائهم قال : ألم اقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون » ( البقرة : ٣١ - ٣٣ ) .

وجاءت بعد هذا حرية الاختيار . . وهي التجربة الثانية :

« فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنها من وقال سواتها . وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فذلاهما بغرور » ( الاعراف ٢٠ - ٢٢ ) .

وكانت التجربة صراعا بين الطموح بكل مغرياته ، وبين صريح أمر الله . كانت تجربة أولى في حرية الاختيار ، تاب منها آدم وقبل الله توبته ، وتلقى من الله كلماته ، وجعله خليفته في الأرض . وهو نبي مكرم . هذا بعد ان كفل له في الجنة امورا هي حاجات الانسان الاساسية .

« ان لك الاتجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تنظماً فيها ولا تضحى » ( طه : ١١٨ - ١١٩ )  
والجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن ، والضحيان ( وهو البروز للشمس )  
حر الظاهر ، كما يقول الامام ابن كثير<sup>(١٦)</sup> . ولكن امتد طموح آدم الى ما وراء ذلك : الملائكية والخلود ،  
فوق ما كرمه الله به من العلم .

فحياة آدم في الجنة كانت مدرسة ومرحلة تجارب . اما الخلافة عن الله فهي في الارض .  
« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ( البقرة : ٣٠ ) .  
التدريب هناك . والعمل هنا . والحساب هنا وهناك . وثمرة العمل يبدو بعضها في الدنيا ، وبعضها  
في الآخرة .

« من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا  
يعملون » ( النحل : ٩٧ ) .  
ويأتي الانسان الى هذه الدنيا بصحيفة بيضاء ليست فيها خطيئة سابقة . فتوبة الله على آدم سبقت .  
وكلمات الله تهديه الطريق . لا لعنة . لا عقوبة . لا عداوة بين الرجل والمرأة . ولا بين الانسان  
والارض . ولا بين الانسان والحيوان . وهذه الصورة القرآنية تحالف عما يصوره الاصحاب الثالث من  
سفر التكوين .

### الانسان والارض :

والانسان ابن هذه الارض :  
« والله انبتكم من الارض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الارض  
بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ( نوح ١٧ - ٢٠ ) .  
ويدعون الله الى السير فيها :  
« هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور » ( الملك :  
١٥ ) .

### تتابع الرسل :

ويأتي الرسول بعد الرسول . وكل واحد منهم يقاوم فسادا في المجتمع . ويحاول ان يعيد الناس الى  
التوحيد والاستقامة . والقرآن يعتبرهم جميعا نسقا واحدا مهما تباعدت بينهم الاماكن والازمان . يقول الله  
تعالى بعد ان قص علينا من أنباء الرسل ، من ابراهيم الى عيسى :

(١٦) تفسير ابن كثير : ٤ : ١٢٠ ط . الاندلس - بيروت .

« ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون . وتقطعوا امرهم بينهم كل بينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له لكاثبون » ( الانبياء ٩٢ - ٩٣ ) .  
ويأتي ختام سورة الانبياء وصفا لمشاهده الآخرة والجزاء ، مطابقا لأوائلها « اقترب للناس حسابهم » ثم اشارة الى بدء الخلق ، وآيات الله الداعية الى الايمان ، وعمران الحياة بالعمل الصالح .

فقصص الانبياء - بكل اجمال - تصوير متكامل لبناء الحياة : توحيداً لله ونبذا لعبادة الاصنام والشهوات ، وعدلا بين الناس ، واجتنابا للظلم ، وصبرا كريما على الاذى ، وعونا للضعيف ، وشجاعة في كلمة الحق . .

#### خاتم النبیین :

وإذا كانت حياة كل نبي قد تميزت بميزة او عدد من المميزات التي برزت اكثر من غيرها ، كالصبر عند ايوب ، وقوة الحجة عند شعيب ، ومقاومة الكفر والظلم بالحلم والكلمة الطيبة والمعجزة عند عيسى . فان حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام جاءت جامعة لجوانب الجهاد باوسع مدلولاته : بالقلب واللسان واليد وتكوين الفرد والمجتمع والدولة ، والدفاع عنها داخليا ضد المؤامرات والنفاق ، وخارجيا بالنشاط السياسي والعسكري ، مع العناية بالبناء الاخلاقي والاجتماعي والاقتصادي . جاءت هذه الحياة تجمع ما في حياة الانبياء السابقين ، كما يقول مولانا سليمان الندوي ، لتكون حياة النبي الخاتم (١٧) .

#### عصمة الانبياء وبشريتهم :

ويدور قصص الانبياء في القرآن في اطار من العصمة التي يتمثل فيها جانبان : بشرية الرسول واتباعه لأوامر الله :

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى اليّ انما الحكم لاله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » ( الكهف : ١١٠ )

ويؤكد القرآن بشرية الرسل في اكثر من موضع من كتابه :

« وما ارسلنا من قبلك الا انهم لياكلون الطعام ويمشون في الأسواق » ( الفرقان : ٢٠ )  
ويصدق عليهم قانون الموت والحياة :

« انك ميت وانهم ميتون » ( الزمر : ٣٠ )

(١٧) سليمان الندوي : الرسالة المحمدية : وهي لماني غاضرات في السيرة النبوية ورسالة الاسلام . الطبع في مدراس بالهند ١٣٤٤ هـ / من ص ١٣٧ - ١٣٨ . ص ١٤٤ - ١٥١ تحت عنوان : ما اهل الله لرسول جميعا متفرقين قد اوتيه محمد ( ﷺ ) وحده ، مغررات بين النبي ( ﷺ ) واخوانه الانبياء . مدرسة محمد ( ﷺ ) كانت جامعة للطوائف وجامعة الامم . مكتبة الفتية . مشن . ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .



وقوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » (آل عمران : ١٤٤) .

وهم جميعا عباد الله ، خلقهم من تراب :  
« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران : ٥٩)

### والله اصطفاهم :

« ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض . والله سميع عليم » (آل عمران : ٣٣ - ٣٤) .  
وفي اطار هذه العصمة النبوية البشرية ، تتحرك احداث قصص الانبياء في القرآن .  
وفي هذا تحالف عن جانب مما نسبته اسفار العهد القديم الى الانبياء ، ومن نماذج ذلك قصص لوط وداود وسليمان ، وما فيها من امور تتعلق بالسلوك الشخصي والاخلاقي وحرمة الجار والرضا بعبادة الاوثان في بيوت الانبياء<sup>(١٨)</sup> .

### الابطال المجهولون :

وبما نفرد به القرآن عنايته بالابطال المجهولين في التاريخ . ولك ان تعود الى تاريخ الطبري « تاريخ الرسل والملوك » ، والى اسفار الملوك والقضاة في العهد القديم ، والى قصص الابطال في الملاحم القديمة .  
ويخصص القرآن لبعض الابطال المجهولين عددا من الآيات ، وتفاصيل من الحوار واشادة بالمواقف ، ويسلط عليهم من الاضواء اكثر مما يسقط على بعض الانبياء .

وقد حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصي اخبار هؤلاء الابطال المجهولين : اين عاشوا ؟ اسمائهم ؟ ومن كانوا على عهده من الملوك ؟ وانتهت الاجتهادات ببعضهم الى آراء ، كما في دراسة مولانا ابو الكلام ازاد عن ذى القرنين<sup>(١٩)</sup> . وقد جاءت في سورة الكهف . وكذلك الدراسات المتعلقة

(١٨) انظر : د . بطرس حيد الملك وأغرون : قالوس الكتاب المقدس . بيروت ١٩٦٤ ( ويصوب على خطايا داود بقوله : ومع ان داود ارتكب في بعض الاحيان خطايا ينبغي لها الجحيم عيالا ، الا اننا اذا نظرنا الى نسبة التصرف الراسي الضميلة التي كانت سائدة في ذلك العصر لرأينا في هذا شيئا ما يختلف فيه الى حد ما ) ص ٣٩٦ . ومن ذلك غيبته في حق اوريا الحثي ( ١ ملوك ١ : ٥٠ ) وخطيئة لوط ( تكويز ١٩ : ٣٨ - ٣٩ ) ومع انها جاءت صريحة في سفر التكوين الا ان قالوس الكتاب المقدس عندما عرضها قال : وتحت تأثير المسكر ارتكب لوط خطيئة الزنى مع من حرم عليه الزواج مدين ١ ص ٨٢٢ واستمع الكاتب ان يذكر النص صريحا . اما القرآن الكريم فيجعل عصمة الانبياء وطهرهم والايمان بهم جزءا من العقيدة . ولا نفرد بين احد من رسله ( البقرة : ٢٨٥ ) .

(١٩) مولانا ابو الكلام ازاد : شخصية ذي القرنين ، المذكورة في القرآن . مجلة ثقافة الحفد ص ٢٢ . سبتمبر ١٩٥٠ . دهي الجديدة الهند .

باصحاب الكهف ، ولا زالت هذه القصة مصدر الهام لكثير من الكتاب شرقا وغربا<sup>(٢٠)</sup> ولكن الذى يعيننا من هذا كله ، ونود ان نقف عنده ، ان القرآن الكريم تجاوز في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر التحديد من الاساءه والاماكن والازمنة ، وان تبين هذا التجاوز من قصة الى اخرى . واكثر نماذج الابطال المجهولين تفصيلا في القرآن هي « مؤمن آل فرعون » .

وتبدأ قصته من قوله تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتفقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وان يك كاذبا فعليه كذبه . وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » ( غافر : ٢٨ ) .

الى قوله تعالى :

« فتستذكرون ما اقول لكم . وافوض امرى الى الله . ان الله بصير بالعباد . فوقاء الله سيئات ما مكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب » ( ٤٤ - ٤٦ )

ثم يذكر ربنا بعد ختام القصة ومشاهد القيامة ، قاعدة وثيقة الصلة بكل داع الى الله :

« أنا لننصر رسلانا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم . ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » ( ٥١ - ٥٢ ) .

والقصة مما تفرد به القرآن . وهي درس في الدفاع عن الحق والدعوة اليه . لجأ فيها المؤمن الى تذكير قومه بالآخرة ، ثم ذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، وربط جحودهم بما حدث من آباؤهم بعد وفاة يوسف « حتى اذا هلك قتلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون وهو يأمر وزيره هامان ان يبني له صرحا يبلغ به اسباب السماوات ليطلع الى اله موسى . ثم دعا قوم فرعون الى اتباع

(٢٠) تراجع التعليقات والشرح على قصة اهل الكهف وفي القرنين في الترجمة الانجليزية لمعالي القرآن والشرح التاريخية والجغرافية لي :

MAULANA ABDUL MAJID DARYABADI:

THE HOLY QURAN, VOL.1 PP. 276—286.

TAG COMPANY. KARACHI, PAKISTAN, 1971

وهو يذكر المراجع التي استند اليها في ترجيح وجهة نظره في الاختصاص والاماكن والنظر ايضا وجهة نظر اخرى ي : -

- وفيق وفا الدخاني : اكتشاف اهل الكهف ، منشورات مؤسسة المعارف . بيروت ١٩٦٤ . ويذهب الى انه الكهف القريب من هضاب حاصمة الاردن ، مع مناقشة الرأي القائل بأن قرب الدرس في آسيا الصغرى ( عهد المجدد الدار يابادي (١٩٧٠) المرجع السابق ٢٧٦:١ ) وان كان القرآن يوجه عنايته اساسا الى العبارة الاخلاقية من القصة دون تحديد الاختصاص ، الا حيث تقضي العبارة ذكرهم .

الحق . وصرح الرجل بإيمانه بعد ان كان يكتمه ، وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا . ونجى الله المؤمنين وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

ونقرأ في سورة يس قصة مؤمن دافع عن رسل عيسى الى مدينته :  
« وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون ( يمت : ٢٠ - ٢١ )

وفي سورة الكهف اكثر من قصة : اصحاب الكهف . قصة صاحب الجنتين الذى اغتربا عنده ، ويأتى صاحبه المؤمن يبصره بالرشد ويحذره مغبة الجحود ، وقصة العبد الصالح الذى تعلم منه موسى . ثم اخيرا قصة ذى القرنين .

ومع ان المدار الرئيسى لهذه القصص جميعا هو الايمان بالله تعالى ، الا ان مناشط هؤلاء الابطال في المجتمع متنوعة ، وتمثل الحرف الرئيسية زراعة وصناعة وتشيدا .

وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في نصره الحق . يقول الله تعالى :  
« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » ( الاحزاب : ٢٣ ) .

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم :  
« فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلى وقاتلوا وقُتِلُوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب » ( آل عمران : ١٩٥ ) .

والآيات دعوة الى متابعة المسيرة في بناء الحياة على الخير وعمرانها بالعمل الصالح وهي تنير السبيل امام بطولات جديدة دون ان تقصرها على مواقع محددة من المجتمع .

وصفة القول ان البطولة في القرآن لا تقتصر على الانبياء ، وان كان لهم فيه النصيب الأوفى ، ولا تقف كثيرا عند الملوك ، وانما تمتد مظلتها لتشمل الابطال المجهولين والجموع المؤمنة .

واذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الانسانية ، وفيها الكثير من البطولات المجهولة . فان قطاعات التاريخ التى عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعا وتنسج له .



## القسم الثاني

### مناهج التفسير

#### بين التسجيل والتفسير :

يبدو التأثر بالقرآن الكريم في مناهج كبار مؤرخي الاسلام . وسأذكر نموذجين أساسيين :

الاول : الطبري ( ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ) في كتابه « تاريخ الرسل والملوك » .

والثاني : ابن خلدون ( ٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ) في مقدمة تاريخه .

وكانت عناية الطبري موجهة اساسا الى تسجيل الوقائع التاريخية ، ونسبة كل رواية الى صاحبها . فتاريخ الطبري « كتاب رواية » يقول في مقدمته :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه ، مما شرطت اني راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه ، والآثار التي انا مسندها الى رواياتها فيه ، دون ما ادرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه ، اذ كان العلم بما كان من اخبار الماضين ، وما هو كائن من انباء الحادئين ، غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم ، الا باخبار المخرجين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه اويستشنع سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجها من الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقله الينا ، وأنا انما ادينا ذلك على نحو ما أدى الينا » (٢١)

ويستوقفنا من هذا النص كيف كرر فيه الطبري اقتصاره على المروي ، « دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس » ، وان جهده كان التحري في امانة النقل وهي مسؤوليته . اما المتن نفسه ومضمون الخبر فعهدهته على ناقله اليه ، وان كان فيه ما يستنكره القارئ .

اما ابن خلدون فكان له موقف ايجابي في نقد المتن ، ثم خطوة اوسع في قراءة التاريخ . ولندكر ان ابن خلدون عاش في القرن الثامن الهجري ومطلع التاسع ، بينما كانت حياة الطبري في القرن الثالث ومطلع الرابع ، وان ابن خلدون عاش التاريخ دراسة وممارسة ، واحتك بالحكم ، ودخل معاركه ، في حياة عريضة ، جعلت له موقف الناقد لما يقرأ ، والمحاول الوصول الى قواعد العمران البشري فيما مارس وما قرأ ، وان ظل كتاب الطبري المورد الاساسي لكل مؤرخ فهو « اوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب ،

(٢١) ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١ : ٧ - ٨ ط المعارف ، القاهرة .

اقامه على منهج مرسوم ، وسافه في طريق استقراي شامل : بلغت فيه الرواية مبلغا من الثقة والامانة والاتقان . اكمل به ما قام به المؤرخون قبله ، كاليعقوبي ، والبلاذري ، والواقدي ، وابن سعد ، ومهذ السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون « (٢٢) .

وتعريف ابن خلدون للتاريخ يحدد موقفه منه :

« فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والاحيال ، وتشداليه الركائب والرحال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الأول . ويؤدي الينا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الاحوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبداها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق » (٢٣) .

فمنهج ابن خلدون : معرفة الاخبار وتحقيقها وتعليلها . وهو يدافع عن اضافة التحقيق الى معرفة الاخبار فيقول :

« ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها . وخططها المتطفلون بدسائس من الباطل وهما فيها او ابتدعوها ، واقتنى تلك الآثار الكثير من بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحداث ولا دفعوها . . فالتحقيق قليل » (٢٤) .

ويمثل ابن خلدون بهذا مرحلة جديدة ، لا تقف عند ابعاد مرحلة الطبري مع علو شأنه . وهو يذكر هؤلاء الاسلاف بالاسم ويذكر منهجهم ، ثم من جاءوا بعدهم فعنوا بالتواريخ الخاصة ، بعد ان كانت عناية الاسلاف بالتواريخ العامة . ومن بعد هؤلاء جاء عصر التقليد . ودعا هذا الى ان يضع كتابه :

« فانشأت في التاريخ كتابا ، رفعت به عن احوال من الاجيال حجابا ، وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا بابا ، وابديت فيه لأولية الدول والعمران عللا واسبابا ، وبنيت على اخبار الأمم الذين عمروا المغرب . . وهم العرب والبربر . . فهذب مناهج . . وسلكت في ترتيبه وتبويه مسلكا غربيا . . وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني في العوارض الذاتية ، ما يتمتعك بعلم الكوائن واسبابها » (٢٥) .

وتبدو عبقريه ابن خلدون في دراسته الاجتماع الانساني وشئون العمران ، وهي البحوث التي يطلق عليها الآن اسم « علم الاجتماع » . وقد وقف على هذه البحوث مقدمة مؤلفه في التاريخ . وإلى هذه

(٢٢) نفس المرجع : من مقدمة محمد ابو الفضل ابراهيم لتحقيق تاريخ الطبري ٢١:١ .

(٢٣) مقدمة ابن خلدون بتحقيق علي عبد الواحد والي ٢٠٩:١ ط . البيان العربي . القاهرة ١٩٥٧ .

(٢٤) نفس المكان .

(٢٥) نفس المرجع ٢١٢:١ .

الناحية ترجع أهم أسباب شهرته وتجليد اسمه بين قادة الفكر في العالم ، فقد تمخضت بحوثه هذه عن علم جديد لم يسبق إليه . (٢٦)

عندنا - اذن - داهرتان اساسيتان متداخلتان يتحرك فيهما المؤرخون المسلمون :

أولا : الخبر واختباره وتحقيقه .

ثانيا : التفسير والربط ومحاولة استخراج القوانين

ولا تكاد تخرج حركة المؤرخين عنها . فلننظر الى مراكز هاتين الدائرتين في القرآن الكريم ، ونرى كيف تحرك مؤرخونا من المراكز على خطوط تأخذ في الطول ، وتنتسج - مع طولها - محيطات دوائر العمل ، وان ظلت امينة الارتباط بمراكز الدوائر .



#### أولا - الخبر واختباره وتحقيقه

تعبير القرآن عن التاريخ : اكثر من تعبير يستخدمه الاقرآن للخبر : القصص . الانباء . البلاغ . الذكر . الحديث . وقد يأتي التعبير مجردا او موصوفا .

« نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن » . ( يوسف : ٣ )

« وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » . ( هود : ٢٠ )

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولو الألباب » ( ابراهيم : ٥٢ )

« وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . ( الزخرف : ٤٤ )

« واذكر اخا عاد انذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . ( الاحقاف : ٢١ )

« الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم ولقوهم الى ذكر الله » . ( الزمر : ٢٣ )

على ان هناك صفة حرص القرآن على نفيها عنه ، وهي انه اساطير الاولين . وهي التي حاول مشركو قريش وصف القرآن بها ، وقد وردت فيه تسع مرات ، كلها منسوبة الى الكفار والمشركين . من ذلك قوله تعالى عنهم :

« حتى اذا جاءوا يجدادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين » . ( الانعام : ٢٥ )

بينما ترد اشتقاقاات أخرى من مادة سطر ، مقبولة ، مثل قوله تعالى : « ن . والقلم وما يسطرون » ( القلم : ١ ) « والطور وكتاب مسطور » ( الطور : ١ - ٢ ) و « كان ذلك في الكتاب مسطورا » ( الاسراء : ٥٨ ، الاحزاب : ٦ ) .

والاساطير - لغة - تنصرف الى الابطال والاحاديث العجيبة<sup>(٢٧)</sup> . وبهذا ينفي القرآن عن نفسه ما عرفت به الاساطير من صفات ، مؤكدا انه الحق والصدق :

- « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » . ( الكهف : ١٣ )

ومن هذا « الحق » و « الصدق » في القول ينبع كل صدق في العمل التاريخي ، وأوله صدق الرواية . وتبدو هذه اروع ما تبدو في المحافظة على القرآن ذاته :

فهو « كلام الله » : « وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه » ( التوبة : ٦ )

وهو للناس هدى ونور وحياة :

« وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا هدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم » ( الشورى : ٥٢ )

توقيع خبير النساء : وقصة كتابة القرآن من عهد النبي عليه الصلاة والسلام آية آية ، وترتيبه بأمر الرسول ، كما يأمره الوحي ، وجمعه ، وحفظه مجموعا ، ثم جمع المسلمين على مصحف جامع ، والصحابة الذين قاموا بهذه المسئوليات جميعا ، فردا فردا ، والجهود العلمية التي اتبعوها . كل اولئك يمثل قصة غير مسبوقة ولا ملحوظة في حفظ الكتاب الاكبر لأي دين من الاديان . والقرآن - في الاسلام - هو المصدر الأعلى للتاريخ .

كان الصحابة يسيرون الى هذه الغاية في نور من قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ( الحجر : ٩ ) فكانوا ادوات العناية الالهية في حفظ كتاب الله . ثم هو الكتاب الاكبر لدين ، يستطيع المؤمنون به ، حتى من سن الطفولة وصدر الشباب ، ان يحفظوه جميعا في الصدور .

في القرآن : الكلام وحي ، والترتيب وحي . ولقد كان القرآن ينزل على الرسول مرتبطا بالحوادث وتطور الدعوة . فاذا قام كتاب الوحي بكتابة ما ينزل من القرآن امرهم الرسول قائل : ضعوه بعد آية كذا ، او بعد سورة كذا . ويجدد لهم موضعها .

ولما كان نزول القرآن مستمرا في حياة الرسول ، كان موضع كل آية يتحدد مع نزولها ، دون ارتباط بالترتيب التاريخي او طول السور .<sup>(٢٨)</sup>

(٢٧) لسان العرب : مادة سطر . والاساطير الابطال . يقال : سطر فلان على فلان اذا زخرف له الاقوال ونقها .

(٢٨) السيويني : الامعان ١ : ٩٣ .

وينقل « دراز » نصوصاً من أقوال المستشرقين الذين عنوانوا بهذا الأمر :  
 - فعن ( لوبلوا ) في كتاب « القرآن والتوراة العبرية » : « من الذي لم يتمنّ لو أن أحداً من تلاميذ عيسى  
 الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة » . وقوله « أن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني  
 الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر » .

- وعن ( تولدكه ) قوله عن النص القرآني « أنه أحسن صورة من الكمال والمطابقة » . (٢٩)  
 فالمدرسة الأولى في الإسلام وفي تحقيق النص « هي المحافظة على نص القرآن الكريم » . ينطبق هذا  
 على التاريخ كما ينطبق على غيره من العلوم العقلية والعقلية .

توثيق الحديث الشريف : وصاحبت هذا ثم ازدهرت مدرسة المحافظة على حديث النبي عليه الصلاة  
 والسلام وكانت هذه معركة علمية ثانية . معركة بكل معاني الكلمة ، اقتضت ظهور علوم جديدة لم تكن  
 معروفة من قبل ، أبرزها علم الرجال . وهو مجموعة من العلوم انفردت بها الحضارة الإسلامية في توثيق  
 مصادرها ، وافادت منها في معالجة تاريخها وعلومها .

وما من شخص ارتبط بالحديث الشريف - من قريب أو بعيد - إلا تتبع علماء الرجال حياته وثقافته  
 ورحلته : ممن أخذ العلم ؟ وأين ومتى لقي كلاً منهم ؟ مستواه في الحفظ وال ضبط . ثبات هذا المستوى أو  
 اضطرابه . ما سبب الاضطراب : ضعف صحة ؟ ميل إلى فئة أو نحلة ؟ ثم تتبع سلاسل السند التي  
 ينقل عبرها الحديث ، ثم نقدتها ، ونقد المتن نفسه . آفاق من المعرفة تفردت بها الحضارة الإسلامية ،  
 وأعطت تحقيق النص وتوثيقه مكانته في عالم الأخلاق والعلم :

- « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى » ( المائدة : ٨ )  
 ومن دقة علمائنا أن العدالة لا تتوفر إلا باجتماع أمور كثيرة . أما الجرح فيثبت بشيء واحد . أي بقول  
 شخص واحد ، لأن الجرح مقدم على التعديل ، فمن وثقه اشخاص ولكن طعن فيه شخص واحد ، قدم  
 الجرح ( أي الطعن ) على التعديل ( أي على شهادة الأشخاص الذين وثقوا هذا الراوي ) وعليه تستبعد  
 روايته (٣٠) .

وجاءت أعمال مؤرخي الإسلام في ظل هذا الاخلاص بدءاً بمعرفة الخبر وتحقيق النص والأمانة في  
 النقل . يقول عليه الصلاة والسلام :

« نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها . فرب حامل فقه غير فقيه . ورب حامل فقه إلى

(٢٩) محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم . الفصل الثاني : كيف جمع نص التزويل الحكم . ويذكر في هذا الفصل القوال المستشرقين في توثيق القرآن من ٣٩ - ٤٠ ط .  
 دار العلم - الكويت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٣٠) مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع . وبين في الفصل الثالث من ٩٠ - ١٠٢ جهود العلماء في مقاومة حركة الرضع ، والفصل الرابع في شأن هذه الجهود من ١٠٣ -  
 ١٢٣ مع عناية بعلوم الحديث بلخص فيها ما ذكره الامام النووي في كتابه « الطريب » ط . المكتب الاسلامي بدمشق وبيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .



من هو افقه منه . ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، والتصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من وراءهم » ( الشافعي عن ابن مسعود ) ( ٣١ ) .

وكذلك ارتبط حفظ احاديث الرسول بتسجيلها :

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنها قال :

« كنت اكتب كل شيء سمعته من رسول الله ( ﷺ ) فتهتني قريش . وقالوا : تكتب كل شيء ورسول الله ( ﷺ ) بشر يتكلم في الرضا والغضب ؟ فامسكت عن الكتاب حتى ذكرت ذلك لرسول الله ( ﷺ ) . فأومأ باصبعه الى فيه وقال : اكتب . فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه الا حقا » ( اخرجه ابو داود ) ( ٣٢ ) . وعن ابي هريرة ( رض ) قال :

« شكا رجل من الانصار الى رسول الله ( ﷺ ) فقال : يا رسول الله اني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا احفظه . فقال ( ﷺ ) : استعن بيمينك وأومأ الى الخط » ( اخرجه الترمذي ) ( ٣٣ ) .

تحقيق الخبر في تاريخ العقيدة والانبياء : حدد القرآن موقفه من تاريخ العقيدة والانبياء - كما جاء في الكتب او العقائد السابقة - بثلاثة امور :

الاول : تمحرر العقيدة : فهي التوحيد الخالص :

- « الله لا اله الا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس ، وانزل الفرقان » ( آل عمران ٢ - ٣ ) .

وبهذا ينفي القرآن تأليه ، غير الله او بنوته ، سواء كان هذا الغير : وثنا او ظاهرة طبيعية او انسانا .

ثانيا : تبرئة الانبياء والصالحين من تهم باطلة . من ذلك قول الله دفاعا عن طهارة مريم ابنة عمران :

« ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » ( النساء : ١٥٦ ) .

ثالثا : ان القرآن نزل « مهيمنا » على ما جاء في الكتب السابقة : يقول الله تعالى :

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة . ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات . الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » ( المائدة : ٤٨ ) .

والقرآن لا يكتفي بتسجيل الحق فيها يقول ، وانما يلجأ الى البرهان العقلي ، وبرهان الفطرة ، ويدعو الناس الى التأمل فيها يسوقه من الادلة . من ذلك قوله تعالى عن التوحيد وهو يقرره :

( ٣١ ) التبريزي : مشكاة المصابيح ١ : ٧٨ حديث رقم ٢٢٨ . ط . الكتب الاسلامي . دمشق ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

( ٣٢ ) ابن الدبيع الشيباني : تيسير الوصول ٣ : ٢٠٥ ط . الحلبي . القاهرة ١٩٧٠ م .

( ٣٣ ) نفس المكان .

- « ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون . لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ( الانبياء : ٢١ - ٢٢ ) .  
 فتعدد الآلهة يقتضى تعدد الآراء والاحكام ومحاولة بعضهم السيطرة على بعض :  
 - « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . اذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » ( المؤمنون : ٩١ - ٩٢ ) .  
 وهنا نجد ربطاً بين تحقيق الخبر كحقيقة تاريخية ، وإثباته بالدليل العقلي ، وتحريمه من أى تحريف دخل على بساطة العقيدة وسلامتها .

الآفاق المفتوحة وسنن التاريخ : واذا كان الوحي هو المصدر الأعلى للمعرفة حقاً ومنهجاً ، فإن القرآن يدعو الناس الى آفاق مفتوحة بلا حدود - الاحدود قدراتهم - ليكونوا اقدر على القيام بمهمتهم التي رسمها لهم وهي : خلافة الله في ارضه .  
 وهو يدعو الناس الى فتح آفاق النفس والكون والسعي في هذه الارض بحثاً عن حقائق وحضارات سبقت ، ومجالات من العلم تنتظر جهود الانسان .  
 فمعرفة الانسان دائرة او دوائر آخذة في الاتساع ، وسط مجالات لا نعرف لها حدودا ، هي علم الله .  
 وفي هذا نقراً لقوله تعالى :

- « قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » ( الكهف : ١٠٩ ) .  
 والانسان - كل انسان - مدعو بالامر الالهى الاول « اقرأ » وبالدعاء الذي علمه الله رُسوله « وقُل رب زدني علماً » ( طه : ١١٤ ) الى السير في هذه الارض طلباً لمزيد من المعرفة :  
 - « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . ان الله على شيء قدير » ( العنكبوت : ٢٠ )  
 ويقول تعالى :

- « اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . وكانوا اشد منهم قوة . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الارض . انه كان عليهما قديراً » ( فاطر : ٤٤ ) .  
 « وعاقبة الذين من قبلهم » صميم الدراسة التاريخية . و « عاقبة » ربط بين سبب ونتيجة ، لا مجرد رصد لواقع تاريخي .  
 هذه العاقبة تحدث اذا توفرت مقدماتها . وهذا الترابط هو « سنن » او قوانين الحياة . وفي هذا يقول الله :

- « قد خلت من قبلكم سنن ، ففسروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » ( آل عمران : ١٣٧ - ١٣٨ ) .  
فحركة التاريخ بصريح القرآن سنن وقوانين .

**الفطرة والنفس :** ولو تأملنا في قول الله تعالى :  
- « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ( الروم : ٣٠ ) .  
وربطناها بآيات « سنة الله » كقوله تعالى :  
- « سنة من قد أرسلنا قبلك من الرسل ولا تجد لسنة الله تحويلا » ( الاسراء : ٧٧ ) .

- « فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » ( فاطر : ٤٣ ) .  
حين نربط بين هذه الآيات المتعلقة بسنة الله ، وفطرة الله ، وجدنا الفطرة هي السنن الالهية التي تقوم عليها الحياة . والناس هم مادة التاريخ . ونفي التبديل والتحويل يبين قواعد تفسير عليها الحياة . وامام الانسان اختيارات بين هذه السنن ، كقواعد الرياضة ، يختار القاعدة ، فاذا توفرت مقدماتها ، جاءت نتيجتها تابعة لها .

وتصف الآية الكريمة ، الاسلام - دين القرآن - بأنه الفطرة التي فطر الله عليها الناس . وإن السنن التي اوردها الله فيه ، هي الأصلح لمسار الحياة الانسانية ، وبالتالي لتصوير التاريخ . وسنصل الى هذا في الجزء التطبيقي والآخر من هذه الدراسة .

ولكن الذي يعيننا الآن ، ان عرض القرآن للقطاع الانساني التاريخي السابق ، والمعاصر للإسلام ، يقوم على « فطرة » و « سنن » و « قوانين »<sup>(٣٤)</sup> . فالتاريخ في الاسلام ليس تدفقا عشوائيا ولا سلسلة من الأنبيات المتتابعة غير المترابطة .

**سؤال اهل العلم :** ويضيف القرآن الى الوحي والرحلة في الآفاق والتاريخ ، سؤال اهل الذكر ، كمصدر من مصادر المعرفة في عمومها ، والتاريخ جزء منها : يقول تعالى :  
- « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر . وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » ( النحل : ٤٣ - ٤٤ ) .



(٣٤) محمد احمد الغمراوي : الاسلام في عصر العلم ص ١ - ٩ ويدرس في هذا الفصل الاول : الاسلام والفطرة . ط . دار الإنسان . القاهرة . ١٣٣٢ هـ - ١٩٧٣ م .

### ثانياً : نقد الخبر وتعليقه :

خطوة ابن خلدون : في تحقيق متن الخبر تبدو الخطوة التي خطاها ابن خلدون بالتاريخ الاسلامي ، وهو فيها مستند ايضا الى القرآن الكريم ، وفي مقدمته يضرب - اولاً - مثالا من العهد القديم عن عدد الذين كانوا مع موسى في الخروج . . . ولندع ابن خلدون يبين طريقته :

« وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا وسمينا ، لم يعرضوها على اصولها ولا فاسوها على اشياؤها ، فضلوا عن الحق وتاهوا في بياء الوهم والغلط . . وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل ، وان موسى عليه السلام احصاهم في التيه ، بعد ان اجاز من يطبق حمل السبلح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة الف او يزيدون . ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها لمثل هذا العدد من الجيوش . . لكل مملكة من الممالك حصّة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها ، وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة » (٣٥) .

ونقد ابن خلدون هذا الخبر عن طريقة المقارنة بملك الفرس ودولتهم وامتدادها « ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه » (٣٦) . ثم نقدها على اساس من ان العدد لو كان مقبولا لكان حجم الدولة كبيرا « فان العملات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها » (٣٧) . ثم نقدها على اساس من معدلات التكاثر الطبيعية لبني اسرائيل ما بين موسى واسرائيل وهم اربعة آباء ، ويبعد ان ينتشع النسل في اربعة اجيال الى مثل هذا العدد » (٣٨) .

وينتقل بعد هذا الى نقد اخبار عن التبعية ملوك اليمن ، وجيوش المسلمين والنصارى . وينقد ما يتناقله المفسرون في تفسير قوله تعالى « الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد » ( الفجر : ٦-٧ ) فيجعلون لفظ ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد اي اساطين وانها مدينة قصورها من الذهب . . ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزنجشيري .

وينقد ابن خلدون هذه القصة بأن هذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض ، وصحاري عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن ، وما زال عمرانه متعاقبا ، والاذلاء نقص طرده من كل وجه . . وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها اهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها اشبه بالخرافات » (٣٩) .

(٣٥) مقدمة ابن خلدون : ٢٢٠ : ١

(٣٦) نفس المكان .

(٣٧) نفس المرجع ٢٢١ : ١

(٣٨) نفس المكان .

(٣٩) نفس المرجع ٢٢٧ : ١ - ٢٢٨

ثم يحاول بعد هذا ان يعلل ذهاب الاخباريين هذه المذاهب والوقوف على تلك الحكايات التي هي اقرب الى الكذب ، المنقولة في عداد المضحكات ، ثم لا يزيد في القول عن العماد بأنها عماد الاخبية بل الخيام .

ومن تفسير القرآن ينتقل الى نقد الحكايات المدخولة في التاريخ الاسلامي كقصة العباسية اخت الرشيد مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ..

وتستطيع ان تجد سنداً لكل من الطبري وابن خلدون ، او على الاصح ، لكل من المنهجين - من القرآن الكريم .

الجهود الاكبر لمدرسة الطبري تحقيق الرواية . وهذا حق يتقبله ابن خلدون ، ويخطو بعده الى تحقيق الخبر في ذاته ووزنه بميزان العقل على اساس من الدراسة المقارنة - كما رأينا في عدد بني اسرائيل - او من مصادمة الواقع كما في ارم ذات العماد ، او من مصادمتها للأعراف كما في قصة العباسية .

والقرآن يدعونا الى الخطئين معا : تحقيق الرواية ، وتحقيق الموضوع او المتن . يقول تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولاً » (الاسراء : ٣٦) .

ولو كان الامر مقتضراً على « تجميع » المادة العلمية لكان السمع والبصر يكفي ، وهي الابواب الاساسية للاتصال بالعالم الخارجي . ولكن « الفؤاد » هنا يفيد عملاً داخلياً يضم القبول العقلي والنفسى للمادة المجموعة . القبول بعد العرض على اضواء النقد الخارجي والداخلي .

القرآن وتفسير التاريخ : ارتبطت محاولات تفسير التاريخ - اكثر ما ارتبطت - بالتخاذ محور اساسي تقوم عليه نظرية متكاملة . وتعود المحاور - في الاغلب - الى التخصص او الاهتمام الرئيسي لصاحب النظرية .

اقول نظرية : لانها جميعاً تلتقي عند « اختيارات » من التاريخ ، يقيم منها صاحبها هيكلها عقلياً ، يحاول به ان يفسر التاريخ العام . وهو بحر تصب فيه الاحداث جميعاً ، يصفواحياناً ، وتشتد عواصفه وتثور امواجه في حركة لا تتوقف .

واحتلت الصدارة عند اصحاب فلسفة التاريخ عوامل متعددة : البطولة والابطال . العوامل الجغرافية . الابتكار والتقليد . العوامل والانساق الاجتماعية . العوامل الاقتصادية . ودخل عامل

« الحركة » في نظام دوري او متجدد : كما نجد عند ابن خلدون و « شينجلر » و « هيجل » و « كارل ماركس » ثم عند « ارنولد توينبي »<sup>(٤٠)</sup> .

والذين درسوا تفسير التاريخ من الكتاب المسلمين عنوا بالدراسة المقارنة بين بعض هذه النظريات والفلسفات وبين آيات من القرآن الكريم . وامامي عند اعداد هذه الدراسة ثلاثة كتب :

١ - المفهوم القرآني للتاريخ : مظهر الدين صديقي (١٩٦٥) . عني فيه بدراسة القرآن وتغيرات التاريخ ومفاهيم التاريخ في العهد القديم والجديد والقرآن . وتعليقات على ما ذكر القرآن من التاريخ العربي القديم ، والتاريخ اليهودي والمسيحي ، ويختتم الكتاب بدراسة مقارنة عن المفهوم القرآني للتاريخ مقارنا بفلسفات التاريخ الحديثة<sup>(٤١)</sup> .

٢ - تفسير التاريخ : عبد الحميد صديقي (١٩٨٠) . كان الكتاب في صورته الاولى مقالات ، كل منها مستقل بنفسه ، وان جمعتها وجهة نظر واحدة . وتضم بحوث الكتاب : النظرة الاحيائية للتاريخ . فلسفة هيجل للتاريخ . الفكرة المادية عن التاريخ . التفسير الاسلامي للتاريخ . الخاتمة<sup>(٤٢)</sup> .

واذا كان الكتاب الاول قد عني بالتتابع التاريخي وانتهى بالفلسفات المعاصرة ، فان الثاني عرض اهم الاتجاهات المعاصرة لنتيجه الى التفسير الاسلامي للتاريخ كما يتصوره .

٣ - التفسير الاسلامي للتاريخ : عماد الدين خليل (١٩٧٨) . وفصول الكتاب بعد المقدمة : التفسير الوضعية الاساسية : عرض ونقد . الواقعة التاريخية . المسألة الحضارية . سقوط الدول والحضارات :

وفي التفسير الوضعية عرض التفسير المشالي عند « هيجل » ، والمادي عند « ماركس » و « انجلز » ، والحضاري عند « توينبي » ( التحدي والاستجابة ) والذين نقدوا « توينبي » مثل « سوروكن » . وفي

(٤٠) تراجع في الدراسة المقارنة هذه العوامل : الفصل خمسة الاولى من الجزء الاول من قصة الحضارة لـ ( ويل ديورانت ) ولها بدرس (١) احوال الحضارة (٢) والعوامل الاقتصادية (٣) والسياسية (٤) والاعلامية (٥) والعقلية .

WILL DURANDT: THE STORY OF CIVILISATION., PART 1  
OUR ORIENTAL HERITAGE, CHAP. 1— 5 PPI — 89  
SIMON & SCHUSTER, NEW YORK, 1954.

وللكتاب ترجمة عربية تولىها الادارة الثقافية بلجنة الدول العربية بالقاهرة .

(٤١)

MAZHERUDDIN SIDDIQI: THE QURANIC CONCENT OF HISTORY

مظهر الدين صديقي : القوم القرآني للتاريخ .

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, PAKISTAN.  
DISTRIBUTED BY OXFORD UNIV. PRESS, 1965.

(٤٢) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ . ترجمة نظام الجوادى دار القلم - الكويت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

الواقعة التاريخية درس مساحتها ومداه الزماني والمكاني ، والفعل الالهي المباشر وغير المباشر ، وفي المسألة الحضرية درس التركيب الثنائي في الكون ( الصراع . التناقض . التقابل . الخير والشر ) وفي الفصل الاخير عن سقوط الدول والحضارات ، درس مظاهر وآثار الاختلال السياسي والاداري والاقتصادي ، وان الاسلام يقيم الحياة على التوازن<sup>(٤٣)</sup> .

وسبقت هذه المجموعة من الكتب دراسات عنيت - في بعض فصولها - في جمع وتحقيق المعلومات : ومن أبرزها « مصطلح التاريخ » لأسدرستم<sup>(٤٤)</sup> . و « منهج البحث التاريخي » لحسن عثمان<sup>(٤٥)</sup> .

وأعود فأقول : انني لا احاول صياغة نظرية شاملة اسلامية او قرآنية في تفسير التاريخ ، وافضل ان اقول مع مظهر الدين صديقي : ان القرآن لا يقدم لنا فلسفة كاملة الصياغة ، ولكن به معطيات محددة ، بغيرها لا نستطيع ان نتصور التاريخ في وضوح .

هذا الى ان المفهوم الحديث لفلسفة التاريخ ، يقضي ان التاريخ تحكمه قوانين نوعية تخضع لها كل المجتمعات على سواء . وهي نقطة خلافية . بعض الكتاب يشك في امر هذه القوانين ، وفي قضية التكرار في التاريخ . . .<sup>(٤٦)</sup> ولكننا هنا لسنا بصدد عرض هذه الاتجاهات ، وانما نحاول ان نفهم ما في القرآن من امر « الفطرة » و « السنن » بمفهومها القرآني دراسة وتطبيقا .

ولقد ادرك الصحابة - من اول الامر - الترابط الوثيق بين الفكرة والعمل ، او بين دراسة التاريخ وصناعة التاريخ ، وكان القرآن هو الكتاب الذي ينفذ المؤمنون آياته وهو يتزل . واستطاعوا ان يكونوا جاعته في مكة ، ثم مجتمعه ودولته في المدينة ، قبل ان يكتمل نزوله . وكانت حياة المسلمين تصورا حيا لما يصنعه القرآن في نفوسهم .

عن ابن مسعود ، قال :

كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن<sup>(٤٧)</sup> .



(٤٣) حماد الدين خليل - التفسير الاسلامي للتاريخ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٨م  
(٤٤) اسدرستم : مصطلح التاريخ . المكتبة العصرية . صيدا وبيروت ١٩٥٥م . ( وهي له بقية الاصول ونجوى الحقائق التاريخية وايضاها وعرضها وما يقابل ذلك في علم الحديث ) .

(٤٥) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ط . الثالثة منقحة دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ . وله عناية ايضا بتأريج المسلمين في التحقيق .

(٤٦) مظهر الدين صديقي (١٩٦٥) ص ١٩٩ .

(٤٧) تفسير الطبري ١ : ٣٥٥ ط الحلبي

## القسم الثالث

### صناعة التاريخ

أقصد بصناعة التاريخ تطبيقه ، وذلك بالاستفادة من أوامر الله ونواهيه وسنته التي دعا الناس الى الاعتبار بها ، وصياغتها حياة جديدة .

التوحيد والوحدة : واول ما دعا القرآن الناس اليه : توحيد الله والاخاء الانساني في ظل المودة دون استعلاء عنصره او طبقي ، والعمل الصالح في هذه الحياة ، والايمان بالجزاء . وان هذا ما جاء به الانبياء من قبل . فدين الله واحد . والاسلام - بمفهومه الشامل - يضم الديانات والانبياء جميعا . - ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ( سورة الانبياء : ٩٢ ) .

ولكن هناك مبانة واضحة بين الاسلام وما سبقه من الانبياء في اثبات النبوة :

طبيعة معجزة القرآن : ولقد وضع النبي صل الله عليه وسلم هذه المفارقة في حديثه الشريف : « ما من الانبياء من نبي الا قد اعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وانما كان الذي اوتيت وحيا اوحى الله الي ، فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » ( رواه مسلم عن ابي هريرة ) (٤٨) .

فالقرآن - من هذه الزاوية ، مفارقة لمعجزات الانبياء السابقين جميعا . والاعجاز فيه ، بآية واحدة او عشر آيات اوبه جميعا . وهو في نفس الوقت - مفارق لكلام البشر . ولم يؤثر عن فصحاء العرب - مع علو مكانتهم وكبريائهم وشدة التنافس بينهم - ان حاول احدهم معارضة القرآن الكريم ، رغم انهم شنوا الحروب على قاعدة الاسلام . ادعوا انه سحر يؤثر ( المحدث : ٢٤ ) وقالوا : اساطير الاولين ، اكتتبها فهي تملي عليه بكرة واصبلا ( الفرقان : ٥ ) دون ان يقوم منهم من يقول : هذا قولي اعارض به القرآن .

ولقد ذهبت معجزات الانبياء الاخرى وطواها التاريخ : عصا موسى . ناقة صالح . حمار العزير . البحر الذي انشق امام موسى . النار التي همدت عند لقاء ابراهيم فيها . طوفان نوح . . واصاب الكتب

(٤٨) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري . حديث رقم ١٩ ص ١٣ . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . ط . وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية . الكويت . ١٣٨٨ هـ . ١٩٦٩ م .



السابقة ما اصحابها ، وبقي المنسوب الى الانبياء فيها - بشهادة اهلها - اجزاء من كتاب اكبر . فهي كتب تاريخ دين ، او تاريخ انبياء ، وليست النص الذي انزله الله<sup>(٤٩)</sup> .

وانتهى عهد المعجزات الكونية : والحقيقة الكبرى وراء هذا كله ، هو انتهاء عهد المعجزات الكونية . واقرى شاهد على حدوثها ما اثبتته القرآن الكريم من عصمة الانبياء وطهارتهم ، وما اجراه الله على ايديهم من معجزات كانت الوسيلة الى اقناع الاقوام او الاسلوب الذي اخذ الله به الكافرين ، كالحسف والاغراق والصواعق .  
والله تعالى يقول في كتابه :

« وما معنا ان نسل بالآيات الا ان كذب بها الأولون » ( الاسراء : ٦٩ ) .

وعندما تحدى مشركو قريش النبي صلى الله عليه وسلم ان يأتي بالمعجزات الكونية كالانبياء السابقين ، سجل الله هذا الحوار في كتابه :

« وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفتجرا . او تنسف السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة قبيلا . او يكون لك بيت من زخرف ، او ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سيحان ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا » ( الاسراء : ٩٠-٩٣ ) .

واذا كان الله قد ايد رسوله ببعض المعجزات كتكثير الطعام بين يديه - وقد حدث هذا مع انبياء سابقين وجاء فيما حفظته كتبهم - الا ان هذه لم تكن المعجزة الكبرى في الاسلام ، ولم تكن مجال التحدي بين الرسول وقومه .

واذا كان العهد النبوي قد جمع بين المعجزة الاساسية وهي القرآن ، وبعض المعجزات الكونية ، فقد ذهبت هذه المعجزات مع التاريخ ، كما ذهبت معجزات الانبياء السابقين وبقي القرآن وحدة معجزة غير

(٤٩) يقول قاموس الكتاب المقدس (١٩٦٤) من نص الكتاب المقدس :

١ - « الا انه لم يعمل البنا بعد شيء من الصنع الاسلبي التي كتبها هؤلاء الملهمون او كتابهم . وكل ما وصل اليها نسخ مأخوذة من هذا الاصل . ولقد نسخ من خطوط العهد القديم في اللغة العبرية هي التي وجدت في وادي لمران قرب البحر الميت ويرجع تاريخ بعض هذه الخطوط الى القرن الثالث قبل الميلاد . ولقد خطوط من العهد القديم بجملة في اللغة العبرية ترجع الى القرن السادس الميلادي » . ص ٧١٣ .

٢ - « ولقد نسخ بعض اسفار العهد الجديد وجدت مكتوبة على البردي وترجع الى القرنين الثاني والثالث الميلاديين » ، ص ٧٦٤ .

٣ - والنظر ايضا موريس بوكاي (١٩٧٧) في نفس الموضوع :

« كان الكتاب المقدس قبل ان يكون مجموعة اسفار ، تراثا شعبيا لا سنده الا الذاكرة وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه نقل الاكثار . وكان هذا التراث يُمْنى . كان الناس يخفون في جميع المناسبات » ، ص ٢٠ .

٤ - وانظر راحة الله بن خليل المشدائي الكيرلوي : اظهار الحق . تعريف وتحقيق : محمد كمال فراج . توزيع الاحرام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

الفصل الثاني من الباب الثاني من قوله : في بيان ان اهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من كتب العهد المتفق والجديد . ص ٥١ - ٧٩ ثم يدرس الاعتلالات فيها في الفصل الثالث ص ٧٩ - ١٢٢ . وفي الرابع ينقش لفظة الانعام ، وانها مصدر كتابتها جميعا ص ١٦٢ - ١٨٣ .

لهذه ثلاثة مراجع : اولها مسيحي ، والثاني مسيحي اعتنق الاسلام . والثالث مسلم مختص بالدراسات القرآنية .

مسيبقة ولا ملحوفة . معجزة لها صفة الاستمرار ما بقيت الحياة . وبقاء القرآن معجزة ، تسبخ مراحل المعجزات الكونية . ولا يبقى امام المسلم الا ان يعتمد مع ايمانه ، على جهده العلمي وتخطيطه لحاضره ومستقبله .

واصبح على المسلم اذا اراد ان يتبع القرآن ان يعيش بنورين : نور الوحي ونور العلم . والوحي في الاسلام هو المصدر الاعلى للعلم ، وهو الذي يدعو المسلم الى استخدام حواسه وتوسيع آفاق معرفته قياما بمسئولية خلافة الله في ارضه .

ختم النبوة : ويرتبط هذا ايضا بعقيدة ختم النبوة في الاسلام .

فمع انتهاء عهد النبوات ، بقي ان يحسن الناس تنفيذ الخطوط الرئيسية التي ذكرها القرآن ، ليصوغوا بها حياتهم ، ويصنعوا تاريخهم .

### من سنن القرآن في التاريخ :

ويوضح القرآن سنا متوازنة ترابط فيها المقدمات والنتائج . وفي هذا التوضيح تبدو الآفاق التي يعني بها القرآن ، للافادة منها في صناعة التاريخ :

#### (١) الترف وعلاقته بالحكم :

فالقرآن يربط بين الترف في العيش او الحكومة وبين الفساد في الحكم . والربط مستمر في كل الآيات الثمان التي جاء فيها ذكر الترف : وصفا للمترفين او حالة الترف ذاتها وآثارها ، وكيف انها تعقب الضياع في الدنيا وسوء الحساب في الآخرة . يقول تعالى : -

« وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا بما ارسلتم به كافرون » ( سبأ : ٣٤ ) .

ولماذا يغير المترف نظام حياته ؟ وهو يحصل على الكثير ولا يبذل من الجهد الا القليل ؟ وهو ان تولى مسؤولية الحكم فكثيرا ما يعتمد على غيره ، ولا يحسن اختيار معاونيه ، فهو يختارهم على شاكلته . وتنحدر المسؤوليات من يد الى يد ، وتضيع مصالح الناس بين الاستغلال واللامبالاة والاهدار . . . يقول تعالى : -

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفوها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا . وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك عبادة خبيرا بصيرا » ( الاسراء : ١٦ - ١٧ ) .

« اردنا » في هذه الآية ارادة كونية ، هي قانون في الحياة « امرنا » جعلناهم امراء . وفيها قراءة بتشديد الميم : « امرنا » . فاذا استولى المترفون على الحكم في قرية « فسقوا » اي خرجوا عن امر الله . « فحق عليها القول » جائت النتيجة مرتبة على المقدمة « فدمرناها تدميرا » .

والمترفون اعداء اي تطور وتقدم . يكفيهم ما كان عليه الآباء . والاتباع والتقليد اقرب اليهم من الاجتهاد

وتحمل مسئولية الجديد من الآراء والمواقف . ولو كان الجديد عودة الى الفطرة السليمة . والفطرة هي صيغة الله وسنته في خلقه يقول تعالى عن التقليد وعلاقته بالتلف وموقفها من قضية الايمان وعبادة غير الله :- « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم به من علم ان هم الا يخضون . ام آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » ( الزخرف : ٢٠ - ٢٣ ) .

ويصل الحوار الى ذروة يدعوهم فيها الرسول الى اهدى مما وجدوا عليه الآباء . . فلا يكون منهم الا الكفر :

« قال اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : انا بما أرسلتم به كافرون » ( الزخرف : ٢٤ ) .

#### مع ابن خلدون في قيام الدولة ثم حصول الترف :

واذا كان القرآن الكريم قد بين أثر « دفع الله الناس بعضهم ببعض » وأثر الترف . . فلننظر كيف افاد ابن خلدون من هذين الأمرين ، كنموذج للربط بين قواعد العمران كما وصل اليها ، واصولها من كتاب الله .

يقول في « فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك » .

« وذلك لأننا قدما ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه . ثم ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون اقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها وتلتزم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى ، الا وقع الافتراق المفضي الى الاختلاف والتنازع . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » (٥٠) ( البقرة : ٢٥١ ) .

ثم يتابع بعد هذا اتساع هذه العصبية وقوتها حتى تبلغ غايتها من الاستيلاء على الدولة . . ويعقب على هذا بفصل عنوانه : « فصل في ان من عوائق حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم » وكيف يستوى الناس خصب العيش والتأنق فيه ؟ . .

« وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك ، فان عوارض الترف في النعيم كاسرة من سورة العصبية التي بها التغلب . . فقد تبين ان الترف من عوائق الملك . « والله يؤتي ملكه من يشاء » (٥١) ( البقرة : ٢٤٧ ) .

(٥٠) مقدمة ابن خلدون ٢ : ٤٣٩ .

(٥١) نفس المرجع ٢ : ٤٤١ .

ويقول في فصل تال « في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس » .  
 « وإذا تأذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات . . وسلوك طرقها ، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انقاص الى ان يخرج الملك من ايدهم ، ويتبدل بهم سواهم »  
 « وإذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »<sup>(٥٢)</sup> ( الاسراء : ١٦ ) .

ونستطيع ان نتبع غير قليل مما جاء في مقدمة ابن خلدون عن قيام الدول وانقراض الملك ، لنرى كيف يربطه بالقرآن الكريم ، وبمناذج من التاريخ ، ولنبين جذورا من مقدمته ، وان لم تكن « كل » النتائج التي وصل اليها مقبولة ممن جاءوا بعده ، شأن اي جهد بشري . « هذا وكثير من القوانين والافكار التي انتهى اليها ابن خلدون لا تكاد تصدق الا على الامم التي لاحظها ، وهي شعوب العرب والبربر ، والشعوب التي تشبهها في تكوين وشئون الاجتماع . بل لا تصدق على هذه الامم نفسها الا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها ، وهي المرحلة التي شاهدها او انتهى اليه علمها »<sup>(٥٣)</sup> .

ومن هنا نجد اعجاز القرآن في ذكره القواعد والقوانين اجمالا . . على قاعدة اجمال ما يتغير وتفصيل ما لا يتغير<sup>(٥٤)</sup> » ثم من هذه القوانين العامة انطلق الباحثون المسلمون في فلسفة التاريخ ، وكان من اشعاعهم ما اثار الطريق لمن جاءوا بعدهم . .

والذي اود ان اركز عليه القول : كيف ان القرآن دعا - في التاريخ - الى المعرفة والتحقيق والتعليل على مستوى الحدث او الاحداث او المنظور العام للتاريخ ؟ .

## (٢) خطورة سيطرة رأس المال على الحكم :

وهي من القواعد العامة التي يوجه القرآن إلى تأملها ، ويحذرننا من آثارها . بقوله تعالى : « ولا تأكلوا

(٥٢) نفس المرجع ٤٤٦ : ٢ .

(٥٣) مقدمة علي عبد الواحد والى المقدمة ابن خلدون ١٣٤٠ : ١ - ١٣٥ .

وانظر ايضا : محمود اسماعيل : قضايا في التاريخ الاسلامي : منبع وتطبيق ، فصل عنوانه : التفسير الاصنامي للثورات المغاربية في القرن الثاني الهجري . يقول : ومن المفيد ان تشير الى محامل ابن خلدون على الحرب وجزءه للبربر . وفي تاريخه للثورة لا يلتزم كثيرا بأرائه الفلذة التي ضحى مقدمته . ونظرة الشمولية الفلسفية للتاريخ التي تستعصي الاحداث وتكثف من علمها من جميع جوانبها لم يطبقها في نظريته الى الثورة . ص ١٠٣ ط . الثانية ، دار الثقافة الدار البيضاء . المغرب ١٩٨١  
 وانظر ايضا . اسد رستم : مصطلح التاريخ (١٩٥٥) :

« في كلام ابن خلدون ضئف ظاهر . ومصدر الضعف ان طبائع العمران التي ذكرها في مقدمته شيء اقل ما يقال فيه انه غير مستقر او زاهن لما يتعلق من طبائع العمران بالطبيعة ، لقد انطلعت ظواهره وثبتت نواحيه ، ووضح فيه تطبيق نظرية ابن خلدون اما ما يتعلق من طبائع العمران بالبيئة البشرية ، فلما نستطيع قوله . وذلك ان العلماء لم يمتصوا بعد من تعيين نواحيس لعلم الاجتماع ، كما فعلوا في العلوم الطبيعية . ولو فكروا ان تكون نواحيس ثابتة لا تتغير ، بل تقريبا ، ( ص ٧٩ ) .

(٥٤) محمود شلتوت ، الاسلام عقيدة وشرعية : ص ٤٩٧ - ٤٩٨ ط . الثالثة ، دار الفلم القاهرة ١٩٦٦ .

اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » (البقرة : ١٨٨ ) .

وفي الآية توضيح لدورة شريرة للمال : ان يجتمع في ايد محدودة العدد قوة التأثير ، لا تنقي الله في طريق جمع ولا استغلال فقير . وانظر الى الشمول في قوله تعالى « ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل » : ان تكون حركة المال كسبا وانفاقا وتوزيعا على اسس باطلة . . ثم ينتج اصحاب المال بجزء منه الى الحاكم ، يشغلونه به ، ويغذرون حواسه لكيلا يحس بما يعملون . . ثم يعودون على الناس بمزيد من الاستغلال ، يعوضون به ما بذلوا للحاكم ، ويضيفون اليه مكاسب جديدة . . وهذا اثم جديد مضاف الى باطل قديم .

ولك ان تنظر الى هذه القاعدة العامة في ضوء ما ترى من خطورة سيطرة رأس المال ، ومن ضرورة العدل في التوزيع وفتح المجال امام الانتاج الطيب والكسب الحلال .

في ضوء هذه الآية تستطيع ان ترى الزارع الذي ظلمه الاقطاع ، والعامل الذي ذابت حياته في المناجم ، والملاح الذي مزقت شبك الصيد وملح البحر يديه ، ثم عدا التاجر الكبير على صيده . ترى هؤلاء المظلومين عبر التاريخ ، وترى استغلال السادة من رجال المال والاقطاع والسطوة ، وحركة المال في اليد الائمة ، تحرم صاحب الحق وتكثر الذهب والفضة ، الا من رحم ربك ، وقليل ما هم .

ويعطي القرآن امثلة لمن كنز الذهب كقارون وكيف كان مصيره ، ومن حاول حرمان الفقير حقه كأصحاب الجنة في سورة القلم :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين : ان اغدوا على حزنكم ان كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون ان لا يدخلها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون . بل نحن محرومون » ( القلم : ١٩ - ٢٧ ) .

### نموذج من صناعة التاريخ بلا معجزات :

وكانت حياة الرسول تصورا حيا لانتقال التاريخ الانساني من عصور معجزات الانبياء الى عصور جديدة يحمل فيها الانسان مسؤولية عمله ، ويخطط له على هدى وبصيرة ، دون ان ينتظر انغلاق البحر او تفجر الماء من الصخر ، او تحول العصا الى ثعبان .

واعطانا القرآن النماذج التطبيقية للارتباط الوثيق بين الاسباب والنتائج الملموسة ، واقربها ما حدث في غزوة احد عندما خالف الرماة عن امر الرسول عليه الصلاة والسلام وانكشفت ثغرة كان يحميها الرماة . واستطاع خالد بن الوليد ان يستغلها ، فهاجم منها الجيش الاسلامي ، ووقعت في المسلمين مقتلة عظيمة ، استشهد فيها سبعون ، وجرح سبعون ثم تماسك المسلمون بعد الجراح والشهداء . والتفوا

حول الرسول ، ودافعوا عن لوائهم بكل بطولة ، ولم يستطع العدوان يحقق أيًا من هده : اقتحام المدينة او قتل الرسول .

وعندما تساءل بعض الصحابة عن سبب ذلك وكيف استطاعت قريش ان تحقق ما حققت بينها الرسول على رأس الجيش الاسلامي وعليه ينزل القرآن ؟ جاء قول الله تعالى محددًا قوانين النصر والهزيمة .

« اولما اصابكم مصيبة ( أي في احد ) قد اصابتم مثلها ( اي في بدر ) بأن قتلتم سبعين واسرتم سبعين . قلت : اني هذا ؟ قل : هو من عند انفسكم ان الله على كل شيء قدير » ( آل عمران : ١٦٥ ) .

فالنصر صناعة ، والهزيمة صناعة ، ومن الممكن ان ينالكم ما نالكم ولو كان الرسول قائداكم ، مادمتم قد خالفتم عن امره ، ولم تنفذوا الحطة التي وضعها لكم ، واراضيتموها قبل المعركة (٥٥) .

وشيء قريب من هذا حدث في حنين :

« ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . وضاعت عليهم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » ( التوبة : ٢٥ - ٢٦ ) .

وبهذا بين القرآن لسير المعارك قوانين ، كما بين للحياة قوانين . وميزتها انها تجمع بين امرين ، الاول : الربط الطبيعي بين السبب والنتيجة . والثاني : المستوى الاخلاقي الذي يمارس به المسلم عمله ويمارس به المجتمع مسؤولياته .

واذا ما تمسك المسلمون بالقانون الاخلاقي وحده ، دون القانون الطبيعي الذي يربط الاسباب بالنتائج ، او تمسكوا بالقانون الطبيعي واهدروا المستوى الاخلاقي ما كانوا مطبقين القرآن .

وما يريد القرآن ان نصنع التاريخ على اساس من الجمع بين التخطيط العلمي الدقيق ، والمستوى الاخلاقي الكريم معا . .

### تصوير الشاطبي لهذه الصناعة :

ونستطيع ان نستعير تعبير الامام الشاطبي عن مقاصد الشريعة ، لصناعة التاريخ في القرآن . يقول :

(٥٥) عبد العزيز كاتل : دروس في غزوة احد . فصل بعنوان : تحليل قرآني . وفيه دراسة مفصلة للمهجة العلمية في غزوة احد من ١٠٩ - ١٣٤ هـ . ط ٣ ، الثالثة . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩ .

« الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الاوسط الاعدل ، الاخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه . . فان كان التشريع لأجل انحراف المكلف ، او وجود مظنة انحرافه عن الوسط الى احد الطرفين ، كان التشريع رادا الى الوسط الاعدل ، لكن على وجه يميل فيه الى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه »<sup>(٥٦)</sup> .

ويضرب امثلة متعددة لهذا « الطريق الوسط الاعدل » فيقول : « اولاً ترى ان الله تعالى خاطب الناس في ابتداء التكليف خطاب التعريف بما انعم عليهم من الطيبات والمصالح كقوله تعالى : « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فانخرج به من الثمرات رزقا لكم » ( البقرة : ٢٢ ) فلما عاندوا وقابلوا النعم بالكفران . . اقيمت عليهم البراهين القاطعة بصدق ما قيل لهم . . فلما لم يلتفتوا اليها لرغبتهم في العاجلة اخبروا بحقيقتها وانها في الحقيقة كلا شيء ، لأنها زائلة فانية . وضربت لهم الامثال في ذلك كقوله تعالى « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء » ( يونس : ٢٤ ) . وكقوله تعالى : « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » ( الحديد : ٢٠ )<sup>(٥٧)</sup> .

ويذكر الامام الشاطبي بعد هذا نماذج من التوسط بين التشدد في الامتناع عن الطيبات والافراط في التمتع بها . وكذا الامر في الانفاق فهو وسط بين الاسراف والتقتير . ويجمل هذا في قوله :

« فاذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط . وعلى هذا اذا رأيت في النقل عن المعتبرين في الدين من مال عن التوسط . فاعلم ان ذلك مراعاة منه لطرف واقع او متوقع من الجهة الاخرى ، وعليه يجري النظر في الورع والزهد ، واشباههما ، وما قابلهما . والتوسط يعرف بالشرع ، وقد يعرف بالعوائد ، وما يشهد به معظم العقلاء ، كما في الاسراف والاقتار من النفقات »<sup>(٥٨)</sup> .

#### عامل الحركة ومسار التقدم :

ويبدو من تصوير الشاطبي ، كيف ان « الاختيار » ليس امراً ثابتاً ، وإنما هو اختيار متحرك دون افراط ولا تفريط . وهو رغبة في اعادة التوازن لأي انحراف في المجتمع ، وذلك في مجال الضروريات الخمسة التي ذكر انها مقاصد الشريعة وهي : حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال<sup>(٥٩)</sup> .

(٥٦) الشاطبي ( ابو اسحق ) : للوفائات ١٦٣: ٢ وما بعدها . وكتاب الوفاءات قمة شاذلة في اصول التشريع الاسلامي . شرح عبد الله دواز وعبد الله دواز . ط .

التجارية . القاهرة احاديث تصويرية : دار المعرفة . بيروت لبنان ( بدون تاريخ ) .

(٥٧) نفس المرجع : ١٦٣: ٢ - ١٦٤ .

(٥٨) نفس المرجع : ١٦٧: ٢ - ١٦٨ .

(٥٩) نفس المرجع : ١٢: ٨ - ١٢ .

هذا الاختيار والتوازن والتحرك في ضوء الشريعة بين مشكلات الحياة ، من اجل الصعود بها الى مستوى ارفع .

فهناك امران : توازن وصعود ، وهما مظهران لحركة التاريخ . وهي حركة متواصلة هادفة : -  
« هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » ( الفتح : ٣٨ ) ..

فلا مجال للقول بأن مسار التاريخ كما يصوره القرآن مجموعة متتابعة من المواقف أو الآليات غير المترابطة ؛ وإنما ينتظمها هدف كبير يوضحه القرآن .  
كذلك لا مجال للنظرة المشائمة التي تقول بانحدار التاريخ بعد عصر النبوة استنادا الى الحديث الشريف :

- ان خيركم قري ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . وكثيرا ما يتناسون بقية الحديث وهي - ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون . ويوفون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن . ( رواه مسلم عن عمران بن حصين )<sup>(٦٠)</sup> .

فالخيرية في الحديث نوعية تتعلق بالتشريع ، ومستوى المواقف التي استطاع بها الصحابة والتابعون وتابعوهم ، ان يقيموا قواعد هذا الدين ، ويقوموا بأعباء فترة التأسيس الاولى بتضحياتهم ومعاناتهم وهي فترة لا تتكرر . وهناك مقاييس نوعية تبين تقدما في مجالات اخرى متعددة ، من ابرزها : مساحة ارض الاسلام ، وزيادة عدد المسلمين ، وانتشار الحضارة الاسلامية وزيادة دخل الفرد ، ودخل الدولة . وبهذا تنبأت احاديث شريفة مثل قوله عليه الصلاة والسلام :

- « والذي نفسي بيده ليفتحن عليكم فارس والروم . ولتصبن عليكم الدنيا صبا ، وليكثرن عنكم الخبز واللحم » ( رواه الطبراني عن عبد الله بن يسر )<sup>(٦١)</sup> .

يضاف الى هذا ، الامل الفسيح الذي يتمثل في قوله عليه الصلاة والسلام :  
- « مثل امي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره » ( رواه الترمذي عن انس )<sup>(٦٢)</sup> .

فمن الخطأ اخذ حديث واحد دون وضعه في الاطار العام من الاحاديث الاخرى في بابه ، او الاستناد الى نص قرآني دون اخذه في سياق النصوص الاخرى في نفس الموضوع .

(٦٠) مختصر صحيح مسلم للنسائي ص ٢٢٤ ، حديث رقم ١٧٤٣ .

(٦١) المعنى المحدثي : كثر المال ٢٢١ : ٣٠٠ حديث رقم ١٢٣٦ .

(٦٢) مشكلة الضابح للبربري ٢٩٣ : ٣٠٠ حديث رقم ٦٢٧٧ ط . مكتبة التراث الاسلامي / حلب ط . المكتب الاسلامي . دمشق ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .



وإذا رجعنا الى كتاب الموافقات للامام الشاطبي ، وجدنا فيه نماذج للنظر في الآية - تشريعا - في سياق الآيات الاخرى في نفس الموضوع ، وعلاقة ذلك بالظروف التي نزلت فيها الآية أو قيل فيها الحديث . وبهذا تبدو الآيات والاحاديث « سلاسل » متصلة لا احكاما متفرقة . . وتتجمع هذه السلاسل حتى تصل الى الاهداف الخمسة الرئيسية التي اشار اليها في بناء فكري متكامل متناسق .

وما ينطبق على مصادر الشريعة الاساسية من الكتاب والسنة ، ينطبق على اقوال الذين غرضوا بعد هذا مسار التاريخ الاسلامي والعالمي كما تصوره : فاذا وجدنا فيهم من يدعو الى مزيد من الزهد ، كانت دعوته - في الاغلب - وسط ظروف اشتد فيها انغماس الناس في متاع الدنيا . واذا وجدنا دعوة شديدة الى التمسك بالمصادر مع حذر من مصادر معرفة وافدة ، كان هذا نوعا من رد الفعل خوفا على تفكك الوجود الاسلامي ثم انجرافه في تيار الحياة ، كما يجرف السيل حطام قرية دمرها اندفاع تياره . والنموذجان المتقابلان هنا : كتابات الامامين الغزالي وابن تيمية .

ويأتي الخطر في التصور من الآراء الاحادية او المبينة على اختيارات جزئية يحاول بها صاحبها ان يؤكد وجهة نظر محددة في ذهنه من قبل . وفي كتابات بعض الذين عملوا في ميدان الاستشراق نماذج من هذه الاحكام التي بنيت على حقائق جزئية<sup>(١٢)</sup> .



### خاتمة :

يبدو من هذا ، كيف يعني القرآن بعناصر الدراسة التاريخية من الزمان والمكان والاحداث والاشخاص والابطال . ثم يمتدح هذه الدراسة من المعرفة وتحقيق الرواية وتعليقها ، ثم يتخذ من هذا كله ركائز لصناعة تاريخ جديد ، رابطا بين الماضي والحاضر بامتداداتها الموضوعية ، والزمانية والمكانية ، وبين المستقبل ، في هذه الافاق جميعا ، واضعا المسؤولية الاساسية على الانسان في عمله ليتخذ طريقا قائما على الايمان والمعرفة . ولا يحاول القرآن ان يتخذ من الفكر الاحادي سبيلا يغلب به عنصرا من عناصر الحياة ، كالاتقصاد او الصراع الطبقي او التحدي الحضاري ، وانما يزن هذه جميعا في مواقعها ، ويعطي من الامثلة ما يوضح به هذا المنهج ، مع بيان ان النور الاكبر الذي يسير به الفرد والمجتمع من الحياة ، هو ما

(١٢) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ٥٤ - ٦٠ بعنوان مدخل الى دراسة الظاهرة القرآنية . ترجمة عبد الصبور شاهين . ط . دار الفكر بيروت ١٩٦٨  
ونظر : مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع . ط . الثانية (١٩٧٨) ص ٦٠ - ٢٧٧ وفي مناقشة لآراء ( جولد تسيهر ) . واكثر رأيي المستشرق نيرج عندما قابلته في جامعة ايسلا ( السويد ) فكان من قوله و ان جولد تسيهر كان في القرن الماضي ذا شهرة علمية ومرجعا للمستشرقين . اما في هذا العصر بعد انتشار الكتب المطبوعة في بلادكم ، فلم يعد جولد تسيهر مرجعا كما كان في القرن الماضي . لقد مضى عهد جولد تسيهر في رأينا ، ص ١٦ . ويخصص السباعي الفصل السادس من كتابه لوضع السنة مع المستشرقين ، وفيه دراسة مفصلة لآراء جولد تسيهر ونقدها ص ١٨٧ - ٢٣٥ .

يربط الناس بالله ، وما يربطهم بعضهم ببعض ، فاذا الامر توحيد ووحدة ، تراعي فروق الزمان والمكان والبيئة ، دون ان تفقدها هذه الظروف وحدتها الاصلية.

### الاهتداء بالقرآن في كتابة التاريخ :

وكما ان القرآن هو الملهم الاكبر لأي شاعر او ناثر او كاتب بالعربية ، دون ان يحاكيه من يهتدي به ، فكذلك هو في التاريخ : نسيج وحده ينير الطريق للمؤرخين دون ان يكون نموذجاً للمحاكاة في كتابة التاريخ . لا يوصف القرآن الا بأنه « القرآن » بصفاته وآثاره التي ذكرها الله فيه : نور وهدى وتبيان وتفصيل وذكرى وعبرة وتصديق .

نستطيع ان نستهدي به في الافادة من عناصر الزمان والمكان والاحداث والابطال ، والقاء الاضواء على زوايا متعددة من الحدث الواحد او القصة الواحدة . ونستطيع ان نستهدي به في حب المعرفة ، وفي امانة العرض ، والتحقيق الدقيق ، وتفسير التاريخ وصناعة التاريخ ، تماماً كما كان ، ولا يزال ، المحرك الاقوى في آفاق الحضارة الاسلامية جميعا ، دون ان يكون نموذجاً يمتدنى في كتابة اي مرجع في موضوع متخصص من موضوعاتها .



القرآن الكريم تنزيل رب العالمين ، والمعجزة  
الحائلة لرسوله الأمين ، عليه أفضل الصلاة وأزكى  
التسليم . وهو كتاب الاسلام والعربية ، ودستور هذه  
الأمة ، أمة الاسلام ، أمة القرآن . فلا عجب إذن أن  
كان ، وسوف يكون دوماً إن شاء الله ، ملء أفئدة  
المسلمين وعقولهم ، ومناط اهتمام علمائهم وعوامهم على  
السواء ، بل إن أعداءهم حاولوا جاهدين أن ينفذوا  
إلى سره ، فأنهم قد أدركوا أن هذا الكتاب هو الذي  
أخرج المسلمين من الظلمات إلى النور ، وهو الذي  
حررهم ووحدهم ، وأطلق عقولهم من كل قيد ، وفجر  
مكتون طاقاتهم ، فجعلهم - عندما وَعَوْهُ وأتبعوه -  
أئمة وقادة ، وانتقلت اليهم ، بين عشية وضحاها ،  
مشاعل التقدم والحضارة .

وامتثالاً لدعوة القرآن نفسه عكف المسلمون على  
تدبر آياته - « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب  
أقفالها » - ( محمد : ٢٤ ) . وكان من الطبيعي أن  
يتفاوت اجتهاد المسلمين في فهم أي القرآن الكريم  
بتفاوت معارف عصرهم وبتفاوت إدراك  
أشخاصهم ، مع حد أساسي من الفهم الصحيح  
للقرآن الكريم عرفه المسلمون منذ سمعوه ينلى عليهم  
أول مرة ، أدركوه بمفطور حسهم البلاغي اللغوي  
الدقيق وبما تعلموه في مدرسة النبوة الأولى . ( وهذه  
نقطة جوهريّة أسارع باثباتها ، وسأعود إليها فيما  
بعد ) . فبالإضافة إلى علوم الدين وعلوم اللغة ، لجأ  
المفسرون إلى الثقل من أنباء وروايات الأمم التي  
قبلهم ، ومن ثم ما يعرف عموماً بالاسرائ依ليات ، ثم  
اتجهوا إلى الاستعانة ببعض معطيات العلوم المعاصرة  
لهم ، ومن ثم نشأ ما يسمى خطأً أو تحجوراً بالتفسير  
العلمي للقرآن الكريم .

## العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم منهاج وتطبيق

عبد المحافظ حلمي محمد

وقد نشأ من هذا الموقف قضية احتدم فيها الجدل بين السابقين ، ولكن لعلها تفاقمت في هذه الأعوام ، فقد أصبح الجمع بين الدين والقرآن من ناحية ، والعلوم الطبيعية الكونية من ناحية أخرى ، بضاعة مزجاة رائجة على صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، على اختلاف ألوانها ، ومنطلقة من مكبرات أجهزة الاذاعة وبرامج التلفزيون . وكثير مما يكتب أو يقال عن التفسير العصري أو الاعجاز العلمي للقرآن الكريم قد يجلب لب العوام بل بعض المثقفين ، ولكنه في الوقت نفسه يثير حنق المتخصصين ، فسدنة الدين وحجته غاضبون ( انظر ، مثلا : بنت الشاطئ ، ١٩٧٠ ؛ محمد حسين الذهبي ١٩٧٨ ؛ محمد سعيد البوطي ، ١٩٧٩ ) وكذلك رجال العلم ساخطون ( انظر ، مثلا : محمد رضا حرمر ، ١٩٨٠ ) . والناس ، بين افتتان بأقوال « المصريين » وتقدير لموقف المتحفظين ، وقفوا حيارى ، لا يدرون أين جانب الحق وأي الفريقين يتبعون .

ولهذا أجد لزاما عليّ ، قبل أن أعرض بعض الناجز لما تستطيع العلوم البيولوجية أن تسهم به في خدمة فهم القرآن الكريم ، أن أقدم بين يدي القارئ مناقشة هادئة لأهم الحجج التي يسوقها الطرفان المتنازعان بغية إزالة الشبهات ، وتوطئة لرسم منهاج دقيق يجمع بين التحرز الواجب والتفتح النافع .... والله من وراء القصد ، وهو وحده المستعان والمستول أن يعصمنا من الزلل .

### القرآن الكريم يحسم القضية :

ومن بين ما يقول المعارضون إن القرآن الكريم لا شأن له بالعلوم الطبيعية ، وإنما هو كتاب أنزل للناس للارشاد والهداية وبيان التكاليف وأحكام الآخرة . وهذا ، ولا شك ، قول حق ، ولكنه ليس كل الحق . وذلك أن الله قد شأمت حكمته أن يكون إرشاد الناس وهدايتهم بوسائل متنوعة ، وهو سبحانه وتعالى خبير بعباده ، فهو تارة يخاطبهم بما يسر قلوبهم مساً رقيقاً رقيقاً ، وهو تارة أخرى يقرع عقولهم قرعاً قوياً شديداً ، فكان من أبرز ما جلى به أبصارهم وأثار بصائرهم حشده إياهم على التدبر في آيات خلقه . وإلا فقل لي بربك لماذا كان احتفال القرآن الكريم بذكر السموات والأرض ، والشمس والقمر ومنازله ، والمشارق والمغارب ، والبروج والنجوم والكواكب ، والليل والنهار والفجر والغسق ، والظلمات والنور ، والبحار والأنهار والعيون ، والرياح اللواقيح والعقيم ، والسحاب الثقيل والمركوم والمنبسط والبرق والمطر ، والجبال الراسيات والجدد البيض والحمر والغرابيب السود ، والأرض المهادمة والأرض المهتزة الرايبة ، والجنان والنخيل والأعشاب والتين والزيتون ، والطلع والسدر واليقطين ، والنمل والنحل وجناح البعوضة وبيت العنكبوت ، والطير الصافات والابل والحيل والأنعام ، واللبن يخرج من بين الفرث والدم ، والشراب الشافي يخرج من بطون النحل ، وسلوك النحلة سبباً ذلّ لها لها الله ، وخلق الانسان من تراب ومن ماء مهين ، وتطوره في ظلمات الرحم خلقاً من بعد خلق ، وشفتيه ولسانه وسمعه وبصره . وفؤاده ، واخراج الحي من الميت والميت من الحي ..... وهذه كلها أمثلة قليلة بعيدة عن تمام المحصر مما يوجهه

القرآن الكريم إلى أولى الألباب ، الذين يعقلون ويفكرون ويتدبرون ، ناعيا علي غيرهم من ذوي القلوب التي يجرمها ما عليها من أكنة وأقفال من رؤية الحق ونور اليقين .

لا ، بل إن القرآن الكريم ، في وضوح بين ، قد جعل الايمان لحمة في نسيج محكم سداه معارف العلوم الطبيعية الكونية . تأملوا معي قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه فقنا عذاب النار » - آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ . فهكذا حصر ذكر الله بين قوسين يحيطان به من التفكير في بديع خلقه ، وهكذا يسير الأسلوب القرآني في بلاغة معجزة وانتقال سريع من لفت الأنظار إلى آيات الله الكبرى في خلق الكون ، إلى ذكره تعالى في جميع أحوال الذكر ، إلى التفكير والتأمل ، إلى الانتهاء إلى الايمان بالله الخالق الحكيم وباليوم الآخر ، والتوجه إليه سبحانه بالدعاء ، والدعاء مخ العبادة .

معنى « العلم » في القرآن الكريم :

وعلى الرغم من هذا كله تجد من الناس من يقول لك ما للقرآن وعلوم الكون ، ويؤكد لك أنه من المغالطات التي لا تتفكر أن تقول ان مادة « علم » ( التي وردت بمشتقاتها ٨٥٥ مرة في القرآن الكريم ) تنسج لتشمل معارف العلوم الطبيعية بمعناها الحديث ، فهم يضيّقون واسعا « يأبون إلا أن يكون كل علم مشار إليه في القرآن الكريم علما دينيا ، وأن العلماء المذكورين في القرآن الكريم هم علماء الدين وحدهم » .

وشيء يسير من استقراء معاني لفظ العلم في القرآن الكريم كفيل بأن ينير لنا الطريق ، فمتنمنا يخاطب الحق ، جل شأنه ، رسوله صلوات الله عليه ، في سورة البقرة : « .... قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » - ( ١٢٠ ) ، وفي سورة طه : « .... ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقرضي اليك وحيه ، وقل رب زدني علما » - ( ١١٤ ) ، فالعلم هنا هو ولاشك العلم الإلهي اللدني بمعناه الشامل . أما في موضع آخر من سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم » - ( ٣١ ، ٣٢ ) ، فكتب التفسير تقول - من بين ما نقول - إن الله علم آدم « أسماء الأجناس وعرفه منافعها » .... وهذه هي علوم الدنيا . وكذلك عندما يلفت الخالق المبدع أنظارنا إلى بعض أوجه حكمته في خلق القمر : « وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » ( يونس : ٥ ) ، فالعلم هنا بمعنى ما يصله الانسان في حياته ، أي بمعنى كل ما يدركه عن طريق حواسه وفكره .

وانك لو حاولت أن تنتبج الفعل « علم » في القرآن الكريم ، لوجدته منسوباً إلى الله تعالى ، وإلى الناس فرادى وجماعات وبالتعميم والتخصيص وفي أزيئة مختلفة ، وإلى الجنة وإلى النفس .... الخ . وليس هذا على سبيل

الحصر، وإنما للدلالة على اتساع معنى اللفظ، في اللغة وفي استعمال القرآن الكريم، حتى يشمل العلم المنسوب إلى كل هؤلاء الفاعلين المختلفين والمتفاوتين في نوع علمهم ومقداره وقدره. وعلى أية حال، اننا نجد القرآن الكريم يحسم هذه القضية أيضا إذا احتكنا إليه، فهذا ما ارتحمت إليه منذ سنين، بعد حيرة وتردد، عندما تأملت قوله تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور» - (فاطر: ٢٧، ٢٨). فخشية الله هنا إنما أتت بعد ذكر مباحث علوم الجيولوجيا والبيئة والوراثة والنبات والحيوان والأجناس البشرية ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أن معرفة المشتغلين بهذه العلوم لبعض الأسرار المنهولة وراء هذا التنوع الرائع في الخلق، هي التي تبعث في قلوبهم الخشية من بديع السموات والأرض، «إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ....»، كما يقول الامام البيضاوي في تفسيره.

على الرغم من هذا قرأت لعالم فاضل (وهية الزحيلي، ١٩٧٨) يدعو إلى عدم الفصل بين العلوم «المادية» والعلوم الشرعية أو الدينية، ولكنه في معرض دفاعه عن أن علماء الدين هم «العلماء وربة الأنبياء» رفض أن يكون العلماء الذين يخشون الله والمذكورين في سورة فاطرهم «علماء المادية»، وذلك لأن من يخشى الله منهم قلة «ولأن أوصاف العلماء المذكورة في سورة فاطر عقب آية (إنما يخشى الله) لا تنطبق عليهم، فأوصافهم: تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، والافتقار سرا وعلانية» (ص ٢٦)، مشيرا إلى قوله تعالى: «إن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية، يرجون تجارة لن تبور» - (فاطر: ٢٩). ففي سبيل حرمان المؤمنين من علماء الطبيعيات والكونيات قصر الكاتب الفاضل تلك القُرْب والعبادات على العلماء، وكأنها ليست من شأن عامة المؤمنين الصالحين، فضلا عن أن ما جاء في هذه الآية الكريمة جاء بصيغة تقرير خبري جديد تنصده «أن» للتوكيد والابتداء. وجدير بالذكر أن لفظة «علماء» لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين، هذه أحدهما التي نتكلم عنها، والثانية عن علماء بني إسرائيل أي علماء الدين، فكان علماء الشريعة والمؤمنين من علماء الطبيعية قد اقتسما هذا الشرف مناصفة!

#### العلماء يعكفون على خدمة تفسير القرآن في كل زمان:

كان الرسول الأمين، صلوات الله وسلامه عليه، يفسر للمسلمين الأوائل ما غمض عليهم من أي القرآن الكريم، وكذلك فعل الصحابة الأجلاء، رضوان الله عليهم. ولكن سرعان ما دعت الضرورات إلى جمع تدوين الأحاديث الشريفة، ومنها ما كان متعلقا بتفسير القرآن الكريم، ثم دوت كتب للتفسير ثم تشعبت مذاهب

ﷺ لا يسارع بعرض منهكم إلى القول بأننا نحن بقرائنا هذا أن هذه «العلوم» موجودة في القرآن الكريم. وأنه سبق إليها .... الخ، فهذا مالا يقول به عاقل... ولكن التصديق هو أن هذه الاختراعات إلى الآيات في الحق هي موضوع دراسة المشتغلين بتلك العلوم بمسمايتها الاصطلاحية الحديثة.

المفسرين واتجاهاتهم وتنوع مزايهم ، كما هو معروف ( أحمد الشرباصي ، ١٩٦٢ ، مصطفى الطير ، ١٩٧٥ ، منيع عبد الحليم محمود ، ١٩٧٨ ) . واتصال العرب بغيرهم من الأمم ودخول هؤلاء في الاسلام أوجب وضع قواعد مدونة للنحو والصرف والبلاغة والبدع والعروض وفقه اللغة ، وما إليها من فنون العربية وأدائها ، التي كان العرب الخالص يعتمدون فيها على سليقتهم المفطورين عليها . ولكننا نعلم أن عاملاً هاماً آخر قد شجع على نمو هذه العلوم وازدهارها ، ألا وهو دراسة القرآن الكريم وتدوين تفاسير له كما قدمنا ، حتى أن تلك العلوم كانت تسمى « العلوم الخادمة » لعلم التفسير الشريف . وعلم التفسير تاج العلوم ، فاعلم - كما يقول الألوسي في « روح المعاني » - يكون شرف موضوعه وشرف معلومه وغايته وشدة الاحتياج اليه ، وعلم التفسير حائز لجميعها . ويجرد الاطلاع على بعض أمهات كتب التفسير وعلوم القرآن وما كتب عن دلائل اعجازه فيه بيان لأهمية الخدمات التي أدتها تلك العلوم في ذلك المجال الشريف ، ولقدار العناية التي بذلها أولئك العلماء - الأجلاء بأي مقياس قديم أو حديث - للقرآن ولغة القرآن . وهذا العصر الذي نحياء كثيراً ما يوصف بأنه عصر الذرة أو الطاقة الذرية أو البيولوجيا الجزيئية أو الحاسبات الإلكترونية أو بما شئت من منجزات العلم البارزة فيه ، ولكنه عصر العلم على أية حال . واعتقد أنه ينبغي على المتكئين من العلوم الطبيعية أن يتقدموا ليتناولوا شرف الاسهام في خدمة تفسير القرآن الكريم في هذا الزمان ، وانما بضوابط دقيقة ومنهاج قويم .

#### هذه الخدمة ضرورة وفريضة ، ولكنها فرض كفاية :

والقرآن الكريم ، كما قدمنا ، حافل بذكر آيات الله في خلقه متخذاً من التفكير فيها مدخلاً رحيباً الى الايمان بالله ، عن طريق الاستشعار بوحديته سبحانه وبقدرته وبدع صنعته . ويتخذ القرآن الكريم أساليب بلاغية متنوعة في الدعوة الى النظر في آيات الله ، فهو تارة يأمرنا بذلك أمراً : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ... » ( يونس : ١٠١ ) ، « انظروا الى ثمرة اذا أثمر ويتعه ... » ( الأنعام : ٩٩ ) . تارة أخرى يحضنا على ذلك حضاً جيلاً : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . » ( الغاشية : ١٧ - ٢٠ ) ، بينا يأتي هذا في مواضع أخرى بصيغة تقرير قاطع : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ... » ( الأعراف : ١٨٥ ) . وهذه الصيغ كلها من رب العزة تنزل في نفس المؤمن منزلة الأمر ، فالسائلة عنده إذن مسألة فريضة وتكليف .

ولكن من البديهي أن يتفاوت هذا التكليف بالنظر في آيات الله من مؤمن الى مؤمن ، ومن قارئ للقرآن الى قارئ ، إذ أن نظرم هذا يتفاوت بتفاوت استعدادهم ومقدرة ادراكهم وحصيله معارفهم ، فالسموات ، مثلاً ، آيات رائعة معجزة عند الأمي وعند عالم الفلك المتخصص على السواء ، وإن كان العالم أقدر على الاحاطة بجلال الاعجاز في خلقها ، ومن ثم كانت خشيتها العميقة لخالفها . فمن هنا كان النظر الفطري البسيط والنظر

المتأمل المتعق ، وكلاهما مطلوب ومشروع ومفيد . وهذا سر من اسرار بلاغة القرآن ، بيد أن التعق لا يتوفر الا للقادريين عليه ، فهو إذن فرض كفاية عليهم ، كما أنهم مكلفون أيضا بتبصرة غيرهم بعلومهم وما انتهى اليه نظرهم ، فقد أمرنا أن نتعلم ونعلم ونهينا عن كتمان العلم .

وقد اهتمتد الأسبقون الى تفاوت الناس في فهمهم للقرآن ، فمن ذلك مايقبسه الشرباصي عن الراغب الأصفهاني من كتابه « مقدمة التفسير » : « ثم ان القرآن - وان كان في الحقيقة هداية للبرية - فانهم لن يتساواوا في معرفته ، وانما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم ، فالبلاء تعرف من فصاحته ، والفقهاء من أحكامه ، والمتكلمون من براهينه العقلية ، وأهل الآثار من قصصه مايجب له غير المختص بفنه . وقد علم أن الانسان بقدر مايتكسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه ، ... » ( أحمد الشرباصي ، ١٩٦٢ : ٤٠ - ٤١ ) . ولعله من فضول القول أن نقول بعد ماقدمناه ان علماء العلوم الطبيعية ليسوا بدعا بين هؤلاء الذين ذكرهم الأصفهاني .

#### ليس المطلوب « تفسيراً » علمياً أو عصرياً :

وليس هذا الذي نؤيده وندعوا اليه يؤد بنا الى كتابة « تفسير علمي » أو « تفسير عصري » للقرآن الكريم ، وليس بمقصود منه أن نقيم حقائق العلم على التفسير ائحاما ، أو أن نفتعل مناسبات حشرها افتعالا متعلقين بأهداب لفظ ، أو لاوين لمعنى من معاني أي الذكر الحكيم للجمع بينه وبين حقيقة علمية او فرض لم يزل في حاجة الى تحييص ، ولو أدى بنا الحال الى قطع العبارات عن سياقها قطعاً ، أو الى التهمج على الغيبيات فنصورها كما يزينها لنا خيالنا أو هوانا . فهذا كله قد حدث فأثار - بحق - ثائرة الغيورين على كتاب الله ، أحياناً الى درجة التطرف في رفض أي أمر مقبول ومعقول .

ثم إن هذا الذي ندعو إليه ليس من قبيل ما أسماه السابقون « تفسيراً بالرأي » ، واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً ، وانتهى فيه بعضهم الى الاباحة بشروط . فمع أن المسلمين الأوائل كانوا شديدي التحرج في تفسير كتاب الله العزيز بعلم غير مروى أو منقول ، إلا أن الامام ابن جرير الطبري في القرن الرابع الهجري قد نجح ، رغم إقراره بهذه القيود ، « بحلق ومهارة » - كما يقول آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية - في أن يتكلم في تفسيره برأيه في أمور وقدم مؤلفاً فريداً « جمع فيه الرواية والدراية » . ( آدم متز ، ١٩٦٧ : المجلد الأول ٣٦٣ - ٣٦٤ ) . ولكن الذي نعينه هو الاستعانة بالمعارف العلمية المتاحة في عصر المفسر ، من قبيل ما نجده واضعاً في تفسير البيضاوي وابن كثير ( في القرن الثامن الهجري ) - بل عند من سبقها ولاشك - ثم عند الألوسي ( في القرن الثالث الهجري ) ، على سبيل المثال .



### فما المطلوب منا ، إذن ؟ :

فما المطلوب منا إذن ؟ المطلوب عندي هو أننا إذا قرأنا ، مثلاً ، قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت » ، استجبنا إلى هذه الدعوة الربانية بما لا يتنافى الفطرة السليمة أو يعارض تفسيراً تقليدياً ، وأظهرنا ما تزال تكشفه الدراسات الحديثة عن معجزات بيولوجية رائعة في ذلك المخلوق الفريد ، الذي نستطيع أن نثبت أنه خُصَّ بالذكر ، من بين مالا يحصى من مخلوقات الله ، نموذجاً يتدبر في دراسته المتدبرون ، وأنه ليس صحيحاً ما يقوله البعض من أن الأبل ذكرت لمجرد مناسبتها لخطاب البدو والأعراب . فالمعجز حقاً أن هذا صحيح ولكنه ليس الحق كله ، فالجمل - والجمل بالذات - هو الآن نموذج فريد تشير إليه كتب علم الأحياء الحديثة في أوروبا وأمريكا !

ومطلوب أيضاً أنه إذا ذُكر لحم الخنزير بين اللحوم المحرمة ، وجب علينا - بعد الامتنال والطاعة لحكم التحريم - أن نلتفت إلى أن التحريم هنا هو تحريم مُثَلَّل ، وإلى أن لحم الخنزير ينفرد من بين الأنواع الأخرى من اللحوم المذكورة بأنه حرام لذاته ، أي لعله مستقرة فيه أو غالبية اللصوق به ، لا لعله عارضة عليه كما هي الحال في أنواع اللحوم الأخرى المحرمة ، أي أنه ينبغي علينا أن نبحث هذه العلة بحثاً علمياً دقيقاً ، لا أن نردد ما نتناقله بعض التفاسير مما يسهل دحضه وتفنيده .

وينبغي علينا ، أيضاً ، أن نتعمق فهماً قوله تعالى ، في سورة الأنبياء : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، ، فنئين البلاغة الكاملة في استعمال اللفظ « جعلنا من » ونضيف إلى ما هو معروف متناقل ما يزيد تأييداً . وكذلك عن « العظم الحي » و « النار من الشجر الأخضر » في ختم سورة يس ، وخروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي ... الخ . وجدير بنا أن نشرح للناس عظمة القسم بمواقع النجوم ، والاعجاز في تنوع المخلوقات كما ورد في سورة فاطر ، وإبلاج الليل في النهار ، وسبح الأجرام السابوية في أفلاكها ، وكيف يمسك الرحمن الطيور في جو السماء ، وكيف تنفجر الأنهار من الحجارة ، وكيف يكون شرب الميم .... الخ .

ومطلوب منا أيضاً أن نجتهد في تحديد المسميات الواردة في القرآن الكريم ، كحوت يؤنس والسدر واليقطين والطلع والغوم والمن والسلوى ، فضلاً عن أن نزيد الناس معرفة مناسبة ذكر الأعناب والتين والزيتون والرطب ، وكذلك ما جاء في كتب التفسير من الاسماء كشجر المرخ والغفار ، وما إلى ذلك . وتوضيح معاني هذه المفردات خدمة كبرى اجتهد فيها السابقون ، وبذلتها الامم الأخرى لكتبهم . وأذكر أن الاستاذ الدكتور عبد العزيز كامل قد دعا في جامعة الكويت منذ سنوات إلى تصنيف معجم عصري شامل يشمل مفردات من قبيل ما ذكرت ، وكذلك مواقع البلدان واسماء الاشخاص والاقوام السابقين ، وما إلى ذلك مما ذكر في القرآن ( او كتب التفسير ) .

وجميع ما ذكرت ليس فيه تكلف او افتعال او نهجهم بالكلام في تفسير كتاب الله العزيز بغير علم ، وليس فيه

معارضة لتفسير سلفي معتمد برأي عصري مبتدع - وهذا شرط أساسي . بل انني لا ارى مانعا من الاجتهاد في فهم ما لم يستقر عليه رأي المتأولين ، او ما لم ينته فيه العلم الى رأي قاطع ، ما دمنا لا نمس جوهر التفسير او نجمه بأن هذا هو المعنى المقصود ، مسلمين بأن الله اعلم بمراده . فلماذا لا نقدم غاية ما يبلغه اجتهادنا وترتاح اليه نفوسنا وعقولنا في فهمنا كيف كانت السموات والارض رتقا ففتقها الله وما هي الظلمات الثلاث التي يخلق فيها الانسان ؟ وما هو المقصود بالنطفة والعلقة والمضغة والمخلقة وغير المخلقة ؟ ونحو ذلك .

واذا اريد ان تضم هذه « الخدمة العلمية » للتفسير معه في كتاب واحد ، فيمكن ان تنفصل عنه تماما في تعليقات علمية تطبع في هامش مستقل ، وبذلك يترك « التفسير » لأهله ويحافظ على متنه كما يراه العلماء من اصحاب اختصاصه . وهذه التعليقات غالبا ما تكون وجيزة حتى لا تعطل استمرار القراءة . وهذا هو الذي اتبعه المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة عندما اصدر « المنتخب في تفسير القرآن الكريم » . وقد تولت كتابة التعليقات العلمية في لجنة من الخبراء ، شرفت بالعمل فيها اكثر من خمسة عشر عاما قبل ان تنهي اعمالها . ولكن كثيرا ما يستحب ان تتناول هذه التعليقات بشيء من التفصيل ، وهو امر ضروري للايضاح والاقناع ... وهذا يكون من قبيل ما يقدمه هذا العدد من « عالم الفكر » .

#### منهاج وشروط :

ذكرنا فيما تقدم أن تبصرة المسلمين بالنواحي العلمية المتعلقة بحسن الفهم لتفسير القرآن الكريم أمر مرغوب فيه وعلى الأخص في هذا الزمان ، ولكن هذا لا يعني أنه أمر مستباح لكل من اشتهاه ، فقد ذكرنا انه فريضة ولكنه من فروض الكفايات لا يتحمله إلا القادرون على أمانته . ومن هنا وجب وضع منهاج رصين يحدد ينهى الالتزام به ، ووضع شروط ينبغي توفرها فيمن يتعرض للاجتهاد في ذلك المجال .

والتعليق العلمي على تفسير آى الذكر الحكيم أمر يختلف عن مجرد عرض فصول قصيرة أو طويلة من كتب العلوم المبسطة مع استحضار قدرة الخالق سبحانه وتعالى ( وهذا أمر لا غبار عليه ) ، فالتعليق العلمي على التفسير ينبغي أن يكون موجها الى الكلام عن موضوع يحدد مرتبط به ارتباطا وثيقا ، وقد تجدد الى الآية الواحدة مواضع متعددة مما قد يدعو الى تناول كل منها على حدة أولا ثم الالتفات الى المغزى العام من ارتباطها . وهذا التعليق - أو التعليقات - ليس « تفسيرا » للآية الكريمة وإنما هو عون على فهم ذلك التفسير أو اكسابه أبعادا أعمق أو أفاقا أوسع .

والتعليق العلمي على موضع بذاته في تفسير القرآن الجليل لا يعني عزل ذلك الموضوع عن السياق العام الذي ورد فيه هذا الموضوع . وقد يكون هذا السياق العام واسع الحدود ، ولكنه ينبغي أن يكون فائها واضحا في ذهن المعلق . وكذلك على المعلق أن يتبع المواضع الأخرى المشابهة أو المغاربة لما يتعرض له في تعليقه ، فالقاعدة التي

يعرفها طلاب العلوم القرآنية أن القرآن يفسر بعضه بعضا . هذا فضلا عن أن هذا التنبع يجنب المعلق التكرار ويعصمه من الانزلاق في فهم متعارض للأمر الواحد في مواضع مختلفة ، كما أنه من ناحية أخرى قد يظهر سرا من أسرار الفروق البيانية اللطيفة بين تلك المواضع .

والفكرة العلمية التي يعرضها المعلق ينبغي ألا يفهم منها أية معارضة جوهرية للتفسير المتفق عليه للآية الكريمة ، أما إذا كان ثمة وجهات نظر بين أهل الاختصاص في فهم الآية الكريمة فلا بأس من أن يرجع التعليق العلمي واحدا من تلك الآراء . وعدم معارضة التعليق العلمي للتفسير أمر بالغ الأهمية إذ أن عدم الالتزام به كان في معظم الأحوال أخطر منزلق قاد بعض المعلقين إلى الخطأ . وعندني أن الجزم بأن التعليق العلمي الحديث هو الفهم الصحيح لآية قرآنية وأن فهم السابقين لها لم يكن صحيحا هو أول ما يشكك في صحة مناسبة ذلك الفهم « العلمي » لها ، فليس من المقبول أن يظل معنى الآية خافيا لم يتكشف إلا لمفسر عبقري في هذا الزمان ، فهذا لا يتفق مع بلاغة القرآن الكريم الذي أنزل ليفهمه أول من سمعه من العرب ذوي الفطرة السليمة في فهم لغتهم . بل إنه كثيرا ما تعرض لنا في كتاب الله العزيز آيات ليست في حاجة إلى تفسير ، بل إنها تكون بنصها أوضح وأقرب إلى العقل والقلب من أي تفسير لها .

ويجب ما ذكرت يحدد لنا الشروط الواجب توافرها فيمن يتصدى لأداء هذه الخدمة العلمية في فهم تفسير آرى الذكر الحكيم . فأولها بداهة أن يكون متمكنا من علمه الذي يتحدث فيه ( وعدم تحقق هذا الشرط هو آفة كثير من الهواة الذين يمحضون في هذه الأحاديث ) . وثانيها ، وليس بأقل شيئا من سابقه ، أن يكون حسن الالمام بقواعد اللغة العربية ، جيد الفهم للألفاظ التي يتعرض للتعليق عليها ولفقه استعمالها . وهذا أمر أساسي ، وليس أبلغ على هذا من قول الامام مالك ، رضى الله عنه ، الذي نقلته بنت الشاطيء عن الزركشي والسيوطي : « لا أوتئ برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا » ( بنت الشاطيء ، ١٩٧٠ : ٣٤ ) . ( ولكن لا يفوتني أن أنوه هنا بما سبق أن أكدته وهو أن المعلق العلمي ليس ، على أية حال ، « مفسرا » للقرآن ) . وينبغي على ذلك المعلق أيضا أن يكون ملما من علوم القرآن بالمعيار الشروري الذي يمكنه من فهم التفسير .

ومعظم هذه الشروط لا تنصور أن تتوفر عادة في رجال العلوم في هذا الزمان ، ولكن الذي يؤهلهم لبعض مقتضيات تلك الشروط استعداد شخصي خاص يعزوه رجوعهم إلى أمهات كتب التفسير الأصلية رجوع المتعلم المتأنى لا اطلاع القارئ السؤل . فإذا تعذر عليهم هذا كان عليهم أن يسألوا أهل الذكر فيما لا يعلمون ، فهذا أقل مقتضيات التحرز وعدم التورط في الكلام في كتاب الله بغير علم . وقد رأيت أن اجتناع نفر من المهتمين بهذا الأمر في تخصصات علمية متنوعة ومن بينهم فقهاء اللغة وعلماء الدين حدير بأن يحق هذه الشروط عن طريق تكاملهم مجتمعين ، وليس هذا الأمر بمستكثر على هذا الأمر الجليل . ( وهذا من قبيل لجنة « خبراء العلوم » السابقة بالمجلس الأعلى للسنن الإسلامية بالفاهرة التي سبق أن أشرت إليها ، وقد كانت لجنة مستقلة عن لجنة « التفسير » ) .

وأعتقد أن هذا المنهاج فيه من التحرز ما يرضى كل متحفظ غير على كتاب الله العزيز من أن يخوض في تفسيره الحافظون بفكر علم . ولقد أتبع لى غير مرة أن أعرض هذا المنهاج في بعض أحاديثي أمام صفوة من المثقفين فيهم أئمة أجلاء من علماء الدين المتمكنين فأقروني عليه ، بل أيدوني فيه وزادوا قلبي اطمئنانا إليه ( عبد الحافظ حلمي محمد ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ) .

### بعض أخطاء المجتهدين :

وكان من الطبيعي ألا يلتزم المجتهدون دوماً بمثل هذا المنهاج الذي بيناه ، فلم يكن بمستغرب أن يجانب بعضهم الصواب ، وقد يكون من المفيد قبل أن نطبق ذلك المنهاج تطبيقاً إيجابياً ، أن نبين مزاياه بطريقة سلبية ، أي ببيان مغيبة عدم الالتزام به أو ببعض شروطه . فمن ذلك أنه عندما ركب الانسان أول مركب في الفضاء ، خف من يقول لنا إن هذه المركب هي الدابة التي تخرج من الأرض لتكلم الناس ( إشارة إلى الآية ٨٢ من سورة النمل ) ، ثم تبعه من يقولون بل إن هذا هو النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان ( إشارة إلى الآية ٣٣ من سورة الرحمن ) ، وأن هذا السلطان هو سلطان العلم ! وغنى عن البيان أن هذا وذاك مخالفان للعلم وللتفسير والمنطق وسياق القرآن جميعاً ! فالنزول جاء هنا من عدم اللامام بما جاء في كتب التفسير عن هذه الآية الكريمة ، أو حتى من عدم الحس الفطري بالمعنى البلاغي لهذا التحدي الشديد للانسان والجن أن يخرجوا من ملك الله ويفروا من قضائه (والى أين؟) ، هذا فضلاً عن أن العلم لم يزعم على الإطلاق أن تلك « القفزات الفصارية » التي قفزها الانسان خارج نطاق جاذبية الأرض تعتبر خروجاً من أي شيء إلا في ذلك النطاق شديد التواضع أمام ملك الله الذي لا يجد . وكأنني بمن يقول بهذا يعني أن الانسان والجن قد قبلوا التحدي ونجحوا في الانتصار عليه ! وقد بلغ من خلاصة المعنى أن تقبله بعض علماء الشريعة ( صلاح الدين خطاب ، ١٩٧٠ ) ، ولكنني أشهد أنه بالحوار المقتنع قد عدل عن هذا القول كثيرون .

وشبيه بهذا قول القائلين بأن ذكر الذرة وما هو أصغر منها ( إشارة إلى الآية ١٦ من سورة يونس ، ومواقع أخرى ) دليل من القرآن الكريم على أن الذرة - بمعناها الفيزيائي الكيميائي الاصطلاحي الحديث - ليست أصغر الجسيمات في تكوين المادة ، وأن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث في هذا بكذا مئات السنين ( وأعجبوا ) معي الى هذا المحرص الشديد على وضع القرآن الكريم والعلوم الحديثة في سياق ( ) . وهنا أيضاً يتضح أن الفهم الخاطيء لمعاني الألفاظ ( وأبرز معنى للفظ الذرة في اللغة هو الهباءة ) وللمعنى البياني المقصود وهو التصغير والتهمين والتقليل ، كالتقطير والتثير وحبه الحردل والورقة ، في مواضع أخرى . هذا فضلاً عن إدراك أن لفظ الذرة بالمعنى الاصطلاحي الحديث ، لم يدخل اللغة العربية إلا في وقت متأخر وعلى سبيل ترجمة غير حرفية ولا دقيقة ( وإن شاعت وكانت مقبولة لطيفة ) للمصطلح الأجنبي « Atom » ، أي غير المنقسم أو غير القابل للانقسام .

وثمة مثال ثالث لا يقل غرابة وبخافة للحقيقة عن سابقه ، وهو قول من رأوا بأن المقصود من انتقاص الله الأرض من أطرافها ( الرعد : ٤١ ، الأنبياء : ٤٤ ) إشارة الى التخصان البطيء المستمر للمحور الطولي للأرض نتيجة دوراتها كما تدل عليه القياسات العلمية ، وأن هذا أيضا « سبق » و « إعجاز علمي » للقرآن الكريم . والعجيب أن هذا الرأي يتقبله بعض المتحفظين ، مع أنه يخالف تماما للسياق القرآني في الموضوعين ، إذ أنه إشارة الى انتقاص أرض الكفار بما يفتح الله للمؤمنين منها نشرا لدعوة الحق ، وقراءة الآيات السابقة واللاحقة مباشرة / للآيتين المشار إليهما كفيلا بالانقاع لمن يريد أن يقتنع ! هذا فضلا عن أن هذا الرأي مثال لتأويل حديث يحتم أن المعنى الصحيح للآيتين الكريمتين ظل خافيا تماما عن المخاطبين ، بل إنه حتى في هذا الزمان لا تكشف عنه الا البلاغة في شيء . الإشارة الى أمر خافي تماما عن المخاطبين ، بل إنه حتى في هذا الزمان لا تكشف عنه الا القياسات العلمية ، ولا شأن له واضحا في حياة البشر ، وليس فمه عبرة لمن يعتبر .

وأعتقد أن في هذه الأمثلة الثلاثة الغناء عن ذكر كثير غيرها .

ما يقال عن الاعجاز العلمي للقرآن وسبقه للعلم :

وثمة قضية أخرى خطيرة لا بد من إثارتها ، فلقد شاع وذاع بين كثير من مجمعون بين تفسير القرآن الكريم وقضايا العلوم الحديثة مسارعته في كل موضع الى القول بأن القرآن الكريم قد سبق العلم في هذا أذالك من تلك القضايا . وهذا منزلق خطير له محاذيره ، فانه غالبا ما يكون قولنا جزافا غير مستند على أي أساس علمي أو تاريخي . فالأمر الذي يكون موضع التأويل لا يعدو في الغالب أن يكون إشارة لطيفة في القرآن الكريم لظاهرة كونية طبيعية - هذا اذا صح تخرج المؤول معناها - وليس من الصواب في شيء الرج بتلك الاشارة الكريمة الى تحميلها فوق كل ما تحتمله ووضعها موضع التسابق مع أي مبحث علمي مفصل . هذا فضلا عن أن المؤول يستحضر بعض فصول التاريخ العلمي الحديثة ، منذ ما سمي عصر النهضة وما بعده ، غير ملتفت الى أن المعارف البشرية كانت في عهد نزول القرآن متضمنة ما اهدت اليه الأمم الأولى في الحضارات السابقة . والكلام في السبق التاريخي يفتح بابا للجدل ليس من اليسير في كثير من الأحيان الانتباه فيه برأي . ولنتأمل - على سبيل القياس - المعارك الجدلية الكثيرة التي دارت حول تحديد ما حققه المسلمون في إبان نهضتهم الكبرى في عصر حضارتهم الذهبي ، ومحاولة الكافرين رده كله أوجله الى الاغريق .

فإذا جاز ، مثلا ، أن نشرح للناس ما وصل اليه العلم عن القوى التي تجذب الأجرام السماوية بعضها الى بعض ثم تحفظها متتابعة عن بعضها البعض دون أن تتداعى ، وأن نقول إن هذه القوى كأنها المعنية بالعمد التي لا نزاعا في قوله تعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ( الرعد : ٢ ) ، فانه لا يجوز أن نقول إن القرآن الكريم قد سبق الى ذكر قانون الجذب العام في الرياضيات الفلكية النيوتونية . كذلك اذا قرأنا قوله

تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم .. » ( الأنعام : ٣٨ ) جاز لنا أن نفعل : « تنتظم الكائنات الحية في مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية وطبائع معينة . وفي الآيه الكريمة تنبيه الى تباين صور المخلوقات وطرائق معيشتها ، فكما أن الانسان نوع له خصائصه فذلك سائر أنواع الأحياء . هذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمق دراسته نوع منها » ( المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ١٩٧٨ : ص ١٧٨ ) . ولكن لا يجوز أن نعلق قائلين بأن هذا يدل على أن القرآن الكريم قد سبق كارلوس ليننيوس في وضع علم التصنيف . فالآية أولا ليس فيها تصنيف ، لا وفقا لنظام ليننيوس ولا غيره من المصنفين ، ثم إن محاولات التصنيف ضاربة في التاريخ قبل ليننيوس وإن كان هو واضع أسس المنهاج الذي يتبعه البيولوجيون حتى وقتنا الحاضر . ومن قبيل هذا الذي قيل عن سبق القرآن الكريم الى قوانين المجاذبية وعلم التصنيف قيل أيضا عن انشطار الذرة وارتداد الفضاء وقصر المحور القطبي للأرض ، في الأمثلة الثلاثة التي سبق ذكرها ، وفي كثير غيرها مما يضيق المجال عن حصره وذكره . ولكن لعل أعجب ما قرأت هو رأي كاتب فاضل من علماء الدين يقول إن في قوله تعالى « وإذا العشار عطلت » من سورة التكاثر تنبؤ باختراع وسائل الانتفال الحديثة من سيارات وفطارات وطائرات واستخدامها بدلا من الابل ( والعشار من النوق ونحوها ما مضى على حملها عشرة أشهر ) ، مع أن السياق كله في تعداد أحداث من أحداث يوم القيامة ، ومع بعد المعنى المذكور أكثر من سبب !

ان القرآن الكريم كتاب منزل من خالق الكون العليم بأسراره ونواميسه ، بل انه سبحانه وتعالى هو مبدع هذه الأسرار وفطر تلك النواميس . فمن العبث أن نعقد سيقا لا محل ولا معنى له بن كتاب الله العزيز - تنزهت كلماته - وبين علوم البشر ، فهي حتى وان بلغت في هذا الزمان شأوا عظيما ليست الا لمحات من علم الله السامع الكامل . إن الأقوال الواهية عن « السبق العلمي » للقرآن الكريم لن تقنع غير المؤس بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله وليس من قول محمد النبي الأمي ، صلوات الله وسلامه عليه ، فاننا اذا أردنا أن نقنع غير المؤمنين بهذا وجب علينا أن نلجأ الى أسلوب أكثر إحكاما . ان موريس بوكاي ، الطبيب والباحث الفرنسي ، يقول في كتابه عن « دراسته الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » : «...لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ، فلم أكن أعتمد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير الى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع وبطافته تماما للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نص كسب<sup>(١)</sup> منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا » - ( موريس بوكاي ، ١٩٧٨ : ١٤٤ ) ... ثم ان بوكاي ، عندما يقارن نصوص القرآن الكريم ، بمقابلاتها في الكتب المقدسة الأخرى يقول : « ان تصريجات القرآن على العكس مطبوعة بالاجاز في القول والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم » ( ص : ١٧٤ ) . وقد تعرض بوكاي لبعض

( ١ ) كان لي تحفظ على اللط « كت » في هذه الترجمة العربية ، فلما أتيت لى الاطلاع على الترجمة الانجليزية للكتاب ، التي اشترك المؤلف في عملها الفرنسية ، وجدت اللط المثلل " Compiled " ، أي مع

التعليقات العلمية على مواضيع متعددة في القرآن الكريم ، قد نوافقه على بعضها وقد نختلف معه - من حيث المنهج والموضوع - في بعضها الآخر ، ولكنه لا يفتأ يؤكد هذا الذي ذكره في الاقتباس الأخير ، وهو دليل سلبي ولكنه قوي ، من أنه لم يجد في القرآن الكريم ما ينافي العلوم الحديثة في شيء . وفي أثناء كتابة أصول هذا المقال ، وقعت في المعرض السادس للكتاب العربي بالكويت ( نوفمبر ١٩٨٠ ) ، على كتيب رصين بين فيه كاتبه الفاضل هذا المعنى بجلاء ووضوح - ( محمد الصادق عرجون : ١٩٧٧ : ٦٩ - ٧٠ ) . وقد استشهد الكاتب بأقوال الامام الفيلسوف ابن رشد : « وإذا كانت هذه الشريعة الاسلامية حقا داعية الى النظر المؤدي الى معرفة الحق فانتا معشر المسلمين تعلم على طريق القطع أن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ماورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويسد له ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى اليه البرهان القطعي وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي وهذه القضية لا يشك فيها مسلم » - ( عرجون : ٧٠ ) .

وهذا الصدق المطلق الذي يجده العلماء في القرآن الكريم هو مصداق لقوله تعالى : أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » - ( النساء : ٨٢ ) . ويتضح مما يقوله الامام البيضاوي أن الاختلاف المشار اليه في الآية الكريمة ليس قاصراً على « تناقض المعنى وتفاوت النظم » - أي بين آيات القرآن نفسها - وإنما يشمل أيضاً « مطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض ، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض » . وهذا هو أهم وجه للاعجاز العلمي للقرآن الكريم ، فهذا الصدق المطلق لا يتأتى الا من العليم الخبير الذي لا يجد علمه زمان أو مكان ، وهذا الكمال لا يكون إلا له وحده سبحانه . وهذا المعنى هو الذي استشره سير جيمس جينز ( الفلكي العظيم ، الذي اشتهر بيننا بكتابه الذي ترجم الى العربية بعنوان : « الكون العاظم » ) عندما قرأ عليه العالم الهندي عنابة الله مشرقى معنى الآيتين ٢٧ و ٢٨ من سورة فاطر ، فصرخ قائلاً : « ماذا قلت ؟ - انما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مدهش ! وغريب ، وعجيب جداً !! ان الأمر الذي كسفت عنه دراسة وشاهدة استمرت خمسين سنة ( أي بحوث سير جينز نفسه ) ، من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقه ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكذب شهادة منى أن القرآن كتاب موحي من عند الله ... لقد كان محمد أمياً ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن « الله » هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! وغريب ، وعجيب جداً !! » - ( وحيد الدين خان ، ١٩٧٣ : ١٣٢ - ١٣٤ ، عن مجلة « نقوش » الباكستانية ) . وتفصيل الرواية متممة وذات مغزى ، ويمكن الرجوع اليها في مصدرها .

وكتاب الله العزيز كله معجز ، وبستطيع العلماء أن يتلمسوا دلائل اعجازه في شتى المجالات ، فإذا ما كنا بصدد « اعجازه العلمي » نحتم علينا أن نتوخى الدقة التامة ، فلا نفتعل مناسبة أو نتشبث بلفظ أو نحمله فوق كل ما يحتمل أو نهمل أو نتجاهل حقائق التاريخ . وينبغي أن يكون لنا في الأئمة السابقين أسوة حسنة حين نرى دقة مناهجهم العلمية عندما تناولوا القرآن الكريم من نواحيه اللغوية والبلاغية والتشريعية .

## القرآن الكريم أجل وأعظم من أن يكون كتابا في العلوم :

إعجاب المسلمين الصادق بالقرآن الكريم إعجاب لا يفوقه إعجاب ، وهم في ذلك محقون الحق كله . بيد أن إعجابهم هذا قد جعل بعضهم يتصور أن علوم الدنيا ينبغي أن تكون متضمنة فيه ، ولذلك فهم ينادون بضرورة « استخراج » العلوم من القرآن ، وربما كانوا في ذلك مستحضرين فيها معينا لقوله تعالى من الآية ٣٨ من سورة الأنعام « ... ما فر' في الكتاب من شيء ... » ، مع أن المفسرين يرجحون - أو يقبلون على الأقل - أن المقصود بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ . فالإمام الغزالي ، يذكر في « جواهر القرآن » أن علوم الانسان - ما كان منها واندس فلم يعد معلوما ، أو ما هو معلوم منها في الحال ، أو سوف يعرف في المستقبل - هي « جميعها مغتربة من بحر واحد من بحر معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ... » ( ص ٢٦ ) . وهو يقول إن العلوم وراء علوم الدين « كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيتة العالم وهيتة بدن الحيوان وتشريح أعضائه وعلم السحر والطبسات وغير ذلك » - ( ص ٢٥ ) . أما تخريجه لعنى وجودها في القرآن الكريم فيمكننا الاكتفاء بمثال واحد منه : « مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم ( وإذا مرضت فهو يشفين ) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله إذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاياته ومعرفة الشفاء وأسبابه ... » - ( ٢٦ ، ٢٧ ) .<sup>(٢)</sup>

ويرى الأستاذ مصطفى الطير ( ١٩٧٥ ) أن جلال الدين السيوطي يرى ما يراه الغزالي ، وكذلك أبو الفضل المرسي يرى ما يراه الغزالي والسيوطي . ولكننا قد رأينا أن الغزالي لم يقصد إلا اشتغال القرآن على إشارات لطيفة الى تلك العلوم . ويغلب أن يكون هو مقصود من يقول مثل هذا القول في هذه الأيام ، الا المبالغين . والواقع أن كتاب الله العزيز ليس كتابا في العلوم ، قديمها أو حديثها ، وإنما هو أجل من ذلك وأعظم ، فمن السذاجة حقا أن نتصور أن النبي ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، قد بعث ليبشر بانتشار الذرة أو ابتداء الفضاء ، أو حتى بكروية الأرض أو تفلطحها عند القطبين أو قانون الجاذبية وما الى ذلك . فهذه الأمور كلها ليست عقائده ، ثم انها ليست في حاجة الى رسول من السماء ، وإنما هي معارف يحصلها البشر بأنفسهم ، فالله سبحانه وتعالى قد وهب الانسان خليفته في الأرض من الملكات ما يستطيع بها تحصيلها وإدراكها؛ ثم انها لم تكن صالحتي معظم الأزمنة الماضية للدعوة الى الايمان بجوهر الدين ، لأنها سلسلة من المقدمات والنتائج ، لكل منها أوان مناسب له ووسائل متطورة لا ظهاره . ولو أن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، قد مزج بدعوته شيئا من هذا ، لما آمن به أحد ، ولحسر القضية في دعوته وهي الايمان بالله ووحدانيته . ومع ذلك فالقرآن - كما ذكرنا - حافل ببعض الانسان على طلب العلم ، ولكن بوسائل ومدخله الطبيعية ، من التفكير والتدبر والنظر وإزالة الغشاوات عن الأبصرة والبصائر

( ٢ ) الصفحات المشار إليها هي من صفحات المتن لا للمقدمات .



وتعظيم الأفعال عن الأئمة والقلوب . وكان هذا خيرا وأبقى لأن أي كتاب في العلم ، مهما كبر حجبا أو عظم شأننا فهو كتاب محدود ، أما إيقاد جذوة الفكر وطلب العلم عند الانسان فهي هبة لا تحبو ولا حدود لها .

« حقائق » العلم ووطنونه :

من الحجج التي يثيرها معارضو الاستعانة بالعلوم في فهم تفسير القرآن الكريم أن ما يسمى « حقائق العلم » ليس سوى فروض ونظريات يعتقد رجال العلوم فترة من الزمان في صحتها ثم لا يلبثون أن يثبتوا بأنفسهم بطلانها ، ولذلك لا يجوز أن ترجع إليها عند دراستنا لأي الذكر الحكيم . وهذا القول - على إطلاقه هكذا - غير صحيح ، بل إنه قد لا يقل خطأ عما يقوله أنصاف المتعلمين من أن العلم - بمدلوله الاصطلاحي الشائع في هذا العصر - هو وحده الحقيقة وكل ما سواه وهم باطل !

وهذه الأقوال ينقصها ، ولاشك ، الفهم الصحيح لطبيعة العلم . والغريب أنني في ممارستي العلمية الطويلة وجدت أن كثرة الكلام في المنهاج العلمي يغلب أن تدور خارج ميادين المشتغلين بالعلم ، الذين ينصرف معظمهم - من الشبان على الاخص - الى بحوثهم دون أن يحددوا متسعا من الوقت أو فسحة في النفس للتأمل في مثل هذه الأمور . ولكن لاشك أن رجال العلوم الذين حسن تعليمهم وتدريبهم يُبصرون بمعاني الفرض والنظرية والقانون والقاعدة والملاحظة والتجربة ، بل إنهم يعرفون فيما بعد أن هناك في العلوم حدسا وظنا وذوقا وحكما - وإن حاول كثير منهم إنكار ذلك بمنحني بحصانة المنهاج العلمي وموضوعيته ودقته الصارمة ( بفردج ، ١٩٦٣ ) . وما من رجل علم حق لا يستطيع أن يميز الفروق بين تلك المعاني التي ذكرناها - حين توجد الفروق - لأن هذا جزء من تدريبه الأساسي - كما ذكرنا - ودرس يتعلمه بالممارسة والاطلاع ، كما أن فلسفة علمه تبصره بحدود علمه وامكانات مدركات حواسه والأجهزة المكملة لها أو المضخمة لقدراتها .

ورجال العلم - كثيرهم - يتفاوتون طبعا في الملكة والدراية ، ولو أنهم أقل من غيرهم تفاوتوا في معرفة « أصول » علومهم التي يتخصصون فيها ، ولكن رجل العلم المتمرس يعرف تماما ماهو « صادق » أو « حقيقي » في علمه ، ولكنه يعلم أيضا أن هذا الصدق ليس بالمعنى المطلق للحقيقة الذي يسمى اليه الفيلسوف أو الصوفي المستبطن . أما « الحقيقة » - التي يعرف رجال العلوم معناها وحدودها - فهي صادقة ولا تبطل ، ولكنها قد تزداد ، مع الزمن وجهود العلماء المتابعة ، تفصيلا ووضوحا وجلاء . ولنضرب لذلك مثلا الكشف عن تكون الكائنات الحية العليا من خلايا ، فهذه القاعدة العامة ظلت حقيقة ثابتة منذ نحو قرن ونصف قرن ثم ازدادت رسوخا وتأكيدا ( ومع ذلك فهي لم تزل تسمى « النظرية الخلوية » ، فتأمل ! ) ، ولم يبطلها أن عرفنا من صور الخلايا ما لا يكاد يعد ، ولا ما كشفت عنه المجاهر الضوئية والالكترونية من كروموسومات وليسوسومات وما إلى ذلك ، ولما كشفت عنه علوم الوراثة والكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية من جينات وأحماض نووية

وجزيئات ملفوفة ونحو ذلك. وقس على هذا أيضا ما يعرف « بالنظرية الذرية » ، فإن اكتشاف الجسيمات المتعددة في داخل الذرة ، من بروتونات والكثرونات ونيوترونات وما إلى ذلك ، وعلاقات بعض هذه الجسيمات ببعض ، ودورانها وقفزها وتصادمها وانفلاتها ، واضعاع الذرات والنشطارها ، ..... هذا كله لم يبطل الحقيقة الأولى وهي أن كل عنصر من عناصر المادة يتكون من ذرات ، وقس على ذلك مرة ثانية أن الأفكار الأساسية التي توصل إليها جريجور مندل في علم الوراثة منذ أكثر من قرن ، في غفلة من أبناء عصره ، لم تزل صحيحة إلى اليوم رغم التطور الهائل الذي حققه علم الوراثة الجديد ، وهكذا ....

وهذا كله هو مصداق مانسبته طبيعة العلم المرنة وطبيعة العلم النامية وهما ميزتان ناجمتان عن فضول العلماء الذي لا يحد ، ودأبهم الذي لا ينقطع في السعي وراء المعرفة ، وعن تراكم نتائج بحوثهم واتقان وسائل إحاطتهم بتلك النتائج - وعلى الأخص في هذا العصر ، وعن تقدم وسائل البحث التي تفتح على الدوام آفاقا للعلماء لم يكنوا من قبل بالفيها ، ثم عن التفاعل المستمر بين حصائل أفرع العلوم المختلفة وتورع العلماء الصادقين عن خطيئة التعصب والجمود . والنمو المطرد والمرونة الدائمة للعلوم هما سر حيويتها وتقدمها ، وليس من الصواب اعتبارها دليلا على قصورها وبطلانها . إن العلوم غير مقدسة والعلماء ليسوا معصومين من الخطأ ، ولكن العلوم ليست وهما أو خسالا أو بنيانا رككا . إذن فما هو سر القول بأن العلوم الطبيعية ليست أهلا لأن تنضم - في تواضع غير متكلف - إلى « العلوم الخادمة » لتفسير القرآن الكريم ؟ أعتقد أن الاعتراض ناشئ من مصدرين : أولهما عدم فهم طبيعة العلم واتخاذ أعظم مزاياه منقصة فيه ، كما ذكرنا ، وثانيهما هو خطأ التطبيق ، من قبيل الأمثلة التي ضربناها . ولعل مثالا تقليديا آخر كثر ترواده بيزيد الأمر وضوحا ، وهو تأويل بعض السابطين للسماوات السبع ، التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم ، بأنها أفلاك الكواكب السبعة السبابة ، فلما كشفت المناظير عن كواكب أخرى لم تكن معروفة من قبل ، هاج المحتجون - بحق - وقالوا : أرايتم كيف عرضتم كتاب الله العزيز لتفسير خاطيء حين زججتم بالعلوم « المنغرة » إلى مجال فهمه وتأويله ؟ وحقيقة الأمر أن التأويل كان غير مقبول من أساسه لأنه لا يعتمد على فهم علمي سليم ، فكيف تكون أفلاك كواكب المجموعة الشمسية سنوات ، وهي لا تعدو بضع هياوات حول نجم متوسط الشأن في مجرة مقنورة تائهة بين الملايين ؟ ( وهذا المثال اعتبره نموذجاً لما لا يصلح إلا للتأويل البلاغي ، ولما ينبغي أن تمسك عن الحوض فيه . وحرى بأهل العلم ألا يسهموا في خدمة تفسير القرآن إلا بما تظمن إليه عقولهم ونفوسهم ويتفق مع الفهم الصحيح للقرآن الكريم ولعلومهم ، كما سبق القول ) .

وبعد فماذا نحن فاعلون ؟

- قد عرضنا نماذج من التمثل والافتعال والتورط في اخطاء ظاهرة وقع فيها بعض من أباحوا لأنفسهم حق الاجتهاد فيما يسمونه « التفسير العلمي » للقرآن الكريم . ولعل عذوبهم في هذا هو حماسهم لاثبات ما يتصورون

أنه « إعجاز علمي » للقرآن الكريم يتأكد من « سبقه » للعلم الحديث ، كذلك حسن نيتهم فيما يفعلون ، وإن كان حسن النية في أمر جليل كهذا الأمر لا يكفي . فهل الحكمة أن ننكص على أعقابنا ونمنع ، من باب سد الذرائع ، كل اجتهد في هذا السبيل ؟ لا أظن أن المنع على إطلاقه هو العلاج الأمثل ، ولا هو الواجب الذي ينبغي أن يعمل - حتى إذا كان منع هذا التيار الجارف مستطاعا . وإن أخطاء المفسرين التقليديين للقرآن الكريم ( ومن المنزه عن الخطأ ؟ ) وما حشى بعضهم كُتبه به من أساطير واسرائيليات أو تعصبات للمذاهب والنحل والفرق ، لم يبرر هذا كله الحكم بالقضاء على كتب التفسير جميعها وتحريم الكتابة فيه .

فالدكتورة بنت الشاطيء ، وهي من أشد الغيورين - بحق - على كتاب الله والمعارضين للمحاولات العصرية في تفسيره ، قد لاحظت أن المفسرين الأوائل لم يكونوا كلهم سواء ، فمنهم من اعتسف التأويل عن حسن نية أو سوء قصد ، ثم تسامت : « كيف احتمل الاسلام كل هاتيك الشوائب التي شابت فهم أمته لكتاب دينها ، دون أن يغيب فيها نوره ؟ » . وقد أجابت على ذلك التساؤل بقولها : « الواقع أن الوجدان الديني للأمة ، قد ظل يقام هذه المدسوسات والمقحات ، بصفاة الايمان والهمم البصرية ..... ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ، لم يخل أى عصر من صوت يحذر الأمة من مدسوسات الاسرائيليات ومقحات البدع والأهواء ، ولا أعوز الأمة في ليل محنتها ، شمع من النور يمدى مسراها في الظلام » ( بنت الشاطيء ، ١٩٧٠ : ٣٦ ) .

فالحال إذن هو أن نضع لذلك الاجتهاد منهاجا ، وأن نضع للمجتهد شروطا ، وأن تنبه الى مزالق الخطأ وموارد الزلل وكبوات الاجتهاد ، وينبغي علنا أن نذكر بعظم إثم التكلم في كتاب الله بغير علم ، وأن نحصر على أن نفصل كل اجتهاد علمي عن متون التفسير نفسها التي يجب أن تبقى أمانة بين أيدي أهل الاختصاص فيها .

أما الغيبيات فلا كلام فيها إلا بقرآن أو حديث نبوي ، وما عدا ذلك فهو تهجم وتخبط لا مبرر له ولا طائل من ورائه . وكذلك المجازات الالهية لا ينبغي الكلام فيها إلا إذا كان المقصود أن يظهر العلم عظمة ما فيها من إعجاز أو لتقريبها الى الأفهام .

والذى يدفعنا الى التمسك بأهداب المحاولات الصحيحة الملتزمة بأمانة منهاج قديم هو رجاء تحقيق غايات ناعمة ومقاصد شريفة يمكننا أن نوجزها فيما يلي :

١ - اسهام العلوم الطبيعية في خدمة فهم تفسير القرآن الكريم ، كما سبقتها الى هذا الشرف علوم اللغة وأدائها التي سميت بالعلوم الخادمة . وفي هذا العصر أصبح اسهام العلوم واجبا وضرورة وفريضة على الأكفاء القادرين على حمل أمانته .

٢ - العلم أصبح السمة البارزة لهذا العصر الذى أصبحت الثقافة العلمية فيه تطرق مسامع الناس وعقولهم ليل نهار ومن كل طريق ، بل انهم يعيشون مستحدثات العلم وينعمون بها أو يكونون بنارها . ومن هنا كان

الربط غير المتصل بين الدين والعلم ادعى الى اجتذاب الشباب الى الاستزادة من قراءة تفسير القرآن الكريم مع تعليقات علمية تحاطبهم بلغة عصرهم . ( ولا أريد أن أكرهنا أن هذا الأسلوب هو أسلوب القرآن الكريم نفسه الذي جعل التفكير في آيات الله الكونية مدخلا رحبا الى الايمان ) .

٣ - تزويد التفاسير بتعليقات علمية سديدة يهيء لعلماء الدين ورجال الوعظ وتعلم الدين المقدار المناسب من المعارف العلمية الصحيحة التي تعينهم على حسن أداء رسالتهم في مخاطبة أهل العصر بلغتهم - كما بنا - وتعصمهم من التورط في أخطاء علمية يأخذها عليهم النساب المثقف وتزلزل من ثغره هؤلاء في أقوالهم .

٤ - من النقطتين السابقتين يتضح أن الفائدة مزدوجة لأصحاب الثقافة الدينية ( والانسانيات بصفه عامة ) وأصحاب الثقافة العلمية على السواء ، وهذا يسهم أيضا في عبور المفجوة المتهمة بين الدين والعلم والجفوة المتعقلة بين « أهل الثقافتين » . وهذا يحقق عنصرا هاما من عناصر الوحدة القوية بين أبناء الأمة . ( عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٨٠ ) .

٥ - ازالة الشبهات من نفوس الشباب حين يتوهمون وجود تعارض بين نص قرآني شريف وشيء من معارفهم العلمية .

٦ - كما أن توضيح تفسير القرآن الكريم بما يناسبه من حقائق العلوم مفيد على هذا النحو للمؤمنين ، بثبت إيمانهم ويزيل أوهامهم وشكوكهم ويزيدهم هدى ، فإنه قد يكون أيضا مقنعا لغيرهم من يشرح الله قلبه للايمان . ولكن نبل الهدف لا ينبغي أن يدفعنا الى التكلف ، وينبغي أن نعرف أن العلم وحده لا يكفي للايمان ، انما يجب أن تسبق الفطرة السليمة والرغبة الأكيدة لمعرفة الحق ، ولا بد له من هذا النور الذي يلقيه الله في قلوب عباده الذين يشدون معرفته وشاء لهم سبحانه الهدى . « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » - ( القصص : ٥٦ ) . والأمنه على هذا كثيرة ولكن لعل من أبلغها دلالة المثال التالي : لما سئل العلامة عبد الأحد داور ، مؤلف كتاب « محمد في التوراة والانجيل » ( بالانجليزية ) كيف اعتنى الاسلام ، أجاب بأن « تحوله للاسلام لا يمكن رده الى أى سبب سوى رحمة الله به وهدايته اياه ، فيدون هذه الهداية الالهية يصبح العلم كله والبحث وجميع الجهود التي تبذل في سبيل الوصول الى الحقيقة لا جدوى لها ، بل انها قد تقود الى الضلال » (٣)

وبعد فإن خير وسيلة لأختيار هذا المنهاج الذي قدمناه هي وضعه موضع التطبيق ، وهذا ما سوف نفعله - بعون الله - في الناجز التالية ، وهي غاذج قليلة تناولت بعضها بنىء من التفصيل الذي يسمح بتحليلها ومناقشتها . ويمكن أن يقاس على تلك الناجز كثير غيرها ، يضئ عنها المعام .

( ٣ ) رحمة تكاد تكون حمية لكلمة مُدَرِّجًا الكتاب المشار اليه اطر Dawud, 1978 في قائمة المراجع الأجنبية .

## ١ - « ... وجعلنا من الماء كل شيء حي ... »

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون » - الأنبياء : ٣٠ .

هذه الآية الكريمة ملل ببلغ لمنهاج القرآن في لفت نظر الناس بأسلوب التقرير الاستفهامي القاطع ، الذي لا يخلو من لوم لاذع ، الى التأمل والتدبر في آيات خلق الله ، ثم حضهم على اتخاذ ذلك مدخلا عقليا ووجدانيا الى الايمان بالخالق القادر المبدع . وأننا لن أتكلم هنا عن الرقى والفتى ، وما قد يقال في تفسيرها من آراء مختلفة مقبولة أو غير مقبولة ، وانما سوف أحصر اجتهادى في فهم قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » :

### « الماء » في القرآن الكريم :

وردت لفظة « ماء » في القرآن الكريم منفصلة تسعا وخمسين مرة ومتصلة بالضائرت أربعة أخرى . وفي أربعة مواضع ( أو خمسة ) الظاهر أن معناها النطفة أو ماء التناسل :

١ - في سورة الفرقان : « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ، وكان ريبك قديرا » . ( ٥٤ ) .

٢ - في سورة السجدة : « الذي أحسن كل شيء وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين » .. ( ٨ ، ٧ ) .

٣ - في سورة المرسلات : « ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين » . ( ٢٠ ، ٢١ ) .

٤ - وفي سورة الطارق : « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق » . ( ٦ ، ٥ ) .

والأرجح أن هذا هو المعنى أيضا في موضع خامس ، من سورة النور : « والله خلق كل دابة من ماء ..... » ( ٤٥ ) .

أما في المواضع الثمانية والخمسين الأخرى كلها فيدل لفظ « الماء » على ذلك السائل الذي ينهمر من شآبيب رحمه الله وتمبض به المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار والعيون ، والذي لانعرفه بعد الجهد إلا بأنه الماء الذي يتألف كل جزيء من جزيئاته من ذرة واحدة من الأكسجين وذرتين من الهيدروجين . أما في هذا الموضع من الآية الثلاثين من سورة الأنبياء فلأنك أنه هو المقصود بعينه .

آراء المفسرين :

للمفسرين في هذا المقام اجتهادات ذكية ، ولقد استوعب الألوسي في « روح المعاني » من أقوال سابقيه

الكثير . وإذا استبعدنا بعض المسائل اللغوية والنحوية غير شديدة المساس بموضوعنا وبعض أوجه الخلاف في فهم المفسرين لنقاط دقيقة في المعنى ، استطعنا أن نخلص إلى مايلي :

١ - « جعل » فعل متعد لمفعول واحد بمعنى « خلق » ، ومن ابتدائية . ووجه كون الماء مبدأ وماده للحيوان وتخصيصه بذلك أنه أعظم مواده وفرط احتياجه اليه وانتفاعه به بعينه .... » . ولكنه يشير أيضا إلى معنى ينقله عن « قطرب وجماعة » : « ..... ويجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير المتعدي لمفعولين ( وهما هنا : كل ، من الماء ) ..... » ، ويكون المعنى على ذلك : « صيرنا كل شيء حي متصلا بالماء وخالطا له غير منفك عنه ، والمراد أنه لا يجبا دونه .. » .

وسوف نرى أننا إذا استعنا بالعلوم الحديثة أكدنا هذا الفهم وأيدناه وزدناه وضوحا وتفصيلا وبلغنا أبعد أعماقه ، بل أننا نستطيع أن نجنب المفسر عناء التأويل في تخريج معنى خلق الأحياء « من » الماء ، ونثبت أن هذا صحيح بالمعنى الخرفي للألفاظ . والواقع أن المفسر قد جهد في محاولة ذلك حتى نملّ عن بعض من يقولون بفلسفة الاغريق من أن أصل الموجودات الماء ، لأن « الماء قابل كل صورة ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض .... »

٢ - نافى الألويس المعنى المقصود من قوله تعالى : « كل شيء حي » ( حتى أنه اهتم باستبعاد الملائكة والجن على أساس منطقي ، فمع أنهم أحياء إلا أنهم « ليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه ، على الصحيح » ! ) . ونظرا لالتباس معنى « الحياة » عند الأوائل ، مال إلى قصرها على الحيوان لأنه « متصف بالحياة الحقيقية » ( ونقل عنه البيضاوي هذا الرأي ، فبا بعد ) ، ولكنه ذكر رأى فتادة بأن المعنى هو « خلقنا كل نام من الماء فيدخل النبات ، ويراد بالحياة النمو أو نحوه ..... » .

وهنا أيضا نستطيع الاستعانة بالعلم لحل ذلك الخلاف بين المفسرين فزريح بالهم بأن العلم يؤيد الرأي الأخير بأن المقصود عوالم الأحياء كلها ، عالم النبات وعالم الحيوان بل حتى ما بينها من كائنات أولية دقيقة ، فهي كلها تتصف بالحياة التي يعكف العلماء على دراسة مناسطها ومظاهرها ومحاولة تفهم بعض أسرارها ، دون أن يتفقوا على وضع تعريف محكم لها .

الماء والحياة :

الماء صو الحياة التي نعرفها ، فلا حياة بلا ماء حتى أن بعض العلماء يعرف الحياة بأنها ظاهرة مائية . ويوجد بين الأحياء كائنات تحيا دون هواء ، ولكن ليس بينها كائن واحد ، دق أو كبير ، يستطيع الحياة دون ماء . ان بعض الكائنات الدنيا تستطيع حمل الجفاف زمنا قد يطول بالأعوام ، ولكنها لا تنفل ذلك إلا وهي كامنة لانشط

لها وسدده بأعطيه محسها من أن تحف حتى الموب ، وأهرب الأمسله لدنيا أرباغ ( حراميم ) الكائنات الدقيقة وحوصلات بعض الطفيليات وصغار الحيوانات وبذور النبات ... ولكن ليس نمة من كائن واحد يستطيع النمو والكائر والازدهار دون ماء ، ولو أن بعضها يكفيه اللبل . فانك سوف تعجب أنك العجب اذا فحصت غلالة رققة من الماء تغلف حبة رمل فوجدتها تعج بما لا يحصى من الكائنات الدقيقة . ولهذا المعاني كان هم العلماء عندما كانوا يمحسون الكواكب بمنظيرهم ويحللون أطفالها بأجهزتهم ، ثم لما أرسلوا إليها أفهارهم الصناعة فيما بعد ، أن يعرفوا إن كان بأى منها ماء حتى يرححوا احيال وجود الحياة به .

ولا عجب في ذلك ، فالكائنات الحية معظم أجسامها ماء ، ولكنها تفتاوت في ذلك وفقا لطبيعتها أنسجتها وخصائص بنيتها وأطوار حياتها . فالماء ، على سبيل المثال ، لبل في البذور والحوصلات والأرباغ والأطلاف والقرون ، ولليل نسبيا في بعض حيوانات الصحراء ، ولكنه يتجاوز السعمن في المائة من أوزان بعض الثمار العصرية الغضة وكثير من الكائنات البحرية . ولو اقتدنا الانسان مثلا ، لوجدنا أن نحواً من ثلثي جسمه ماء ، يكمن بوفرة داخل خلاياه ويغلفها بغلات رقائق ويتخلل فيها بينها وفي أعماق كل نسج من أنسجة جسمه حتى أصلب عظامه . والماء أيضا هو نهر الحياة الدافق في عروقه حاملا الى كل خلية في جسمه أسباب بقائها من أكسجين وغذاء وهرمونات ومواد المناعة ودواء وفيتامينات ، مخلصا إياها من كل نفاية وضرر وسم . وكل العمليات الحيوية في جسم الانسان - بلا استثناء واحد - لا تجري إلا في وجود الماء . فيدون الماء ليس ثمة من تنفس أو اغتذاء أو هضم أو حركة أو إخراج أو تكاثر . ولولاء ما تذوق الانسان طعاما وما شم عطرا ولتنبست أنسجته وتلاصقت مفاصله ، وارتفعت حرارة جسمه حتى يقضى عليه .

وقص الماء مع الانسان طويلة ، تبدأ معه بطفة سابعة في ماء ، ثم جنينا محفوظا في قراره المكن من كل أذى في قرية من الماء وتصله أسباب الحياة كلها من أمه في الحبل الشرى محمولة مع الماء ، ثم وليدا يرشف أول غذاء له من ثدى أمه لبنا سائغا فوامه الماء . بل إن الماء مع الانسان حتى في آلامه وأحزانه الى يسكبها دموعا تسيل أشجانه . فلا عجب أن يستطيع الانسان الصبر على الجوع أياما كثيرة ، ولكنه لا يحمل الظما الا يوما واحدا أو أياما قلائل لا سجاوز الأربع ( ميلن وميلن ، ١٩٦٦ ) .

ويحصل الانسان على ماء حياته من ثلاثة مصادر رئيسية : فنحو ٤٧٪ منه يشربه ماء فراحا أو وسائل مختلفة قوامها الماء ، و ٣٩٪ منه متضمنا فيما نسميه الأغذية الصلبة - فاللحم والخضر والفواكه والخبز كلها تحوى نسبة متفاوتة من الماء - ، أما الجزء الباقي ( ١٤٪ ) فبولد في الجسم نتيجة عمليات التأكسد ( الاحتراق ) الدائرة فيه ، وهذا ما نسميه « ماء الأيض » . أما الماء الخارج من الجسم فنحو من ثلثه يخرج مع البول ( ٩٥٪ من البول المعاد ماء ) ، أما الثلث الباقي ف يخرج مع العرق وهواء الزفير وما تطرده الأمعاء .

والماء أعظم منظم للضغط ودرجة الحموضة وتوزيع الحرارة والمواد المختلفة بين أجزاء الجسم ، ولكنه هو نفسه

يتحكم في كميته في الجسم جهاز منظم بديع ، فنبغى أن يكون بين صادرات الجسم وورادته من الماء توازن دقيق ، يكفى أن نشير هنا إلى أهم ملاحظه . فالإنسان إذا فقد من مائه نحواً من ٨٪ من وزن جسمه أحس بالظمأ ، أما إذا ارتفع الفقد إلى نحو ٥٪ حف حلقه ولسانه وتغضن جلده واهتلس عقله وأصيب بانهاز تام ، أما إذا تجاوز الفقد ١٠٪ فانه سوف يشرف على الموت والهلاك ولن ينقذه منها الا شربة ماء . والعجب أن ازدياد كمية الماء في الجسم هي أيضاً خطيرة فانها تسبب الغنيان والضعف ثم تؤدي بالتدريج إلى اختلاط العقل وفقد حاسة الانجاء الصحيح والاختلاجات والتشنجات والغيبوبة ثم الموت ، وبغال إن بعض القبائل الموحشة تعاقب مذنبها بالشرب القسرى للماء ( ليوبولد وآخرون ، ١٩٧٠ - المراجع الأجنبية ) .

وشاط الغدد العرقية يتأثر بتقلبات الجو والعواطف ، وكذلك بخار الماء الخارج مع هواء الزفير لا يستطيع التحكم فيه الا باللهاث أو خنق الانفاس ، أما الكلى فإنها الجهاز الذى يتحكم في إخراج الماء ، والبول - كما ذكرنا - هو أهم صادرات الماء من الجسم . وهناك دولا ب رافع يتحكم بدوره في عمل الكليتين . ففى كل كلية نحو مليون جهاز دقيق لاستخلاص المواد المسرفة من الدم ، أي الضارة بالجسم أو الزائدة عن حاجته . وهذه المواد كلها تستخلص ذاتية في الماء ، ولكنها تكون ذاتية في كمية كبيرة منه ، ولذلك زود كل جهاز من تلك الاجهزة الدقاق (التي تسمى النفرونات) بأنبيبات غاية في الدقة يمر خلالها ذلك السائل المستخلص فتسترد منه المواد النفيسة كالسكر والأحماض الأمينية ( المكونة للبروتينات ) ومعظم الماء بعد أن أدى وظيفته العظمى في الاذابة والفسل والنقل . وهكذا يصبح البول سائلا مركزا خاليا من المواد التي يحتاج إليها الجسم .. وهذا يكون في الكلية السوية ، أما ظهور هذه المواد في البول فهو أعراض لحالات مرضية .

وأجسامنا مزودة بجهاز فائق الحساسية يتحكم في وظيفة النفرونات ليحدد كمية الماء المسموح باخراجها مع البول . ويدير جهاز الضبط هذا جزء صغير في الدماغ ( المخ ) يسمى المهاد ( السرير ) التحتاني ، يقع عند قاعدة الدماغ فوق الحبل الشوكي ( وله وظائف أخرى هامة ) ، وهو يتحكم بدوره في الغدة النخامية التي تقع أسفل الدماغ فوق سقف الحلق . فإذا قل منسوب الماء في الجسم تنبه لذلك مستقبلات في المهاد فتبعث برسالات إلى الفص الخلفي من الغدة النخامية لتفرز هرمونا يسمى الهرمون المضاد لإدرار البول ( أو القابض للأوعية ) ADH فيجري مع الدم حتى يصل إلى النفرونات فيحثها على التمسك بالماء . أما إذا انعدم إفراز ذلك الهرمون أصبح البول كثيرا ومائيا بصفة دائمة ، وهذا هو ما يعرف بمرض الدبايطس الكاذب . ولا شك أن مقدار ما نشربه من الماء أو السوائل المائية وتأثير مجموعة من المواد والمقايير المدرة للبول ( ومنها الكافيين في الشاي والقهوة والكحول ) وتقلب العواطف واختلال جهاز الضبط الدقيق .. عوامل تؤثر كلها في كفاءة ذلك التوازن البديع .

وتشعورنا بالعطش يأتي من فعل انعكاسي متولد عن جفاف الفم والحلق على الأخص ، نتيجته فلة إفراز



اللعاب . وهذا الجفاف ونقص مستوى الماء وزيادة مستوى الأملاح في الجسم تدفع بعض الخلايا في المهاد ( وهي تسمى « مركز الشرب » ) إلى أن تصدر الاشارات المنبهة لشعورنا بالعطش وطلب الماء ( وفي الوقت نفسه يتخذ المهاد اجراءات تمسك الكليتين بالماء ، كما ذكرنا ) . وجدير بالذكر أن بل' الغم بالماء لا يجدهج جهاز الشرب فانه لا يذهب الشعور بالعطش ، ولكن بل' الحلقوم أبلغ في هذا الغرض . والحيوانات البرية كلها لها أيضا وسائل متنوعة في الحفاظ على ما في أجسامها من ماء ، ولكن لعل أعجبها في ذلك شأننا الجمل ، سفينة الصحراء ، كما سوف نذكر في موضوع لاحق من هذا المقال .

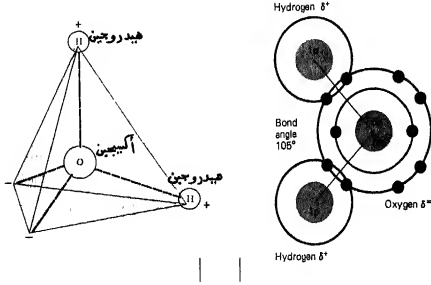
وهكذا نكون قد ألمنا بلمحات من أهمية الماء للإنسان من الناحية الوظيفية البيولوجية ولكن للماء بالانسان وشائج وثيقة لا تعد ... في نظامه ، في إعداد غذائه وتناول طعامه ، في صناعاته التي لا تكاد تستغني احداها عن الماء ، وفي انتقاله بالزوارق والسفن ... الخ . بل ان التاريخ ليحفل بأنباء المعارك التي دارت بسببه ، والأقوام الذين قدسوه ، والحضارات التي ازدهرت بارتوائها منه وتلك التي بادت بسبب فقده أسوء تدبيره . وليس هذا هو شأن الماء مع الانسان وحده ، وإنما هو شأنه مع كافة الأحياء بلا استثناء . ولعل أبلغ مثل ما نراه من الصحراء الجرداء بعد هطول المطر عليها ، فانها بين عشية وضحاها - بلا مبالغة - سوف تدب فيها الحياة وسرعان ما تكتسي بالخضرة والزهر من كل لون وينشط فيها عديد من أنواع الحيوان . « وترى الأرض هاملة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج » . ( الحج : ٥ ) .

الماء ، ذلك السائل الفريد :

وصف بعض العلماء الماء بقوله : « ان الماء ينفرد ، من بين المواد اللازمة لقيام الحياة على الأرض ، بأنه أعظمها أهمية ، وأوسعها انتشارا ، وأعجبها شأنًا . ومع ذلك فما أقل ما يعرفه سواد الناس عنه » . ( ليوبولد وآخرون ، ١٩٧٠ ) . وإن الله ، بديع السموات والأرض ، قد هبأ الماء للقيام بدوره الرائع ، فأودع فيه خصائص فيزيائية وكيميائية فريدة ، تبلغ في تفردها وغرابتها مبلغ الشذوذ . وإذا تعمقنا الأمر وجدنا أن هذا السركامن في صميم بنیان جزىء الماء .

فجزىء الماء يتألف ، كما هو معروف مشهور ، من ذرة واحدة من الأكسجين وذرتين من الهيدروجين . ومع أن الجزىء كله متعادل كهربائيا الا أن ذرة الأكسجين الأكبر حجما تجذب نواتها عددا من الالكترونات السالبة أكبر مما تجذبه كل من ذرتي الهيدروجين ، ومن ثم تصبح ذرة الاكسجين أكثر سلبية نسبيا ، وتصيح كل من ذرتي الهيدروجين أكثر إيجابية ، نسبيا أيضا . ولما كانت ذرتا الهيدروجين غير موزعتين توزيعا متائلا بل ترتبطان كلاهما بذرة الأكسجين من جهة واحدة ، فان هذا الوضع يشكل بنيانا هندسيا عليه شحنة سالبة في جانب وعليه شحنة موجبة في الجانب المقابل ، أي يكون للجزىء قطبان كهربائيان مختلفان ، ومن ثم يوصف جزىء الماء بأنه ذو

قطبين أو « قطبي ». ويمكننا تصور جزيء الماء واقعا في داخل شكل رباعي الأسطح ، تحتل كل من ذرتي الهيدروجين بشحنتيهما الموجبتين ركنا من أركانه في إحدى جهتيه ، أما ذرة الأكسجين فتحتل وسطه وتتركز شحنتها السالبة في الركنين المقابلين ( شكل ١ ) . وسوف نرى أن هذا البنيان وظاهرة « القطبية » التي أشرنا إليها هما السر في معظم خصائص الماء العجيبة التي توهله في القيام بدوره في الحياة . وصدق الله ، عز من قائل : « إن الله بالغ أمره ، قد جعل لكل شيء قدرا . » ( الطلاق : ٣ ) .



شكل ( ١ )

جزيء الماء ذو القطبين

أ - ارتباط ذرتي الهيدروجين بذرة الأكسجين . الاكترونات ممثلة بالكرات الصغيرة والاكترونات الثابتة المرسومة في المدار الخارجي حول نواة ذرة الأكسجين ، ستة منها للأكسجين وواحد منها لكل من ذرتي الهيدروجين

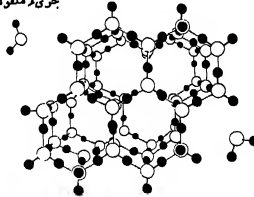
ب - تمثيل هندسي فراغي لجزيء الماء تتخلله داخل شكل رباعي الأسطح . ( من جولد سبي ، ١٩٧٩ ) .

١ - تماسك جزيئات الماء : الشحنات الكهربائية على جزيء الماء نستطيع جذب الشحنات المخالفة في الجزيئات الأخرى ، فكأنها أذرع ممتدة ترحب باللقاء والتماسك مع جزيئات أخرى فتتربط معها بروابط تسمى « الأواصر الهيدروجينية » . وأول ما يرتبط به جزيء الماء جيرانه من جزيئات الماء الأخرى ، فتتجاذب الأطراف

الهيدروجينية الموجبة مع الأطراف الأكسجينية السالبة . وهذه الأواصر ليست شديدة القوة فهي لا تفتأ تنفك وترتبط في لحظات بالغة الضلالة من الثانية ، ومن ثم تصبح جزيئات الماء متأسكة سائلة في درجات الحرارة المعتادة . وعلى أية حال فإن قوة تماسك جزيئات الماء تفوق تماسك جزيئات أي سائل آخر على الأرض ، باستثناء الزئبق ، ولكنها تفضل الزئبق الذي يمنعه تماسك جزيئاته الشديد من الالتصاق بأي سطح ، أما الماء ففيه بجوار التماسك مادة وألفة يجعلانه ينتشر على الأسطح ويجري عليها ، وهذا بالطبع له أهميته العظمى في قيام الماء بوظائفه نحو الأحياء ، فهو إذن يجمع بين التماسك وقابلية الالتصاق .

ولتاسك جزيئات الماء مظهر آخر ، وهو أنها تجعل سطح الماء كأنه غشاء قوى مرن ، وهذه ظاهرة تعرف بالتوتر السطحي ، فانك لو وضعت في رفق ابرة من حديد فوق سطح الماء ظلت فوقه وكأنها محمولة بغشاء يحول بينها وبين أن تغوص فيه نظرا لزيادة كثافتها كثيرا عن الماء . وكثير من صغار الكائنات تستطيع أن تمشي مشيا فوق سطح الماء وكأنها تمارس سحرا ، كما أن بعضها الآخر يتدل في الماء متعلقا بذلك السطح العجيب . وانك لو شاهدت قطرة الماء تنحلب من الصنوبر هابطة في تودة وكأنها لؤلؤة صلبة مشدودة بسلك من فضة ، أدركت ماذا نعني بقلنا : التماسك والتوتر السطحي . وقاسك الماء وقابليته للالتصاق يجعلانه يصعد في الأنابيب الشعرية الدقيقة ضد جاذبية الأرض ، أي أنه يكتسب خاصية ثالثة هي « الشعرية » . وما يمتاز به الماء من فوق في هذه الخصائص الأربع ( التماسك وقابلية الالتصاق والتوتر السطحي والشعرية ) هو التفسير الوحيد الذي يعلن به علماء فيزيولوجيا النبات الأعمال الخارقة التي يقوم بها الماء ، فهي بعض السر الكامن في قدرة الماء على الارتفاع من أطراف جذور النبات المتعققة في الأرض الى قممه السامقة في الفضاء ، والتي قد تبلغ أربعمائة متر في مداها في بعض أنواع الأشجار . وهذه الخصائص بالإضافة الى صغر كثافته وقلة لزوجه ، هي التي تمكنه من يسر الحركة بين الخلايا في النبات والحيوان والمرور من أغشيتها ، كما أنها تمكن الدم من أن يتم دورته في الأجسام لضخ القلب له .

جزيء منغفور

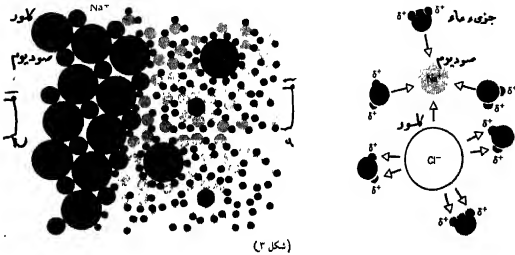


شكل ٢

تماسك جزيئات الماء

( عن كيس ، ١٩٧١ )

٢ - الماء أعظم مذيب : تستطيع جزيئات الماء أن تدفع بنفسها مندسة بين جزيئات المواد الصلبة التي تلامسها ( أو الذرات الداخلة في تركيبها ) حتى تفككها ثم تحيط بكل جزء منفصل منها حتى لا يعود قادرا على الاتصال باختوته . وقطبية جزيئات الماء تجعلها لا يستعصي عليها أي جسيم مشحون بالكهرباء ، فان كانت شحنته موجبة جابهته بوجهها الأكسجيني السالب ، وان كانت شحنته سالبة جابهته بوجهها الهيدروجيني الموجب . وهكذا تتكون روابط بين جزيئات الماء وتلك الذرات المشحونة ( أو الأيونات ، كما يسميها الكيمايون ) أقوى مما كان بين تلك الذرات وأخواتها وبذلك تفرق بينها .. وهذا هو الاذابة . وما لا يستطيع الماء إذابته إذابة حقيقية على هذا النحو لكر حجم جزيئاته أو لغير ذلك من الأسباب ، استطاع في كثير من الأحوال تفكيك دقائقه وتكمله معلقا أو مستحلبا فيه . وذيب الماء من المواد أكثر مما يستطيعه أي مذيب آخر سواء ، حتى أنك لا تكاد تجد ماء نقياً في الطبيعة ، بل إن كوب الماء الصافي الذي تشربه قد يحوي ، من بين ما يحويه ذائبه فيه ، عددا ضئيلا من جزيئات زجاج الكوب نفسه ! ( ليوبولد وآخرون ، ١٩٧٠ ) . وكل ماء في الطبيعة هو محلول مائي ، أما ماء البحر فانه محلول مركز من مئات المواد العضوية وغير العضوية . ومقدرة الماء الهائلة على الاذابة تؤهله - وحدها - لأن يقوم بوظيفته الكبرى في الحمل والنقل في جسم كل كائن حي ، ولأدائه دورا رئيسيا في كل تفاعل فيه ، ولقسل باطنه من السموم والنفايات ( كما رأينا في اخراج البول ) ونظافة ظاهره ، كما هو معروف . وهذا كله فضلا عما يقوم به الماء في التربة من اذابة المواد وتقديدها للنبات ، وعمله الدائب في تشكيل سطح الأرض وتحويل مكوناتها من حال الى حال .



اذابة الماء للمواد

أ - جزيئات الماء تفكك جزيئات من ملح الطعام ( كلوريد الصوديوم ) بعضها بجابه ذرة الصوديوم الموجبة بوجهها الأكسجيني السالب ، وبعضها الآخر بجابه ذرة الكلور السالبة بوجهها الهيدروجيني الموجب ( عن آرس وكاب ، ١٩٧٩ ) .

ب - ملح الطعام يذوب في الماء ( عن كيريس ، ١٩٧٩ ) .

٣ - الماء في تفاعلات الحياة جمعاء : ما من تفاعل كيميائي واحد يحدث في جسم كائن حي الا والماء دور فيه ، وخصائص الماء ذكرناها ، وعلى الأخص قطبية جزيئاته ومقدرتها الفائقة على الاذابة ، تفسر لنا ذلك . فالماء على أقل تقدير هو الوسط الذي لا بد أن تحدث فيه التفاعلات الحيوية حين تتقابل المواد ذائبة فيه ، ثم أنه قد يقوم بدور الوسيط في التفاعلات ، ولكنه كثيرا ما يكون طرفا في التفاعلات نفسها . وعمليات البناء ، أي ربط الجزيئات بعضها ببعض وكثافتها ، تتم بخروج مكونات الماء من بينها أما عمليات الهدم ( أي التحليل ) فتم بدخول جزيئات الماء فيها ، ولذلك يسمى هذا تحليلا مائيا ، وهو عملية بارزة في خطوات الهضم . وسوف نذكر بعد قليل أن عملية التمثيل الضوئي ، التي هي أصل المواد العضوية - أي مواد الحياة نفسها - الماء طرف رئيسي فيها .

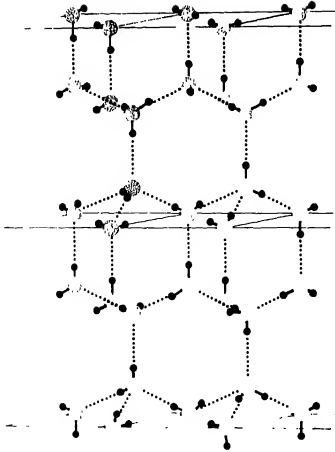
٤ - موزع الحرارة ومنظمها في الأحياء ونباتات الأحياء : يقول الفيزيائيون أن للماء حرارة نوعية عالية أو سعة حرارية كبيرة ، فهي ضعف مثيلتها في الكحول مثلا . ومعنى هذا أننا إذا أخذنا مقدارين متساويين منها وسخّناهما تسخينًا متساويا كان ارتفاع درجة حرارة الماء نصف ما ترتفعه حرارة الكحول . ويصدق الأمر تماما عند التبريد أيضا . وهذه الظاهرة تجعل البحار والمحيطات تمتع بنبات عظيم في درجة حرارتها . فكأنها تقي ما فيها من أحياء كثيرة من تقلبات الجو . وهذا هو ما يحدث أيضا في جسم الكائن الحي نفسه ، وإذا عرفنا أن التفاعلات الكيميائية الحيوية تكون في أحسن حالاتها في حدود ضيقة من تغير الحرارة عرفنا قيمة هذا النبات الحراري للأحياء . هذا فضلا عن أن الماء قادر بهذه الخاصية من أن يمتص مقدارا كبيرا مما تنتجه الأحياء من حرارة نتيجة نشاطها ، ثم أنه بسرعة جريانه وجودة توصيله يجعل الحرارة بعيدا عن مصادر تولدها موزعا إياها في الجسم ، وهذا كله بقي الكائن الحي من كوارث مهلكة تهدد أعضائه الحساسة ، كالدماع . ولا ننسى أن الماء يقوم بهذه الوظائف كلها بالنسبة لكوكب الأرض في جلته ملطفا من قسوة التقلبات العنيفة في حرارة الهواء واليابسة . والسعة الحرارية الكبيرة للماء ناجمة أصلا من تماسك جزيئاته المترتب على قطبيتها .

٥ - الماء مبرد عظيم : يتعلق بخصائص الماء الحرارية التي ذكرناها أنه يتطلب مقدارا عظيما من الحرارة كي يتبخر ، أي أن تتباعد جزيئاته المتأسكة بقوة حتى تنفك في صورة غازية . وهذه أيضا نعمة كبرى لكثير من الأحياء إذ أن تبخر الماء من فوق جلدها يستنفد من حرارة أجسامها مقدارا كبيرا فيبردها ويساعد على ثبات حرارتها ، كما أنه يعينها على العيش إذا ارتفعت حرارة الجو من حولها دون أن تتعرض للهلاك . والانسان وكثير من الثدييات يعتمد على الغدد العرقية في إخراج الماء اللازم لتبريد أجسامها بالتبخر ، بينما بعضها يلهث كي يتم التبريد من جهازه التنفسي الأعلى ومن فيه ولسانه المتدلى . فالكلب لا يلهث إذا عدا زمنا طويلا لمطاردتك إياه وحسب ، وإنما هو يلهث أيضا إذا ربح هادئا في يوم قاطظ ، وذلك لقلّة الغدد العرقية في جسمه . وهذه هي الصورة التي يرسمها القرآن الكريم في قوله تعالى : « وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل

عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » . ( الأعراف : ١٧٥ - ١٧٧ ) . والسعة الحرارية الكبيرة للماء وكبر مقدار الحرارة اللازمة لتبخره يؤيدان الى ارتفاع درجة غليانه وتحوله الى بخار ، ومن ثم فهو يبقى سائلا في مدى واسع من درجات الحرارة المعتادة في جميع أنحاء الأرض ، وبذلك يظل صالحا للقيام بوظائفه العظيمة في حياة الأحياء .

والماء ينظم حرارة الجو بتجمده وانصهاره أيضا ، إذ أن نقطة تحول الماء بين السيولة والصلابة هي درجة الصفر المئوي ، وهو يحتاج الى كمية كبيرة من الحرارة لحدوث ذلك ( كما هي الحال عند تحوله الى غاز بالتبخير عند الغليان ) ، فهو اذا انصهر سحب الحرارة المطلوبة من الجو المحيط به فبرده ( وهذا ما يحدث في صندوق التلج الذي تحفظ فيه الأغذية في الرحلات ) كما أنه اذا تجمد أطلق هذه الحرارة معيدا إياها الى الجو . فالماء في جميع أحواله منظم لحرارة بيئة الأحياء وواق للأحياء من سرعة تغير درجات حرارتها تغيرا مفاجئا ، حتى في الحيوانات غير ثابتة الحرارة ( التي تسمى ذوات الدم البارد ) .

٦ - الماء يخرق القاعدة ، ولكن لصالح الأحياء : القاعدة العامة المطردة أن السوائل تزداد كثافتها كلما بردت حتى تتحول الى صورتها الصلبة ، ولذلك تفوص القطع الصلبة من مادة ما اذا وضعت في صهارتها . وينصاع الماء لهذه القاعدة فتزداد كثافته كلما برد حتى يبلغ أكبر كثافة نوعية له عند درجة ٤ مئوية حيث تتقارب جزيئاته تقريبا وثيقا ، ولكنها لا تلتصق أن تغير أوضاعها لتكون بنيانا بلوريا فراغاته أكبر من الفراغات الواقعة بين جزيئات الماء السائل ، وبذلك يزداد الماء حجما ، أي تقل كثافته ، عندما يتجمد عند درجة الصفر المئوي . ويعيد هذا الشذوذ إعجازا في إحكام تدبير الخالق ، جل وعلا ، إذ ترتب عليه نتائج بالغة الأهمية للأحياء . وذلك أن الماء اذا تجمد فخنق فطقا غطى أسطح البحيرات ونحوها بطبقة عازلة تحفظ الماء من تحتها من ازيداد برودته وتجمده وتجمد ما فيه من أحياء التي تظل حية سابحة فيه مُسَبَّحة بقدرته خالقها وبديع صنعه وأوسع رحمته ، أما أثقل الماء الذي يفوص الى الأعماق فحرارته ٤° م ولا يتجمد . ولو أن الماء كان مطيعا للقاعدة العامة لكان التلج أثقل فغاص في الأعماق ولاستعصى على الانصهار عند دفء الجو ، بل إن البحيرات والبحار والأنهار في المناطق الباردة كانت تزداد تجمدا عاما بعد عام حتى تصبح أجساما وقارات جليدية دائمة لا تصلح للحياة ، فضلا عن تعميمها لجزء كبير من رصيد الأحياء عامة من ماء الحياة . بل إن العلماء يقدرون بحساباتهم أن الأمر لو كان كذلك لزحف التجمد على الأعماق السحيقة حتى بلغ المحيطات عند خط الاستواء فلم يبق من الماء سائلا في الأرض كلها إلا جزء سطحي يسير ، فأين تكون الحياة عندهذا ؟ وكيف تكون ؟



(شكل ٤)

جزيئات الماء في بنیان بلورات الثلج  
عند تجمد الماء تكون جزيئات الماء هيكلًا مبنيا من ارتباط كل جزيء بأربعة جزيئات  
أخرى مع وجود فراغات هي التي تجعل حجم الماء يزداد عند تجمده . ( لا تظهر الجزيئات  
الأربعة كلها في جميع الأحوال لأنها في مستويات مختلفة بعضها غير ممثل في الرسم ) .

( عن حونسون وآخرين ، ١٩٧٢ )

### بل الأحياء كلها خلقت خلقا من الماء :

وهذا كله رافع وجليل ، ولكن كل ما عرضناه عن دور الماء في حياة الأحياء وخصائصه الفريدة التي تؤهله للقيام بذلك الدور لا يعدو أن يكون تأييدا قويا وتفصيلا تقدمه المعارف العلمية الحديثة للفهم الذكي الذي اجتهد به المفسرون وخلاصته أنهم تأولوا معنى « جعل » أو « خلق » كل شيء حى من الماء من باب تغليب مادة لها النسبة العظمى في بنيانه أو فيها السبب الأول من أسباب بقائه . وهذا تأويل مقبول ومعقول ، ولكننا اذا تأملناه مليا وجدنا أن الماء الذى في أجسام الأحياء لا يختلف في شيء عن الماء الذى تجود به الأمطار أو تجري به الأنهار أو تتلى به البحار . فهو إذن مادة غير حية تحويه أجسام الأحياء ولا تحيا دونه ولكنه ليس من مادتها الأصلية . فالمعروف أن المكونات الأساسية لأجسام الأحياء ، والتي تتميز بها عن الجهادات ، هى المواد العضوية : الكربوهيدرات والدهون ، والبروتينات ( وهى مادة الأحياء ) والأحماض النووية ( وهى وثائق أسرار الحياة ) ، ولو أن بعض أنسجة الحيوان تحوى نسبة كبيرة من المواد غير العضوية كالجير الذى فى العظام .

فمن أين تأتى المواد العضوية ؟ الأصل فيها جميعا ولا سبيل الى وجودها الطبيعي على هذا الكوكب الا عن طريق النبات الأخضر الذى يبنى هذه المواد بناء ، مبتدئا بأبسطها وهو الجلوكوز ، أو سكر العنب ، يكونه بعملية معقدة معجزة رائعة تسمى البناء ( أو التمثيل ) الضوئى أو الكلوروفيل ( نسبة الى صبغ الكلوروفيل الأخضر فى النبات ) . وغالبا ما تبسط هذه تبسيطا مفرطا فيقال إنها اتحاد الماء بغاز ثانى أكسيد الكربون ، بفعل الضوء وبوساطة صبغ الكلوروفيل ، لتكوين جزيئات من الجلوكوز مع انطلاق غاز الأوكسجين . ولكن العلماء بفضولهم وإحساسهم بصبرهم استطاعوا أن يعرفوا أن هذه عملية طويلة معقدة للغاية تتخللها مراحل كثيرة ومنتجات مرحلية عديدة ، لا يسمح المجال بذكر تفاصيلها ولكننا نستطيع أن نوجزها بإيجاز غير شديد الاخلال بالمعنى فى عملية البناء الضوئى مرحلتان ، المرحلة الأولى لا بد من وجود الضوء فيها ، ومن ثم سميت مرحلة تفاعلات الضوء ، وفيها يتصيد الكلوروفيل طاقة الشمس ثم يحولها الى طاقة كهربائية ، أى سريان أو انتقال للإلكترونات ، ثم تتحول تلك الطاقة الكهربائية الى طاقة كيميائية تختزن فى جزيئات مواد تعرف باسم جزيئات الطاقة ، وفى هذه المرحلة أيضا ينطلق الأوكسجين . أما المرحلة التى لا تحتاج الى ضوء ، ومن ثم تسمى تجوزا مرحلة تفاعلات الظلام ، فانها تتضمن دورات تستخدم فيها الطاقة الكيميائية السابق اختزانها فى البناء المتدرج لجزءى الجلوكوز وبه ست ذرات من الكربون وست من الأوكسجين واثنين عشرة من الهيدروجين (  $C_6H_{12}O_6$  ) . وهذا هو بيت القصيد فان جزءى الجلوكوز ( أومكوناته ) هو اللبنة الأولى لكافة المواد العضوية على ظهر الأرض ، فهو يتكثف درجات ودرجات ليكون كافة المواد الكربوهيدراتية كالأشكال المختلفة من السكر والنشا والسليلوز - مادة الخشب الأساسية وأعظم مكون لبنان النباتات - ، ثم منه تبنى الدهون وتبنى البروتينات ، أى أجسام كافة أنواع الحيوان التى تحصل على مادتها العضوية غذاء تستمد من نبات أو من حيوان اغذى على نبات . وهكذا



تتج النباتات في أن تتصيد طاقة الشمس المبددة في الفضاء ، وتتصيد ذرات الكربون المثبوتة في غاز ثاني أكسيد الكربون المشتت في الهواء فتضمها الى هيدروجين الماء كي تبني مادة الحياة والأحياء .

إذن فكل مادة عضوية ، أي كل مادة حية ، لا تبني ولا تتكون الا من الماء . فصرح بصرك حيث شئت في المروج الخضراء أو الغابات الكثيفة ، أو قطعان الفيلة أو الخيل ، أو أسراب الطيور أو رجال الجراد .... أو شعوب بني الانسان ، أو أي كائن حي دق أو عظم ، فهذه كلها مخلوقة ومصنوعة صنعا من الماء - على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز أو التأويل .

وجذوة الحياة هي أيضا من الماء :

وليس هذا وحسب ، فانا نعلم جيدا ضرورة التنفس لاستمرار حياة الأحياء ، لأنه هو الذي يطلق الطاقة الكامنة في مواد غذائنا ( أجزءه من مادة أجسامها ) فيمكنها من أن تسعى في نشاطات الحياة ، من أبسطها إلى أعقدها . ومن المعلوم لنا أيضا أن الكرة الغالية من الأحياء لا تنفّس إلا غاز الأكسجين ، إذا انقطع عنها انقطعت أنفاسها وذهبت حياتها ، والكائنات الحية تحصل على الأكسجين من الهواء ، إن كانت تعيش على الأرض أو في الهواء ، أو ذاتها في الماء من حولها إن كانت تعيش في الأنهار أو البحار . ولكن من أين هذا الأكسجين ؟

الراجح عند العلماء أن الأكسجين كله ، أو معظمه على الأقل في بعض الآراء ، هو ما تطلقه النباتات الخضراء في أثناء عملية البناء الضوئي ، كما تقدم (٤) . فقبل خلق النباتات على الأرض لم يكن فيها أكسجين ، وكان للكائنات البدائية حينذاك وسائل أخرى للتنفس والحياة . ولكننا نعلم أن النبات يتناول جزيئات الماء وجزيئات ثاني أكسيد الكربون ، فيصنع منها السكر ويطلق الأكسجين . وفي الماء وغاز ثاني أكسيد الكربون كليهما أكسجين ، فأكسجين أيها هو الذي يبقى في السكر وأكسجين أيها هو الذي ينطلق لتنفسه الأحياء ؟ كان الظن السائد الى عهد ليس بعيد أن الأكسجين المنطلق هو أكسجين ثاني أكسيد الكربون ، ولكن لما عرف العلماء أسرار عملية البناء الضوئي ، عرفوا من بين ما عرفوا أن الأكسجين المنطلق هو أكسجين الماء ، وأنبتوا هذا بتجارب بارعة . وهكذا - فخلصنا النباتات الخضراء من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي تزفره الكائنات الحية في أثناء تنفسها زاهدة فيه ، وتبدلنا إياه بالمواد العضوية التي تبني بها أجسام الأحياء وتقوم بها حياتها ، كما أنها تطلق من الماء غاز الأكسجين ليعوض الأحياء ما تستهلكه من هذا الغاز النفيس في التنفس . ويقدر بعض العلماء ، الذين يحولهم التقدير والحساب ، أن النباتات تجدد أكسجين الجو كله خلال ألفي عام . فهذه إذن يد أخرى من أيادي الماء العظيمة على الأحياء ، بل قل إنها منة كبرى بين منن خالق الماء وخالق الأحياء .

( ٤ ) يعتقد بعض العلماء أن حرما من أكسجين الأرض ناتج من تأثير الشمس في بحار الماء في طبقات الجو العليا ، وحتى في هذا الرأي الأكسجين مستمد من الماء أيضا .

### الماء مهد الأحياء وحاضنها :

ويعتقد العلماء أن أول ما خلق الله من الأحياء كان يعيش في الماء . ولا بأس علينا من ذكر هذا الفرض ، فإليه سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء حيث يشاء وأنى يشاء وكيف يشاء . وإننا إذا رفضنا هذا الرأي إذا كان عندنا أسباب لرفضه ، فلا بأس علينا في ذلك أيضا . ولكن الحقيقة المؤكدة ، على أية حال ، أن معظم الأحياء في وقتنا الحاضر هي كائنات مائية ، وبحرية على وجه الخصوص . والبحار عوالم هائلة غامضة بعيدة الأغوار فيها الكثير من الاسرار التي يلج العلماء على الكشف عنها بالوسائل المستحدثة للغوص والعيش والتصوير تحت الماء .... ولكن الناس أكثر معرفة وألفة بالكائنات التي تعيش معهم على اليابسة .

وبيئة البحار بيئة حامية على الأحياء ، لأنها أكثر ثباتا من بيئات اليابسة وتجمعات المياه العذبة الصغيرة نسبيا التي تقع تحت رحمة التقلبات الجوية واختلالات الجفاف . ومن أوجه رعاية الماء للأحياء كافة أن غاز الأكسجين المستمد منه يكون في طبقات الجو العليا جزئيات فيها ثلاث ذرات من الأكسجين ( بدلا من ذرتين ، كما هو معتاد ) . وهذه الجزئيات الثلاثية تسمى غاز الأوزون ، وهي تقوم بدور فعال في حماية الأحياء كلها على الأرض ، في برها وبحرها ، من كثير من الاشعاعات المؤذية التي تنصب على الأرض من الفضاء . ويستطرد العلماء في ظنهم عن الكائنات البدائية الأولى ، فيقولون أن تلك الكائنات عندما كانت تعيش في الماوجو الأرض خلون من الأكسجين والأوزون لم يكن هناك ما يحمي الأحياء من أذى الاشعاع الخارجي ، ومن ثم فإنها كانت تعيش في طبقات دنيا بعيدة عن السطح كي يقبها الماء الذي فوقها من عدوان العوامل البيئية القاتلة .

وأشارتنا هنا - بقدر محدود - الى بعض ظنون العلماء عن الماضي السحيق ، لا يخرج بنا عن المنهج الذي أئزمتا به أنفسنا ، إذ أننا لانجزم بالقول بصحة تلك الآراء ولا « نفسر » بها القرآن الكريم . والواقع أننا بيئنا بما نستطيع أن نقول انه من حقائق العلم على صلق التفاسير التقليدية ، فزادناها تفصيلا ووضوحا بتعمقنا في فهم خصائص الماء التي تزلهه للقيام بهذا النور الذي لاغناه للأحياء عنه ، ثم أضفنا الى ذلك أن الأحياء جعلت من الماء وخلقت خلقا منه - بالمعنى الحرفي للألفاظ ومعنى الابتداء لحرف « من » « فون تجوزر أو تأويل ، كما بيئنا أيضا أن الأكسجين الذي يحفظ جلوة الحياة متقدمة في الأحياء هوبة من الماء . فسبحان من كان هذا خلقه المعجز وسبحان من كان هذا كلامه المحكم .

### ٢ - الابل نموذج فريد في اعجاز الخلق

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر .... » - ( الناشية ١٧ - ٢١ ) .

فهكذا تكون الابل أول ماثلت هذه الآيات الكريمة إليه أنظارنا بهذا الأسلوب الذي يحض الانسان حضاً جليلاً على التفكير والنظر في آيات الله في خلقه مدخلاً الى الإيمان بقدرته الخالق وبتدبير صنعه . ويظن بعض الناس أن الابل قد ذكرت مجرد مثال لشيء مما خلق الله من حيوان ، ولعلهم يزيدون على هذا قولهم إن هذا المثال مناسب لخطاب العرب بشيء من مألوف بينهم . ولاشك في هذه المناسبة للمخاطبين الأوائل ، فهذا أساس البلاغة ولكن الصحيح أيضاً أن الابل غोज فريد وفي خلقها آيات من أحكام التقدير ولطف التدبير ما شغل العلماء على مر العصور . وسنرى أن ماكشفه العلم منذ بضع سنين عن بعض الحقائق المذهلة في حياة هذا المخلوق العجيب يفسر لنا السر في أن الخالق العظيم قد خصها ، من بين مالا يحصى من مخلوقاته ، بالذكر .. نموذجاً يتدبر في دراسته المتدبرون .... البدوي بقطره السليمة وعالم البيولوجيا في أواخر القرن العشرين بأجهزته ووسائله المستحدثة . وأذكر أنني كنت منذ سنين كثيرة بين صفوة من المثقفين المسلمين ، فلمست منهم عدم التنبيه الى هذا الشيء الفريد في الابل بذاتها والانسياق وراء الرأي السطحي الشائع من أن الابل لم تكن سوى « مثال مناسب للمقام » ، فكتبت منها ومذكراً بما يحفل به علماء غير مسلمين ويجهله أو يتجاهله أبناء أمة القرآن الكريم ( عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٥ ) . وأرد أن أشير منذ البداية أن آية الابل دليل على « الصدق العلمي » للقرآن الكريم ( دون حاجة الى دليل ) وليست مثالا ما يوصف بأنه « سبق علمي » ، كما يحلو للبعض أن يقول . ثم إن الآية الكريمة غोज أيضاً لما يمكن ان يؤدي اليه « النظر » بكافة مستوياته ، وليس في نصها شيء من حقائق العلوم أو نظرياتها ، وانما فيها ما هو أعظم من هذا : مفتاح الوصول الى تلك الحقائق ، بذلك التوجيه الجميل من العليم الخبير بأسرار خلقه .

آراء المفسرين :

لم يرق أمام المفسرين في هذا الموضع مشاكل في الفهم تثير الخلاف ، وسوف أكتفي بما ذكره الامام البيضاوي في تفسيره : « أفلا ينظرون » نظر اعتبار ( الى الابل كيف خلقت ) خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال الى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضة بالحمل مفادة لمن اقتادها ، طوال الأعناق لتنوء بالأفكار ، ترى كل نابت تحتمل العطش الى عشر فصاعداً ليتأني لها قطع البوادي والمفاوز مع ما لها من منافع أخرى ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المثبتة في الحيوانات التي هي أشرف المراكب وأكثرها صنعة ، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع . وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة . وهذا كله قول جميل ، ولاتعليق لي على الرأي القريب في الجملة الأخيرة من الاقتباس .

النظر القطري الصحيح في الابل :

مازالت الابل في كثير من المناطق القاحلة الوسيلة المثلى لارتباد الصحارى فهي مهياً لهذا على خير الوجه .

وقد تقطع قافلة الابل، بما عليها من زاد ومتاع، نحواً من خمسين أو ستين كيلومتراً في اليوم الواحد، ولم تستطع السيارات بعد منافسة الجمل في ارتياد المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة التي لم تزل ميدانه دون منازع . ومن الابل ماهومتين البنيان قادر على حمل الأثقال الفادحة ، ولكن منها أيضاً الرواحل المضرة الاجسام ، وهي أصلح للركوب وسرعة الانتقال ، فقد تقطع في اليوم الواحد مسيرة مائة وخمسين كيلومتراً . ويستطيع البعير أن يحمل الأثقال عندما يبلغ من العمر أربع سنوات ثم يمضي في القيام بواجباته « الثقيلة » حتى يتم الخامسة والعشرين بل ربما الثلاثين . ولعل الجمل العربي كان أول دابة استخدمها الانسان لحمل الأثقال ، فقد وجدت مع عظام الانسان في مقابر يرجع تاريخها الى خمسة الاف سنة قبل الميلاد . ( ميلن وميلن ، ١٩٦٦ ) . ولعل الابل هي أخص الأنعام بحمل الأثقال والارتحال في قوله تعالى : « ولأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم » - ( النحل : ٥ - ٧ ) .

وللبري في إبله « منافع » غير الانتقال والحمل ، فهو ينال من ألبانها ولحومها وينسج كسائه من أوبارها ويبني خبائه من جلودها ، وهي خير معين له على الحياة في بيئة ليس من اليسير فيها تربية سواها من الأنعام . فلا عجب أن كان يقاس ثراء العربي بما عنده من الابل . وفي الحديث الشريف : « الابل عز لأهلها .... » ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « لانسبو الابل فان فيها رقيه الدم ومهر الكريمة » . وحسب الابل فضلاً أن الله جعلها خير ما يهدي إلى بيته الحرم وجعلها من شعائره : « والبدن جعلناها لكم من شعائره الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صوافاً فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » - ( الحج : ٣٦ ) . ولا يخلو ديوان شعر عربي من ذكر الابل والتغني بحاسنها وأفضالها ، وفقه اللغة العربية غني بأوصافها في كافة أحوالها وأعارها وألوانها ، في تفصيل رائع ودقة بالغة .

والابل نوعان ، ذوات السنام الواحد وذوات السنامين . والأول منها هو الجمل العربي وهو الذي ينصرف اليه الكلام إذا ذكرت الابل دون تخصيص ، وهو منتشر في شبه الجزيرة العربية ويمتد منها شرقاً الى الهند وغرباً الى البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى في أفريقيا . أما النوع الثاني ، ذو السنامين ، فهو الابل « العوامل » التي تستوطن أواسط آسيا .

والابل من الحيوانات العجيبة . ولكن لعل طول ألفة الناس لها أذهب عجبهم منها - كما يقول الهميري . وأول ما يروى عنها ضخامة أجسامها ووثاقة بنيانها وارتفاع قوائمها وطول أعناقها ، ولكنك إذا أعدت النظر فيها مدققاً وجدت في تفصيل تكوينها لطائف تأخذ بالالباب . فالعينان تعلوان الرأس وترتدان الى الخلف ، وهذا يضفي على الجمل ، حين ينظر بميلاً رأسه الى الخلف أو الى أحد الجانبين ، مظهر المعن المتفكر أو الفخور المختل . وهي محاطتان بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانها القذى والرمال . أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز ، وفضلاً



شكل هـ

الجمال يمثل صفحة كاملة من كتاب أمريكي حديث في البيولوجيا دليل قاطع على أن الابل لم تذكر في سورة الفاشية بحجة مثال لواء من مخلوقات الله ، قد تكون ميزته الأولى أنه مأولف للبدو في الصحراء ، كما يقولون ... فهذا الكتاب يعرض على الشباب من طلاب العلم في بلاد لا ترى فيها الابل إلا في حدائق الحيوانات

إن النظرية التطورية المتأصلة في الابل أفتت الناس منذ عهد تزل الرعي بصور طاهرة فيها من أعجاز الخلق متقدمة بقدرة الخالق ، أما العلماء للتحقق فيما يزالون حتى اليوم يجهلون في ذلك المخلوق آيات خفية جديدة على يدع صنع بارئه ولطف تدبيره .

( from : Wilace, 1978 — p. 227 )

عن أن الشعر يكتنفها من كل جانب ليقبها الرمال التي تذررها الرياح ، لها القدرة على الانثناء خلفاوالالتصاق بالرأس اذا ماهبت المواصف الرملية . وكذلك المنخران يتخذان شكل شقين ضيقين يحاطين بالشعر وحافاتها لحماية فيستطيع الجمل أن يفلقها دون ما قد تحمله الذاريات الى رتبته من دقائق الرمال . ليس هذا وحسب ، بل إن الجمل محصن اذا أدير أيضا ، فذيله يحمل على جانبيه شعرا يحمي الأجزاء الخلفية الرقيقة من حبات الرمل التي تقذفها الرياح السافيات كأنها وابل من طلقات الرصاص .

أما قوائم الجمل فطوال نرفع جسمه عن كثير مما يثورتحت من غبار ، كما أنها تساعد على اتساع الخطو وخفة الحركة . ولا تتحصن أقدام الجمل بأظلاف كبيرة صلبة ، كما هي الحال في معظم ذوات الأظلاف ، إنما تنتهي كل واحدة من أصبعي القدم بظلف صغير كأنه الظفر ، بينما تلتصق الأصبعان حتى تصبح القدم خفا واحدا يغلفه جلد قوي غليظ يضم قاعدة عريضة لينة تتسع عندما يدوس الجمل بها فوق الأرض ، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمال نوعة حيث تسخ قوائم أية دابة سواء . وجدير بالذكر أن الجمل يسير ، كما بينا ، على أخامص أقدامه كاملة بينما غيره من ذوات الأظلاف تسير على أطراف أصابعها وحسب . وترجع خطأ البعير الطويلة المتأرجحة بين الصعود والهبوط إلى انه يتقدم بالرجلين على كل جانب معا ، فكأنه السفينة تركب الأمواج الهينة ، ولعله بهذا - مع سائر مزاياه الأخرى - استحق لقب « سفينة الصحراء » .

وحين يبرك الجمل للراحة أو يناع ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك ، على مفاصل أرجله . ويرتكز الجمل بمعظم ثقله على كلكله ، حتى أنه لو جثم به فوق حيوان أو انسان طحنته طحنا ، ومن ثم قوهم « ناخ الزمان أو ناء على فلان بكلكله » . وهذه الوسائد نعمة من نعم الخالق على هذا الحيوان العجيب ، إذ أنها تهينه لأن يبرك فوق الرمال الخشنة الشديدة الحرارة ، وكثيرا مالا يجد الجمل سواها مفترشا له فلا يبالي بها ولا يصيبه منها أذى . والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزود بهذه الوسائد المنغلظة ، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاة أو لبس الأحذية الضيقة .

وما يناسب ارتفاع قوائم الجمل طول عنقه ، حتى يستطيع أن يتناول طعامه من نبات الأرض ، كما أنه يستطيع قضم أوراق الأشجار المرتفعة حين يصادفها . هذا فضلا عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعا عن الأقدام ويساعد الجمل على النهوض بالأنفال . ويروي الدمييري - في « حياة الحيوان الكبرى » - أن أحد الحكماء ، من غير العرب ، وصف له شيء عن بناء جسم الابل وعن بديع خلقها ، ففكر فيما سمع ثم قال : « يوشك أن تكون طويلة الأعناق ! » .



كل هذا جميل ورائع ومقتع ، ولكنه لا يعدو النظر الفطري المتأمل فيما نسميه خصائص البنيان ( الخارجى ) والشكل ، أي الخصائص المورفولوجية - في لغة البيولوجيين - ، بيد أن خصائص الابل الوظيفية أجمل وأروع

وأكثر إقناعاً ، وإن كانت في حاجة إلى تحليل العلماء للظواهر وبحوثهم في أسرارها بمنهاجهم العلمي كي يظهرها بعض غوامضها ، وهذا ما سوف نشير إلى بعض منه فيما يلي . ومعظم البحوث الهامة والمتعة في هذا المجال قام بها الزوجان ثُت وبودل شملت - نيلسن على الابل في الصحراء الكبرى الافريقية ، ونشرا نتائجها في عدة مقالات ، وعرضها ثُت شملت - نيلسن في كتابه عن فيزيولوجيا الحيوان ( ١٩٧٥ ) . ويوجد عرض طيب للموضوع في فصل من فصول كتاب المؤلفين لورس ميلن وماجري ميلن عن الماء والحياة ( ١٩٦٦ - ترجمة عربية ) . ويعتبر هذان المرجعان أهم مصدرين لنا في هذا الموضوع في هذا المقال . وخلق الله كله معجزاً فالجبروتية المتناهية في الضائلة ، وكل خلية من كائن حي كبير أو صغر . فيها من آيات الابداع في الخلق الكثير ، وما كشفه العلم منها - وهو قليل نسبياً - فيه الكفاية وزيادة لمن نظر إليها بفكر متفتح مستدير وقلب واع سليم . ولهذا سوف نقصر كلامنا - على قدر الامكان - فيما تختص به الابل ، وان كانت مشتركة في كثير غيره مع سواها من الكائنات .

### صبر الابل على الجوع والظما :

شهرة الابل بصبرها الشديد على الجوع والعطش ذاتة ، ورويت فيها حكايات واساطير ، ولكن الحقائق التي من خلفها ، كما كشف عنها العلم الحديث ، أعجب من الخيال . وفي بيئة الابل التي يقل فيها الزرع ، لن يكتب العيش إلا لحيوان فطر الله جسمه على حسن تدبير أمور الغذاء والشراب . وقد لا يجد الجمل ما يقتاته سوى نبات الصحراء الشائك الحشن تلملمه شفتاه الغليظتان ، لا سيما شفته العليا المشقوفة فهي مهياً لهذا العمل ، ثم تتولاه أسنانه القوية ببعض الطحن قبل أن يزدوده ليحتفظ به فترة في كرشه ثم يجتره ليعيد مضغه في أناة عندما تكون الظروف مواتية لذلك . « ومعدة » الجمل ، كغيره من المجترات ، مقسمة غرقاً متتابعة ، ولكنها هنا ثلاث لا أربع . ويستضيف الجمل في كرشه حشوداً هائلة من البكتيريا والبروتوزوا ( الحيوانات الأولية ) تهضم له السليولوز - وهو المكون الرئيسي في الغذاء النباتي الجاف - حتى يستطيع أن يفيد من ذلك الجزء من طعامه الذي كان مستحيلًا عليه هضمه والافادة منه لولا تلك الكائنات الدقيقة . وتقوم بين المضيف ومضيفه علاقة فيها مثل فذ من التعاون البيولوجي ، ولكن الابل ليست فريدة في هذا الباب ولهذا لن نستطرد في الحديث عن هذه النقطة إلى أبعد من هذا ، وإن كنا سوف نعود إليها لسبب آخر .

يستطيع الجمل أن يتحمل العطش أياماً طويلاً يتوقف عددها - طبعاً - على كثير من الظروف والأحوال ، مثل بنيانه الموروث ومدى إجهاده في الحمل أو السير ودرجة حرارة الجو ونسبة الرطوبة فيه . ونوع الغذاء الذي تقتاته الابل له أهمية خاصة في ذلك ، فهي إن كانت تطعم نباتاً طرياً غنياً بعد أمطار الشتاء استطاعت أن تصبر على العطش شهرين متتاليين بل ربما أعرضت عن الماء إعراضاً حين يعرض عليها ، وذلك لأن الماء الذي كان في طعامها الرطب فيه الغناء . وقد حاول الزوجان شملت نيلسن أن يدفعوا الابل في بعض واحات شمال أفريقيا دفعاً

إلى شرب الماء في الشتاء بخدعة لطيفة . فقد علمنا أن الابل كانت تزدد التمر كاملا بنواه قبل أن تعود لتجتره فيما بعد ، فقدمنا إليها تمرا نزعاً منه النوى ووضعنا بدلا منه حبات من الفول السوداني ، وكان هدفها من ذلك زيادة نسبة البروتين في طعام الابل مما يدفعها دفعا إلى شرب الماء اللازم لإخراج نواتج استخدام الجسم للبروتينات . والطريف أن معظم الابل لم تحبَّ عليها الخدعة فلفظت التمر المحشو . أما الابل التي قبلت هذا الطعام الغريب فانها قد استنفدت كل مائي الواحة من فول سوداني قبل أن تظهر عليها بوادر العطش . ( لهذا علاقة بطريقة إخراج الكلبيين للبول ، كما سوف نذكر فيما بعد ) .

أما إذا كان غذاء الابل جافا يابساً فانها قد تنحمل قسوة الظمأ في هجير الصيف أسبوعين كاملين أو أكثر ، ولكن آثار هذا العطش الشديد سوف تصيبها بالهزال حتى أنها قد تفقد نحواً من ربع وزن أجسامها في ذلك الزمن القصير . ولكي ندرک مدى هذه المقدرة المارقة علينا أن نتذكر أن الانسان لن يحيا في تلك الظروف أكثر من يوم واحد أو يومين . فان الانسان إذا فقد نحو ٥٪ من وزنه ماء فقد صواب حكمه على الأمور ، أما إذا فقد نحو ١٠٪ من وزنه ماء صمَّتْ أذناه وخطأ وهذى وفقد إحساسه بالألم ( وهذا من لطف الله في قضائه ) . أما إذا تجاوز فقده ١٢٪ من وزنه ماء فقد قدرته على البلى ، فتستحيل عليه النجاة حتى إذا وجد الماء إلا بمساعدة منقذيه ، وهو في هذه الحالة لن يكون بينه وبين الهلاك المحتم سوى نحو ثلاثة أكواب من الماء !

ولكن انظر الى البعير .... إنه قد يفقد ربع وزن جسمه ماء ، بل ربما ثلثه ، ويمضي في حياته صلدا لا تخور قواه ، فاذا ما وجد الماء عثَّ منه عثاً ، دون مساعدة أحد . وقد لاحظت شمت - نيلسن أن جملاً حرم الماء في قبض الصحراء ثمانية أيام ففقد من وزنه مائة كيلو جرام ، فلما قدم إليه الماء تجرع منه نحو مائة لتر في عشر دقائق ! وبهذا استعاد الجمل في تلك الدقائق المعدومات ما فقد من وزنه في تلك الأيام العصيبة الطوال . أما اذا أنقذ انسان أشرف على الهلاك من الظمأ ، فينبغي على منقذه أن يسقيه الماء ببطء شديد تجنباً لآثار التغير المفاجئ في نسبة الماء في الدم . وسوف نعود الى الفرق بين حال الدم في الانسان وفي الابل عند الظمأ ، في موضع لاحق ، ولكننا قبل أن نترك هذه النقطة يحسن بنا أن نقف هنيئة للتلفت الى بلاغة التشبيه الالهي في وصفه تعالى للضالين المكذبين يأكلون من شجر من زقوم ، ثم يأكلون رد أنفسهم عن تجرع الحميم ، وذلك في قوله تعالى : « فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الحميم » - ( الواقعة : ٥٤ ، ٥٥ ) . والهميم هي الابل العطاش ، يصيبها المرض بظمأ لا تطفأ ناره .

وتمت ميزة أخرى للابل على الانسان ، فان الجمل الظمآن يستطيع أن يطفيء ظمأه من أي نوع من الماء وجد ، فهو لن يرفض فضلة من ماء في مستنقع شديد الملوحة أو الماررة ، بل يعتقد أنه يستطيع أن يرتوي من ماء البحر وأن يطعم بأعشاب البحر وفيها تركيز شديد من الأملاح . أما الانسان الظمآن فان أية محاولة من هذا القبيل - حتى إن استطاع تجرعها - فانها تكون أقرب الى تعجيل نهايته ، كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق



من هذا المقال . وترجع قدرة الجمل المحارقة على تجميع محاليل الأملاح المركزة الى استعداد خاص في كليته لخارج تلك الاملاح ... وهذه ميزة أخرى للابل سوف نعود اليها بعد قليل .

### أين مخزن الغذاء ؟

كل أنواع الحيوان تخزن ما يفيض عن حاجتها العاجلة مما تطعم وتهضم في صور مدخرة من الغذاء غير قابلة للذوبان - الا عند الحاجة اليها . وقد يخزن الغذاء في صورة جليكوجين ( نشا حيواني ) أو دهن . والدهن هو أفضل الأغذية المدخرة لأنه أكثر صور المواد العضوية المولدة للطاقة تركيزا . ومعظم الدهن يخزنه الجمل في سنامه ( أو سناميه ) ، فإذا ما طال السفر وزاد العناء وشح الغذاء ، أو حتى انعدم تماما ، لجأ الجمل الى دهنه المخزن فأخذ يحرقه شيئا فشيئا وسناميه يذوي يوما فيوما حتى يبيل على جنبه ثم يصبح كبسا خاويا منهذلا من الجلد ، اذا طال بالجمل المسافر المنهك الجوع .

### وأين مخزن الماء ؟

لم تكن الاجابة على هذا السؤال يسيرة كما كانت عند بحثنا عن مخزن الغذاء . فقد كان كثير من المؤلفات « العلمية » يقول إن الجمل يخزن الماء في معدته ، وتنسق لذلك دليلا أن القسمين الأول والثاني منها ، وعلى الأخص الأول منها وهو « الكرش » ، باطنها مقسم بألياف متقاطعة الى جيوب صغيرة وأن فتحات تلك الجيوب تقوم عليها عضلات تستطيع فتحها أو إغلاقها . فإذا ما شرب الجمل وارتوى وامتلأت معدته ارتفعت العضلات فامتلأت الجيوب ثم انقبضت عضلاتها ولم تنبسط لتجد بما فيها الا عند العطش . بيد أن تحصيل هذا الزعم أثبت خطأه ، فقد اتضح أن ما قد تمسكه تلك الجيوب في جدار المعدة من الماء لا يزيد على خمسة ألتار الى سبعة ، وهو مقدار يسير ضئيل بالنسبة لذلك الحيوان الجسيم ، هذا فضلا عن أن فحص محتويات تلك الجيوب أظهر أنها تضم كثيرا من الطعام المضغوط ، وأن السائل القليل الذي بها هو أخضر اللون مر المذاق يحوي خثائر هاضمة ويصعب بتلك الكائنات الدقاق التي ذكرنا أنها تعين المجترات على هضم طعامها الخشن الغليظ .

وثمة رأي « علمي » آخر يقول إن السنام مخزن للغذاء وللشراب . فأما إن كان المقصود أن بالسنام ماء مخزنا فهذا خطأ صراح ، فالسنام معظمه دهن ، كما ذكرنا . ولكن الذي يعنيه العارفون شي آخر ، وهو أن احتراق الدهن المخزن في السنام لاطلاق الطاقة منه حين يشح الغذاء يطلق ماء ( وهذا الماء يسمى ماء الأبيض ، أي الماء الذي يتكون نتيجة التفاعلات الكيميائية الحيوية داخل الجسم ) . وهذا هو من قبيل الماء الذي يتكون بخارا حين تحرق شمعة ، على سبيل المثال ، وتستطيع أن تتأكد من وجوده بأنك اذا قربت لوحا زجاجيا باردا فوق لهب الشمعة تكاثف عليه الماء الناتج من الاحتراق . وهذا أيضا هو مصدر البخار الخارج مع هواء الزفير . وبعض

صفار القوارض ، كجزء القنفر ، يعتمد على هذه الطريقة الكيميائية الداخلية في حصول أجسامها على ما تحتاجه من ماء ( نت وبول شملت - نيلسن ، ١٩٥٩ ) ، ولكن تمحيص هذا الرأي بالنسبة للإبل أظهر أنه ليس على جانب كبير من الصواب ، وذلك لأن ما يفقده الجمل من بخار ماء الأيض مع هواء الزفير يكاد يعدل ما يتكون في جسمه نتيجة حرقه الدهن المخزن في سنامه ، فضلا عن أن الهواء الداخل في الشهيق من البيئة الجافة محتاج الى ترطيب في أثناء دخوله الى الجهاز التنفسي .. وهذا يستهلك أيضا جزءا من رصيد الجسم من الماء .

وبعد استبعاد هذين الاحتمالين لايقي الا احتمال ثالث ، وهو أن الجمل لا يحتفظ بالماء المدخر في معدته ولا في سنامه ( في صورة دهن قابل للاحتراق ) ، وإنما هو يحتفظ به موزعا في كافة أنسجة جسمه وفي كل عضويه . ولكن الأهم من ذلك أن الجمل يقتصد في استخدام ماعدته من ماء غاية الاقتصاد ، وله في ذلك حيل وأساليب خارقة تدعو للمجب وتسيب الخالق « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » - ( طه - ٥٠ ) .

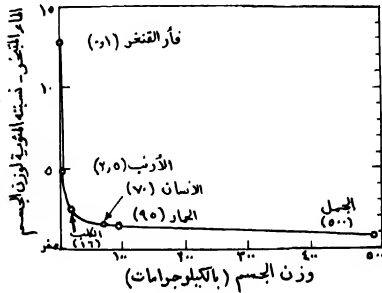
#### فنون في اقتصاد الماء :

يتناز الجمل بأنه لا ينتفس من فمه ولا يلهث أبدا مهما اشتد الحر أو استبد به العطش ، وهو بذلك يتجنب بخر الماء من هذا السبيل . هذا فضلا عن أن جلد الجمل لا يجود الا بأدنى مقدار من العرق وعند الضرورة ، وهذا له علاقة بامتياز جهاز التكيف والتبريد في جسمه ، كما سوف نشرح بعد قليل .

بيد أن اقتصاد الماء يرتبط أيضا بامتياز جهاز الاخراج في الإبل . فالمعروف أن أهم المواد المخرجة هي اليوريا ( أو البولينا ) الناتجة من هدم المواد البروتينية في الجسم . وهذه المادة تخرج في البول ذائبة في الماء ، فكلمها دعت الحاجة الى اخراج كمية أكبر من اليوريا استهلك الانسان أو الحيوان كمية من الماء . ولكن معظم اليوريا المتولدة في جسم الجمل تفرزها بطانة المعدة . وهنا تتحقق فائدتان : أولاها هي إمداد الكائنات الدقيقة التي قلنا إنها تعيش في كرش الجمل ونهضم له السليولوز بمادة عضوية نيتروجينية لازمة لها ، وهذا حسن رعاية من المضيف لضيوفه الصغار . وثانيها أن ما يفيض منها يخرج مع البراز دون حاجة الى إذابته في ماء كمي يخرج مع البول . وفلا عن توفير مقدار عظيم من الماء بهذا الأسلوب تتحرر الكليتان من عبء كبير كان عليهما أن تقوما به ، وبذلك تستطيعان إخراج الأملاح الزائدة التي قد يضطر الجمل الى تناولها حين تدعو الضرورة الى تجموع ماء شديد الحرارة أو الملوحة ، كما ذكرنا . وكليتا الجمل على وجه العموم قادرتان على إخراج بول شديد التركيز بعد أن تستعيدا معظم مائيه من ماء لترده الى الدم . ( وإخراج جزء من البولينا عن طريق المعدة ظاهرة في الثدييات عامة ، والمجتزات على وجه الخصوص ، ولكنها في الإبل تتخذ صورة تحقق له فائدة خاصة ) .

وأعجب من هذا كله ... جهاز تبريد وتكييف معجز :

وهذا الذي ذكرناه عن عظم تحمل الجمل للظما وحسن اقتصاده في استخدام الماء له اتصال وثيق بأسرار مذهلة في دولا ب التحكم في درجة حرارة جسمه لم ينفذ العلم الحديث اليها الا منذ قريب . وأول مزية للجمل هي حجمه الضخم ، فالقاعدة المعروفة أنه كلما زاد حجم الجسم قلت نسبة سطحه الخارجي اليه . ومعنى هذا أن ما يتحصه جسم الجمل من حرارة الجو الفائض من حوله أقل نسبيا مما يتحصه انسان أو جسم فأر . والحرارة التي يتحصها الجسم تستتب العرق لتبريدها ، وعلى هذا تتناسب كمية العرق اللازم لإخراجها للتبريد تناسباً عكسياً مع حجم الحيوان . ويتضح هذا من شكل ٦ الذي يوازن بين مقدار العرق النسبي اللازم لتبريد الانسان والجمل و عدة حيوانات أخرى اذا ما سخنت أجسامها . ويكفي أن نشير هنا الى أن كمية الماء الواجب على الجمل إخراجها فهي نصف ما يلزم الانسان إخراجها ( هذا يفرض أن الجمل مثل الانسان ، ولكن الواقع أن الجمل يفوق الانسان في نواح وظيفية أخرى كثيرة ) . وهذه الحقيقة تضطر صفار القوارض الى اللجوء الى أعماق جحورها الرطبة طيلة نهار الصحراء الفائض والاهلكت سريعاً .



شكل ٦

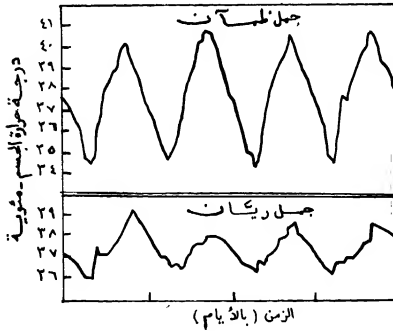
موازنة بين كمية الماء التي يتحصها على الانسان والجمل وبضعة حيوانات أخرى أن يخرجها عرقاً حتى تبرأ أجسامها في حر الصحراء . ومنه يتضح تفوق الجمل على هذه الكائنات جميعاً . ( معدل عن شميت نيلسن ، ١٩٧٥ ) .

وجسم الجمل مغطي بوبر كثيف يسقط معظمه بعد انتهاء الشتاء ، ولكن مايبقى منه في الصيف يعزل الجمل عزلا طيبا عن الجو المتقد من حوله ، فيقلل من مقدار الحرارة التي يمتصها جسمه ، ومع ذلك فإن سُك هذه الفروة لا يحول دون تبخر القدر الضروري من العرق نظرا لجفاف جو الصحراء . ويبدو أن هذا السر قد تعلمه البدو والأعراب من الابل ، فهم يلتحفون بعباءات من الصوف وهم في هجير الظهيرة ويبدون متمتعين بمقدار عظيم من الراحة ، بينما وفقاؤهم الأوربيون يعجبون لذلك وهم يكادون يفرّون صرعى الحر بأقمصتهم الرقيقة المفتوحة وسراويلهم القصيرة !

ولكن ثمة ظاهرة أخرى في جلد الجمل وهي الرقة الشديدة للطبقة الدهنية في جلده ، وذلك لأن معظم الدهن مخزن في سنامه . وتبدو فائدة هذا الترتيب عندما تكون درجة حرارة جسم الجمل أعلى من درجة حرارة الجو ، إذ أن قرب الأوعية الدموية من السطح ، دون عازل من دهن ، يسمح باشعاع حرارة الدم أو نقلها إلى الجو المحيط بالحيوان ، دون حاجة إلى إفراز عرق ... ولعل صورة إخواننا البُدن السمان وهم يتصبّبون عرقا تزيدنا إدراكا لحقيقة الأمر . والعجيب أن الجمل مفطور على تصرف حكيم حين يترك على الأرض الملتصّية في راحة الظهيرة ، فهو يواجه الشمس وبذلك يكون معظم ما يتعرض جسمه لها ظهرو الذي يعزله ويحفظه السنام الدهني السميك ، أما أجزاؤه السفلى التي يغطيها الجلد الخالي من بطانة الدهن فانها تواجه أرضا ابتدت نسبيا بظل البعير نفسه !

ولكن أعجب ما في الأمر هو جهاز ضبط الحرارة في جسم الابل . فالابل كثيرها من الثدييات والطيور أيضا حيوانات ثابتة الحرارة ( ذوات دم حار ، كما يقال ) ، ومعنى هذا أن حرارتها لا تتغير بتغير درجة حرارة الجو من حولها إلا في أضيق الحدود . وهذه ولا شك ميزة كبرى ولكنها تكلف الجسم كثيرا في عمليات التبريد صيفا وعمليات التدفئة شتاء . وجهاز ضبط الحرارة في الانسان جهاز فائق الحساسية . وارتفاع درجة حرارة أجسامنا درجة واحدة تجعلنا نهرع لتناول خافضات الحرارة أو إلى زيارة الطبيب ، كما أن انخفاضها عن معدل المعتاد ( نحو ٣٧°م في المتوسط ) نقول إنه منذر بعلامة هبوط عام ينبغي أن يتدارك بالعلاج السريع . أما جهاز ضبط الحرارة في الابل فانه جهاز من ذكي أريب ( وسبحانه المديبر اللطيف ) فإذا كان الجمل ريانا أخذ الجهاز يباشر عمله المعتاد فلا تتفاوت حرارة جسم الجمل بين نهار الصحراء الحارق وليلها القارس إلا في حدود درجتين أو نحو ذلك ، أما إذا عطش الجمل واشتد الحر عدل حركة تنظيم الحرارة في المخ من مسلكه ، وأبدى كثيرا من التساهل حتى يصبح مدى تفاوت درجات الحرارة في جسم الجمل نحو سبع درجات كاملة ، بين ٣٤°م في الصباح الباكر ونحو ٤١°م ظهرا ، وتصبح هذه كلها حدودا طبيعية معتادة يتحملها الجمل دون عرض أو مرض ! ( شكل ٧ ) . فانظر ماذا يترتب على هذا : تعظم سعة الجسم في اختزان الحرارة فلا يضطر الجمل إلى العرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه ٤١°م ( وهي حمى خفيفة بالنسبة إلينا ) ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار . أما في المساء فإن الجمل يتخلص من الحرارة التي اختزنها باشعاعها وتوصيلها إلى هواء الليل البارد دون أن يفقد قطرة ماء . وهذا الاجراء

وحده يوفر للبعير خمسة أطنان كاملة من الماء . ثم هناك أمر آخر ، وهو أن الجسم يكتسب الحرارة من الوسط المحيط به بقدر الفرق بين درجة حرارته ودرجة حرارة ذلك الوسط . فلو أن جهاز ضبط الحرارة كان دقيقاً روتينياً لكان الفرق بين درجة حرارة الجمل ودرجة حرارة هجير الظهيرة فرقاً كبيراً ، مما يجعل جسمه يمتص من الجو المحيط مقداراً فظيماً من الحرارة (يكتسبه الانسان مثلاً) ، ولكن عندما ترتفع درجة حرارته إلى ٤١°م يصبح هذا الفرق قليلاً وبذلك يصبح ما يمتصه قليلاً أيضاً ! فانظر معي كيف أن الجمل الظهاني يصبح أقدر على تحمل القَيْظ من الجمل الرياني !



شكل ٧

تذبذب درجات حرارة الجسم في الجمل الرياني لا يتجاوز درجتين مئويتين ، بينما تتأرجح درجات حرارة جسم الجمل الظهاني في حدود سبع درجات كاملة ، تعد كلها حدوثاً طبيعياً لذلك الحيوان المعجب .  
( معدل عن شبيت نولسن ، ١٩٧٥ )

بل إنه مازال في جملة الغرائب المعجزة في هذا الحيوان الفريد ما هو أعجب . فأننا إذا تعمدنا وضع جمل في ظروف بالغة القسوة بأن منعه عن شرب الماء ثم جزئنا فروته وتركناه طيلة النهار في هجير الصحراء الالاف ثم حرمانه من ليلها الباردة بأن حبسناه في مكان مغلق داخلي ، فانه سوف يصمد لهذا التحدي صموداً مذهلاً ، إذ تثبت كفاءة أجهزته الوظيفية الحارقة ، فهو طبعاً سوف يستهلك ماء كثيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء مع هواء الزفير

حتى يفقد نحو ربع وزن جسمه دون تبرم أو شكوى . ولكننا سوف نكتشف أن معظم هذا الماء الذي فقده استمد من أنسجة جسمه ولم يستفد من ماء دمه إلا الجزء الأقل ، وبذلك يستمر الدم سائلا جاريا موزعا للحرارة ويبدد لها من سطح الجسم ، وهذا أمر لا بد منه فيه كائن آخر ، فإن أخطر ما يتعرض له الإنسان الظآن هو أن نسبة الماء في دمه تقل حتى يغلظ ويبطؤ دورانه ، فلا تتوزع الحرارة المتولدة في أنسجة جسمه ، ومن ثم ترتفع درجة حرارته ارتفاعا فجائيا لا تتحملها أجهزته - وخاصة دماغه - وفي هذا يكون حتفه !

ألا ترى معي أن الله سبحانه وتعالى قد اختص هذا النموذج الفريد من مخلوقاته كي ينظر الناس فيه لأسرار عجيبة أودعها فيه بآرته ولا يعلمها إلا هو ، ثم تأمل معي ذلك الإعجاز البلاغي الذي ظل مقننا للإنسان منذ عهد نزول الوحي إلى القرن العشرين وما بعده ، وببيننا مؤثرا عند البيهقي صاحب الفطرة السليمة وعند البيهولجي الباحث المتمتع ، سواء بسواء !

### ٣ - الطير الصفات

استطاع الإنسان أن يستغل مواهب الجسدية التي فُطر عليها في ارتياد بيئات شتى في هذا الكوكب . فالأرض قد بسطها الله أمامه وذللها له فمضى في مناكبها ، واستطاع أن ينفذ إلى أواسط الغابات والأحراش . ويتسلق أعلى قمم الأشجار الشاخقة ، ويتسنى ذرا قن الجبال السامقة ، كما أنه استطاع أن يجتاز الصحاري المحشوة والمفاوز المهلكة . بل حتى البحار سلبح فيها مسافات قبل أن يصنع لنفسه طروفا أو فلكا ، وغاص إلى أعماقها باحثا عن درها وكنوزها . أما بيئة الهواء فقد جابهته بتحد عجز عن التغلب عليه حينما من الدهر ، ففي الهواء إما أن تكون كائنا فطره الله على الطيران أو لا تكون ! وتوالت محاولات الإنسان في تحقيق حلمه أن يلحق بالطير ، فصنع لنفسه أجنحة أوردته موارد الهلاك ، ثم اصطنع لنفسه أدوات للطيران عجزت عن إبلاغه أمانيه . بيد أن الله وهب الإنسان عقلا لم يهبه لشيء من مخلوقات الأرض ، فاستطاع أخيرا أن يصطنع لنفسه آلات طائرة مكنته من أن يجوب الآفاق ويدور حول الأرض ثم هبات له أن يقلت قليلا من قبضة جاذبيتها التي تضطره إلى أن يجلد إليها . وعلى أية حال ظلت الطيور مستوحدة على أبواب الناس ، جهاهم وعلمانهم وفي كل عصر .

الطير في القرآن الكريم :

دُكرت الطير ، بمعناها الحقيقي ومعانيها المجازية ، وطيرانها ثمانيا وعشرين مرة في القرآن الكريم<sup>(٥)</sup> . فقد ذكر « الطير » بمعنى التشائم و « الطائر » - على المجاز - بمعنى سبب الخير والشر أو التشائم أو عمل الإنسان وما قدر

( ٥ ) هذه الحسابات ، وأنتالفا في مواضع أخرى ، مؤسسة على المحم المهرس الحال الذي تركه لنا العلامة خدام القرآن الكريم « محمد فؤاد عبد الباقي » ، والذي يرجع المصحح إليه ويقل يذكره القارون .

له . وهناك إشارات إلى عموم « الطير » ، أو بعض جوارح الطير كتلك التي أكلت من رأس أحد صاحبي سيدنا يوسف ، عليه السلام ، في السجن بعد أن صلب ( يوسف : ٣٦ ، ٤٦ ) . وهناك أيضا منطق الطير الذي علمه الله سيدنا سليمان ، عليه السلام ( النمل : ١٦ ) ولهم الطير في الجنة ( الواقعة : ٢٦ ) ، والطير الأبايل التي سلطها الله على أصحاب الفيل ( الفيل : ٣ ) . بيد أننا سوف نكتفي بذكر المواضع المتعلقة بطيران الطيور :  
١ - « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم ... » ( الأنعام : ٣٦ ) .

٢ - « ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . » ( النحل : ٧٩ ) .

٣ - « ألم تر أن الله يسيح له من في السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسيبجه والله عليم بما يفعلون . » ( النور : ٤٦ ) .

٤ - « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير . » ( الملك : ١٩ ) .

ما يمسكهن إلا الرحمن :

ركوب الطائر متن الهواء أمر يثير العجب والاعجاب ، إذ أن الطائر مهما خف وزنه فانه يكون أثقل كثيرا من الهواء ، ومن ثم ينبغي أن يهوى من حلقه إلى الأرض وفقا لناموس الجاذبية الأرضية . أرأيت إلى الطائر المحلق في جو السماء كيف يفقد في لحظة واحدة قدرته على البقاء في الهواء إذا أصابته رصاصة صياد في مقتل ؟ إن الله ، جلّت قدرته ، خلق الكائنات كلها - من حي وجماد - وأودع فيها خصائصها ، فهو خالق ناموس الجاذبية عندما خلق الأجرام التي يجذب بعضها بعضا ، ولكنه - وهو اللطيف الخبير - بحاجات خلقه ، يسر الطيور لما خلقت له فأودع في أجسامها من آيات الخلق والبناء وما فطره عليها من حسن الأداء ، ما يجعلها تستطيع أن تتحرر من قانون الجاذبية الصارم في حدود . فإذاً هو وحده الذي يمسكها في جو السماء .

وهذا هو جملة ما نجد في كتب التفسير قد عرضناه بأسلوبنا وإن لم نخرج عن روحه ومغزاه<sup>(٦)</sup> . وهذا هو ما سوف نتناوله ، في إيجاز شديد ، بشيء من التوضيح والبيان في هذه الصفحات ، مع الالتفات بصورة خاصة إلى معنى « الصف » في الطيران . وسوف نقوم كل إغراء إلى الانسياق وراء التفاصيل المذهلة المتمعة لضيق المقام ، ويمكن لمن يريد الاستزادة أن يقرأ في بعض المراجع التي نشير إليها هنا : سنور ، ١٩٥٩ ( مترجم ) ، ولتي ، ١٩٥٩ ( مترجم ) ، أو رويل ، ١٩٧٧ ( بالانجليزية - وهو مؤلف عن طيران الطيور ) ، وغيرها كثير .

( ٦ ) سوف نشير إلى أقوال المفسرين فيما يتعلق بطائفة الصف في موضع لاحق

## الطيور كائنات عجيبة :

تحتل الطيور عامة بخصائص منها خفة وزنها ومثانة بناتها ومرونة أجزائها ودقة اتزانها وانسياب أجسامها ، وهي شروط يجب توفرها في أية آلة طائرة . فهياكل الطيور العظمية خفيفة للغاية ، إذ قد اختصر منها بعض الأجزاء والتحم بعض عظامها ببعض ، وتحول معظمها الى أنابيب رقيقة جوفاء ، وهي مع ذلك متينة ومرنة للغاية قادرة على تحمل القوى العظيمة المفاجئة في أثناء مناورات الطائر البهلوانية في الجو . أما رءوسها فقد صغرت وخلت من الأسنان ومن ثم لم تعد لها حاجة الى فكين ثقيليين وعضلات كبيرة لتحريكها ، فجمجمة الحمامة مثلا وزن سدس ما تزنه جمجمة الجرذ ، أى الفأر الكبير - مع حفظ النسبة . أما الطائر الفرقاط ( أى الطائر البارجة ) ، الذى يبلغ طول ما بين طرفي جناحيه المبسوطين أكثر من مترين ، فلا يزن هيكله العظمى كله سوى أربع أوقيات ( نحو ١١٣ جراما ) ، أى أقل من وزن ريشه . وفي القرن الماضى عبر عالم أمريكى عن الابداع في تكيف جمجمة الطيور بناتها الرائع بقوله انها « شعر منظوم في عظام » ! ( عن ولتى ، ١٩٥٩ ) .

أما الريش ، وهو أشهر ما يميز الطيور ، فانه مكيف تكيفا رائعا لترويح الهواء وتخفيف كثافة الجسم وعزله عزلا جيدا عن الجو ، فضلا عن مرونته الفائقة التى تمكنه من الالتواء والانتواء ، لتلبية حاجات الطيران سريعة التغير ، حتى لقد قيل ان ريش الطيور أقوى من أى جناح لطائرة صنعها الانسان . ولا ننسى أن توزيع الريش يهذب زوايا الجسم الباردة ، وهذه الميزة ، مع عدم وجود صيوانين بارزين للأذنين وكمش الطائر لعدة هبوطه - أى رجليه في أثناء الطيران ، تضى على الطائر شكلا انسيابيا لا يتعرض كثيرا لمقاومة الهواء .

ثم إن الطيور تتميز أيضا بخصائص وظيفية ( أى فيزيولوجية ) رائعة ، أهمها ارتفاع معدل العمليات الحيوية في داخل أجسامها ، فهي اذا ما ووزت بالحيوانات الثديية اتضح أنها أقدر على هضم الطعام ، وقلبيها أقوى وأكبر وأسرع نبضا ، ودمها ضغطه أعلى ونسبة السكر فيه أكثر ، ودرجة حرارتها أعلى ، وجهازها التنفسى أكفأ ، فالرئتان متصلان بمجموعة من الأكياس الهوائية المنتشرة في أنحاء الجسم ، مما يسر تبريد أجسامها أثناء الطيران ، فضلا عن الاسهام في تخفيف وزنها . وهذا كله يجعل أجهزتها آلات رابثة لانتاج الطاقة اللازمة للطيران ، فهي تستخدم غذاءها بكفاءة تفوق أضغاف كفاءة أحدث الطائرات في استخدام وقودها .

طيران الطيور ، بصفة عامة :

أما الطيران نفسه ففيه آيات معجزات ، ولم يفهم العلماء بعضها الا بعد تقدم علوم هندسة الطيران والديناميكا الهوائية . فالصحيح أننا بدأنا نفهم طيران الطير بعد أن تقدمنا في بناء الطائرات ، على نقىض ما يتبادر الى الذهن ويروج بين بعض الناس . فجناح الطائر لها جهاز طيرانه الأساسى ، كما تشير الآية ٣٦ من



سورة الأنعام في بساطة ووضوح يلتقيان مع ملاحظة الفطرة السليمة والدراسة العلمية المدققة على السواء ، ولكن العجيب هو أن جناحي الطائرة الحديثة يقابلان جناحي الطائر مقابل طاهرة فقط ، ولكنها لا يكافئانها تماما . فجنحنا الطائرة وظيفتها الرفع الى أعلى دون إحداث قوة الدفع الى الأمام ، فهذا هو عمل المحركات الدوارة أو أجهزة الدفع الثابت . أما جناح الطائر فانها يقومان بالوظيفتين معا ، فالتنصف الداخلي للجناح ، الذى يتحرك من مفصل الكتف ، هو الذى يقوم أساسا بإنتاج قوة الرفع الى أعلى ، أى أنه يكاد هو وحده الذى يقابل جناح الطائرة . أما نصف الجناح الخارجى فهو الذى يقوم بوظيفة المحرك فيدفع الطائرة الى الأمام . ومقطع جناح الطائرة بصفة عامة انسيابى ، محدب من أعلى مقعر قليلا من أسفل ، وهذا الشكل ملائم تماما لعملية الرفع . فانتا اذا بسطنا الأمر ، وتجيبنا تفاصيل الديناميكا الهوائية المتعلقة بالموضوع ، نقول إن الهواء اذا انساب على هذا الجناح ، كان ضغطه على أسفله أكثر من ضغطه على سطحه العلوى ومن ثم يرفعه ، وعلى الأخص اذا مالت حافة الجناح الأمامية قليلا الى أعلى بحيث يضرب الهواء السطح الأسفل ضربا مباشرا . ومن المناسب لهذا الجناح ، بصفة عامة ، أن تكون مساحته واسعة لتعرض لفعل كمية أكبر من الهواء ، بينا تكون حافته الأمامية ( أى جبهته ) ضيقة حتى لا تصد الهواء فتعطل الطيران والاندفاع الى الأمام . ( انظر الشكل ٨ ) .

وقد يتبادر الى الذهن أن الطائر يسبح في الهواء بأسلوب سبحنا في الماء ، أى بأن يضرب الهواء الى الخلف بجناحيه كى يتقدم الى الأمام ، ولكن هذا غير صحيح ، إذ أن النصف الخارجى للجناح ( وهو المختص بالدفع ) يضرب بقوة الى أسفل وإلى الأمام ثم يرتفع الى أعلى وإلى الخلف .. ويتكرر هذا مع كل خفقة من خفقات الجناح - ( انظر الشكل ٩ ) . وفى أثناء خفق الجناح تغير أجزائه - وبخاصة ريشاته القزوم - أشكالها وأوضاعها ووزاها وسرعة حركتها فى كل لحظة مع اختلاف الارتفاع وسد الهواء واتجاهه ومتطلبات الطيران المتغيرة . وهذا كله يتم بصورة آلية سريعة مذهلة لم نستطع أن ندرك بعضها الا بأدق آلات التصوير السريع والعرض البطيء .

أما ذيل الطائر فتكاد تنحصر مهمته فى التوجيه ، ولكنه اذا نشر مبسوطا زاد فى مساحة السطح ، وقد يستغل هذا أحيانا فى الرفع وأحيانا فى تقليل سرعة هبوط الطائر . ويوازن الطائر حركته بواسطة جناحيه ، فهو إن مال على أحد الجانبين استعاد اتزانه الى وضع مستو بزيادة القوة الرافعة من الجناح الذى مال نحوه ، وذلك إما بزيادة شدة ضربه أو بتغيير زاويته .

وليس الطيران مجرد وسيلة للانتقال المتاد ، فللطائر فيه مآرب أخرى كثيرة . فكثير من الطيور يلتفت طعامه من الحشرات فى أثناء طيرانه ، كما أن بعضها يصيد فريسته من ذوات الجناح وهما محلطان فى الجو ، وقد يقذف بعضها الى بعض الطعام وهى راكبة متن الهواء ( وهذا ما لم تحققه الطائرات الا حديثا ، وعند تزويد الطائرات بالوقود وهى فى الجو فتحتا عظميا فى عالم الطيران ) . وللطيور أفاتين كثيرة من المراك واللاه والفرز الطائر ، وبعضها يبدى فى ذلك مهارات فائقة . وقد تبلغ سرعة بعض الطيور أرقاما خارقة ، فالشاهين ( نوع من



شكل ٨

تبين هاتان الصورتان ميزتين من مزايا أحذية الطيور بصفة عامة ، فالصورة الأعلى للفرس  
القصي ( نورس الرنجة ) تبين اتساع سطح الجناح مما يساعد على الرفع ، بينما صورته السفلى  
( اللقطة من الماء ) تبين هيئة الحافة الأمامية مما يقلل مقاومة الجناح للهواء في أثناء اندفاع  
الطائر للأمام .

( عن رويلى ، ١٩٧٧ )



شكل ٩

حمامة تطير طيرا بطنيا وتهبط مبرطا رجليها . لا حظ الجناح في حربة الارتداد الى أعلى وإلى الخلف ، والرحلين المقروصين والذيل المشعور .  
( عن روبل ، ١٩٧٧ )

الصفور ( ينقض على فريسته بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة ، كما أنها قد تطير مسافات هائلة ، فبعض الموازج يطير ستين يوما بين مشاتها ومواطن تكاثرها الصيفي . أما خطاف البحر القطبي ، فلعله أعظم جُزَّاب للكرة الأرضية إذ أنه يعيش في الدائرة القطبية الشمالية ثم يهاجر في رحلة طوله ١٧٥٠٠ كيلومتر إلى المنطقة القطبية الجنوبية ، قاطعا طريقا دوارا من أمريكا الشمالية إلى الخطوط الساحلية لأوروبا وأفريقيا !

#### الطيران فنون ، أعجبها الصف :

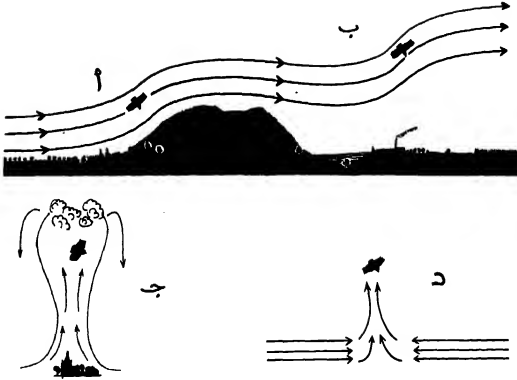
أهم فنون الطيران صورتان هما الدفیف والصف . أما الدفیف فهو الطيران باستمرار خفق الجناحين ، وهو الطريقة المعتادة، وأما الصف فهو أن يبسط الطائر جناحيه دون حراك ، ولذلك كان أكثر صور الطيران إثارة للعب

والعجاب . كيف لا ، والطائر يمضي في الهواء بجناحين ساكنين الى أبعد المسافات حتى يغيب عن الأبصار ، وكأن قوى خفية تشده وتحركه كيف تشاء . فالصف يبدو وكأنه ضرب من السحر ، ولكن الحقيقة أن الطيور الصافّة تنفرد بجزأيا خاصة ، كما أن العلم قد اهتدى مؤخرًا الى سر تلك القوى الخفية التي تحركها .

وقبل أن نتعرض لوصف الصف قد يحيل بنا أن نقف قليلا لنرى ما قاله المفسرون في هذا الباب ، فان لهم لفئات لطيفة ، وسأكتفي بالرجوع الى تفسير الامام البيضاوى ( لالمامه بأقوال السابقين في دقة وإيجاز ) . فعند تفسير الآية ٤٦ من سورة النور يقول البيضاوى إن تسييح هذه الكائنات يكون « بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال » ولكنه يقول في موضع لاحق « أنه لا يبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسييحها كما ألهمها علوما دقيقة في أسباب تعيشها لا تكاد تهتدي إليه العقلاء » . ( والذي نذكره في هذه الالممة العلمية الموجزة فيه مصداق لهذا القول ) . ثم إن البيضاوى يقول إن الله خص الطير بعد التعميم بذكر « من في السموات والأرض » ، « لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ، ولذلك قيدا بقوله ( صافات ) فان إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجوى بسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره » . فالبيضاوى قد التفت الى إعجاز الخلق في طيران الطيور عامة وإلى الصف على وجه الخصوص . وفي تفسير الآية ١٩ من سورة الملك ، ذكر البيضاوى كلاما مماثلا ، في حدود نص الآية الكريمة ، ولكنه لفت النظر الى نكتة بلاغية لطيفة ، فعند تفسيره لمعنى « صافات » قال : « باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها فانهن اذا بسطنها صففن قوادمها » ولكنه عند تفسيره لمعنى « ويقبضن » قال : « وبضممنها اذا ضربن بها جنوئهن وقتا بعد وقت للاستظهار به على التحريك ، ولذلك عدل به الى صيغة الفعل للنفرة بين الأصل في الطيران والطارىء عليه » . ( ويقصد أن الأصل في هذا اللون من طيران الطيور هو الصف أو بسط الأجنحة ، أما القبض فهو عملية وقتية طارئة ) ! وسوف نستحضر هذه المعاني ونحن نتابع كلامنا عن « الصف » .

« والارتزاق » هو أبسط صور الطيران التي يمكننا أن ننسبها الى الصف . وفي هذا الأسلوب يستغل الطائر الجاذبية الأرضية ، وذلك بأن يترك نفسه هوى من مكان مرتفع ، فاذا أراد أن يكون هبوطه سريعا وقريبا من الاتجاه العمودى قبض جناحيه ولم يبسطها الا عندما يقترب من المهبط الذى يسعى اليه ، أما اذا أراد أن يهبط مندفعًا الى الأمام بسط جناحيه فانه سوف يبحر في الهواء بضع مئات من الأمتار في أثناء هبوطه البطيء دون أن يحرك جناحا أو يبدل جهدا .

أما في الصف الأصل فيحفظ الطائر مستوى ارتفاعه بل قد يزداد ارتفاعه وهو في هذا انما يستغل ظواهر جوية عجيبة بفن واقتدار . وأبرز هذه الظواهر هو تكون التيارات الكهربائية الصاعدة بوسائل عدة ( شكل ١٠ ) .



شكل ١٠

بعض طرق نشأة تيارات الهواء الصاعدة

أ : تيار صاعد ناتج عن نتيجة انحراف الريح عندما تقابل تلا منحدرًا .

ب : تيارات هوائية متحركة بعد لحظة التل إلى الجانب الآخر .

ج : تيار حراري صاعد ، نتيجة سخونة الهواء الملاصق للأرض وارتفاعه إلى أعلى لتسده وانخفاض كثافته . ( لاحظ تكون السحب فوقه ) .

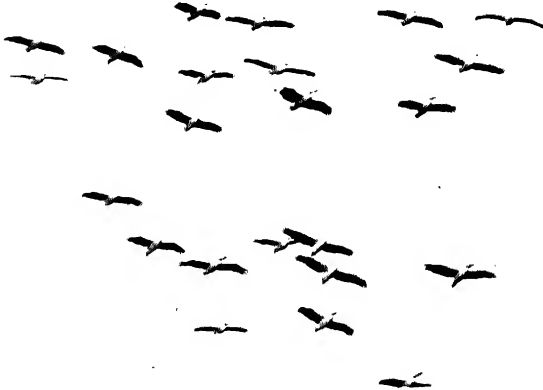
د : تيار صاعد ناتج من تقابل كتلتين هوائيتين .

( عن روبيل ، ١٩٧٧ ) .

ومن أشهر التيارات الصاعدة تلك التي تنشأ نتيجة سخونة بقاع معينة من الأرض ، تكون أميل إلى امتصاص الحرارة من أشعة الشمس ، ثم تنتقل الحرارة إلى الهواء المجاور لتلك البقاع الساخنة فيصعد إلى أعلى نظراً لتمدده وخفته وانخفاض كثافته. وهذه التيارات تتكون بعد الضحى وعندئذ تهتدي إليها الطيور ، ربما لمشاهدتها واحداً منها مصعداً إلى أعلى صافاً جناحيه فتندفع إليه ويسرعان ما يتكاثر عددها في تلك البقعة من الفضاء . وفي بعض الأحيان يكون الهواء الصاعد محملاً ببخار الماء الذي يتكاثف عندما يصل الهواء إلى طبقات باردة ، ومن ثم تتكون السحب فوق تيار الهواء الصاعد ، ويظن أن هذه السحب تكشف عن موضع التيار الصاعد للطيور ( شكل ١٠ - ج ) . وإذا كان عمود الهواء الصاعد ضيقاً فلن ينجح في استغلاله إلا الطيور

المهيئة للتمكن من الدوران السريع ، وهي تستطيع في وقت قصير أن تتخذ لانفسها مسارا حلزونيا يحملها مسافة قد تبلغ خمسة كيلومترات !

وقد تنشأ التيارات الهوائية الصاعدة نتيجة وجود عائق أمام الرياح ، كالتلال أو الشواطئ شديدة الانحدار ، فان الرياح السائدة اذا اصطدمت بالعائق انحرفت بالضرورة الى أعلى ( ١٠ - أ ، ١١ ) . ومن هذا القبيل أيضا التوارس الصافة في التيارات الصاعدة أمام الكتبان الرملية المتتابعة . ولا تنشأ التيارات الصاعدة أمام العوائق وحسب وانما هي تتكون خلفها أيضا ، كما هي الحال عندما تجتاز الرياح التل المنحدر الذي يواجهها ( شكل ١٠ - ب ) . ومن المشاهد المألوفة عند المسافرين بالبحر نورس يصف دون حراك سابحا في الهواء خلف سفينة تمخر عباب المحيط ، كما لو أنه كان مشدودا اليها بخيط خفى . وبعض الطيور الصافة قد تعلم كيف يستغل تيارات الهواء المتعارضة ( شكل ١٠ - د ) .



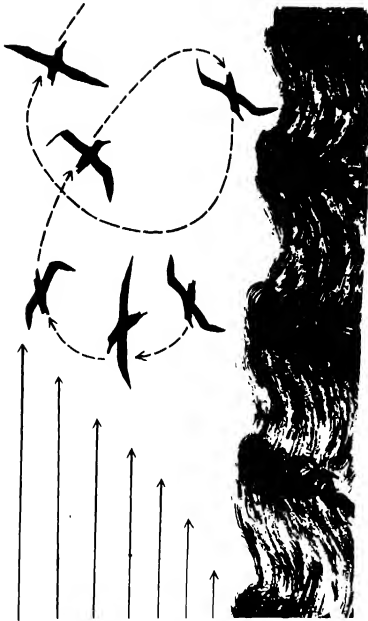
شكل ١١

بجسوة من طيور البجع الزورى اللون تصف في تيار هوائي صاعد أمام منحدر .

وفي البحار ظواهر جوية أخرى تستغلها الطيور للصف . فالأمواج العالية تعترض هبوب الريح فتنشأ أمامها تيارات صاعدة تركيبها الطيور البحرية الصافة ، ومنها على الأخص مثالان نموذجيان ، وهما طائر الأنواء ( stormy petrel ) وجَلَمُ الماء ( shearwater ) ، فكثيرا ما تشاهد تلك الطيور وهي تصف في الهواء فوق الأمواج في الناحية المقابلة لمهب الريح . ولكن الطيور الفطنة لو بقيت هكذا لحملتها التيارات الهوائية الصاعدة مسافات في اتجاه الأمواج المتقدمة ، فإذا لم يكن هذا يروقها أخذت تغفز بين آن وآخر من فوق « ظهر » موجة إلى ظهر موجة أخرى . ومن أعجب ظواهر الصف البحرية مدارس العلماء في معهد علوم البحار في ويدر هول ، ففي الحريف عندما يكون الماء أدفاً من الهواء تتكون فوق الماء تيارات حرارية صاعدة ، ولكن الباحثين لاحظوا أنه عندما تكون الريح هينة تصف النوارس في أشكال حلزونية مدللة بذلك على أن الأععدة الهوائية واقفة منتصبة ، أما إذا اشتدت الريح طيرت تلك الأععدة الهوائية وألفتها ممددة فوق الماء فتصف النوارس كلها في خطوط مستقيمة . « ومشهد الطيور حينذاك لا يكاد يصدق ، فهي تبهر في الريح لا تحرك جناحا وترتفع رغم ذلك كلما تقدمت حتى تغيب عن النظر في الفضاء السحيق . ولقد رأيت هذا مرة : وأشهد أنه لا ينسى إلى الأبد » ( ستورر ، ١٩٥٩ ) .

أما طائر الأبطيش ( ويعرف أيضا باسم الصخاب أو القطرس ) فله أساليب عجيبة في الصف . فإذا كانت الريح تأتي في هبات أفقية قوية منتظمة ، فان الأبطيش إذا واجه الريح أحدثت سرعة الريح المتزايدة القوة اللازمة لرفعه إلى أعلى ، وهكذا تساعد الهبات المتتالية الطائر على البقاء في الجو والصف إلى مسافات بعيدة دون أن يحرك جناحا . ولكن الأبطيش يحسن استغلال ظاهرة أخرى بأسلوب آخر وذلك أن الريح إذا هبت مسرعة وجدت من البحر وأمواجه مقاومة لها نتيجة الاحتكاك ، مما يترتب عليه أن الهواء القريب من سطح الماء يكون تحركه أبطأ مما فوقه ... وهكذا يصبح الهواء طبقات متراكمة تدرج سرعاتها من الأقل إلى الأكبر كلما اتجهنا إلى أعلى . فالطائر يندفع صاعدا إلى أعلى مواجهها مهب الريح ، ومروره من طبقة من الهواء إلى ما فوقها يزيد من قوة رفعه نتيجة تزايد سرعة تلك الطبقات ... ويظل هكذا حتى يفقد قوة اندفاعه ، وعندئذ يُسَلِّم نفسه إلى الانزلاق هابطا صائما زاوية محددة مع اتجاه الريح وهذا بدوره يكسبه سرعة اندفاع من جديد يستغلها مرة أخرى في الاندفاع إلى أعلى ، وهكذا يدور المرة تلو المرة قاطعا مسافات طويلا فوق المحيط ( شكل ١٢ ) . ولا ينسى الطائر عندما يقترب من نزوله من سطح المحيط أن يستغل تيارات الهواء الصاعدة فوق منحدرات الأمواج ، التي سبق أن وصفناها . وهذا الأسلوب الذكي في استغلال هذه الظواهر الطبيعية المتعددة بمناورات بارعة يسمى « الصف الدينامي » ( الديناميكي أو النشيط ) .

وبعض الطيور وسيلتها الغالبة في الطيران والانتقال هي الصف ، بل قل إن الصف هوaintها المفضلة أيضا . وهذه الطيور المتخصصة في الصف لا تترك أنفسها كالريشة في مهب الرياح ، كما يقولون ، بل هي تتحكم في



شكل ١٢

أسلوب الأختين في الصف الدينامي . ( الأسهم الأضفة في الانزياح طولا من أسفل إلى أعلى ، ترمز إلى الانزياح للتدرج في سرعة الريح من طبقة إلى طبقة ) .  
( عن دويل ، ١٩٧٣ )



توجيه حركتها بشتى الوسائل . فهي تستطيع أن ترفع جناحيها أو تخفضها ، أو أن تدفعها ، إلى أمام أو خلف ، أو أن تقلل من مساحتها بقبضها قبضا يسيرا ، أو أن تديرها من مفصل الكتف ليقابلا الهواء بزوايا مختلفة تؤثر في سرعة الصف ، أو تلوى أجزاء منها ، وما إلى ذلك . وهي في أثناء هذا كله تتحرك ذنبها بالصورة المناسبة . وبهذه الأساليب تتحكم الطيور الصافات في سرعتها واتجاه سبوحها في الهواء . وعندما تصف الطيور في اتجاه منحني قبيل بجسمها كله في اتجاه دوراتها والا حملتها قوة الطرد المركزي إلى خارج قوس دوراتها ، وهذا من قبيل ما يفعله المتسابقون بالدراجات حين يمتازون المنحنيات في حلبات السباق . ( أنظر شكل ١٣ ) .



شكل ١٣

الحدأة وهي تصف في مسار منحني . لاحظ أنها قبيل بجسمها نحو اتجاه دوراتها ، حتى لا تخرجها قوى الطرد المركزي عن قوس مسارها

وتتميز الطيور عامة بمعظم عضلات صدرها التي تحرك جناحيها ، أما الطيور التي تصف في معظم أوقاتها فانها تتميز على سائر الطيور باختصار حجم تلك العضلات ، وذلك لقلة الحاجة إلى استخدامها ، مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بالجناحين حتى تستطيع بسطها فترات طويلة دون جهد عضلي كبير . هذا فضلا عن أن الطيور

الصافقة تتميز أيضا إما بطول جناحيها المفرط أو اتساع سطحها ، فهذا بالطبع يجعلها أشبه بالشرع المسوط أمام الهواء ، ويستطيع الطائر أن يتحكم في الزاوية التي تقابل بها حافة الجناح الأمامية الهواء حتى يحصل على أعلى قوة للرفع مع أدنى مقاومة ممكنة للهواء ، أو الصد . أما الطيور الصافقة كبار الأحجام فإن بعض عظامها يزيد بدعائم داخلية شبيهة بالدعائم القائمة بين سطحي جناح الطائرة ، حتى توفر لها مزيدا من القوة دون زيادة كبيرة في الوزن .

وعند الطيران المنخفض ( وهو ما يعرف بالسيف ) قريبا من الأسطح والأشجار ، يستطيع الطائر أن يحرك جناحيه حركة محدودة حتى لا ترتطم بما تحته ، وذلك بتثبيت نصف الجناح الداخلي ، وتحريك نصفه الخارجي ، الذي قلنا إنه الذي يقوم بعمل المحرك . أما الطيور التي تألف المحاورة والمداورة تحت الشجيرات ، كالدرج والحجل ، فهي مزودة بجناحين قصيرين تستطيع تحريكهما تحريكا سريعا متلاحقا . ويبلغ من براعة القرقف الضئيل في المناورة أنه يستطيع أن يغير اتجاه طيرانه في ثلاثة أجزاء من مائة جزء ( ٠.٠٣ ) من الثانية ، وبعض الطيور الجوارح يستطيع أن يغير اتجاهه من التصديد إلى الانقضاض أو العكس في لمحة خاطفة .... وهذا مما يحلم به قائد أية طائرة حربية مقاتلة . وعلى عكس ذلك أنواع البلشون ، وبعض الطيور الخائضة الأخرى ، مزودة بأجنحة كبيرة ثقيلة ، وذلك حتى تمكنها من الهبوط البطيء الرفيق بحماية لأرجلها الطوال الدقاق من الكسر ، وهي عدتها لخوض الماء بحثا عن الغذاء .

ومهما يكن من أمر ، فإن الطيور في كافة أحوالها ، إذا دُفَّت أو رُفَّت أو حُوِّمَتْ أو صُفَّت أو سُفَّت ، وإذا ما بسطت جناحيها أو قبضتها ، فلا يسكنها في الهواء إلا الرحمن ، بما أودعه فيها من خصائص وما ألهبها من فطر ، حتى تكون آيات معجزات ناطقات ببديع صنعه وشاهدات على أنه الباري البصير بدقائق شئون خلقه .

#### ٤ - اللحم الحرام

سوف نتناول في هذا المثال تلمس بعض العلل الكامنة وراء تحريم لحم الخنزير . وهذا مثال لأسلوب من الخدمة تزييه العلم الحديث ( البيولوجية والطبية ) لفهم تفسير القرآن الكريم وآيات الأحكام فيه ، فهو مثال يختلف عن الأمثلة الثلاثة السابقة التي كانت تتناول فيها متعمقا لبعض آيات الله في خلقه مما أشار إليه القرآن الكريم .

ومحاولة لتعليل تحريم لحم الخنزير موضوع دقيق ينبغي أن نتناوله بالكثير من الدقة والحذر ، أكثر مما هو واجب علينا أصلا في كل ما يتعلق بدراستنا لكتاب الله العزيز ، وذلك لأن علة التحريم هنا كانت ، وما تزال ، موضع

نقاش متجدد . وتحليلنا للموقف في جلته سوف يظهر بما لا يدع مجالاً للشك مقدار الخطأ في التهمين أو التشكيك في الضرر الناجم من أكل لحم الخنزير وأنه ضرر يمكن تجنبه تماماً باتباع الوسائل المصرية المستحدثة في تربية الخنازير ومعالجة لحومها . وقد تأكد لي في مناسبات متعددة أن معظم الحقائق المتعلقة بالموضوع خافية على معظم المسلمين ، عامتهم وبنفقيهم بل وبعض أطبائهم . وأذكر أن اشتراكي في نقاش الموضوع - منذ أكثر من عشر سنوات - في إحدى جلسات لجنة الخبراء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، جعل فضيلة الشيخ أحمد هريدي ، مفتي الدبار المصرية في ذلك الوقت ، يشير عليّ - بما يكاد يكون تكليفاً - بضرورة الكتابة بشيء من التفصيل في الموضوع - ( عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٩ ) .

### مواضع التحريم في القرآن الكريم

حرم لحم الخنزير في أربعة مواضع من القرآن الكريم :

١ - « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » . - ( البقرة : ١٧٣ ) .

٢ - « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتريفة والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب » . - ( المائدة : ٣ ) .

٣ - « قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » . - ( الأنعام : ١٤٥ ) .

٤ - « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم » . - ( النحل : ١١٥ ) .

تشمل هذه الآيات الكريمة الأربع جملة ما حرمه النص القرآني الحكيم في هذا الباب ، فضلاً عما جاء في السنة الشريفة من « تحريم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك » . أما المحرمات المذكورة في القرآن الكريم فإنها تندرج في أقسام خمسة : ( ١ ) الميتة ، ( ٢ ) المنخنقة ، والموقوذة ، والمتريفة ، والنطيحة وما أكل السبع ، ( ٣ ) الدم المسفوح ، ( ٤ ) لحم الخنزير ، ( ٥ ) ما أهل لغير الله به أو ذبح للطواغيت والأصنام .

لحم الخنزير محرم لذاته ، وهو محريم معلل :

وكما قدمت ، لن أتعرض هنا إلا لتحريم لحم الخنزير لانه ينفر من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم

بأنه حرام لذاته ، أي لعللة مستقرة فيه أو وصف لاصق به ، أما أنواع اللحم الأخرى فهي محرمة لعللة عارضة عليها . فالشاة ، مثلاً ، لحمها حلال طيب إذا ذكيت بالطريقة الشرعية ، ولا يحرم لحمها إلا إذا كانت ميتة أو منخنقة أو موقوذة ( أي مضروبة حتى الموت ) أو مرتدية من مكان مرتفع أو نطيحة أو أكل منها حيوان مفترس - إلا ما ذكرى قبل أن تفارقه الحياة - ، أو إذا نحرث على مذبح الوثنية وقصد بها غير وجه الله ذي الجلال والإكرام . فننون بحثنا « اللحم الحرام » معرّفاً لا ينطبق إذن إلا على لحم الخنزير دون سواه .

وما أظنني في حاجة إلى تأكيد أن التحريم ليس موضع نقاش ، فالمؤمن حين يأتيه الأمر أو النهي من الله تعالى إنما يقول سمعنا وأطعنا ، وما يريد الله بنا إلا خيراً . فالطاعة امتثال والتزام وعبادة ، ولكن شرع لنا أن نجتهد في تفهم علة الأمر أو النهي إذا توفرت لنا الأسباب المعينة على ذلك . بيد أن الأمر هنا يزيد على هذا إذ أن تحريم لحم الخنزير بالذات تحريم مطلق ، كما يتضح من قوله تعالى ، في جملة معترضة وبصورة منبهة للأذهان ، « فانه رجس » . وآية سورة النحل يسبقها مباشرة قوله تعالى : « فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم عبثون » - ( ١١٤ ) . هذا فضلاً عن القاعدة الأصلية الجامعة : « .... ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .. » - ( الأعراف : ١٥٧ ) . فاجتهدنا إذن محصور في محاولة فهمنا لمخبط ذلك المحرم ورجاسته ، حتى نزداد شكراً لله على نعمته .

معنى « الرجس » :

تفيد معاجم اللغة بأن معنى « الرجس » : القذر ، والشيء القذر ، والفعل القبيح ، والحرام ، واللعة . والكفر ، والمأثم ، وكل ما استقذر من العمل ، والعمل المؤدي إلى العذاب .... الخ ( القاموس المحيط ، المعجم الوسيط ) . فالرجس إذن كلمة جامعة لمعاني القبح والقذر والضرر ، ولا شك أنه قد استقر في أذهاننا التصاق هذه المعاني جميعاً بالخنزير . وقد يكون من أسباب ذلك ما نعرفه من أن الخنزير حيوان قارث أو رمام ، أي أنه يأكل كل ما يجده من القمامة والنفايات وفضول الإنسان والحيوان ، وأنه لا يكدأ يبرى إلا وأنفه في الرغام . بل يذكر البعض أيضاً سبباً آخر وهو ما يشتهر به ذلك الحيوان من طبائع يراها الناس بقبائسهم عارية من الغيرة والحياء . ولكن يبدو أن نفورنا وتقززنا من هذا الحيوان ليس بمشعها الوحيد كراهتنا الدينية له ، كما أنها لبسا قاصرين علينا ، ففي أمريكا وأوروبا تربية الخنازير تجارة رائجة ، وصور ذلك الحيوان منتشرة في رسوم أهل تلك البلاد ويتخذون من هيئته دمي لأطفالهم ، ومع ذلك فأسهلهم على اختلاف لغاتهم تعد سببة لا يقذفون بها إلا كل زرى ذميم .

وبعض هذا موجود في التفاسير ، فيقول البيضاوي ، مثلاً ، في معنى « الرجس » : « قذر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث محبث » . وهذا كله داخل في المعنويات والأذواق التي قد تختلف فيها الأفراد والأقوام ولا تثبت

للتخصيص العلمي . وقد يتطوع بعض المفسرين بذكر تعليقات « علمية » من السهل تنفيدها ، من قبيل ما يقال من أن لحم الخنزير محرم لأنه ينقل إلى الانسان نوعا من الديدان الشريطية الطفيلية ، فهذا قول ناقص وغير دقيق . وسنحاول في شيء من التفصيل غير الملل والايجاز غير المخل ، أن نخلص الحقائق المتعلقة بالموضوع لنخلص منها إلى ما في أكل لحم الخنزير من ضرر وعلاقة ذلك الضرر بما هو مشهور عنه من قذارة مأكله ، فهذا كله داخل في معنى « الرجس » ، كما رأينا . وسوف أهتم على الأخص ببعض الأمراض الطفيلية التي تصيب الانسان من الخنزير ، وليس فقط لأنها مجال تخصصي وإنما لأنها - في نظري - هي الأهم ، وسأكتفي بالنسبة لغيرها بمجرد الذكر والاشارة .

#### طفيليات الخنزير ، بصفة عامة :

يؤوى الخنزير في جسمه عددا كبيرا من أنواع الطفيليات ، شأنه في ذلك شأن غيره من أنواع الحيوان . وكثير من هذه الطفيليات نوعى خاص به أو يكاد ، وبعضها لا يصيب الانسان على أية حال ، ولكن الذن يسترعي الالتفات حقا هو أن أكثر من عشرين نوعا من هذه الطفيليات يصيب الانسان أيضا ، فهي داخلة فيما يسمى بالمصطلح الحديث زونوسيس zoonosis ، أو الأمراض الحيوانية البشرية ، وتسلط عليها في الوقت الحاضر الأضواء . وفي هذا الصدد يقول كرول ( Croll, 1961 ) إن الحظر المفروض على المسلمين بعدم « ملاسة » الخنازير ليس من الأمور المفتقرة إلى التبرير . ولكن الذي يحدد أهمية هذا الوضع بالنسبة للاصابة بكل طفيلي من هذه الطفيليات عدة اعتبارات أهمها حدود تأثير الانسان بهذه الاصابة ، أي درجة خطورة المرض الذي يسببه الطفيلي فيه ، وحقيقة الدور الذي يقوم به الخنزير في دورة حياة الطفيلي ، ونسبة تعرض الانسان للاصابة به . والطفيليات المشتركة بين الخنزير والانسان مجموعة متباينة تنتمي إلى معظم المجموعات الرئيسية من الطفيليات ، سوف نستعرض أشهرها أولا ، ثم نتناول أهمها فيما بعد بشيء من التفصيل :

١ - من الفيروسات والبكتيريا : فيروسات مرض الكلب والحمى الصفراء وسلالات من الانفلونزا ، وصور من أنواع الدوى البكتيرية المحتملة .

٢ - من البروتوزوا ( الحيوانات الأولية ) : نوعان من التريبانوسوما ، يسبب أحدهما مرض النوم الافريقي ، ويحدث ثانيهما مرض شاجاس في أمريكا الجنوبية . ويعد الخنزير من العوائل الحازنة الاضاافية لطفيليات المرضين . وهناك نوع من الإنتاميبا ( أي من جنس طفيليات الزحار الأميبي في الانسان ) خاص بالخنزير وقد ينتقل أحيانا للانسان . ولكن أهم هذه الأوليات الطفيلية الهدبي المسبب للزحار البطنيدي ، وسوف نتحدث عنه حديثا خصوصا فيما بعد .

### ٣ - من الديدان المفلطحة : نعتينا منها مجموعتان رئيسيتان :

أ - التريماثودا أو الوشائع : فمن وشائع الدم يصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية ، كما أن بويضات تلك الديدان تفرع براز ذلك الحيوان الرمام ، وهذا يساعد على إكمالها دورة حياتها وانتشارها . وكذلك من وشائع الرئة يصاب الخنزير بوشية الرئة المسماة *Paragonimus westermani* والتي تصيب الإنسان في كثير من أرجاء العالم ، وعلى الأخص في الشرق الأقصى . أما عن وشائع الكبد والأمعاء فللخنزير منها نصب غير قليل ، ولذلك سوف نتكلم عنها في نبذة خاصة .

ب - الستستودا أو الديدان الشريطية : يصيب الخنزير منها نوعان : دودة السمك الشريطية (*Diphyllbothrium latum*) ويصاب الخنزير ، كالإنسان ، بالطور البالغ منها ، أي الدودة الشريطية ذاتها ، ولكن هذا ليس له أهمية خاصة . أما النوع الثاني ، وهو دودة لحم الخنزير الشريطية (*Taenia solium*) فله أهمية كبرى كما سوف يتضح فيما بعد .

٤ - الديدان شوكية الرأس : منها نوع يسمى *Macracanthorhynchus hirudinaceus* شائع في الخنزير ، ولكنه يوجد أحيانا في الإنسان ، فقد اكتشف ، مثلا ، بين فلاحى وادى فولكا في جنوبي روسيا .

٥ - الديدان الحيطية أو الاسطوانية ( التياثودا ) : يصيب الإنسان والخنزير منها بضعة أنواع ، فمة سلالة من دودة الأسكارس أو تعيان البطن (*Ascaris lumbricoides*) تعيش في الخنازير . وقد ثبت أخيرا بالدليل القاطع أنها تعدي الإنسان أيضا ، كما ثبت أن السلالة التي تصيب الإنسان من النوع نفسه تعدي الخنازير ، أي أن هذه الحيوانات تساعد على انتشار عدوها ( Smyth, 1976 ) . أما الديدان السوطية فيعتقد أن الذي يصيب الإنسان والخنزير منها نوع واحد (*Trichuris trichiura*) ، فالخنازير تساعد على انتشار هذه الدودة أيضا بين الناس . بيد أن الدودة الحيطية الخطيرة حقا هي الدودة الشعرية الحلزونية ، المعروفة بالتريكيثا أو التريكيثا (*Trichinella spiralis*) ، وسوف نتناولها بما تستحقه من عناية خاصة .

٦ - الحشرات والحلم : يصلح الخنزير عائلا لعدد من الطفيليات الخارجية الخاصة بالإنسان ، كأنواع البعوض والبرغوث الشائع في الإنسان ، وأنواع من القمل ، وذبابة تسمى الناقله لطفيليات مرض النوم ، وأنواع من ذباب الجلد التي تصيب يرقاناتها الفم والعينين والأذنين والجروح المكشوفة ثم الأنف على الخصوص . كذلك هناك أنواع من الحلم ( القرية من طفيليات الجرب ) تصيب الخنزير وقد تصيب الإنسان في وجهه وفي داخل أذنيه .

وبعد هذا العرض العام لبعض الطفيليات المشتركة بين الإنسان والخنزير سوف نقدم ، بشيء من التفصيل المناسب ، نبذة عن أهم أنواعها :

## الزحار البليتيدي :

الطفيلي المسبب لهذا المرض يسمى بالانتيديم كولاي ( *Balantidium coli* ) ، وهو النوع الوحيد من الحيوانات الأولية المهدّبة التي تصيب الانسان . وهو من طفيليات الأمعاء الغلاظ في الخنازير والقردة وبخاصة الشمبانزي ، ولما كانت فرص الاتصال بين الانسان والقردة محدودة للغاية ، ولما كان الطفيلي واسع الانتشار في الخنازير فإنها تعتبر المصدر المعتاد ، بل الوحيد من الناحية العملية لعدوى الانسان . والحالات في الانسان معروفة في بقاع كثيرة من العالم ، وفي ألمانيا وفرنسا والفلبين وفنزويلا على الخصوص ، وهي عادة لا تنتشر إلا بين من يقومون على تربية الخنازير أو يعملون على ذبحها وتجارتها ، فتتلوث أيديهم بحوصلات الطفيلي من برازه أو معائه بعد ذبحه ، ويبدو أنه يلزم لحدوث العدوى بالانسان جرّح كبيرة من هذه الحوصلات ، ولذلك كان انتشار المرض محصوراً في أولئك الناس ، ومن ثم يمثل هذا المرض لونا معينا من الأمراض الحيوانية البشرية ( الزونوسس ) يصيب قطاعا معينا من الناس ، وهو هنا لون مهني .

وفي الانسان تعيش الطفيليات في القولون والأعور المعوي ولكنها قد تنتقل الى الجزء الأسفل من اللغائفي من الأمعاء الدقاق في بعض الأحيان ، كما أنها قد توجد في الأوعية الدموية واللمفية والغدد المسراقية المتصلة بالأمعاء . وفي الخنزير لا يحدث الطفيلي أعراضا ذات بال ، بيد أن الأمر يختلف تماما عن ذلك في الإنسان ، ففي نسبة من الحالات تتحول الإصابة إلى حالة مرضية تتفاوت فيها الأعراض بين الاسهال اليسير إلى نوبات من الاسهال الشديد المتكرر إلى زحار ( ديزنتاريا ) مزمن . أما الأعراض العامة فهي المغص وفقد الشهية والدوار والضعف العام ، والهلزال في بعض الأحيان . والزحار البليتيدي يشبه الزحار الأميبي من نواح كثيرة ، فتحدث الطفيليات في نسبة من المصابين آثارا مرضية شديدة بسبب القروح العميقة التي تنخرها في أنسجة الأمعاء ، حتى لقد يصبح القولون من بدايته إلى نهايته كتلة من القرح ، وقد ينتهي المرض بالوفاة في بعض الحالات .

## الوشائع المعوية والكبدية :

١ - **وشيجة الأمعاء الكبيرة ( Fasciolopsis buski ) :** وهذه من الطفيليات التي يتقاسمها الانسان والخنزير اللذان تعيش فيهما الديدان البالغة ، ونادرا ماتصاب بها الكلاب . فالخنزير إذن هو العائل « الخازن » الرئيسي لنشر العدوى بعد تمام دورة الحياة في أنواع معينة من التواقيع والأسماك . والعدوى في الخنازير شائعة جدا في آسيا من الصين الى البنغال وفي كثير من جزائر الهند الشرقية . ويمتشي مع هذا نفش العدوى في الانسان ففي الصين قد تبلغ نسبة العدوى ١٠٠٪ في بض المناطق ، وتعد من المشاكل الصحية الهامة ( Smyth ، 1976 ) . وتكون الأعراض شديدة إذا كان عدد الديدان كبيرا ، وتحدث الديدان التهابا موضعيا ونزقا وتقرحا في جدر

الأمعاء الدقاق ، وتنشأ من ذلك أعراض متفاوتة بين الاضطرابات المعوية والاسهال المزمن والأنيميا والارتشاح تحت جلد الوجه والرجلين والامتسقاء وانتفاخ البطن وقد تحدث الوفاة نتيجة للاجهاد العام وانحطاط في القوى شديد .

٢ - وشيعة الأمعاء الصغيرة ( *Gastrodiscoides hominis* ) : يصاب الانسان بهذه الديدان في الهند وفيتنام والفلبين وبعض ولايات الاتحاد السوفيتي ، وقد تتجاوز الإصابة نسبة ٤٠٪ في بعض المناطق . والطفيل نفسه شائع في الخنازير في معظم تلك المناطق ، ومن ثم يعد المائل الاحتياطي أو الخازن الرئيسي له والذي يعمل على انتشاره بين الناس . وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء الغلاظ والأعور المعوي ، وقد تسبب بعض الالتهاب والاسهال .

٣ - وشيعة الكبد الصينية ( *Chlonorchis sinensis* ) : تعد هذه الدودة من الطفيليات الهامة للانسان في الشرق الأقصى ، وعلى الأخص في اليابان وكوريا والصين وبايوان وفيتنام ، والخنزير من بين العوامل الخازنة الرئيسية لها . وتعيش الديدان في القنوات الصفراوية للكبد ، فإذا كان عددها كبيرا أحدثت تضخما فيه وإسهالا مزمنًا وبرقانًا وأعراضًا أخرى قد تنتهي بالوفاة .

مرض دودة لحم الخنزير الشريطية :

وهي الدودة التي تعرف علميا باسم تينيا سوليوم ( *Taenia solium* ) . وهي تعيش في طورها الشريطي البالغ في أمعاء الانسان حيث يبلغ طولها من مترين الى سبعة أمتار ( أربعة في المتوسط ) . وللدودة رأس صغير ، أصفر من رأس الدبوس ولكنه مزود بأربعة مصاصات وقمته عليها طوق من الأشواك . وبلي الرأس عنق قصير تنمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغار تتباعد عنه تباعا وتأخذ في النمو مكونة ذلك الشريط الذي قد يحوي منها نحو ألف . وكل أسلة كأنها حيوان قائم بذاته إذ فيها جهازا التناسل الذكر والمؤنث ، فلا تلبث الأسلة الناضجة أن تقتله بألاف كثيرة من البويضات ، حتى تصبح الأسلة في النهاية مجرد كيس منفصل بذلك البيض الوبيل الذي ينمو في كل واحدة منه جنين كروي ذو ستة أنشوك تشبه الخطاطيف .

وتتفصل الأسلات المنفلتات من طرف الشريط وتخرج مع براز الانسان المصاب . وفي التربة الملوثة الرطبة تستطيع الأسلة أو ما فيها من بيض أن تبقى زمنا ليس بالقصير ، حتى يأتي خنزير رمام يقيم ماني الأرض من قذر ونفايات فيبتلع معها الأسلات أو البيض، فتعمل المصارات الهاضمة على إطلاق الأجنة من محابسها، ومن ثم تشق طريقها بأشواكها محترقة جدار الأمعاء حتى تصل الى أوعية الدم أو اللف فتدور مع هذا وذاك حتى تستقر في جسم الخنزير ، حيث تنمو في عضلاته ، وبخاصة في اللسان والرقبة والكثف والبطن ، مكونة حوصلات أو مثانات كروية أو بيضية منتفخة طولها ٦ - ١٨ ملمترا ، وهي تعرف باليرقانات أو الديدان المثانية ، في كل منها



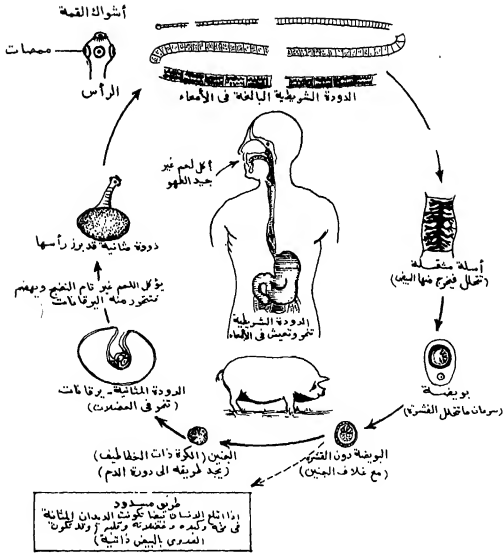
رأس صالح لأن تنموه دودة شريطية كاملة . ويحدث هذا عندما يأكل انسان هذا اللحم المصاب دون أن يجهد إنضاجه لفضل ما فيه من تلك الديدان المثانية . ( شكل ١٤ ) .

وفي هذه الدورة يقوم الخنزير بدور ما يسمى بالعائل الوسيط ، بنما يسمى الانسان العائل النهائي . والخنزير ليس العائل الوسيط الوحيد ولكنه من الناحية العملية يعتبر في واقع الأمر المصدر الوحيد لعدوى الانسان . بيد أن الذي يحدث أحيانا هو أن هذه الدورة قد تنعكس انعكاسا جزئيا ، فيحل الانسان محل الخنزير إذ يصبح عائلا وسيطا في دورة تنتهي بطريق مسدود ، وذلك أن المثانات التي سوف تتكون في جسمه لن تتحول الى ديدان بالغة إلا اذا أكل لحم ذلك الانسان المصاب انسان آخر ، ولن يحدث هذا طبعاً اللهم إلا أن يكون ذلك بين أكلة لحم البشر ! ( المستطيل الأسفل من شكل ١٤ ) .

وينشأ هذا الانعكاس الجري من ابتلاع الانسان لبيض الدودة اذا تلوثت بده أو تلوث طعامه بشيء منها ، من فضلاته هو أو من مصدر خارجي ، كذلك يُشك أن البيض الناضج أو الأسلات المثقلة بالبيض الناضج قد تردت من أمعاء الشخص المصاب بالدودة الشريطية الى معدته ، وذلك نتيجة انعكاس الحركة الدودية لأمعائه . وفي هذه الأحوال يفسد البيض في المعدة والأمعاء وتطلق منه الأجنة ذوات الأشواك الست فتدور مع دمه لتنتشر في أجزاء جسمه ثم تستقر مكونة ديدانا مثانية ، منلما يحدث للخنزير المبتلع للبيض في الدورة المعتادة .

ودودة لحم البقر الشريطية ( *Taenia saginata* = *Taeniarhynchus saginatus* ) تشبه دودة لحم الخنزير بصفة عامة ، الا أنها أطول ، ورأسها أكبر قليلا الا أنه عار من القمة والأشواك ، وعدد الأسلات في الشريط أكثر إذ قد يبلغ الألفين . ودورة حياة هذه الدودة تتم بين الانسان عائلا نهائيا والأبقار ( في معظم الأحيان ) عوامل وسيطة . والديدان المثانية قد يبلغ طولها سنتيمترا واحدا وتنتشر على الأخص في القلب واللسان والحجاب والكثفين والفخذين ، من جسم البقرة . ( شكل ١٥ - والجزء الايسر من الرسم يبحث مشكلة وصول بيض الديدان الشريطية من الانسان الى الأبقار في المدن ، فهناك عدة احتمالات بحثت ، منها أن الفضلات الآدمية قد تصب في البحر مباشرة ومنه قد تنقلها الطيور البحرية في جوفها أو أرحلها الى المزارع ، ومنها أن البيض قد فلتت من خراطم التنصيف في محطات المجاري فيخرج مع الماء المعالج ليلقي في الانهار والحقول ... وكذلك قد تستخدم فضلات المحطات الحاربية للبيض ، سهادا . وهذا كله يمكن أن يقال عن دودة لحم الخنزير ) . والقوي الجوهري هنا أن الانسان لا يصاب بالديدان المثانية لدودة لحم البقر الشريطية ، حتى وإن ابتلع بيضها ... وهذا فرق هام للغاية .

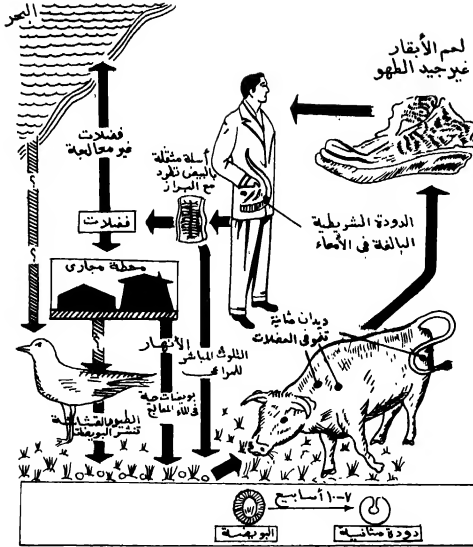
ومن هذا ينضح أن الانسان قد يصاب بأحد مرضين : أولهما ، الإصابة بدودة شريطية بالغة ( تينيا سوليوم من لحم الخنزير ، وتينيا ساجيناتا من لحم البقر ) . وفي كلتا الحالتين تكون الأعراض يسيرة في معظم الاحيان ، ولكنها قد تسبب بعض الاضطرابات الهضمية أو أعراض نقص الفيتامينات وفقد الشهية ونقص الوزن . وعلى أية



## دورة حياة تينيا سوليوم

شكل ١٤

دورة حياة دودة لحم الخنزير الشريطية ( لاحظ الجزء الشاك في الدورة - المشك بالمستطيل الأسفل ، حين يحل الانسان محل الخنزير فيها ، وهذا هو الوجه الخطير الذي تفرده به دورة لحم الخنزير الشريطية دون دورة لحم البقر الشريطية ) .  
( معدل من نوبل ونوبل ، ١٩٧٦ ) .



## دورة حياة تينيا ساجيناتا (دودة لحم البقر)

شكل ١٥

دورة حياة دودة لحم البقر الشريطية

لاحظ عدم وجود احتال لانعكاس حشري للدورة ، كما هي الحال في دودة لحم الخنزير الشريطية ، ومن ثم لا يصاب الانسان السنة بالديدان المائية لدودة لحم البقر - وهذا فرق جوهري وضطر . ( الجزء الأسير من الرسم يبحث مشكلة وصول بيض الديدان الشريطية من الانسان الى الأبقار في المدن ) .

( معدل عن سميت ، ١٩٧٦ ) .

حال فعلاج هذه الأعراض ، والتخلص من الدودة بالعقاقير الطاردة للديدان أمر يسير . أما ثانيهما ، فهو الإصابة بمرض اليرقان أو الديدان المائية لدودة لحم الخنزير ( تينبا سوليوم ) وحدها .... وهذا مرض جد خطير ، ولامقابل له في دودة لحم البقر .

#### مرض الديدان المائية لدودة لحم الخنزير *Gysticercosis* :

تبدأ إصابة الانسان بهذا المرض الخطير بعدواه - الذاتية أو من الخارج - بالبيض لا باللحم المصاب بالديدان المائية ، كما هي الحال في العدوى بمرض الدودة الشريطية البالغة . والأجنة المتطلقة من البيض قد تذهب إلى أي عضو تقريبا في جسم الانسان ، وبخاصة في عضلات الأطراف واللسان والعنق والأضلاع ، وأحيانا في الرئتين والكبد والقلب والعين ، أو في النخاع الشوكي والدماغ ( المخ ) . وتستقر الأجنة في هذه المواضع لتكون الديدان المائية . ومن الواضح أن الضرر الناشئ من وجودها يتوقف ، مقدارا وكيفا ، على عددها وعلى طبيعة المكان أو العضو الذي تستقر فيه . فانه إذا استقر بها المطاف في الأنسجة الرخوة تحت الجلد أو في عضلة غير رئيسية وكان عددها قليلا كان أذاها محدودا ، إلا إن كانت معوقة لحركة أو ضاغطة على عصب أو مجرى معين .

أما وجودها في العين أو القلب أو الرئتين أو الكبد فله بالطبع شأن آخر . وقد ثبت أن لهذه المئات ميلا خاصا للمخ ، ومن ثم يرجع أنها السبب في نسبة كبيرة من حالات الصرع . وقد وجد بعض الباحثين ، باستخدام وسائل خاصة للتصوير بالأشعة ، أن نسبة من الحالات التي سبق تشخيصها بأنها أورام في المخ هي في حقيقة أمرها مئات دودة لحم الخنزير . وإصابة المخ قد يتسبب عنها أعراض متباينة ، متفاوتة في الشدة ، فمن صداع قاس إلى شلل عضوي جزئي إلى دوار واضطرابات عصبية ونفسية قد تتخذ مظهرا هستيريا . وقد تظل المئات حية مدة طويلة في الجسم ، ولكنها قد تموت بعد فترات متفاوتة فتنتقل منها توكسينات سامة ، وكثيرا ما تنتكس في النهاية ، أي تحاط بأغراض جيري . وأثارها الخطيرة قد تنتهي بالوفاة . ولكن ما العلاج ؟ لا يعرف علاج ناجح لمرض الديدان المائية\* ، والجراحة هي الوسيلة الوحيدة لاستخراجها ، ولكنها قلما تكون مجدية وكثيرا ما تكون محفوفة بصعوبة شديدة أو خطر بالغ ، إذا كان عدد المئات كبيرا ومواضعها دقيقة .

الديدان الشعرية الحلزونية - تريكينيا :

تعيش الديدان البالغة من هذا النوع (*Trichinella spiralis*) في الأمعاء الدقيقة للانسان ، وأنواع أخرى معينة من الحيوان ، كما سيأتي فيما بعد . والديدان دقائق قصار الأجسام ، تبلغ إنانها نحو أربعة ملمترات وكورها لا تتجاوز نصف هذا الطول . والأنثى المخصبة المثقلة بالبيض تتعفن في جدار الأمعاء لتضع صفارها

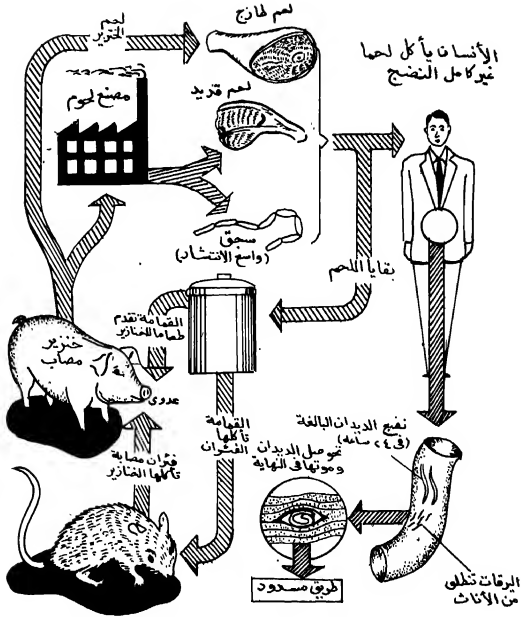
\* يجرب الآن صنع العقاقير قتل الديدان المائية ، مع الاحتراز من الأضرار الناجمة عن اللاتات الميتة نفسها ( في الدماغ ، على الأخص ) .

التي تعرف باليرقانات ، فهي لاتضع بيضا ، كمعظم الديدان ، وإنما يقفس بيضها وهولم يزل في باطنها ، ومن ثم توصف تلك الالانث بأنها بيوض ولود . وتجري اليرقانات مع دورة الدم مارة بالقلب والرئتين ثم تستقر بين ألياف العضلات في أعضاء مختلفة من الجسم ، حيث تنمو حتى يبلغ طولها مليمترا واحدا ، وقد خرجت من بطون أمهاتها لاتتجاوز جزءا من عشرة أجزاء من المليمتر ، ثم تلف على نفسها ، ومن ثم كان وصفها بالحلزونية . ولاتلبث هذه اليرقانات أن تنحوص ، والأغلب أن تضم كل حوصلة يرقانة واحدة أو اثنتين . وهذه الحويصلات هي الطور المعدي . فان كانت في لحم حيوان انتقلت الى الانسان أو الحيوان الذي يأكل هذا اللحم ، أما إن كانت في انسان فقد انتهت الى طريق مسدود ، كما ذكرنا من قبل في حالة اليرقانات المثانية لدودة لحم الخنزير الشريطية . وخاتمة المطاف ، في الانسان الذي يقدر له أن يعيش طويلا باصابة خفيفة ، أن تتكلس هذه الحويصلات بعد شهور عديدة ثم تموت اليرقانات المحبسة فيها وتتكلس بعد عدد من السنين ( يقدر البعض أنها قد تبلغ أحيانا الثلاثين ) . ويلاحظ هنا أن الأمهات من الديدان وبناتها من اليرقانات توجد في الفرد نفسه ، ولكن اليرقانات لاتتم دورتها فتصل الى المرحلة البالغة الا اذا وصلت الى فرد عائل جديد . ( شكل ١٦ ) .

#### مرض التريكينوس Trichinosis :

كما هي الحال بالنسبة لدودة لحم الخنزير الشريطية ، ليست الديدان الشعريرة البالغة هي الخطيرة ، وإنما يرقاتها هي أس البلاء . فعندما يأكل الانسان اللحم المصاب غير جيد الطهو تفترج الديدان من حويصلاتها وتبلغ نضجها الجنسي في يومين فتتزاوج ، ثم سرعان ماتوت الذكور أما الاناث فانها ترقد في جدار الأمعاء وتصبح قادرة على وضع يرقاتها بعد أسبوع واحد . وقد تستقر اليرقانات ، بعد دوراتها في الجسم ، في أي جسره عضلي منه ، إلا عضلة القلب ، ولكنها تكثر في عضلات الحجاب الحاجز والأضلاع والحنجرة واللسان والعين وبعض عضلات الذراعين والرجلين . وقد تموت الاناث البالغة جميعها بعد شهرين أو ثلاثة ، ولكن بعد أن تكون قد نفثت في أنحاء الجسم ذريتها الخبيثة . ويقدر أن كل أنثى تستطيع أن تضع في حياتها القصيرة عددا من اليرقانات قد يبلغ عشرة آلاف ( Noble and Noble, 1976 ) .

وتختلف الأعراض نوعا وشدة حسب مراحل المرض وكثافة العدوى وحالة المريض الصحية العامة . وعادة ما تظهر الأعراض في الأسبوع الثاني بعد تناول اللحم المعدي . وتتميز المرحلة الأولى من المرض بالاضطرابات المعوية والمعدة والاسهال الشديد الذي قد تصحبه حمى وضعف عام . أما المرحلة الثانية وهي فترة انتشار اليرقانات في الجسم واختراقها للعضلات ، فكثر ما تكون قاتلة ، ومن أعراضها انتفاخ الجفون وماتحت العينين وآلام عضلية ورماتيزمية مبرحة ، واضطرابات في وظائف العضلات التي تتعرض لعدد كبير من الغزاة ، كحركة الجبين والبلع والتنفس . ولاغربة في ذلك فقد قدر عدد اليرقانات في عضلة الحجاب الحاجز لانسان مصاب بألف يرقانة في الجرام الواحد ، ويصاب المريض بحمي تكاد تكون مستمرة وعرق غزير وهذيان ونزف تحت الاظافر ،



## دورة حياة تريكينلا سبيراليس

شكل ١٦

دورة حياة الدودة الشعرية الحلزونية

( لاحظ الدور الرئيسي الذي يقوم به الخنزير في الدورة ، والدور الاضائي للحفازان ، ولاحظ أن الانسان يأخذ العلوى من الخنازير ، ولكنه هو لا يمدى أحدا ) .  
( معدل عن سميث ، ١٩٧٦ )

وما الى ذلك . وفي هذه المرحلة توجد اليرقانات في السائل الدماغي الشوكي ومن ثم قد تظهر بعض أعراض التهاب الدماغ والسحايا ( أي الأغلفة المحيطة بالدماغ - أي المخ - والحبل الشوكي ) . أما المرحلة الثالثة ، المصاحبة لتكلس المحوصلات ، فتبدأ بعد نحو ستة أسابيع من بدء العدوى ، وفيها تشتد الأعراض السابقة ، وينتشر الارتشاح في الوجه والبطن والذراعين والرجلين ، ويصاب المريض بضعف عام شديد وطفح جلدي وفقر في الدم ونزف في الأحشاء وتضخم في الطحال واضطرابات عصبية وعقلية ، وتحدث معظم الوفيات بين الأسبوعين الرابع والسادس . أما اذا شفي المريض فلن يكون ذلك قبل بضعة أشهر ، ولكن الآلام العضلية قد تعاوده طيلة سنة كاملة .

والمشهور أنه لا يوجد عقار نوعي لمرض التريكيثا ( Noble and Noble, 1976 ) ، وكان هذا هو الرأي السائد ولكن بعض المراجع تشير الى أن مادة الثيابندازول ( Thiabendazole ) تفيد في علاج الأعراض اذا استخدمت قبل تحوصل اليرقانات ( Wilcocks & Manson-Bahr, 1974 ) . ولكن المشكلة الحقيقية تكمن أيضا في تنوع الأعراض الشديد واختلاطها الظاهري بالزحار أو الكوليرا أو التسمم الغذائي أو الحمى الروماتيزمية أو غيرها من الحميات ، وما الى ذلك كما رأينا . وقد يجدي فحص قطعة من اللحم ( من سانة الساق ) من المريض المشتبه في إصابته أو بعض الاختبارات المعملية الخاصة ، ولكن التشخيص غالبا ما يتأكد بفحص قطعة من المحجاب الحاجز بعد الوفاة .

#### تحليل ومناقشة

عرضنا فيما تقدم أهم الأضرار الوبيلة ، من ناحية الأمراض الطفيلية ، التي تتهدد آكل لحم الخنزير ، وسوف نعرض الآن مدى انتشار تلك الأمراض ونبحث في امكان آكل لحم الخنزير أن يتقى تلك الأضرار ونتنظر في تحقق معنى « الرجس » فيها ، مع مناقشة اعتراضات المجادلين .

١ - انتشار دودة الخنزير الشريطية ومرض الديدان المثانية : الارتباط واضح بين انتشار دودة لحم الخنزير الشريطية ومرض الديدان التابع لها وبين العادات الغذائية المتبعة والأديان السائدة في الأقاليم المختلفة . فالدودة واسعة الانتشار في أوروبا وجنوبي آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، ففي المكسيك ، مثلا ، تُحدث الدودة - أو على الأصح يرقاتها المثانية - عددا كبيرا من إصابات الدماغ ( المخ ) - ( Noble and Noble, 1976 ) . ومع أن الديدان المثانية قد توجد نادرا في الجمال والكلاب ، الا أن الخنزير هو المصدر الأساسي لانتشارها ، كما ذكرنا . ويذكر نلسون أن تفشى مرض الديدان المثانية في جنوب أفريقيا يعد مثلا لتأثير سلوك الأقوام وعاداتهم في انتشار أمراض معينة بينهم ، فهو يروي عن آخرين هذه الطريقة : وهي أن المشعوذين هناك يعالجون مرضاهم ببطخه فيها الديدان الشريطية - وقطع منها تحوي بيضا ناضجا في الغالب - ( Nelson, 1972 ) .

ويقرر لاجاج ( ١٩٦١ ) أن دودة لحم الخنزير الشريطية « نادرة الوجود » في البلاد التي لا يؤكل فيها لحم الخنزير، كما في البلاد الاسلامية ( ص ٩٥ ) . كذلك يقرر ولكوكس ومانسون بار في الطبعة السابعة عشرة من كتابها المشهور عن طب المناطق الحارة أن هذه الدودة غير معروفة بين المسلمين واليهود ( Wilcocks & Manson-Bahr, 1974 ) . أما تشاندلر ويريد فيذكران في كتابها الأشهر في علم الطفيليات ما ترجمه حرفيا بما يلي : « أما في البلاد اليهودية (كذا) والاسلامية ، حيث بعد أكل لحم الخنزير خطيئة دينية خطيرة ، فليس لهذا الطفيلي الا أدنى الفرص للبقاء ، وهو دليل فاضح على فساد الأخلاق عند حدوثه ..... » ( Chandler & Read, 1965;P. 355 ) . ويشير المؤلفان الى حقيقة هامة يقولان إنها ما زالت من ألباز علم الطفيليات المشككة ، وهي أن الديدان المثانية أوسع انتشارا في الانسان من الديدان الشريطية البالغة .. وهذا شيء بالغ الأهمية لأن مرض الديدان المثانية هو الشديد الخطورة ، كما بينا من قبل .

٢ - انتشار دودة الخنزير الشعيرة الحلزونية ( التريكينيا ) : « المشهور » أن مرض التريكينيا منتشر في جميع البلاد الأوروبية ( وعلى الأخص : بولندا ، المناطق الغربية والجنوبية الشرقية من روسيا ، رومانيا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، إيطاليا ، ألمانيا ، النمسا ) ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، والمناطق القطبية الشمالية . والمرضى أقل انتشارا في بلدان أوروبا الأخرى ، وفي المكسيك والأنحاء الجنوبية من أمريكا الجنوبية وعلى الأخص في شيلي . ( عدة مراجع ) . وأقول « المشهور » لأن هذه الصورة أخذت في التغير ، كما سيأتي فيما بعد .

ويقرر تشاندلر ويريد ( في مرجعها المشار إليه ) أن هذه الدودة تنفرد دون معظم الديدان المتطفلة في الانسان بأنها تكاد تكون غير موجودة في المناطق الحارة ، فيمكن اعتبارها غير موجودة - من الناحية العملية - « من سان فرانسيسكو الى السويس ومن أفريقيا الى أستراليا » . ولكن المؤلفين يذكوران في موضع سابق ما ترجمته : « وقد قيل إن هذه الدودة هي علة تحريم أكل لحم الخنزير في الشريعة اليهودية القديمة . ولكن يبدو أن هذا بعيد للغاية ، إذ ليس ثمة من سبب خاص لافتراضنا أن مرض ديدان التريكينيا كان متفشيا في الخنازير على عهد موسى ، ثم قل بعد ذلك حتى كاد يختفي من الشرق الأوسط » - ( المرجع السابق ، ص ٤٠٤ ) . ولكننا نرى - على نقض ما ذكر المؤلفان - أنه ليس ثمة ما يمنع صحة ذلك الفرض - من انتشار المرض سابقا ثم اختفائه في الأزمان التالية . هذا فضلا عن أن المؤلفين تناسبا أن شريعة الاسلام الغراء قد بسطت ظلها الوارف في تلك المناطق ، فتراجع المرض مدحورا وراء حدودها . ولعل الذي جعل المؤلفين يميلان الى استبعاد ذلك الفرض هو ملاحظتها للصورة الحالية التي ترواها من عدم وجود الطفيلي في المناطق الحارة . بيد أن ماسوف نذكره الآن من اكتشاف المرض في ذلك الحزام الذي كان بعيدا عنه ، يؤيد صحته ، إذ يبدو أن التراخي في التمسك الجاد بتحريم الاسلام لحم الخنزير - مؤيدا للتراث السابقة عليه - هو الذي سمح للدودة اللعينة بأن تتسلل عائدة لتسترد مناطق نفوذها القدية ، من خلال ثغرات الجشع الاقتصادي والنهم الآدمي !



ويجب نلسون قائلًا ما ترجمته : « أما العلة في إدماننا - نحن أهل العالم الغربي - أكل لحم الخنزير فاتها لغز محير ، وخاصة أننا نذكر على الدوام بمخاطرها ونحن نقرأ الكتاب المقدس » ، مشيرًا إلى الاصحاح الرابع عشر من سفر التثنية من التوراة . ثم يستطرد المؤلف قائلًا : « أما اليهود الملتزمون وأتباع محمد ( صلوات الله وسلامه عليه ) فانهم مضوا في نفورهم من الخنازير وعدم استساغتهم لحومها ، ومن ثم خلت جماعاتهم من مرض التريكينيا خلوا تامًا » . ( Nelson, 1972: P. 117 ) . وهذه العلة البديهيّة لخلو الأسم التي لا تأكل لحم الخنزير من الإصابة بمرض التريكينيا تلقى التأييد من جميع المصادر ( مثلًا ، غير مذكور : Noble and Noble, 1976; Croll and Matthews, 1977 )

٣ - مرض التريكينيا يفتح جبهات جديدة : ويبدو أن البلاد الاسلاميّة كادت تفقد ذلك الوضع الفريد الذي كانت تتمتع به ويجسدها عليه الأوروبيون والأمريكيون ، لولا أن تداركها رحمة الله ، فينتبه أبنائها إلى وجوب التمسك بطاعة الله أولاً ، ثم إلى إدراك حكمة شريعته الغراء التي لن يجدوا في غيرها صلاح أحوالهم . وهاكم ما يقرره سميت في كتابه : « .... والذي كان موضع القبول العام ، إلى عهد قريب ، هو أن المرض قاصر على المناطق المعتدلة والقطبية ، ولكننا نعلم الآن أنه موجود أيضا في المناطق الحارة ، كما أنه قد أبلغ عنه من الجزائر والشرق الأوسط والصين وهاواي وأفريقيا وتادرا من أمريكا الجنوبيّة . كذلك قد وجد في نيوزيلندة ، غير أنه يبدو أنه مخفف تماما - حتى اليوم - من أستراليا ، ولو أن كثرة المهاجرين إليها قد يجعل المرض يبلته في النهاية » - ( Smyth, 1976; P. 316 ) . ولو أن سميت لم يفسر كيف أن كثرة المهاجرين يمكن أن تنقل المرض ، بينا المعروف أن انتشار المرض لا يحدث إلا من خلال لحم مصاب ، فذهاب أفراد مصابين إلى أستراليا لن يترتب عليه انتشار المرض إلا إذا أكلت لحومهم !

ويروي لنا نلسون ( ١٩٧٢ ) قصة غزويدان التريكينلا للإنسان في كينيا لأول مرة من خلال سلسلة من البحوث أجراها ومعاونوه بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠ . وأول من أصيب جماعة من الشبان طعموا لحم خنزير بري دون أن ينضجوه ، وكانت إصابتهم « أنقل إصابة إنسانية بالتريكينلا » سجلتها المراجع الطبيّة . ويعلم نلسون الأمر بأن أولئك الشبان خرجوا على تقاليد آبائهم من جماعة الكيكويو الذين ينفرون من أكل لحوم الحيوانات البرية ، وكانوا في مرقهم ذاك متأثرين بثورة الماو ماو . ولهذا السبب نفسه يظن أن المرض يقتك بكثير من هوة الصيد الذين يحبون أن « يتذوقوا » لذّة انتصارهم على فرائسهم !

وظهور المرض ، أو اكتشافه على الأقل ، في مناطق لم يكن من المعروف وجوده فيها من قبل لا يلقي ما يستحق من اهتمام . وأذكر أنني عانيت أستاذًا لعلم الطفيليات في إحدى كليات الطب العربيّة على علم الاهتمام بابرز الحقائق عن مرض التريكينيا لطلابهم ، فأجابني : ولماذا الاهتمام ، بالمرض غير موجود في بلادنا ، ولا شأن لنا به . ( مع أن إبراز تلك الحقائق فيه على الأقل « ثقافة » طبيّة ينبغي أن يعرفها الطبيب المسلم ) . وهاكم النبا

الحديث الذي يؤكد لنا أن المرض موجود في ديارنا . في ٢٥ مارس ١٩٨٠ ، أذاعت وكالة الأنباء الكويتية ( كونا ) نبأ مفاده أنه قد نقل في ذلك اليوم خمسون مصاباً ، بعضهم في حالة خطر شديد إلى مستشفيات مدينة زحلة ، شرقي بيروت ، إثر تناولهم لحم خنزير . وذكر النبا أن راديو بيروت أذاع أن « بعض القضاة في مدينة زحلة باعوا زبانتهم لحم خنزير على أنه لحم غنم وأصيبوا إثر تناوله بداء أطلق عليه الراديو اسم التريشينوز ( الاسم الفرنسي للمرض ) أو الشرقيات ، إلا أنه لم يذكر أي إيضاحات أخرى عن هذا الداء أو عن حالة المرضى » . ( جريدة « الأنباء » الكويتية في ١٩٨٠ / ٣ / ٢٦ ) .

٤ - عوائل دودة التريكيننا من أنواع الحيوان : تذكر مراجع علم الطفيليات أن دودة التريكينلا يمكن أن تصيب أكثر من مائة نوع من الحيوان معظمها من اللواحم والقوارض الرماة ، أهمها الخنازير والديبة والتعالب والقطط والكلاب والجرذان . ( وفي المناطق القطبية الشمالية تصيب الدودة الديبة القطبية والفقم والحيثان ، ومنها تنتقل إلى السكان من الاسكيمو ورواد تلك المناطق النائية من الرحالة والمستكشفين ، وتروفي في هذا أفاصيص ) . وهكذا يتضح أن لحم الخنزير هو - من الناحية العلمية - المصدر الوحيد لعدوى الانسان في المناطق الموبوءة . ولكن من أين تُعدى الخنازير ؟

لعل أهم مصدر لعدوى الخنازير هو العادة المتبعة في أنحاء العالم من تربية الخنازير على القمامة ، وعادة الخنازير الذميمة من ترم الفضلات والنفايات ، إذ أن القمامة تضم بقايا لحم خنازير مصابة ، وهي شيء شائع في تلك البلاد ، حتى أن أحد الباحثين يسمى دودة التريكينلا « دودة القمامة » ، وهكذا تجتمع الدودة مع الخنزير في القذارة والرجس . ولأحظ بعض الباحثين أن الخنازير تصاب أيضاً نتيجة أن بعضها يأكل أذبال بعض ، وعلى الأخص في المراعي المكنتلة بها ، بيد أنه من المعتقد أيضاً أن الجرذان تقوم بدور قد يكون رئيسياً في نشر العدوى ، فالجرذان تصاب بالمرض إذا أكلت ماينبذ من لحم الخنازير المصابة ، وتُعدى الجرذان بعضها بعضاً لأنها تأكل لحم بعضها البعض ، حية وميتة . ثم تنتقل العدوى من هذه الجرذان إلى الخنازير إذا أكلت جيفها في أكوام القمامات . وهكذا تحدث دورات مختلفة : من فأر إلى فأر ، ومن خنزير إلى فأر ، ومن فأر إلى خنزير ، ومن خنزير إلى خنزير ، ثم من خنزير إلى انسان ... وتكون هذه نتيجة بائسة للانسان التعيس والدودة أيضاً ، لأنه بالنسبة للدودة طريق مسدود . ( انظر شكل ١٦ ) .

٥ - هل يمكن توقي المرض في البلاد الموبوءة ؟ وبدهي أن يحاجنا معترض قائلا : ولم لا تربي الخنازير تربية صحية نظيفة ؟ ولم لا تُتخذ الوسائل الكفيلة باكتشاف اللحم المصابة وإعدامها ؟ ولم لا تُتخذ الاحتياطات التي تضمن توقي العدوى ؟ ..... وأبسط ما يرد به على ذلك : هب أن هذا كله كان ممكناً في مكان معين وفي ظروف معينة ، هل يمكن تحقيقه لكافة البشر في سائر الأماكن وفي كل الظروف ؟ أليس الأولى عدم المخاطرة وتجنب المهالك ؟ بل الحقيقة أن هذه الوسائل كلها لم تكن مجدية - في واقع الحال - في أي زمان أو مكان ، كما يلي .

وبأئينا الدليل من الولايات المتحدة ، ومستوى المعيشة فيها ما نعلم ... فبينما نرى أن أفقر قطر إسلامي مالا قد نجا من هذا الوباء ، نجد أن الولايات المتحدة بها ثلاثة أمثال ما في العالم أجمع من الاصابات . ونظرا لأن معظم الاصابات لا يكتشف - إذا لم يكن شديدا - أو يساء تشخيصه لتعدد أعراض المرض وشدة تنوعها ، فانه ليس من اليسير التوصل إلى النسب الصادقة للاصابة في أي مكان ، حتى مع وسائل التشخيص المعملية المستحدثة . وقد وجد بعض الباحثين أنهم قد كشفوا عن ٢٢٢ حالة بالفحص بعد الوفاة ، كان في بعضها نحو من ألف دودة في كل جرام واحد من عضلاتهم المصابة ، ومع ذلك لم يسبق تشخيص أي منها على أنها إصابة التريكينا ؛ ويذكر تشاندلر ويرد أن نسبة الاصابة تتراوح بين ٥ في المائة و ٢٧ في المائة في الولايات الأمريكية المختلفة . ولو أن سميت (١٩٧٦) يذكر أن النسبة قد انخفضت فيما بعد إلى نحو ٤ في المائة ( وهو رقم غير قليل ) . ويذكر نلسون ( ١٩٧٢ ) أن الحكومات كثيرا ماتتكم أخبار أوبئة التريكينا التي تنتشر في بلادها فجأة ، ربما خوفا من أن يؤثر ذلك على صادراتها من اللحوم . ومن ذلك القبيل وباء شب في أيرلندا عام ١٩٦٩ ، وكذلك في بولندا حيث يبلغ المرض درجة كبيرة من الخطورة .

ولعل أشد أطعمه لحم الخنزير أورا في نشر العدوى هو السجق ، وذلك لأن الفرم يوزع اللحم المصاب فيه ، ولأنه قد يؤكل نيئا أو غير نضج . وهذا هو المصدر الرئيسي لانتشار المرض في إيطاليا وألمانيا والنمسا ، ومن الطريف - والمؤسف أيضا - أن نسبة الوفيات تبلغ ذروتها هناك بين معلمي المدارس ورجال الدين في الريف ، الذين يحتضنهم الريفيون بهداياهم السخية من سجق لحم الخنزير . وفي إنجلترا لوحظ أن معظم المصابين من النساء ، وعلى ذلك بأنهن يتسرعن بأكل السجق غير تام النضج أولاستراهن قضمه أو قضمن من السجق النيم أثناء إعداد الطعام ؛ والسجق الشديد الاصابة قد تحوي الأوعية الواحدة منه أكثر من مائة ألف يرقات متحوصة ، والذي يأكل هذه الأوعية سوف تنمو في أمعائه إناث بالغة تنفث في جسمه أكثر من مائة مليون يرقات ( على أقل تقدير ) ؛

ولكن ماهي التدابير التي يتخذها القوم هناك لوقاية الخنازير وأكلها من دودة التريكينا ؟ إن الصورة تزداد جلاء حين نعلم بعضا من الاجراءات الشاقة والمحاولات الباهظة التي تتخذ في هذا السبيل . ففي الولايات المتحدة نحو من مليون ونصف مليون خنزير تربي كليا أو جزئيا على القمامة التجارية ( إحصاء غير حديث . وتسكن القوانين في الولايات المختلفة لضبط هذه التجارة ، منها قانون يقضي بتبريض القمامة للبخار الساخن نصف ساعة على الأقل قبل تقديمها للخننازير . وفي سخرية بالغة يذكر تشاندلر ويرد ( ١٩٦٥ ) ونلسون ( ١٩٧٢ ) أن تعرض الخنازير لمرض فيروسي فتاك ، ينتقل أيضا من القمامة ، هز المسؤولين وأرباب تجارة الخنازير أكثر من اهتمامهم بصحة خمسة وعشرين مليوناً من البشر ، بل بحياتهم في كثير من الأحيان ؛ ثم ماهي نتيجة هذه الجهود الكبيرة ؟ بقدر أن نحو من ٥ في المائة من خنازير بوسطن ونحو من ١٨.٥ في المائة من ذبائح ميتشجان مصاب بهذه الآفة ( ولكس ومانسون بار ) . ويقدر أن كل أمريكي من آكلي لحم الخنزير يتناول في حياته نحو

من مائتي وجبة من اللحم المصاب ( تشاندلر وريد ) . وقد قدر بعض الباحثين أن ابتلاع الإنسان خمس يرقانات لكل جرام من وزن جسمه يعرضه لاصابة قاتلة .

أما اللحم نفسه فإن معالجته بالكوبالت والسيزيم المشعنين تصيب بالعمق الديدان الناشئة مما فيه من حويصلات ، ولكن هذا الاجراء فني دقيق وليس من الميسور تطبيقه . والتجميد السريع بالتبريد ثم التخزين الطويل في درجات للحرارة شديدة الانخفاض يقضي على الطفيليات الدفينة في اللحم . وتقضي التعليلات الصحية في الولايات المتحدة بخزن لحوم الخنازير التي تؤكل غير مطهية عشرين يوما كاملة في درجة حرارة ٦٥°م تحت الصفر ؛ كذلك الحرارة الشديدة تقتل الطفيليات ، ولذلك يوصي بغلي لحوم الخنازير فترة تتناسب مع أحجامها ... وفي هذا تتفاوت التقديرات ، فيقدر بعض الباحثين أن نحو من أربعين دقيقة كاف لذلك ، بينما يقدر بعضهم أن غلي قطعة من لحم الخنزير مدة ساعتين لا يكاد يجعل حرارة قلبها الداخلي تتجاوز ٤٥ درجة مئوية ؛ أما الشهي والقلبي فتبان سريعا في المعتاد ومن ثم فهي ضعيفا الأثر في قتل اليرقانات الدفينة ، ومن هذا يتبين خطورة اللحم المقدمة في حفلات « الباربيكيو » .... ونتيجة هذه الجهود الحارقة والتفقات الباهظة هي تلك النسب المرتفعة من الاصابات التي ذكرنا أمثلة منها ، أليس الأيسر بداهة هو تجنب أكل تلك اللحوم أصلا .... وكفى الله المؤمنين القتال !

٦ - اللحم .... والشحم ، بل والجلد أيضا : وقد يقال : هذا عن اللحم ، فإذا عن الشحم ؟ يقول القرطبي ، في « الجامع لأحكام القرآن » ، انه لا خلاف أن جملة الخنزير محرمة ( إلا الشعر فانه يجوز المفارقة - أي خياطة جلد الأضدية - به ١ ) ، وهذا ما ينقله عنه أيضا صاحب « نيل المرام في تفسير آيات الأحكام » . ويجوز البيضاوي القضية بقوله : « إنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان ، وسائر أجزائه كالتابع له » . ومع أنني حددت لنفسني منذ البداية أن أحصر كلامي عن طفيليات الخنزير ، إلا أنه لا بأس من أن أشير إلى ما ذكره لي بعض الزملاء المتمكنين من الكيمياء الحيوية من أن دهن الخنزير أقرب إلى الاتهام بإحداث تصلب الشرايين وأمراض القلب المتعلقة بذلك من دهون الحيوانات الأخرى ، كما أن بعض الباحثين قد وجد أن دهن الخنزير يصيب حيوانات التجارب بتكون الحصى في المرارة وانسداده .

وقد يقال أيضا ، وماذا علينا لو استعملنا بعض ما يعد من جلد الخنزير بعد تعقيمه ودباغته ؟ والذي يتبادر إلى الذهن أن تجنب الضرر الكثير أولى ولا شك من التمسك بتلك المنفعة اليسيرة . ولا ينبغي أن ننسى أمرين ، أولهما أن إبطال الانتفاع بالخنزير بأي وجه من الأوجه هو مكافحة لتربيته ، كما أن تحريم اللحم فيه الفضاء على مصدر الاهتمام الأول بتربيته وأهدار لقيمته الاقتصادية . وثانيهما ، أن المنتفع بهذه الأشياء ينبغي عليه أن يعلم أنه قد شجع محرما ( حتى إن لم يكن قد ارتكب محرما ) وأيد ضرر كثير من العمال الذين يشتغلون بصناعة تربية الخنازير وبذبحها وبيع لحومها ، فاتهم معرضون للطفيليات التي تنتقل إليهم دون سواهم وليس عن طريق أكل لحم الخنزير ، كما بينا .

وبعد ، لملي أطلت وأنتقلت ، ولكن عذري هو أهمية الموضوع ودقته ، وكثرة ما قيل فيه مما هو مفتقر إلى الموضوعية والاحاطة . وغني عن البيان أن معرفتنا ببعض جوانب علة التحريم لا ينفي وجود جوانب أخرى لم نعرفها بعد ، فنقول ما قالته الملائكة : « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » - ( البقرة : ٣٢ ) . ونحمد الله - أولا وأخرا - على نعمة الاسلام والايمان ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

### ٥ - السُّبُلُ الدُّلُّ

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربك ذُلًّا مَخْرَج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . ( النحل : ٦٨ ، ٦٩ )

استحوذ النحل على إعجاب الناس وعجيبهم في كل عصر وزمن ، وأثار فضول عوامهم وعلمائهم ، واستهوى أديابهم ومفكرهم وشعرائهم . فلا عجب أن حفلت التفسيرات بهذه الاشارات البليغة في هاتين الآيتين الكريمتين من سورة تحمل اسم ذلك المخلوق العجيب . وكان للمفسرين الأوائل اجتهادات ذكية متعمقة في كل لفظ تقريبا من ألفاظ الآيتين ، وأثاروا نكتا بلاغية دقيقة وطريفة . فمن ذلك أن لهم كلاما كثيرا في معنى « أوحى » ، ودلالة التأنيث في فعل الأمر « اتخذي » ، وهل يكون الأمر لمن لا عقل له أم أن للنحل عقلا وأن المقصود هو الإلهام والاشارة إلى الفطرة والغريزة . ( وبعض هذا ما يزال محل جدل بين علماء سلوك الحيوان ) . ثم أسهبوا في الكلام عن « بيوت النحل » وغرائب عاداته وعجائب جماعته ، وعن معنى كلمة « ثمرات » ، وعن مادة « العسل » ، ولماذا سمي « شرابا » ، ومم تجمع النحلة ، أهو من الطل أم من الزهر ، وكيف تصنعه ، ويعنى كلمة بطونها » ، وماهي « الألوان المختلفة » للعسل وكيف تكون ، ثم عن « الشفاء » الذي في العسل للناس .

وللمفسرين الأوائل في هذا كله كلام يستحق التأمل وفي حاجة ماسة إلى تمحيص . والقوم لم يقصروا وإنما هم اجتهدوا على قدر المعارف المتاحة لهم في عصورهم . بل العجيب أن معظم هذه الموضوعات مازالت تستهوي الناس من كل مشرب ، فنسمع أو نقرأ الكثير مما فيه درجات متفاوتة من الحقيقة والتفصيل والخيال وعدم الدقة أو الخلط . فإنا إذا قرأنا في « روح المعاني » للألوسي ، مثلا : « .... فتراها ( أي النحل ) يكون فيها واحد كالرئيس هو أعظمها جنة يكون نافذ الحكم على سائرهما ، والكل يخضع له ويحلمون عنه وسمى اليسوب والأمر » ، فإن هذا لا يختلف كثيرا عما يصحح الوضع في هذه الأيام فيقول إن اليسوب هو الملكة وأنها أنثى ، ولكنه يكرر نسبة الحكم والرئاسة لها ، وهي في حقيقة الحال مجرد « أم » لا تملك ولا تحكم ، وإنما هي مسخرة لوضع البيض ، وقد يحكم عليها بناتها العقيات بالطرد أو القتل ! وهذه الأخطاء ، وأمثالها عن « النظام الاجتماعي »

« والأخلاقي » للنحل ، يتورط فيه المتحدثون من غير المختصين وورد - في الغالب - إلى « إسقاط » بشرى ، أي بتصور النحل بشرا ، وتفسير تصرفاته وأحواله على هذا الأساس الفاسد .

وأغلب ماكثر الكلام فيه هذه الأيام هو ببناء خلية النحل « والنظام الاجتماعي » فيها ، والتركيب الكيماوي لعسل النحل وأثره في شفاء الناس . ولكن مراجعتي لكتب التفسير أفنعتني بأن أحصر كلامي هنا في الاجتهاد في فهم قوله تعالى : « فاسلكي سبل ربك ذللا » ، لأن المفسرين قد وقفوا عندها طويلا وتحيروا في فهمها كثيرا ، وسوف أوجز في يلي أرجح ما يقوله العلم الآن في ذلك ، ثم أستعرض في النهاية خلاصة أقوال المفسرين في هذه النقطة بالذات في ضوء المعارف العلمية الحديثة .

#### رحلة الكشف وحواس النحل :

من المعروف أن جماعة النحل المستقرة ، أو المستعمرة ، تتألف من الملكة أو الأم وعدد عظيم من بناتها العوامل ( الشغالات ) وصغار في دور التكوين . ( أما الذكور فأنها تكون قد أدت ، أو أدى واحد منها بلغة أصح دوره في بداية إقامة الجماعة ، ثم طردت وفنيت عن آخرها ) . وتقوم العوامل بجميع الأعمال في المستعمرة ، ولكن لعل أهم هذه الأعمال هو جمع الغذاء ، ولكن النحلة العاملة تقضي صباحها في بعض الأعمال « المنزلية » الحقيقية ولا تتردد الحفل إلا في ريعان شبابها ، أي عندما تبلغ من العمر نحو عشرة أيام . وهي عندما تجوب الحقول والمناطق حول بيتها بحثا عن الغذاء الطيب تستعين بحواسها التي منحها الله إياها . فالنحلة مزودة بحاسة شم قوية ، عن طريق قربي الاستشعار في مقدم رأسها ، تضارع الانسان في قدرته على تمييز الروائح ، فكأنها تشتم الشم الشذى الفواح من الأزهار العابقة لتيتم شطر أحبها إليها .

ولكن ينبغي علينا أن نشير في إيجاز ، دون أن نخرج عن موضوعنا ، إلى الدور الهام الذي تلعبه الروائح في حياة النحل . والروائح هنا ليست أريج الأزهار ، وإنما هي مواد كيماوية متعددة تفرزها غدد كثيرة في أجسام النحل ، لكل منها - أولرائحته - مدلول خاص ، ويطلق عليها العلماء اسم الفيرومونات . فمن تلك المواد مادة تفرزها الملكة من غددها الفكية ، فتجذب بها الذكور في يوم طيران زفافها الملكي ثم تستخدمها في منع العوامل من تشنقة ملكات جديدة بل وأصابة العوامل نفسها بالعقم ... وهذه المادة توزعها الملكة على العوامل اللواتي يتعهدهن بالتغذية والتنظيف ، ثم تنتشر بين العوامل بوسائل مختلفة وعلى الأخص بسبب عادة النحل من رشف العسل ويحه من أفواهها في عيون الخلية . ( Wilson, 1975 ) . ولكل مستعمرة رائحتها الخاصة بها ، وهذا ييسر لأفرادها أن يتعرف بعضها على بعض فلا تسمح لدخيل بولوج باب بيتها ، وإذا ماشمت نحلة لها رائحة غريبة أو سمعتها لدغا حتى تلقيها جثة هامدة . فان بطاقة الهوية وجواز المرور في عالم النحل يكتبان بلغة تشتم نقرأ ! وعندما تعثر نحلة كشافة على موطن مناسب يصلح لإقامة مستعمرة جديدة ، أبرزت غدة بالقرب من مؤخر

جسمها وأطلقت منها رائحة عسبرتها المميزة ثم أخذت تخفق أجنحتها خفقا سريعا حتى تنتشر الرائحة ، وسرعان ما تخف إليها جماعات من بنات قوبها لتتفحص المكان الجديد .

ولكن فلنعد إلى النحلة المستكشفة وحواسها ، فانها فضلا عن الشم تتمتع بحاسة إبصار جيدة تميز البياض والسواد وبعض الألوان ، وعلى الأخص اللونين الأزرق والأصفر . وهي ليست في حدة العين البشرية ولكنها تمتاز عليها في إحساسها بالأشعة فوق البنفسجية ، فهي لذلك ترى مالا تراه عينونا ، كبعض المسالك والنفوش على الزهرة ترشد وتقود إلى مخزن الرحيق ، ولا يمكننا الكشف عنها إلا بتصويرها بالأشعة فوق البنفسجية . ثم إذا حطت النحلة على زهرة بانعة وبلغت رحيقها استطاعت أن تذوقه ، فهي بحكم فطرتها ولوعة المواد السكرية وتستطيع تحديد درجات تركيزها بأي مقدار حلالاتها .

فالنحلة إذن مهيأة بحواسها الثلاث هذه ( إبصارها وشمها وتذوقها ) لأن تحيا حياة موفقة في عالم الأهار بهجة ألوانه وطيب عَرَفه وحلاوة رحيقه ، وسوف نزيد فيما بعد مقدرتها على الاحساس بالأصوات ( وليس « سماعها » ) وعلى الاحساس بالضوء المستقطب . ومهما يكن من أمر ، فإن النحلة الكاشفة إذا ما عثرت على بغيثها أخذت تلحق الرحيق وتقتص منه وتجميع من حبوب اللقاح ما شاء الله لها أن تتزود به من هذا الرزق الحلال ... ثم تنتقل من زهرة إلى زهرة حتى تصبح مثقلة بزيادة فتبعم قافلة نحو بيتها ، فهي لا تتراد الأزهار كي تطعم هي ونشبع وإنما لكي تفتار لغومها ، وفيهم الملكة التي لا تبرح خدرها والصغار العاجزة ، ثم لا دخار ما يفيض عن حاجات اليوم العاجلة للشئاء بيرده القارس وغذائه الشحيح .

رحلة العودة ... وليس للنحل فيها أمر فريد :

وقد يكون البحث عن الغذاء قد استدرج النحلة بعيدا عن بيتها ، فكيف تنهضي إلى مسكنها إذا أوتت راجعة إليه ؟ يبدو أنها تستعين على ذلك بحاسني النظر والشم كلنيتها . وقد ذكرنا أن للمستعمرة رائحة خاصة بها وأن للروائح مغزي خاصا عند النحل ، ولكن يبدو أن للابصار دورا بارزا أيضا ، إذ يلاحظ أن النحلة الشابة لا تترك بيتها وحيدة في رحلاتها الأولى ، ثم إنها عندما تغادر البيت تستدير إليه وتقف أو تحلق أمامه فترة وكأنها تتمعنه حتى ينطبع في ذاكرتها ، ثم هي من بعد ذلك تطير من حوله في دوائر تأخذ في الاتساع شيئا فشيئا . هذا فضلا عن أنها تكون حذرة في رحلاتها الأولى فلا تبتعد عنه كثيرا إلى أن تزداد خبرة بمعالم المنطقة المحيطة وموضع بيتها فيه . وعلى أية حال لا تتفرد نحلة العسل بالمقدرة على الاياب إلى مسكنها ، إذ أن في عالم الحيوان أمثلة كثيرة رائحة ، ويكفي أن نتذكر الخوارق التي تأتيناها الأسماك والطيور المهاجرة ... وللعلم في هذا كله دراسات شائعة ، ولكن لا مجال للعرض لها الآن .

## رحلة الجنى وأسراها المذهلة :

هاتان هما رحلة الذهاب أو الكشف ورحلة الإياب .... ولكن النحلة العائدة لا تحمل إلى عشيرتها زادا حلوا وحسب ، وإنما تحمل إليها أنباء طيبة عنه وتقريراً منفصلاً عن رحلتها ... وهي لا تحتفظ بهذه المعلومات القيمة لنفسها ، وإنما تذييعها على الملأ من شقيقتها العوامل ... فكيف يحدث ذلك وبأي لغة يكون ؟ صاحب الفضل الأول في معرفتنا الجواب على هذا التساؤل هو العالم النمساوي كارل فون فريش الذي عكف هو ومعاونوه على دراسة ما سمي « لغة النحل » نحواً من ستين عاماً ، ونشر بحثاً عديدة وبضعة كتب أهمها كتاب نشره عام ١٩٥٠ ثم أعاد نشره بعد واحد وعشرين عاماً ( Von Frisch, 1971 ) ، وإنك لتجد أعماله مذكورة بدرجات متفاوتة من الدقة والتفصيل في كثير من المراجع البيولوجية ( نختار منها : سكوت ، ١٩٧٠ ؛ Dewsbury, 1978 ) . هذا وقد نال فون فريش أعظم تقدير علمي عندما اقتسم جائزة نوبل العالمية عام ١٩٧٣ مع عالين آخرين ذاتي الصيت من علماء سلوك الحيوان ، وهما لورنتز وتيتيرجن . وسوف أحاول أن أعرض أهم نتائج بحث فون فريش وبعض العلماء الآخرين في إنجاز لا يؤدي إلى الغموض ، لأنه سوف يتضح أن هذه البحوث هي التي تفتح أمامنا باب فهمنا للسبل التي ذللها الله للنحل .

في أول الأمر لاحظ فون فريش ، ما لاحظته غيره من قبل ، أنه إذا وضع إناء به محلول من السكر المعطر في المنطقة المحيطة ببيت النحل مضت ساعات أو أيام قبل أن تهتدي إليه إحدى النحلات المستكشفات التي تجوب المنطقة ، ولكن ما إن تغفل هذه راجعة إلى بيتها حتى تحف أسراب من زميلاتنا مسرعات نحو الغذاء الشهى . فاستنتج فون فريش أن النحلة الأولى لا بد قد نقلت نبأ اكتشافها إلى زميلاتنا بصورة ما . ومن ثم عكف فون فريش على دراسة الأمر ، واحتال إلى بلوغ ذلك حيلة كثيرة منها أنه ابتدع بيتاً للنحل فيه قرص واحد وواجهته من زجاج ، حتى يتسنى له مراقبة النحل في داخل بيته . ثم عمد أيضاً إلى تمييز أفراد النحل بعلامات مختلفة الألوان والأشكال حتى يسهل عليه تتبعها . كما أنه استطاع أن يدرب بعضاً من نحل تجاربه على الاغتناء من محاليل سكرية في صحائف زجاجية .

وفي تجاربه الأولى ، وضع فون فريش إناء السكر على مسافة غير بعيدة عن بيت النحل ، فلما اكتشفته نحلة مبرها بعلامة خاصة ، فلما عادت هذه إلى بيتها وجدها قد توسطت قرص العسل ثم أخذت تدور في حمية ونشاط مرة نحو اليمين ومرة نحو اليسار ، وكررت هذا الدوران مرات ومرات ، وهذا ما أسماه فون فريش « رقصة الدوران » ( شكل ١٧ - ١ ) . وسرعان ما تجمعت العوامل حول أختهن الراقصة وأخذن يراقبنها في حماس وانفعال ثم أخذن يحاكين ما كانت تأتيه من حركات ، ثم أخذن يفتقرن ويغادرن البيت ويحويمن حوله حتى حططن على إناء الغذاء . ولكن فون فريش عمد في تجارب تالية إلى وضع إناء من محلول السكر على بعد نحو عشرة أمتار



في كل الجهات الأربع حول الخلية ، غير أنه غديّ يضع نحللات من الاناء الغربي وحده ثم وسما بعلامات مميزة وأطلقها . فلما عادت هذه النحللات إلى بيتها أدت رقص الدوران فانتقل من بعدها عوامل النحل ولكنها أخذت من الأواني الأربع في الشرق والغرب والسهال والجنوب ، ومن ثم تأكد لفؤن فريش أن دوران المستكشفات الراقص لم يبنه أخواتها إلا عن وجود غذاء على مقربة من الخلية دون تحديد لموضعه بالنسبة إليها . وقد لاحظ الباحثون أن النحل لا يمارس رقصة الدوران إلا للاعلان عن وجود شيء عزيز غير متوفر ، فإذا كان الغذاء وفيرا وقريبا ندر رقص المستكشفات المائدات إلى الخلية ، كما أنه قد انتضح أيضا أن الرقص قد يعلن عن وجود الماء أو حبوب اللقاح أو حتي عن اكتشاف مكان مناسب لانشاء بيت جديد .

وتطور تفكير فؤن فريش إلى مرحلة أخرى ، فعمد في إحدى تجاربه التالية إلى وضع إناءين للاغذاء أحدها على بعد بضعة أمتار قلائل من بيت النحل والآخر على بعد نحو ثلاثمائة متر . ثم وسم النحل الذي ارتاد الاناء القريب ببقع زرق بينما وسم تلك التي ارتادت الاناء البعيد ببقع حمراء . فلما عادت المستكشفات رأى فؤن فريش من أمرها عجباً ، إذ أن النحل الموسوم باللون الأزرق أخذ يؤدي رقصة الدوران - التي تنبيه عن وجود غذاء قريب - أما تلك الموسومة باللون الأحمر فأنها أخذت تؤدي رقصة أشد تعقيداً ، إذ أنها أخذت تجري في خط مستقيم على قرص العسل العمودي القائم ، وهي تهز بطنها بينة وسيرة ، مسافة قصيرة ثم تدور مهولة نحو اليمين نصف دورة تتحرك من بعدها في ذلك الحظ القائم وهي تهز بطنها حتى إذا بلغت قمته دارت نحو اليسار نصف دورة حتى تبلغ الحظ المستقيم فتتقدم إليه وهي تهتز ، ثم تدور ... وهكذا . وقد سمى فؤن فريش هذه الحركات رقصة الاهتزاز ( شكل ١٧ - ٢ ) . ويتكرر مثل هذه التجربة ثبت عند فؤن فريش أن رقصة الاهتزاز تنبيه عن غذاء في مكان بعيد ، بينما رقصة الدوران تنبيه عن غذاء قريب ( أقل من مائة متر تقريبا ) .

بيد أن فؤن فريش لم يقنع بهذا ، إذ أن معرفة النحل بوجود غذاء في مكان بعيد لن يفيد كثيراً في الوصول إليه . فثبتت هناك مسائلتان : أولاً تقدير المسافة بين البيت والغذاء ، وثانيتهما الاتجاه الذي يتحدد به موضع الغذاء بالنسبة إلى الخلية . فأما عن المسافة فقد وجد فؤن فريش ومعاونوه ، بعد مراقبة نحو أربعة آلاف حالة مستعئين بساعات التوقيف وأجهزة العد ونحوها ، أن هناك علاقة بين سرعة الرقصات والمسافة ، فكلما ازداد موضع الغذاء بعدا ازداد أداء الرقصة بطناً . أي أنه يوجد تناسب عكسي بين سرعة الرقص والمسافة ، وأولاه يكون أوضح لوقلنا إن الزمن الذي تستغرقه الرقصة الواحدة - أي الدورة الكاملة وعلى الأخص الجزء المستقيم منها - متناسب طردياً مع طول المسافة . وتقدر النحلة هذه المسافة على أساس رحلة الذهاب إلى الغذاء - لا رحلة الاياب منه . وهذا أدق وأوفى ولاشك ، إذ أن هدف الرسالة هو الاهتمام إلى موضع الغذاء توجهها من الخلية ، فإذا كانت الرياح معاكسة أو كان في طريق الذهاب عقبات ضخام طال زمن الرقصة ، أي بطؤ معدل أدائها ، فهذا أدل على طول الرحلة ، أي الزمن الذي تستغرقه . وقد كان متوسط عدد الرقصات في الدقيقة الواحدة اثنين

وثلاثين مقابل مسافة مائتي متر ، وأربعة وعشرين مقابل خمسمائة متر ، وثمانية وخمسة آلاف متر ، وأربعة فقط لنحو عشرة كيلومترات .

وأما عن الاتجاه فقد كان أمره أعجب ، إذ أن التجارب الأولى قد بينت أن النحل يغير من اتجاه الجزء المستقيم من الرقصة مع تقدم النهار . فدل هذا على أن موضع الشمس في السماء له أثر ما . ويتباعدة هذا الافتراض توصل الباحثون إلى النتائج التالية :

١ - إذا كان موضع الغذاء ( سكرًا أو زهرًا حلوا مناسبًا ) في اتجاه الشمس بالنسبة لبيت النحل ، كان اتجاه مسار الجزء المستقيم من الرقصة إلى أعلى ( شكل ١٧ - ٣ - أ ) .

٢ - إذا كان موضع الغذاء في الاتجاه المضاد للشمس بالنسبة لبيت النحل ، كان اتجاه مسار الجزء المستقيم من الرقصة إلى أسفل ( شكل ١٧ - ٣ - ب ) . ( وفي هاتين الحالتين ، لا فرق بين أن تكون الشمس نحو الشرق أو نحو الغرب ، وإنا المهم هو الوضع النسبي للغذاء والشمس بالنسبة للخلية ، كما هو واضح في الشكل ( ٣٠ ) أما إذا كان موضع الغذاء منحرفًا عن اتجاه الشمس بالنسبة لبيت النحل ، فإن النحلة كانت تنحرف من الجزء المستقيم من رقصتها عن الخط العمودي بزاوية مساوية للزاوية الواقعة بين خط مرسوم بين الخلية والشمس وخط آخر بين الخلية والغذاء ( شكل ١٧ - ٣ - ج ) . ولما كانت النحلة ترقص داخل الخلية بعيدًا عن الشمس وفي وضع عمودي فإن خط الجاذبية الأرضي هو الذي كان يرمز إلى خط الشمس أي الخط بين الشرق والغرب .

ولكن ماذا يكون من أمر نشاط النحل في اليوم الغائم الذي تحتجب شمسُه ؟ لقد تبين لقون فريش أن نشاط النحل في الأيام غير المشمسة محدود ، ثم إنه لاحظ أن النحل إذا بدأ رحلات الجمع في أواخر النهار كثر خطؤه ، بيد أنه اهتدى إلى أمر آخر ، وهو أن النحلة تستطيع أداء حساباتها بدقة إذا كان جزء من السماء صافيا لا تلبده الغيوم ، ثم إن عين النحلة ، وهي عين مركبة أي مكونة من وحدات مبصرة كثيرة تستطيع تحديد مواضع الشمس بدقة شديدة مستغلة ما يسمى بظاهرة استقطاب الضوء ( أي تذبذب موجات الضوء في مستوى واحد لا في جميع المستويات المتعامدة مع مسار الأشعة ، كما هو المعتاد ) . فامكانات الابصار عند النحلة ولو أنها أقل عما هو عند الانسان ، كما ذكرنا من قبل ، إلا أن النحلة مزودة بجهاز ممتاز لتحديد مواضع الأجسام المضيئة .

وهما يكن من أمر فإن النحلة بعد أن تتم جنيها للرحيق وحبوب اللقاح ( من الموضع الذي اهتدت إليه بفضل رقصات التحلات المستكشفات ) تقفل راجعة إلى بيوتها .. ولكن رحلة العودة هذه ليس فيها جديد ، فهي كرحلة عودة المستكشفات التي سبق أن تكلمنا عليها ، سواء بسواء .



### خلاف العلماء :

قد ذكرنا فيما تقدم وصفاً وجيزاً لطرف من النتائج العجيبة التي توصل إليها فون فريش وساعده من بحوث اتصلت أكثر من نصف قرن من الزمان . وقد كان فون فريش نفسه أكثر التشكيك في أن يكون هذا كله حقيقة ، ولكنه اقتنع فيما بعد بأنها الحقيقة وإن كانت أغرب من الخيال . وقد أيد في ذلك باحثون آخرون ، حتى أن أحدهم أتقن فهم أسرار تلك اللغة الغريبة فكان يفاك أهازيق رقص النحلة المستكشفة ويترجمها الى اتجاه محدد وسافة محسوبة ومن ثم يستطيع أن يبلغ الغذاء الذي كانت تنبئ بموضعه ! ليس هذا وحسب ، بل إن فون فريش قد اهتدى إلى أن لأنواع النحل وسلالاته « لهجات » من تلك اللغة الفريدة ، فنحلة العسل القزمة ، مثلاً ( وهي نوع غير النحل المستأنس ) ترقص على سطح أفقي ، ومن ثم يكون خط اتجاه الشمس موازياً لخط الشرق والغرب ، لا مطابقاً لخط الجاذبية العمودي كما ذكرنا . كذلك السلالة النمسية من النحل المستأنس لا تؤدي رقص الاهتزاز إلا بعد أن يتجاوز موضع الغذاء نحو ثلاثمائة متر بعيداً عن الخلية ، أما السلالة الإيطالية فانها تؤدي رقصة خاصة ، تسمى الرقصة المنجلية ، للدلالة على الأبعاد المتوسطة بين رقصتي الدوران والاهتزاز ( Von Frisch, 1962 ).

بيد أن العلماء - على غير ما يظنه كثير من الناس ، كثيراً ما يختلفون ، وليس هناك حد لطموحهم وطعمهم - المشروع - في إزاحة المزيد من الأسرار التي تحجب الحقيقة . وطالب العلم - كما حدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه - أحد المنهويين اللذين لا يشبعان ! فها هو العالم الأمريكي رُفَن ( A.M. Wenner ) يلفت الأنظار عام ١٩٦٢ إلى أن النحلة وهي تسير في الخط المستقيم من رقصة الاهتزاز تحقق جناحيها سريعاً محدثة بذلك أصواتاً متباينة الدرجات . وكان الباحثون لا يلتفتون كثيراً إلى الأصوات التي يحدتها النحل عامة أو ملكاته في مناسبات معينة ، استناداً إلى ما يعرفون من أنه ليس للنحل حاسة للسمع ، ولكن ثمر قد استخدم في دراسة النحل أجهزة تسجيل للأصوات شديدة الحساسية وانتهى إلى تأييد الرأي القائل بوجود علاقة بين شدة نبضات الصوت التي تصدره النحلة الراقصة وبعد الغذاء عن البيت ، وأشار إلى أن النحلة لا تستطيع الاحساس بتلك النبضات إلا بأقدامها من خلال المرتكز الذي تقف عليه ، وبأنه ربما كان للأصوات أهمية خاصة في باطن الخلية المظلم . ( ولكن يجدر بنا أن نشير الى أن النحل المحيط بالزنبقة الراقصة لا « يشاهدها » وإنما يتحسسها بلماسيه - أو قرني. استشعاره - ويتابعها في حركاتها ) .

ولكن الخلاف الرئيسي نشب بين فون فريش ومدرسته من ناحية وفنر وبعاونه من ناحية ، حول نقطة أخرى . وذلك أن فون فريش كان منذ أول عهده بالموضوع في أوائل العشرينات يعتقد بأهمية الروائح في انهدام النحل إلى غذائه في رحلة الجني بالمعلومات التي يكتسبها من شقيقاته المستكشفات ، ولكنه عدل عنها في

الأربعينات إلى نظرية لغة الرقص . ولكن فتر وبعض معاونيه - وعلى الأخص جونسون D.L. Johnson - أحيوا نظرية الشم الأولى عام ١٩٦٧ ، باعتبار أن النحلة تعتمد أساسا على الروائح في مسالكها ، أما الرقص فقلل قيمته الوحيدة هو جذب الفئات الشقيقات ودعوتهم إلى الاجتماع ، وقامو بإجراء سلسلة من التجارب استنتجوا منها أن النحل عندما يتجمع حول النحلة الراقصة يلتقط منها مجموعتين من الروائح : رائحة الغذاء وروائح الموضع المحيط بالغذاء . وهذه الروائح تعلق بجسم النحلة عند ارتيادها للمكان الذي اهتمت اليه ، وعلى الأخص على الشعيرات المنتشرة على جسمها ، ويلتقط النحل المتجمع حوفا هذه الروائح عندما يتحسسها بلماسيه ( وهما عضوا الشم ، كما ذكرنا ) . هذا فضلا عن أن النحلة الراقصة تتوقف بين الفينة والفينة لتعج من فيها عينات من الرحيق تذوقها العوامل المحيطات بها ومن ثم يعرفون رائحة الغذاء وطعمه أيضا . ويضاف إلى هذا وذاك أن النحلة المستكشفة تترك رائحة جماعتها في المكان الذي ترتاده وتجيد فيه منتجها طيا لها ولأهلها ، كما أنها تبرز غدة خاصة للرائحة في جسمها كي تنتشر الرائحة في المكان ، وعلى الأخص إذا لم يكن للغذاء رائحة مميزة بارزة ( وسبحان الذي خلق فسوى وقدر فهدى ا ) . وعلى هذا كان غير وجونسون يعتقدان أن النحل بعد أن يعرف ما يعرف من النحلة المستكشفة ينطلق مع الريح « متشبا » طريقه إلى موضع الغذاء ... وتجمع النحل هناك يعتبر إشارة إضافية إلى أفراد أخرى تنضم إلى جماعة العائلات المجتمعات .

واحتدم الجدل العلمي بين طرفي الخلاف بضع سنوات واشترك فيه كثيرون مما لا يتسع المجال لذكره ، ولكن فتر رجب عام ١٩٧٩ أن يكون لروائح المكان ( لاروائح الغذاء ) الأهمية الأولى ، وهذا ما يشار اليه باسم « نظرية رائحة الموقع » ، ثم مال عام ١٩٧٤ إلى اقتراح نظرية أخرى أسماها « نظرية العشيرة » أو الجماعة يرجع فيها أهمية خاصة الى طيران النحل في أسراب فهذا يساعد على اشتراك النحل الطائر مع بعض الأفراد المستكشفة في الاهتمام الى المنتج مسترشدا بروائح مختلطة من الغذاء والموقع ! ولكننا لن نسلم لهذا الموضع الشيق بأن يستدرجنا الى مزيد من التفاصيل ، غير أنني أود أن أشير الى أمرين . أحدهما هو الحديث عن مسالك النحل أو مساراته في الهواء ، وهذا ما سوف أعيد اليه بعد قليل . وثانيها هو ظهور مدرسة علمية تتوسط بين مدرستي فون فريش وفتر ، وهي المدرسة التي يزعما عالم أمريكي شاب هو جيمس جولد ( James L. Gould ) ، الذي شرع منذ عام ١٩٧٠ في تمحيص نقاط الخلاف محاذلا حسمه ، وقد أجرى هو وزملائه تجارب متنوعة خلطت لتلافي بعض أسباب الالتباس في تجارب العلماء السابقين ( ولعله من المسل أن نعلم أن بعض الباحثين كانوا يخادعون النحل وبعضهم كان يعود على الكذب ! ) . وقد انتهى جولد الى أن معظم الخلاف بين المدرستين راجع الى خلافاات جوهريه في تفاصيل التخطيط للتجارب وإجرائها ، فضلا عن أسلوب تحليل النتائج واستقراءها ، وانتهى الى ان نظرية فون فريش عن لغة الرقص عند النحل صحيحة في مجلتها وجوهرها ، وله عرض جيد للموضوع يعتمد على نحو ١٣٠ مرجعا ( Gould, 1976 ) . ويرى ديبوسري أنه ربما كانت أهمية المعلومات المستمدة من الرقص أو الرائحة تختلف من حال الى حال باختلاف الظروف ( Dewsbury, 1978 ) .

ويقول جولد ان ثون فريش يعلق أهمية خاصة على المغزى العميق للتجارب الحديثة التي أجراها بعض العلماء مستخدمين مادة الباراثيون السامة التي تفسد مقدرة النحل على نقل المعلومات الى أفراد مستعمرته ، فان استخدام جرعة محسوبة من تلك المادة جعلت النحلة الراقصة تقصر من فترة الجزء المستقيم من رقصتها ، ومن ثم ذهب النحل الذي نقلت اليه هذه الرسالة المشوشة الزائفة الى أمكنة أقرب من الموقع الحقيقي للغذاء . وفي هذا دلالة قاطعة على أن الرقص الصحيح هو الذي كان ينبغي بموقع الغذاء .

#### لغة النحل ولغة البشر :

استهوت لغة النحل الراقصة الشعراء والأدباء والفلاسفة وعلماء اللغة والاجتماع ، فضلا عن علماء سلوك الحيوان ، فخاص فيها الخاضعون . ولكن لعل أهم ما يقال إن هذا المثال الفريد في عالم الحيوان ، فيه شيء من لغة الانسان . وذلك أن لغة الحيوان تعبر عن انفعال عاطفي أو تتعلق بشيء موجود ، كطعام مائل أمام الكلب النابح أو القطة التي تموم ، أما النحلة فانها « تحب » شقيقاتها عن شيء غير موجود معها في الخلية وليس على مرمى بصرها أو في مجال سمها ، فهي تتحدث حديثا « مجردا » . ثم إن النحلة تستخدم في هذا « الإخبار » مجموعة من الرموز ، فهي إذن لغة رمزية سرية خاصة ( سكوت ، ١٩٧٠ ) . بيد أنه ينبغي ألا ننساق نحو المبالغة ، فاللغة هنا « منغلقة » خاصة بجاعة النحل ، ورموزها محدودة للغاية ولا تصلح إلا للتعبير عن مفاهيم معينة ( المسافة والاتجاه ، وفي حدود ) ولا يستطيع النحل أن يولد منها مفاهيم أو معلومات جديدة .

بيد أنه ينبغي علينا أن نشير الى أن النحلة تَلَوِّنُ أسلوب حديثها بأشياء أخرى تضيفها الى الرموز ، وأهمها المروائح التي تفوح من جسمها من الغذاء الذي تجتمع من فيها . وقد لا حظ ثون فريش أن « الرقصة » ، واتساع هزات البطن وحدتها ، ودرجة « انفعال » النحلة الراقصة .... يدل هذا كله على القيمة النسبية للغذاء ، ففي الأيام الحارة قد يلقى الماء حفاوة أكثر من الرحيق المصفى ! هذا وقد أشار ولسون الى أن الجزء الهام من رقصة الاهتزاز ، أي الجزء المستقيم ، إنما هو يحكى ، بصورة مصغرة ، المشوار الذي قطعتة النحلة المستكشفة في طريقها الى الغذاء الذي عثرت عليه ، فهو يحكى السرعة والمسافة والاتجاه ، بل حتى تحريك الجناحين ، وكان النحلة تظهر مشوارها في مكان ضيق ( Wilson, 1975 ) . ونحن قد تعلمنا لغة النحل ، فنستطيع بأجهزتنا الدقيقة أن نفهم ماذا تحب عنده ، ولكننا ما زلنا عاجزين عن أن نستخدم رموز هذه اللغة كي نخاطب بها النحل !

سبل النحل بين العلم وأقوال المفسرين :

وتَوَدُّ على يده ، المهم في هذا كله الذي ذكرناه هو مدى عونه لنا في فهم قوله تعالى « فاسلكي سبل ربك ذللا » ، كما تقدم . وكان للمفسرين الأوائل آراء واجتهادات في فهم هذه الجملة من الآية الكريمة ، وأفاض في

ذلك بعضهم مثل ابن كثير ( المتوفي عام ٧٧٤هـ ) والألوسي ( المتوفي عام ١٢٧٠هـ ) وأوجز بعضهم كالنيسابوري ( المتوفي عام ٧٢٨هـ ) والبيضاوي ( المتوفي عام ٧٩١هـ ) . وسوف نعرض خلاصة آرائهم وأوجه اختلافهم :

١ - تردداً في تفسيرهم لمعنى « فاسلكي سبل » ، فقالوا :

أ - اسلكي ما أكلت في مسالكه - سبحانه - التي يحيل فيها بقدرته التَّوَرَّع المرعسلا من أجوافك. وهم يلتصقون المعنى هنا فيما تصوره من تشريح النحلة وفيزيولوجيتها ) .

ب - أو فاسلكي الطرق التي علمك أو أهلك الله إياها في عمل العسل . ( وهو معنى مجازي قريب من سابقه ) .

ج - أو فاسلكي راجعة الى بيوتك سبل ربك لاتنوع عليك ولاتلتبس . ( رحلة العودة أو الاياب ) .

د - أو طرق الذهاب الى نطاق ما تأكل منه . ( رحلة الذهاب ) .

وقد رجَّح الألوسي الرأيين الأخيرين ، وهما المتفقان مع ما كشف العلم من أسرار التكيف الوظيفي والسلوكي التي فطر الله النحل عليها والتي تعينها في رحلتي استكشاف الغذاء والمنتجع ورحلة العودة والاياب الى البيت . وزاد العلم على هذا أعاجيب رحلة الجنى وما يتعلق بها من الأسرار المذهلة عن طريق إخبار النحلة المستكشفة بمعلوماتها الى زميلاتها وطريقة إفادة الزميلات من تلك المعلومات .

٢ - تردد المفسرون أيضا في معنى كلمة « ذللا » وتوجيهها النحوى بين أن تكون حالا من السبل ، أي السبل التي ذللها الله تعالى وسهلها للنحل ، ورجَّح هذا ابن كثير والألوسي ، أو حالا من الضمير في « اسلكي » ، أي وأنت ذلل منقادا لما أمرت به ، واستشهدوا بأقوال قتادة وعبد الرحمن بن زيد وجاهد ، وقبل ابن جرير الطبري الرأيين .

وواضح أن العلم الحديث يؤيد الرأي الاول ، الذي رجحه المفسرون بفهمهم الذكي وحسهم الصادق ، ويقدم آيات بينات في بيان الكيفية التي ذلل الله بها الطرق أمام النحل .

٣ - تحير المفسرون أيضا كيف يكون في الهواء طرق ، وسبَّب لهم هذا حرجا شديدا دفعهم الى تنبي الرأي المروج ( القائل بمسالك الغذاء في جوف النحلة ) ، كما فعل عبد السلام ونقله عنه الألوسي دون تأييد . والواقع أن الصورة التي قدمناها لمباحث العلماء تؤكد لنا نهوض النحلة الفطري للسير في طرق محددة فيها علامات من اللون ( بعضها لا يظهر الا بالاشعة فوق البنفسجية ) واسترشاد بالشمس ( حتى في اليوم الغائم بالقدرة على الاحساس بالضوء المستقطب من خلال الغيم ) وإدراك فائق للروائح ( الحاصفة بالغذاء أو الموقع أو المستعمرة أو أفراد النحل ) . وهذا كله يجعل النحلة أشبه بالطيار المدرب الحنق الذي يقود طائرته في مسار محمد

مرسوم ، لاوجبة ظاهرا له في الهواء ولكن تدله عليه خرائطه ويوصلته وأجهزة قياس الارتفاع وشدة الهواء وسرعته وضغطه ..... الخ فالهواء أمامه فيه طرق يعرف أن بعضها مذلّل يُبلّغه هدفه في أمان بينما بعضها الآخر محظور عليه وقد يكون فيه الشدائد والمخاطر والضياع .

بل العجيب أن الباحثين الأوروبيين والأمريكيين في مشكلة لغة النحل وكيفية اهتدائه الى الطرق قد استخدموا لفظ المسالك أو المسارات ، وهم بعيدون تماما عن ألفاظ الآية الكريمة . وهكذا نجد ثون فريش وتفسر وجونسون قد زعموا أنهم يعرفون « مسارات طيران النحل المتنار في رحلة الجني : ( Gould, 1976 : P. 224 — .... " flight paths of recruits ...." ) بل الواقع أن جميع النظريات التي قدمت على اختلاف وجهات النظر بينها كانت تسعى الى كيفية اهتداء النحل الى تلك المسارات ، بل إن واحدة منها بالذات ، قدمها فريزن عام ١٩٧٣ ( Friesen, 1973 ) عرفت باسم « فرضية مسار الرائحة — The Odour — Trail Hypothesis » . بل إن العلماء ما زالوا يجدون أنه من المتعذر عليهم في الوقت الحاضر تتبع نحلة معينة في أثناء طيرانها من البيت الى المنتجع ، فان صفر حجم النحل وسرعته وكثرة مناوراتها في أثناء طيرانه تجعل هذا أمرا مستحيلا ( Guold, 1973 : p. 241 ) . وهكذا يتضح لنا أن هناك بالتأكيد طرقا وسبلا مذكلة للنحل « لانتوعر عليها ولانتبس » ، ولكنها مازالت تتحدى العلماء وتتوعر عليهم .

الألوبي وأرسطو والنحل :

وقبل أن أختتم كلامي عن هذا المثال الخامس والأخير ، لا أرى بأسا من أن أسوق الى القارئ الطريقة الآتية ، لا للتسليّة وحدها وإنما لمغزى هام فيها . وذلك أنه من المعروف أن أرسطو كان على بينة منذ أكثر من ألف عام من أنه اذا اكتشفت نحلة موضع صفحة من العسل ، لم يكن النحل يطرقها ساعات أو أياما، سرعان ما يتجمع النحل حولها ، وهذه هي الملاحظة التي أشارت فضول ثون فريش وغيره من العلماء ( Gould, 1973 : p. 221 ) . ولكن المفاجأة أنني وجدت الخلايا الزجاجية التي اصطنعها ثون فريش لدراسة سلوك النحل .... وجدتها في تفسير الألوبي ( القرن الثالث عشر الهجري ) الذي يقول : « وحكى أن سليمان عليه السلام ، والاسكندر ، وأرسطو صنعوا لها \* ( أى النحل ) بيوتا من زجاج لينظروا الى كيفية صنعها وهل يخرج العسل من فيها أم من غيره ، فلم تصنع من العسل شيئا حتى لطخت باطن الزجاج بالطين بحيث يمنع المشاهدة » ( الألوبي ، جزء ١٤ ، ص : ١٨٤ ) . وحدها لله أن نحل ثون فريش ومن تبعه لم يكن ضئيلا بأسراره ، فانه باح بها راقصا أمام أعين الباحثين !

\* اسم جنس « النحل » يؤنث في لغة المزارع .



وظاهر أن هذا الذي يرويه الألوسي مجرد حكاية ، ولا يذكر المصدر الذي استقاء منها . ولكن الشيء الوحيد المدهش حقاً هو أنني لم أجد مثل هذا الكلام عند الديميري في « حياة الحيوان الكبرى » - على كثرة ما روى واستطرد إليه ، ولا عند القزويني في « عجائب المخلوقات » . فأنظر كيف كان أولئك المفسرون الأعلام ، رضوان الله عليهم يبذلون غاية الجهد في تقصي معارف زمانهم ليسخروها في فهمهم لأكي القرآن الحكيم ، وكيف أخلصوا لواجبهم وتغافوا في أدائه . وتأمل أيضاً أنهم لم يكن عندهم حرج البتة من ذلك ، رغم ما عرفوا به من ورع وتقوى .

### خاتمة

ولقد بينّا في مستهل هذا المقال أن العلوم الحديثة لا تقدم « تفسيراً » جديداً عصرياً للقرآن الكريم ، وإنما هي تتقدم لتتأثر بخدمة فهم كتاب الله العزيز ، كما تقدمت من قبلها علوم اللغة وفقهها وآدابها ، فسخرها المفسرون الأوائل لظواهر الإعجاز البلاغي للقرآن ، ومن ثم أسموها « العلوم الخادمة » لعلم التفسير . وقد بينّا أنه يرجو تحقيق مزايا جليلة من هذه الخدمة العلمية لتفسير القرآن لو حسن أدائها ، فانتبهنا إلى ضرورة توفر شروط فيمن يتصدون للقيام بها ، ووضع منهاج ينبغي التزامهم به حتى لا يتورط الخائفون في مزالق يجب أن يتورعوا عنها ولا يشفع لهم فيها حسن نواياهم . وقد فضلنا أن نقدم في شيء من التفصيل الضروري غاذج محددة لتطبيق ذلك المنهج ، فكانت خمسة مخبرناها لبيان أهم الأغراض التي يتوخى المعلق العلمي تحقيقها .

١ - فعند تعرضنا لاجتهادات المفسرين في شرح قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، استعنا بالعلم في حسم الخلاف الذي قام بين أوائلهم في حدود معنى الحياة ، متناولين إياها على أساس عقلي وفلسفي ، وعن جواز إدخال النبات في عالمها . ثم استعنا بأدق المعارف المعاصرة في تأييد فهمهم الذي أسسوه على أن أهمية الماء للكائن الحي تكمن في « أنه أعظم مواده ولفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بهينه » . فزدنا هذا المعنى تفصيلاً ووضوحاً بنعمتنا في فهم الدور الذي يقوم به الماء في حياة الأحياء وخصائصه الفريدة التي تؤهلها للقيام بهذا الدور الذي لا وجود للأحياء ، ولا استمرار لوجودها ، دونه . ثم أضفنا إلى ذلك أن الأحياء جُمِلت من الماء وصُنعت منه صنفاً - بالمعنى الحرفي للألفاظ وبمعنى الابتداء لحرف « من » - دون تجرؤ أو تأويل كان المفسر مضطراً إلى اللجوء إليها ، كما بينّا أيضاً أن الأكسجين الذي يحفظ جذوة الحياة متقدمة في الأحياء هو - وفقاً لأحدث الاكتشاف العلمية - هبة من الماء .

٢ - وعندما تعرضنا للنظر في خلق الابل ، امتثالاً لتوجيه الخالق البارئ ، سبحانه وتعالى ، لنا في سورة الفاشية ، تحقق لنا أن هذا المخلوق العجيب غوّج فريد في الخلق ، وأن ما فطره الله عليه من غرائب في البناء والوظيفة كان واضحاً للبدوى صاحب الفطرة السليمة والمتحضر التأمل ، كما أن فيه من الأسرار ما ينهل

البيولوجيين المتعمقين في القرن العشرين . وهكذا يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى قد اخصه بالذكر بهذا كله ،  
وانه لم يكن مجرد « مثال » مناسب لخطاب البدو . والاستعانة بهذه المعارف العلمية لا يناقض أى تفسير للآية  
الكرمية ، التى تنفجر أسرارها شيئاً فشيئاً مع تقدم المعارف الانسانية ، ومع ذلك تظل واضحة مقنعة ومؤثرة في كل  
المصور وفي كل السامعين .

٣ - وفي المثال الثالث أفدنا من المعارف العلمية الحديثة ما يجعلنا أكثر إدراكا واحساسا بأشارات القرآن  
الكريم الى طيران الطيور ، وعلى الأخص في سورة النحل وسورة النور ، ومايفتح أعيننا على الاعجاز الرائع في  
إمساك الله سبحانه وتعالى بالطيور بما أودعه فيها من فطر رائعة في البنين والوظيفة ، ثم يبصرنا  
بحكمة الاشارة الى « صف » الطيور بالذات ، ففيه أعاجيب من استغلال الطيور للظواهر الجوية بما يشبه  
السحر . ومن هذا كله تظهر بلاغة الاشارات القرآنية ودقتها .

٤ - أما في النموذج الرابع فقد تعرضنا لمحاولة فهم علة تحريم أكل لحم الخنزير ، وهو موضوع هام ودقيق .  
وقد أكدنا أن النص القرآنى الحكيم يدل على أن لحم الخنزير يتفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم  
بأنه حرام لذاته ، أى لعله مستقرة فيه أو وصف لاصق به ، وعلى أن تحريم لحم الخنزير بالذات تحريم معلن ،  
فينبئنا علينا الاجتهاد في البحث عن علة تحريمه . وقد اتضح لنا أن ما يذكر في كتب التفسير عادة حول هذا  
الموضوع قد يجانب الصواب أو يفتقر الى الدقة ... وهذا أمر خطير لا ينبغي السكوت عليه . وقد اضطررنا الى ذكر  
بعض التفاصيل من بحوث علم الطفيليات الحديثة للتدليل على ماذهبنا اليه ، مؤكدين - من قبل ومن بعد - أن  
الأمر والنهى اذا ما صدر من المولى عز وجل لا يقابلان من العباد الا بالسمع والطاعة ، حتى وإن خفيت  
العلل ... فما بالك والعلم - أو بعضها على الأقل - ظاهرة واضحة ، فالمخاطر التى تهدد أكل لحم الخنزير عظيمة  
جسيمة ، ولا يجوز التهورين منها على أى أساس .

٥ - أما في النموذج الخامس فقد حددنا لاجتهادنا موضعا واحدا متعلقا بأعاجيب حياة النحل ، وهو قوله ،  
عز من قائل : « ... فاسلكى سبل ربك ذللا ... » . وقد وجدنا هذا النموذج مثلا فريدا جهد فيه المفسرون  
غاية الجهد واختلفت أمامهم السبل في فهمه ، ولكن كانت لهم مع ذلك اجتهادات ذكية . وتؤيد البحوث  
البيولوجية الشائعة التى يقوم بها علماء معاصرون التفسير اللفظى المباشر لمتنى « فاسلكى » ، وأن النحلة تسلك  
فعلا سبلا حقيقية ذللا الله لها في رحلات كشفها وبحثها عن الغذاء ، ورحلات جماعاتها الى المنتجع لجنى  
الرحيق وحسب اللقاح ، ثم في رحلات عودتها الى بيوتها . وتكشف البحوث الحديثة عن الوسائل التى يهاها الله  
للنحلة كي تهتدى بها في كل سبيل ذلول ، من مقدرة على إبصار بعض الألوان والأشعة فوق البنفسجية والضوء  
المستقطب ، ومقدرة فائقة على الذئوق وتمييز الروائح وإطلاقها أيضا ، ولفة رمزية سرية خاصة تستطيع بها النحلة

المستكشفة أن تنبئ بها أخواتها عن وجود الرحيق المحلو وتحدد لمن موضعه تحديدا دقيقا من حيث زاوية الاتجاه اليه وبعده عن بيتها .. وهي كلها حقائق أغرب من الخيال .

وفي النموذج الأخير ، على الأخص ، أظهرنا جانبنا من خلاف العلماء عندما يصرون بمحاولاتهم الذؤوب على الوصول الى « الحقائق » العلمية . كذلك أظهرنا عند كلامنا في خلق الابل وخلق الأحياء من الماء تدرج العلم في الوصول الى تلك « الحقائق » . وهذا ما أشرنا اليه في مقدمة مقالنا بطبيعة العلم المرنة التامية ، التي تعد ميزة للعلم لا منقصة فيه يحتاج بها المعارضون على الافادة من المعارف العلمية في فهمنا لتفسير القرآن الكريم .

ولعل أمرا آخر نرجو أن يكون قد وفقنا الله اليه ، وهو تجنب التمثل والافتعال وتحميل ألفاظ القرآن الكريم فوق ما تحتل ألأفروج بها عن المعنى المتفق مع السياق العام الذي وردت فيه ومع ورودها في مواضع أخرى من القرآن متصلة بالمعنى محل الدراسة ، ثم لعلنا وفقنا أيضا في إظهار ما يشير اليه البعض أحيانا « بالاعجاز العلمي للقرآن الكريم » ، دون أن نتورط فيما يسمى أحيانا « بالسبق العلمي للقرآن » بلادليل بل دون مبرر في معظم الأحيان . ولكن تأكد لنا على الدوام أمر عظيم وجليل وهو أن النظر المتأن في تفسير القرآن والافادة السديدة من المعارف العلمية في خدمة فهمه يظهران أنه لا وجود لأدنى تناقض بين إشارة علمية في القرآن الكريم والمعارف الحديثة للعلم ، فهي إشارات محكمة الدقة ، دائمة الوضوح والصدق ، متجددة البلاغة في اقتناع السامعين في كل عصر وعلى اختلاف مداركهم . وليس في هذا غرابة أو شيء جديد ، فتلك الاشارات العلمية هي من كلام خالق الكون العليم بنواميسه وأسراره ، بل مبدع تلك النواميس والأسرار ، ثم إنها أنزلت لتبقى مع الانسان الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. فهذا هو شأن الكتاب الذي أنزل على خاتم النبيين لخاتم الرسالات . وهذا كله هو مصداق قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . ( النساء : ٨٢ ) ، وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » . ( فصلت : ٥٣ ) ..

صلق الله العظيم .

\*\*\*

## المراجع

أولا - تفاسير القرآن وكتب التراث العربي .

ابن كثير ( أبو الفدا ، عباد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ) . « تفسير القرآن العظيم » . دار إحياء التراث العربي ، بيروت - ١٩٦٩ .  
الأولوسي ( أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الأولوسي الهذلي ) . « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » . دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

البيضاوي ( ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ) . « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » . الطبعة الثانية ، المطبعة البهية المصرية ، القاهرة - ١٩٢٥ .

الدميري ( كمال الدين محمد بن موسى ) . « حياة الحيوان الكبرى » . دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة - ١٩٦٥ .

الطبري ( أبو جعفر محمد بن جرير ) . « جامع البيان في تفسير القرآن » . دار المعرفة ، بيروت - ١٩٧٢ .

عبد الباقى ( محمد فؤاد ) . « المعجم للمفردات لألفاظ القرآن الكريم » . مطابع الشعب ، القاهرة - ١٩٥٨ .

القرطبي ( أبو حامد ، محمد بن محمد بن أحمد ) . « جواهر القرآن » . دار الأفاق الجديدة ، بيروت - ١٩٧٨ .

القرطبي . « الجامع لأحكام القرآن » . دار الشعب ، القاهرة .

القرطبي ( زكريا بن محمد بن محمد ) . « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » . دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة - ١٩٦٥ .

المجلس الأعلى للتحريات الإسلامية ( لجنة القرآن والسنة وفئة خيرة العلوم ) . « المنتخب في تفسير القرآن الكريم » - الطبعة السادسة . المجلس الأعلى للتحريات الإسلامية ، القاهرة - ١٩٧٨ .

النيسابوري ( نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي ) . « تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان » . ( هامش على : « جامع البيان » ، للطبري ) .

ثانيا - مراجع حديثة باللغة العربية :

أدم مئز . ١٩٧٢ . « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » - المجلد الأول . ( ترجمة محمد عبد الحفيظ أبو رينة ) . دار الكتب العربي ، بيروت .

أحمد الشرباصي . ١٩٦٢ . « قصة التفسير » . دار الفلم للقاهرة .

بغريج ، و . أ . ١٩٦٢ . « فن البحث العلمي » . ( ترجمة زكريا فهمي ) . دار النهضة العربية ، القاهرة .

بنت الشاطي . ١٩٧٠ . « القرآن والتفسير المعاصر » . دار المعارف ، القاهرة .

بولكلي ، موريس . ١٩٧٨ . « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » . ( ترجمة ) . دار المعارف ، القاهرة .

سكوت ، جرن بول . ١٩٧٠ . « سلوك الحيوان » . ( ترجمة عبد الحميد خليل ، وعبد الحافظ حلمي محمد ) . مؤسسة الحائمي ، القاهرة .

ستورر ، جون . ١٩٥٩ . « الديناميكا الحركية للطيور » ، في : « طرائف من عالم الحيوان » ، ص : ١٦٩ - ١٦٦ . ( ترجمة عبد الحافظ حلمي محمد ) . دار الفكر العربي ، القاهرة .

شيت نيلسن ، ت وييل . ١٩٥٩ . « جزء الصحراء » ، في : « طرائف من عالم الحيوان » ، ص : ١٦٥ - ١٦٤ . ( ترجمة عبد الحافظ حلمي محمد ) . دار الفكر العربي ، القاهرة .

- صلاح الدين خطاب . ١٩٧٠ . « الجانب العلمي في القرآن » . مطابع الناصر العربي ، القاهرة .
- عبد الحافظ حلمي محمد . ١٩٦٥ . « خلق الأبل » . منير الاسلام ( القاهرة ) ، ٢٣ : ( ٧ ) ، ١٤٠ - ١٤٢ .
- \_\_\_\_\_ . ١٩٦٩ . « اللحم الحرام - ١ » . منير الاسلام ( القاهرة ) ، ٢٧ : ( ٥ ) ، ١٥٠ - ١٥١ .
- \_\_\_\_\_ . ١٩٦٩ . « اللحم الحرام - ٢ » . منير الاسلام ( القاهرة ) ، ٢٧ : ( ٦ ) ، ١٧٦ - ١٧٩ .
- \_\_\_\_\_ . ١٩٧٩ . « العلم الحديث في خدمة فهم القرآن الكريم - ١ » . من ثمار الفكر ( الموسم الثقافي الخامس لجامعة قطر ) - الدرجة . ص : ٥٨ - ٨٧ .
- \_\_\_\_\_ . ١٩٨٠ . « الفجرة المتوحشة بين الدين والعلم » . كتاب المؤتمر السنوي التاسع والأربعين للجمعية المصرية للثقافة العلمية - « القاهرة » . ص : ١٧ - ٣٧ .
- لاباج ، جيوفري . ١٩٦١ . « الحيوانات المتطفلة في الانسان » . ( مترجم ) . الأنجلو المصرية للقاهرة .
- محمد حسين اللاهي . ١٩٧٨ . « الاتجاهات المنعقدة في تفسير القرآن الكريم » . دار الاعتصام - القاهرة .
- محمد رضا عجم . ١٩٨٠ . « بدعة تفسير القرآن بالعلم » . « العربي » ( الكويت ) ، ٢٦١ : ١٠٣ - ١٠٧ .
- محمد سعيد البوطي . ١٩٦٩ . « ملأ الله التنصيف الباطل في تفسير القرآن بغير العلم إليه أوجهه عنه » . « العربي » ( الكويت ) ، ٢٤٦ : ٥٥ - ٥٩ .
- مصطفى الطيار . ١٩٧٥ . « إلهام التفسير في العصر الحديث » . مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة .
- منيع عبد الحليم حمودة . ١٩٧٨ . « منافع المفسرين » . دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني - القاهرة - بيروت .
- ميلان لوراس وميلان ، مارجيري . ١٩٦٦ . « الله والحياة » . ( ترجمة ثابت قصيحي وعبدل يبارى ) . مؤسسة سجل العرب - القاهرة .
- وحيد الدين خان . ١٩٧٣ . « الاسلام يتحدى » . ( ترجمة طهر الاسلام خان ) - الطبعة الخامسة . المختار الاسلامي - القاهرة .
- واتي ، كارل . ١٩٥٩ . « الطيور آلات طائرة » . في : « طرائف من عالم الحيوان » . ص : ١٤٧ - ١٦٤ . ( ترجمة عبد الحافظ حلمي محمد ) . دار الفكر العربي - القاهرة .
- وعبة الزحيلي . ١٩٧٨ . « من هم العلماء ورثة الأنبياء » . الوعي الاسلامي ( الكويت ) ، ١٦٢ : ٢٢ - ٢٩ .

ثالثا : مراجع باللغة الانكليزية :

- Arms, K. and Cap, P.S. 1979. "Biology", Holt, Rinehart and Winston; New York.
- Bucaille, Maurice. 1978. "The Bible, the Qur'an and Science". ( English Translation by Pannell and Bucaille ). North American Trust Publication ; Indianapolis .
- Case, F.J. 1979. "Biology", 2nd ed. Macmillan Pub., Co., N. York .
- Chandler, A.C. and Read, C.P. 1965. "Introduction to Parasitology", 10th ed. John Wiley; N. York.
- Croll, N.A. 1966. "Ecology of Parasitism", Heinmann; London .
- \_\_\_\_\_ and Matthews, B.E. 1977. "Biology of Nematodes". Blackie; Glasgow and London.
- Curtis, H. 1979. "Biology", 3rd ed. Worth Pub.; N. York .

Dawud, 'Abdu' l-Ahad. 1978. "Muhammad in the Bible". Angkatan Nahadatul—Islam Bersatu; Sarawak .

Dewsbury, D.A. 1978. "Comparative Animal Behavior". MacGraw—Hill Co., N. York.

Friesen, L.J. 1963. The search dynamics of recruited honey bees. Biol. Bull., 144: 107—131.

Frisch, K. von—1962. Dialects in the language of the bees. In: "Animal Behavior" — Readings from Scientific American (1975), pp. :303—305. Freeman; San Francisco .

\_\_\_\_\_ 1971. "Bees: Their vision, chemical senses, and language", 2nd. ed. Cornell Univ. Press; N. York.

\_\_\_\_\_ 1974. Decoding the language of the bee. Science, 185: 663—668 .

Goldsby, R.A. 1979. "Biology", 2nd. ed. Harper & Raw; N. York.

Gould, J.L. 1976. The dance—language controversy. Quart. Rev. Biol., 51: 211—244.

Johnson, W.H., Delanney, L.S., Cole, T.A. and Brooks, A.C. 1972. "Bilogy", 4th ed. Holt, Rinehart and Winston, N. York.

Leopold, L.B., Davis, K. and the Editors of Time—Life Books. 1970. "Water". Time—Life Internaional; N. York .

Nelson, G.S. 1962. Human behaviour in the transmission of parasitic diseases. In: "Behavioural Aspects of Parasite Transmission", Canning, E.U. and Wright, C.A. ( eds ). Academic Press; London .

Noble, E.R. and Noble, G.A. 1976. "Parasitology; The Biology of Animal Parasites". 4th ed. Lea and Febiger; Philadelphia .

Ruppel, G. 1977. "Bird Flight". Van Nostrand Reinhold Com.; N. York .

Schmidt—Nielsen, K. 1975. "Animal Physiology" — Adaptation and Environment. Cambridge Univ. Press; London .

Smyth, J.D. 1976. "Introduction to Animal Parasitology", 2nd ed. Hodder and Stoughton; London .

Wallace, R.A. 1978. "Biology" — The World of Life, 2nd ed. Goodyear pub. Co., California .

Wenner, A.M. 1962. Sound production durnig the waggle dance of the honey bee. Anim. Behav. 10: 79—95 .

\_\_\_\_\_ and Johnson, D.L. 1967. Honey bees: do they use the direcion and distance information provided by their dancers? Science, 158: 1076—1066 .

Wilcocks, C. and Manson - Bahr, P.E.C. 1974. "Manson's Tropical Diseases", 17th ed. Balliere and Tindall; London .

Wilson, E.O. 1975 Animal communiction. In: "Animal Behavior — Readings from Scientific American", pp: 267—272. Freeman; San Francisco .

### مقدمة :

اللغة العربية لغة شديدة الحيوية ، وقد منحها أسلافنا القدماء جهدا كبيرا لمعرفة اسرارها والكشف عن مكوناتها وفحص قوانينها .

وقد شهد عصرنا هذا قفزات فكرية وعلمية استخدم فيها الحاسب الالكتروني بدقة منقطعة النظير في عديد من المجالات ، لذلك اصبح من آمال علماء اللغة استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة في البحث عن كنوز اللغة واتساع المنهج العلمي ، في تصنيف حروفها وتحليل جذورها واحصائها في جداول ميسرة للدارسين .

ولقد بدأ التفكير في استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة الالفاظ العربية عام ١٩٧٠م وفي رحاب جامعة الكويت ، عندما كنت استاذاً للفيزياء في هذه الجامعة .

وكان السؤال الذي يحتاج الى اجابة في ذلك الوقت هو : كيف يمكن الاستفادة من الحاسب الالكتروني بإمكانياته الهائلة في بحوث اللغة العربية وتطويرها ؟

ونظراً لأن البحوث في اي فرع من الفروع - العلمية وغير العلمية - تعتمد اولاً على تحديد الفرضيات والمعطيات التي ينطلق منها البحث ، ثم تحديد هدف او اهداف البحث ، لذلك وجدت انه من الواجب ان نبدأ بتحديد مواد اللغة العربية تحديداً كاملاً ، اي احصاء جميع كلمات اللغة العربية المدونة في المعاجم المختلفة . ثم رأيت ان يكون الهدف هو محاولة اكتشاف العلاقة او العلاقات التي تربط الحروف العربية بعضها ببعض .

## استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم

على حلمي موسى

وعملية احصاء كلمات اللغة العربية لا يمكن ان تتم بالسرعة والدقة الكافية الا بواسطة استخدام الحاسب الالكتروني . وقد بدأت بأجراء البحث على الجذور ( أصول الكلمات ) . وقد ادى ذلك الى تكوين جداول احصائية كاملة لحروف هذه الجذور ، نستطيع عن طريقها تحديد أي الحروف العربية يشترك في نسيج الكلمة اكثر من غيره ، وهل يكثر وريد الحرف في اول الجذر او آخره ؟ ام ان الحرف يفضل ان يشترك في بناء الجذر من الداخل ؟.

وبنية الوصول الى هدف البحث وهو محاولة التوصل الى علاقات الحروف العربية بعضها ببعض ، ومن نفس المعطيات الاولى امكنتني عن طريق الحاسب الالكتروني الحصول على جداول احصائية لتتابع الحروف في الجذور العربية . ومن هذه الجداول امكن استنتاج القوانين التي تحكم التتابعات من حيث المنع او الابعاض . ونستطيع القول ان مثل هذه الاحصاءات قد تؤدي الى الوصول الى نتائج هامة تحدد العلاقة بين الحروف المختلفة ، وامكانية تقسيم الحروف العربية الى مجموعات ، تشترك كل مجموعة منها في بعض الخصائص اللغوية ، مثلا تم فيما يتعلق بالخصائص الصوتية .

وان المشتغلين بالبحوث اللغوية وتأسيس الكلمات العربية ، وكذلك علماء الاصوات واساتذة البلاغة والنقد ، سيجدون في هذه النتائج ما يعينهم على تقويم آرائهم ونظراتهم الخاصة ، كما يسعفهم في تقويم آراء القدماء ونظراتهم .

وقد تم اجراء هذه البحوث على الجذور المدونة بماجم الصحاح ولسان العرب وتاج العروس . وقامت جامعة الكويت بنشر هذه الكتب ضمن مطبوعاتها في الاعوام ١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٧٣ على التوالي .

وفي عام ١٩٧٤م بدأت البحث في الفاظ القرآن الكريم ، واستعنت في ذلك بعد الله بكتاب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » الذي وضعه المغفور له محمد فؤاد عبد الباقي ، وكان هدف هذا البحث هو حصر وتحليل الفاظ القرآن ، ثم مقارنة هذه الالفاظ بالفاظ معجم الصحاح .

كما بدأ بحث آخر في اتجاه مختلف وهو دراسة العلاقة بين الحروف والحركات في القرآن الكريم ، ومقارنة السور المكية بالسور المدنية ، وتعتبر هذه اول دراسة احصائية علمية للحركات في اللغة العربية .

وقد قدمت اجزاء من هذه البحوث في مؤتمرات علمية عالمية ، فقبولت باهتمام شديد من اساتذة اللغويات في الجامعات الاوروبية .

الحاسب الالكتروني :

الحاسب الالكتروني ( الكمبيوتر ) كما يظهر من اسمه هو عبارة عن جهاز يعتمد في تصميمه وتركيبه على الدوائر الالكترونية ، ويتكون من مجموعة كبيرة من الخلايا . والفكرة الاساسية للحاسب الالكتروني في غاية البساطة ، فكل خلية من خلايا الحاسب يمكن تمثيلها بمصباح كهربائي ، والمصباح الكهربائي ، كما تعلم ، اما ان



يكون مضيتا ( في حالة مرور تيار كهربائي ) او غير مضية ( اذا لم يمر به تيار كهربائي ) . وهذا يؤدي الى وجود حالتين للمصباح . وبالتالي حالتين لكل خلية من خلايا الحاسب : حالة تعبر عن معنى الاضاءة واخرى تعبر عن معنى عدم الاضاءة . وباضافة مصباح ثان يصبح عدد حالات المصباحين اربع حالات وهي :

(١) المصباحان مضيتان .

(٢) المصباحان غير مضيتين .

(٣) المصباح الاول مضية .

(٤) المصباح الثاني مضية .

وبمع تعدد المصاييح ( او الخلايا ) تتعدد الحالات التي تكون عليها المصاييح ( او الخلايا ) .

ويمكن استخدام اضاءة او عدم اضاءة المصاييح لوضع نظام عددي ، وهو ما يعرف بنظام الاعداد الثنائية ، والذي يعتمد في التعبير عن الاعداد بالرقمين (١، صفر ) او ( مضية ، غير مضية ) . ونظام الاعداد الثنائية معروف منذ زمن طويل ولكنه لم يستخدم على نطاق واسع الا في القرن الحالي ، عندما بدأ استخدام الدوائر الالكترونية في العد الآلي .

وفي نفس الوقت الذي تستخدم فيه المصاييح ( او الخلايا ) لوضع نظام عددي يمكن استخدامها ايضا لوضع نظام لغوي . فمثلا يمكن التعبير باضاءة كل من المصباح الأول والمصباح الخامس عن معنى الجمع ، وباضاءة كل من المصباح الثاني والمصباح الرابع عن معنى القسمة ... وهكذا نستطيع ان نكون لغة تسمى « لغة الآلة » .

ونظرا لأن خلايا الحاسب الالكتروني تعد بمئات الألوف فانه يتضح لنا الامكانات الهائلة لهذه اللغة التي يضعها مصمم الحاسب الالكتروني .

وتستخدم هذه اللغة في تخطيط البرامج اللازمة لحل اي مشكلة وتنفيذ اي عمل على الحاسب الالكتروني . ومع تقدم الابحاث في مجال الحاسبات الالكترونية تم وضع عدة لغات تخفف من العبء الواقع على مخطط البرامج . وتتناز هذه اللغات بأنها تتكون من كلمات ورموز اقرب ما تكون الى كلمات ورموز الكتب العلمية .

ويتكون الحاسب الالكتروني من ثلاثة اجزاء رئيسية : الوحدة المركزية - وحدة ( او وحدات ) ادخال البيانات - وحدة ( او وحدات ) استخراج النتائج .

اذا استقبل الحاسب ( عن طريق وحدات الادخال ) برنامجا باحدى اللغات التي اشرنا اليها فانه يلزم ترجمة هذه اللغة الى لغة الآلة التي تتعامل مباشرة مع الجهاز عن طريق الدوائر الالكترونية الداخلة في تركيبه . ويقوم بهذه الترجمة قواميس تحتل جزءا من ذاكرة الحاسب . ويستخدم مخطط البرامج الجزء الباقي من الذاكرة في تخزين البيانات والمعلومات وكذلك في اجراء العمليات .

وتطبيقات الحاسب الالكتروني متعددة ومتنوعة ابتداء من الابحاث العلمية الى العمليات التجارية والادارية والبنوك، الى المصانع واجهزة الحرب واجهزة التعليم والمستشفيات، وغير ذلك من التطبيقات. الا ان ما يعيننا في هذا المقال هو استخدام الحاسب الالكتروني في بحوث اللغة العربية وفي الفاظ القرآن الكريم.

**تطبيقات الحاسب الالكتروني في اللغة العربية :**

تم استخدام الحاسب الالكتروني في دراسة جذور اللغة العربية المدونة بالمعاجم العربية الكبرى دراسة احصائية، ونتج عن ذلك عدد من الجداول التي تحتوي المعلومات الاحصائية المختلفة، منها عدد الجذور المدونة في كل معجم وتنقسمها الى انواع، من حيث عدد حروف الجذر، ثم يلي ذلك جداول تحدد تردد كل حرف من الحروف العربية في جذور كل معجم، وذلك في كل موقع من مواقع الجذور المختلفة، وكذلك التردد الكلي لكل حرف في كل نوع من الجذور.

كما انتجت الدراسة جداول تحدد تتابع الحروف في تركيب الجذور سواء كان التتابع في اول الجذر او في آخره او في وسطه ( للجذور فوق الثلاثة).

ونظرا لأن الجذور الثلاثة ( وهي الجذور التي تتكون من ثلاثة احرف ) هي الغالبة في اللغة العربية وهي ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية عن غيرها من اللغات، فقد قمت بوضع جداول يحتوي كل منها على جميع الجذور الثلاثة التي تبدأ بحرف معين، كما يظهر في هذه الجداول من الفراغات تركيب الحروف التي لا تعطي جذورا. وبذلك اصبحت جميع الجذور الثلاثة في أي معجم موضحة في ٢٨ جدولا ( انظر جدول رقم «٣» ).

وقد تمت هذه الدراسة على معاجم الصحاح ولسان العرب وتاج العروس، وسوف نلقي نظرة في هذا المقال على بعض نتائج الحاسب الالكتروني التي ظهرت من دراسة معجم لسان العرب.

فيوضح جدول رقم (١) تردد حروف الجذور الثلاثة بمعجم لسان العرب في كل موقع من المواقع الثلاثة للجذور، كما يحتوي على مجموع تردد كل حرف في الجذور الثلاثة. ويشتمل هذا الجدول ايضا على النسبة المئوية لتردد كل حرف بالنسبة الى مجموع حروف الجذور الثلاثة.

ومثال على ذلك تردد حرف الراء الذي يظهر في الجدول كما يلي :

٣٤٢، ٤٢٣، ٤٤٠ في المواقع الثلاثة على الترتيب ومجموعها ١٢٠٥. وهذا معناه وجود ٣٤٢ جذرا ثلاثيا يبدأ بحرف الراء، كما يوجد ٤٢٣ جذرا ثلاثيا ينتهي بحرف الراء. وايضا يوجد ٤٤٠ جذرا ثلاثيا ينتهي بحرف الراء. ونسبة وروه هذا الحرف الى جميع حروف الجذور الثلاثة هو ٦,١٥%.

واذا علمنا ان المتوسط الحسابي لتردد الحرف في اللغة العربية هو ٣,٥٧% ( ينتج من قسمة ١٠٠ على ٢٨ ) لظهر لنا ان حرف الراء من الحروف قوية التردد في الجذور الثلاثة، بل انه اقوى حروف العربية ترددا في تلك الجذور.

وعلى الرغم من ذلك فإن تردد الحروف على مستوى الموقع فقط يخالف هذه النتيجة ، فمثلا نلاحظ أن حرف التون له أكثر تردد في الموقع الاول (٣٩٧ مرة ) يليه حرف الواو (٣٥٦ مرة ) ثم حرف الراء (٣٤٤) مرة بينما نجد أن حرف الواو له أكثر تردد في الموقع الثاني (٤٧٣ مرة ) يليه حرف الراء (٤٢٣ مرة ) ، وعلى حين نجد أن الف المد ( والتي تمثل حرفين في واقع الامر ) لها أكثر تردد في الموقع الثالث (٥٢٦ مرة ) .

ويوضح جدول رقم (٢) تتابع الحروف في الجذور الثلاثية ، والعدد الموجود في كل مربع صغير يمثل عدد مرات ورود التتابع في الجذور الثلاثية البالغ عددها ٦٥٣٨ جذرا . وبهذا الجدول ٨١٢ مربعا تمثل تتابع الحروف ، منها ٨٤ مربعا خاليا ، أي أن تتابع الحروف فيها لا يرد بالمرّة في الجذور الثلاثية مثل « تص - ذت - سز - ضس - طق - كط » .

كما يظهر من هذا الجدول أيضا أن أقوى تتابع في الجذور الثلاثية هو التتابع « رب » الذي يرد ٤٨ مرة . ويمكننا استخراج عدد من جداول التتابع لمجموعات معينة من الحروف وذلك باستخدام جدول رقم (٢) . ومن هذه المجموعات مجموعة أحرف الشفة وهي « ب - ف - م » ، ومجموعة أحرف الحلق وهي « أ - ح - خ - ع - غ - هـ » ، وكذلك المجموعة « ج - غ - ق - ك » والمجموعة « ذ - ز - س - ص » وهذه المجموعات الأربع تمتاز بأن كلا منها نادرا ما تتتابع مع بعضها وإن كان الحرف يتتابع مع نفسه ( باستثناء حرف الهزرة وهو الحرف الوحيد الذي لا يتتابع مع نفسه ) .

وتوضح الجداول التالية عدد مرات تتابع الحروف في كل مجموعة وبالتالي يمكن استنتاج هذه الظاهرة بسهولة من النظر في هذه الجداول .

تتابع أحرف الشفة في الجذور الثلاثية

الحرف الحرف التالي	ب	ف	م
ب	٣٢	٠	٦
ف		٢٢	٤
م		١	٢٦

## تتابع أحرف الملقق

أ	ح	خ	ع	غ	هـ	الحرف التالي الحرف
٠	٦	٦	٠	١	٨	أ
١	١٩	٠	١	٠	١	ح
٠	٠	٢١	٨	٠	٠	خ
٠	٠	٠	٢٢	٠	١٣	ع
٠	٠	٠	٠	١٠	٣	غ
٥	٠	١	٧	٢	٧	هـ

## تتابع المجموعة (ج - غ - ق - ك)

ج	غ	ق	ك	الحرف التالي الحرف
٢٣	١	١	١	ج
٢	١٠	٣	٠	غ
٠	٢	٢٩	٠	ق
١	٢	٠	١٩	ك

## تتابع المجموعة (ذ - ز - س - ص)

ذ	ز	س	ص	الحرف التالي الحرف
١٦	٠	٠	٠	ذ
٠	١٩	٠	٠	ز
٤	٠	٢٠	٠	س
١	٠	٠	١٩	ص

ويبدو وضوح هذه الظاهرة إذا درسنا مخارج الحروف فسوف نجد ان كل مجموعة من هذه المجموعات تشترك في المخرج او تقترب منه .

وقد اشار ابن منظور في مقدمة معجم لسان العرب الى اختلاف الحروف عن بعضها من حيث قوة تردها ، وقام بتقسيم الحروف العربية الى ثلاثة اقسام على حسب قوة التردد فوضع في القسم الأول سبعة احرف ، اشار الى انها من اقوى الحروف ترددا ، وفي القسم الثاني وضع ١١ حرفا تمثل الحروف متوسطة التردد وفي القسم الثالث وضع عشرة حروف تمثل الحروف ضعيفة التردد ، وأهمل الف المد من الترتيب .

وقد تم ترتيب الحروف الواردة بجميع جذور لسان العرب الى اقسام مماثلة لأقسام ابن منظور فنتج الجدول التالي :

الفئة الأولى	الفئة الثانية	الفئة الثالثة	
ر - ل - ن - ب - م - ع - ق .	د - ف - س - ج - ح - هـ - ض - ك - ط - و - خ .	ز - أ - ت - ص - ث - غ - أ - ي - ض - ذ - ظ .	نتائج الكمبيوتر
أ - ل - م - هـ - و - ي - ن .	ر - ع - ف - ت - ب - ك - د - س - ق - ح - ج .	ظ - غ - ط - ز - ث - خ - ض - ص - ص - ذ .	تقسيم ابن منظور

ومنه يتضح ان تقسيم ابن منظور يخالف تماما لنتائج احصائيات الكمبيوتر ومن المفارقات القائمة نوضح ما يلي :

أ - حرف الراء اقوى الحروف العربية ( في الجذور ) وضعه ابن منظور في الفئة الثانية .

ب - حرفا الهمة والياء يظهران في الفئة الثالثة في نتائج الكمبيوتر بينما يظهران في الفئة الأولى في تقسيم ابن منظور .

جدول رقم ١  
تردد حروف الجذور الثلاثية

النسبة المئوية	المجموع	موقع ثالث	موقع ثاني	موقع أول	
٢٣,٢٢٧	٦٣٣	٢١١	١٧٠	٢٥٢	أ
٥,١٢٤	١٠٠٥	٣٤٠	٣٦٤	٣٠١	ب
٢,٧٧٤	٥٤٤	١٧٩	٢١٠	١٥٥	ت
٢,١٢١	٤١٦	١٤٥	١٤٩	١٢٢	ث
٣,٥٨٩	٧٠٤	٢٥٤	١٩٣	٢٥٧	ج
٣,٦٦٦	٧١٩	٢٢٦	٢١٢	٢٨١	ح
٢,٨٧٥	٥٦٤	١٦٢	١٦١	٢٤١	خ
٤,١٨١	٨٢٠	٢٩٢	٣٦٢	٣٦٦	د
١,٦١١	٣١٦	٧٧	١٣١	١٠٨	ذ
٦,١٤	١٢٠٥	٤٤٠	٤٢٣	٣٤٢	ر
٢,٨٣٠	٥٥٥	١٨٩	١٧٤	١٩٢	ز
٣,٧١٧	٧٢٩	٢٥٦	٢٠٩	٢٦٤	س
٣,٢٤٨	٦٣٧	١٧٢	١٧٦	٢٨٩	ش
٢,٤٣٢	٤٧٧	١٦١	١٣٢	١٨٤	ص
١,٨٤١	٣٦١	٩٨	١١١	١٥٢	ض
٢,٨٩١	٥٦٧	٢١٤	١٨٢	١٧١	ط
٠,٧٦٠	١٤٩	٦٤	٥٠	٣٥	ظ
٤,٤٢٥	٨٦٨	٢٩٠	٢٥٩	٣١٩	ع
٢,٠٩٠	٤١٠	١٠٧	١٤٠	١٦٣	غ
٤,٢٨٣	٨٤٠	٣٠٠	٢٨٠	٣٦٠	ف
٤,٠٠٧	٧٨٦	٢٧٢	٢٣٩	٢٧٥	ق
٣,١٩٢	٦٢٦	١٦١	١٩٣	٢٦٤	ك
٥,٢٥١	١٠٣٠	٤٠١	٢٥٣	٢٧٦	ل
٥,٥١٦	١٠٨٢	٤٢٩	٣٤٤	٣٠٩	م
٥,٧٨٧	١١٣٥	٤٢٢	٣١٦	٣١٧	ن
٣,٢٣٧	٦٣٥	١٤٢	٢٤٧	٢٤٦	هـ
٤,٢٢٧	٨٢٩		٤٧٣	٢٥٦	و
٢,٢٧٤	٤٤٦		٣٨٥	٦١	ي
٢,٦٨٢	٥٢٦	٥٢٦			أ



جدول رقم (٣)  
الجدول الثالث الاشياء التي تبدأ بحرف " ر "

## الحرف الثامن

[illegible]

× جذور لسان العرب  
○ جذور المصدر صناع



### استخدام الحاسب الالكتروني في دراسة الفاظ القرآن الكريم :

كان الهدف في أول الامر من استخدام الحاسب الالكتروني في دراسة الفاظ القرآن الكريم هو احصاء الفاظ القرآن الكريم ثم تطور هذا الهدف الى عدة اهداف مع تقدم البحث ، فيما يلي بعض منها :

- (١) التوصل الى بيان بجميع الالفاظ الواردة بالقرآن وعدد مرات ورود كل منها .
- (٢) إيجاد عدد الالفاظ التي تبدأ بكل حرف من الحروف العربية .
- (٣) إيجاد عدد الفاظ كل سورة ومتوسط طول الآية في كل سورة .
- (٤) تحديد جذور الالفاظ الثلاثة ( المكونة من ثلاثة احرف ) وترتيبها تنازلياً على حسب عدد مرات ورودها .
- (٥) انواع الجذور الثلاثة الواردة بالقرآن ومقارنتها بجذور معجم الصحاح .
- (٦) إيجاد الجذور الثلاثة التي وردت مرة واحدة فقط بالقرآن .
- (٧) عدد مرات ورود الجذر « اله » وهو جذر لفظ الجلالة « الله » وذلك في كل سورة من سور القرآن .

ولكي يتيسر لنا التوصل الى هذه الاهداف كان لابد من شحن ذاكرة الكمبيوتر بألفاظ القرآن جميعها ، وهذا العمل يمكن ان يتم من القرآن الكريم رأساً ، على ان يتكون البيان الواحد مما يلي : « اللفظ - جذر اللفظ - رقم السورة - رقم الآية » ، ثم يضاف بيان في حالة ما اذا كان اللفظ علم .

ومن حسن الحظ ان الفاظ القرآن الكريم تم تدوينها وترتيبها في كتاب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » وهو من وضع المرحوم الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، والذي بناء على كتاب « نجوم الفرقان في اطراف القرآن » وهو تأليف المستشرق الالماني « فلوغل » . وقد طبع الكتاب الاخير لأول مرة عام ١٨٤٢ ، وبعد ذلك بقرن كامل قام عبد الباقي بمراجعته طبقاً للمصحف المعتمد وانتهى من المراجعة عام ١٩٤٥ .

والمعجم المفهرس يبرّد اللفظ ، أي يحصل على الجذر ثم يرتب الجذور على حسب الحرف الأول منها ثم الحرف الثاني وهكذا ، ويكتب امام اللفظ جزء من الآية التي ورد بها ثم رقم الآية ورقم السورة . والالفاظ المدونة في المعجم هي الاسماء والافعال ، اما الضائير والحروف فلم تدون .

وقد تم شحن ذاكرة الكمبيوتر ببيانات المعجم بالإضافة الى البرامج المختلفة التي تم اعدادها لتتحقق التوصل الى الاهداف السبعة التي ذكرت سابقاً وغيرها من الاهداف ، وقد استغرق اعداد هذه البيانات وشحنها في ذاكرة الكمبيوتر سنة كاملة ، وفي انتامها تم اعداد البرامج اللازمة .

وظهرت النتائج مثلة في بعض الجداول التي نوضحها فيما يلي :

يوضح جدول رقم (٤) اعداد الفاظ القرآن الكريم منسوبة الى الحرف الأول من اللفظ ، والمقصود بالحرف الأول هنا ما يأتي :

( أ ) الحرف الأول في اسماء الاعلام ( الانبياء والرسل والصالحين والافوام ) ، مثل « محمد » يصنف تحت حرف الميم و « شعيب » تحت حرف الشين .

( ب ) الحرف الأول في الالفاظ التي يرجع اصلها الى كلمة عدد حروفها اكثر من ثلاثة ، مثل « زهير » تصنف تحت حرف الزاي .

( جـ ) الالفاظ التي يرجع اصلها الى كلمة مكونة من ثلاثة حروف ، تصنف على حسب الحرف الأول في الاصل الثلاثي .

مثال : « وانبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم » آل عمران ٤٩ تكون أصول ( جذور ) كلمات هذه الآية كالآتي :

الكلمة	انبتكم	تأكلون	تدخرون	بيوتكم
المصدر	نبأ	أكل	ذخر	بيت
الحرف الأول	النون	الهمزة	الذال	الباء

عدد ألفاظ القرآن الكريم :

يبلغ عدد ألفاظ القرآن الكريم ( طبقا لتعريف اللفظ الذي اوردناه سابقا ) ٥٩٩٠٠ ( واحد وخمسون الفا وتسعمائة ) لفظا .

وإذا ارجعنا كل لفظ الى حرفه الأول ( طبقا لتعريف الحرف الأول المذكور ) فاننا نجد ان اكثر الالفاظ هو ما يبدأ بحرف الهمزة وعددها ٨٣١٠ لفظا بنسبة ١٦٪ . اي ان ما يقرب من سدس الفاظ القرآن تبدأ بحرف الهمزة ، ويليهما ما يبدأ بحرف القاف وعددها ٤٠٨٦ لفظا بنسبة ٨٪ ، ثم ما يبدأ بحرف الكاف ( ٣٨٧٨ لفظا بنسبة ٦,٥٪ ) ، ثم ما يبدأ بحرف العين وعددها ٣٧٨٨ لفظا بنسبة ٦,٣٪ ، ويليه ما يبدأ بحرف الراء وعدد هذه الالفاظ هو ٣٢٩٣ لفظا بنسبة ٦,٣٪ ، ثم ما يبدأ بحرف النون ( ٢٩٣٦ لفظا بنسبة ٥,٧٪ ) .

ثم تتوالى اعداد الالفاظ التي تبدأ بالحروف التالية ( مرتبة تنازليا ) : ب - س - ح - و - ج - م - ش - خ - ص - ف - د - غ - ل - ي - هـ - ت - ث - ذ - ط - ظ - ض - ز - ث .

وإذا جمعنا اعداد الالفاظ التي تبدأ بالحروف الستة الاول :

الهمزة - القاف - الكاف - العين - الراء - النون ، لوجدنا ان مجموع اعدادها هو ٢٦٠٢١ ( ستة وعشرون الفا وواحد وعشرون لفظا ) ، وهذا معناه ان اكثر من نصف الفاظ القرآن الكريم تبدأ بأحد تلك الحروف .

ويوضح جدول رقم (٤) أيضا تقسيم الفاظ القرآن الى ثلاثة انواع :

### النوع الأول :

هو اسماء الاعلام ( الملائكة والانبياء والصالحين وبعض اسماء الاقوام ) ، فقد ورد ذكر ثمانية وثلاثين منهم في القرآن الكريم . واختلف عدد ورود كل منهم . فبينما ورد ذكر « موسى » عليه السلام ١٣٦ ( مائة وستا وثلاثين مرة ) نجد ان « احمد » عليه الصلاة والسلام قد ورد ذكره مرة واحدة وورد ذكر « محمد » عليه الصلاة والسلام اربع مرات ( لم تدخل بعض الاسماء التي كانت تطلق على النبي صلى الله عليه وسلم مثل طه وبس في هذا الموقع من الاحصاء ) .

وقد بلغ مجموع ورود اسماء الاعلام ٦٢٥ ( سبائة وخمسة وعشرون مرة ) ، وسنورد فيما بعد قائمة باسمائهم وعدد مرات ورود كل علم .

### النوع الثاني :

هو الالفاظ التي يعود اصلها الى اكثر من ثلاثة حروف ، والتي يبلغ عددها خمسة واربعون لفظا وردت في مجموعها ١٧١ ( مائة وواحد وسبعون مرة ) .

### النوع الثالث :

هو الالفاظ التي لها اصل ثلاثي ( اي الالفاظ المشتقة من جذور ثلاثية ويبلغ عددها ١٦٢٣ ( الف وستائة وثلاثة وثلاثون لفظا ) ، وقد ورد كل لفظ من هذه الالفاظ عددا من المرات يتراوح بين مرة واحدة و ٢٨٥١ مرة . وبلغ مجموع ورود هذه الالفاظ ٥١١٠٤ ( واحد وخمسون الفا ومائة واربعة ) ونسبتها هي ٩٨,٥% بالنسبة الى جميع الفاظ القرآن الكريم .

### الكلمات الثنائية والاحادية :

لم تتضمن الاحصائيات الموضحة بالجدول رقم (٤) الكلمات الثنائية والاحادية ، والمقصود بالكلمة الثنائية الكلمة التي تتكون من حرفين والكلمة الاحادية هي التي تتكون من حرف واحد . ونظرا لوردها بالمعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، فسوف نوردتها جميعا فيما يلي :

أولا : الكلمات الاحادية وعددها ثلاث ووردت كل منها مرة واحدة .

ص وردت مرة واحدة في سورة ص .

ق وردت مرة واحدة في سورة ق .

ن وردت مرة واحدة في سورة القلم .

ثانياً : الكلمات الثنائية وعددها ثمانية وردت جميعها ١٤٥ مرة ، وهي :

- (١) « أي » وردت مرة واحدة - « ويستنبئونك أحق هو قل أي وربّي انه لحق » . ( يونس ٥٣ ) .
- (٢) « حم » وردت سبع مرات في سور « غافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الاحقاف » - « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » . ( غافر ١ ) .
- (٣) « ذو » وردت ١١١ مرة .
- « وربك الفني ذو الرحمة » ( الانعام ١٣٣ ) .
- (٤) « طس » وردت مرة واحدة .
- « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » ( النمل ١ ) .
- (٥) « طه » وردت مرة واحدة .
- « طه . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » ( طه ١ ) .
- (٦) « كي » وردت عشر مرات .
- « وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً » ( طه ٣٣ ) .
- (٧) « ها » وردت ١٣ مرة .
- « ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم » ( آل عمران ٦٦ ) .
- (٨) « يس » وردت مرة واحدة .
- « يس . والقرآن الحكيم » ( يس ١ ) .

#### مقارنة بين الالفاظ الثلاثية وغيرها :

وقبل ان نورد بيانا بأساء الاعلام نعود للمقارنة بين الالفاظ ذات الاصل الثلاثي وغيرها ذات الاصل غير الثلاثي ، فنجد ان الاولى يبلغ عددها ١٦٣٢ بيتاً يبلغ عدد الثانية ٤٥ لفظاً فقط ، وعلى ذلك تصبح النسبة بين النوعين كنسبة ٣٦ : ١ ، وهي نسبة توضح ضآلة عدد الالفاظ غير الثلاثية .

وبمقارنة هذه النسبة بالنسبة المناظرة لها في الجذور العربية كلها طبقاً لما ورد منها بمعجم الصحاح وهي ٤٨١٤ : ٧٦٦ أي كنسبة ٦ : ١ ، او لما ورد منها بمعجم لسان العرب وهي ٦٥٣٨ : ٢٥٤٨ أي كنسبة ٢,٦ : ١ . نلاحظ ان نسبة الالفاظ غير الثلاثية الواردة بالقرآن الكريم تقل بكثير جداً عن نسبتها في المعاجم العربية . وهذه النتيجة على جانب كبير من الاهمية وهي تحتاج الى دراسة اعمق ليس مكانها هذا المقال .

هذا من جهة الالفاظ المستخدمة من النوعين في القرآن الكريم . اما بالنسبة لمرات ورود كل من هذين النوعين ، فسوف نجد ان النسبة تكاد لا تذكر ، فعلى حين وردت الالفاظ المشتقة من جذور ثلاثية ٥١١٠٤ مرة نجد ان الالفاظ المشتقة من جذور غير ثلاثية وردت ١٧١ مرة ، اي بنسبة تقرب من ١:٣٠٠ .

### أسماء الاعلام في القرآن الكريم :

بلغ عدد هذه الاسماء التي وردت بالقرآن الكريم ٣٨ اسما ، وفيما يلي بيان بتلك الاسماء مرتبة ابجديا وعدد مرات ورودها بالقرآن الكريم .

ابراهيم (٦٩)	احمد (١)	ادريس (٢)
آدم (٢٥)	اسحق (١٧)	اسماعيل (١٢)
الاسباط (٤)	الياس (٢)	آل ياسين (١)
اليسع (٢)	ايوب (٤)	ثمود (٢٦)
جبريل (٣)	داود (١٦)	ذا الكفل (٢)
ذا النون (١)	زكريا (٧)	سليمان (١٧)
شعيب (١١)	صالح (١١)	عاد (٢٤)
عزيز (١)	عمران (٣)	عيسى (٢٥)
لقمان (٢)	لوط (٢٧)	محمد (٤)
مدین (١٠)	مریم (٣٤)	موسی (١٣٦)
میکال (١)	نوح (٤٣)	هارون (٢٠)
هود (١٠)	يحيى (٥)	يعقوب (١٦)
يوسف (٢٧)	يونس (٤)	

يظهر لنا من هذه القائمة ان اكثر الانبياء ذكرا في القرآن الكريم هو « موسى » عليه السلام الذي ورد ذكره بالقرآن ١٣٦ مرة في ٣٤ سورة من سور القرآن ، فقد ورد اسمه ٢١ مرة في سورة الاعراف ، ١٨ مرة في سورة القصص ، ١٧ مرة في سورة طه ، كما ورد في غير ذلك من السور .  
وقد ورد ذكر موسى عليه السلام مع هارون عليه السلام في ١٢ آية من القرآن الكريم . كما ورد ذكر موسى عليه السلام مع فرعون في ١٤ آية من القرآن الكريم .

وبلي موسى في مرات الورد بالقرآن الكريم ، ابراهيم عليه السلام الذي ورد ذكره ٦٩ مرة في ٢٥ سورة من سور القرآن . اكثرها ما ورد بسورة البقرة (١٥ مرة ) ، وقد ورد مرة واحدة في سورة « ابراهيم » .  
ثم يأتي نوح عليه السلام بعد ذلك ، فقد ورد ذكره بالقرآن الكريم ٤٣ مرة في ٢٨ سورة ، اكثرها سورة هود ( ٨ مرات ) ، وقد ورد ثلاث مرات في سورة « نوح » .

ويلى الانبياء « موسى - ابراهيم - نوح » في الورد بالقرآن الكريم السيدة مريم التي ورد ذكرها ٣٤ مرة في ١٢ سورة ، وكان اكثرها ما ورد بسورة المائدة ( ١٠ مرات ) ثم آل عمران ( ٧ مرات ) ، وقد وردت بسورة مريم ثلاث مرات .

وفيما يلي الترتيب التنازلي لعدد مرات ورد باقي اسماء الانبياء :

يوسف ( ٢٧ مرة ) - لوط ( ٢٧ ) - آدم ( ٢٥ ) - عيسى ( ٢٥ ) - هارون ( ٢٠ ) - اسحق ( ١٧ ) - سليمان ( ١٧ ) - داود ( ١٦ ) - يعقوب ( ١٦ ) - اسمايل ( ١٢ ) - شعيب ( ١١ ) - صالح ( ١١ ) - هود ( ١٠ ) - زكريا ( ٧ ) - يحيى ( ٥ ) - ايوب ( ٤ ) - محمد ( ٤ ) - يونس ( ٤ ) - ادريس ( ٢ ) - الياس ( ٢ ) - اليسع ( ٢ ) - ذا الكفل ( ٢ ) - احمد ( ١ ) - آل ياسين ( ١ ) - عزيز ( ١ ) .

وبالنسبة للملائكة فقد ورد اسم « جبريل » ثلاث مرات ، و « ميكال » مرة واحدة .

أما اسماء الصالحين فقد ورد « الاسباط » اربع مرات « وذا النون » مرة واحدة و « عمران » ثلاث مرات ، و « لقمان » مرتين . اما « مريم » فكما ذكرنا سابقا فقد وردت ٣٤ مرة .

وبالنسبة لاسماء الاقوام غير المتنسبين للانبياء ( بالاسم ) فقد ورد ذكر قوم « ثمود » ستة وعشرين مرة ، كما ورد ذكر قوم « عاد » اربعة وعشرين مرة ، وقوم « مدين » عشر مرات .

### احصائيات وتوزيع الالفاظ على سور القرآن :

يوضح جدول رقم (٥) عدد الفاظ وآيات كل سورة من سور القرآن . ولتوضيح كيفية ايجاد عدد الفاظ كل سورة تأخذ كمثال سورة الفاتحة التي نكتبها وبعد كل لفظ اصل اللفظ بين قوسين .

#### الفاتحة :

بسم ( سمو ) الله ( اله ) الرحمن ( رحم ) الرحيم ( رحم ) .  
الحمد ( حمد ) لله ( اله ) رب ( رب ) العالمين ( علم ) .  
الرحمن ( رحم ) الرحيم ( رحم ) . مالك ( ملك ) يوم ( يوم ) الدين ( دين ) . اياك ( أيا ) نعبد ( عبد )  
واياك ( أيا ) نستعين ( عون ) . اهدنا ( هدى ) الصراط ( صراط ) المستقيم ( قوم ) . صراط ( صراط )  
الذين ( - ) انعمت ( نعم ) عليهم ( - ) غير ( غير ) المغضوب ( غضب ) عليهم ( - ) ولا ( - ) الضالين ( ضلل ) .

جدول رقم (٤)  
توزيع الفاظ القرآن الكريم بالنسبة الى الحرف الأول منها

الحرف	ألفاظ من أصل ثلاثي	ألفاظ من أصل غير ثلاثي	أسماء الملائكة والانبيااء والصالحين	المجموع	النسبة المئوية%
أ	٨١٧١		١٣٩	٨٣١٠	١٦,٠
ب	٢٤٦٨	١٤		٢٤٨٢	٤,٨
ت	٥٦٩			٥٦٩	١,١
ث	٢٢٢		٣٦	٢٥٣	٠,٥
ج	١٧٧٢	٣	٣	١٧٧٨	٣,٤
ح	٢١٥٤	١		٢١٥٥	٤,٢
خ	١٥٨٣	٨		١٥٩١	٣,١
د	١٠١٥	١	١٦	١٠٣٢	٢,٠
ذ	٥٥٦		٣	٥٥٩	١,١
ر	٣٢٩٣			٣٢٩٣	٦,٣
ز	٤٠٠	٦	٧	٤١٣	٠,٨
س	٢٤٥٢	٧	١٧	٢٤٨١	٤,٨
ش	١٥٨٩	١	١١	١٦٠١	٣,١
ص	١٢٣٥		١١	١٢٤٦	٢,٤
ض	٤٥٤	١		٤٥٥	٠,٩
ط	٥٥٢	٢		٥٥٤	١,١
ظ	٤٨٢			٤٨٢	٠,٩
ع	٣٧٣٣	٢	٥٣	٣٧٨٨	٧,٣
غ	٩٠٣			٩٠٣	١,٧
ف	١١٢٢	٧٦		١٢٠٣	٢,٣
ق	٤٠٧٩	٧		٤٠٨٦	٧,٩
ك	٣٨٧٠	٨		٣٨٧٨	٧,٥
ل	٨٣٥	٦	٢٩	٨٧٠	١,٧
م	١٤١٦	٣	١٨٥	١٦٠٤	٣,١
ن	٢٨٩٢	١	٤٣	٢٩٣٦	٥,٧
هـ	٦٢٢	١	٣٠	٦٥٣	١,٣
و	١٨٥٩	٧		١٨٦٦	٣,٦
ي	٧٩١	١٦	٥٢	٨٥٩	١,٧
المجموع	٥١١٠٤	١٧١	٦٢٥	٥١٩٠٠	

وعلى ذلك يقوم الكمبيوتر بالتصنيف الاتي :

حرف الهمزة	(٤) :	اله - اله - أئى - أئى .
حرف الراء	(١١) :	حمد .
حرف الدال	(١١) :	دين .
حرف الراء	(٥) :	رحم - رحم - ربيب - رحم - رحم .
حرف السين	(١١) :	سمو .
حرف الصاد	(٢) :	صرط - صرط .
حرف الضاد	(١١) :	ضلل .
حرف العين	(٣) :	علم - عئد - عون .
حرف الفئ	(٢) :	غئر - غضب .
حرف القاف	(١١) :	قوم .
حرف الميم	(١١) :	ملك .
حرف النون	(١١) :	نعم .
حرف الهاء	(١١) :	هئى .
حرف الباء	(١١) :	يوم .

وبذلك يكون مجموع الفاظ سورة الفاتحة ٢٥ لفظا ، جميعها جذور ثلاثية ، وهي عبارة عن ١٩ جذرا ، ورد ثلاثة منها مرتين كما ورد جذر واحد اربع مرات ( رحم ) والباقي وعددهم ١٥ جذرا كل منها مرة واحدة في هذه السورة .

وإذا عدنا الى جدول رقم (٥) لتأمل الفاظ وآيات سور القرآن لوجدنا ان عدد الالفاظ يتراوح بين ٤٠٥٠ لفظا ( عدد الفاظ سورة البقرة وهي اطول السور ) وبين سبعة الفاظ فقط ( عدد الفاظ سورة الكوثر وهي اقصر السور ) .

وكما ان سورة البقرة تتميز باكثر عدد الفاظ فهي ايضا تحتوي على اكثر عدد من الآيات (٢٨٦ آية ) . وبالمثل تحتوي سورة الكوثر على اقل عدد من الآيات ( ثلاث آيات ) ويشترك معها في نفس عدد الآيات كل من سورة النصر وسورة النصر .

ونظرا لأن العدد الكلي لالفاظ القرآن هو ٥١٩٠٠ لفظا فان معدل عدد الفاظ السور هو ٤٥٥ لفظا ( ينتج من قسمة العدد الكلي لالفاظ على عدد سور القرآن ) وعلى ذلك نجد ان القرآن ٣٨ سورة يزيد عدد الفاظها عن المعدل ، بينما الباقي وعددهم ٢٦ سورة يقل عدد الفاظ كل منها عن المعدل .



وإذا رتبنا سور القرآن من حيث عدد الفاظها ترتيباً تنازلياً لظهرت كالآتي ( السورة - رقمها في المصحف ) :

البقرة ٢ - النساء ٤ - آل عمران ٣ - الاعراف ٧ - الانعام ٦ - المائدة ٥ - التوبة ٩ - هود ١١ - النحل ١٦ - يوسف ١٢ - يونس ١٠ - .....  
 اما اذا رتبنا السور من حيث عدد الآيات ترتيباً تنازلياً لظهرت كالآتي :

البقرة ٢ - الشعراء ٢٦ - الاعراف ٧ - آل عمران ٣ - الصافات ٣٧ - النساء ٤ - الانعام ٦ - طه ٢٠ - التوبة ٩ - النحل ١٦ - .....  
 ..... ١٦ - النحل ٩

وإذا قارنا الترتيبين لوجدنا انه باستثناء سورة البقرة فإن الترتيب التنازلي للالفاظ يختلف عن الترتيب التنازلي للآيات ، مما يدل على ان اطوال الآيات تتباين بين سور القرآن ، وطول الآية يمكن تعريفه بأنه عددٌ للفاظ الآية ونحصل عليه بقسمة عدد الفاظ السورة على عدد الآيات في السورة .

وقبل ان نتابع الحديث عن اطوال الآيات نود ان نشير الى ان تقسيم القرآن الكريم الى اجزائه الثلاثين يتفق الى حد كبير مع عدد الالفاظ ، فاعداد الالفاظ في هذه الاجزاء متقارب جدا فيما عدا جزء عم وهو الاخير فيختلف عدد الفاظها وهو ١٦١٧ لفظا عن معدل عدد الفاظ الجزء وهو ١٧٣٠ بنسبة حوالي ٦٪ ، والسبب في ذلك ان هذا الجزء يحتوي على قصار السور ، بالاضافة الى عدم حساب الفاظ البسملة في بداية كل سورة وانما تحسب فقط مع سورة الفاتحة لكونها تمثل الآية الاولى في هذه السورة .

#### اختلاف السور في اطوال آياتها :

لنعد الآن للحديث عن اطوال آيات السور ، وبالتأمل في جدول رقم (٥) نجد ان سور القرآن تختلف اختلافًا بينا في اطوال الآيات ، فنجد أن متوسط عدد الالفاظ في الآية الواحدة من سورة الطلاق ٦٥ هو ١٧,٢٥ ، أي ان الآية الواحدة تحتوي على اكثر من سبعة عشر لفظا في المتوسط ، وفي نفس الوقت نجد ان عدد الالفاظ في الآية الواحدة من سورة الشرح ٩٤ هو ٢,٠٠ اذ تتكون هذه السورة من ثمانية آيات وتحتوي على ١٦ لفظا ، وبالفعل فان كل آية تحتوي على لفظين فقط ( هذا بالطبع مع استبعاد الاداة والحرف ) .

ويظهر من نفس الجدول ان السور طويلة الآيات اذا رتبنا تنازلياً مع ذكر عدد الفاظ الآية لننتج لنا الترتيب التالي :

الأولى سورة الطلاق ٦٥ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٧,٢٥

الثانية سورة الممتحنة ٦٠ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٧,١٥

الثالثة سورة المائدة ٥ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٥,٦٨

- الرابعة سورة التحريم ٦٦ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٥,٣٣  
 الخامسة سورة النساء ٤ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,٤٩  
 السادسة سورة البقرة ٢ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,١٦  
 السابعة سورة الفتح ٤٨ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,٠٧  
 الثامنة سورة المجادلة ٥٨ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,٠٥  
 التاسعة سورة الحديد ٥٧ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٣,٨٦  
 العاشرة سورة النور ٢٤ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٣,٧٣

وإذا لاحظنا الترتيب التاريخي لنزول سور القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لوجدنا ان السور طويلة الآيات كان نزولها في مرحلة متأخرة زمنيا ، وفي هذا ابلغ حكمة ، لأن طول الآية يستلزم ذاكرة قوية لحفظها ، بينما السور قصيرة الآيات يمكن حفظها بيسر أكثر . فاقترضت حكمة المولى عز وجل ان تكون السور الاولى في النزول هي السور قصيرة الآيات حتى يتدرب المسلمون على حفظ القرآن تدريجيا . ويتضح ذلك من الترتيبين الآتيين :

أولاً : العشر سور ذات أطول آيات في القرآن الكريم يكون ترتيبها الزمني في النزول على النحو التالي :

البقرة	٢	ترتيبها	الزمني	هو	٨٧	( السادسة في طول الآيات ) .
المتحنة	٦٠	«	«	«	٩١	( الثانية في طول الآيات ) .
النساء	٤	«	«	«	٩٢	( الخامسة في طول الآيات ) .
الحديد	٥٧	«	«	«	٩٤	( التاسعة في طول الآيات ) .
الطلاق	٦٥	«	«	«	٩٩	( الأولى في طول الآيات ) .
النور	٢٤	«	«	«	١٠٢	( العاشرة في طول الآيات ) .
المجادلة	٥٨	«	«	«	١٠٥	( الثامنة في طول الآيات ) .
التحريم	٦٦	«	«	«	١٠٧	( الرابعة في طول الآيات ) .
الفتح	٤٨	«	«	«	١١١	( السابعة في طول الآيات ) .
المائدة	٥	«	«	«	١١٢	( الثالثة في طول الآيات ) .

ثانياً : المشرون سورة الأولى في النزول على الرسول صلى الله عليه وسلم هي من ذوي الآيات القصيرة ، منها ١٢ سورة يقل فيها طول الآية عن ثلاثة الفاظ وهي :

العلق - التكوير - الأعلى - الليل - الضحى - الشرح - العاديات - الكوثر - التكاثر - الماعون - الكافرون - الفلق .

جدول رقم (٥)  
عدد ألفاظ وآيات سور القرآن

م	السورة	عدد الآيات	عدد الآيات (متوسط)	م	السورة	عدد الآيات	عدد الآيات (متوسط)
١	الفاتحة	٢٥	٧	٣٦	لقمان	٣٦	١٠,٦٢
٢	البقرة	٢٨٦	١٤,١٦	٣٧	الرحمن	٣٧	١٠,٦٢
٣	آل عمران	٢٠٠	١١,٨٥	٣٨	الزمر	٣٨	١٠,٦٢
٤	النساء	٢٥٠	١٢,٥٠	٣٩	الجمعة	٣٩	١٠,٦٢
٥	المائدة	١٢٠	١٢,٠٠	٤٠	الطه	٤٠	١٠,٦٢
٦	الأنعام	١٦٥	١٦,٥٠	٤١	الحج	٤١	١٠,٦٢
٧	الأعراف	٢٢٤	٢٢,٤٠	٤٢	مجادل	٤٢	١٠,٦٢
٨	الأنفال	٨٢	٨,٢٠	٤٣	الحشر	٤٣	١٠,٦٢
٩	التوبة	١٢٩	١٢,٩٠	٤٤	الممتحنة	٤٤	١٠,٦٢
١٠	يونس	١١٥	١١,٥٠	٤٥	الصف	٤٥	١٠,٦٢
١١	هود	١٢٢	١٢,٢٠	٤٦	الزمر	٤٦	١٠,٦٢
١٢	يوسف	١١٧	١١,٧٠	٤٧	الحجرات	٤٧	١٠,٦٢
١٣	الرعد	٤٣	٤,٣٠	٤٨	المجادل	٤٨	١٠,٦٢
١٤	إبراهيم	٥٢	٥,٢٠	٤٩	الحجرات	٤٩	١٠,٦٢
١٥	الحجر	٤٢	٤,٢٠	٥٠	الحجرات	٥٠	١٠,٦٢
١٦	الأنعام	١٢٠	١٢,٠٠	٥١	الحجرات	٥١	١٠,٦٢
١٧	الأنعام	١٦٥	١٦,٥٠	٥٢	الحجرات	٥٢	١٠,٦٢
١٨	الكهف	١٠٨	١٠,٨٠	٥٣	الحجرات	٥٣	١٠,٦٢
١٩	مريم	٩٨	٩,٨٠	٥٤	الحجرات	٥٤	١٠,٦٢
٢٠	طه	٨٨	٨,٨٠	٥٥	الحجرات	٥٥	١٠,٦٢
٢١	الأنبياء	١١٢	١١,٢٠	٥٦	الحجرات	٥٦	١٠,٦٢
٢٢	الحج	٨٤	٨,٤٠	٥٧	الحجرات	٥٧	١٠,٦٢
٢٣	المؤمنون	٦٦	٦,٦٠	٥٨	الحجرات	٥٨	١٠,٦٢
٢٤	النور	٨٩	٨,٩٠	٥٩	الحجرات	٥٩	١٠,٦٢
٢٥	الفرقان	٢٨	٢,٨٠	٦٠	الحجرات	٦٠	١٠,٦٢
٢٦	الأنعام	١٢٠	١٢,٠٠	٦١	الحجرات	٦١	١٠,٦٢
٢٧	النحل	١٢٨	١٢,٨٠	٦٢	الحجرات	٦٢	١٠,٦٢
٢٨	القصص	٩٤	٩,٤٠	٦٣	الحجرات	٦٣	١٠,٦٢
٢٩	العنكبوت	٦٥	٦,٥٠	٦٤	الحجرات	٦٤	١٠,٦٢
٣٠	الزمر	٦٠	٦,٠٠	٦٥	الحجرات	٦٥	١٠,٦٢

تابع جدول رقم (٥)  
عدد ألفاظ وأيات سور القرآن الكريم

م	السورة	عدد الآيات	عدد الآيات	م	السورة	عدد الآيات	عدد الآيات
٦١	الصف	١٥٨	١٤	٨٨	الفلقية	١١,٢٩	٢,٤٦
٦٢	الجمعة	١١٦	١١	٨٩	الفرح	١١,٠٠	٣,٤٣
٦٣	المنافقون	١١٩	١١	٩٠	اليك	١٠,٨٢	٢,٦٥
٦٤	التغابن	١٧٥	١٨	٩١	الشمس	٩,٧٢	٢,٦٧
٦٥	الطلاق	٢٠٧	١٢	٩٢	الليل	١٧,٢٥	٢,٣٣
٦٦	التحریم	١٨٤	١٢	٩٣	الضحى	١٥,٣٣	٢,٧٣
٦٧	المقصد	٢١٢	٣٠	٩٤	الشرح	٧,٠٧	٢,٠٠
٦٨	القم	١٩٤	٥٢	٩٥	الذين	٣,٧٣	٣,٢٥
٦٩	الحاقة	١٧٧	٥٢	٩٦	الملك	٣,٤٠	٢,٧٤
٧٠	المعراج	١٤٨	٤٤	٩٧	القدر	٣,٣٦	٤,٢٠
٧١	نوح	١٥٨	٢٨	٩٨	البينة	٥,٦٤	٧,٨٨
٧٢	الجن	١٨٣	٢٨	٩٩	الزلزلة	٦,٥٤	٣,٦٣
٧٣	الزبل	١٤٦	٢٠	١٠٠	العدايات	٧,٣٠	٢,٢٧
٧٤	المدثر	١٧١	٥٦	١٠١	الفارقة	٣,٠٥	٢,٢٧
٧٥	القيامة	١١٨	٤٠	١٠٢	التكاثر	٢,٩٥	٢,٧٥
٧٦	الانسان	١٨١	٣٦	١٠٣	المعصر	٥,٨٤	٣,٣٣
٧٧	المرسلات	١٣٢	٥٠	١٠٤	الهمزة	٢,٧٤	٢,٥٦
٧٨	النبا	١٣٥	٤٠	١٠٥	الليل	٣,٣٨	٣,٦٠
٧٩	النازعات	١٢٧	٤٦	١٠٦	قريش	٢,٧٦	٣,٢٥
٨٠	عبس	٩٦	٤٢	١٠٧	الماعون	٢,٢٩	٢,١٤
٨١	التكوير	٦٩	٢٩	١٠٨	الكوثر	٢,٣٨	٢,٣٣
٨٢	الانفطار	٥٣	١١	١٠٩	الكاغرون	٢,٧٩	٢,١٧
٨٣	الطه	١١٢	٣٦	١١٠	النصر	٣,١١	٥,٤٤
٨٤	الانشقاق	٧٣	٢٥	١١١	المسد	٢,٩٢	٣,٤٠
٨٥	البرج	٦٩	٢٢	١١٢	الاخلاص	٣,١٤	٢,٥٠
٨٦	الطارق	٤١	١٧	١١٣	الفلق	٢,٤١	٣,٠٠
٨٧	الاعلى	٥١	١٩	١١٤	الناس	٢,٦٨	٢,٦٧

## مقارنة بين الجذور الثلاثية في القرآن والجذور الثلاثية في المعاجم العربية :

يوضح الجدول رقم (٦) اعداد جذور القرآن الكريم الثلاثية منسوبة الى حرفها الأول ، كما يوضح ايضا عدد هذه الجذور المدونة بمعجم الصحاح والنسبة المئوية لجذور القرآن الى جذور معجم الصحاح ، فعل سبيل المثال يوجد بمعجم الصحاح ١٨٧ جذرا يبدأ بحرف الهمة ورد منهم بالقرآن الكريم ٧٥ جذرا وهي بنسبة ٤٠٪ من جذور الصحاح . كما يوجد بمعجم الصحاح ٢١٨ جذرا يبدأ بحرف السين ورد منهم بالقرآن الكريم ١٠٣ جذرا بنسبة ٤٧٪ من جذور الصحاح .

ويوضح الجدول ايضا ان مجموع الجذور الثلاثية الواردة بالقرآن الكريم هي ١٦٣٣ جذرا ، بينما مجموع الجذور الثلاثية المدونة بمعجم الصحاح هي ٤٨١٤ ، وهذا معناه ان نسبة جذور القرآن الى جذور معجم الصحاح هي ٣٤٪ .

وإذا أضفنا الى الجذور الثلاثية ما ورد من جذور غير ثلاثية بالقرآن الكريم وعددها ٤٥ ، اصبح عدد جذور القرآن هي ١٦٧٨ ، ولقارنتها بجذور معجم الصحاح الثلاثية وغيرها والتي يبلغ عددها ٥٦١٨ (٤٨١٤) ثلاثية + ٧٦٦+ رباعية + ٣٨+ خماسية ) ، لأصبحت نسبة جذور القرآن الى جذور اللغة العربية المدونة بمعجم الصحاح هي ٣٠٪ .

ويوضح الجدول رقم (٦) بالاضافة الى ما سبق اعداد الجذور الثلاثية التي وردت مرة واحدة فقط بالقرآن الكريم منسوبة الى حرفها الأول ، وهي في مجموعها عبارة عن ٣٧٤ جذرا ، ومعنى ذلك ان ٢٣٪ من لغة القرآن استخدمت مرة واحدة فقط وهذا اعجاز بلاغي كبير .

ولكي نربط بين الجدول رقم (٤) والجدول رقم (٦) نأخذ احد الحروف العربية كمثال وليكن حرف السين .

فالجدول رقم (٦) يوضح ان عدد الجذور الثلاثية التي تبدأ بحرف السين والتي وردت بالقرآن هو ١٠٣ جذرا ثلاثيا منها ٢٣ جذرا ورد كل منها مرة واحدة فقط والباقي وعددهم ٨٠ جذرا ورد كل منها اكثر من مرة واحدة . وفيما يلي بيان بتلك الجذور مرتبة ابداعيا على حسب الحرف الثاني والثالث وعدد مرات ورود كل جذر .

سأ	١٢٩	سأ	٢	سب	١١
سب	٩	سب	١	سج	٢٨
سج	٢	سج	٣٧	سث	٨
سث	٣	سج	١٢	سج	٤
سس	١٢	سس	١	سث	٤
سج	٦٣	سج	٢	سث	٤٢
سج	٤	سج	٦	سس	٨

سدى	١	سرب	٤	سرج	٤	سرج	٧
سرد	١	سرد	٤٤	سرع	٢٢	سرف	٢٢
سرى	٩	سرى	٥٩	سرع	١	سطر	١٦
سطر	١	سند	٢	سمر	١٩	سعى	٣٠
سغب	١	سجع	٤	سفر	١٢	سجع	١
سفلك	٢	سفل	١٠	سفى	٤	سفه	١١
سفر	٤	سقط	٨	سقت	٤	سقم	٢
سقى	٢٥	سكب	١	سكت	١	سكر	٧
سكن	٦٩	سلف	١	سلج	٤	سلج	٣
سلط	٣٩	سلف	٨	سلف	١	سللك	١٢
سلل	٦	سلم	١٤٠	سلم	٣	سند	١
سر	٤	سج	١٨٥	سلك	١	سسم	٤
سسن	٤	سسو	٣٨١	سند	١	سسم	١
ستن	٢٢	سئر	٢٠	سهر	١	سهل	١
سهم	١	سهر	٢	سرا	١٦٧	سوح	١
سود	١٠	سور	١٧	سوط	١	سوع	٤٩
سوخ	٣	سوف	٤٢	سوق	١٧	سول	٤
سوم	١٥	سوى	٨٣	سهب	١	سوح	٣
سير	٢٧	سبل	٤	سبن	٢		

والآن ، اذا قمنا بجمع اعداد مرات ورود كل جذرم من تلك الجذور لنتج لنا العدد الكلي لورود الجذور الثلاثية التي تبدأ بحرف السين بالقرآن الكريم وهو ٢٤٥٧ وهو ما يظهر بوضوح في الجدول رقم (٤) .

أي ان الجدول رقم (٦) يعطينا عدد انواع الجذور التي تبدأ بحرف معين بينما يظهر في الجدول رقم (٤) العدد الاجمالي لتلك الجذور .

وإذا تأملنا قائمة الجذور السابقة لعددها ٢٣ جذرا يرد بالقرآن الكريم مرة واحدة فقط ، وسنورد فيما يلي اجزاء من الآيات التي وردت بها تلك الجذور مرتبة ابجديا ويليهما اسم السورة ورقم الآية :

سبط	١	وقطاعهم اثني عشر أسباطاً أمّا	(	الأحزاب	١٦٠	)
سعى	١	والضحى ، والليل اذا سمى .	(	الضحى	٢	)
سحل	١	عاقلي في اليم طليقة اليم بالساحل	(	ط	٣٩	)
سدى	١	أعصب الانسان أن يترك سدى	(	القلم	٣٦	)
سرد	١	وقدر في السرر، واعلوا صالحا	(	سبا	١١	)
سلج	١	والى الأرض كيف سطحت .	(	القائمة	٢٠	)
سطر	١	بكاندن سطران بالذين شنن عليهم	(	الحج	٧٢	)
سلب	١	أو اطعام في يوم ذي نسفة .	(	البقرة	١٤	)
سج	١	كلا لأن لم ينته لشعنا بالنامية .	(	الفق	١٥	)
سكب	١	جاء سكب .	(	الواقعة	٣٦	)

سكت	• ولا سكت عن موسى العصب	( )	الاعراف ١٥٤	( )
سلب	• إن يسلمهم العذاب شيئا	( )	الحج ٢٣	( )
سلق	• فإذا حب الخوف سلقكم	( )	الأحزاب ١٩	( )
سند	• وأنت سامعون .	( )	الحج ٦٦	( )
سكك	• رفع سكرها صولعا	( )	التأزيات ٢٨	( )
سد	• فكأن خشب مسدة	( )	الماثور ٤	( )
سم	• وراح من تسيم .	( )	الطه ٢٧	( )
سهر	• فإذا هم بالساعة	( )	التأزيات ١٤	( )
سهل	• تتحدون من سهلا قصورا	( )	الاعراف ٢٤	( )
سهم	• صاهم مكان من المصمى	( )	الصافات ١٤١	( )
سرح	• فإذا برل ساحتهم صاه صاه الفدين	( )	الصافات ١٧٧	( )
سوط	• نصب عليهم ركب سوط عذاب .	( )	القدر ١٣	( )
سبب	• ما حمل الله من معزة ولا سانة	( )	المائدة ١٠٣	( )

### الجذور الثلاثية المتعددة الورد بالقرآن الكريم :

يوضح الجدول رقم (٧) عدد مرات ورود الجذور الثلاثية متعددة الورد بالقرآن الكريم مرتبة تنازليا . اعتبارا من أكثر الجذور ورودا وهو « إله » وهو جذر لفظ الجلالة « الله » الذي ورد ٢٨٥١ مرة ، حتى الجذور التي وردت ٥٩ مرة فقط وعند الجذور المدونة في هذا الجدول هو ١٨٩ جذرا فقط .

وكما يظهر من هذا الجدول نجد على القمة لفظ الجلالة وبلي ذلك في الترتيب الفعلين « قال وكان » ومشتقاتها بتردد ١٧٢٢ ، ١٣٨٧ على الترتيب . ويتميز هذان الفعلان من جهة المعنى بأنها فعلان مساعدان .

وبلي ذلك في المرتبة الرابعة الجذر « رب » بتردد ٩٧٩ مرة . ونظرا لأن هذا الجذر مرادف للجذر « اله » فيمكن إضافة الترددتين معا ليصبحا ٣٨٣٠ بنسبة ٧,٤٪ من مجموع الفاظ القرآن الكريم .

وفي المرتبة الخامسة يأتي الجذر « آمن » ومشتقاته بتردد ٨٧٩ مرة ، ومعنى هذا ان « الايمان » يأتي في المرتبة الاولى بالنسبة للافعال غير المساعدة في القرآن الكريم ، وهذا له معنى كبير ، فكأن الله سبحانه وتعالى قد اراد ان يوضح للانسان دور الايمان في تكوين الانسان الصالح .

ثم يأتي في المرتبة السادسة الجذر « علم » ومشتقاته بتردد ٨٥٤ مرة ، وفي هذا دلالة واضحة جليلة على ان « الايمان » يسبق « العلم » ولكن نظرا لتقاربهما في التردد فهناك ارتباط وثيق بينهما ، فكما ان الله سبحانه وتعالى قد بين لبني البشر اهمية « الايمان » في حياة الانسان فانه ايضا قد اوضح اهمية « العلم » في بناء الانسان .

والارتباط بين المعنيين يأتي في ان الانسان في بحثه عن الحقيقة يجب ان يؤمن - أولا - ثم يستخدم العلم الاستخدام السليم لتقوية وتعميق هذا الايمان .

جدول رقم (٦)  
مقارنة بين الجذور الثلاثية بالقرآن الكريم  
والجذور الثلاثية للغة العربية ( معجم الصحاح )

المعرف الأول للجذر	عدد جذور معجم الصحاح	عدد جذور القرآن الكريم	عدد الجذور الواردة مرة واحدة بالقرآن	النسبة المئوية لعدد جذور القرآن إلى الصحاح
ا	١٨٧	٧٥	١١	٪٤٠
ب	٢٢٧	٨٢	١٦	٪٣٦
ت	٨٠	٢٢	٦	٪٢٨
ث	٨٥	٢٢	٦	٪٢٦
ج	١٩٥	٦٨	١١	٪٣٥
ح	٢٣٦	٩٦	١٩	٪٤١
خ	١٩٤	٦٨	١٢	٪٣٥
د	١٧٥	٤٤	١٢	٪٢٥
ذ	٦٣	٢١	٧	٪٣٣
ر	٢٧١	٨٩	٢٣	٪٣٣
ز	١٢٩	٣٧	١٠	٪٢٩
س	٢١٨	١٠٣	٢٣	٪٤٧
ش	٢٠٥	٦٠	١٤	٪٢٩
ص	١٣٦	٦٠	١٣	٪٤٤
ض	٩٦	٢٤	٩	٪٢٥
ط	١١١	٣٧	٧	٪٣٣
ظ	٢٢	٧	١	٪٢٢
ع	٢٥٣	١٠٢	١٥	٪٤٠
غ	١٢٥	٥٠	١١	٪٤٠
ف	١٩٠	٧٢	٢١	٪٣٨
ق	٢٢٢	٧٥	٢١	٪٣٤
ك	١٨٠	٦١	١٣	٪٣٤
ل	١٩١	٥٥	١٠	٪٢٩
م	٢٢٣	٧٠	١٦	٪٣١
ن	٣٢٠	١٠٥	٢٦	٪٣٣
هـ	١٨١	٤٠	١١	٪٢٢
و	٢٦٥	٧٧	٢٠	٪٢٩
ي	٣٤	١١	٢	٪٢٢
المجموع	٤٨٩٤	١٦٣٣	٣٧٤	٪٢٤١



اما اذا لجأ الى العلم للبحث عن الحقيقة قبل ان يؤمن فلن يصل الى الراحة النفسية مهما تعمق في العلم .  
والفارق الصغير بين تردد كل من « الايمان » و « العلم » يوضح ارتباط المعنيين ارتباطا وثيقا ( الايمان والعلم ) .

وفي المرتبتين السابعة والثامنة من الترتيب التنازلي لجذور القرآن الكريم ( جدول رقم ٧ ) يأتي الفعلان « قام وأتى » ومشتقاتها بتردد ٥٤٩,٦٦٠ على الترتيب وهما ايضا من الافعال المساعدة ، ويليهما في المرتبة التاسعة الجذر « كفر » ومشتقاته بتردد ٥٢٥ مرة .

وتتوالى الجذور في الترتيب كما يظهر من الجدول . ويمكن القاء الضوء على بعض المعاني المتقاربة او المتباينة وتردداتها مثل المعاني التالية :

« كتب »	وردت	٣١٩	مرة	« قرأ »	وردت	٨٨	مرة
« كذب »	وردت	٢٨٢	مرة	« صدق »	وردت	١٥٥	مرة
« أول »	وردت	١٢٤	مرة	« آخر »	وردت	٢٥٠	مرة
« الحياة »	وردت	١٨٤	مرة	« الموت »	وردت	١٦٥	مرة
« خرج »	وردت	١٨٢	مرة	« دخل »	وردت	١٢٦	مرة
« تبار »	وردت	١١٢	مرة	« ليل »	وردت	٩٢	مرة
« الرجال »	وردت	٧٣	مرة	« النساء »	وردت	٥٩	مرة
« السع »	وردت	١٨٥	مرة	« العصر »	وردت	١٤٨	مرة

### لفظ الجلالة :

يوضح الجدول رقم (٨) عدد مرات ورود الجذر « إله » في سور القرآن الكريم ، ومنه يظهر ان أكثر الورد هو في سورة البقرة (٢٨٩) تليها سورة النساء (٢٣٩) ثم سورة آل عمران (٢١٥) وبلي ذلك سورة التوبة (١٧٢) ثم المائدة (١٥١) .

وبلي ذلك ورود الجذر « إله » في سورة الانعام (٩٣) ثم سورة الاحزاب (٩٠) ثم سورة الانفال (٨٩) وسورة النحل (٨٩) ثم سورة النور (٨٠) .

وإذا قمنا بحساب النسبة المئوية لورود الجذر « اله » بالنسبة الى جذور كل سورة لظهر لنا ان اكبر عشرة سور في نسبة ورود الجذر « اله » هي على الترتيب :  
( السورة - عدد مرات الورد - النسبة المئوية ) :

المجادلة - ٤٠ - ١٢,٩%

الانفال - ٨٩ - ١٠,٧%

جدول رقم (٧)  
الجذور الثلاثية المتعددة الوروه بالقرآن الكريم مرتبة تنازليا

الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الوروه	الترتيب	عاشد مشتقات الجذر	مرات الوروه	الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الوروه
١	ألف	٢٨٥٦	٣٦	حق	٢٨٧	١٦٩	صلح	١٦٩
٢	قال	١٧٢٢	٣٧	كذب	٢٨٢	١٦٩	مثل	١٦٩
٣	كان	١٣٨٧	٣٨	جاء	٢٧٨	١٦٨	يشارك	١٦٨
٤	روى	١٧٩	٣٩	عدى	٢٧٥	١٦٨	قلب	١٦٨
٥	أس	٨٧٩	٤٥	أعد	٢٧٣	١٦٧	سبى	١٦٧
٦	علم	٨٥٤	٣٦	خلق	٢٦٦	١٦٧	كثر	١٦٧
٧	قام	٦٦٠	٣٧	يقضى	٢٥٨	١٦٥	الموت	١٦٥
٨	أش	٥٤٩	٣٨	أغفر	٢٥٠	١٦٦	كبر	١٦٦
٩	كفر	٥٢٥	٣٩	أمر	٢٤٨	١٦٠	شهد	١٦٠
١٠	بين	٥٢٣	٤٠	الباس	٢٤٦	١٦٠	نأ	١٦٠
١١	بشأ	٥١٩	٤١	أبى	٢٣٩	١٥٨	بعض	١٥٨
١٢	رسول	٥١٣	٤٢	بذ	٢٣٥	١٥٨	نصر	١٥٨
١٣	يز	٤٧٥	٤٣	فقر	٢٣٤	١٥٥	صنف	١٥٥
١٤	أرض	٤٦٦	٤٤	نزل	٢٣٣	١٥٤	غير	١٥٤
١٥	أول	٤٢٤	٤٥	يدعو	٢١٢	١٥٦	وعد	١٥٦
١٦	كل	٤١٠	٤٦	حكم	٢١٠	١٤٨	بصر	١٤٨
١٧	آية	٣٨٢	٤٧	ملك	٢٠٧	١٤٨	يريد	١٤٨
١٨	اسم - ساء	٣٨١	٤٨	حن	٢٠٦	١٤٦	يلقى	١٤٦
١٩	عذاب	٣٧٢	٤٩	عند	٢٠٠	١٤٤	دون	١٤٤
٢٠	صل	٣٥٩	٥٠	خير	١٩٦	١٤٤	نعم	١٤٤
٢١	حمل	٣٤٦	٥١	حسى	١٩٤	١٤٠	سلم	١٤٠
٢٢	رسم	٣٣٩	٥٢	نور - نار	١٩٤	١٣٣	إدنيا	١٣٣
٢٣	رأى	٣٢٨	٥٣	خلال	١٩١	١٣٢	فقر	١٣٢
٢٤	كش	٣١٩	٥٤	سج	١٨٥	١٣٠	طرد	١٣٠
٢٥	عدى	٢٦٦	٥٥	أين - بى	١٨٤	١٢٩	جمع	١٢٩
٢٦	ظم	٢٦٥	٥٦	القيادة	١٨٤	١٢٩	يطيع	١٢٩
٢٧	نفس	٢٦٨	٥٧	صرح	١٨٢	١٢٩	نظر	١٢٩
٢٨	قل	٢٦٤	٥٨	سبل	١٨١	١٢٩	لعل	١٢٩
٢٩	نزل	٢٦٣	٥٩	يتبع	١٧٤	١٢٩	سأل	١٢٩
٣٠	ذكر	٢٦٢	٦٠	قتل	١٧٠	١٢٨	عظم	١٢٨

تابع جدول رقم (٧)

الترتيب	أحد مشتقات الحفر	مرات الورود	الترتيب	أحد مشتقات الحفر	مرات الورود	الترتيب	أحد مشتقات الحفر	مرات الورود
٩١	خلف	١٢٧	١٢٤	سبح	٩٢	١٥٧	حرف	٧١
٩٢	أغل	١٢٧	١٢٥	سعد	٩٢	١٥٨	يهي	٧١
٩٣	دحل	١٢٦	١٢٦	ليل	٩٢	١٥٩	وكيل	٧٠
٩٤	سرف	١٢٤	١٢٧	ليس	٨٩	١٦٠	تعالى	٧٠
٩٥	صلاة	١٢٤	١٢٨	شيطان	٨٨	١٦١	منع	٧٠
٩٦	يشى	١٢٣	١٢٩	قرأ	٨٨	١٦٢	سكن	٦٩
٩٧	يرزق	١٢٣	١٣٠	تاب	٨٧	١٦٣	طن	٦٩
٩٨	عريز	١٢٠	١٣١	حالفين	٨٧	١٦٤	واحد	٦٨
٩٩	يضي	١٢٠	١٣٢	مال	٨٦	١٦٥	ظلك	٦٨
١٠٠	أسم	١١٩	١٣٣	أحد	٨٥	١٦٦	يثت	٦٧
١٠١	يخزي	١١٨	١٣٤	بحر	٨٤	١٦٧	كسا	٦٧
١٠٢	أبو	١١٧	١٣٥	ألم	٨٣	١٦٨	جبر	٦٦
١٠٣	بر	١١٣	١٣٦	حرم	٨٣	١٦٩	يتحرى	٦٦
١٠٤	نقى	١١١	١٣٧	سوى	٨٣	١٧٠	غسر	٦٥
١٠٥	سحب	١٠٩	١٣٨	كيف	٨٣	١٧١	عين	٦٥
١٠٦	أكل	١٠٩	١٣٩	ذبح	٨١	١٧٢	حرى	٦٤
١٠٧	أجر	١٠٨	١٤٠	عقب	٨٠	١٧٣	حل	٦٤
١٠٨	محل	١٠٨	١٤١	عرص	٧٩	١٧٤	يتل	٦٣
١٠٩	وسد	١٠٧	١٤٢	وصى	٧٨	١٧٥	حد	٦٣
١١٠	عفو	١٠٦	١٤٣	رد	٧٨	١٧٦	دوق	٦٣
١١١	ربح	١٠٤	١٤٤	طلع	٧٧	١٧٧	سحر	٦٣
١١٢	مقل	١٠٤	١٤٥	حهم	٧٧	١٧٨	نقى	٦٣
١١٣	سمر	١٠٣	١٤٦	بشبه	٧٧	١٧٩	سام	٦٣
١١٤	أفنى	١٠٢	١٤٧	ظليل	٧٦	١٨٠	زبد	٦٢
١١٥	تشديد	١٠٢	١٤٨	شكر	٧٥	١٨١	مس	٦١
١١٦	ولد	١٠٢	١٤٩	كلم	٧٥	١٨٢	ملا	٦٠
١١٧	دين	١٠١	١٥٠	صر	٧٤	١٨٣	د	٦٠
١١٨	الانسان	٩٧	١٥١	مأسى	٧٣	١٨٤	غيب	٦٠
١١٩	مصحف	٩٧	١٥٢	بيت	٧٣	١٨٥	فتن	٦٠
١٢٠	أسو	٩٦	١٥٣	رحل	٧٣	١٨٦	أخرى	٦٠
١٢١	يحي	٩٦	١٥٤	رمى	٧٣	١٨٧	ركاة	٥٩
١٢٢	قريب	٩٦	١٥٥	عنى	٧٣	١٨٨	ظفر	٥٩
١٢٣	سب	٩٥	١٥٦	غرق	٧٢	١٨٩	السام	٥٩

جدول رقم (٨)  
عدد مرات ورود لفظ « الله » في سور القرآن الكريم

السورة	العدد	السورة	العدد	السورة	العدد	السورة	العدد
١ الفاتحة	٢	٣٠ الزمر	٢٤	٥٩ الحشر	٣٦	٨٨ العنكبوت	١
٢ البقرة	٢٨٩	٣٦ لقمان	٣٢	٦٠ المتحة	٢٩	٨٩ النحر	-
٣ آل عمران	٢١٥	٣٢ السجدة	١	٦١ الصفا	١٧	٩٠ البلد	-
٤ النساء	٢٣١	٣٣ الاحزاب	٩٠	٦٢ الجمعة	١٢	٩١ النمل	٢
٥ المائدة	١٥٦	٣٤ مآ	٨	٦٣ المنافقون	١٤	٩٢ الليل	-
٦ الاحزاب	٩٣	٣٥ فاطر	٣٧	٦٤ التافس	٢١	٩٣ الضحى	-
٧ الاحزاب	٧٠	٣٦ يس	٥	٦٥ الطلاق	٢٥	٩٤ النجم	-
٨ الاعمال	٨٩	٣٧ الصافات	٢٠	٦٦ التحريم	١٣	٩٥ التين	١
٩ التوبة	١٧٢	٣٨ من	٧	٦٧ الملك	٣	٩٦ العلق	١
١٠ يونس	٦٣	٣٩ الزمر	٦١	٦٨ القلم	-	٩٧ القدر	-
١١ هود	٤٥	٤٠ غافر	٥٧	٦٩ الحاقة	١	٩٨ البقرة	٣
١٢ يوسف	٤٤	٤١ فصلت	١٣	٧٠ المسارج	١	٩٩ الزلزلة	-
١٣ الزمر	٣٥	٤٢ التورى	٣٢	٧١ نوح	٨	١٠٠ العاديات	-
١٤ ابراهيم	٣٨	٤٣ الزمر	٧	٧٢ الجن	١٠	١٠١ الفارقة	-
١٥ الحجر	٣	٤٤ النحل	٤	٧٣ الزمر	٨	١٠٢ الزكائر	-
١٦ النحل	٨٩	٤٥ الحاقة	١٩	٧٤ الدتر	٣	١٠٣ العصر	-
١٧ الاسراء	١٣	٤٦ الاحقاف	١٨	٧٥ القيامة	-	١٠٤ الحرة	١
١٨ الكهف	٢٠	٤٧ محمد	٢٨	٧٦ الاسمان	٥	١٠٥ الفيل	-
١٩ مريم	١٠	٤٨ الفتح	٣٩	٧٧ المراتل	-	١٠٦ قريش	-
٢٠ طه	١٣	٤٩ المحارث	٢٧	٧٨ التبا	-	١٠٧ الماعون	-
٢١ الاسماء	٢٠	٥٠ ق	٢	٧٩ البارعات	١	١٠٨ الكثر	-
٢٢ الملح	٧٧	٥١ الفاربات	٤	٨٠ عس	-	١٠٩ الكافرون	-
٢٣ المؤمنون	١٩	٥٢ الطور	٤	٨١ التكويز	١	١١٠ النصر	٢
٢٤ النور	٨٠	٥٣ الحم	٦	٨٢ الانتظار	-	١١١ السند	-
٢٥ الفرقان	١٢	٥٤ القمر	-	٨٣ المظهم	١	١١٢ الاخلاص	٢
٢٦ الشعراء	١٥	٥٥ الرحمن	-	٨٤ الاشفاق	١	١١٣ الفلق	-
٢٧ النمل	٢٣	٥٦ الواقعة	-	٨٥ البروج	٣	١١٤ الباس	١
٢٨ القصص	٣٤	٥٧ الحديد	٣٢	٨٦ الطارق	-		
٢٩ المسكوت	٤٤	٥٨ الحاقة	٤٠	٨٧ الأمل	١		

الحشر - ٣١ - ١٠,٦%

التوبة - ١٧٢ - ١٠,٢%

الاحزاب - ٩٠ - ٩,٩%

الفتح - ٣٩ - ٩,٦%

الحج - ٧٧ - ٩,١%

النور - ٨٠ - ٩,١%

آل عمران - ٢١٥ - ٩,١%

النساء - ٢٣١ - ٩,١%

ولا يفوتنا ان ننوه بأنه من بين سور القرآن الكريم فان الجذر « اله » قد ورد في ٨٦ سورة ولم يرد في ٢٨ سورة منها ٢٢ سورة من الجزء الاخير في القرآن وهو الجزء الذي يحتوي على قصار السور.

كما انه بقسمة عدد الفاظ القرآن وهو ٥٩٩٠٠ على عدد مرات ورود الجذر « اله » وهو ٢٨٥١ لنتج العدد ١٨ . وهذا معناه ان كل ١٨ لفظ من الفاظ القرآن يرد بينها الجذر « اله » مرة واحدة وهو جذر لفظ الجلالة « الله » سبحانه وتعالى .

#### العلاقة بين الحروف والحركات في القرآن الكريم :

العلاقة بين الحروف والحركات في اللغة العربية من الوجهة الاحصائية وما ينتج عنها لم تكن محل دراسة من قبل رغم اهميتها القصوى في دراسة بنية اللغة العربية . وكانت اول دراسة من هذا النوع هي التي اجريت على القرآن الكريم منذ عدة سنوات .

الحروف العربية معروفة ولكي نحدد ما نقصده علميا نقول « الاصوات العربية » هي ثمانية وعشرون صوتا بدءا بالهمزة حتى الياء . وليكن معلوما « ان صوت الواو هو ما نسمعه في « ولد - دلو » وصوت الياء هو ما نسمعه في « ظَنِي » .

أما الجركات العربية فهي ستة حركات ، ثلاثة منها قصيرة وهي الفتحة والضمّة والكسرة وثلاثة طويلة وهي الألف والواو والياء . ثم هناك « حركة » الوقف وهي السكون . وفي التمثيل الصوتي للحرف المشكل بشدة يعتبر هذا الحرف حرفان أولها حرف ساكن وثانيها مشكل بالحركة المصاحبة للشدة ، فعل سبيل المثال تمثل كلمة « رَبَّنَا » بمجموعة الاصوات « رَبِّ بَ نا » .

ونظرا لاعتمادنا على التمثيل الصوتي فان الدراسة يجب ان تتم على القرآن الكريم كما نسمعه وليس كما نكتبه

ويوضح شكل رقم (١) الطريقة الصوتية لتمثيل سورة الفاتحة . وفي هذا التمثيل تتبع طريقة قراءة حفص مع الوقوف على زوايا الآيات ( أي أن آخر حرف في كل آية يكون ساكناً ) وذلك كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل عند قراءة القرآن .

ولقد تم تطبيق هذه الطريقة على سورة البقرة وسورة الاعراف وقد اختيرت كل من هاتين السورتين لأنها من السور الطويلة ولأن كلا منهما تمثل نوعاً من السور ، فالأولى مدنية والثانية مكية . كما أضيفت إلى سورة الاعراف بعض قصار السور المكية من جزء « عم » .

وطريقة اعداد البيانات في هذه الدراسة لا تعتمد على كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، الكريم ولكن البيانات تؤخذ رأساً من كتاب الله الكريم وتكتب أولاً بالطريقة الصوتية كما في شكل رقم (١) ثم يعاد ادخالها الى ذاكرة الكمبيوتر على هيئة سلسلتين من المعلومات ، السلسلة الاولى عبارة عن الاصوات ( الحروف ) العربية والسلسلة الثانية عبارة عن الحركات المصاحبة لتلك الحروف بنفس الترتيب ، ويمكن تمثيل طريقة ادخال « بسم الله الرحمن الرحيم » على النحو التالي ( انظر شكل ١ ) :

بـاء سين ميم لام لام هاء راء راء حاء  
كسرة سكون كسرة سكون ألف كسرة سكون فتحة سكون  
ميم نون راء راء حاء ميم  
ألف كسرة سكون فتحة ياء سكون

وبعد اتمام ادخال البيانات الى ذاكرة الكمبيوتر تقوم البرامج المعدة مسبقاً باجراء العمليات الحسابية وغيرها للتوصل الى النتائج المرجوة .

يوضح الجدول رقم (٩) تردد الحركات في كل من العنيتين المتدنية ( سورة البقرة ) والمكية ( سورة الاعراف ) مع حساب النسب المئوية لكي تسهل المقارنة نظراً لاختلاف عدد الاصوات والحركات في كل من السورتين .

كما يوضح الجدول رقم (١٠) عدد الحركات المصاحبة لكل صوت ( حرف ) وكذلك السكون ، كما يوضح عدد مرات ورود كل حرف وورد كل حركة ، وذلك في سورة الاعراف ( العينة المكية ) .

وبالمثل يوضح الجدول رقم (١١) المعلومات المناظرة لجدول رقم (١٠) وذلك في سورة البقرة ( العينة المدنية ) .

ومن الجداول الثلاثة يمكننا استنباط النتائج الآتية :

(١) يوجد تطابق واضح في النسب المئوية للحركات في كل من العنيتين المكية والمدنية ( جدول رقم ٩ ) .

(٢) تستخدم الفتحة أكثر من غيرها من الحركات في تشكيل لغة القرآن الكريم وهي تتواجد بنسبة ٤٤٪ من الحركات ( مع عدم ادخال السكون في الحركات ) .

(٣) تلي الفتحة في قوة التردد الكسرة وهي بنسبة تقرب من ١٨٪ وتلي الكسرة الف المد بنسبة تقرب من ١٥٪ ثم الضمة بنسبة تقرب من ١٤٪ وفي آخر القائمة تأتي كل من الواو (٥٪) ثم الياء (٤٪) .

(٤) يجب ملاحظة انه على الرغم من ان الكسرة ترد أكثر من الضمة فان الكسرة الطويلة ( الياء ) ترد اقل من الضمة الطويلة ( الواو ) .

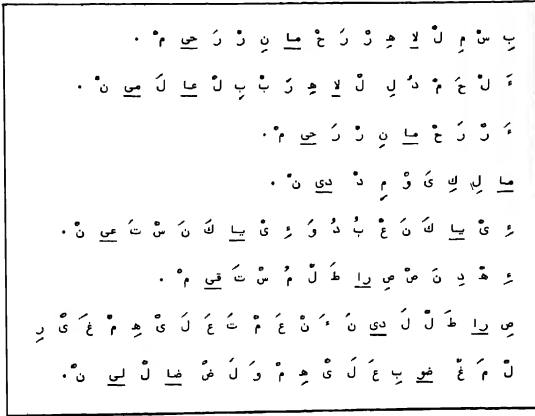
(٥) أكثر من ربع الاصوات ( الحروف ) تؤثر عليها السكون . والسبب في ارتفاع نسبة السكون هو وضع السكون على الحرف الأخير من كل آية .

(٦) تؤثر ٥٩٪ من مرات ورود السكون على ثلاثة حروف فقط وهي اللام والميم والنون . وهذه الظاهرة اللغوية على جانب كبير من الاهمية ويجب على اللغويين دراستها .

(٧) تشكل الفتحة ٢٣ حرفاً أكثر من غيرها من الحركات ، وهذه النتيجة تتفق مع كون نسبة الفتحة تمثل ٤٤٪ من الحركات ، ولكن على الرغم من ذلك فان خمسة حروف تشكل بحركات اخرى أكثر من الفتحة وهذه الحروف هي : ب - ذ - ظ - ك - هـ حيث تشكل الباء بالكسرة أكثر من آية حركة اخرى ، ويشكل حرف الذال بالياء أكثر من آية حركة اخرى ، بينما تشكل كل من ( ظ - ك - هـ ) بالضمة أكثر من آية حركة اخرى .

## شكل رقم (١)

التمثيل الصوتي لسورة الفاتحة



الحركات الطويلة تحتها خط



## جدول رقم (٩)

## تردد الحركات في لغة القرآن الكريم

الحركة	تردد العينة المكينة <sup>٢</sup>	النسبة المئوية	تردد العينة المدنية	النسبة المئوية	مجموع تردد العينتين	النسبة المئوية
الفتحة	٤١٦٦	%٤٤,٠٦	٧٣٠٩	%٤٣,٨٤	١١٤٧٥	%٤٣,٩٢
الكسرة	١٦٨٠	%١٧,٧٧	٢٩٦٩	%١٧,٨١	٤٦٤٩	%١٧,٧٩
الضمة	١٢١٧	%١٢,٨٧	٢٤١٦	%١٤,٤٩	٣٦٣٣	%١٣,٩٠
الألف	١٤٥٦	%١٥,٤٠	٢٤٠١	%١٤,٤٠	٣٨٥٧	%١٤,٧٦
الياء	٤١١	%٤,٣٥	٦٩٦	%٤,١٧	١١٠٧	%٤,٢٤
الواو	٥٢٦	%٥,٥٦	٨٨٢	%٥,٢٩	١٤٠٨	%٥,٣٩
المجموع	٩٤٥٦		١٦٦٧٣		٢٦١٢٩	
السكون	٣٣٧٣		٥٨٧٩		٩٢٥٢	
المجموع الكل	١٢٨٢٩		٢٢٥٥٢		٣٥٣٨١	

جدول رقم (١٠)  
عدد الحركات المصاحبة لكل حرف في العينة المكية ( سورة الاعراف )

الحرف	الفتحة	الكسرة	الضمة	الألف	الياء	الواو	السين	المجموع
ا	٤٠٣	٢٤٥	٦٦	٨٦	٦	٦	٦٨	٨٨٠
ب	١٤٣	٢١٣	٤٨	٢٨	٢٨	٢٨	١٢٥	٦١٣
ت	٣٦٩	١٢٤	١٠٧	٢١	١٢	١١	٨١	٦٢٥
ث	٢٣	٤	١٧	٣	٣	٣	١٢	٦٥
ج	٦٤	٢٢	١٥	٢٦	٣	٥	٣٤	١٦٩
ح	٧٦	٢٠	٧	١٧	١٦	٨	٤٢	١٨٦
خ	٥٧	١١	١٨	١٦	٤	—	٢٦	١٣٢
د	٥٩	٣١	٢٦	١٩	٢٢	٢١	٧٩	٢٨٣
ذ	٤٢	٢٢	٨	٥١	٦٧	١١	٥٦	٢٥٧
ر	٢١٣	٨٤	٥٠	٣١	٢٨	٢٦	١٦٠	٢٣١
ز	٢١	٨	١	٢	٥	—	٩	٤٦
س	١٠١	٥١	٢٥	٣٩	٣	١٨	١١١	٢٤٨
ش	٣٦	٨	٩	١٤	١	٣	٢٤	١٠٥
ص	٢١	١٧	٩	٢٢	٤	٢	٤١	١١٦
ض	٢٤	٢٣	٣	١	١	١	١٥	٦٨
ط	٢٥	٧	١	١٢	٦	٢	١٤	٦٧
ظ	١٠	٤	١٢	٧	٣	١	١٠	٤٨
ع	٢٢١	٣٢	٢٠	٢٠	٥	٢٣	٨١	٤١٢
غ	٢٣	٣	٦	١٢	١	٣	٢١	٦٩
ف	١٨٢	٦٢	٢٢	١٤	٤٣	١٠	٣٧	٣٧٠
ق	١٤١	٢٨	٤٣	٩٩	١٢	١٩	٢٧	٣٧٩
ك	١٥٥	٢٦	١٩٥	٥٣	١	١٨	٤٠	٤٨٨
ل	٥٢٨	١٧٤	٥٥	٣٦٠	١٧	٦٧	٥٦١	١٦٦٢
م	٢٠٤	٢٥٤	١٠٥	١٧٨	٣٦	٥٢	٥١٤	١٢٤٣
ن	٤١٣	٥٠	٤١	٢٢٧	٣٦	٥٤	٨٢٩	١٦٥٠
هـ	٤٣	١٢٤	٢٤٦	١٠٢	٤٢	٦٠	٢٢	٦٤٩
و	٤٥٣	٢	٢٦	٢٦	٣	١	١٤٥	٦٢٤
ي	٢١٧	٢٢	٥٨	٧٠	٣	٥	١٥٩	٥٢٤
المجموع	٤١٦٦	١٦٨٠	١٢١٧	١٤٥٦	٤١١	٥٢٦	٣٣٧٣	١١٨٢٩

## جدول رقم (١١)

عدد الحركات المصاحبة لكل حرف في العينة المدنية ( سورة البقرة )

الحرف	اللفظ	الكثرة	العصة	الألف	الياء	الراء	الساكن	المجموع
ا	٦٣٠	١٧٥	١٠٢	١٣٦	١٢	١١	٨٦	١٤٥٥
ب	٢٩١	٢٥٢	٧٢	٤١	٣٦	٢٥	١٧٦	١٨٨
ث	٥٢٦	٢٦٦	٢٨٦	٧٢	١٤	١٣	١٣٨	١٢٧٠
ج	٤٠	٢	٣٨	٩	٨	٢	٣٥	١٣٤
ح	٥٩	٢٨	٣٦	٣٠	٣	١٤	٥٥	٢١٥
خ	١٤٤	٢٨	٢٣	٣٦	٢٦	١١	٦٩	٣٢٢
د	٨٣	٣٢	١٤	٢٢	٢	—	٣٩	١١٢
ذ	١٢٠	٨٧	٦١	٣٥	٢٢	٦٣	١١٦	٥١٤
ر	٢٣	١٦	١١	٨٨	١١٤	٨	٦٤	٣٢٤
ز	٢٩١	١٤٢	٩٦	٨٠	٥٢	٨٩	٢٢٠	٩٧٠
س	٢٧	١٧	١٣	٦	١٠	١	٢٥	١١٩
ش	١٥٧	٩٢	٣٥	٣٩	٢	١١	١٤٤	٤٨٨
ص	٧٢	١٥	٦	٣٦	١	—	٦٨	١٨٩
ض	٤٥	١٨	١٠	٤١	١١	٢	٥٩	١٨٦
ط	٤٠	٢٨	١٥	١٥	١	٥	٣٦	١٤٠
ظ	٤١	٧	١٠	١٥	٧	٨	٢٢	١١٠
ع	١٢	٢	١١	١٤	٥	١	٢٠	٧٣
غ	٣٩٩	٦٧	٥٥	٢٢	١٦	٣٤	٢٠٤	٧٩٨
ف	٣٢	٢	٣	٨	١	٤	٢٤	٧٤
ق	٣٧٥	١٢٢	٦٤	٢١	٨٩	٢٦	٦٤	٧٦٢
ك	١٥٢	٥٦	٩٠	١١٠	٣٦	٦٩	٢٦	٥٧٩
ل	٢٥٢	٥٩	٣٥٧	٦٨	١٨	٢٣	٦٤	٨٤٩
م	٨٦٧	٣٠٥	٩٨	٦٥٥	٤٧	١٤٦	١٢٠١	٣٢٢٧
ن	٤٥٥	٣٩٢	٢٣٢	٣٢٠	٣٤	٩٥	٨٩٩	٢٤٢٩
هـ	٧٢٢	١٠١	٥٥	٢٢٧	٣٤	٨٥	١٤٠٨	٢٦٣٢
و	١٢٢	٢٤٦	٤٤٠	١١٧	٩٧	١٠٩	٤٩	١٢٠١
ز	٩٣٦	٥	١١	٧١	—	١	١٦٩	١١٩٦
ي	٢٤٤	٣٥	١٦٥	٩١	٨	١٠	٣٥١	١٠٠٤
المجموع	٧٢٠٩	٢٩٦١	٢٤١٦	٢٤٠١	٢٩٦	٨٨٢	٥٨٧٩	٢٢٥٥٢

### المراجع

- ١ - دراسة احصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكمبيوتر - دكتور علي حلمي موسى - جامعة الكويت ١٩٧٢ .
- ٢ - احصائيات جذور معجم لسان العرب باستخدام الكمبيوتر - دكتور علي حلمي موسى - جامعة الكويت ١٩٧٢ .
- ٣ - دراسة احصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر - دكتور علي حلمي موسى ودكتور عبد الصبور شاهين - جامعة الكويت ١٩٧٢ .
- ٤ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فزاد عبد الباقي - دار الشعب بالقاهرة .
- 5— Moussa, A.H., „Computer application to Arabic words in the Holy Quran”, *Proceedings of the Third European Meeting on Cybernetics and Systems Research*, R. Trappel(ed.), Hemisphere, pp. 482 - 490, 1976.
- 6— Moussa, A.H., „Computer application to the Holy Quran (Consonant-vowel relations)” *Proceedings of the Fifth European Meeting on Cybernetics and Systems Research*, Vienna, 1980; Abstracts of papers No. 298.

#### Computer application to Arabic words in the Holy Quran

Dr. Ali Helmy Moussa

Professor of Physics, King Abdul-Aziz University,

Jeddah, Saudi Arabia

Arabic words have been subject to computer work recently. Most of this work has been concerned with the determination of the frequency of letters in different positions of the word and the succession of letters in the roots of words.

The Arabic Alphabet consists of 28 letters, all of these act as consonants. There are 6 vowels in Arabic, three of these are short vowels and do not appear explicitly in the common Arabic writing, the other three are long vowels which appear explicitly in Arabic writing. Two of these long vowels are represented by letters (the last two in Arabic alphabet), and the third is represented by an extra letter : Alef.

The Arabic language is characterized by a 'Pause' action which does not appear in the common Arabic writing.

This article is concerned with computer application to Arabic words in the Holy Quran, and also to consonant-vowels relations in the Quran.

Our targets in this study are as follows :

- 1— A list of all words in the Quran arranged alphabetically, and their frequencies.
- 2— Selection of words starting with a certain letter.
- 3— Number of words in each 'Sourah', and the average 'Aayah' length.
- 4— The frequency of 3-letter roots in the Quran.
- 5— Types of 3-letter roots and comparison with those listed in Arabic 'Mojjams'.

#### 6— The distribution of vowels with consonants in Mecca and Madina samples of the Qoran.

In order to achieve the first five goals, it is essential that we have to feed into the memory of computer all words in the Qoran. Fortunately, the roots of the words (Verbs and nouns) in the Qoran are classified in a book named "Al-mojlam Al mofahras le-alfaz Al-Qoran Al-Karim" (Dictionary of the words of the Holy Qoran), edited by Mohammad Fouad Abdel-Baki, based on the original book by a German man named "Flogel" printed in 1842 under the name "Nojourn Al-Forkan fi Atraf Al-Qoran". One hundred years later, Abdel-Baki revised that book and published it in 1945.

Most of the data in that book had been fed into the computer, together with the appropriate programs.

For the sixth goal the input should be taken directly from the Qoran, after we write it down in the phonetical way. The method adopted depends on assigning the proper vowel for each consonant and writing both the consonant and vowel at the same position, but on different lines.

About one eighth of the Qoran has been used as a sample. A part of the sample (Sourah Al-Bakarah "The Cow") belongs to Madina, and the other part (Sourah Al-Airaf) belongs to Mecca. Thus, a comparison of the structure of the Madina and Mecca parts is included.

A computer program has been written for this goal. Results of these programs include the following :

- 1— The total number of words in the Qoran is 51900 words. Words starting with the letter 'Hamzah' occur more than words starting with other letters (frequency 8310 words), followed by the letter 'Qaf' (frequency 4086), then words starting with the letter 'Kaf' (frequency 3878), followed by the letter 'Ain' (frequency 3788), and so on.
- 2— It was found that more than half of the words of the Qoran (26021 words) start with one of the following six letters : Hamzah, Qaf, Kaf, Ain, Rai, and Noon.
- 3— There exist 38 names of Prophets, Angels, and famous people in the Qoran with total frequency 625.
- 4— Forty five types of words whose roots are composed of more than 3 letters exist in the Qoran with total frequency of 171.
- 5— Words of 3-letter roots are found to be 1633 in number, each with a different number of occurrence, summing up to total number of 51104, i.e. about 98.5% of the total number of words in the Qoran.
- 6— The ratio of the two types in items 4 and 5 is 45:1633 which is about 1:36, while the ratio of the total frequency of both is 171 : 51104 which is about 1 : 299. This shows that the 3-letter roots of words are the dominant roots in the Qoran.
- 7— The names of Angels and Prophets given in the Qoran are found to be as follows (classified in Arabic alphabet, followed by the occurrence number):

Ibrahim	(69)
Ahmad	( 1 )
Idris	( 2 )

Adam	(25)
Isheaq	(17)
Ismail	(12)
Ilias	( 2)
Il-Yassin	( 1)
Aliasai	( 2)
Ayoub	( 4)
Gebreal	( 3)
Daoud	(16)
Tha-Ikoff	( 2)
Zakaria	( 7)
Solaiman	(17)
Shoeb	(11)
Saleh	(11)
Ozair	( 1)
Eissa	(25)
Loutt	(27)
Mohammad	( 4)
Moussa	(136)
Mikal	( 1)
Nouh	(43)
Haroun	(20)
Houd	(10)
Yahia	( 5)
Yaiqoub	(16)
Youssof	(27)
Younos	( 4)

- 8— The Quran is known to be composed of 114 Sourah of different length. Each Sourah is divided into some Aayas, where the Aayah is composed of at least one nsentence. The average length of the Aayah in each Sourah is calculated in the form of number of words per Aayah.

The ten Sourah that have the longest Aayahs, are found to be as foolows (the number of words per Aayah is also given) :-

Sourah	Al-Talaq	: 17.25
„	Al-Momtahinah	: 17.15
„	Al-Ma-idah	: 15.68
„	Al-Tahreem	: 15.33
„	Al-Nisai	: 14.49
„	Al-Bakarah	: 14.16
„	Al-Fateh	: 14.07
„	Al-Mojadalah	: 14.05
„	Al-Hadeed	: 13.86
„	Al-Nour	: 13.73

- 9— It was found that the Mecca sample and Madina sample of the Holy Quran have identical patterns of the distribution of vowels with consonants.

- 10— It was found that the vowel 'Fatehah' (1) is used in Arabic language more than any other vowel.

The other vowels appear in the Arabic language in the following descending order :

,Kasrah'(2), ,Alef (long Fatehah)', 'Dhammah'(3) ,Waw (long Dhammah)' ,and' Yai (long kasrah)'.

- 11— About 26% of the data from the Qoran are operated on by the ,pause', and about 59% of the ,pause' operated on three letters only : ,L,M, and N". This is an important linguistic phenomena in Arabic that should be studied.

#### References :

- (1) MOUSSA, A.H., „Statistical study of Arabic roots in Mojiam Al-Sehah", Kuwait University, 1973 (In Arabic).
- (2) MOUSSA, A.H., „Statistical table of Arabic roots in Mojiam Lisan Al-Arab", Kuwait University, 1972 (in Arabic).
- (3) MOUSSA, A.H., and SHAHEEN, A.S., „Statistical study of Arabic roots in Mojiam Taj Al-arous" Kuwait University, 1973 (in Arabic).
- (4) MOUSSA, A.H., „Computer application to Arabic words in the Holy Qoran", Proceedings of the Third European Meeting on Cybernetics and Systems Research, R. Trappl (ed.), Hemisphere, pp. 482 - 490, 1976.
- (5) MOUSSA, A.H., „Computer application to the Holy Qoran (Consonant - vowel relations) Proceedings of the Fifth European Meeting on Cybernetics and Systems Research, Vienna, 1980; Abstracts of papers No. 298.

\*\*\*

- 
- (1) 'Fatehah, is similar to the vowel acting on the letter b in "but,,.
  - (2) 'Kasrah, is similar to the vowel acting on the letter b in "bed,,.
  - (3) 'Dhammah, is similar to the vowel acting on the letter t in "to,,.

## نبذة

عن التاريخ العلمي للدكتور علي حلي مرسى

- ✻ ولد بالاسكندرية عام ١٩٣٣م .
- ✻ حصل على بكالوريوس العلوم في الرياضيات من جامعة عين شمس في عام ١٩٥٣م . بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الاولى .
- ✻ حصل على الدكتوراه في الفيزياء النظرية من جامعة لندن في عام ١٩٥٨م .
- ✻ تدرج في وظائف هيئة التدريس بجامعة عين شمس وجامعة الكويت وجامعة الملك عبد العزيز بجدّة .
- ✻ يشغل حالياً وظيفة رئيس قسم الفيزياء بكلية العلوم بجامعة الملك عبد العزيز .
- ✻ حصل على جائزة الدولة التشجيعية عامي ١٩٦٤ ، ١٩٧٤م .
- ✻ حصل على زمالة معهد الفيزياء البريطاني عام ١٩٧٤م .
- ✻ نشرت له جامعة الكويت ثلاثة كتب عن استخدام الكمبيوتر في دراسة محتمات معاجم اللغة العربية .
- ✻ نشر عددا كبيرا من البحوث في الفيزياء النظرية في المجلات العالمية .
- ✻ نشر بحثا في مؤثرات اوروبية عن استخدام الكمبيوتر في دراسة الفاظ القرآن الكريم .

\*\*\*



### في أهمية الموضوع :

سير الانبياء واخبار المتنبئين من الموضوعات الهامة في تاريخ البشرية منذ نشأتها الأولى وحتى ايماننا هذه ، وذلك انها تمثل ضمير العالم ووجدان الانسانية في مقابل تاريخ الامراء ورجال الدول ، مما يمثل الشكل الظاهر للانسانية في صراعها الدائر خلال حياتها المعتادة .

وهكذا تمثل تاريخ العالم عند قدامى المؤرخين الاسلاميين على انه تاريخ الرسل والملوك كما نراه عند الطبري ، مما يعبر عن ان قصص الانبياء واخبار الملوك تمثل وجهين لعملة واحدة هي : تاريخ البشرية بماله من باطن وظاهر - حسب اصطلاح ابن خلدون . وهذا يعني ان تاريخ الانسانية يكاد ينقسم بالسوية بين تاريخ للناموس او الحكم الديني ، وتاريخ السياسة المدنية والملك السياسي ، في وقائعها المادية وامثولاتها المعنوية .

## الانبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام

سعد زغلول عبد الحميد

وقد يتساءل البعض ولماذا لا نفصل بين الانبياء وبين المتنبئين ، فالبون شامع بين الجد والهزل ، والمسافة واسعة بين الحق والباطل . وهذا صحيح ، فاذا كان الاصل اللغوي واحدا لكل من كلمتي « النبي » و « المتنبئ » ، مما سمح لبعض قدامى العلماء باستخدام الكلمتين بنفس المعنى مع الحاق الصفة المناسبة لمقتضى الحال ، مثل الصدوق او الكذب ، فمما لاشك فيه ان الفارق بعيد بين ما هو دارج من مفهوم النبوة ومفهوم التنبؤ .

والحقيقة ان هذه الثنائية في الموضوع ، اي ذلك التضاد او التقابل العكسي بين طرفيه ، لما يساعد على الفاء المزيد من الضوء على الجانب الايجابي منه ، مما تتمثل في النبوة دون التنبؤ . فمن المفهوم اننا لن نعرف معنى الخير اذا غاب عنا معنى الشر ، وبضدها تتميز الاشياء كما يقال ، والفلسفة الثنوية التي تفسر قيام العالم او اسباب الوجود على ذلك التقابل بين الخير والشر او بين النور والظلمة اي بين الفضيلة او الرذيلة ، قديمة قدم الانسانية منذ ايام آدم ابي الخليقة الاول الذي تنسب اليه اول خطيئة عصيان ادت الى خروجه من الجنة ، كذلك نسبت اول جريمة قتل في التاريخ الى ابنه قابيل في حق اخيه هابيل . ومن هنا ظهرت مقولة ان الانسان غطيء بطبعه وانه في حاجة الى معونة الهية تأخذ بيده وتقبله من عثراته ، اما اسباب الانحراف عن طريق الحق والصواب مما يتمثل في اتباع الاهواء فمرده الى غواية ابليس وتحريض الشياطين .

وهكذا تبدأ قصص الانبياء مع الانسانية وهي في طفولتها الاولى وذلك بغرض ارشاد بني ادم الى طريق الهداية ممثلا في : النواميس الالهية التي هي بحكم الضرورة : القوانين الطبيعية .

ونحب ان نسرع بالإشارة الى ان الموضوع صعب من جهة ، وبالغ الحساسية من جهة أخرى . فهو صعب من حيث انه يتناول اشياء جد مثيرة مما يتعلق بالوحي والرؤى والملائكة والشياطين والكرامات والمعجزات ، وهو حساس من حيث انه يتناول اشياء دقيقة جدا مما يتعلق بشخصيات عالمية كبرى هي موضوع التبجيل والتعظيم من قبل الجميع .

وبناء على ذلك نشر ابتداء الى اننا سوف نلتزم في عرض الموضوع بالرجوع الى الاصول المتعارف عليها في تراثنا العربي الاسلامي مما يوجد عند اصحاب السيرة النبوية مثل : ابن هشام وبرهان الدين الحلبي ( صاحب السيرة الحلبي ) او الكتب التاريخية مثل : الطبري واليعقوبي وابن خلدون ، وقبل ذلك ابن الاثير في تاريخه المعروف « بالكامل » - وهو الذي يتصف بالكمال حقا . هذا الى جانب النظر في بعض كتب تاريخ الادب مثل : الملل والنحل للشهرستاني ، وبعض كتب المتفلسفين مثل : رسائل اخوان الصفا .

والمادة الموجودة في تلك الكتب ذات اصول متنوعة من : دينية وقصصية ( فلكلورية ) وعلمية تاريخية ، والديني منها يتمثل في الآيات القرآنية والاسفار التوراتية والاناجيل المسيحية . والمادة التوراتية والانجيلية ، منها ما دخل في التراث الاسلامي منذ وقت مبكر مما يعرف بالاسرائيليات ، ومنها ما اخذ مباشرة من منابعه بعد نشاط حركة الترجمة ، اما القصص الشعبي فمئة ما يتعلق باخبار العرب القديمة وايامها قبل الاسلام ، الى جانب اساطير الفرس وخرافاتهم وحكايات عن الانبياء ظهرت اصلا كنوع من التفسير او التأويل للكتابات المقدسة ، مما عرفه المسلمون بتحريف اهل الكتاب للتوراة والانجيل - كما يرى ابن خلدون .

ويترتب على ذلك ان تصبح المادة التاريخية حقيقة قليلة نادرة ، وهي لن تعدى على كل حال محاولة تحديد الاطار الزمني لبعض الاحداث . وهكذا غلبت القصة او الرواية غير الحقيقية ان لم نقل الاسطورة الشعبية على كثير من اجزاء الموضوع . ولا ضير في ذلك طالما ان الامر يتعلق بقصص الانبياء حيث يمكن ان تختلف الروايات وتعارض الاخبار وهو ما يأخذ به صاحب السيرة الحلبية عندما يشير الى ما تجمع السير من الصحيح والسقم والضعف . ثم ينص بعد ذلك على ان الذي ذهب اليه كثير من اهل العلم : الترخص في الرقائق وما لا حكم فيه من اخبار المغازي وما يجري مجرى ذلك ، وانه يقبل منها لا يقبل في الحلال والحرام لعدم تعلق الاحكام بها<sup>(١)</sup> . وهكذا كان ما لا يجوز الاختلاف فيه - في نظر اصحاب علم الحديث ، وبالتالي يوجب التنقيب والتدقيق من اجل الوصول الى صحيح الخبر ، هو ما يخص حدود الشريعة ومعرفة الحلال والحرام .

وبناء على ذلك فلن يكون القصد من دراسة الانبياء والمنتبين هو تحديد الاطار التاريخي للموضوع بقدر ما سيكون محاولة معرفة نظرة الاسلام الكلية الى تسلسل الانبياء والمنتبين بطريقة تحمل في ثناياها فكرة وحدة العقائد والاديان ، فكأن الاسلام ليس دين التوحيد الالهي فحسب بل هو عقيدة وحدة الاديان على مر العصور ، وهي الفكرة التي تتمثل في اصول الاسلام الابراهيمية وفي ختام النبوة بالرسالة المحمدية .

### النبي والرسول والمنتبين في اللغة :

وكلمة النبي مشتقة من الفعل نبا او نبأ بمعنى اخبر ، ومنها النبأ بمعنى الخبر فكأن النبي هو المخبر بأوامر الله ونواهيه وعن هذا الطريق اصحبت الانبياء عند المفسرين هي الحجج « لأن الحجج انباء عن الله عز وجل والنبي ( النبي ) : المخبر عن الله ، عز وجل لأنه انبا عنه »<sup>(٢)</sup> . هذا كما رأى بعض المفسرين ان كلمة النبي يمكن ان تكون مشتقة « من النبوة والنباوة » وهي الارتفاع عن الارض اي انه اشرف على سائر الخلق « ورغم ما هو معروف من ان النبوة هي الرسالة وان نبي الله هو رسول الله فانهم يفرقون بين الرسول وبين النبي ، فيقولون « والرسول اخص من النبي لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا »<sup>(٣)</sup> .

فالرسول لغة تعني الرسالة ، يؤث ويذكر ، كما تعني المرسل<sup>(٤)</sup> والرسول هو : الذي يتابع اخبار الذي بعثه اخذنا من قولهم جاء الابل رسلا اي متتابعة . وهكذا تكون « محمد رسول الله » في الاذان

(١) انظر مقدمة السيرة الحلبية ، ج ١ ص ٢

(٢) لسان العرب ، نأ ، ج ١ ص ١٦٢

(٣) لسان العرب ، نأ ج ١ ص ١٦٣

(٤) لسان العرب ، رسل ح ، ١١ ص ٢٨٣

بمعنى ان محمدا متابع للاخبار عن الله عز وجل . ويصبح المعنى في التزليل العزيز حكاية عن موسى واخيه « فقولا انا رسول رب العالمين » بمعنى انا رسالة رب العالمين اي اننا ذوا رسالة رب العالمين . وبناء على ذلك تكون تسمية الرسول رسولا لانه ذورسول اي ذورسالة<sup>(٥)</sup> .

وهكذا تعني الرسالة النهوض ببلاغ معين بينما تعني النبوة الشرف الى جانب الاخبار عن الله عز وجل ، مما يكون بطريق الوحي . وبذلك تكون النبوة اشرف واعم من الرسالة ولذلك قالوا - كما سبقت الاشارة - ان الرسول اخص من النبي ، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا .

اما عن كلمة المتنبئ فهي مأخوذة من الفعل تنبأ كما يقال : تنبأ الرجل اي ادعى النبوة ، ومثليا يقال تنبأ مسيلمه بانبات الهمز الذي يترك في النبي . كما ينص على ذلك سيبويه هذا وان كان سيبويه في موضوع آخر يتكلم عن نبوة مسيلمه التي يصفها بأنها نبوة سوء ، محقرا شأنها في صيغة التصغير ، وبناء على ذلك امكن ان يقال ايضا تنبأ الكذاب ( بدون الهمز ) اذا ادعى النبوة ، كما تنبأ مسيلمه الكذاب وغيره من الدجالين المتنبئين<sup>(٦)</sup> .

ومع ذلك فرغم محاولة اللغويين جعل النبوة بمعنى الرفعة والشرف فقد ظل اصل اشتقاق النبوة والتنبئ واحدا ولا غرابة اذن اذا ما وجدنا عند اصحاب السير نصوصا قديمة تستخدم الفعل تنبأ بالنسبة للنبي ( صلعم ) بمعنى « مبعث » وفي ذلك ينسب الى عبد الله بن عمر انه قال « لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منعت الشياطين من خبر الساء ورموا بالشهب »<sup>(٧)</sup> وهكذا فلا بأس ان تكون التفرقة الصارمة التي نلتزم بها فيما بين النبوة والتنبئ وليدة العصور التالية لصدر الاسلام حيث وسم اشهر المتنبئين بالكذب ، كما وصفت تنبيه بأنه نبوة سوء صغيرة الشأن ، فلم يعد من الجائز استخدام النبوة وان وصفت بالسوء بالنسبة للمتنبئين ، كما نزهت شخصية الرسول عن التنبئ وان كان مخبرا عن الله عز وجل .

ومما نحب ان تسرع بالاشارة اليه ابتداء ، هو ان شخصية الرسول تطورت نحو السمو والرفعة في اعين المسلمين مع مرور الايام ، حتى اصبحت عند صوفية القرن السابع الهجري شخصية فوق مستوى البشر ، فالنبي الذي كان يناديه بعض اجلاف العرب من المسلمين الاوائل بـ « يا محمد » و« دوما » رعاية او تبجيل ، والذي سمح البعض لانفسهم بدعوته الى التزام العدل والانصاف في معاملته اياه عند قسمة الفاء ، اصبحت هو الشخصية المركزية في كل الوجود فنبوته كانت منذ ما وخلق الله الارض

(٥) لسان العرب ، ١١ ص ٢٨٤

(٦) لسان العرب با ، ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٣

(٧) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٠ (من طرد الشياطين من استراق السمع عند عبثه بكثرة تساقط النجوم) .

واستوى الى السماء فساوهم سبع سماوات وخلق العرش وكتب على سباق العرش : محمد رسول الله خاتم الانبياء<sup>(٨)</sup> وعلى نفس النسق يسوق صاحب كتاب شفاء الصدور حديثا قدسيا يقول : انه لولا النبي ( صلعم ) لما خلق الله سماء ولا ارضا ولا طولا ولا عرضا . وذلك كما قال الشاعر في مدحه ( صلعم ) :

لولا ما كان لا فُلُكُ ولا فُلُكُ  
كلا ولا بان تحريم وتحليل<sup>(٩)</sup>

### النبوة والعالم في تراثنا العربي الاسلامي :

وهكذا ارتبط تاريخ البشرية بتاريخ الانبياء والرسول ، وبالتالي بسيرة سيد الانبياء وخاتمهم محمد نبي الاسلام والمسلمين ، ونكتفي هنا بالاشارة الى ما ينص عليه اصحاب السيرة من ان آدم كما يكنى بأبي الخليفة ، يكنى ايضا بابي محمد<sup>(١٠)</sup> واسم محمد موجود في كل شيء في الجنة من القصور الى نحور الجور الى ورق آجام الجنة<sup>(١١)</sup> . وهكذا تبدأ سلسلة الانبياء بأبي محمد آدم وتنتهي بمحمد ابي القاسم .

اما عن عدد الانبياء فهو كبير قد لا يمكن حصره حسبا تشير الى ذلك اخبار التراث من : الآيات القرآنية والتفاسير والاحاديث النبوية وكتب التاريخ العام مما يبدأ ببدا الخليفة ويحدد عمر العالم وتاريخ الانسانية . ففي الآيات ( اشارات عامة الى الانبياء الذين بعثوا الى الامم مثل الآية التي تقول و نزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون<sup>(١٢)</sup> وكذلك ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت<sup>(١٣)</sup> وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاستلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون<sup>(١٤)</sup> ثم الآية التي تقول وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في اهلها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون<sup>(١٥)</sup> .

هذا الى جانب الآيات التي تحدد اسماء المعروفين من الانبياء كما في سورة القصص من اخبار موسى ( وفرعون ) وهرون ، وفي سورة العنكبوت من اخبار : نوح وابراهيم واسحق ويعقوب الى غير ذلك

(٨) السيرة الخليفة ( عن الرواة ) ج ١ ص ٢٢٠

(٩) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢١

(١٠) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٠

(١١) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢١

(١٢) سورة النمل ( ١٦ ) الآية ٢

(١٣) سورة النمل ( ١٦ ) الآية ٣٦

(١٤) سورة النمل ( ١٦ ) الآية ٤٣

(١٥) سورة القصص ( ٢٨ ) الآية ٥٩

من الآيات . وفي اجتهادات العلماء في احصاء عدد الانبياء قبل ان بين موسى وعيسى الف نبي<sup>(١٦)</sup> بمعنى ان هؤلاء هم انبياء بني اسرائيل وحدهم من دون سائر الامم وذلك على اعتبار ان عيسى هو آخر انبياء بني اسرائيل .

اما عن عمر العالم فاختلف قدامى المؤرخين فيه اختلافا بينا اذ تراوح ما بين ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) الف سنة بعدد درجات الفلك و٧ (سبعة) آلاف سنة بعدد ايام الاسبوع<sup>(١٧)</sup> . ورغم ان الرواية الاخيرة هي التي كانت دراجة بين كتاب المسلمين لانها توراثية اصلا ، اي من الاسرائيليات الاسلامية فانها لا تتفق مع تحديد اعمار الانبياء بمئات السنين<sup>(١٨)</sup> مما نرى اخذه بمفهوم رمزي حتى يمكن التوفيق بين العقل والشرع ، والرمز معروف في امور الدين ، وهو الذي يعبر عن باطنه ومكنون سره والسر والخفاء من مكالب الحياة في كثير من الاحيان ، اذ لو عرفت اسرار الحياة لبطل معناها وهانت على الناس .

ورغم العدد الكبير من الانبياء مما قد يصل الى مائة الف واكثر عند بعض الكتاب<sup>(١٩)</sup> فان الامر انتهى بتحديد عدد المهمين منهم بما لا يزيد كثيرا على اصابع اليد الواحدة . فالطبقة الاولى من كبار الانبياء تشتمل على ستة فقط هم : آدم ، ( ابو الخليفة الاول ) ونوح ( ابو الخليفة الثانية ) وابراهيم ( ابو الانبياء ) وموسى ( اول انبياء بني اسرائيل ) وعيسى ( آخر انبياء بني اسرائيل ) ثم محمد ( خاتم النبيين ) وتتلو تلك الطبقة الاولى من الانبياء طبقة ثانية يمكن ان نتحد في : داود ويعقوب ويوسف ثم ايوب<sup>(٢٠)</sup> هذا ، ويضاف الى هؤلاء طبقة ثالثة تتحد في نبين اثنين فقط هما : هود ( نبي عاد ) ثم صالح ( نبي ثمود )<sup>(٢١)</sup> .

وهنا باس من الاشارة الى ان مجموعات الانبياء ترجع في معظمها من الناحية العرقية الى بني اسرائيل ، فلا يشاركهم في هذا الامر من الامم سوى السريانيين الذين لهم اربعة انبياء فقط او خمسة ( كما يروي عن النبي ) وهم : آدم ، وشيت ، ونوح ، اخنوخ ( او ادريس ) وابراهيم<sup>(٢٢)</sup> ثم العرب ومنهم : هود ، وصالح ، واسماعيل ( وشعيب ) ثم محمد خاتم النبيين<sup>(٢٣)</sup> ولقد كانت نبوة هود في

(١٦) السيرة الخليفة ج ١ ص ٢٤

(١٧) السيرة الخليفة ج ١ ص ٢٣ وعن عقل العالم في ٧ (سبعة) ايام حسب اشعار التوراة ، انظر المعارف لابن قتيبة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ط ٢ ص ٦ - ٧

(١٨) ولي التعليل القرطبي لمصر العالم انظر ابن البرقي تاريخ خضر الدول ص ٦٧ - ٦٨ ( حيث يشير الى اختلاف اخبار اليهود في تحديد عمر العالم عند ظهور السيد المسيح مما دعا بعضهم الى ان يتناولوا اعمار الامم التي منها يوصف على تاريخ العالم فقصوا من عمر آدم الى ان ولد شيث مائة سنة وازادوها في عمره ... )

(١٩) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٢٦ حيث يذكر من وصف بين منه عن ابن عباس ان عدد الانبياء كان ١٢٤ الفا ( مائة الف واربعة وعشرين الفا ) وانظر البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٣٢٤ - ( حيث : ان الانبياء كثير والرسول منهم ٣١٣ رسولا )

(٢٠) انظر حنري ماسب ، الامم ، ترجمة بييج شيمان ، مجموعة زكي عليا ، منشورات عويدات بيروت باريس ص ١٤٢

(٢١) ابن الاثير ، التكميل ج ١ ص ٨٥ ، ٨٦

(٢٢) ابن الاثير التكميل ج ١ ص ٦٠ للمعارف لابن قتيبة ص ٢٦

(٢٣) المعقد القرطبي ، ج ٢ ص ٤٠٤ للمعارف لابن قتيبة ص ٢٦

عاد ، وصالح في ثمود موضوع جدل بين الرسول وبين اليهود الذين قالوا : انه لا ذكر لها ولا لقوميتها في التوراة ، وكان رد النبي على ذلك ويعلق ابن الاثير امرهم عند العرب في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم الخليل عليه السلام ويعلق ابن الاثير على ذلك قائلا : وليس انكارهم ذلك باعجب من انكارهم نبوة ابراهيم الخليل ورسالته ، وكذلك انكارهم المسيح عليه السلام<sup>(٢٤)</sup> ومن بين العرب توجد شخصية اختلفت الاخبار في شأن نبوتها من حيث التحديد الزمني الذي تراوح ما بين عصر ملك الطوائف من الفرس فيها بين فتح الاسكندر لايران وقيام الدولة الساسانية وبين الفترة السابقة على العصر النبوي مباشرة ، ذلك هو خالد بن سنان العبسي الذي قيل انه كان نبيا وكان من معجزاته ان نارا ظهرت بارض العرب فاقتنوا بها فكادوا يتمجسون فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسطها ففرقها وهو يقول في كلام مسجوع بدا بدا كل هدى مؤدى لأدخلها وهي تلظي ، ولأخرجن منها وثياي تندى<sup>(٢٥)</sup> . وبذلك يحقق خالد بن سنان معجزة اشبه بمعجزة ابراهيم الخليل اذ أطفئت النار وهو في وسطها . وفي خالد قيل ان النبي ( صلعم ) قال « ذلك نبي صنعني قومه » كما تضيف الرواية الى ذلك ان ابنة خالد بن سنان اتت النبي ( صلعم ) فأمنت به<sup>(٢٦)</sup> . وواضح من تلك الرواية انها تعبر عن كراهية العرب للمجوسية ونيران الفرس مما يمكن اعتباره نوعا من الروح القومية ضد شعبية الفرس هذا ، ولا بأس ان يكون خالد بن سنان هذا من كهان العرب ان لم يكن من متبنيهم قبيل العصر النبوي ، وذلك ان الرواية القصصية تضيف الى ما سبق انه عندما حضرته الوفاة طلب من اهله ان ينشوا قبره ، اذا ما ضرب القبر بعير ابتر بحافره ، حتى يجبرهم بما هو كائن . ولكن قومه لم يفعلوا ذلك خشية ان تسبهم العرب<sup>(٢٧)</sup> .

وهكذا تقتصر قوائم الانبياء في التراث العربي الاسلامي على انبياء بني اسرائيل ، الى جانب من ذكرناهم من السريانيين والعرب ، اما عن انبياء الفرس فهم موضع شك ، بينما انبياء الروم او اليونانيين فهم حكماء اولا وقبل كل شيء .

### انبياء الفرس وحكماء الروم :

وآدم ابو البشر ، الذي اشتق اسمه من اديم الارض لأن الله خلقه منه ، وهو اول الانبياء . ودينه

(٢٤) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٩٣ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ٢٤ حيث يفسر عدم ذكر عاد وثمود في التوراة بان سبال الاخبار في التوراة عن اولئك الأمم إنما هو من أن كان في عموم النسب ما بين موسى وأدم . وانظر الشهرستاني الملل والنحل ، ج ١ ص ٢١٢ حيث الاشارة الى ان اليهود اعتقدوا في الملك بي ابراهيم ( اساميل وليس النبوا ) ص ٢٢٩ ( حيث ان مصحف ابراهيم كانت شبهة كتاب )

(٢٥) ابن الاثير الكامل ص ٣٧

(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١ ص ٣٧٩ وقارن المعارف قديمة ص ٢٩ السيرة الخلية ١٠ ص ٣١ حيث الاشارة الى أن نبي آخر بعد خالد هو : حنظلة بن صفوان ( عم ) الذي ارسله الله لاصحاب الرس ( البثر ) بعد خالد بانه ستة وتلقى عجزه انه لم يمت بقر بعدة مستقلة وفي حنظلة قال ابن كثير انه كان قبل موسى كما اشار الى العنبر على قبره قرب مدينة نستر عند الفتح (

(٢٧) نفس المصدر السابق .

هو الاسلام ، ويقابله عند الفرس كيومرث<sup>(٢٨)</sup> . اما اول بني ادم فقد اعطى النبوة - اثر تحول تقريب الفرائين لله الى عبادة النار على يدي قابيل ، ثم الانحراف الى عبادة الاصنام - فهو اخنوخ بن يارد الذي يظن انه ادريس النبي ، والذي قابله عند اليونانيين هرمس الحكيم ( رسول الآلهة ) . فالى جانب النبوة التي اعطى اخنوخ اياها ، كان اول من خط بالقلم ، وسجل ثلاثين صحيفة انزلت عليه ، كما كان اول من نظر في علوم النجوم والحساب<sup>(٢٩)</sup> .

وواضح من قصة ادريس ان سبب ما عم في الارض من فساد هو خطيئة قابيل بقتل اخيه هابيل ، وهي الخطيئة التي كان على ولد قابيل ان يتحملوها . فادريس اول من جاهد في سبيل الله ، واول من سبى من ولد قابيل . وهو عندما دعا قومه الى طاعة الله ومعصية الشيطان طلب اليهم ايضا الا يلبسوا ولد قابيل فلم يقبلوا منه<sup>(٣٠)</sup> .

اما هرمس ( الذي يقابل النبي ادريس ) عند اليونانيين ، فهو واحد من « حكاية » ثلاثة ، هم : اوراني ، وعابيديون ، وهرمس . واليونانيون المقصودون هنا هم الذين يقرن ويعترفون بخالق ، وهم الذين كانوا يسمون بالحنفاء ، رغم انهم على دين الصابئة ، كما يقول اليعقوبي في تاريخه . والمهم ان « الحكاية » الثلاثة اعتبروا من الانبياء ، وكان لهرمس ( وهو له في الأدب اليوناني ) مكانة خاصة ، اذ عرف بأنه « المثلث بالنعمة » ، كما عرف في التراث الاسلامي بأنه النبي ادريس .

ومقالة هرمس في الخالق ، عز وجل ، انه : « اما ان يعقل الله ، ففسر ، وان ينطق به فلا يمكن ، وان الله علة العلل ، المكون للعالم جملة واحدة »<sup>(٣١)</sup> .

ومعاصر ادريس النبي عند الفرس هو بيوراسب الذي ظهر على عهد الملك طهمورث ابن يونجهان بمعنى خير اهل الارض . وواضح من الرواية الاسطورية انه كان ثمة علاقة بين بيوراسب وطهمورث ، اشبه بعلاقة الانبياء والملوك عند بني اسرائيل ، بمعنى ان النبي هو المرشد او الناصح للملك . فبيوراسب هو الذي دعا الى ملة الصابئين ، فكانه نبيهم<sup>(٣٢)</sup> .

( ٢٨ ) ابن الاثير الكمال ج ١ ص ٢٧ ( عن ادم ) ص ٤ ( عن جومرث والانحراف من دين الاسلام ) وقرن ابن خلدون ، « العبرة » ج ٢ ص ٦٠ وانظر البغدادي للفرق بين الفرق ص ٣٤٢ ( حيث كيومرث ابو البشر بلقب بكنشاه )

( ٢٩ ) ابن الاثير الكمال ج ١ ص ٤٩ ( حيث الاسم حنوخ ) وقرن المعارف لابن قتيبة ص ١٠٠ وابن خلدون ج ٢ ص ٨ ( ٣٠ ) ابن الاثير الكمال ج ١ ص ٤٩

( ٣١ ) تاريخ الطبري ج ١ ص ١٤٧-١٤٨ وقرن رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ١٩ ( حيث الاشارة الى دخول هابيل عاد بن ليه الاثالة التي يجيئها القاطنون الى جانب المخرج من ظلمة اعرين والدخول الى اشراق انوار الريحون - اهل الشر والخير ) وانظر مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٤٣٨ ( حيث تنسب احكام النجوم التي يرمع فيها بطلحوس الى قدامى الانبياء مثل دانيال وادريس ) وانظر الشهرستاني الذي يعد هرمس من كبار الانبياء ( الملل ص ٤ ) - حيث هاديجون هو شبت ( وانظر بحث سيد حسن نصر عن « هرمس والافكار الهرمسية في العالم الاسلامي وذلك في دراسات اسلامية ، ط . بيروت الدار المتحدة للنشر ١٩٧٥ الفصل السادس ٦٢-٨٠ )

( ٣٢ ) ابن الاثير الكمال ج ١ ص ٦١ .



وإذا كان من المعروف ان الصابئة هم عباد الكواكب والنجوم ، فان وراء هذا الظاهر فلسفة باطنة عميقة ، تماما كما هو الحال بالنسبة لعبادة الأوثان . « فاصل مذهب الصابئين هو عبادة الروحانيين ، وهم الملائكة ، لتقريبهم الى الله زلفى ، فانهم اعترفوا بصانع العالم ، وانه حكيم قادر مقدس ، الا انهم قالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول الى معرفة جلاله ، وانما نتقرب اليه بالوسائط المقربة لديه ، وهم الروحانيون . وحيث لم يعانينا الروحانيين تقربوا اليهم بالهياكل ، وهي الكواكب السبعة السيارة . ولما كانت ( الكواكب ) تغيب نهارا ذهبت طائفة ( من الصابئين ) الى وضع الاصنام لتكون نصب اعينهم ليتوسلوا بها الى الهياكل ، والهياكل الى الروحانيين ، والروحانيين الى صانع العالم . فهذا كان اصل وضع الاصنام أولا » (٣٣) .

وهذا ما يقول به اخوان الصفا بمناسبة عبادة الاصنام (٣٤) ، وحيث يضيفون : ان ذلك « شبيه بما تفعله النصارى من اتخاذ تماثيل اشباه للسيد المسيح والسيدة مريم العذراء . هذا ، كما يفعل كثير من الناس ممن يتقربون الى الله بأنبيائه ورسله ، وبأئمتهم وأوصيائهم ، وبأوليائه الله وعباده الصالحين ... » .

وتنسب الرواية الى « نبي الصابئة » بيوراسب انه كان يستخدم السحر بفضل ما كان قد وقع عليه من كلام آدم . والظاهر ان الملك طهمورث استفاد من ذلك السحر ، حتى انه كان يستطيع ان يركب ابليس ، فيطوف عليه اداني الارض واقاصيها (٣٥) . هذا ، كما ينسب الى اخي طهمورث ، وهو الملك جمشيد بمعنى شعاع القمر الذي لقبوه به لجماله ، انه كان يستعيد الانس والجن ويذل الشياطين ويسخرهم في اعمال البناء والتشييد (٣٦) . فهو من هذا الوجه قرين سليمان . والمهم من كل ذلك انه عن طريق مذهب الصابئة ظهرت عبادة الاصنام في عهد الملك طهمورث ، وكذلك الصوم كان اول ما عرف في ملكه - وذلك لأسباب اقتصادية ، قبل ان يعتقدوه تقربا الى الله ، وتأتي به الشرائع (٣٧) .

وبسبب الكفر وعبادة الأوثان ظهرت الحاجة الى نبي جديد ، فكان ظهور نوح ، الذي يقابله عند الفرس افريدون الملك (٣٨) . ونوح أول نبي بعث بالانذار والدعاء الى التوحيد (٣٩) . وازاء فشل نوح

(٣٣) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٦٧

(٣٤) انظر احاديث الصفا ، ج ٣ ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ( حيث القول في عبادة الاصنام ان يدأت قديما عبادة الكواكب ثم الملائكة ثم اقبل التوسل بهم الى الله تعالى ولذلك ان الحكوة الاولى لما عرفوا بكهانة وعصاة ادعاهم للعلم صانعا حكما القوا له بالروحانية ، ووصعوه بالروحانية وثنا علموا ان له ملائكة هم صوعوه من حلقه . . . طلبوا عند ذلك الى الله القرية وتوسلوا اليه بهم وظنوا الزلفى لديه بالتعظيم ثم كما يعمل اسماء الدنيا ويطلون القرية الى ملوكهم بالتوسل اليهم بالقرب المختصين بهم وبعد الحكوة والقرية باتت . . .

حاج قوم احدثوا اصناما على مثل صورهم

(٣٥) ابن الأثير ج ١ ص ٦١

(٣٦) نفس المصدر ج ١ ص ٦٤ - ٦٥

(٣٧) نفس المصدر ج ١ ص ٦١

(٣٨) ابن خلدون - البربر ج ٢ ص ٦٠

(٣٩) (ص ابن عباس) انظر ابن الأثير ج ١ ص ٦٣

(عم) في تحذير قومه من عذاب الله ودعوتهم كي يرجعوا الى الحق ، والعمل بما امر الله تعالى ، كان على الانسانية الحاططة ان تنتهي ، فلا يبقى منها الا اهل التوبة والتوحيد . هكذا كان الطوفان فاصلا بين بني آدم ( ابي البشرية الاول ) وبني نوح ( ابي الخليفة الثاني ) . والى ابناء نوح الثلاثة وهم : سام وحام ويافث ، الذين نجوا معه في السفينة<sup>(٤٠)</sup> ، ما زال علماء النسب يقسمون البشر ، الى : ساميين وحاميين ويافثيين ( اي هند واوروبيين ) - وكأنه لم ينج من الطوفان الا اسرة نوح الصغيرة . وبناء على ذلك تبدأ بعد الطوفان دورة جديدة للانسانية ، كأنها بداية للعصور التاريخية .

ولقد نظر الفرس والهند الى حادثة الفيضان الكبير على انها كارثة طبيعية محلية ، ربما حلت بأرض بابل فقط ، والا فلو كانت عامة شاملة لكافة الارض المعمورة لعرف بها اهل بلادهم ، وسجلها مؤرخوهم<sup>(٤١)</sup> .

### الدورة الثانية في تاريخ النبوة :

ومع دورة الانسانية الثانية يبدأ تاريخ دورة نبوية جديدة . ونوح هو حلقة الربط بين الدورتين ، يتلوه نبياء العرب الشهيران : هود في قبائل عاد ، ثم صالح في قبائل ثمود . وقصة كل منهما تعبر عن طبيعة الحياة العربية على مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، كما انها تربط بين معتقدات العرب المحلية في صحراواتهم وبواديهم ، وبين تبجيلهم للحرم المكي الذي يمثل عامل الربط والتوحيد بين كل ديانات العرب قديما . وهي في النهاية تجعل من الكوارث الطبيعية عقابا حتميا من الله ينزله بالعصاة والفجار من الكافرين .

فسبب هلاك قبائل عاد ( في اليمن وحضرموت ) ، وزوال ملكهم وعثوهم في الارض ، كما تقول الآية : « واما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق ، وقالوا : من اشد منا قوة ؟ » الى جانب عدم انصياعهم لنبيهم هود ، واستمرارهم في عبادة اصنامهم ، ومنها : صداة ، ونعاء ، وصمود . وازاء اصرارهم على رفض دعوة هود ، بدأ العذاب ينزل عليهم بالقحط الذي توالى ثلاث سنين ، سموا السنة الاولى منها حجرة ، والثانية كحلا ، والثالثة كلكا<sup>(٤٢)</sup> .

وعندما ذهب وفد عاد الى البلد الحرام مكة يستسقون ويطلبون من الله الفرج ، نسبت الجماعة ما جاءت من اجله ، في غمرة كرم الضيافة ، فانصرفوا الى المأكل وشرب الخمر وسماع القيان . وهكذا

(٤٠) نفس المصدر ج ١ ص ٦٩

(٤١) تاريخ الطبري ج ١ ص ١٩٢ ابن الاثير ج ١ ص ٧٣ والمؤلف في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٣٨

(٤٢) حيد بن شربة كتاب المذنب واحبار المصنف ص ٣٢٥ - ٣٣١ وانظر الماروط لابن قتيبة ص ١٤

حق على القوم العذاب - الا من آمن منهم - فأتتهم الريح الصرصر العاتية « كأمثل الجبال لها لجم بأيدي رجال ، كان في وجوههم شهب النار » كما وصفتها « مهد » نائحة عاد ، التي صارت أول نائحة على الارض بذلك الوصف العجيب ولقد عبر الشاعر عن ذلك فقال :

رأت ما رأيت « مهد » فقبل لها ماذا ترين فقالت : انظر العجبا  
أرى رياحا كامشال الجبال لها لجم بأيدي رجال تشبه الشهبا  
وهكذا عصفت جبال الريح بجبابرة عاد فأهلكتهم طوال « سبع ليال » وثمانية أيام حسوما « وتركتهم »  
كأنهم أعجاز نخل خاوية ، كما تقول الآية الكريمة<sup>(٤٣)</sup> .

وتتميز نبوة صالح في ثمود ( في شمال الحجاز ) بمعجزة الناقة . ففي بعض الاعياد طلب الثموديون من صالح النبي ان يصنع لهم آية يعتبرون بها بأن يخرج لهم من بعض الصخور « ناقة حمراء شعراء وبراء مهيجرة . لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد ، تفور لنا سائغا »<sup>(٤٤)</sup> وهو الامر الطبيعي بالنسبة لمجتمع بدوي يعيش على نتاج الابل . وتتضح أهمية قصة الناقة بالنسبة الى تنظيم ذلك المجتمع البدوي ، من حيث قسمة الماء بين الدواب على أيام الاسبوع وكيف كان للابل طريق لورود الماء وطريق آخر تصدر منه بعد ان تمتلئ ، ثم صعودها على ظهر الوادي للري صيفا ، وهبوطها الى بطن الوادي شتاء . ومن كل ذلك يظهر كيف كان يمكن ان تصطدم مصالح الجماعات المختلفة .

وبسبب تضارب المصالح هذا انتهى الامر بعقر ناقة صالح ورمي صغيرها واقتسام لحمها . وكان من الطبيعي ان يدعو صالح عليهم وان يستجيب الله لدعائه ، ونزل العذاب بثمود خلال اربعة أيام وهو يختلف عن عذاب عاد من حيث امكانية ان يكون نوعا من الوباء . ففي اليوم الاول اصفرت وجوههم ، ثم انها احمرت في اليوم الثاني قبل ان تسود في اليوم الثالث ، واخيرا اتهم الصعقة في اليوم الرابع فقضت عليهم<sup>(٤٥)</sup> .

اما عن صالح النبي فانه سار الى الشام فنزل فلسطين قبل ان ينتقل الى مكة حيث اقام يعبد الله حتى مات ، وهو ابن ٥٨ ( ثمان وخمسين ) سنة بعد دعوة استمرت في قومه مدة عشرين سنة<sup>(٤٦)</sup> وهي مدة قريبة من المدة التي قضها محمد ( صلعم ) في الدعوة منذ مبعثه الى وفاته .

( ٤٣ ) سورة الحاقة الآية ٧ وانظر هيد بن شربة ص ٣٣٧ - ٣٤٥ وكتابتنا المار فقرة ص ١١٩ .

( ٤٤ ) هيد بن شربة ص ٣٧٢ .

( ٤٥ ) هيد بن شربة ص ٣٨٧ وانظر العارف لابن قتيبة ص ١٤ وكتابتنا في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١١١ - ١١٧ .

( ٤٦ ) انظر ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٩٣ .

وبذلك ارتبطت دعوة هود وصالح بالعروبية من جهة ويتقديس مكة من جهة أخرى ، وذلك قبل ان يأتي ابراهيم الخليل ( ابو الانبياء ) - حوالي سنة ( ٢٠٠٠ ق . م ) ليقم قواعد البيت ويدعو الناس الى الحج ، فيتم الربط بين الابراهيمية الخنيفية وبين المحمدية الاسلامية - وهي بعد فكرة في ضمير القدرة .

### ما بين الابراهيمية والمحمدية :

وتوثق الصلة بين الاسلام وبين الابراهيمية عن طريق اسماعيل ابي العرب المستعربة او المتعربة ، كما سيصبح ابراهيم ابا للعرب الباقية من العاربة ايضا عن طريق زوجة اسماعيل الجرهمية ، وعن طريق هاجر أم اسماعيل يصبح المصريون اخوالا للعرب . والمهم ان اسماعيل يصبح ثالث انبياء العرب ، وتؤكد في التراث الاسلامي القرابة القريبة بين الابراهيمية والمحمدية من حيث اعتبارهما دعوة واحدة ، وهو الامر الذي تنص عليه الآيات القرآنية - فابراهيم الخليل وهو يدعو الناس الى الايمان بالله ونبد عبادة الاصنام كان يدعو النبي صاحب رسالة التوحيد ، تماما كما بشر المسيح عيسى بن مريم به (٤٧) مما يعني ايضا استمرار الديانة الابراهيمية المحمدية عبر العيسوية الوسيطة .

وهنا قد يتطلب الامر نظرة عابرة في طبيعة كل من الدعوة الابراهيمية والدعوة المحمدية ، فمن حيث اوجه الشبه قامت كل منهما ضد عبادة الاصنام التي كان يصنعها آزر والد ابراهيم ، بينما كان يقوم بالاشراف عليها في الحرم المكي القرشيون من اقارب النبي . واذا كان ابراهيم قد كسر الاصنام يوم المهرجان خفية عن الناس وفي غيبة ابيه فان الرسول كان يكفيه ان يشير اليها يوم فتح مكة بعضا في يده لكي تسقط وتتحطم (٤٨) اما الرباط الذي لا ينقسم بين الديانتين فهو فريضة الحج التي اوصى بها ابراهيم عن طريق كبير الملائكة جبرائيل (٤٩) وتطلبت مناسك الحج ان يمتحن ابراهيم بعشر خصال - هي المعمول بها في الاسلام - لتظهر البدن ، خسة منها في الرأس وخسة في الجسد ، والخسة التي في الرأس هي : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق وفرق الشعر . والخسة التي في الجسد هي : تقليم الاظافر وحلق العانة والختان وتنف الابط وغسل اثر الغائط (٥٠) .

(٤٧) البلد القريذ ج ٤ ص ٢٥١

(٤٨) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥٢ وان هناك رواية اخرى تنص على ان الاصنام اعلنت وكسرت ١

(٤٩) ابن الاثير ج ١ ص ١٠٧

(٥٠) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ ويضيف ابن الاثير هنا الى ما يقال من ان هذه الكلمات التي اقبل لها ابراهيم هي مناسك الحج ما يذكر ايها من انها كانت ست خصال وهي التوكيب ، والقصر والشمس والتار والمجر والختان وقارن المعارف لابن قتيبة ص ١٥

أما عما انزل على ابراهيم من الاوامر الالهية فتمثلت في عشر صحائف كانت امثالا كلها ومنها :  
ايها الملك المسلط المبتي المغرور . اني لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها الى بعض ، ولكن بعثتك لترد عني  
دعوة المظلوم فاني لا اردها ولو كانت من الكافر .

- على العاقل ان لا يكون طاعنا الا في ثلاث : تزود لمعاده ، قرمة لمعاشه ، ولذة في غير محرم .  
- من حسب كلامه من عمله قل ( كلامه ) الافيأ بعينه .

هذا على المستوى الديني اما على المستوى الشخصي فبعد المطلب جد النبي يقف على قدم المساواة مع  
ابراهيم الخليل من حيث نذر ابنه عبد الله والد النبي للالهة ، وعن هذا الطريق سمي الرسول بأبي  
الذبيحين : عبد الله واسماعيل<sup>(٥١)</sup> - ولا بأس من الإشارة الى اختلاف الكتاب في الذبيح الاول الذي  
ربما كان اسحق بن ابراهيم الاصغر وليس اسماعيل<sup>(٥٢)</sup> اما عن اوجه الاختلاف الاساسية فتوجد على  
المستوى الشخصي من حيث ان نبوة ابراهيم قامت الى جانب الوحي والرؤيا الصادقة على المعجزة  
أخارقة المثلة في توقف النار عن ايداء ابراهيم ، فالملك النمرود عندما علم باستهزاء ابراهيم بأهنتهم  
وتكسيرة اياها بفأسه ، امر بجمع الحطب لحرق ابراهيم ، وعندما اشعلت النار وقذفوه فيها صارت  
بردا وسلاما عليه . اما كيف حدث ذلك فقد ظنت كل نار في الارض انها هي التي سيمتنح بها ابراهيم  
فاطفئت . ومن الواضح ان اطفاء النار هذا كان من حيث طبيعتها الحارقة فقط وليس من حيث توقدها  
واحمرار جمرها وتوهج السنة لهبها ، فذلك ما يفهم من بقية الرواية التي تقول ان الله بعث ملك الظل في  
صورة ابراهيم - اي في صورة قرينه او مثله - فقعد في النار الى جنبه يؤنسه<sup>(٥٣)</sup> .

ولا بأس من الإشارة هنا الى ان فعالية النار هنا اختلفت اساسيا عن فعاليتها في قربان هابيل  
وقابيل ، فبينما هي في القربان محرقة تلتهم ما يقدمه المرضى عنه كانت هنا باردة ناعمة بالنسبة لابراهيم  
وهذا ما يذكر بقصص نيران الفرس التي كان يلعب بها انبياءهم مثل زرادشت دون ان تؤذي او تؤذي  
من يتناولها منه كما تأتي الإشارة .

ويعتبر ابراهيم الخليل في نظر الكتاب وكأنه ابو تلك الدورة الثانية من الانبياء مثلما كان نوح ابا  
الخليقة الثاني بل ان ابن خلدون يجعله ابا ثالثا للانسانية بعد آدم ونوح<sup>(٥٤)</sup> - ولا بأس ان تكون تلك  
الفكرة قد تربت على اعتبار النسابة ان ابراهيم هو ابو العرب جميعا . ويظهر ذلك اصلا في قصة تبليل

(٥١) ابن الاثير للكمال ج ١ ص ١٠٨ السيرة الخلية ١٠ ص ٤٢

(٥٢) النظر تاريخ الجغوي ج ١ ص ٢٧ وقارن ابن الجبري تاريخ خضر الدول ص ١٤ (حيث الذبيح اسحق وعمره ١٩ سنة) .

(٥٣) ابن الاثير للكمال ج ١ ص ٩٦ - ٩٩

(٥٤) المعبر ١ ج ٢ ص ٣٤ ، وانظر ايضا ص ٣٩ (حيث النص على ان الله جعل في ذرية النبوة والكتاب الى آخر الدهر)

اللسن واختلاطها بكل من قصة نوح وإبراهيم . فبينما ينسب ذلك الى عهد نوح حيث وقع تبليل اللسن ، في موضع بابل حتى نسب اليها ، تشير الرواية هنا الى ان البلبلة كانت نتيجة الفزع الذي اصاب الناس عندما اخذ الله قواعد الصرح والبيان الذي كان اقامه النمرود ليصعد عليه في السماء فسقط وتكلم الناس بثلاث وسبعين لساناً<sup>(٥٥)</sup> .

والمهم ان ابراهيم اصبح ابا الانبياء ، اذ اتى بعده سلسلة منهم من ذرية ابنه اسحق وبناء على ذلك فعندما تأتي قصة شعيب النبي الذي ارسل الى اهل مدين ، ينص الكتاب على ما قيل من انه لم يكن من ولد ابراهيم<sup>(٥٦)</sup> . ومن هؤلاء الانبياء من كان يجمع بين الملك والنبوة او بين الحكم بمعنى القضاء والنبوة مثل : داود بن سليمان . ومنهم من تعرض لتجارب قاسية مثل : أيوب ويوسف .

وهنا لا بأس من الاشارة الى انه اذا كانت المعجزة المحمدية لا تتمثل الا في الوحي - اي في نزول القرآن - فان الروايات الشعبية الاسلامية لن ترضى لخاتم الانبياء الا بان تكون له معجزات غيره من الانبياء - وهو ما نشير اليه في مواضعه - انشاء الله .

### يوسف والاسلام :

وفي تجارب الانبياء يعتبر ايوب الذي امتحن بالفقر والمرض رمزا للفضيلة والصبر . اما يوسف فالى جانب تجسده لفضائل الحسن والجمال فانه يعتبر رمزا للعلم والحكمة . وعصية افتتان النساء به ، وهي القصة التي رفضها ( المتسددون من الحوارج على زعم انها لاترفع الى جديده المستوى المطلوب من القران <sup>(٥٧)</sup> ) ستخذها الصوفية فيما بعد نموذجاً لذلك النوع من الحب الألهي الذي يوحد بين العبد المحب والرب المحبوب الى درجة لا يفرق المحب فيها بين الالم واللذة ، حيث تصبح المحنة والتشور وشيئا واحداً <sup>(٥٨)</sup> وذلك قبل ان تصبح من العنصر المحببة الى قلوب العديد من شعراء الفرس والأتراك الذين اثروها بالكثير من التفاصيل <sup>(٥٩)</sup> . وهنا لا بأس من الاسارة الى ان قصة افتتان امرأة العزيز بيوسف يوجد لها نظير في الادب الفارسي القديم ، وهي قصة امرأة الملك كيكايوس التي هوت ابنه سياوخش وحاولت اغواؤه فدعته الى نفسها لكن الشاب الورع امتنع عن ذلك <sup>(٦٠)</sup> . وان كانت نهاية تلك القصة تختلف من حيث ذهاب سياوخش الى الحرب بدلا من ذهاب يوسف الى السجن .

(٥٥) انظر عبد بن شربة ، ٣١٥

(٥٦) ابن الاثير ج ١ ص ١٥٧

(٥٧) انظر هـ . ماسية الاسلام الترجمة العربية ص ١٨٩

(٥٨) انظر قاسم غني تاريخ التصوف الاسلامي الترجمة العربية لصداق نشأت القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٩

(٥٩) هـ . ماسية الاسلام الترجمة ١٨٩

(٦٠) انظر سياست باد نظام الملك الفصل ٤٣ ( عن نساء العصر اللاتي يعشن وراء الاسار ) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٤٥

اما عن ابتلاء يعقوب ( الذي هو اسرائيل ) في ابنه يوسف ثم بنيامين فبسبب انه « كان له بقرة لها عجول فذبح عجلوها بين يديها وهي تخور فلم يرحمها ، فابتلى بفقد اعز ولده عنده »<sup>(٦١)</sup> .

والهم بعد كل ذلك هو ان يوسف كان على دين الاسلام<sup>(٦٢)</sup> اي دين ابراهيم الحنيف . ولقد ظل بنو اسرائيل تحت يد الفراعنة بعد يوسف وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب واسحق وابراهيم شرعوا فيهم من الاسلام الى ان ظهر موسى واعطى الرسالة<sup>(٦٣)</sup> .

موسى والتوراة ( حوالي ١٣٠٠ ق م ) نبي عملاق يجعل من اليهودية اول ديانة سماوية :

والحقيقة ان شخصية النبي موسى تعتبر الشخصية المركزية بالنسبة لكل انبياء بني اسرائيل ، وهو من هذا الوجه يتميز بانه واضع الشريعة الاسرائيلية ، وكل من اق بعده من انبياء بني اسرائيل كانوا يهدفون الى تقويم تلك الشريعة مما يعرض لها من الانحراف ، وهي العملية التي يعرفها ابن الاثير بتجديد التوراة بمعنى احيائها<sup>(٦٤)</sup> وهي العملية التي جعلت من اليهودية الديانة السماوية الاولى والوحيدة طوال ما يزيد كثيرا عن الف عام .

وهكذا يظهر موسى في صورة عارمة ترفعه فوق مستوى المألوف من الناس والانبياء : والاسم « موسى » هو اسم مصري قديم يعني عند المختصين « المولود » ولكنه يعني في روايتنا التراثية : ماء ( مو ) وشجرا ( سا ) نسبة الى المكان من النيل الذي عثر عليه فيه وهو طفل رضيع<sup>(٦٥)</sup> وموسى الشاب يتمتع بقوة عضلية تمكنه من قتل الرجل من خصومه بوكزة واحدة . وهو يستطيع ان يرفع الصخرة العظيمة عن فوهة البئر ليسقي غنم ابنتي شعب النبي ، مما اثار اعجاب الفتاتين مع تقديرهما لمروءته . اما عصاه الشهيرة فقد اعطاه شعيب اياها لما وجده يستطيع حملها وكان شعيب لا يستطيع ذلك<sup>(٦٦)</sup> .

اما موسى النبي فمن الغريب ان يكون فظا غليظ القلب في بعض الاحيان . فهو يدعو على ابن عمه قارون ، ويتنزه فرصة ما يوحي الله به اليه من انه لا يستطيع ان يأمر الارض بما يشاء فيقول : يا ارض خلديهم ، وعندما تنخسف الارض بقارون واصحابه يرفض موسى الاستماع الى استرحام قارون حتى

( ٦١ ) ابن الاثير ج ١ ص ١٥٢ ( حيث يوجد رواية اخرى تقول ان سبب ابتلاء يعقوب انه فبح شاة قدام باباه مسكين فلم يطعمه وان الله اوحى له بذلك واحمله سبب ابتلاءه )

( ٦٢ ) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ١٥٤ .

( ٦٣ ) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٠ .

( ٦٤ ) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٠ .

( ٦٥ ) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٧٣ .

( ٦٦ ) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٧ .

يقول الله له : ما افطك ، اما وعزتي لو اياي نادى لاجبته ، ولا اعيد الارض تطيع احدا ابدا بعدك<sup>(٦٧)</sup> .

واكثر من هذا فان موسى النبي يظهر عصبيا حاد المزاج حتى وهو في اخريات ساعاته اذ لا يتورع عن مقاومة ملك الموت حين اتى ليقبض روحه بل ويضربه حتى يفتأ عينه<sup>(٦٨)</sup> ورغم ذلك فموسى من حيث المروءة على خلق عظيم . فهو عندما يلي دعوة شعيب يطلب من الصبية التي دعت ، وكانت تسير قدماه ان تسير خلفه وتدله على الطريق ويقول لها : « فانا اهل بيت لا ننظر في اعقاب النساء<sup>(٦٩)</sup> » وعندما احضر شعيب العشاء امتنع موسى من الاكل وقال له : « انا من اهل بيت لا تأخذ على اليسير من عمل الاخرة الدنيا بأسرها » . وهو لا يأكل الا بعد ان يعرف ان قرى الضيف كان من عادات شعيب وآله من قبل<sup>(٧٠)</sup> .

اما عن نبوته فتتميز بالتقريب القريب الذي حباه الله به ، والذي يتمثل في توجيه الكلام اليه مباشرة فضلا عن وساطة الملائكة . وهكذا عندما لم يقدح زند موسى رأى نارا من نور الله ممتدة من السماء الى شجرة عظيمة من العوسج . وعندما اقترب من الشجرة الخضراء المتوهجة باللهب استأخرت عنه ففرج ورجع . وهنا نودي : ان يورك من في النار ومن حولها يا موسى : « اني انا الله رب العالمين » وعندما هدا وتاب اليه عقله نودي « اخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى »<sup>(٧١)</sup> وعاد كليم الله موسى والناس لا يقدرّون على النظر اليه . وفي ذلك قيل انه بقي اربعين يوما لا يراه احد الا مات ، كما قيل ما رآه احد الا عمى ، حتى انه جعل على وجهه حريرة نحو اربعين يوما لم يكشفها لما تغشاه من النور ، او انه جعل على وجهه ورأسه برنسا لئلا يرى وجهه<sup>(٧٢)</sup> وهذا ما يذكرنا بمجنني اليمن « الاسود العنسي » الذي كان يلعب بذئ الحمار ( القناع ) لأنه كان معنّا متخمرا ( مقنعا ) ابدا . وفي تنبؤة تقول الرواية انه كان مشعبذا يريهم الاعاجيب<sup>(٧٣)</sup> وهذا ما يذكرنا ايضا بحركة النائر الخراساني هاشم المروي ( ١٥٩ - ١٦١هـ ) المشهور بالقتع ، في بلاد ما وراء النهرين على عهد الخليفة المهدي العباسي . اذ يقال ان الرجل كان يعتقد في فكرة التناسخ والحلول ، وانه رأى ان روح الله قد

(٦٧) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٦٨) ان الاية الكلام ج ١ ص ١٩٩ - ولا بأس ان تكون هذه الرواية ثانوية لان الاصلية تقول ان الملائكة احتاروا عليه لحرقوا قبرا ابدعاه اعجبه لعرضوه عليه فلما نزل فيه

قبض الله روحه - نفس المصدر ج ١ ص ١٩٨

(٦٩) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٦

(٧٠) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٧

(٧١) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٨ سورة القصص الآية ٣٠ وقرآن ابن العربي مختصر تاريخ الدول ص ١٧

(٧٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩٣

(٧٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٦ .



تقمصته ، وبناء على ذلك فقد كان يظهر امام الناس مرتديا قناعا منسوجا بخيوط الذهب لكي يبهير ابصار مشاهديه ، ويوهمهم في نفس الوقت انه لبس القناع حتى لا يبهروهم باشراف الانوار الالهية التي لا يطبقونها دون القناع . هذا ولوان خصوم المقتنع من المسلمين قالوا انه عمد الى لبس القناع لاختفاء عور كان في احدي عينيهِ . وعندما يش الرجل من شدة حصر العسكر العباسي له القى بنفسه في النار كما فعل اهله وخواصه الذين ماتوا محترقين وهم يعتقدون انهم يرتقون معه الى السماء<sup>(٧٤)</sup>

ولا بأس ان تكون تلك التفاصيل الخاصة بانهار الناس باشراف وجه موسى وما اتخذ من قناع حريرا او برنسا من نسج ، من نموذج القصص الشعبي الذي احاط بشخصية المقتنع ، والذي نجد له مثيلا قريبا قليل من ان اهل الاسكندرية ظلوا يضعون قطع الحرير الاسود على وجهم مدة ٧٠ (سبعين) سنة بعد ان بناها الاسكندر ، وذلك خشية على ابصارهم من ان يحفظها بياض الرخام الناصع<sup>(٧٥)</sup> ومثل ذلك ما قاله الفردوس في الشاهنامه في جمال الملكة سوزابه التي كانت تسير محجبة مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب<sup>(٧٦)</sup> .

اما عن النار التي راها موسى وتوهج شجرة العوسج الخضراء بالذهب ، فهي قرية مما هو معروف من هالات النور التي تحيط برووس القديسين ، او تلك الانوار التي تشع من وجوه الاولياء وهو الامر الذي ينقطعه علماء الفيزياء حاليا عندما يقررون ان المسألة خاصة بظاهرة طبيعية تظهر فوق قمم الجبال ، حيث خلوات العباد وصوامعهم ، وهي ترجع الى الكهرباء الجوية التي يمكن ان تأخذ شكل كهرباء مستقرة (استاتيكية) غير ضارة ، لأنها لا تسري كما يسري التيار الكهربائي المعتاد<sup>(٧٧)</sup> وعن كرامات موسى ومعجزاته العديدة فمنها كف مطر الطوفان ، وكشف الجراد ، والدبا اي القمل الذي اهلك الزرع ، وكذلك الضفادع ، ومنها كهف الدم الذي تحولت اليه مياه الفرعونيين طوال سبعة ايام ثم مسخ امواهم - ما عدا الخيل وجواهر زينتهم . حجارة من النخل والاطعمة والدقيق<sup>(٧٨)</sup> .

واذا كان ادخال اليد في الجيب ثم اخراجها بيضاء مثل الثلج لها نور ، واحدة من كرامات موسى المنصوص عليها في الآيات القرآنية فان كرامات عصا موسى العديدة تعتبر من الآيات الباهرة ايضا ، فعصا موسى التي كانت لها شعبتان وفي رأسها عجن<sup>(٧٩)</sup> لم يكن يتوكأ عليها ويش بها على غنمه ويحمل عليها الزود والسقا فقط ، بل كانت تضيء له في الليلة المظلمة ، واكثر من هذا كان اذا اشتهى فأكهه

(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٣٨ - ٣٩ ، ص ٥١ - ٥٢ (احداث سنة ١٥١ وسنة ١٦١ هـ)

(٧٥) انظر كتاب الاستبصار ص ٩٣ وهـ ٣ (من رواية ابن عبد الحكم) (٧٥ مكر) ولد ديورانت ، الفرقة ج ١٣ ص ٣٢٧ .

(٧٦) انظر عبد المحسن صالح - الانسان الحائر بين العلم والحرفة - سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٥ ص ١١٦ - ١١٩ .

(٧٧) ابن الاثير ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧ وانظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٣٥ وقرآن ابن البرقي مختصر تاريخ الدول ص ١٧ .

(٧٨) ابن الاثير ١ ص ١٧٧

غرسها في الأرض أيضا فنبئت لها اغصان تحمل الفاكهة لوقتها<sup>(٧٩)</sup> وكان التحدي الكبير الذي واجهته العصا عند لقاء موسى بجماعة السحرة وذلك عندما تحولت - بأذن الله - إلى حية تسعى أو ثعبان مبین ، كما تنص الآيات القرآنية<sup>(٨٠)</sup> وأخذت تبتلع عصي السحرة وجاهلهم إلى أن انتهى الأمر برئيس السحرة إلى أن قال : هذا ليس بسحر فخر ساجدا وتبعه السحرة اجمعون<sup>(٨١)</sup> . أما ما فعلته من فلق البحر عند ضرب موسى البحر بها فكان كل فرق كالطود العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق قبل أن يلتطم البحر على فروع وجيشه فيفرقهم<sup>(٨٢)</sup> . فكل كانت آية كبرى من الآيات العظيمة ، لا تعادها الا كرامة ضرب المحجن بها « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » لكل سبط عين<sup>(٨٣)</sup> .

أما الأمر المستغرب بالنسبة لكرامات موسى فهو مقدرة على احياء الموتى وكانه عيسى بن مريم ، وإن كان بأسلوب مختلف بعض الشيء ، وفي ذلك تقول الرواية أن رجلا قتل آخر وادعى أن غيره هو الذي قتله . وعندما عرض الأمر على موسى ليحكم فيه رأى أن يفهم الجاني الكذاب بشهادة المجني عليه نفسه ، وكانت وسيلة إلى ذلك أن ذبح بقرة صفراء فاقعة وضرب القتيل بلسانها « فحي » وقام وقال : قتلتني فلان . ثم مات<sup>(٨٤)</sup> .

وآخر كرامات موسى كانت بمناسبة فتحه لمدينة أرميا على الجبارين من الكنعانيين فبعد أن قاتل موسى خصومه طوال النهار « قاربت الشمس الغروب » وقد بقيت من الجبارين بقية ، فخشى موسى أن يدرکہم الليل فيعجزوه ، فدعا الله تعالى إلى أن يحبس عليهم الشمس ففعل وحبسها حتى استأصلهم ودخلها موسى فاقام بها ما شاء الله أن يقيم وقيضه الله إليه لا يعلم بقبه احد من الخلق<sup>(٨٥)</sup> وقصة حبس الشمس هذه موجودة في انشودة رولان ( La Chansun de Roland ) وهي من أناشيد شعراء التروبادور الفرنسيين في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتتعلق بغزو شرلمان لشمال الاندلس ضد المسلمين ( ١٦١ هـ / ٧٧٨ م ) فبعد أن فاجأ المسلمون ساقية جيش شرلمان في عمر الرونسفال في جبال البرانس اثر عودته من حصار مدينة سرقسطة الاسلامية تمكن شرلمان من التار لمقتل الكونت رولان . ولما كانت الشمس قد قاربت على الغروب كما تقول الملحمة الشعبية الفرنسية فان

(٧٩) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٩

(٨٠) سورة النمل (٢٧) الآية ١٠ سورة الاعراف (٧) الآية ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٨١) ابن الأثير ج ١ ص ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ .

(٨٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٨٣) تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٣٩ ( حيث الإشارة إلى خطاب الله على موسى لانه « يذكر اسمه قبل ضرب الحجر » ابن الأثير ج ١ ص ١٩٦ )

(٨٤) ابن الأثير ج ١ ص ١٩٤ وقارن البيهقي ج ١ ص ٤٠ - حيث كان الغرض من قبح البقرة الصغرى ، احراق لحمها وجعلها ثم استخدام رمادها في تطهير الماء الذي يستخدم في التطهير .

(٨٥) ابن الأثير ج ١ ص ٢٠٢ ، ابن خلدون ، العصر ، ج ٢ ص ٨٦ - ٨٧ .

شرلمان الذي قارنه بعض الكتاب الاوروبيين بسيدنا محمد من حيث نشر المسيحية في اوربا بين البرابرة الجرمان - دعا الله ان يوقف الشمس فوق الافق واستجاب الله لدعاء الملك القديس فلم تغب الشمس الا بعد ان حقق النصر الكامل على خصومه المسلمين<sup>(٨٦)</sup> هذا ولا بأس ان تكون كرامة شرلمان القديس صدى لكرامة موسى التي تنسبها رواية اخرى الى النبي يوشع الذي خلف موسى بعد ان كان من اعوانه<sup>(٨٧)</sup>.

### في الشريعة الموسوية :

اما عما اتى به موسى من الامر والنهي - وهما يعرف في العهد القديم بالوصايا العشر - فهو اشبه بالحدود الاسلامية . واذا كان ابن الاثير لا يذكر منها الا ثلاثة فقط فان اليعقوبي يذكرها من قبله - جميعا - كما يستطرد في تفصيلات الشريعة الموسوية بشكل يثير الاعجاب والوصايا العشر هي :

- ١ - اني انا الرب . . . لا يكون لك إله آخر دوني .
  - ٢ - تقمي على مبغضي ، ونعمي لمحبي .
  - ٣ - لا تحلف باسم الرب كذبا .
  - ٤ - اذكر يوم السبت لتطهره . . . سبت الرب اهلك لا تعمل فيه شيئا من الاعمال .
  - ٥ - اكرم اباك وامك لتطول ايامك في الارض .
  - ٦ - لا تقتل .
  - ٧ - لا تزني ( من زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة وان كانت له امرأة رجناه حتى يموت ) .
  - ٨ - لا تسرق ( من سرق قطعناه ) .
  - ٩ - لا تشهد على صاحبك شهادة كاذبة .
  - ١٠ - لا تشته بيت صاحبك ولا زوجة صاحبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من مال صاحبك<sup>(٨٧)</sup> .
- ومما اوحى الله به الى موسى : انت عبيد وانا الملك الديان لا تستذل الفقير ، ولا تغبط الغني بشيء يسير وكن عند ذكري خاشعا<sup>(٨٨)</sup>

(٨٦) انظر اشعرة رولان طبعة الملكة سيكيات الفرنسية .

(٨٧) انظر ابن الاثير ج ١ ص ٢٠٢ ( حيث الاشارة الى ان يوشع هو الذي ادركه الله ليلة السبت فدعا الله فزاد في النهار ساعة ففهم الجبارين ودخل مدينتهم وجمع خاتمهم لياخذها القرابان ) وانظر ابن حلدون ، العرج ٢ ص ٨٧ .

(٨٨) انظر تاريخ البطاركة ج ١ ص ٣٧ وفي بقية الوصايا انظر ص ٤١ وما بعدها وانظر العبري تاريخ مختصر الدول ص ١٨ ( ولقد ابن الاثير ج ١ ص ٢٠٥ حيث ذكر الوصايا رقم ٧ ، ٨ ( بين الاقواس ) لم ) من اقرب جلدناه أي قاذف المعصيات .

(٨٩) المقعد العرند ج ٣ ص ١٤٦ .

وهنا لا بأس من الإشارة الى ما يقارب ذلك مما يروي في باب ادب النبي ( صلعم ) لأمته حيث ينسب الى النبي انه قال : اوصاني ربي بتسع ، وانا اوصيكم بها : اوصاني بالاخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وان اعفو عن ظلمي ، واعطي من حرمني ، واصل من قطعني ، وان يكون صمتي فكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرا<sup>(٩٠)</sup> وهكذا تستمر التقاليد الخنيفية الابراهيمية حية بفضل سلسلة الانبياء حتى موسى قبل ان تعمل الدعوة المحمدية على تمجيدها او احيائها بشكل نهائي في الاسلام ، فكما كان لموسى الكليم وصياؤه العشر ، كان لمحمد الأمين وصياؤه التسع ، كما اراد العرف الاسلامي .

حول الرسالة الموسوية : فرق ما بين النبوة والتنبؤ والسحر والكهانة :

ارتبطت الدعوة الموسوية بوادي النيل كما ارتبطت قبلها بارض مصر من رسالة ابراهيم الذي عاش في مصر ردحا من الزمن وتزوج بهاجر ام اسماعيل ، ورسالة يوسف الذي قضى عمره في خدمة الادارة الفرعونية والذي دفن على ضفاف النيل واصبح تابوته فيها بعد ، شعار بني اسرائيل في الحروب ، ومن هنا يرى البعض ان الديانة المصرية القديمة التي عرفت البعث والحساب والعقوبة والثواب كان لها اثرها الذي لا ينكر في الديانات السماوية بشكل عام<sup>(٩١)</sup> وان تأثيرها المباشر يظهر في دعوة موسى الذي يمكن ان يكون اميرا مصرياً<sup>(٩٢)</sup> .

وبصرف النظر عن ماهية الديانة المصرية القديمة نجد ان فرعون مصر المؤله يمثل في قصة موسى اعلى درجات العتو والكفر والاستبداد ، الامر الذي يتطلب دعوة ترشده الى طريق الهداية والصواب فتكون رسالة موسى قبل نزول العذاب : عقوبة عادلة من الله لتحقيق بأهل الضلال . وعن هذا الطريق يتضح الفارق بين موازين الحق وبين بهتان حكومة الباطل ، ويتمثل ذلك في كرامات موسى الربانية ، مقابل ضلالات كهان فرعون السحرية .

واذا كان من المعروف لغويا ان اصل السحر هو صرف الشيء عن حقيقة الى غيره ، بمعنى انه كان رؤية الباطل في صورة الحق ، وهو ما نسميه بخداع البصر ، فمن المعروف ايضا ان السحري يعني كل ما لطف مأخذه وفق . وهكذا تراوح معنى السحر ما بين المدح والذم او ما بين الفضيلة والرذيلة ، وبناء على ذلك احتمل قول النبي ( صلعم ) : « من تعلم بابا من النجوم فقد تعلم بابا من السحر » ان يكون ذلك بمعنى مجرم ، كما قد يكون بمعنى فطنة وحكمة . ولقد ترتب على ذلك انه لم يكن من الغريب

( ٩٠ ) العهد الفريديح ٣ ص ٤١٧ .

( ٩١ ) انظر بسلر الحضارة العربية الترجمة من ٧٠٦ .

( ٩٢ ) انظر السامبون والغنام لحسن ظاغا

ان يعرف موسى النبي باسم « الساحر » وذلك كما في الآية التي تقول : « يا ايها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون » وذلك يعني ان الساحر عندهم - كما ينص ابن منظور - كان نعتا محمدا ، وان الساحر كان علما مرغوبا فيه . فتكون الكلمة قد قيلت على جهة التعظيم ، لأنه جاء بالمعجزات التي لم يعهدوا مثلها . وبناء على ذلك تكون كلمة الساحر - وقتئذ بمعنى « العالم »<sup>(٩٣)</sup> .

وفي قريب من هذا المعنى تنص رسائل اخوان الصفا على ان علم احكام النجوم ليس ادعاء الغيب ، لأن علم الغيب هو علم ما يكون بلا استدلال ولا علل ، ولا سبب من الاسباب ، وهذا ما لا يعلمه احد من الخلق ، كذلك لا منجم ولا كاهن ولا نبي ، ولا ملك من الملائكة ، الا الله عز وجل<sup>(٩٤)</sup> . اما ما يمكن ان يفعله الانسان فهو محاولة الاستدلال العقلي عما يمكن ان يتوقعه من الاحداث . وفي ذلك قبل عن عمرو بن العاص في تعريف العقل انه : الاصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد يكون - وهي نظرية قياس الحاضر بالماضي ، في النقد التاريخي عند ابن خلدون كذلك قيل عن عمر بن الخطاب : من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه ، وفي هذا المقام شهد علي بن ابي طالب لابن عباس بانه : كان لينظر الى الغيب من ستر رقيق<sup>(٩٥)</sup> .

وطرق الاستدلال على معرفة الماضي تختلف عن تلك التي يعرف بها الحاضر والمستقبل . فوسيلة الاستدلال على الماضي هي السماع والاخبار بما كان ، ووسيلة الحاضر هي : الاحساس لما هو موجود . اما عن الاستدلال على المستقبل فهو الطف وادق مما يتعلق بالماضي والحاضر ، ولذلك اختلفت وسائله الى عدة انواع ، تدرج فيها يمكن ان يشبه بسلم المعرفة : فمنها : النجوم ، والزجر والقال ، والكهانة ، والفكر ، والاعتبار ، وتأويل المنامات ، ثم الخواطر ، والوحي ، والالهام ، وهذا اجلها واشرفها فهو ليس باكتساب ، ولكن موهبة من الله<sup>(٩٦)</sup> .

وهكذا تتميز النبوة والرسالة بالوحي والالهام من قبل الله عز وجل ، ويصبح الوحي ذروة ما يمكن ان يصل اليه الانسان من المعرفة . وهذا ما يصل اليه الفارابي عندما ينطق المنامات والوحي بفضل انفراد القوة المتخيلة بنفسها عندما تتخل عن خدمة القوة الناطقة ( العقل ) والزوعية ( الشهوة )<sup>(٩٧)</sup> . ومن هنا اى الاختلاف بين النبي وبين المتنبي ، سواء كان ساحرا او منجيا او عرافا او كاهنا . فالنبوة موهبة وتكريم رباني ، بينما المتنبي حرفة من الحرف يحتاج الانسان فيها الى التعلم والنظر والفكر ، كما هو

(٩٣) انظر لسان العرب ( ساحر ) ج ٤ ص ٣٤٨ - ٣٤٩

(٩٤) رسائل اخوان الصفا دار صياد بيروت ج ١ ص ١٥٣

(٩٥) النقد القريب ، ط ، القاهرة ١٩٦٥ ج ٢ ص ٣٣

(٩٦) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٥٤

(٩٧) آراء أهل المدينة الفاضلة الفصل ٢٤ - ٢٥ .

الحال في الزجر والفأل وضرب الحصى وللكهانة وغيرها مما يلجأ اليه الناس لمعرفة ما هو حادث من خفيات الأمور . ولاشك ان ما هو حادث في المستقبل هو اهم ما شغل الناس منذ فجر الانسانية . وذلك ان الانسان بحكم طبيعته التأملية وما ينتابه من القلق غير راض تمام الرضا عن حاضره وهو لذلك آسف دائماً على الماضي يحلوه ومره . وهو أمل دائماً في المستقبل عسى ان يأتيه بما هو خير من الماضي والحاضر ، وهو كذلك دائماً وابداً ممزق بين الخوف والرجاء .

وترتبط على ذلك يمكن ان نفهم كيف ان مصير الانسان ونهاية العالم كانت من الموضوعات التي اثارت اهتمام الناس منذ القديم ، كما انها كانت الفكرة الاساسية التي ارتكزت عليها كل الديانات . فالدهريون او الطبيعيون لم يعتقدوا الا في عالم الحس والمادة الذي نعيشه ولم ينظروا الى ما وراءه ، بينما اعتقد الروحانيون في خلود النفس بعد فناء الجسد ، وعن هذا الطريق آمنوا بأشياء من الحلول والتناسخ ، اما الالهيون من اصحاب الديانات السماوية فانهم اعتقدوا في يوم الحساب وما يلحق به من العقوبة والثواب ، في نار الجحيم او فردوس النعيم .

والانبياء (عليهم السلام) ، وأولياؤهم هم المخبرون عن الآخرة ، المتصورون لها بقلوبهم ، والعارفون بحقيقتها بعقولهم . والمؤمنون هم المقرون بالآخرة بالسنتهم ، المصدقون الانبياء في اخبارهم ، المنتظرون لكشفها لهم<sup>(٩٨)</sup> . وهكذا يصبح علم البعث والقيامة هولب الالباب ، وسر لاولياء الله دون سواهم . وهذا ما يفسر زهد الاولياء وعباد الله الصالحين في الدنيا ، وكيف اصبحوا يتمنون الموت لما وعدهم الله من التحية والسلام حسياً تنص على ذلك الآيات<sup>(٩٩)</sup> . وذلك ان انفس المؤمنين - كما يرى اخوان الصفا - تنطلق الى ملكوت السموات<sup>(١٠٠)</sup> ، لأن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فاذا فارقت اجسادها كانت ملائكة بالفعل<sup>(١٠١)</sup> . اما انفس الكفار والفاسق والاشرار فانها تبقى في عماها وجهالاتها معذبة متألة الى يوم القيامة<sup>(١٠٢)</sup> ، والنفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالفعل تتوسس للنفوس الشيطانية بالقوة ، لتخرجها الى الفعل . وذلك كما قال الله تعالى : « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »<sup>(١٠٣)</sup> .

(٩٨) رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٩٩) نفس المصداق ٣ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(١٠٠) نفس المصداق ٣ ص ٢٨٩ .

(١٠١) نفس المصداق ٣ ص ٨١ .

(١٠٢) نفس المصداق ٣ ص ٢٩٠ .

(١٠٣) نفس المصداق ٣ ص ٨١ .

وفيما يتعلق بمعرفة المستقبل يقول اخوان الصفا انه : « ليس في معرفة الكائنات قبل كونها صلاح لكل واحد من الناس » ، بل على العكس من ذلك ، ففيها : « تنقيص للعيش واستجلاب للهم<sup>(١٠٤)</sup> » ، وهو الامر المقبول عندما يوزن المستقبل بميزان الحاضر الذي سوف يكونه ، كما سبقت الاشارة . اما عن اهتمام الحكماء بالنظر في علم المستقبل ، فكان هدف الترفي في درجات المعرفة الى ما هو اشرف منه واجل ، الا وهو : الوصول الى معرفة حقائق الموجودات ، مما يعني رؤية الدار الآخرة بعين اليقين ، وهو ما يترتب عليه الزهد في الدنيا ، وهو ان المصائب والملمات ، « فلا غم ، ولا جلع ، ولا حزن<sup>(١٠٥)</sup> » . وهو قريب مما يعانيه اهل الكشف والعرفان من اقطاب التصوف في حالة الدھول عن الالم واللذة بفضل المشاهدة<sup>(١٠٦)</sup> .

ولهذا نهى الفقهاء واصحاب الحديث واهل الورع عن النظر في علم النجوم ، ولأنه جزء من علم الفلسفة ايضا . وكان ذلك من اسباب كراهية النظر في علوم الفلسفة بالنسبة للاحداث والصبيان ، وكل من لم يتعلم علم الدين . « اما من قد تعلم علم الشريعة وعرف احكام الدين ، وتحقق امر الناموس فان نظره في علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيده في علم الدين تحققا<sup>(١٠٧)</sup> » .

وهكذا تميز السياسة النبوية عن غيرها من السياسات الملوكية والعامة ، من حيث كونها : معرفة كيفية وضع النواميس ( القوانين ) ، المرضية ، والسنن ( الاعراف ) الزكية بالاقتوايل الفصيحة ، ومداداة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة والآراء السخيفة . وبعد ذلك تأتي معرفة كيفية نقلها من تلك الاديان والعادات ، ومحو تلك الآراء عن ضمائرها بذكر عيوبها ، ونشر تزييفها قبل شفاثها بالرأي المرضي والعادات الجميلة . والى جانب ذلك يكون معرفة كيفية سياسة النفوس الشريرة عن طريق القمع والزجر . وكل ذلك مما يدخل في مهام الانبياء والرسل ، ويقع على عاتقهم بصفتهم مبشرين ومنذرين<sup>(١٠٨)</sup> .

والخلاصة ان المواهب الربانية التي يقصد بها هداية الحق نحو الخير والمعروف يأتي بها الانبياء بفضل ما يوحى به الله اليهم عن طريق الملائكة بينما ، الغوايات الشيطانية التي يقصد بها تضليل الناس نحو الشر والمنكر فتأتي بها الابالسة بفضل وسوستهم في الصدور وتغييرهم للنفوس . وكأننا نصل بذلك الى مبدأ التفرقة بين فكرة الخير التي تصبح حتمية ( جبرية ) اذلية وبين فكرة الشر التي تصبح بدورها ارادية

(١٠٤) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٥ .

(١٠٥) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٥ .

(١٠٦) قاسم غني - تاريخ الفلسفة في الاسلام ، الترجمة ص ٤٩ .

(١٠٧) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ١٥٧ .

(١٠٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٧٣ .

( قدريّة ) زائلة - وهي البشرى النهائية التي تزفها الاديان السماوية للانسانية ، والغاية الاخيرة النبوية .

### السياسة النبوية في واقع التجربة الانسانية :

ومن الواضح ان تلك السياسة النبوية التي يرسمها حكماء اخوان الصفا مستوحاة من سير الانبياء ، كما هي معروفة في التراث الاسلامي . فتوح كان عليه ان يحذر قومه من بأس الله ويدعوهم الى التوبة والرجوع الى الحق ، والعمل بما امر الله تعالى . ورغم خشونتهم معه وساءتهم اليه ، فانه كان يدعو لهم بالمغفرة ويلتمس لهم العذر في جهلهم . ولكنه عندما يش من هدايتهم دعا عليهم ، فقال : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا »<sup>(١٠٩)</sup> . والحياة الدنيا كما خبرها نوح ، ليست بشيء . فعندما حضرته الوفاة قيل له : كيف رأيت الدنيا ، قال : « كبيت له بابان دخلت من احد هما ، وخرجت من الآخر »<sup>(١١٠)</sup> .

وابراهيم الخليل يفر من بطش نمرود في بابل لكي يلقى عنت فرعون في مصر . وهو يضطر الى مدارة خصومه عن طريق الكذب الذي يمكن ان يكون نوعا من التقية ، وذلك عندما كسر الاصنام ، وعندما سأل فرعون عن زوجته الجميلة سارة . وفي ذلك ينسب الى النبي ( صلعم ) انه قال : « لم يكذب ابراهيم الا ثلاث مرات ، اثنتين في ذات الله ، قوله : « اني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله في سارة : « هي اخوتي »<sup>(١١١)</sup> . ومثل هذا ما ينسب الى ابراهيم في استخدام الرمز في كلامه ، عندما اوصى زوجة اسماعيل ابنة التي لم تحسن استقباله ، ان تطلب من زوجها ان يغير عتبة بابه ، فيفهم اسماعيل ذلك الرمز ويطلقها<sup>(١١٢)</sup> فكان الرمز هنا دوره الفصاحة والبيان . هذا ، كما تلقى ابراهيم اوامر ربه عن طريق الرؤيا الصادقة الى جانب الوحي والالهام - اشرف وسائل الاستدلال على الامور الخفية .

اما عن المعنى الرمزي للقاء ابراهيم في النار ، فهو الاستهانة بالجسد الفاني والتقدير للنفس الخالدة التي يكون بها الحلاق بالصالحين<sup>(١١٣)</sup> . هذا ، ولو انه توجد رواية اخرى تقول ان ابراهيم كان قد

(١٠٩) ابن الاثير ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ .

(١١٠) نفس المصدر ج ١ ص ٧٣ .

(١١١) نفس المصدر ج ١ ص ١٠١ وقرن ابن البري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٣ ( حيث الاشارة الى ان ابراهيم لم يكذب عندما قال عن سارة انها كانت ابنة عمه لانهم جداهما مكان ابيها ) .

(١١٢) ابن الاثير ج ١ ص ١٠٤ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٣٨ .

(١١٣) اخوان الصفا ج ٤ ص ٣٢ .



سأل ربه ان لا يفيض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت حتى ان الله ارسل اليه ملك الموت في صورة شيخ هرم لم يعد يعرف كيف يضع اللقمة في فمه ، رغم انه لا يكبره الا بستين مما جعل ابراهيم يتمنى الموت<sup>(١١٤)</sup> . وتمنى الموت هو رغبة المؤمنين حقا ، اذ سيكونون في الآخرة مع الانبياء والصدّيقين .

وفيا يتعلق بيوسف فاذا كان جماله فتنة للناظرين ، فان القاءه في الجب موقفا كثافته بعد ضربه من قبل اخوته ، ثم مكثه في السجن سبع سنين بأمر الملك ، يعني الاستهانة بذلك الجمال الجسدي . ففي هول السجن وعذابه كتب يوسف على بابه : « هذا قبر الاحياء ، وبيت الاحزان ، وتجربة الاصدقاء ، وشمانة الاعداء »<sup>(١١٥)</sup> . اما آيات يوسف ، الذي آتاه الله العلم والحكمة قبل النبوة وهو في سن ثلاث وثلاثين سنة ( عُمر السيد المسيح ) ، فهي الرؤية الصادقة في المنام ثم التقوى ، قبل تعبير الاحلام في الحبس ، واخيرا رد بصر ابيه يعقوب<sup>(١١٦)</sup> .

اما عما قيل من ان سبب ابتلاء يعقوب بفقد اعز ولده ، انه : كان له بقرة لها عجول فلذبح عجولها وهي تخور فلم يرحمها ، فهي تعني ان رسالة النبي قد تخرج من نطق التحنن على البشر لكي تشمل ايضا الرفق بالحيوان ، وهو الامر المقبول بالنسبة لصلاح الدنيا الذي يكون به صلاح الآخرة .

وفي معرض السياسة النبوية يتميز موسى بانه صاحب التوراة ، وواضع الشريعة الالهية التي جعلت من اليهودية اقدم ديانة سماوية . ولقد تعلم موسى على يدي الخضر ، وهو النبي المخلد منذ ايام ابراهيم لشربه من ماء نهر الحياة ، اشياء من علم الباطن . ولقد احاطت الرعاية الربانية بموسى منذ مولده ، من : الوحي الى امه بالقائه في اليم ، ولا تخاف عليه لانه سيكون من المرسلين . ولما كان من علامات التبيين الفصاحة وطلاقة اللسان ، وهو ما لم يكن في موسى ، فان الله شد ازره باخيه هارون الذي شاركه في الرسالة . وكان اول من آمن بموسى رجل كان على بقية من دين ابراهيم ( عم ) اسمه خربيل ، وعرف بلقب « مؤمن آل فرعون » . وهو الذي حذر موسى من طلب فرعون له ، بقوله : « ان الملا يأتمرون بك ليقتلوك » ، فاخرج ابي لك من الناصحين<sup>(١١٧)</sup> .

ورغم عنف موسى فان الله غفر له خطيئة قتل النفس لان القتل كان متعاديا في كفره ، لم يؤمن بالله ولولساعة واحدة . ثم ان موسى يظهر من المروعة والادب مع شعيب وبناته ما هو اهل للرسالة . اما

(١١٤) ابن الاثير ج ١ ص ١٢٤

(١١٥) نفس المصدر ج ١ ص ١٢٦ .

(١١٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٥ .

(١١٧) ابن الاثير ج ١ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ سورة القصص (٢٨) الآية ٢٠ .

تكليم الله له مباشرة دون وساطة جبريل ، فذلك كرامة اختص بها الله كلمه تفرد غيرها من الآيات . كتجويد الشجرة الخضراء بالنار ، وايضا يده من غير سوء ، او تحول عصاه الى ثعبان مبین .

ثم يأتي عرض موسى الايمان على فرعون الذي يصبر على غيه ، فينتقم من يؤمن برب موسى وهارون قتلا وصلبا واحرقا . واخيرا لم يكن بد من ان يدعو موسى على الفرعونيين ، وان يؤمن هارون على دعائه الذي يقول فيه : « ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » (١١٨) وكان خروج بني اسرائيل من مصر بعد ان استعاروا الكثير من حلى المصريين ، ثم غرق فرعون وجيشه في اليم .

وبعد الخروج تأتي مرحلة الوحي ونزول الكتاب . وكان على موسى ان يستعد لذلك بالصوم ثلاثين يوما ، وان يتطهر ويظهر ثيابه ، ثم يأتي الى جبل طور سيناء ليكلمه الله ويعطيه الكتاب . وكان ان اعطاه الألواح فيها الحلال والحرام والمواظ (١١٩) . ولما عاد موسى الى بني اسرائيل وجدهم قد انحرفوا الى عبادة العجل الذي صيغ من حل اهل مصر ، فألقى الألواح التي ذهب ستة اسابيعها ولم يبق منها الا السبع . وبعد ان انزل الله عقابه ببني اسرائيل الذين اقتتلوا فيما بينهم عاد وتاب عليهم . وفي البداية رفض بنو اسرائيل التوراة للثقال والشدة التي جاء بها ولم يقبلوها بها بعد التهديد بالوعد والوعيد (١٢٠) . وكان انحراف بني اسرائيل نحو عبادة الاوثان بعد موسى ، وتركهم عهد الله هو السبب في بعث الانبياء اليهم لتجديد ما نسوا من التوراة . وهكذا بعث اليهم النبي الياس عندما اتخذوا صنما يعبدونه يقال له بعل ، وجعل يدعوهم الى عبادة الله وهم لا يسمعون . ورغم دعاء الياس عليهم ، ونزل العذاب بهم ممثلا في انقطاع المطر لمدة ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والطيور والحوام والشجر ، فانهم ظلوا على غيهم بعد ان افرج الله فلم يؤمنوا . وانتهى الامر بياس الياس الذي طلب ان يقبضه الله « فكساه الله الریش ، والبسه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، فصار ملكا انسيا سماويا ارضيا » (١٢١) .

### الأنبياء والملوك من خلفاء موسى ( الى حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م ) :

وكانت تلك مقدمة لكي يمر بنو اسرائيل بفترة اضمحلال سياسي ، كان ولاه امورهم فيها ما بين القضاة والملوك والمتغلين . وخلال تلك الفترة ضاع منهم تابوت يوسف ، شعارهم في الحروب ، كما

( ١١٨ ) انظر ابن الاثير ج ١ ص ١٨١ - ١٨٢ سورة يونس الآية ٨٨ .

( ١١٩ ) ابن الاثير ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠ وقرآن ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ وقرآن ابن البرقي مختصر الدول ص ١٨ .

( ١٢٠ ) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢ ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ .

( ١٢١ ) ابن الاثير ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

اخذ منهم جالوت ملك الكنعانيين ، التوراة ، ولم تعد النبوة لبني اسرائيل الا بعد ان ثبت الملك فيهم<sup>(١٢٢)</sup> . وبذلك أصبحت سنة الله تعالى في بني اسرائيل انه اذا مُلِّك عليهم ملكا ارسل معه نبيا يرشده ويهديه الى احكام التوراة<sup>(١٢٣)</sup> . وهكذا آلت النبوة الى شمويل والملك الى طالوت .

وخلال لقاء الملك طالوت بملك الكنعانيين جالوت في تلك الوقعة التي تشبهها روايتنا الاسلامية بغزوة بدر بدأت تظهر مواهب داود التي وهبه الله اياها وهو صبي صغير فقذأته لا تصيب شيئا الا صرعته وهو يركب الاسد ويأخذ باذنيه ويسبح فتسبح معه الجبال . واخيرا تكلم الاحجار داود وتقول له : « خذنا يا داود تقتل بنا جالوت » ، وهو ما حدث فعلا عندما وقع الحجر من القذافة بين عيني جالوت<sup>(١٢٤)</sup> .

وجمع داود بين الملك والنبوة ، وانزل عليه كتاب جديد هو الزبور بمعنى الكتاب<sup>(١٢٥)</sup> ، وعرف داود برخامة الصوت فكانت له المزامير التي كان يرتلها ترتيلا . وهكذا شبه النبي ( صلعم ) صوت ابي موسى عندما اعجب به وهو يرتل القرآن ، فقال له : لقد اوتيت مزمارا من مزامير آل داود<sup>(١٢٦)</sup> . اما عن اجتهاده في اعمال الورع والعبادة ، من : البكاء وقيام الليل وصوم نصف الدهر فالظاهر انها كانت للتكفير عن خطيئته المشهورة التي ابتلاه الله بها عندما تخلص من اوريا الذي كان من ابطال رجاله طعما في زوجته الجميلة . وكان داود قد اعجب بحسن المرأة الفاتنة عندما شاهدها عارية وهي تغتسل ، وقرر ان يضيفها الى حريمه اللواتي بلغن تسعا وتسعين امرأة ، فأمر بارسال زوجها الى الحرب على ان يكون في طليعة الجيش ، وبذلك قتل الرجل وآلت الى داود زوجته الحسنة . والى ذلك تشير الآية الكريمة ، عن طريق الرمز ، عندما تقول : « ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة »<sup>(١٢٧)</sup> .

ويجمع سليمان ( حوالي ١٠٠٠ ق م ) النبوة والملك مثل ابيه داود وهو مشهود بتسخير الانس والجن والشياطين والطير والريح ، وعن هذا الطريق ينسب اليه عمار بيت المقدس وبناء الهيكل الذي ينسب ايضا الى داود - وان كان ابن الاثير يعرف انه من بناء ايليا اندريانوس الروماني<sup>(١٢٨)</sup> وعرف

( ١٢٢ ) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٧ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٨ حيث يسم تلك الفترة : « مدة الحكم ومدة النبوخ »

( ١٢٣ ) ابن الاثير ج ١ ص ٢١٣

( ١٢٤ ) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

( ١٢٥ ) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢١

( ١٢٦ ) المقد الفريد ج ٦ ص ٢٥ ، وعن ترتيل المزامير على طول الاسبوع ايام داود انظر ابن العبري تاريخ محضر الدول ص ٣٠ .

( ١٢٧ ) ابن الاثير ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٥ وانظر ابن العبري التاريخ ص ٣٠ ( حيث عدد نساء داود ٣ سوى امرأته اوريا ام سليمان ) .

( ١٢٨ ) نفس المصدر ج ١ ص ٣٢٥

سليمان بسداد الحكم ، والقضاء منذ ايام والده ، ولذلك اشتهر سليمان بالحكيم . اما ما يعمنا من قصته مع بلقيس ملكة العرب ، فيتلخص ان دعوته التي دعاها الى الدخول فيها هي الاسلام وفي ذلك تقول الآية ( رب اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان الله رب العالمين ) (١٢٩) .

وأخر ايات سليمان انه مات وهو قائم يصلي متوكئا على عضاه ، وكان هدفه من تلك الآية الا يعلم الجن موته حتى يعلم الناس ان الجن لا يعلمون الغيب (١٣٠)

ما بين النبوة في بني اسرائيل وبينها في بلاد فارس : من زرادشت الى بخت نصر ( قرن ٦ ق . م ) :

وعلى عهد خلفاء سليمان تتفاقم الاحداث وتستشري الذنوب في بني اسرائيل ، وكان الله يتجولز عنهم عطفًا عليهم ، فكان كلما ملك عليهم رجل بعث الله اليه نبيا يرشده ويوحى اليه ما يريد ، وهكذا لما آل الملك الى صديقه صارت النبوة الى شعيا ، وهو الذي بشر بعيسى ومحمد - عليهما السلام - ورغم وقوف شعيا الى جانب صديقه في مدافعة سنحارب ملك بابل ( نبوخذ نصر ) فان الامر انتهى بانتزاع بني اسرائيل على النبي شعيا . وبلغت القسوة بهم الى حد انه عندما فر منهم وتلقته شجرة انفلق له فدخلها ، لم يترددوا في وضع المنشار على الشجرة ونشرها حتى قطعوه في وسطها - استجابة لغواية الشيطان (١٣١) تماما كما سيحدث لذكرا ايام المسيح .

وبفضل العلاقات السياسية والحربية المتطورة بين بني اسرائيل في فلسطين وبين ملوك بابل وتينوى وفارس تتداخل تعاليم التوراة والزبور بتعاليم الفرس ، كما يحدث نوع من المزج بين اصحاب الديانات الشوية الفارسية وانبياء بني اسرائيل وملوكهم .

فزرادشت بني سقيم (١٣٢) هو صاحب الديانة الشوية التي عرفت باسمه ، فهي الزرادشتية احدى ديانات الفرس العريقة التي ظهرت على عهد الملك بشتاسب بن هراسب ، والمشهور عند المجوس ان اصل زرادشت من بلاد اذربيجان . في جنوب غرب بحر قزوين ، وفي ظهوره يقولون انه نزل على

( ١٢٩ ) سورة النمل ( ٢٧ ) الآية ٤٤ ابن الاثير ج ١ ص ١٢٩ - ٢٣٩ والظاهر ان هذا من ٢٣٨ - حيث النص على انه عندما اصطفى زوجته جدادة لنفسه بعد قتل نالدها الملك دعا الى الاسلام .

( ١٣٠ ) ابن الاثير ج ١ ص ٢٤٣ سورة سبأ ( ٣٤ ) الآية ١٤

( ١٣١ ) تفسير المصدر ج ١ ص ٢٥٥ - ٢٥٧

( ١٣٢ ) لا تعرف ان كان هناك لبس لدى ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٢٥٨ ) بين اسم والد زرادشت الذي تجده عند الشهر ستان في شكل يورب ( الملل والتعليل ج ١ ص ٢٣٦ ) وبين والد بوذا الذي يعرف باسم سنيا ( شعيا ) نسبة الى اسرته اوياسم سنيامول ( سنياموني ) بمعنى مرق سنيا ( الظفر كارل بلسمي - لاسعة اساتيون الترجمة ص ٥٨ ، ٩٢ ) الذي رعا تحول و الكامل ، اي سقيم .

الملك من سقف ابوانه ويده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه ، وكل من اخذها من يده لم تحرقه - مما يذكر بنار ابراهيم التي كانت بردا وسلاما عليه - ومن الواضح ان تلك هي الرواية الشعبية من قصة زرادشت التي تظهر في شكل آخر اقل طرافة وأكثر جدية .

فزرادشت ظهر على عهد الملك بشتاسب أو ( كشتاسب ) بن هراسب ، وهذا يعني ان ديانتهم ( الزرادشتية ) فارسية عريقة وهي من ديانات الثنوية التي تبنى وجود العالم على نوع من التوازن بين الخير والشر ، مما يرمز له بالنور والظلمة ويعرف زرادشت في الرواية الاسلامية بأنه نبي المجوس ، وربما كان وصفه بالنبوة سببا لذلك الربط بينه وبين انبياء بني اسرائيل . فتزعم تلك الرواية انه من اهل فلسطين وانه كان يخدم بعض تلامذة ارميا النبي قبل ان يغدر بمخدومه فيخونه ويهاجر الى اذربيجان حيث شرع بها دين المجوس .

ولقد صنف زرادشت كتابا زعم انه لغة سماوية خوطب بها ، اي انه وحي من الله تعالى وطاف به الارض ، وانه قصد الملك بشتاسب الذي اتبعه ودان بدينه . واصبح زرادشت بمثابة الناصح له او صاحب مشورته . وفي ذلك يقول الشهرستاني ان زرادشت عندما بلغ الثلاثين سنة بعثه الله تعالى نبيا ورسولا الى الخلق فدعا كشتاسب الملك فاجابه الى دينه وكان دينه : عبادة الله والكفر بالشيطان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث .

اما عن النور الذي يمثل الخير فهو « يزدان » واما الظلمة التي تمثل الشر فهي « اهرمن » وهما مبدأ موجودات العالم وجعلت التراكيب من امتزاجهما وحصلت الصور من التراكيب المختلفة . والباري تعالى خلق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند (١٣٣) ومن اجل مبدأ الخير والنور بني الملك بيوت النيران في البلاد ، واشعل من تلك النار التي اق بها زرادشت في بيوت النيران ، وفي ذلك زعموا ان النيران التي كانت في بيوت عبادتهم في العصر الاسلامي الوسيط كانت من تلك النار القديمة . وهي الرواية التي لا تتفق مع ما يرد في السيرة النبوية من ان النار التي كانت للمجوس اطفئت في جميع البيوت بمناسبة البعثة المحمدية او المولد النبوي (١٣٤) .

وكتاب زرادشت يعرف عند المجوس بالبستاه ( اوستا Avesta ) كما يعرف عند العوام حسب مقالة المسعودي بالزمزمة - اتاهم فيه بالوعد والوعيد والامر والنهي وغير ذلك ولا شك ان الرواية تتبالغ كثيرا عندما تقول انه كتب في ١٢ ( اثني عشر ) الف جلد تحظى به الكتب المقدسة عند الفرس قديما من عناية خاصة ، سواء في الكتابة بالذهب او التغليف المطعم بالجواهر ، او الحفظ في الخزانات الثمينة .

( ١٣٣ ) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

( ١٣٤ ) ابن الاثير ج ١ ص ٢٥٩ .

لقد شرح زرادشت كتابه وسمي ذلك الشرح «الزند» أي التفسير «زند اوستا»: تفسير البستاة ، ثم شرح الزند بكتاب سماه «بازند» أي تفسير التفسير<sup>(١٣٥)</sup> وإلى الزند اضيفت صفة زندي ، أي الذي ينحرف عن الاصل إلى التفسير في هذا الدين ، وحوارته العرب إلى زنديق كما يقول المسعودي<sup>(١٣٦)</sup> وصفة الزنديق التي كان يرمي بها التلمذة أي المانوية أو من يحوم حولهم من أهل التحرف أو الظرف من المسلمين . وعن البازندي أي تفسير التفسير يقول ابن الأثير إن فيه علوماً مختلفة مثل : الرياضيات ، واحكام النجوم والطب واخبار القرون الماضية ، وكتب الانبياء إلى غير ذلك - مما يذكرنا بموسوعة رسائل اخوان الصفا إذا صح ذلك وبفضل معرفة زرادشت بالنجوم أصبح هو الذي يعين طالع تسيير الجيوش ضد الترك ، وكان الظفر على الترك مما زاد في عظم شأنه لدى الفرس<sup>(١٣٧)</sup> .

والهم بعد ذلك أو قبله من وجهة النظر الإسلامية أنه جاء في كتاب زرادشت (تمسكوا بما جئتمكم به إلى أن يجئكم صاحب الحمل الأحمر يعني محمداً) صلعم<sup>(١٣٨)</sup> مما يكرس زرادشت كواحد في سلسلة الانبياء المبشرين بدعوة الإسلام المحمدية ، وبسبب ذلك تفسر تلك البغضاء التي - وقعت بين المجوس والعرب والتي ظهرت قبل الإسلام في غزو سابور ذي الاكتاف للعرب<sup>(١٣٩)</sup> كما ظهرت بعد الإسلام بشكل حاد في حركة التحرر الفارسية المعروفة باسم الشيعوية .

وبالمقارنة مع رواية الشهرستاني بصدد تلك البشرية نجد أن الذي أخبر به زرادشت في كتاب زند اوستا (تفسير البستاة) : أنه سيظهر آخر الزمان رجل اسمه «اشيزريكا» ومعناه الرجل العالم ، يزين العالم بالدين والعدل . . . ويرد السنن المغيرة ، وتنقاد له الملوك ، وتيسر له الأمور ، وينصبر الدين والحق<sup>(١٤٠)</sup> أما رواية ابن العبري فتقول أنه عرف الفرس بظهور السيد المسيح وأمرهم بحمل القرايين إليه<sup>(١٤١)</sup> .

وبعد زرادشت يأتي مزدك الذي وافقه في بعض ما جاء به فزاد ونقص ، وإن كانت دعوة مزدك تميزت بأنها حركة إصلاح اجتماعي تأخذ بالاتجاه الاشتراكي ، من : التسوية في الأموال والأموال بل وفي النساء كما يريد لها البعض ، حتى لا يكون لأحد على أحد فضل في شيء البتة . هذا كما نسب إليها

(١٣٥) انظر ابن ج ١ ص ٢٥٨ - ٢٦٠ .

(١٣٦) مروج الذهب / تحقيق يوسف أسعد دافر ، ١٣٨٥ / ١٩٦٥ دار الأندلس بيروت ج ١ ص ٢٧٥

(١٣٧) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(١٣٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٥٩ .

(١٣٩) نفس المصدر .

(١٤٠) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٩ .

(١٤١) مختصر تاريخ الدول ص ٤٩

تحريم ذبح الحيوان والاكتفاء في طعام الانسان بما تنبته الارض وما يتولد من الحيوان مما يمكن ان يكون من قواعد البوذية او المانوية .

والاهم من كل ذلك من وجهة النظر الاسلامية ما زعمه البعض من ان مزدك كان يدعو الى شرعية ابراهيم الخليل<sup>(١٤٢)</sup> فكأنما هو من المبشرين بدعوة نبينا محمد .

### بخت نصر وتداخل تاريخ النبوة والملكية الاسرائيلية بتاريخ بابل والعرب :

واعتبارا من غزو بخت نصر لبلاد الشام على عهد بهمن بن بشتاسب يتداخل تاريخ النبوة والملكية عند بني اسرائيل بتاريخ بابل ، وما ترويه كتب التاريخ من اسباب الغزوة وتخريب بيت المقدس مثل : نقض الصلح ، وقتل ملكهم او قتل رسل بهمن انما هي اسباب ظاهرية تفصيلية ، انما السبب الكلي الذي احدث هذه الاسباب الموجبة للانتقام من بني اسرائيل فهو « معصية الله تعالى ، ومخالفة اوامره » .

فعل عهد الملك يقو نياين يويا قيم كثرت الاحداث والمعاصي في بني اسرائيل ، فبعث الله اليهم ارميا النبي الذي ربما كان الخضر ( عم ) - والخضر عرفناه معلما لموسى من قبل . وازاء عدم مبالاتهم بالتحذير والانذار وتماذيه في الشر والمعصية قل نزول الوحي على اوميا وكان ذلك يعني اقتراب العقوبة والهلاك ، ولم تأت العقوبة على يدي بختنصر فقط بل ان الله ارسل ايضا صاعقة من السماء في بيت المقدس والتهب مكان القربان وخسف بسبعة ابواب من ابوابها<sup>(١٤٣)</sup> . وعاد بختنصر بعد تخريب بيت المقدس الى بابل ومعه سبائا بني اسرائيل وكان بين الصبيان الذين اختارهم : دانيال النبي ، وحنانيا ، وعزرايا وميشائيل ، وقرب بختنصر دانيال مما اثار حفيظة رجال الدولة الذين كادوا له حتى القي واصحابه في الاخدود مع الاسود التي لم تحذشهم فخرجوا سمالين ، وكان لوجود دانيا في بابل اثره في تعلم الملك كيرس التوراة ودخوله في اليهودية . وادت تلك الصلة الى ان اتخذ ملوك الفرس زوجات اسرائيليات فكانت ام بهمن من نسل بنيامين بن يعقوب ، كما كانت ام ابنه ساسان من نسل سليمان ابن داود<sup>(١٤٤)</sup> .

(١٤٢) ابن الاثير ج ١ ص ٤١٣ ، وعن مزدك انظر ايضا النهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(١٤٣) ابن الاثير ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٥ ، وانظر الماروف لابن قتيبة ص ٢٢ ( حيث النص على أن أرميا التلم في مصر بعد الغزوة ثم عاد الى ابلية المقدس ) وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٧ ( حيث الإشارة الى تقيو ارميا في مصر ثم عودته الى القدس قبل ان ينتهي امره بالرجم في الحجاز )

(١٤٤) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ وقارن تاريخ البقوش ج ١ ص ٦٥ ( حيث النص على انه كان ليمن سيامم نجحت نصر ( وهم ١٨ ألفا ) الفتي وان بختنصر تزوج امرأة اسرائيلية هي التي سالت ان يرد قوما الى بلدهم

وفي بهممن يقال انه كان متواضعا مرضيا تخرج كتبه : من عبد الله ، خادماً الله السائس لأمرهم ، ورغم ذلك فلبهممن قصة غريبة اذ يتزوج بابنته خاني وعندما تحمل بدارا الاول - الذي تصبح اخته واما في نفس الوقت يعقد التاج على دارا وهو حمل في بطن امه . ولما كانت خاني قد ملكت قبل مولد دارا فانها تخلصت منه وليدا في قصة اشبه بقصة ام موسى عندما القته في اليم ، فلقد وضعت الملكة خاني وليدها في تابوت مع جواهر واجرته في نهر الكركي منطقة اصطخر او في نهر بليخ ( جيحون ) حيث اخذه طحان ورباه ولم يظهر امر دارا الاول الا عندما شب واقرت خاني باساءتها هذه ، وتوجد رواية اخرى تقول إن خاني او دارا الاول حضنته حتى كبر فسلمت اليه الملك وعزلت نفسها<sup>(١٤٥)</sup> .

والمهم انه عن طريق تلك العلاقات الاسرية سمح كيرسن لبني اسرائيل بالعودة الى بيت المقدس ، وهناك ولي دانيال القضاء واصبح بمثابة المستشار بالنسبة للملك<sup>(١٤٦)</sup> ويرجع الفضل الى عزيرا - الذي كان مستجاب الدعاء - في تجديد التوراة التي كانت اخذت منهم واعدمت ، فلقد بكى عزيرا من اجل التوراة بكاء شديدا ، فأرسل الله اليه ملاكا طلب منه ان يعد نفسه لذلك بالصوم والتطهر ، مما يذكر باستعداد موسى لتقبل الاواح في طور سيناء . وعندما سقى الملاك عزيرا ماء في اليوم التالي لصومه تمثلت التوراة في صدره ، وهكذا رجع الى بني اسرائيل فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها وحدودها . ولقد بلغ حبهم لعزيرا بسبب ذلك حتى قالوا : عزيرا ابن الله<sup>(١٤٧)</sup> .

وكما كانت غزوة بختنصر لبني اسرائيل عقوبة انزلها الله بهم بسبب ما احدثوه من الاحداث والبدع ، ارادت الرواية ان يقوم بختنصر بغزو العرب عقوبة لهم على كفرهم وذلك بوحي من الله الى برخيا بن حنيا . وفي الوقت الذي اخذ فيه بختنصر تجار العرب في بلاده وبني لهم حبرا بالنجف وهو اول سكني العرب بالحيرة - اوحى الله الى برخيا وارميا يأمرهما بالمسير الى معد بن عدنان فيأخذاه ويحملاه الى حبران ، واعلمهما انه يخرج من نسله محمد ( صلعم ) الذي ينتم به الانبياء .

وهكذا حفظ الله معد بن عدنان اكراما لولده محمد . فبعد حملة بخت نصر على الحجاز خرج معد بصحبة الانبياء من حبران حتى اتي مكة ، فاقام اعلامها ، فحج وحج معه الانبياء وهناك تزوج من بنات بعض ولد الحارث بن مضااض الجرهمي فولدت له نزار بن معد - كما تريد الرواية<sup>(١٤٨)</sup> .



(١٤٥) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١٤٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٥ - ٢١٨ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٨ .

(١٤٧) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧١ وقارن لابن قتيبة ص ٢٢ (حيث النص على ان عزير كان ليا ثم ان الله هي اسمه من الانبياء فصار رسولا فقط

(١٤٨) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .



### المسيح آخر انبياء بني اسرائيل : ما بين عيسى وزكريا ويحيى :

أما عن غزو بني اسرائيل للمرة الثانية بمعرفة الروم زمن ملوك الطوائف فكان عقوبة لهم لما أحدثوه من الاحداث ، ولقتلهم يحيى ثم والده زكريا . فلقد رفع الله منهم النبوة قبل ان ينزل بهم الدال ، ثم كان اجلاء من بقي من بني اسرائيل بعد ارتفاع السيد المسيح .

وظهور المسيح عيسى بن مريم يعتبر علامة بارزة في تاريخ النبوة ، فالعيسوية هي الديانة السماوية الثانية ، بمعنى انها انت كحركة اصلاح للديانة اليهودية ، فعندما بعث الله عيسى رسولا. نسخ بعض احكام التوراة ، ومن ذلك انه حرم زواج بنت الاخ وهو الامر الذي دعا اليه يحيى بن زكريا الذي نبيء صغيرا فكان سببا في ذبحه بين يدي هيرودس الملك ظلما ، وظل دم يحيى يغلي دهرًا الى ان انتقم الله من الظالمين<sup>(١٤٩)</sup> .

اما عن زكريا الذي فر عندما علم بمقتل يحيى فكانت نهايته اشبه بتلك النهاية التي لقيها النبي شعبا من قبل ، فاثنا هربه من مطاردية مر بشجرة فنادته : هلم الي يا نبي الله وانشقت فدخلها فانقطعت عليه فشققوا الشجرة بالنشار بعد ان اوما ابليس اليهم بذلك . هذا وتوجد رواية اخرى تقول ان ابليس جاء الى مجلس بني اسرائيل فقتل زكريا بمريم وقال لهم : ما احبها غيره وهو الذي كان يدخل عليها ، فطلبوه فهرب ، وكان ما كان من دخوله الشجرة ونشرها<sup>(١٥٠)</sup> . وهناك رواية ثالثة تكتفي بالقول انهم ادركوه وقتلوه دون اشارة الى معجزة الشجرة<sup>(١٥١)</sup> .

ولما كانت الرواية الدارجة تحدد قتل يحيى بسنة ونصف السنة قبل رفع المسيح<sup>(١٥٢)</sup> فان هذا يعني معاصرة انبياء ثلاثة دفعة واحدة وهم : زكريا وابنه يحيى وعيسى بن مريم .

وزكريا بن برخيا هو زوج خالة السيدة مريم بنت عمران ، وهو من هذا الوجه قرين لعمران بن ماثان الذي كان من رؤس بني اسرائيل واجبارهم . وهذا ما دعاه الى ان يطلب برعاية مريم الطفلة عندما نذرنا امها لسدانة بيت المقدس وخدمته .

(١٤٩) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠١-٣٠٢ (هذا ويمكن ان يضال بحرم زواج الربية أي ابنة الزوجة كما تشير الى ذلك رواية اخرى) اما رواية العقيلي (ج ١ ص ٧١) فتص على ان مبرود كان ياتي امرأة اخيه فلها يحيى (من الجبل متى) .

(١٥٠) ابن الاثير ج ١ ص ٢٠٦ وقارن لابن قتيبة ص ٢٤

(١٥١) نفس المصدر ج ١ ص ٣١١ .

(١٥٢) ابنا الاثير ج ١ ص ٢٩٩-٣٠١ ص ٣٠٧- هذا كما توجد رواية اخرى تحفل يحيى معاصرا لآرذ شيرين بابل أي معاصر لبحث نصر (نفس المصدر ص ٣٠٢ ، ٣٠٦)

اما عن دلائل نبوة زكريا فمبها : دعاؤه الى الله في صلاح زوجته العاقر وطلب الذرية واستجابة دعوته وهو قائم يصلي في المذبح الذي لهم ، اذ اتاه جبرائيل في صورة رجل شاب ويشره بيحيى ، وكذلك سؤاله الكرامة من الله حيث تقول الآية : « قال : رب اجعل لي آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا » والرمز هو الاشارة فكان الله امسك لسانه عقوبة لسؤاله الآية<sup>(١٥٣)</sup> وآخر كرامات زكريا هي انشقاق الشجرة ودخوله في جذعها مما سبقت الاشارة اليه . وهنا لا بأس من التنويه الى ان ابن الاثير عندما يبدأ كلامه في ذكر المسيح عيسى بن مريم يضيف اليه يحيى بن زكريا وحده ويقول « جمعنا هذين الامرين العظيمين في هذه الترجمة لتعلق احدهما بالآخر »<sup>(١٥٤)</sup> وان كان في مقابل ذلك يربط بين قصتي كل من زكريا ومريم .

ومريم تعني بلغتهم « العبادة » وكانت اولى مواهبها رغبة الاحبار في ان تكون رعايتها من نصيب كل منهم وعدم قبولهم لرغبة زكريا زوج خالتها الا بعد ان اتفقوا على القرعة ، فرموا اقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في نهر جار - ربما كان الاردن - فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت اقلامهم ، وعندما كبرت مريم كان زكريا يجد في غرفتها ، التي بناها لها في المسجد والتي كان لا يرقى اليها الا بسلم ، فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، ولما سألتها عن ذلك قالت : هو من عند ربى ، وهكذا كانت الكرامات ترى على مريم العبادة وكانت اعظمها هي ولادة عيسى بغير ذكر نفحة من روح الله ، فكانه اول الانواع ، اي اول ما خلق الله مثل ادم - كما لو كان زرعاً بغير بذر ، او شجراً بغير غيث حسب سؤال يوسف النجار ورد مريم العذراء<sup>(١٥٥)</sup> .

وكان حمل يحيى بن زكريا هو الآخر آية اكرم الله بها امه العاقر واباه الشيخ الفاني ، وفي تبشير جبريل به الى زكريا تقول الآية « ان الله مبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله » ويعني مصدقا بعيسى بن مريم ، وهكذا كان يحيى اول من آمن بعيسى وصدقه ، بل انه وهو في بطن امه ، كان يسجد لعيسى الذي كان ايضا جنينا في بطن امه وذلك عندما تلقتي أمهما<sup>(١٥٦)</sup> .

اما عن يحيى الطفل فكان يتميز عن اترابه من الصبيان ، فهو لا يلعب معهم ، وهو يفضل اكل خبز

( ١٥٣ ) ابن الاثير ج ١ ص ٣٠٠ وقارن تاريخ البعلبكي ج ١ ص ٧٣ ( عن ابيجيل لوقا )

( ١٥٤ ) الكلام ج ١ ص ٢٩٨ وقارن تاريخ البعلبكي ص ٧٤ ( عن ابيجيل لوقا ) حيث يوجد رجل من الانبياء يقال له شمعان ، حصر القربان الذي قدم من اجل يسوع ، وحده وحده الرب على ان رآه )

( ١٥٥ ) ابن الاثير ج ١ ص ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

( ١٥٦ ) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٠ وفي ذلك قيل ان ولادة يحيى كانت قبل المسيح ستة اشهر ( قارن البعلبكي ج ١ ص ٧٣ - عن ابيجيل لوقا ) وان كانت هناك رواية اخرى تقول انه ولد قبله بثلاث سنوات اما من مدة حل يحيى بن زكريا لغى تتراوح ما بين ٩ اشهر ٦ اشهر ولكن تتم الآية قيل - ساعات وقيل ساعة واحدة ( نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٩ وقارن تاريخ البعلبكي ج ١ ص ٧٤ ) - حيث كان يحيى يرتكض في بطن امه عندما تسمع كلام مريم وهي حامل بعيسى

الشعير ، بل كثيرا ما كان يأكل العشب واوراق الشجر - كما فعل موسى عندما فر هاربا من طلب فرعون . هذا ، ولقد نبىء يحيى صغيرا ، فكان يدعو الناس الى عبادة الله ، وهو يلبس ثياب الشعر . ويحيى في العبادة ، مجتهد بكاء ، فهو من خشية عذاب النار - التي حذرته منها والده زكريا - ظل يبكي حتى اكلت الدموع لحم خديه ، وبدت اضراسه للناظرين ، وهكذا انتهى الامر بزكريا انه اذا وعظ الناس نظر حواليه فان كان يحيى حاضرا لم يذكر جنة ولا نارا<sup>(١٥٧)</sup> .

واهم معجزات يحيى كانت عندما ذبح جزاء له على نفيه عن زواج ابنة الاخ . فقد تكلم الرأس المقطوع وقال لهيرودس الملك : « لا تحل لك » كما بقي دمه يغلي الى ان انتقم الله من الجناة الظالمين مما سبق ذكره .

### نبوة المسيح :

اما نبوة السيد المسيح فهي سلسلة من الآيات والمعجزات بدأت بالحمل دون ذكر وفي الموضع - الذي يمكن ان يكون بأرض مصر - كان الرطب يتساقط على مريم في غير موعده في فصل الشتاء ، هذا كما انتكست الاصنام على رؤوسها وفزع الشياطين ، فخرجت من مكانها ، وعند الولادة لم يمكن الملائكة ابليس من الدنو من عيسى المولود<sup>(١٥٨)</sup> - وكل ذلك ما نجد له شبيها في قصة المولد النبوي التي لا بأس ان يكون لها اثرها في قصة مولد المسيح هذه ، وفي المهد رضيعا كان يحدث والدته اذا خلت به وتحذره ، وفي الطفولة كان يمر بيده على الجرار الفارغة فتمتلئ شرابا ، وفي صباح كان يحدث اترابه من الصبيان بما يصنع اهلهم وبما يأكلون ، بل كان يستطيع احياء الميت كما فعل عندما اتهم في قتل الصبي ، فطلب القتل حتى يسأله من قتله ، ودعا الله فأحياه وقال : قتلني فلان يعني الذي قتله ، ثم مات الغلام من ساعته<sup>(١٥٩)</sup> مما يذكر بمعجزة موسى عندما اشكل عليه الامر في قضية قتل مشاهة وان اختلفت الوسيلة .

وعندما بلغ مبلغ الشباب وتعلم مهنة الصباغة ، كان يضع الثياب في جب (جرة : زير) واحد « فيخرج كل ثوب منها - لدھشة رفاقه - على اللون الذي اراد صاحبه » وعندما بلغ المسيح السنة الثلاثين من عمره اتته النبوة والرسالة<sup>(١٦٠)</sup> فأوحى الله اليه ان يبرز للناس « ويدعوهم الى الله تعالى

(١٥٧) ابن الاثير ج ١ ص ٣٠ - ٣٠١ وقارن ابن خلدون العم ، ج ٢ ص ١٤٤ .

(١٥٨) ابن الاثير ج ١ ص ٣١٢ .

(١٥٩) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٣ .

(١٦٠) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٧ ، ٣١٤ وقارن تاريخ البغداد ج ١ ص ٧٤ (عن التجيل لوقا)

ويداوي الزمني والاكمه والابرص وغيرهم - وفي ذلك يقال ان الطب كان غالبا في زمانه فاتاهم بما ابرأ الاكمه والابرص تعجيزا لهم . واكثر من هذا فقد كان ينفع في الطين الذي يصور على هيئة الطير فيصير طيرا ، كما كن يحى الموق - مثلما فعل بعازر<sup>(١٦١)</sup> .

هذا وتقول الرواية ايضا انه احى يحيى بن زكريا ، واحيا سام بن نوح الذي ظن ان القيامة قد قامت فقال له المسيح لا ولكني دعوت الله فاحياك ، والظاهر ان احيا سام كان بغرض سؤاله عن قصة الطوفان - التي حيرت الناس - وذلك انه بعد ان رد على سؤالهم عنه عاد ميتا .

ومن اهم المعجزات ما يتعلق بزيادة الطعام - وهو الامر الطبيعي في البلاد التي كانت تعاني من قلة القوت ، كما كانت تهدها المجاعات . والمثل لذلك معجزة القصعة التي كان يأكل منها مع الناس فلا تنقص ، ثم المائدة التي نزلت من السماء بدعوته الى الله لكي تكون لهم عيدا لأولهم وآخرهم ، ومن خبر تلك المائدة انها لم تكن تنقص بل كانت تزيد حتى يبلغ الطعام الركب . وفي نوع الطعام الذي نزل عليها قيل : ٧ ( سبعة ) ارغفة وسبعة احوات ( سمكات ) وفي ذلك اشارة الى مهنة الصيد التي كان يتمتع بها الحواريون ، وان قيل انهم اشتغلوا بالصباغة مع المسيح وانهم كانوا قصارين او ملاحين<sup>(١٦٢)</sup> هذا كما قيل ان ما عليها كان من الخبز واللحم ، او انها على العكس من ذلك ، كانت تمد بكل طعام الا اللحم ، او ان ما عليها كان من ثمار الجنة . ولا شك ان كل نوع من تلك الاطعمة يقصد به نوع من الرمز ، من الخير والبركة في البر والبحر وفي طعام اهل الجنة .

اما عن الاكلين فقد تراوح عددهم ما بين ١٣٠٠ ( ألف وثلاثمائة ) من المرضى والزمى والفقراء ، لم يشاركهم المسيح ولا اصحابه من الحواريين ، وقيل انهم بلغوا ٥ ( خمسة ) آلاف ولم يشبع الاكلون فحسب ، بل لقد صبح المرضى والزمى ، بينما استغنى الفقراء منهم ، واخيرا صعدت المائدة الى السماء وهم ينظرون اليها حتى توارت ، وقدم الحواريون لانهم لم يأكلوا منها<sup>(١٦٣)</sup> .

ومسألة عدم اكل المسيح من المائدة التي تركت للفقراء تذكرها ما هو معروف في السيرة النبوية من ان الرسول كان لا يأكل من الصدقة وان كان يقبل الهدية . وتحدث الناس بحديث المائدة فكذب من لم يشهد وقالوا : سحر أعينكم وكانت عقوبة المكذبين - الذين بلغ عددهم ٣٣٣ ( ثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ) رجلا - ان مسخوا خنازير لمة ثلاثة ايام ، انهم هلكوا . وهذا ولو ان قصة المسخ هذه ترتبط

( ١٦١ ) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٥ وانظر تاريخ المقبرين ج ١ ص ٧٥ - ٧٦ .

( ١٦٢ ) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٤ .

( ١٦٣ ) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٧ ( وقيل ايضا في المائدة انها طلت طوال اربعين يوما نزل يوما وتنقطع يوما )

ايضا بقصة رفع المسيح الى السماء - فعندما رآه الناس من اليهود - من معارضي دعوته - اتهموه بالسحر وكذلك امه ، كما قذفوها . وهنا دعا عليهم المسيح فاستجاب الله دعاءه ومسحهم خنازير<sup>(١٦٤)</sup> .

ثم كانت المؤامرة التي انتهت دعوة المسيح - التي لم تطل الى اكثر من ثلاث سنوات - بمعجزة الرفع الى السماء ، فعندما اعلم الله المسيح انه خارج من الدنيا صنع طعاما ودعا الحواريين وعشاهم وخدمهم ، واظهر من التواضع في خدمتهم والحب لهم ما لا مزيد عليه ، فغسل ايديهم ومسحها بشبابه ، واثناء ذلك « العشاء الاخير » قال لهم « ليكفرن احدكم قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبينني احدكم بدراهم يسيرة ولياكلن ثمني . اما عن قصة الرفع فيلخصها ابن الاثير في : انه عندما اراد راس ( ملك ) اليهود قتل عيسى بعث الله اليه جبرائيل فادخله في خوخة الى بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه الى السماء . وعندما دخل عليه المكلف بقتله ولم يجده خرج وقد اظلمت الدنيا فظنوه هو - اي المسيح - قتلوه وصلبوه وقيل ايضا ان الذي قتل مكانه هو الحواري الذي دل عليه اي يهوذا<sup>(١٦٥)</sup> .

والرواية هنا تريد ان يكون صعود المسيح الى السماء صعودا ماديا ، حيث انها جعلت في سقف الحجرة التي لجأ اليها روزنة ( اي نافذة ) كانت وسيلته في الصعود الى السماء ولا بأس من الاشارة الى اختلاف الآراء حول كيفية الصعود ، فقد رآه البعض بالجسد وبطريقة مادية ، وهذا ما عبر عنه الرسامون المسيحيون برفع غطاء تابوت الدفن اثناء ارتفاع الجسد ، بينما رأى آخرون من آباء الكنيسة انه يمكن لجسد المسيح ان ينفذ من التابوت وغيره كما ينفذ الضوء من الزجاج الشفاف ، وربما عبر اصحاب هذا الرأي عن خلود النفس وصعودها بعد موت الجسد الى ملكوت السموات ، وهذا هو رأي اخوان الصفا الذي ينصون على ان الانبياء يعتقدون في بقاء النفس ، ويضربون المثل في تفاهة الجسد بما فعله المسيح بـ « ناسوته » ووصيته للحواريين .

فلقد دعا المسيح اصحابه للذهاب الى ملوك الاطراف وابلاغهم الدعوة وقال لهم « فاني اذا فارقت ناسوتي فاني واقف في الهواء عن يمين عرش ابي وايبكم ، وانا معكم حيثما ذهبت ، ومؤيديكم بالنظر والتأييد باذن ابي . . . أأمروا بالمعروف وانهبوا عن المنكر ما لم تقتلوا او تصلبوا او تنفروا من الارض »<sup>(١٦٦)</sup> وقرب من ذلك ما تقدمه رواية اخرى من وصف لعملية الصعود يجعلها قريبة من الاذهان على طريقة التصوير في علم حياة القديسين ، المعروف بالـ « جيورافي » .

(١٦٤) ابن الاثير ج ١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .

(١٦٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ وهنا تشير الرواية الى اختلاف العلماء في موت المسيح قبل رفعه الى السماء ، فليل الله ولم يبق دليل لوقاه الله ٣ ساعات او ٧

ساعات ثم احياه ورفعه ، ولا يقتل المسيح حسب الانجيل انظر تاريخ البيطري ج ١ ص ٧٦ وص ٧٨

(١٦٦) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٢٨ .

فبعد الرفع بسبعة ايام نزل المسيح فاشتعل الجبل حين هبط نورا وقال لأمه انه رفع الى السماء ، وعندما جمعت له الحواريين بثهم في الأرض رسلا عن الله وأمرهم ان يبلغوا عنه ما امره الله به . ثم رفعه الله اليه وكساه الريش والبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم فصار - انسيا ملكيا - سماويا ارضيا<sup>(١٦٧)</sup> مثل النبي الياس من قبل .

### الحواريون رسلا :

هكذا أصبح تلاميذ المسيح من الحواريين رسلا ، اي مبعوثين من قبل الله ، وان كانوا في درجة اقل شرفا من الانبياء ، وبذلك وقع عبء الدعوة للمسيحية على عاتق الحواريين فعلا ، وهذا ما يتمثل في انشائهم الاناجيل الاربعة ، وما دعا بعض الدارسين من العقلانيين الى النظر الى المسيح على انه يمثل معنى رمزيا اكثر منه شخصية تاريخية<sup>(١٦٨)</sup> وهذا ما دعا آخرين الى الرد على تلك المقالة بانه : كما لا يوجد اسلام بغير محمد كذلك لا مسيحية بدون يسوع .

وانهم انى على عكس ما قد يظنه البعض من ان المسيح هو المبعوث الرباني قبل الاخير ، اي قبل محمد ، فان المسيحية تظفل تسير في دورة نبوة وانبياء ، او بتعبير اصح في دورة رسل ومرسلين اشبه بتلك التي سارت فيها الابراهيمية الخنيفية ومن بعدها الموسوية التوراتية او اليهودية . فيونس بن متى الذي كان من اهل نينوى ، والذي نسب الى امه مثل عيسى ظل ٣٣ ( ثلاثة وثلاثين ) سنة ينهى قومه عن عبادة الاصنام فلما يش من ايمانهم دعا عليهم ، وعندما بدأت آية العذاب تظهر عليهم وهم يبحثون عن يونس فلا يجدونه اهتمهم الله التوبة فقاموا برد المظالم جميعا : « حتى ان احدهم كان ليقلع المجرمين بنائه فيرده الى صاحبه » وعندما علم يونس بتوبتهم وان الله كشف عنهم العذاب ، غضب ورفض العودة الى بلده وقال : والله لا ارجع كذابا ، ومضى مغاضبا لربه ، فركب احدى السفن على ان يسبح فيها بعيدا عن اهله ووطنه ، وكانت عقوبة الله له بأن اوقف السفينة ، وعندما عرف يونس انها وقفت بخطيئته ،لقى نفسه في البحر - لكي تسير - فالتقمه الحوت - الذي اوحى اليه الله ان لا ينجس لحمه ولا يكسر له عظما . وبذلك حبسه الله في بطن الحوت بسبب عصيانه ، الى ان اطلقه بشفاعته عمله الصالح السابق وامره بالعودة الى قومه . ومع ذلك بقي يونس خارج القرية الى ان شهدت بوجوده الشاة والشجرة .

( ١٦٧ ) ( يونس ) الاشارة هنا الى انه كان من وصية المسيح لاصحابه البشرى باتيان الغار قليب الذي يكون معهم نيا ( انظر تاريخ البعلبكي ج ١ ص ٢٦ )

( ١٦٨ ) انظر كارل ياسبرس فلاسفة انسانيون ( سقراط ، بوذا ، كونفوشيوس - يسوع ) ترجمة عادل العواد مجموعة روافي هلم ، منشورات عويدات - بيروت ص ٢٢٩ - حيث ينتقد المؤلف نصا من ( التريبك ) بلرلو له . « لقد حصلت المسيحية الاولى بعد موت يسوع من كل انواع المشاهدة التاريخية عندما اصبح اشياعها شيئا يتذكر ادراكه قواما ، شيئا متصلا بأن واحد بالصورة المهمة اللدغدة ، - اتصال بالاختراع . وان يونس هو اول من ادخل المسبة لطاق التاريخ ومن الحوت ان تعتبر المسيحية تبدأ بيسوع كخص تاريخي »

وبسبب ما كان في يونس من الحدة والعجلة وقلة الصبر . نهي النبي ( صلعم ) ان يكون مثله فقال تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت » (١٦٩) .

واهل الكهف الذين كانوا على شريعة عيسى ، وان رأى البعض انهم كانوا قبل العصر المسحي ، فقد كانت آيتهم النوم لمئات السنين ثم الصحو ، وقد اصبح الناس غير الناس ، وكان الغاية من ذلك الآية ان يثبت الله لاهل قريتهم ان البعث يكون بالروح والجسد جميعا ، وهذا ولو ان صحوهم كان مؤقنا اذ توفاهم الله بناء على رغبتهم (١٧٠) والذي يسترعي الانتباه فعلا هو ان كثيرا من معجزات احياء الموتى مما هو منسوب الى الانبياء والرسول لم يكن بهدف البعث نفسه بل بغرض التدليل على صحة واقعة ما ، مثل : احياء سام ليقرر صحة الطوفان ، او احياء القليل ليدل على حقيقة من قتله كما حدث مع موسى وهو يحكم ، او مع عيسى صبيبا عندما اتهم بعض الغلمان فكان الهدف من الآية هو معرفة الشيء الخفي اي التنبي .

ويعتبر شمشون الجبار من الاولياء ان لم يكن من الرسل المبعوثين فقد كان اذا عطش انفجر له الحجر الذي فيه ماء عذب . اما عن قوته الاسطورية فتتضاءل امامها قوة موسى اذ كان لا يوتق الحديد ، ويمكن قوته تلك كان في شعره ، وهو الامر الذي لم يطلع عليه غير امراته التي خاتته واثقته عندما نام . وبذلك واثت الفرصة للانتقام من الجبار العنيد فاخذوه وجدعوا انفه وسملوا اذنيه وفتقوا عينيه ، وعندما دعا المظلوم ربه ان يسلمه عليهم رد الله بصره ، وامره ان يأخذ بعمودين من عمد المدينة الظالم اهلها فيجذبها لكي تقع المدينة بملكها الحفود (١٧١) .

واما جرجيس الذي عاش في الموصل فيوصف بانه كان رجلا صالحا من اهل فلسطين وانه كان يكتنم ايماناه مع اصحاب له صالحين ممن ادركوا بقايا الحواريين خشية ملك المدينة الجبار . وكان جرجيس صاحب تجارة كبيرة ولكنه عرف بالجود والسخاء ، وفي ذلك كان يقول لولا الصدقة لكان الفقرا احب الى من الغني . وعن هذا الطريق اكرمه الله ، فبعد ان كان آدميا يأكل ويشرب جعله انسيا ملكيا . وهذا ما يفسر تحمله لالوان العذاب والالام التي لا يطيقها البشر ، فالملك الجبار الذي اراده ان يعود الى عبادة الاصنام ، يمشط بالحديد حتى يتقطع لحمه وعروقه ، وينضح جروحه بالخل والخرذل ، ويسمر رأسه بالمسامير المحمية وهو يقول له : ان الهى حل عني عذابك وصبرني ليحتج عليك .

(١٦٩) ابن الأثير ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٢

(١٧٠) ابن الأثير ج ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٧ وقارن المعارف لابن قتيبة ص ٢٥ - حيث القول اسم بدأوا نزلهم قبل المسيح وكان صحوهم قبل المسيح وبين النبي ( صلعم )

(١٧١) ابن الأثير ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

وعندما يؤيد الله جرجيس بالملائكة فيخرجه من السجن لمجاهدة عدوه ، يعجز الملك الجبار عن التخلص منه ، فهو عندما يقتله ويقطعه اربا ويلقيه للسباع يجمع الله جسده ويسويه ، وعندما يقولون انه ساحر ويدعون ساحرهم لاختباره يعترف الساحر العجيب - الذي يستطيع ان يحرق ويزرع ويحصد ويدق ويدري ويطن ويخبز ويأكل في ساعة - بان جرجيس جبار السماء والارض ، ويؤمن به وعندما يحصى جرجيس في ثور نحاس مع رصاص ونفط وكبريت حتى الموت يرسل الله ميكائيل فيحييه . وهو اخيرا يدعو الله فتحضر دعامة البيت الخشبية اليابسة وتثبت كل فاكهة تؤكل وتعرف (١٧٢) .

وهكذا يعاني ولي الله جرجيس افظع ما يخاطر على البال من الوان العذاب ويجعل الله له اشرف ما اكرم به مبعوثيه من الآيات مما يذكر : بنار ابراهيم الباردة ، وعصا موسى المزهرة ، ويلسم عيسى الشافي .

#### تحول النبوة نحو بلاد العرب :

##### البشارة : ملوك وكهان وحفاه يشرون بالنبي ( صلعم ) :

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ النبوة والكهانة والتنبى يتحول بموجبها نحو بلاد العرب ، فتكون بمثابة البشارة بظهور نبي العرب محمد آخر الرسل وخاتم الانبياء .

فمن احداث العرب المشهورة على عهد يزيدجرد وفيروز ما حدث لتبع بن حسان ملك اليمن فقد ، استهامت به الجن ( اي عشقته وسارت به على غير هدى ) ورجع من استهامته تلك وهو اعلم الناس بما كان قبله ، فكان ذلك سببا في ملكه اليمن وهية حير له (١٧٣) .

والاهم من ذلك انه قدم على تبع كاهن العرب المشهور شافع بن كليب الصديقي وعندما سألته تبع ان كان يجد لقوم ملكا يوازي ملكه : ذكر ملك بني غسان في بلاد الشام ، وعندما سألته ان كان يجد ملكا يزيد عليه ؟ قال : « اجده لبار مرور ايد بالقهور ووصف الزبور وفضلت امته في السفور يفرج الظلم بالنور ، احمد النبي طوي لامته حين يجيىء ، احد بني لؤي ثم احد بني قصي فنظر تبع في الزبور فاذا هو يجد صفة النبي ( صلعم ) (١٧٤) .

وعلى عهد قباة الذي كان زنديقا : يظهر الخير ويكره الدماء ويداري اعداءه عزم الملك اليمني تبان اسعد ابو كرب على تخريب يثرب ( المدينة ) ولكن منعه من ذلك حبران من يهود بني قريظة عالمان

(١٧٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٧ - ٣٢٣ .

(١٧٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤١٠

(١٧٤) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٤١٧



بأحوال الحدثان اذ قالوا له : انها مهاجرة نبي من قريش تكون داره . فقبل نصيحتها ودخل في دينها . وعندما اخذ في دعوة قومه الى اليهودية حاكموه الى النار التي تأكل الظالم ولا تضر المظلوم فكانها نار ابراهيم الخليل ، وعن هذا الطريق انتشرت اليهودية في بلاد اليمن<sup>(١٧٥)</sup> .

وقصة التحكيم الى النار هذه ، التي تعتبر نوعاً من المبالغة تذكر بنار الاخدود التي امتحن بها نصارى نجران من قبل نواس ملك اليمن . وكانت المسيحية قد انتشرت بنجران بفضل رجل مجتهد صالح اسمه فيمان كان - مثل الحوارين وخلفائهم من آباء الكنيسة - يشفي المرضى ويبريء الاكمه والابرص ، ولقد تعرض الرجل لمحنة كبيرة امتحنه بها ملك نجران الذي كان يلقي به من رأس الجبل فيقع الرجل الصالح على الارض لا بأس به - مما يذكر بكرامات جرجيس في الموصل ، ولن يتمكن الملك من قتل فيمون الا بعد ان آمن بدعوته ودخل في دينه . ويحدد ابن عباس استشهاده ذلك الرجل بـ ٧٠ ( سبعين ) سنة قبل مولد النبي ( صلعم )<sup>(١٧٦)</sup> وكان اضطهاد ذي يزن للنصارى سبباً في غزو الحبشة لبلاد اليمن .

واهم معارف الحدثان على عهد تبع التنبؤ بغزو الحبشة لبلاد اليمن ، وذلك انه لما ملك تبع قبائل ربيعة ، بمضى سقوط العرب العدنانية تحت سلطان القحطانية ، رأى تبع في نومه رؤى ما حالته فلجأ الى الكهان والسحرة والعياف الذين احتاروا في تفسيرها ، ولم ينجح منهم الا كاهنا غسان الشهيران وقتل ببلاد الشام وهما : سطيج وشق .

وفي تفسير الرؤى قال له سطيج في كلامه المسجوع « أحلف بما بين الحرتين من خش ليهبطن ارضكم الحبش فليملكن ما بين أبين الى جرش . . خروجهن على يد وارم ذي يزن ، يخرج عليهن من عدن فلا يترك احداً منهم باليمن . » وتنسب الرواية الى سطيج عندما سئل : هل للدهر من آخر ؟ انه قال : « نعم يوم يجمع فيه الاولون والآخرين يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون ، فكانه كان يؤمن بيوم الحساب والثوبة والعقاب ، وعندما سأل الملك ان كان ما يخبرهم به حقا ؟ قال سطيج « نعم والشفق والغسق والفلق اذا اتسق ان ما انباتك به لحن » اما اهم ما في نبوءة سطيج فهي التبشير بالنبي العدناني . فعندما سئل ان كان ذويزن يدوم قال « بل ينقطع ، يقطعه نبي زكي يأتيه الوحي من العلي وهو رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه الى آخر الدهر »<sup>(١٧٧)</sup> .

(١٧٥) نفس المصدر ج ١ ص ٤١٦ .

(١٧٦) نفس المصدر ج ١ ص ٤٢٥ - ٤٣٠ ( والحقيقة ان رواية ابن عباس تنسب هذا الاستبهاد الى تلميذ دقيميون واسمه عبد الله بن النضر ، وكان معلوماً للملك الذي اراد ان يعلمه السحر لفصد العلام الرامح فيبيرون ودخل في خدمته بدلاً من اللذباب الى الساحر

(١٧٧) نفس المصدر ج ١ ص ٤١٨ - ٤١٩ .

ولا يختلف تفسير الكاهن شق كثيرا عن تفسير سطيطح للرؤيا التي قال عنها في كلامه المسجوع « رأيت هجمة ، خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة واكمة فاكلت منها كل ذات نسمة » وفي تأويلها قال : احلف ما بين الحرتين من انسان لينزلن ارضكم السودان وليملكن ما بين ايين الى نجران ، في توقيت ذلك قال للملك « بعدك بزمان ثم يستنفذكم منه عظيم ذو شان . يخرج من بيت ذي وزن واجابه عن دوام سلطانه وانقطاعه قال « بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي الحق العدل بين اهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه الى يوم الفصل » وعندما سئل عن يوم الفصل قال « يوم تجزى فيه الولاة ويدعى من الساء بدعوات ويسمع منها الاحياء والاموات ويجتمع فيه الناس للميقات » (١٧٨) .

وهكذا فان الكاهنين العربيين قد عزا بما يحدث من ملك الحبشة لليمن قبل الاسلام ، كما انها بشرا بيعت النبي العربي العدناني واستمرار الخلافة في قريش الى جانب ايمانها بيوم الحساب والثواب والعقاب .

والحقيقة ان اصحاب السيرة النبوية يربطون ايضا بين مولد الرسول وبين سطيطح الكاهن ، فبمناسبة المولد الشريف قالوا : انه ارتج ايوان كسرى وسقطت ١٤ ( اربع عشرة ) شرفة كما خدعت بيوت النيران - مما لم يكن له نظير منذ الف سنة - الى غير ذلك من المشاهد الطبيعية غير العادية في بلاد اخرى ، ولما كان فقيه الفرس ورئيس المجوس المعروف بالموندان قد رأى في المنام - تلك الليلة ما هاله من الابل الصعاب التي تقودها الخيل العرب ، التي اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادهم ، فانه رأى ان يستعين ملك العرب في الحيرة لكي يرسل اليه رجلا من علمائهم لاستشهادهم بانهم اصحاب علم بالحدثان . وعندما مالم ينجح كاهن الحيرة وهو عبد لمسيح الفسائي في تأويل تلك الرؤيا رأى ان يلجأ الى خاله سطيطح بالشام واستطاع سطيطح الذي كان محتضر ان يؤول ما حدث في فارس ، فقال لابن اخته كاهن الحيرة بالكلام المسجوع « عبد المسيح على جبل مشيع الى سطيطح وقد اوفى على الفريخ ، بعثك ملك بني ساسان لارتجاج الايوان . . فليست بابل للفرس مقاما ولا الشام لسطيطح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات عدد سقرط الشرفات وكل ما هوأت آت » .

واذا كان كسرى قد تعزى بانه مازال ١٤ ( اربعة عشر ) ملكا من آل ساسان يحكمون قبل زوال ملكهم ، وانه ربما يدور الزمان ، فالذي حدث انهم هلكوا جميعا في ٤٠ ( اربعين ) سنة (١٧٩) ودخل المسلمون بلادهم على عهد آخرهم يزدجرد .

( ١٧٨ ) ابن الاثير ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠

( ١٧٩ ) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨ - ٣٠

واذا كان من المقبول في الفكر الاسلامي ان يعرف الكهنة علم الحدثنان ، وان يبشروا مثل الانبياء والرسول بالبعثة النبوية ، فان الامر الغريب حقا هو ما يسجله الكتاب المسلمون بشأن ما ينسب من النبوة قبيل ظهور الاسلام الى خالد بن سنان العبسي وما كان له من معجزة اطفاء النار التي ظهرت في ارض العرب فافتتنوا بها وكادوا يتمجسون . مما يعبر عن كراهية العرب لعبادة النار الفارسية . والاكثر غرابة من كل ذلك في تلك الرواية هو ما ينسب الى النبي ( صلعم ) من انه قال في خالد بن سنان « ذلك نبي ضيَّعه قومه » وما قيل من ان ابنة خالد اتت النبي ( صلعم ) فأمنت به . ولا يقلل من تلك الغرابة ما يثار في نهاية القصة من التشكيك في صحة وضعها الزمني قبيل ظهور الاسلام مباشرة حيث الاشارة الى ما قيل من ان نبوة خالد كانت ايام ملوك الطوائف ، وانها كانت بعد المسيح بثلاثمائة سنة اي قبل الاسلام بثلاثمائة سنة (١٨٠) وتصوير النار التي اطفأها خالد بن سنان في السيرة الحلبية بانها خرجت من بئر يمكن ان تلفت النظر الى مواضع آبار النفط الحالية وهو الامر غير المستبعد .

اما ما هوارقب الى واقع تاريخ فترة ما قبل النبوة مباشرة فهي كهانة قس بني ساعدة الذي كان يتردد على اسواق العرب على جبل احمر - مثلما يوصف جل النبي عند من بشروا ببعثه - فيخطب في الناس داعيا الى التأمل في ملكوت السموات والارض ، ومبشرا بدين خير مما كانوا يدينون به وقتئذ . وفي ذلك قيل انه اول من تأله ، اي تعبد ، بمعنى انه ترك عبادة الاصنام ، فعندما اتت الوفود الى النبي في العام التاسع للهجرة واستقبل وفد اباد ، سألهم ان كان فيهم من عرف قس بن ساعدة الايادي ثم قال لهم « ما انساه يسوق عكاظ في الشهر الحرام على جبل احمر وهو يخطب الناس ويقول « اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هوأت آت . ان في السماء لدينا هوارضى من دينكم هذا . ثم قال « مالي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون ، ارضوا بالاقامة فاقاموا ام تركوا فناموا » . وعندما سألهم النبي عمن يروي من شعره انشد بعضهم :

ففي الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر (١٨١)

وفي حكم قس بن ساعدة قيل انه : اول من قال : البيئة على من ادعى واليمين على من انكر ، وهو المبدأ الذي اصبح شهيدا في القضاء الاسلامي ، ولو ان اصحاب السيرة ينسبون الى داود النبي والى كعب بن لؤي . هذا كما قيل ان قس بن ساعدة هو اول من انكأ على عصا او قوس او سيف عند الخطبة .

( ١٨٠ ) ابن الأثير ج ١ ص ٣٧٦ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١

( ١٨١ ) المقفد الفريديج ج ٤ ص ١٢٨ وقارن السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٩٦ ، ١٩٧ ( حيث احتلالات طبقية في النص )

وهي العادة التي أصبحت اسلامية صميمة في خطبة الجمعة . وكذلك قيل انه اول من قال « اما بعد وهو فصل الخطاب . ولو قيل أيضا ان أول من قال ذلك هو كعب بن لؤي ، بل ونسب ذلك الى جد العرب الاول يعرب بن قحطان اول من تكلم باللسان العربي الذي اليه ينسب ، ومع انه من الواضح ان فصل الخطاب هنا خاص بطريقة ترتيب الخطبة وبراهين الاقتناع فيها ، الا ان صاحب السيرة الحلبية يريد ان يربط فصل الخطاب الخاص « اما بعد » بفصل الخصومة في القضاء والحكم مما قيل فيه : البيئة على المدعي واليمين على من انكر وهو موضوع آخر كما نظن<sup>(١٨٢)</sup> .

والظاهر انه بمرور الوقت ازدادت قصة قس بن ساعدة تفصيلا ، ولم يكتف الرواة بالإشارة الى الاختلافات الخاصة بمعاني الخطبة السابقة ، من : اضافة عبارات مسجوعة جديدة بعد « وكل ما هو أت آت » مثل « ليل داج ، وساء ذات ابراج وبحر عجاج ونجوم تزهو وجبال مرسية وانهار مجرية » ، ومثل « اي الصعب ذو القرنين ملك الحافقين واذل الثقلين وعمر ألفين » ، ثم كان ذلك كلمحة عين . بل صار التركيز على تبشير قس بن ساعدة بقرب زمان النبي ( صلعم ) كما قيل ان كعب بن لؤي هو الآخر - كان يبشر في خطبه بالنبي ( صلعم ) فبعد قوله « ان الله ديننا هو احب اليه من دينكم الذي انتم عليه » ينسب الى أبي بكر أنه قال « ونبينا قد حان حينه واطلكم زمانه فطوبى لمن آمن به فهذه وويل لمن خالفه فعصاه » ثم قال « تبا لأرباب الغفلة من الامم الخالية والقرون الماضية . يا معشر اباد ( قبيلة المينة ) ابن الآباء والأجداد وابن المريض والعواد وابن الفراغة الشداد ابن من بني وشيد ، وزخرف ونجد ( اي زين وطول ) وغره المال والولد . ابن من بغى وطغى وجمع فاعوى وقال : انا ربكم الأعلى ، لم يكونوا اكثر منكم أموالا واطول منكم آجالا وأبعد منكم آمالا طحنهم التراب بكلكله وفرقهم بتطاولة . . كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود<sup>(١٨٤)</sup> .

وواضح من تلك الاضافة ان بعضها اسلامي لحما ودما مثل : قول فرعون انا ربكم الاعلى وكذلك عبارات التوحيد الاخيرة . وفي البشارة تأتي رواية اخرى منسوبة لابن عباس تقول : ان قس بن ساعدة كان يخطب قومه بسوق عكاظ فقال « سيأتيكم حق من هذا الوجه وشار بيده نحو مكة قالوا له « ما هذا الحق ؟ قال : رجل ابلى احمر من ولد لؤي بن غالب يدعوكم الى كلمة الاخلاص وعيش نعيم لا ينفذان ، فاذا دعاكم فاجيبوه ولو علمت اني اعيش الى مبعثه لكنت اول من يسعى اليه »<sup>(١٨٥)</sup> .

( ١٨٢ ) النظر السيرة الحلبية ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

( ١٨٣ ) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤ .

( ١٨٤ ) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٩٧ .

( ١٨٥ ) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٨٥ .

والذي يلتفت النظر هو ما يورده صاحب السيرة الحلبية من رواية تلك القصة بطرق متعددة مما يحمل في ثنائها فكرة التشكيك في صحتها ، وهو الامر المقبول فعلا اذ انه اتبع ذلك باختلاف آراء العلماء بهذا الصدد . فابن الجوزي - صاحب نقد العلم والعلماء المعروف بتدليس ابليس - يرى ان حديث قس بن ساعدة باطل من جميع جهاته . اما ابن حجر العسقلاني فهو لا يقبل رأي ابن الجوزي المتشدد في انكار القصة اصلا ، وان كان رأيه ان طرق الحديث كلها ضعيفة . اما الحافظ بن كثير فهو ينص على ان هذه الطرق على ضعفها كالتعاضدة على اثبات اصل القصة<sup>(١٨٦)</sup> فكان يريد القول ان كثرة المقدمات الحاططة يمكن ان تؤدي الى نتيجة صحيحة .

والمهم من كل ذلك هو ما ترمز اليه الرواية - التي يمكن ان توصف بانها معبرة عن الوجدان العربي الاسلامي من ان انساك العرب وعبادتهم كانوا مبشرين حقيقة بظهور الرسول العربي خاتم الانبياء . وفي ذلك قيل ان قس بن ساعدة كان حنيفا مؤمنا اذ نسب الى الرسول ( صلعم ) قوله : رحم الله قسا ، انه كان على دين ابي اسماعيل بن ابراهيم « والله اعلم كما تقول صاحب السيرة الحلبية<sup>(١٨٧)</sup> والاكثر غرابية من ذلك ما ينسب الى النبي ( صلعم ) من انه قال : لا تسبوا ربعة ولا مضر فانها كانا مؤمنين على ملة ابراهيم<sup>(١٨٨)</sup> مما يعني ان الابراهيمية الحنيفة كانت متصلة بين كل من الربعة والمضرية اي بين كل عرب الشمال من العدنانية - ولقد رأينا في قصة غزو بختنصر كيف حفظ الله معد بن عدنان من الهلاك ببركة محمد الذي سيكون من نسله وهو ما يعطي للاسلام صفة عرقية عربية مميزة .

وهكذا كانت العروبة على بكرة ابيها من قحطانيتها الى عدنانيتها بملوكها وكهنتها ونسائها تقف متحفزة منتصبة على اهبة الاستعداد لاستقبال نبينا المنتظر الذي كان املا في حشايا الوجود منذ خلق آدم الى مولد معد بن عدنان ثم ربعة ومضر قبل ان يظهر نورا في جبين عبد الله بن عبد المطلب ثم في جبين أمنة بنت وهب ام النبي . وكان من حق العرب ان يهاووا به الامم من : الفرس المجوس اصحاب بيوت النيران ، والروم الصابئة اصحاب بيوت الاصنام ، وخاصة بني اسرائيل اليهود اصحاب الانبياء والملوك والقضاة ، وهذا ما تعبر عنه القصة المنسوبة الى شداد بن اوس والتي تقول ان بعض شيوخ بني عباد اتى متوكئا على عصاه وقال للنبي « يا ابن عبد المطلب اني انبئت انك تزعم انك رسول الله ، ارسلك بما ارسل ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء الا وانك وانك تزعم انك

(١٨٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٨ .

(١٨٧) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٨ .

(١٨٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٠ .

فهمت بعضهم ، الا وقد كانت الانبياء من بني اسرائيل ، وانت من يعبد هذه الحجارة والامثال ومالك وللنبوة ، وان لكل قول حقيقة فما حقيقة قولك وبدء شأنك ؟

وتقول القصة ان النبي اعجب ايماء اعجاب بمسألة الشيخ العادي ، وانه بعد ان اجلسه قال له « ان حقيقة قولك وبدء شأنك اني دعوة ابي ابراهيم ويشري اخي عيسى وكنت بكر ابي ومملكتي كائنات ما تحمل النساء ، ثم رأيت في منامها ان الذي في بطنها نور . . الى آخر قصة المولد والرضاعة في بني سعد ، وشق الصدر وتطهر القلب وختمه وامتلأه بنور النبوة والحكمة» (١٨٩) .

ومغزى هذه القصة يعني ان المتعارف عليه وقتئذ ، هو ان النبوة وقف على بني اسرائيل ، دون العرب عباد الاصنام . وربما كان ذلك تعبيرا عما وفر في قلب يهود الحجاز بالنسبة للنبي ، انه السبب الحقيقي لما قام بينهم وبينه من عداوة وصراع . اما عن نبوة النبي لابراهيم الخليل ، واخوته لعيسى المسيح فتعني جمع المحبة في الانسانية والوحدة في الاسرة الدينية الواحدة - اسرة النبوة .

وكرد فعل على مقالة ان العرب عباد اصنام ، وحتى يكون ظهور الاسلام في مكة في بيئته الطبيعية ، مثلما كان الحال بالنسبة لديانة بني اسرائيل في القدس ، ظهرت روايات تقول ان قريشا عبدوا الله قبل النبوة ما بين سبع سنين وعشر سنوات . وهذا لا بأس اذا كان القصد هو الفترة الاولى من العصر النبوي في مكة ، الا اذا كانت تلك الفترة تتفق مع حركة التحنن والنسك التي اعتبر عبد المطلب اول روادها ، والتي تبعه فيها النبي قبل البعثة ، كما هو معروف (١٩٠) . وهنا لا بأس في ذكر ما قيل من ان قريشا عندما بنت الكعبة ، وجدوا فيها كتابة بالسرانية ، من جعلتها كتاب فيه : من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة (١٩١) . والمهم هنا هو مبدأ الحث على عمل الخير ، اي الامر بالمعروف وهو ما يذكر بحلف الفضول الذي حضره النبي شابا في العشرين من عمره ، في بيت عبد الله بن جدعان والذي قال فيه « ما احب ان لي به حر النعم ، ولودعيت اليه اليوم لأجبت » (١٩٢) .

#### عبد المطلب بين الانبياء والاولياء :

وعبد المطلب ، جد النبي يظهر في السيرة النبوية بمظهر مجدد التراث الابراهيمي وصلة الوصل المباشرة بين النبي وبين سابقيه من كبار الانبياء . وعبد المطلب من هذا الوجه في طبقة وسط لا ترقى في

( ١٨٩ ) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٤٢٢ .

( ١٩٠ ) انظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٧ .

( ١٩١ ) الصوى ، كتاب المعرة والتاريخ ط ١٩٧٥ ، ج ٣ ص ٢٧٤ وقارن السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

( ١٩٢ ) تاريخ البقوة ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .

سلم النبوة ولا تهبط في درجات الكهانة والتنبيؤ . حقيقة ان عبد المطلب وصف بانه « ابراهيم الثاني »<sup>(١٩٣)</sup> ، ولكن ذلك بمناسبة تمسكه بالبقاء في الحرم بعد ان فرت قريش عندما هددته الحيشة ، وبقينه بحفظ الله للكعبة . هذا كما يمكن ان يشبه بابراهيم الخليل ايضا من حيث ما نذره من ذبح واحد من ابنائه حيث وقعت القرعة على عبد الله والد النبي الذي فدته بكاهنة الحجر - اخت ورقة بن نوفل - بمائة ناقة في مقابل كبش اسماعيل . وعن هذا الطريق صار النبي ( صلعم ) ابن الذبيحين : اسماعيل وعبد الله<sup>(١٩٤)</sup> .

ولعبد المطلب كراماته وآياته مثله في ذلك مثل اولياء الله الصالحين ، بل وانبيائه المرسلين . فله الرؤيا الصادقة التي رآها قبل حفر بئر زمزم . فلقد اتاه آت وهو نائم بالحجر من الحرم فقال له : « احضر طيبة اي زمزم . وعندما سأله عبد المطلب ، وما زمزم ؟ قال ، في كلام مسموع : تراث أبيك الاعظم ، لا تنزف ابدا ولا تلم ، تسقى الحجيح الاعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لمنعم . . . » . وفي الطريق الى كاهنة بني سعد بن هذيم بمشارف الشام لتحكم بين عبد المطلب وقريش بشأن تقسيم ماء زمزم ، عطش جد النبي واصحابه ، فانفجرت من تحت خف راحلته عين عذبة من ماء ، وكانت تلك الآية سببا في اعترافهم له بأن الله قضى له عليهم<sup>(١٩٥)</sup> .

وإذا كان انفجار الصخر بالماء مما اكرم الله به موسى وشمشون من قبل ، فان انفجار الماء من تحت خف راحلة عبد المطلب يعتبر ، في ادب التصوف الاسلامي ، بشيرا بكرامات فرس الشيخ التي نرى اول نماذجها في كرامة عقبة بن نافع - فاتح المغرب ( ت ٦٤ هـ ) الذي عرف بأنه مستجاب الدعاء . ففي صحراء زويلة ، جنوب الصحراء الليبية ، يوجد موضع يعرف « بماء الفرس » ، ينسب مأؤه الى فرس عقبة الذي ضرب بحافره الارض ، في وقت شح فيه الماء ، فانفجرت عين سقت المجاهدين الذين كادوا يهلكون من العطش<sup>(١٩٦)</sup> .

وبعد حملة ابرهة على مكة ، وقضاء سيف بن ذي يزن على بقايا الحيشة في اليمن ، يذهب عبد المطلب على رأس وفد قريش هناك ، ويوجه الخطاب الى ملك العرب الجديد ابن ذي يزن ، فيقول له : « فأنت - ابيت اللعن - رأس العرب ، وربيعها الذي به تحصب ، وملكها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي اليه لجأ العباد . سلفك خير سلف ، وانت لنا بعدهم خير

(١٩٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١١ .

(١٩٤) ابن الاثير ج ٢ ص ٧ وانظر السيرة والاثار المحمدية على هامش السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٨ .

(١٩٥) ابن الاثير ج ٢ ص ٥٢ ، ١٣ .

(١٩٦) انظر كتاب الاستبصار ص ١٤٦ - ١٤٧ .

خلف . . . . . وكان رد ابن ذي يزن على ذلك الكلام البليغ بكلام ذهب بين قبائل العرب مذهب الامثال . فقد قال لعبد المطلب : « مرحبا واهلا ، وناقعة ورحلا ، ومستناخا سهلا ، وملكا رُبْحَلا ، يعطي عطاء جزلا » (١٩٧) .

والاهم من كل ذلك ان ملك اليمن ، قاهر الحبشة ، بشر عبد المطلب برسول الله ووصف له صفته ، فكبر عبد المطلب وعرف صدق ما قال سيف ، ثم خر ساجدا (١٩٨) .

وفي تفصيل ذلك تقول الرواية ان حوارا دار بين سيف بن ذي يزن وعبد المطلب ، اسر فيه سيف بما كان يعرفه من علمهم ( علم الحدثن ) ، كالآتي :

- سيف : اني اجد في العلم المخزون ، والكتاب المكتون ، الذي ادخرناه لانفسنا ، واحتجينا به دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس كافة ، ولرهطك عامة ، ولنفسك خاصة .

عبد المطلب : مثلك ايها الملك من بر وسر ويشر ، ما هو ؟ فذاك اهل الور ، زمرا بعد زمر .

- سيف : اذا ولد مولود بتهامة ، بين كنفه شامة ، كانت له الامامة ، الى يوم القيامة .

عبد المطلب : ابنت اللعن . لقد ابت بخير ما آب به احد فلولوا احلال الملك لسألته ان يزيدني في البشارة ما ازداد به سرورا .

سيف : هذا حيتي الذي يولد فيه او قد ولد ، يموت ابوه وامه ، ويكفله جده وعمه ، قد ولدناه مرارا ، والله باعته جهارا ، وجاعل له منا انصارا ، يعزبهم اولياؤه . . . ويستمر الحوار وسيف بن ذي يزن يزيد في ايضاح دلائل النبوة وعلاماتها :

سيف : ارفع رأسك ، تلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل احسست شيئا عما ذكرت لك ؟

عبد المطلب : ايها الملك كان لي ابن كنت له عجا وعليه حدبا مشققا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها أمة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت بغلام بين كنفه شامة فيه كل ما ذكرت من ، علامة مات ، ابوه وامه وكفلته انا وعمه .

سيف : ان الذي قلت لك كما قلت فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فانهم له اعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فاني اجد في الكتاب الناطق والعلم السابق ان يثرب دار هجرته ويبيت نصرته ، ولولا اني اتوقى عليه الأقات واحذر عليه العاهات لاعلنت على حداثة سنه امره ، واوطأت اقدام العرب عقبه ولكنني صبارف ذلك اليك عن غير تقصير مني بمن

(١٩٧) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥

(١٩٨) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢ .



معك<sup>(١٩٩)</sup> وهكذا عرف ابرطالب شأن يتيهم ابنه عبد الله منذ مولده ، وما قدر له من البعثة النبوية فقربه من نفسه تقريبا شديدا ودعاء بابنه ، فعندما كان عبد المطلب يجلس بفناء الكعبة كان لا يقرب فراشه الا النبي وهو غلام صغير ، اذ كان عبد المطلب يسمح له بتخطي رقاب اعمامه ويقول لهم دعوا ابني ان لا يني هذا لشأنا<sup>(٢٠٠)</sup> وهكذا وقع على عاتق عبد المطلب عبء الحفاظ على النبوة وهي بعد حدث مستقبلي في حشايا محمد الصغير فكأنها اللؤلؤة المكنونة في جوف الصدفة وهي في دور التكوين ، وكان عبد المطلب وهو يقوم بدور الحاضن الامين لمبعوث العناية الالهية ، القدوة الحسنة والمثل الذي يجتذى بالنسبة للنبي الصغير ، وهكذا ، رغم ان عبد المطلب مات والنبي لم يتجاوز الثامنة من عمره فانه ليس من المستغرب ان يروى عنه انه كان يعتبر عبد المطلب أباه ، وحسبما يروي انه كان يقول في غزوة حنين « انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب<sup>(٢٠١)</sup> » هذا كما يروي عنه انه قال « ان الله يبعث جدي عبد المطلب امة واحدة في هيئة الانبياء وزي الملوك<sup>(٢٠٢)</sup> » فكان قريشا قد جمعت النبوة والملك مثلهما كان الحال في بني اسرائيل . ويؤيد ذلك ما ينسب الى النبي من انه قال في قريش ايضا : « جمعت سبع خصال لم يعطها لها احد قبلهم ولا يعطاها بعدهم » فكان الله فضلهم على العالمين كما فضل من قبل بني اسرائيل<sup>(٢٠٣)</sup> .

#### الرسالة المحمدية ومناصفة الكهان والمنتبين :

وهكذا كان تفوق قريش بقيادة عبد المطلب على قبائل العرب منذ حادثة الفيل وفشل الحيشة في الوصول الى مكة امرا طبيعيا ، وعن هذا الطريق تكون النبوة قد ظهرت في كنف آل البيت من بني عبد المطلب بن هاشم ايضا ظهورا منطقيا .

ولكن هذا لا يعني ان تفوق الهاشميين على بني عمومهم كان امرا سهلا ، كما ان نبوة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لم تتم هي الاخرى دونما صعوبات او عقبات ، والذي قد يمتنا هنا هو الاشارة الى ما عاينه النبي من الشك في رسالته وما يلحق بذلك من المنافسة من قبل اصحاب الطموح من الكهان والمنتبين ، فالذي لاشك فيه هو انه اذا كانت جماعة الفقراء والكادحين قد رأت في الدعوة المحمدية

( ١٩٩ ) النظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥ - ٢٨ و تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٢ .

( ٢٠٠ ) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ٢ .

( ٢٠١ ) العقد الفريد ج ٥ ص ٢٨٣ .

( ٢٠٢ ) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٤ .

( ٢٠٣ ) النظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٥ - وعن الحاصل السبع لمعي . النبوة ، الخلافة ، الحجابة ، الخلفاء ، الانتصار على اصحاب الليل ، انقراض عبادة الله سبع سنين او عشر سنوات دون غيرهم ، نزول سورة من القرآن فهم .

املها في الخلاص مما كانت فيه من المعاناة ، فان الدعوة لم تلق آذاناً صاغية من التجار الذين كانوا لا يهتمون الا بمكاسيهم المادية ، بينما كان من الطبيعي ان يقف رجال الدين من سدنة الاصنام والحكام والكهان ممن كانوا يعيشون على الهبات والندور موقفاً عدائياً من دعوة التوحيد الاسلامية .

هكذا وقف عم النبي وهو عبد العزى بن عبد المطلب المشهور بابي هب موقفاً عدائياً من الاسلام ، واتهم النبي بانه ذهب في دعوته مذهب الصابئة<sup>(٢٠٤)</sup> ومثله كان موقف الحارث بن قيس السهمي الذي عرف بانه دهري بمعنى طبيعي اولاديني . اما الوليد بن المغيرة المخزومي الذي عرف بالعدل لانه كان عدل فريش كلها في كسوة الكعبة فانه كان يتكلم في اختلاف اعداء الدعوة في أمر النبي ما بين القول بانه : ساحر ، او كاهن او شاعر او مجنون ، وكان يرى ان اصلح تلك التسميات هي القول بانه : ساحر لانه يفرق بين المرء واخيه<sup>(٢٠٥)</sup> على رغم ان السحر يعني التمويه والبأس الباطل ثوب الحق ، وفي ذلك قالت قريش عن القرآن : ما هذا الا سحر ، كما قالوا في النبي انه شاعر<sup>(٢٠٦)</sup> .

ومن الواضح ان التعصب القبلي كان يعمل على انتعاش حركة التنبؤ والكهانة والسحر بل والشعر ايضا ، اذا كان يسعد القبيلة ان يظهر نايغ من بين افرادها في اي من هذه المجالات ، فيعد عودة النبي كسير القلب من رحلته الى الطائف حيث اساء الثقفيون استقباله تساءل ابو الحكم عمرو بن هشام المخزومي المعروف بابي جهل ساخرا « هذا نبيكم يا عبد مناف » وعندئذ انبرى له عتبة بن ربيعة جد معاوية لأمه قائلاً « وما ينكر ان يكون منا نبي وملك ؟ وكان رد الرسول على عتبة « ما حيت لله وانما حيت لنفسك<sup>(٢٠٧)</sup> .

والظاهر ان عتبة بن ربيعة الذي يوصف بانه صاحب الجمل الاحمر وانه سيد قريش كان يطمح في النبوة ، وكذلك الامر بالنسبة للزعيم والشاعر الثقفي امية بن ابي الصلت ، ولا بأس ان يكون ذلك من دواعي موقفها العدائي من الرسول . وفي ذلك يروي عن امية بن ابي الصلت انه كان يقول : انه كان لا يجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا فكنت اظن اني هو ثم ظننت انه عتبة بن ربيعة ، الا انه قد جاوز الاربعين ولم يوح اليه فعرفت انه غيره . ثم ان ابا سفيان قال : فلما بعث محمد ( صلعم ) قلت لامية ، فقال امية : اما انه حق فاتبعه ، فقلت له : فأنت ما بمنعك ؟ قال : الحياء من نساء ثقيف اني كنت اخبرهن اني هو ثم اصير تابعا لفتى من بني عبد مناف<sup>(٢٠٨)</sup> .

(٢٠٤) ابن الأثير ج ٢ ص ٦١ .

(٢٠٥) ابن الأثير ج ٢ ص ٧١ .

(٢٠٦) العقد الفريد ج ٥ ص ١٧٢ .

(٢٠٧) ابن الأثير ج ٢ ص ٩٣ .

(٢٠٨) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٨٥ ودار المعارف لابن قتيبة ص ٢٨ (ومن سبادة عتيبي ربيعة انظر ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤ (٢٠٧) مكرر) ابن الاثير الكامل ج ٢ ص ٣٦٢ .

وفي مثل هذا التعصب القبلي ما ينسب الى واحد من اصحاب مسيلمة المنتبي ، هو طلحة التمر من انه قال لمسيلمة : « اشهد انك الكاذب وان محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر » وفي هذا النزاع القبلي الذي استمر بين الرعية والمضرية في خراسان على عهد الدولة الاموية قال المضريون : لم تزل ربيعة غضابا على ربها منذ انزل نبيه في مضر .

### فريش بين الشك واليقين : نبوة ام ملك :

ومن عرف برؤية الرؤى من القرشيين وقتل هوجهم بن الصلت بن غرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف . فقبيل لقاء القرشيين والمسلمين في وقعة بدر رأى جهم وهو في معسكر فريش رؤيا فقال : اني رأيت فيها يرى النائم رجلا اقبل على فرس ومعه بعير له فقال : قتل عتبة وشيبة وابو جهل وغيرهم ممن قتل يومئذ ورأيت ضرب لبنة بعيره ثم ارسله في العسكر فما بقي خيابة الا اصابه من دمه ، كناية عن شيوع القتل بين القرشيين في بدر . وهنا قال ابو جهل « وهذا ايضا نبي من بني عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول » (٢٠٩) .

اما عن ابي سفيان فانه حتى اسلامه عند فتح مكة ( سنة ٨ هـ ) لم يكن يفرق كثيرا بين النبوة والملوك وفي ذلك تقول الرواية انه عندما مر النبي في المهاجرين والانصار قال ابو سفيان للعباس عم الرسول : لقد اصبح ملك بن اخيك عظيما فقال له العباس : وبحك انها النبوة فقال : نعم اذن (٢١٠) وكانت مسألة النبوة والملوك هذه قد ثارت قبل ذلك في العام السابق عند فتح خيبر فلقد قامت امرأة من اليهود ، هي زينب بنت الحارث باهداء النبي شاة ( مشوية ) مسمومة وعندما اخذ النبي منها مضغاً لم يسعها وهنا اعترفت المرأة بفعلتها الشائبة ولكنها عللتها بأن قالت له : « بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان نبيا فسيخبر ، وان كان ملكا استرحنا منه » (٢١١) والمهم في تلك الرواية ان النبي لم يعرف ما في اللحم من السم الا بعد ان ذاقه ، وبذلك نقف على ارض الواقع والتجربة بعيدا عن التنبؤ ومعرفة الغيب ، وهنا لا بأس من الاشارة الى ما اجاب به النبي بعض زعماء العرب ممن وفدوا عليه في سنة (٩ هـ) وهو لقيط بن عامر بن المنتفق عندما سألوه عما عنده من علم الغيب ؟ فقال له النبي « ضَنْ ريك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن الا الله . . . علم المنية . وعلم ما في غد ، وعلم المتي حين يكون في الرحم ، وعلم الغيب وعلم الساعة » (٢١٢) ومن المهم ايضا في قصة السم ان النبي قبل تعليل

(٢٠٩) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١

(٢١٠) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٩

(٢١١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ وقارن العقد الفريد ج ٦ ص ٢٧٦ (حيث الاشارة الى ان الجبر موجود في مسند ابن ابي شبة وانه منسوب بشكل عام الى اليهود خبير الذين قالوا : أرأنا ان كنت كاذبا ان نترجح منك وان كنت نبيا لم يضرك السم .

(٢١٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨ - ٣٩

اليهودية التي ارادت بذلك النوع من التحكيم - الذي يكاد يشبه تحكيم نار القربان - ان تفرق بين الملك والنبوّة ، ومع ذلك فقد ظل النبي يشكو من اثر تلك المضغة المسمومة حتى قيل : انها كانت من اسباب مرضه الذي مات فيه . وبذلك اضيف له الفوز بالشهادة مع النبوّة .

ولقد حسم عدي بن حاتم ( الطائي ) مسألة النبوّة والملك هذه بعدما حرّضته اخته على العودة الى النبي من الشام التي كان قد هرب اليها سنة (٩هـ) فقالت له « فان كان نبيا كان للسابق ( في الاسلام ) فضله ، وان كان ملكا كنت في عز وانت انت » وامام ما شهده الزعيم الطائي من تواضع النبي سواء في وقوفه مع ضعفاء الناس وصبره على طول محاورتهم له ، او في جلوسه معه شخصيا وايتاراه اياه على نفسه بالمجلس اللين قال : « ما هذا بملك » بمعنى انه نبي صادق النبوّة (٢١٣) .

والحقيقة انه رغم الاحاح هنا على صفة النبوّة دون الملك فانه لا يضير الرسالة المحمدية ان يكون صاحبها ( قد جمع بين النبوّة والملك تماما كما كان الحال بالنسبة لداود وسليمان . حقيقة ان تعريف النبي كما جاء في الآيات القرآنية ) هو : الشاهد والمبشر والنذير والداعي الى الله والسراج المنير ، ولكن الآيات القرآنية اشتملت في نفس الوقت على كل القواعد التي تنظم حياة المسلمين على المستوى العام والخاص بفضل ما فيها من مبادئ العقيدة وقواعد الاخلاق واصول السياسة والحكم ، وعن هذا الطريق ارتبطت الآداب الدينية بالامور الدنيوية ، وفي ذلك يقول اخوان الصفا : ان الله تعالى قد جمع لنبيه محمد ( صلعم ) خصال الملك والنبوّة جميعا كما جمعها لداود وسليمان ( عم ) وكذلك جميع ليوسف الصديق ( عم ) وهم يجعلون الفترة الملكية من العصر النبوي فترة نبوة خالصة ، اما الفترة المدنية من العصر النبوي فهي التي يجتمع فيها الملك الى النبوّة .

والفترة الملكية التي تمتد الى حوالي اثنتي عشرة سنة دعا فيها النبي وعلم الدين حتى استوفى خصال النبوّة وأحكامها ، وخلال فترة الهجرة في المدينة التي امتدت حوالي عشر سنين امضاها في ترتيب امر الامة وتحذير الاعداء وجباية الخراج . . . حتى احكم امر الملك ، والمهم من كل ذلك ان النبي لما اضاف الله الى نبوته الملك لم يكن لرغبة في الدنيا ، ولكن اراد الله تعالى ان يجمع لأمته الدين والدنيا جميعا ، والحقيقة ان الاصل هو الدين ، وان الملك عارض .

وفي حكمة اضافة الملك الى الدين ينص اخوان الصفا على مبدأ « الناس على دين ملوكهم » ويقولون ان الناس لا يرغبون الا في دين الملوك وان تلك خصلة في طباعهم وجبلتهم ، والظاهر ان مسألة جمع النبوّة والملك للرسل هي التي اشكلت على اليهود والنصارى ، وانها كانت سببا في شكهم في نبوته رغم ما قام به من الاحتجاج عليهم بسليمان وداود . وبسبب التضاد بين الملك والنبوّة لم يكن الانبياء الملوك

راغبين في الدنيا . ففي قصة داود انه كان اوابا حليما ، وفي قصة سليمان انه قال : « هذا من فضل ربي ليبلوني اشكر اكر » . وكذلك عرض جبريل على النبي مفاتيح خزائن الارض فقال : خذها ولا ينقصك ما عند الله شيئا ، فقال عليه السلام : لا حاجة لي في شيء من ذلك ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب » (٢١٤) .



وهكذا اجتمعت النبوة والملك في الدعوة المخمدية ، وظهر ذلك في اصول الحكم في الاسلام الممثلة في تنظيم الخلافة التي عرفت بأنها خلافة عن صاحب الشرع ( الرسول ) في حفظ الدين وسياسة الدنيا . هذا ، ولوان اخوان الصفا لا يفرقون ما بين واضع الشريعة ( النبي ) وبين الامام ( خليفة النبي ) عندما يشترطون ان تكون في واضع الشريعة ١٢ ( اثنتا عشرة ) خصلة مثل : تمام الاعضاء وجودة الفهم ، وجودة الحفظ . . الخ وهي الشروط التي يجب ان تكون في الرئيس او الامام عند الفارابي في آراء اهل المدينة الفاضلة (٢١٥) ولا بأس ان يكون اخوان الصفا متأثرين هنا - بصفتهم من الشيعة - بفكرة العصمة التي تجعل من الامام وريث النبوة ايضا ، وعن هذا الطريق خلطوا بين الصفات المطلوبة في الامام ، تلك الصفات التي يتحل بها الانبياء ، بل واولياء الله الصالحين ، وهو الامر الذي لا ينكر على كل حال .

من هذا العرض لسير الانبياء من لون آدم الى محمد يتضح لنا ان الانبياء هم « سفراء الله » حسب مصطلح اخوان الصفا - بينه وبين خلقه ليعبروا عنه المعاني ، ويفهموها الناس بلغات مختلفة لكل امة ما تعرفه ، على قدر احتمال افهامهم ، ولما كان الانبياء هم صفوة اولياء الله وجب ان يتصفوا بخصال الصالحين من التحلي بالعقل الجيد ، والاخلاق الحميدة ، والصفات الملائكية من : الرحمة والتحنن ورقة القلب ، الى جانب دفع اغواء الشيطان وتجنب المعاصي من : كل ما لا يجل في الشريعة ولا يجوز في السنة .

وفوق ذلك ينبغي ان يتميز الرسول ببلاغة الكلام وفصاحة اللسان والحفظ لما يسمع (٢١٦) . اما عن دورة النبوة فتبدأ بالروحي ( في سن الاربعين عادة ) او الرؤيا الصادقة ، ثم يأتي نزول الكتاب وبلاغ الدعوة ثم تمام الرسالة . واذا مضى الانبياء لسبلهم ، خلفهم العلماء والحكماء وقاموا مقامهم فيما كانوا يقولون ويفعلون ويعلمون الناس من امور الدين وطريق الآخرة ومصالح الدنيا . وهكذا اصبح العلماء ورثة الانبياء - وبفضلهم اصبحت الدعوة النبوية مستمرة . وبنا على ذلك فمن قبل من الناس منهم فهو على طريق النجاة ، ومن خالفهم فهو على خطر عظيم (٢١٧) .

( ٢١٤ ) رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٤٩٦ - ٢١٧ .

( ٢١٥ ) نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٩ - واطر الفارابي وآراء اهل المدينة الفاضلة

( ٢١٦ ) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٣

( ٢١٧ ) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٤٧ .

وهكذا يكون محك الفرق ما بين النبوة والتنبيؤ هو الهدف المنشود من وراء الدعوة ، فان كان خيرا فهو النبوة ، وان كان شرا فهو التنبيؤ ، وما يلحق به من الكهانة والعرافة والسحر ، وهذه الفكرة - على بساطتها - تمثل حتمية انتصار الخير على الشر او الحق على الباطل ، وهي الفكرة التي تبناها ابن خلدون في الدفاع عن الدعوات المذهبية التي كانت موضع خلاف بين المسلمين مثل : الدعوة الادريسية ، والدعوة الفاطمية ، والدعوة الموحدية في بلاد المغرب . فهو في معرض دفاعه عن صحة انساب اصحابها يستند الى نجاح كل منها ويقول : انه لولا ذلك لما قدر لها النجاح ، فكأنه يأخذ فعلا بحتمية انتصار الخير والحق .

اما عن الفكرة الاساسية التي حاولنا التركيز عليها في عرض قصص الانبياء وما لحق بهم من المتنبئين فهي العلاقة الوثيقة بين الاسلام بصفته آخر الاديان السماوية ( الالهية ) وبين الديانات السابقة عليه من لدن آدم اول المبعوثين الى ابراهيم ابي الانبياء ، الى عيسى اخر انبياء بني اسرائيل ، بل ومرورا بانبياء الفرس ورسل اليونان وحتى متنبئي العرب وكهانهم الى عهد الرسول - فكان الاسلام هو الهدف النهائي لكل الديانات على اختلاف مشاربها ، وهو الامر المقبول بالنسبة لآخر الرسالات وكان النبي محمد هو قطب الرحي ومركز الدائرة في تلك الدورات من النبوة والتنبيؤ .

والتقاء الانبياء والمتنبئين في التبشير بالنبي ( صلعم ) يعني المشاركة في وحدة الهدف ، وبالتالي المشاركة في صحة الدعوة ، وعن هذا الطريق يكون الاسلام عامل ربط بين مختلف الاديان التي لا تختلف في اصولها العامة . اما عن اختلافاتها في الفروع فتنتج عن طريق التفسير والشرح والتأويل وهو الامر الذي كان يتطلب شيئا من المراجعة والتعديل الى ان انتهى الامر بخاتم الانبياء والرسول الذي جمع له المتأخرون من اصحاب السيرة والملاحون من العباد والمتصوفة كل الخصال الجميلة والخلال الحسنة والاداب الفاضلة ، كما جعلوا له المعجزات الكبيرة والخوارق الباهرة والآيات الكريمة ، حتى لا يفضلوه في اي منها نبي ولا متنبئ . ولم يكن من الغريب ان ينتهي الامر بان يصبح النبي في عيون اوليائه من المسلمين اصل الوجود في دنيا البشر ، وهكذا قال ابن عربي ( ت ٦٣٨ هـ ) : لولم يكن نور سيدنا محمد لما اكتشف سر على وجه الارض ولما تفجر ينبوع او جرى نهر . والذي لاشك فيه ان ابن عربي يأخذ بفكرة وحدة الاديان وهو ما يظهر في كتابه « نقش الفصوص » الذي تسلسل فيه الحكم الالهية ممثلة في كلمات الانبياء ، ابتداء من الكلمة الادية وما يليها من : النوحية والادريسية والابراهيمية والعيسوية ، وانتهاء بالكلمة المحمدية (٢١٨) مسك الختام .

( ٢١٨ ) انظر كتاب نقش الفصوص طبعة جند آباد ١٣٧٧/١٩٤٨ مجموعة رسائل ابن عربي - دار احياء التراث العربي - بيروت .

## المعراج في عصور ما قبل الاسلام

اهتم الانسان من قديم بالفضاء الأعلى او بالعالم الآخر ، وصار يعلم بآثاره وكشف غياهبه ، ولعل اقدم حلم مدون عن الصعود الى السماء ورد في نصوص الاهرام المصرية وفي ادب العراق القديم ، ثم في ديانات الفرس والهنود ، فضلا عن الاساطير اليونانية .

لقد كان قدماء المصريين ، يؤمنون بوجود حياة اخرى بعد الممات ، وانها الحياة الباقية بعد هذه الدنيا الفانية التي ليست الا ممرا الى ذلك الخلود حيث النعيم المقيم للاخيار ، والعذاب الاليم والجحيم المظلمة للاشرار ، وعندهم ان اوزيرس يزن اعمال الناس ويدفع بهم الى الجزاء العادل ، وان هناك حسابا عسيرا يمر فيه المحاسب على الصراط المستقيم وهو طريق ممدود فوق الجحيم ، فاذا اجتازه الشخص نجح وارتفع الى مرتبة الآلهة ، واذا سقط من فوقه انتهى الى واد فيه الافاعي والحيات التي تتولى عقابه حتى ينال جزاءه<sup>(١)</sup> .

## المعراج<sup>(٢)</sup> وصداه في التراث الإنساني

احمد مختار العبادي

(١) حول غير كلتي الاسراء والمعراج ، يرى العلماء ان المقصود شري - فوسرى به اي سوره نبال ، وفي قوله تعالى « سبحان الذي اسرى بدينه ليل » التأكيد لان الشري لا يكون الا بالليل اما المعراج (يكثر لفظه او فصحا) فليس معراجا ، اي لوقى وصعد لومل مع حبب الى جانب . والمعراج هو الطريق الذي يمتد فيه اللذلة في الارواح اذا تقيقت والمقصود بالمعراج في رأى علماء القصد هو الصعود في خط مائل الى الفضاء الكوني الى طرف في اسفل المخطوط للتعلمية التي تمهدها في الارض الى المخطوط للجنة في الصخرة نظرا لاسم تلك المسالك والابواب في اسفلها وقد ثبت تلكا ان كل ما في الفضاء اذا يسبح في مسلمات ممتدة . وقد تشتمل من هذه القاعدة الرواية القليلة بان عروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بيت المقدس فملت كل سورا لان باب السه الذي يطل به مصعد اللذلة يطل بيت المقدس .

كللك يطل المعراج على الفرج او الفصد وقيل للذلة الاخيرة ورد ذكرها في قوله تعالى « ام هم سلم » يستعملون فيه ، فليست مستعملهم يستعملون (سورة الفجر ٥٢/٥٣) وفي قوله تعالى « فان اسعفت ان تبني فخا في الارض فوسلا في السية » (سورة الانعام ٦/٣٥) . وفي بعض الروايات ان المعراج الذي صعد عليه الرسول سلم له عشر مرات : سبع الى السموات واثنان الى سادة النسخ واثنين الى السوى والمثلث الى العرش . راجع (ابن كثير) : لس العرب ج ١٩ ص ١٠٣ - ١٠٤ السورة المخطئة ج ١ ص ٥٠٧ ، ٥٢٠ .

(٢) محمد ابو زمره : الديانات القديمة ص ١٦ (طاهر الحكيم)

وكان المصريون القدماء يعتبرون الملك إنها أكثر منه انسانا ، فأطلقوا عليه لقب « الآله الطيب » و « سارع » او ابن الشمس ، وسموا بيته بالبيت الكبير « برعو » وهي الكلمة التي اطلقت فيما بعد على الملك نفسه تحت الصورة التي حرفها اليونان الى فرعون<sup>(٣)</sup> .

وكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة في السماء . ويفهم من نصوص الاهرام ( ٢٣٥٠ - ٢١٧٥ ق . م ) التي عاصرت احداث الدولة القديمة والتي تضمنت تعاويذ سحرية كثيرة ، ان الغرض الرئيسي منها هو تمكين الملك المتوفي من ان يأخذ مكانه بين الآلهة ، وليصبح متحدا مع رع ملك الآلهة . بل لعل الغرض من كثرة اعداد هذه التعاويذ هو التأكيد على صعود الملك الى السماء . كذلك يفهم من خلال الوصف الذي صورته تلك النصوص في هذا الصدد ، ان ذلك المعراج الملكي ، كان على اجنحة ورياش الصقر حورس المضيفة والذي كانت عيناه تملآن الشمس والقمر . وقد اختلفت اشكال اجنحة ذلك المعراج ، كما اختلفت المراقي من سلام ودرجات ومنحدرات . وإلى هذه العقيدة يتجه تفكير الفرد الى اهرامات الجزيرة ذات الطرز المعمارية العجيبة التي رفعت البناء في تلك الايام الى ارتفاعات شاهقة بالشكل الهرمي الخاص بالقبور الملكية في الدولة القديمة . لقد صور فيها استقبال الملك بواسطة الآلهة ، واللحظة التي اخذ مكانه في سفينة الشمس الخاصة بالاله رع دون ان يسمح لاحد ان يعترض - طريقة<sup>(٤)</sup> .

اما في الأدب العراقي القديم ، فنجد ايضا ما يشير الى حلم البشرية بالصعود الى السماء من قديم ، ممثلا في اسطورة ايتانا الراعي ETANA الذي عرج الى السماء على ظهر نسر ووطد جميع البلاد . وقد صورت اسطورة صعوده الى السماء في اختتام العصر البابلي القديم ، في الالف الثاني قبل الميلاد ، حيث يظهر انسان على ظهر نسر . وملخص هذه الاسطورة ، ان رجلا اسمه ايتانا ، كان يسعى للحصول على نبات من السماء له خاصية الحمل لأن امرأته كانت عاقرا . ولما استعطف ايتانا الاله ان يذله على السبيل الذي يحصل على النبات ، نصحه بأن يذهب الى حفرة وقع فيها نسر عظيم ، فتكسرت اجنحته ، ونسف ريشه حتى كاد يهلك جوعا . ففعل ايتانا وذهب الى النسر واتفق معه على ان يخلصه من الموت ، على ان يتعهد بان يجعله بمطعي ظهره ليصعد الى السماء .

ويعد ان تعاقب النسر ونبت ريشه واستعاد قوته ، اعطى ايتانا ظهره فطار به الى السماء ، واخذ يرتفع ويرتفع وفي كل مرة كان النسر يطلب منه ان ينظر الى حجم الارض . فشاهدها كأنها اثل وبحارها كالانهار الصغيرة . واستمر في الصعود حتى بلغا مدخل سماء أنو ( وهي السماء السابعة ) .

(٣) نيب نيتل : مصر وشرق الان القديم ج ١ ص ٢٢٣ (ط ١ للوط ١٩٦٦ )

(٤) عبد الحميد زيد . مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ اقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق . م ص ٢٧٧ - ٢٨٠ (ط ١ طبعة القاهرة ١٩٦٦ )



وعلى الرغم من ان النص ينخرم عند هذا الموضع ، الا انه يبدو ان ايتانا قد حصل على الثبات الذي يساعد على الحمل ، ببديل ورود اسم الملك « بالخ » في اثبات الملوك السومرية على انه ابن ايتانا الذي خلفه في الحكم في سلالة كيش الاولى<sup>(٥)</sup>.

وفي ديانة الهند ، نجد يود هيشترا يهبط الى الجحيم حيث رائحة الاثام والجلث والديدان والهوام والطيور الكواسر وامواج اللهب ، بينما يصعد ارجنا الى السماء ملوئ المؤمنين حيث الازهار الجميلة ، والخوريات تحت الاشجار الخضراء والانغام السماوية ، ويصل البطل عاطا باللائكة وصفوة البراهمة الى حضرة رب الارباب<sup>(٦)</sup>.

وفي ديانة زرادشت Zorastre، نبي الفرس (قرن ٧ ق . م ) ، نجد ما يسمى بجسر الحساب الذي يمر عليه النفس بعد الموت وهو صراط ممدود على شفير جهنم ، يتسع للمؤمن ويضيق للكافر حتى يصبح ارق من الشعرة .

فمن عمل صالحا جاز الصراط بسلام ، ولقي اله الخير احورا مزدا في السماء ، والا سقط في الجحيم وصار عبدا لاله الشر اهرمن . وان تعادلت سيئاته وحسناته ذهب الروح الى الاعراف الى يوم الفصل<sup>(٧)</sup>.

اما الاساطير او الميثولوجيا اليونانية ، فقد وردت فيها اشياء مشابهة ، مثل اسطورة الاله زيوس Zeus ، اله السماء والفضاء الاعلى ، الذي تقمص في شكل نسر واختطف الشاب الجميل جانيميديس Ganymedes ابن ملك طرواده ، ثم عرج به الى عرشه في السماء ليتخذ منه ساقيا له بعد ان ارضى اياه ملك طرواده بمجموعة من الجياد الكريمة<sup>(٨)</sup>.

وهناك أيضا مسرحية السلام لامام الكوميديا القديمة في اليونان ارسطو فانيس ( ٤٠٠ - ٣٨٥ ق . م ) الذي جعل من بطل مسرحيته تريجاوس Trygaeus ( اي قاطف الكروم ) رجلا ريفيا أميناً قد ربي جعلاً او خنفساء ضخمة ، ثم ركب فوق ظهرها ، وحلق في السماء ليستنجد بربة السلام ايريني Eirene ، كي يحل السلام في بلاد اليونان ، ثم يجمع تريجاوس قبل عودته الى الارض رجلاً فضلاء من شتى الانحاء ( الكورس ) للبحث عن ربة السلام . وبعد جهد ومشقة يعثر تريجاوس والرجال الفضلاء على ايريني ويحيطونوا اله الحرب لسحق الدويلات اليونانية ، وبذلك تعود ربة السلام لتباشر مهامها . ثم يهبط تريجاوس الى الارض من السماء مستخدماً في نزوله صورة ضخمة لربة السلام كعمراج او سلم له مراقي او عتبات<sup>(٩)</sup>.

(٥) طه باقر : مقدمة في ادب العراق ص ١٣٢ - ١٣٤ (خليفة بغداد ١٩٧٦)

(٦) حسن شاك : كوميديا نكتي الجبيري ص ١٠٥ (دار الفيل).

(٧) احمد لين : فخر الاسلام ص ١٠٢ - ١٠٤ ( مكتبة النهضة المصرية ) .

(٨) عبد القليل احمد علي : الفتح الربيعي ص ١١٩

(٩) عبد القليل احمد علي : مصادر الفتح الربيعي ص ٢١٥ .

اما المراج في المسيحية ، فيعتقد المسيحيون بان للسيد المسيح عليه السلام معراجا او قيامة في الفصح بعد ثلاثة ايام من صلبه ووفاته ودفنه ، وان ذلك تم بطريقة - اعجازية خارقة ، انحلت بها الاكفان ، وفتح القبر بقوة الهية وصعد يسوع بجسده الى السماء بعد ان اكمل عمله في الارض .

وعلى هذا الاساس تعد هذه « القيامة » ركنا هاما في العقيدة المسيحية ، وتتفق فيها كافة الطوائف المسيحية ، بناء على ما ورد في الكتاب المقدس في قوله « وذا رجل اسمه يوسف وكان رجلا صالحا بارا . . . تقدم الى بيلا طس ( الحاكم الروماني ) وطلب جسد يسوع ، وانزله ولفه بكتان ، ووضعه في قبر منحوت ، حيث لم يكن احد وضع قط . . . وبعثته نساءكن قد اتين معه من الجليل ، ونظرن القبر وكيف وضع جسده . فرجعن واعددن حنوطا واطيبا . وفي السبت استرحن حسب الوصية . ثم في اول اسبوع ، اول الفجر ، اتين الى القبر حاملات الحنوط الذي اعدته ومعهن اناس ، فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع . وفيها هن مختارات في ذلك اذا رجلا ن وقفا بهن بثياب براقة .

واذا كن خائفات ومنكسات وجوههن الى الارض ، قالا هن « لماذا تطلبن الحي بين الاموات ؟ ، ليس هوهنا لكنه قام » . . . ورجعن من القبر ، واخبرن الاحد عشر ، وجميع الباقين بهذا كله . . . فصرى كلامهن لهم كالحذيان ، ولم يصدقهن ، فقام بطرس وركض الى القبر فانحنى ونظر الاكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا في نفسه بما كان (١٠) .

ومن اقوال المسيحيين كذلك ، ان السيد المسيح نزل على الارض بعد ستة ايام من رفعه وانه اخذ بطرس ويعقوب ويوحنا اخاه ، وصعد بهم الى جبل عال منفردين ، وتغيرت هيئته اقدامهم ، واضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج وفيها هو يتكلم اذا سحابة نيرة ظلتهم وصوته من السحابة قائل « هذا هو ابن الخبيب الذي سررت له ، اسمعوا » ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا « ثم بهم في الارض دعاة الى الله . ثم رفعه الله اليه ليعود للجلوس بجواره . . . ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية الى الارض ويعيد السلام والبركة (١١) .

اما موقف علماء المسلمين من المراج العيسوي الى الحق سبحانه وتعالى ، فمختلف فيه ، وان كانت آراؤهم كلها تقوم على اساس ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، وما هم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما (١٢) » وفي قوله تعالى ايضا « يا عيسى اني متوفيك ورافعتك الى ومطهرتك من الذين كفروا (١٣) » .

(١٠) التحل لثة : الاصلح الرابع والعشرين من ١٣٧٨ هـ الى العربية الفصحى مكرم نجيب ( دار الفتنة للسيرة القامرة )

(١١) احد القلي الجساري ( ١٣٧٩ هـ ) : تحصيل الايام من ٤٠٠ - ٤٠٣ ( القامرة ١٩٥٤ ) عبد العزيزة . الفتيل القلية من ٣٩ ، ٦٠ - ٦١ ( طر الفكر العربي )

(١٢) سورة البقرة ١٥٧ - ١٥٨

(١٣) سورة آل عمران ٥٥ .

وليس موضع خلاف على الإطلاق عند المسلمين ، ان عيسى نجا من الصلب والقتل ، فالآية الكريمة السابقة واضحة للدلالة على ذلك ، اما مسألة رفعه حيا بجسمه الى السماء فهي مسألة خلافية ، ايدها بعض علماء المسلمين وعارضها البعض الاخر قائلين بان السيد المسيح بعد ان نجا من القتل عاش زمنا حتى استوفى اجله ثم مات ميتة عادية ، ورفعت روحه الى السماء مع ارواح النبيين والصدّيقين والشهداء . وان قوله تعالى « ورافعت الي ، معناه رفع الدرجة والمكانة عند الله ، كما قال تعالى في ادريس » ورفعناه مكانا عليا » .

اما مسألة نزول عيسى عليه السلام من السماء الى الارض في آخر الزمان فقد قررتا الاحاديث النبوية كقول مسلم في صحيحه عن رسول الله ( صلعم ) « ان عيسى سينزل في آخر الزمان فيقتل المسيح الدجال » وان كان القرآن الكريم ليس فيه ما يفيد عن نزول عيسى مرة اخرى (١٤) .

هذا وتراث المسيحية في العصور القديمة والوسطى مليء برؤى القديسين عن العالم الآخر ، التي تصف عذاب الأئمنين في الجحيم بين النيران والزمهرير والوحوش والأفاعي ، كما تصف سعادة الأبرار في الفردوس مع الملائكة في السماء يشدون الترانيم العلوية . ولقد جاء في الرسالة الثانية للقديس بولس وصف لصعوده الى السماء ومشاهدته جسرا ادق من الشعر يمتد فوق نهر عكر مضطرب ، ويصعد الى السماء وتعبه النفوس الصالحة في سهولة ويسر ، على حين تسقط عنه النفوس الشريرة فيجرفها تيار النهر الصاخب (١٥) .

### الاسراء والمعراج في الاسلام :

الاسراء والمعراج ، رحلة ليلية للرسول ( صلعم ) في عمق الفضاء والزمن ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وفي تفاسيره المختلفة ، وفي الاحاديث النبوية وكتب السيرة ، واقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من الائمة الصالحين ، بحيث تعتبر ركنا اساسيا في العقيدة الاسلامية .

ويمكن حصر النصوص القرآنية التي وردت حول هذا الحادث الهام في الآيات التالية :

« سبحانه الذي اسرى بعبد له ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » (١٦) .

« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالاقي الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأنشأ الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رى من آيات ربه الكبرى » (١٧) .

(١٤) راجع لمصطفى في (احمد دلي) : مظلة الايمان ص ٣٨-٥٢ . كلمة لجمعة بالقاهرة ١٩٧٣ .

(١٥) حسن عثمان : التكملة في الآيات للشيخ محمد بن (الحكيم) ص ٥٧-٢٠ (المطبعة) ص ١٩٨ .

(١٦) سورة الاسراء آية ١ .

(١٧) سورة القصص الآية ١-١٣ .

« انه لقول رسول كريم ، ذوقه عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق  
المين ، وما هو على الغيب بضين ، وما هو بقول شيطان رجيم » (١٨) .

اما أسانيد الاسراء والمعراج في السنة الشريفة ، فقد تعددت رواياتها وصورها التي اخرجها ائمة الحديث ، كما  
تعدد سند كل صورة منها ، اي اختلف الرواة الذين رووها فيروها بعضهم مختصرة ، ويروها البعض الاخر في  
اسهاب كثير ويذكر بعضهم ما لم يذكره البعض الاخر . هذا بالإضافة الى الاساطير الخرافية التي تخللتها على مر  
العصور بفعل الإضافات والمبالغات التي ترجع الى اصول بعيدة . غير ان الروايات مع ذلك تنفق جميعا في جوهرها  
للمؤثر (١٩) .

وفيما يلي عرض موجز لحادثة الاسراء والمعراج برواية الصحابي الجليل ، وابن عم الرسول ( صلعم ) عبد الله بن  
العباس بن عبد المطلب (٢٠) .

### وصف ليلة الاسراء والمعراج برواية ابن عباس (٢١) ( عرض موجز ) :

قال رسول الله ( صلعم ) :

« كنت في بيت ام هاني بنت ابي طالب ، رضي الله عنها ، واسمها فاختة ليلة الاثنين ، ليلة السابع والعشرين  
من رجب سنة ثمان من البعثة ، واذا بالبالب قد طرقة طارق ، فخرجت فاطمة الزهراء لتري من الباب ، فرأت  
شخصا عليه الحلى والحلل وله جناحان اخضران قد سد بها المشرق والمغرب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجواهر  
مكتوب على جبينه لا اله الا الله محمد رسول الله . . . فخرج النبي ( صلعم ) فلما رآه فاذا به جبريل عليه السلام ،  
فقال : يا اخي يا جبريل ، اوحى نزل ، ام وعد حضر ، ام امر حدث ؟ قال : يا حبيبي قم والبس ثيابك وسكن  
قلبك فانك في هذه الليلة تناجي ربك .

### وصف البراق :

فلما سمعت كلام جبريل عليه السلام ، نهضت قائما فرحا مسرورا ، وشلخت على ثيابي ، وخرجت الى

(١٨) سورة الفجر الايات ١٨ - ٢٩ .

(١٩) عبد المليم عبيد : الاسراء والمعراج ص ٦٤ ( ط المطبوع بقم ) .

(٢٠) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب شخصية علمية زاهرة في الدنيا والدين لا كان يؤخذ به فخر القرآن ورواية الحديث ، بل له حرالامة ، وله قول المصنفه صرح بجلالات سؤلات رالام الرسول في صبه  
واطاعه . دورى ان الرسول حبه له وقال : فليم علمه دين وقاه في القليل ، وقيل الرسول يعزى الي ثلاث عشرة سنة . وكان يصح الفراء صرح لوجه طيلا جسيما رائدته في فروع العيلة في قدا عبد الله بن  
سعيد بن ابي السرح سنة ٢٧ هـ في الفرية تضم الى الامم علي بن ابي طالب وزيد ، فوالا على قصرة وبعد نقل الامم علي سنة ٤٠ هـ تركه البصرة ورسول الى الحلب حيث قدم بخلط سفا للاحوي ورفض للعلم الى اى  
قولى سنة ٤٨ هـ . وبعد لله بن جليل موالا بن قفل الياس بن عبد المطلب بن سله بعد بيت الجلسي . اما بعد انه الجلسي فلم يكن لهم علق بقى . راجع ( ابن حجر العسلائي : الاسانيد في تميزه نسخة حـ ٢  
ص ٣٣٠ رقم ٧٨٠ ) وقدر الفرائد ما قال انه يجلد في ان تكون رواية ابن عباس في وصف المعراج الذي هي الاصل العربي للشعور للرواية الادوية للرجحة في عهد تلك الاسانيد الفريسي البطار في القرن الثالث  
عشر لالاي ( ٧٧ ) في ذوقه في حله فقرة اسم شخصيين سفا على كل ما نقله الرسول ( صلعم ) الذي امرما يتبين كل ما حدث وما : يوكرز في عر ٢ لا شك ان الاسم الاول يعني يا بكره هاضق اول من  
صدق لروا اما الاسم الاخر بن عر ؟ فقلب لفظ له تعرف الاسم الى عباس ، بن عم الرسول الذي كانت وكشرت روايه عن لاسراء والمعراج كما ابا في الوقت نفسه تبه الى حد كبير لرواية الادوية للرجحة .

(٢١) الاسراء والمعراج لالام ابن عباس ، رسالة في ٢٩ صفحة طعت في شركة الشريفي بقم

الصحراء فاذا بالبراق<sup>(٢٢)</sup> قائما وجبريل يقوده واذا هودابة لا تشبه الدواب ، فوق الحمار ودون البغل ، له وجه كوجه ابن آدم وجسده كجسد الفرس ، عرفها من اللؤلؤ الرطب ، منسوج بقضبان الياقوت يلعب بالنور واذاها من الزمرد الاخضر وعيناها مثل كوكب دري يوقد ، لها شعاع كشعاع الشمس ، عليها جل<sup>(٢٣)</sup> مرصع بالدر والجواهر . . . فدنا مني فركبته .

### الاصوات المتأدية :

فينما انا في المسير بين السماء والأرض ، واذا بصائح عن يميني وهو يقول « قف يا محمد فاني انصح لك ولأمك فست ولما التفت اليه ، وكان ذلك فضلا من الله تعالى ثم سرنا ما شاء الله ، واذا بصائح عن شمالي وهو يقول « قف يا محمد فاني انصح لك ولأمك » فست ولما التفت اليه وكان ذلك فضلا من الله تعالى ، ثم سرنا ما شاء الله واذا بالمرأة ناثرة شعرها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى من الحلل والجواهر والدر والياقوت قد اشرق حسنها وجملها وهي تتلاني وتقول « يا محمد قف حتى اكلمك ، فاني انصح لك ولأمك فست ولم أقف وكان ذلك فضلا من الله عز وجل ، ثم سرنا ، واذا عن يميني شاب حسن الثياب طيب الرائحة فلما رأيته قبلت وسلم علي وعانقني ثم غلب عني فقلت : يا اخي يا جبريل ، اخبرني عن الصالح الذي ناداني في الطريق ، فقال : اما الصالح الاول ، فهو داعي النصاري ولو اجبته لتصرت امك من بعدك . واما الصالح الثاني فهو داعي اليهود ، ولو اجبته لتهودت امك من بعدك . واما المرأة الناثرة شعرا المتزينة بالحلل فذلك الدنيا ، ولو اجبتها لاختارت امك الدنيا على الآخرة . واما الشاب الذي سلم عليك فهذا دين الله عز وجل ، فان امك يعيشون مؤمنين .

### الوصول الى بيت المقدس :

ثم ان جبريل سبقني الى بيت المقدس فتبعته ، واذا هو قد اقبل ومعه ثلاثة اقداح في الاول لين ، وفي الثاني خمر ، وفي الثالث ماء . فقال لي اشرب اياها شئت ، فاخذت اللبن فشربته الا قليلا ، فقال لي جبريل : اخذت الفطرة كلها<sup>(٢٤)</sup> ولو اخذت الخمر لغوت امك ، ولو اخذت الماء لغرقت امك .

### وصف المعراج :

ثم ان جبريل عليه السلام اتى بي الى الصخرة واذا بالمعراج قد نصب الى الصخرة من عنان السماء<sup>(٢٥)</sup> فلم ار

(٢٢) البراق : سمي كذلك لانه يركب لركبته لولاه كان لا يرين ايض ويسود يقل شاة يركب اذا كان حلال صوته الايض صوته راسح (السورة الحليحة حد ١ ص ٤٩٢) .

(٢٣) الجبل القوس او القبة كقالب الانسان تصان به بالبيع جلال واجلال .

(٢٤) الفطرة هي الهمة التي يصف بها كل موجود في اول زمان خلقه لكل موجود وادع الفطرة والى هذا الانساق والفظ ولا حظ في شرب لبن الفريال لله ملاع من الدرب لكل مجتهد من ابد السبل . وما زلت علة اسفل هبوب بالن رفسرسة شائعة في القرب الى اليوم

(٢٥) لم لي حكمة المخرج من بيت القدس ان هذه الفرية هي بيت الرسالات السلفية كالفريفة والمسيحية وغيرها . فلفظ الاسلام بها في هذا الوقت للتعظيم من علة الاسلام وتبروجه من لفظة النبي ولفظته على هذه الالاف وقد يؤيد هذا ما ورد في سورة اخرى المعراج ان الرسول صلى بلانية حلك على ملة لاربع المخلل راسح (عقبي للموسى للمعراج ص ٥٠) (بروت ١٧٧٨) .

شيئا احسن من المعراج وهو مرقاة من الذهب ومارقة من الفضة ومارقة من الزبرجد ومارقة من الياقوت الاحمر ، فضممني جبريل الى صدره ولقني بجناحه وقبل ما بين عيني وقال : إِرْقْ يا محمد ، فصعدت أنا وجبريل فحارنظري من مقامات المتعبدين ، واذا بملائكة لا يحصى كثرتهم الا الله تعالى يسبحون الله تعالى لا يفترون .

### السماة الاولى ( الرفيعة ) ولقاء جده اسماعيل :

ثم صعد الى سماة الدنيا في اسرع من طرفة عين ، وبينها وبين الارض خمسمائة عام ، وسمكها مثل ذلك . فطرق الباب ، فقالوا : من هذا ؟ فقال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ( صلعم ) قالوا : أو أرسل اليه ؟ قال : نعم قالوا : مرحبا بك ومن معك . ففتحوا الباب ودخلناها ، فاذا هي سماة من دخان يقال لها الرفيعة ، وليس فيها موضع قدم الا وعليه ملك راكم او ساجد ، ونظرت فاذا فيها نهران عظيمان مطردان ، فقلت : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذا النيل وهذا الفرات ، عنصرهما اي اصلهما من الجنة (٢٦) ، واذا بنهر اخر وعليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضربت يدي فيه فاذا هو مسك اذفر . فقلت : ما هذا النهر ؟ فقال : هذا الكوثر الذي خبأه الله لك .

ثم نظرت فاذا بملك عظيم الخلفة وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو موكل بسبعين الف ملك مسومين بانواع الحلى والحلل ، بيد كل واحد منهم حرية من نور ، وهم جند الله تعالى . فقلت : يا اخي يا جبريل من هذا الملك العظيم ؟ فقال : هذا اسماعيل خازن سماة الدنيا ، اذن منه وسلم عليه . فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد السلام وهنأني بالكرامة من ربي عز وجل وقال ابشريا محمد ، فالخير كله فيك وفي امتك الى يوم القيامة . فقلت : لربي الحمد والشكر .

### السماة الثانية ( الماعون ) ولقاء يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم :

ثم صعدنا الى السماة الثانية في اسرع من طرفة عين ، وبينها وبين سماة الدنيا خمسمائة عام ، وسمكها مثل ذلك . . . ففتحوا لنا الباب ودخلناها ، فاذا هي سماة من حديد يقال لها الماعون ، ورأيت فيها من الملائكة ركبانا على خيول مسومة ، متقلدين السيوف ويأبدهم الخراب . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء جند من الملائكة خلقهم الله تعالى لنصرة الاسلام الى يوم القيامة . ورأيت فيها شابين متشابهين فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : احدهما يحيى بن زكريا ، والاخر عيسى بن مريم عليهما السلام . اذن منهما وسلم عليهما ، فدنوت منهما وسلمت عليهما فردا على السلام .

(٢٦) في سورة النجم لقعة المعراج يروح من سدرة القهى أربعة اهل : اهل الطهارة وسيدى وسيدى (سبحون وسبحون) رابع (سورة الحلقه - ص ٢٣١)

أما عيسى فإنه سطر الشعر ، جميل الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة كأنه خارج من ديباس<sup>(٢٧)</sup> وأما يحيى فرأيت على وجهه أثر الخشوع .

#### السهاء الثالثة ( المزية ) ولقاء داود وسليمان ويوسف :

ثم صعدنا الى السهاء الثالثة . . . فاذا هي سباء من نحاس يقال لها المزية ورأيت فيها ملائكة معهم الروية خضر . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء ملائكة ليلة القدر وشهر رمضان ، يطلبون مجلس الذكر وبجالس الشهداء ويسلمون على اهل صلاة الليل ، ورأيت فيها شيخا وشابا . فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال : داود وسليمان عليهما السلام . أدن منها وسلم عليهما . فدنوت منها وسلمت عليهما ، فردا السلام وهنائي بالكرامة من ربي .

ونظرت فاذا بينهما غلام جالس على كرسي من نور وقد اشرق النور من وجهه وصورته كالقمر ليلة البدر . فقلت من هذا الشاب يا جبريل ؟ قال : هذا يوسف بن يعقوب ، فضله الله بالحسن والجمال . فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنائي بالكرامة من ربي .

#### السهاء الرابعة ( الزاهرة ) ولقاء ادريس وعزرائيل وابراهيم :

ثم صعدنا الى السهاء الرابعة فاذا هي سباء من فضة بيضاء يقال لها ( الزاهرة ) ورأيت فيها اصنافا من الملائكة ، كما رأيت رجلا على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع فقلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا اخوك ادريس ، ادن منه وسلمت عليه . فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام . ثم رأيت ملكا عظيم الخلق والمظهر قد بلغت قدماء تحوم الارض السابعة ورأسه تحت العرش وهو جالس على كرسي من نور ، والملائكة بين يديه . وعن يمينه لوح ، وعن شماله شجرة عظيمة ، الا انه لم يضحك ابدا ، فقلت يا اخي يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا هازم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وغرب البيوت ، ومعمم القبور . . هذا ملك الموت ، عزرائيل . فدنوت منه وسلمت عليه ، فلم يرد علي السلام فقال له : لم لا ترد السلام على سيد الخلق ؟ فلما سمع كلام جبريل وثب قائما ورد السلام . . . فقلت يا اخي عزرائيل ، هذا مقامك ؟ قال : نعم ، منذ خلقتني ربي الى قيام الساعة : فقلت : كيف تقبض الارواح وانت في مكانك هذا ؟ قال : ان الله مكنتني من ذلك ، وسخر لي من الملائكة سبعين الف ملك ، افرقهم في الارض ، فاذا بلغ العبد اجله واستوفى رزقه ، وانقضت مدة حياته ارسلت اليه اربعين ملكا يعالجون روحه فيزعونها من العروق والعصب واللحم والدم ، ويقبضونها الى السرة ، ثم يرمونها ساعة ثم يجذبونها الى الحلقوم

فضع الغرغرة ، فأتاؤها واسلها كما تسلم الشعرة من العجين ، فإذا انفصلت من الجسد ، جمدت العينان وشخصتا لأنها يتبعان الروح ، فاقبضهما بأحدى حرتي هاتين وإذا بيده حرية من نور وحرية من سخط فالروح الطيبة يقبضها بحرية النور ويوصلها الى عليين ، والروح الخبيثة يقبضها بحرية السخط ويوصلها الى سجين وهي صخرة سوداء مدلهمة تحت الارض السابعة السفلى فيها ارواح الكفار والفجار قلت : وكيف تعرف حضر اجل العبد ام لم يحضر ؟ قال : يا محمد ، ما من عبد الا وله في السماء بابان : باب ينزل منه رزقه وياب يصعد اليه عمله ، وهذه الشجرة التي على يساري ما عليها ورقة الا عليها اسم واحد من بني آدم ذكورا واناثا . فاذا قرب اجل الشخص اصفرت الورقة التي كتب عليها اسمه ، وتسقط على الباب الذي ينزل منه رزقه ويسود اسمه في اللوح فاعلم انه مقبوض فانظر اليه نظرة يرتعد منها جسده ، ويتوكل قلبه من هيبتي ، فيقع في الفراش فارسل اليه اربعين من الملائكة يعالجون روحه وذلك قوله تعالى « حتى اذا جاء احداكم الموت ، توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

قال النبي ( صلعم ) : فودعته ، وتقدمت امامي ، فاذا برجل صبيح الوجه غزير العقل . فلما رأي ضحك مبسها . فقلت يا اخي جبريل من هذا ؟ قال : هذا ابوك ابراهيم الخليل ، اذن منه وسلم عليه . فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد على السلام وهنأني بالكرامة ..

#### السماء الخامسة ( المتيرة ) ولقاء مع مالك خازن النار ووصف جهنم :

ثم ارتقينا الى السماء الخامسة . . . فاذا هي سماء من الذهب الاحمر واسمها المتيرة وهذا ملك عظيم الخلقه مرهوب النظر ، ظاهر الغضب ، شديد البأس ، صعب المراس بين عينيه عقدة لو اشرف بها على أهل الارض ، لما تواروا عن اخرهم وغارت منه البحار وتقطرت منه الجبال . قلت يا اخي جبريل من هذا الذي اقشعر منه جلدي ورجف منه فؤادي ؟ قال يا حبيب الله ، هذا مالك خازن النار ، خلقه الله من غضبه وسخطه وولاه جهنم (٢٨) . . . اذن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه ، فلم يرد السلام ، فقال جبريل : لم لا ترد على حبيب الله ؟ فلما سمع مالك ذلك ، نهض قائما على قدميه وقال : الله الله العذر لك يا حبيب الله . فقلت له : اري جهنم . فقال مالك : ليس الامر لي . واذا بالبنداء من العلي الاعلى « لا تخالف حبيبي محمدا » فعند ذلك كشف عنها الغطاء فاذا هي سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله . فرأيت فيها سبعين الف بحر من نار في كل بحر الف مدينة من نار في كل مدينة الف قصر من نار . . . في كل قصر سبعون الف صنف من العذاب ورأيت فيها حيات كائثال النخل الطويل ، وعقارب كائثال البغال ، ورأيت فيها سبعين الف بئر من الزمهرير . ورأيت نساء قد احترقت وجوههن ، والستين مندلعات على ضلوهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتي يقتلن لأزواجهن طلقنا من غير سبب ، ورأيت نساء صبا بكما عميا في تابوت من نار يخرج من دماغهن ، مثل الدهن من مناخيرهن ، وابدانهن مستتة تنقطع من

(٢٨) سميت جهنم لأبى بئدة قذاع : قال فرجهام لما تكلم صبيقة وهي تجمع بين الخرد والزمهرير في هوى فرجها (ابن عربي) : الفتوحات للشيخ ج ٤ ص ٣٧٧ ، طبعه مطبع بيروت



الجذام والبرص .. فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتي اولادهن من غير ازاوجهن . ورأيت نساء سود الوجوه يأكلن امعاءهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء القوادات اللاتي يجمعن بين اثنين في الحرام ، ورأيت نساء معلقات من ارجلهن في تنور من نار فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي يشتمن ازاوجهن ، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل من فوقها وتخرج من تحتها . والملائكة يضربون رأسها بمقامع من حديد فقلت : من هذه يا اخي جبريل ؟ قال : هذه المحرشة بين الناس بالبغيضاء . ورأيت رجالا مقبلين على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار والملائكة يضربونهم بمقامع من حديد فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتي يأتون الذكران من العالمين ، ورأيت رجالا ونساء مصفين باصفا من نار وجباههم قد اسودت ، والحيات مطوقات باعناقهم تلدغهم فتفري لحومهم ثم يعودون خلقا جديدا . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، ورأيت نساء معلقات بشعورهن في شجرة الزقوم<sup>(٢٩)</sup> والحميم يصب عليهن ، فتفري لحومهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتي كن يشرن الادوية حتى يقتلن اولادهن خوفا من مطعمهم ومشرهم وتزيههم لم يعلمن ان الله يطعمهم ويسقيهم ، وقد قال الله تعالى « ما من دابة في الارض الا على الله رزقها » ورأيت رجالا ونساء في السعير والنار لما دوي في بطونهم تدخل من ادبارهم وتخرج من افواههم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما .. ورأيت رجالا ونساء يسقون من الفحيح والصديد ويتمزق جلودهم ثم يعودون خلقا جديدا . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا .. ورأيت النار واهوالها وعقابها فدخلني منها رعب على ضعف امي . ثم انطبق الباب وعاد كما كان .

#### الساء السادسة ( الخالصة ) ولقاء موسى :

ثم ارتقينا الى الساء السادسة .. فاذا هي ساء من زمردة خضراء اسمها الخالصة رأيت فيها رجالا كهلا طويلا كثير الشعر عليه ملرعة من صوف ابيض يتوكأ على عصا يكاد شعره يغطي جسده له لحية بيضاء على صدره . فقلت : من هذا يا اخي جبريل ؟ قال : هذا اخوك موسى بن عمران ، فضله الله بكلامه وجعله كاهنا له . اذن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فنظر الي وجعل يقول : يزعم بنو اسرائيل اني اكرم الخلق على الله ، وهذا اكرم مني على ربه .

#### الساء السابعة ( العجيبة والعالية ) ولقاء ادم :

ثم ارتقينا الى الساء السابعة .. فاذا هي ساء من درة بيضاء يقال لها العجيبة وهي العالية .. ورأيت فيها من ملائكة ربي عز وجل ملائكة يقال لهم الروحانيون فالتفت عن يميني ، فاذا انا بشيخ حسن الوجه حسن الثياب

(٢٩) شجرة تطفئ في جهنم ويهاط عليها اهل النار ولوقوم كل ظلم يفل . ويقال ايضا على مات في ليلية له رعدة كرامة ليلتين

جالس على كرسي من نور قلت : يا اخي جبريل ؟ من هذا ؟ قال هذا ابوك آدم .. فلدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنأني بالكرامة من ربي عز وجل .

ورأيت البيت المعمور وفيه قناديل من جواهر وانوار مصطفة .. واذا بالملائكة يطوفون حوله فقامت وطففت معهم سبعا وقلت للملائكة : كم لكم تزورون هذا البيت ؟ فقالوا من قبل ان يخلق الله اباك آدم بالنبي عام .

### سفرة المنتهى وبحور العالم الاخر وما فيها من ملائكة ضخام :

ثم رفعت الى سفرة المنتهى ، واليها يتهي ما يرجع من الارض فيقبض منها واليها يتهي ما يهبط من فوق فيقبض منها ويقع عليها نور العرش فلا يقدر احد ان ينظر اليها .

ثم تقدمت امامي فلم اراخي جبريل معي فقلت يا اخي جبريل في مثل هذا المكان يفارق الخليل خليله فلم تركني وتخلفت عني ؟ فتأدى جبريل : يعز علي ان اتخلف عنك والذي بعثك بالحق نبيا ما منا الاولة مقام معلوم ولو ان احدا منا تجاوز مقامه لاحترق بالنور .. واذا بالنداء من قبل الله تعالى : زجوا حبيبي محمدا في النور « فأتني الملائكة برفوف اخضر مثل المقعد يحمله اربعة من الملائكة فوضعه بين يدي وقالوا : ارق يا محمد . فاستويت على الرفوف فسار بي كالسهم الذي يخرج من القوس ، حتى انتهى الى بحر من نور ابيض واذا بملك ذاك البحر واسع ما بين كفيه لو ان الطير المسرع يطير بين منكبيه لما بلغه في خمسمائة عام .

ثم زج بي في بحر من نور اخضر يتلألا واذا بملك ذاك البحر لو اذن الله له ان يبلغ السموات السبع والارضين السبع في دفعة واحدة هان عليه ذلك لعظمة خلقته .

ثم خرجت من ذلك البحر الى بحر اسود فنظرت فاذا ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض في كثافة لا يعلمها الا الله فلما نظرت اليه اسود بصري وخررت على الرفوف ساجدا لله تعالى وناديت برفيع صوتي : يا غياث المستغيثين ويا اله العالمين آتس وحلتي بعد من عبيدك يكلمني ويؤنسني واذا بالنداء من ساحل البحر : يا محمد الى اقبل ، فاقبلت واذا بملك عظيم الخلقه على ذلك البحر يكيل الماء بمكيال ويزنه بميزان . فتاديت السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عبد الله . فقال : وعليك السلام يا حبيب الله . فقلت سألتك بالله ، لم سميت ميكائيل ؟ قال : اعلم يا حبيب الله انني سميت ميكائيل لاني موكل بالفطر والنبات ، اكيل الماء بمكيال وازنه بميزان وارسله الى السحاب الى حيث شاء الله ، فسلمت عليه ومضيت حتى انتهيت الى ملك افرق<sup>(٣٠)</sup> على هيئة الديك اصفر واخضر وهو ساجد يقول في سجوده : سبحان الله العظيم ، فاذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الارض جميعا واجابوه بما يقول ، وتميل باعناقها وتصغي باذانها لاستماع ذلك التسبيح من ذلك الديك وتحقق باجنحتها بحية بالتسبيح والتقدس لله الواحد القهار ، واذا سكوت سكنت .

(٣٠) ملك افرق في ملك على شكل عقور

فبينما انا كذلك واذا انا بملائكة قيام على اقدامهم فقلت يا اخي اسرافيل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الروحانيون الكروبيون وهم حملة العرش ، اذن منهم وسلم عليهم ، فسلمت عليهم .

### رفع الحجب وحلوث المناجاة :

فبينما انا كذلك اذا بملك عظيم الخلفة اشد بياضا من الثلج يتقدمه سبعون الف ملك على صورته . فعانقني وقبلني وقال : سر يا حبيب الله فسرت مع هؤلاء الملائكة يعظموني ويكرموني حتى اخترقنا سبعين الف حجاب من نور ابيض . . حتى وصلبت الى حجاب الفردانية . واذا بالنداء من قبل الله تعالى « ارفعوا الحجب التي بيني وبين حبيبي محمد » فرفعت حجب لا يعلمها الا الله فرأيت مائة الف صف من الملائكة قياما لا يركعون ، ومائة الف صف من الملائكة ركوعا لا يسجلون ومائة الف صف سجودا لا يجلسون ولا يرفعون رؤسهم الى يوم القيامة .

وبينما انا افكر وقد اخذتني الهية مما رأيت . . نوديت « يا احمد . . اذن مني » فخطوت خطوة مسيرة خمسمائة عام فقبل لي « يا احمد لا تخف ولا تحزن » فسكن قلبي ثم اخذ الرفرف يعلوي حتى قربني من حضرة سيدي ومولاي ، فابصرت امرا عظيما لا تناله الاوهام ، ولا تبلغه الخواطر ، سبحانه وتعالى مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فلنوت من ربي حتى صرت منه كقاب قوسين او اذن ، فوضع سبحانه وتعالى يده بين كفي ولم تكن بدا محسوسة كيد المخلوقين ، بل يد قدرة وارادة ، فوجدت بردها على كبدي ، فذهب عني كل ما كنت اجده واورثني علم الاولين والآخرين ، فاخذني عند ذلك الثبات والسكون فظننت ان من في السموات والارض قد ماتوا الا انا ، لا اسمع هناك حسا ولا حركة ثم رجعت الى عقلي فنوديت : يا احمد اذن مني « فقلت : يا اهي وسيدي ومولاي ، انت السلام ومنك السلام ، فناداني ثانيا : اذن مني « فدنوت منه فقال : وعليك السلام ، فألهمني ربي ، فقلت : التحيات لله والصلوات والطيبات . فقال الله تعالى « السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته فقلت : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فقالت الملائكة من ورائنا : اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له . قال الله تعالى « وانا اشهد ان محمدا عبدي ورسولي ، فمن احبك فقد احببته ، ومن كذبك فقد باء بغضبي . قلت : يا رب اين انا ؟ فقال : انت على بساط الانس « فرجعت وهممت ان اتلع نعلي فناداني ربي « دس على بساطنا ، فقد اصطفيناك » . . هل ترائي بعينيك ؟ فقلت : سبحانه ، لا تذكرك الابصار ولا تحويك الاقطار وانث الوحيد القهار اهي وسيدي ، غشني بصري نورك وبهوك وجلالك فلا اراك الا بقلبي .

### فرض الصلاة :

ثم هممت بالتزول ، فناداني ربي عز وجل : على رسلك يا محمد ، اني مفترض عليك وعلى امتك فريضة من وفق بها دخل الجنة ، ومن قصر عنها فان شئت غفرت له وان شئت علبته ، فرضت عليك وعلى امتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة فقلت سمعنا واطعنا . ثم نزلت ، فلم ازل اسير حتى اتيت اخي موسى بن عمران عليه السلام ، فلما رآني غرض قائلي وقال : مرحبا بالصديق الامين ، امن عند ربك ؟ قلت : نعم . قال : ما اعطاك ؟

قلت : اعطاني وارضاني . قال : فما اعطى امك ؟ قلت : اعطاهم وارضاهم . وفرض علي وعليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة . قال موسى : فارجع واسأله التخفيف ، فاني قد بلوت بني اسرائيل من قبلك (٣١) وامتك امة آخر الزمان ، جسدهم ضعيف وعمرهم قصير ، لا يطيقون ذلك فاسأل ربك ان يخفف عنهم . قلت : يا اخي ومن يخترق تلك الحجب التي اخترقتها ؟ قال موسى : اسأله من هنا فانه قريب مجيب . فلم ازل اسأل ربي عز وجل وموسى يكلمني حتى فرض علي وعلى امي خمس صلوات . قال موسى : اسأله التخفيف . قلت : يا اخي قد استحييت من ربي . فتداني ربي : جعلناها خمسا في العمل وخمسين في الميزان ، الحسنة بعشر امثالها . ثم ودعت موسى وانصرفت حتى اتيت اخي جبريل . واذا هو قائم على حاله فلما رأي عانقني ورحب بي .

#### وصف الجنة ولقاء رضوان خازنها :

ثم اخذ جبريل بيدي وسرنا حتى اتينا الجنة ، فاذا مكتوب على بابها : لا اله الا الله محمد رسول الله ، واذا بملك عظيم الخلفة حسن المنظر يلوح النور من وجهه جالس على كرسي من نور وعليه الحل والحلل . فقلت : يا اخي يا جبريل من هذا ؟ قال هذا رضوان خازن الجنان . فتقدمت وسلمت عليه . . . فاخذني وادخلني الجنة ، فظفرت فاذا ارضها بيضاء مثل الفضة ، وحصبؤها من اللؤلؤ والمرجان ، وتربتها المسك ، ونباتها الزعفران ، واشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب ، والثمار عليها مثل النجوم المضيئة ، والعرش سقفها ، والرحمة حشوها والملائكة سكانها ، والرحمن جارها .

فأخذ رضوان بيدي وسرنا بين اشجارها وما فيها من سرور وعيون ، وحور عين وابكار ، وقصور عاليات ، وولدان كائين الاقمار ، وخدم وحشم وكرم ، وانعام ونعيم ومقام وخلود . .

#### العودة الى الارض . :

ولم ازل انزل من سماء الى سماء ، فما مررت على شيء في السموات الا وهو يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » فلما انتهينا الى السماء الدنيا ، اذا الليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر فركبت واتيت مكة ، شرفها الله وعظمها ، ونزلت عن البراق ، فودعني جبريل وقال : يا محمد اذا أصبحت فحدث قومك بما رايت من العجائب في هذه الليلة وبشرهم برحة الله تعالى فقلت : يا اخي جبريل اني اخاف ان يكذبوني . فقال جبريل ان كذبوك صدقك ابوك ، فلا تبال بمن كذبوك بعده . فتمت على فراشي الى وقت صلاة الصبح .

#### امتحان المؤمنين :

ثم خرجت الى باب المسجد وكان من عادة ابي جهل الحبيث اذا مر على يقول : بم نبئت يا محمد الباردة ؟ فمر على وسألني على حسب عادته . فقلت له : امسرى بي قال : الى اين ؟ فقلت : الى بيت المقدس ثم الى العرش ،

(٣١) كان ذلك قد فرض على قوم موسى صلوات ، صلاة ليلة وصلاة ليلتي ومع ذلك ما تقبلوا بها وهذا هو سبب تخرج موسى طلب فصيح

وخاطبت الحق وخاطبني واعطاني واكرمني ، ورأيت الجنة وما اعد الله لأهلها من النعيم المقيم ، ورأيت النار وما اعد الله لأهلها من الزقوم والحميم » .

قال ابو جهل : يا محمد اكنم هذا الامر ولا تتكلم به والا كذبتك الخلق « فقلت له اكنم امرا انعم الله به علي ، وقد قال تعالى « واما بنعمة ربك فحدث » قال ابو جهل « يا الله العجب من قولك ، هل تقدر ان تحدث قومك بما اخبرتني به ؟ فقلت : نعم فنادى « يا اهل مكة هلموا الي » فاجتمع اهل مكة كلهم فقام رسول الله ( صلع ) خطيبا وقال : يا معشر قريش ، اعلموا ان الله سبحانه وتعالى اسرى بي في هذه الليلة الي بيت المقدس ، ثم عرج بي الى السماوات السبع ، وشاهدت الانبياء عليهم السلام ورفعت الى العرش ووسيت<sup>(٣٢)</sup> بساط النور وخاطبت الحق وخاطبني « ورأيت الجنة والنار وجعلت اصف هذا كله ، وابو بكر الصديق يقول : صدقت يا صفوة الله ، صدقت يا حبيب الله . فقال ابو جهل « وصفت فاحسنت فيما اريد منك خير الساء ولكن نريد منك خير بيت المقدس ، كيف هو ؟ صفه لنا حتى نعلم ان كلامك حق وقولك صادق ؟ فاطرق النبي ( صلع ) رأسه الى الارض لأنه دخل بيت المقدس بالليل ومر عليه راجعا بالليل ولم ير علامة ولا اشارة . فاقوى الله الى جبريل ان اهبط الى بيت المقدس واقتله بارضه وجباله وتلاله واوديته وازقته وشوارعه ومساجده وابسطه بين يدي حبيبي محمد . قال فعند ذلك هبط الامين جبريل على النبي ( صلع ) بيت المقدس ، فجعل النبي ينظر اليه ويصفه مكانا مكانا وموضعا موضعا حتى اطرقوا جميعا الى الارض وابو بكر الصديق يقول : صدقت يا حبيب الله . ثم قال النبي ( صلع ) لما كنت انا واخي جبريل في الهواء رأيت من بني غزوم فلانا وفلانا هم وركب عند جبل الارك قد ضل منهم جمل اورك<sup>(٣٣)</sup> فناديتهم من الهواء : ان جعلكم في وادي النخل وهم عند طلوع الشمس من الغد يفلدون عليكم فاذا جئوكم فاسالوهم . فلما اصبح ذلك اليوم وكان الركب بعيدا ولم يقدروا ان يدركوا مكة عند طلوع الشمس قال فامسك الله في ذلك اليوم الشمس حتى لحق الركب مكة اكراما وتصديقا لكلام سيد الخلق .

ولما طلعت الشمس دخل الركب مكة واخبروا انه ضل منهم بعير قالوا وكنا نبحث عنه فنادانا شخص من الهواء « ان البعير في وادي النخل » فأتينا الوادي فوجدناه كما ذكر لنا . فلما سمع المسلمون ذلك فرحوا فرحا شديدا وضحوا بالتهليل والتكبير وخرج رسول الله ( صلع ) والمسلمون حوله وهو بينهم كالقمر وهم حوله كالنجوم .

### أصداء هذه الرحلة الالهية واثرها في التراث الانساني :

منذ روى الرسول انباء هذه الرحلة الالهية والجلد شديد حوها ، وفي ذلك يقول الله تعالى « وما جعلنا الرؤى يا التي اريناك الا فتنه للناس » .

(٣٢) ذكرت عدة النصوص على السطوح في المجلد الذي ذكره في سورة . وقد شاع هذا التعبير بين حكم المسلمين بعد ذلك بمسئلة الخلفاء والرؤساء ، ذلك لسلطان اب لرسائل في قوله لا يبرح محمد لارضى . ولأن ذلك من المصروف ودرس ساطع ، ان الاثر الكفل حد ١٠ ص ٦٣

(٣٣) الجبل الازرق هو الذي له لون الورد وهو الجبل الال لجا عند الحرب واصحها عدلا عنهم

ولقد ارتد عدد من المسلمين الاوائل عند سماع هذه الحادثة واختبر الرسول في وقائعها حتى انه طلب منه كما رأينا ان يصف لهم بيت المقدس وهو لم يسافر اليه من قبل فوصفه لهم وصفا دقيقا ، وصدقته ابوبكر وكثير من سافروا اليه .

على ان جدلا كثيرا استمر حتى الان في طبيعة الاسراء والمعراج ، فيذهب البعض الى انها كانت بالروح وانها من الرؤى النامية عند الرسول حقائق وليست احلاما كما هي عند بقية الناس<sup>(٣٤)</sup> ويرى فريق اخر ان الاسراء الى بيت المقدس كان بالجسد بينما كان المعراج الى الملكوت بالروح<sup>(٣٥)</sup> ويرى فريق ثالث انها كانت بالاثنتين معا بالروح والجسد ، وانها معجزة خرق الله فيها لرسوله قوانين الارض وقوانين السماء ليريه من آياته الكبرى ، يثبت به ويفرض عليه وعلى امته اقدس العبادات واقربها الى الله وهي الصلاة<sup>(٣٦)</sup> .

والى هذا الرأي الاخير يتجه تفكير العلماء الان بعد ان اكدت رحلة الاسراء والمعراج حقائق علمية حديثة عرف بعضها بعد غزو القمر والفضاء ، وتفتت الذرة ، وتحويل المادة الى طاقة والعكس . وقد علق بعضهم على ذلك بقوله وربما ازددنا امعانا في هذه القصة اذا علمنا ان الدراسات الاكاديمية في الفضاء في كثير من الدول - وخاصة بعض الجامعات في امريكا - يدرسون هذه الرحلة بشيء كثير من الامعان ، ويدققون كثيرا في كتب اسيرة التي ربما نستعزيء بها او لا نكاد نصدقها<sup>(٣٧)</sup> .

على ان موضوع الاهمية هنا هو ان قصة الاسراء والمعراج بما قدمته من صور عديدة ومتنوعة عن عالم الفضاء وعالم ما بعد الحياة قد اثرت تأثيرا كبيرا على الشعراء والقصاص ورجال الفكر والفن والتصوف ، اذ فتحت امامهم افاقا جديدة للتأمل الروحي والابداع الفني مما اثرى التراث الاسلامي وامتد صدها الى الفكر الاوربي مؤثرا فيه ايضا .

### في الادب الجغرافي :

اذا تصفحنا كتب الجغرافيا الرياضية والوصفية التي كتبها المسلمون الاوائل في وصف الكون والافلاك والمسالك والممالك والانهار والبحار واخبار البلدان وما فيها من عجائب وغرائب ، نجد فيها مادة خصبة مستقاة مما ورد في قصة الاسراء والمعراج مع زيادات ومبالغات ابتدعها وزينها الخيال البشري ومثال ذلك قوسهم :

(٣٤) صلاح الدين عبد اللطيف كشف المبهات حول الاسراء والمعراج ص ١١ (الكتبة الخيرية) .

(٣٥) محمد حسين جركل : حجة محمد ص ١٩٣ .

(٣٦) محمد توفيق الشمرلي : مسيرة هجرته ص ٢٠٤ .

(٣٧) سفي. محمود : رسالة آل نكاح (حرفه لأمير) ١/٢ (١٩٧٢) .

اما الجغرافي المشهور ابو الحسن علي المسعودي ( ت ٣٤٦ هـ ) فان تعدد رحلاته مكّنه من التعرف على حقيقة بعض الامور بصورة جعلته ينتقد بعض الاخطاء التي وقع فيها غيره ، مثل قول في كتابه « مروج الذهب » وقد ذكر الجاحظ ( ت ٢٢٥ هـ ) ان هر مهران السند من نيل مصر واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه ، فلست ادري كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الامصار وعجائب البلدان ، وهو كتاب في نهاية الحسن وان كان الرجل لم يسلك البحار ولا اكثر الاسفار ولا تقرأ الاممالك والامصار ولم يعلم ان مهران السند يخرج من اعين مشهورة من اعلى السند « (٤٠) .

وحينما يتكلم القزويني (ت ٦٨٢ هـ) عن سلطان السنوات والملائكة المقربين يستشهد بما روى عن النبي في إحدى صور المعراج النبوي فيقول « ولنذكر بعض من أخبرهم صاحب الشريعة ، صلوات الله عليه وسلامه وهم الملائكة المقربون ومنهم حملة العرش وهم أعز الملائكة وأكرمهم على الله تعالى ، فمنهم من هو على صورة النسر ومنهم من هو على صورة الثور ، ومنهم من هو على صورة البشر ، فمن هو على صورة ابن آدم يشفع لبي آدم في

(٤٣) للسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٣٧٥-٣٧٦

أرزاقهم ، ومن هو على صورة الثور يشفع للبهائم في أرزاقها ، ومن هو على صورة النسر يشفع للطيور في أرواقها ، ومن هو على صورة الأسد يشفع للسبع في أرزاقها<sup>(٤٣)</sup> .

وهناك تأثير جغرافي آخر يلفت النظر ويسترعي الانتباه وهو تطابق أسماء بعض المدن الإسلامية مع أسماء السماوات العلاء التي وردت في المعراج النبوي ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن مؤسسي تلك المدن من حكام المسلمين أرادوا من وراء اتخاذ تلك الأسماء السماوية إضفاء البركة وحسن الطالع على مدنها كما جرت عادتهم بذلك ، ومن ذلك مثلا مدينة العالية التي صارت تسمى بعد ذلك بمدينة فاس ، إحدى عواصم المغرب الأقصى فيحدثنا التاريخ أن النواة الأولى لهذه المدينة كانت من تأسيس المولى إدريس بن عبد الله الأكمل حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب ( سنة ٧٢ هـ - ٧٨٩ م ) على الضفة اليمنى من النهر المسمى بواي فاس وأعطاها اسما ببربريا وهو فاس ، ثم جاء ولده من بعده الإمام إدريس الأصغر أو الثاني فبنى مدينة مقابلة بدار القيطون في غرب مدينة والده على الضفة اليسرى لرواي فاس سنة ١٩٢ ( ٨٠٩ م ) وأطلق عليها اسم العالية ، وضرب هذا الاسم على نقوده . وبعمر الزمان غلب اسم فاس على هاتين المدينتين المتقابلتين إلى الآن<sup>(٤٤)</sup> .

والذي يميّنا في هذا الصدد هو اسم العالية السالف الذكر فقد رجح المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال أن يكون هذا الاسم تحريفا للفظ العلوية أو العلية باعتبارها كانت عاصمة للدولة الأدارسة العلويين<sup>(٤٥)</sup> . وإن كنا لا نستبعد أن يكون العاهل المغربي إدريس الثاني قد استوحى اسم عاصمته من اسم السماء السابعة العالية الذي ورد في المعراج النبوي وذلك من باب التفاؤل وحسن الطالع .

مدينة إسلامية أخرى بالاندلس ، وهي المدينة الزاهرة التي بناها الحاجب المنصور ابن أبي عامر في شمال شرق قرطبة سنة ٣٧٠ هـ ( ٩٨٠ م )<sup>(٤٦)</sup> واسم الزاهرة كما ورد في قصة المعراج النبوي هو اسم السماء الرابعة ، وكانت من الفضة الخالصة فلعل المنصور بن أبي عامر اختار هذا الاسم لمدينته تبركا وتيمنا بهذا الاسم السماوي الجميل .

والجدير بالذكر هنا ، أن هذه المدينة الزاهرة كانت تقابلها في شمال غرب قرطبة مدينة أخرى بنيت قبلها بنحو نصف قرن وهي مدينة الزهراء التي بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر<sup>(٤٧)</sup> ( ٣٢٥ هـ ) وعلى الرغم مما يقال من أنه بناها تكريما لجارية له اسمها الزهراء إلا أنه يلاحظ أن اسم الزهراء والزهرة ورد في معارج الصوفية على أنه اسم للسماء الفلكية الثالثة ، سماء الشهادة والجمال ومقر النبي يوسف الذي اشتهر بحسن النظر وجمال الصورة « ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » . هذا فضلا عن أن

(٤٣) القرطبي . حجب الطوائف وعراف الروحانيات ( ملحق كتاب حجة العقول الكبرى للقرطبي ) ج ٢ ص ١١١

(٤٤) ابن الخطيب . أصف الأعلام ( قسم طبع ) ص ١٩٨ - ٢٠٠ ج ٢ تحقيق أحمد عبد الحفيظ وأبراهيم كركو ( دار البعث ١٩٦٤ )

(٤٥) ليفي بروفنسال . الإسلام في المغرب والأندلس ص ٣٨ ( ترجمة عبد الهريز سلم ويغني عبد الفتاح )

(٤٦) أحمد عبد الحفيظ العياشي : في تاريخ دمشق للأندلسي ص ٤٥٤ وقد ذكرت معالم مدينة قرطبة في القرن في صحت شروط حاله لأموية

(٤٧) ثبت إفرهه على شكل مدينة ثلاثية مدرجة على منحى حل الدروس على يد العلامة كيمونزوات شغل عرب قرطبة وقد نشرت هذه اللوحة في القرن في صحت شروط الحولة الأموية في القرن الخامس الهجري وطوي . العمل الآن على رسمها واعادة بنائها كما كانت من قبل



وهناك مدينة اسلامية اخرى بناها المسلمون الاوائل في شمال جزيرة صقلية العربية لتكون قاعدة لسلطانهم ومقرا لجنودهم الا وهي مدينة الخالصة التي كان اسمها يطلق في المعراج النبوي على اسم السماء السادسة التي شبهت بزمردة خضراء .

على ان موضوع الاهمية هنا هو انه اذا صح القول بان مسلمي صقلية قد استوحوا اسم مدينتهم الخالصة من اسم الساء السادسة الذي ورد ذكره في المعراج النبوي فلان معنى ذلك ان قصة المعراج كانت شائعة منذ وقت مبكر وقرية جدا على اسماع الايطاليين عبر مضيق مسيني وربما على سمع الشاعر الايطالي دانتي الذي تأثر بها بعد ذلك .

### صلى المعراج في الأدب العربي :

١ - رسالة التوابع والزوابع لأبي عامر أحمد بن شهيد :

من أقدم الشعراء الذين تأثروا بالإسراء والمعراج هو الشاعر العربي والناقد الأندلسي أبو عامر أحمد بن شهيد (٣٨٢-٤٢٦ هـ = ٩٩٢-١٠٣٤ م) وهو من بيت عريق الحسب والنسب والثراء فقد كان جده أبيه الوزير الشاعر

(٤٨) (راجع كلام عبي الله بن عيسى في وصف النساء الثلاثة الفراء، والفرجة في رسالة كيمياء السلفاء، والأسرار إلى معلم الأسرى، في المصنفات النجفية)

(١٩) راجع (رحلة إلى حير من ٢٠٥١-٢٠٦ طعة بيروت ١٩٥٩) وكذلك (في الحطب أعمال الإعلام، القسم الثالث من ١٠٣ جلد ٢).

أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر الذي منحه لأول مرة في الأندلس لقب « خوزارتين » وكذلك كان أبوه وأخوه ومعظم أفراد أسرته شعراء .  
غير أن شاعرنا أبا عامر كان أجودهم شعرا وأوسعهم شهرة ولم يكن الشعر عنده خدمة بل سيادة على غرار الطبقة الراقية التي عبر عنها فيها بعد الشاعر والوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في قوله :

الطَّبَّ والشَّعْرُ والكَتَابَةُ  
سماتنا في بني النجابة

ولقد عاصر ابن شهيد نخبة من علماء قرطبة أمثال المؤرخ أبي مروان بن حيّان ( ت ٤٦٩ هـ ) والفقيه أبي محمد بن حزم ( ت ٤٥٦ هـ ) وتوطلت بينهم أواصر الصداقة التي تظهر واضحة في كتاباتهم وأشعارهم ، هذا إلى جانب الخصوم والحساد الذين لقي أبو عامر منهم عتا شديدا .

وكان لابن شهيد إنتاج غزير من الأشعار والرسائل التي لم تخل من نظرات جرئية ولمحات ذات وقع حديث .  
ومن أهم رسائله رسالته التقديية التي بعنوان « التوايع والزوايع » صور فيها رحلته كشاعر إلى الجنة أو عالم الأرواح .  
سابقا بذلك المعري ( ت ٤٤٩ هـ ) ودانتي ( ت ٧٢١ هـ ) إلى ذلك الموضوع ، فمن المعروف أن ابن شهيد توفي في سنة ٤٢٦ هـ أي بعد ظهور رسالة الغفران لأبي العلاء المعري بنحو ستين أو ثلاث كان ابن شهيد خلالها يعاني من مرض الفالج الذي أودى بحياته ، ولهذا يرجح أن يكون ابن شهيد قد ألف رسالته في حوالي سنة ٤١٤ هـ وهو في قوة شبابه أي قبل تصنيف رسالة الغفران بنحو عشر سنوات ، إذ أنه من المعلوم أن أبا العلاء ألف رسالته الإلهية ، الغفران ، في أثناء عزله بمجرة النعمان (٥٠) سنة ٤٢٤ هـ وبهذا يكون شاعر قرطبة متقدما على شاعر المعرفة في موضوع - رسالته وغير بعيد بالمرّة أن يكون المعري قد أطلع على رسالة التوايع والزوايع فنبهت فيه فكرة رحلته السماوية (٥١) .

ورسالة التوايع والزوايع أوردها ابن بسام الششتري الأندلسي ( ت ٥٤٢ هـ ) في القسم الأول من كتابه اللخيرة في عمامن أهل الجزيرة ، وكذلك أحمد المقرئ التلمساني ( ت ١٠٤١ هـ ) في كتابه نفع الطيب في غصن الأندلس الرطب .

ثم نشرها حديثا بطرس البستاني في كتاب مستقل مع دراسة تحليلية قيمة . والرسالة تصور رحلة الشاعر ابن شهيد إلى السماء صجبة تابعه أو شيطان شعره الذي يتبعه ويوحى إليه على حسب عقيدة العرب الأقدمين .

ويصف ابن شهيد بتابعه هذا بأنه كان على شكل فارس من الجن على متن فرس أدهم ويده رمح ، وقد نقل

(٥٠) مرة لعمان طلة دراعية من أصل طب في شغل سوريا كانت مستقر رأس أبي العلاء المعري (٣٧٣ - ٤٤٩ هـ).

(٥١) راجع لفظة القردة لرسالة قرطبة وإبراهيم لاني نهد الأندلسي بتحقيق دراسة طرس السلي (ط صغريوت ١٩٧٣) .

وجهه اي خرج الشعر منه وانه كان يسمى ( زهير بن نمير من اشجع الجن ) اي يتسب الى قبيلة بني اشجع في الجن ، وهي قبيلة عربية من بطون غطفان التي يتسب اليها ايضا ابن شهيد في عالم الانس بمعنى انه كان قريبه او بالاصح قريبه .

ويضيف ابن شهيد بانه كان اذا اراد استدعاء تابعه انشد بعض الايات فيظهر له في الحال ، ثم يصف بعد ذلك رحلته مع صاحبه الى عالم الجن او الارواح ، وكيف طار بها الجواد الادهم عبر الاجواء والفلوات الى عالم التوابع او شياطين الشعراء والكتاب ، ثم يستمر ابو عامر في وصف لقاءاته مع توابع شعراء الجاهلية امثال امرئ القيس وطرفة بن العبد ، وقيس بن الخطيم ، ثم مع توابع شعراء العباسيين امثال ابي تمام والبحري وابي نواس وابي الطيب المتنبي . كل ذلك في وسط الجنان السماوية الخضراء البانعة وعيون المياه المنفجرة . وفي خلال زيارته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ويأخذ الاجازة منهم .

ويقتل ابن شهيد وتابعه بعد ذلك الى لقاء توابع الكتاب امثال عبد الحميد الكاتب وابي عثمان الجاحظ ، ويندبع الزمان الممذاني ، فيحادثهم ويساجلهم ويشكو اليهم امر حساده وخصومه ، ويظهر لهم فضله ونبوغه الى ان يقتنعهم باجازته كشاعر وخطيب .

ولم ينس ابن شهيد في اخر رسالته ان يشير الى مجالس الجن الادبية وما كان يدور فيها من حوار وانشاد شعري هو من نظمهم بطبيعة الحال . كذلك اشار الى حيوان الجن من حمير وبعال واوز . جعلها عاقلة تتكلم وهي رموز ساخرة لحساده ومناوئيه ويصفهم فيها بالسخف والحقق .

ولاشك ان ابن شهيد في رسالته ، قد استوحى من المعراج النبوي فكرة صعوده الى السماء ولقاؤه مع الارواح ، ثم زينها بخياله وابداعه الفني بحيث جعلها قاصرة على الناحية الادبية فقط ، كذلك يلاحظ انه جسد الارواح والاتباع كشخصيات واقعية في شكل اصحابها وبالصفت والاخلاق التي اشتهروا بها في دنياهم حتى صار عالم التوابع لا يختلف عن عالم البشر ، فعالم ابن شهيد - كما يقول بطرس البستاني - عالم واقعي انسي وان اضافته الى جنة عبقري<sup>(٥٢)</sup> .

عل ان ابن شهيد رغم ذلك ، اعطانا صورة لبعض الخوازيق التي تتناسب مع عالم الجن ، مثال ذلك قوله عن زهير وجوانه « فصرنا على متن الجواد ، وسار بنا كالطائر يجتاز الجوف فالجو ، ويقطع الدوف فالدوف<sup>(٥٣)</sup> » ، حتى التهمت أرضا لا كارضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، مفرع الاشجار ، عطر الزهر فقال لي « حلت ارض الجن ابا عامر فمين تريد ان تبدأ ؟<sup>(٥٤)</sup> » وكذلك في قوله عن تابع ابي تمام « فانلق ماء العين عن رجه فقي كلفة القمر ثم اشتق المواء صاعدا اليانا من قعرها حتى استوى معنا<sup>(٥٥)</sup> » .

(٥٢) راجع لفظة دراية لرسالة فروع ورؤايع

(٥٣) لدو : هـ ٢٥

(٥٤) راجع من رسالة فروع ورؤايع ص ٩١ .

(٥٥) راجع من رسالة فروع ورؤايع ص ٩٨ .

وهكذا نرى مما تقدم ان الشاعر ابا عامر بن شهيد قد استوحى من حادثة المعراج فكرة موضوعه وان كان قد احاطها بخلاف من خلقه وابتداعه ، مما اعطاها لونا خاصا وطابعا مميزا مستقلا .

## ٢ - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري :

وما يقال عن ابن شهيد ، يقال ايضا عن معاصره الشاعر والمفكر الناقد الزاهد ابي العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ = ٩٧٩-١٠٥٨ م) الذي ولد في معرة النعمان من اعمال حلب ، وقد بصره في الرابعة من عمره ، ودرس في حلب وطرابلس وانطاكية وبغداد ، ثم عاد الى المعرة مسقط رأسه ليعيش فيها زاهدا متبرما متشابها معتزلا العالم . ومن مؤلفاته الزويميات وسقط الزند ، ثم رسالة الغفران ، التي تعنينا في هذا المقام . ورسالة الغفران هي رحلة الى العالم الآخر ايضا . ولكنها لم تقتصر على عالم الجن مثل رسالة التوابع والزوابع ، بل شملت الحياة الاخيرة بما فيها من جنة ونار وثواب وعقاب ، ولهذا تأثرت هي الاخرى بما جاء في الاسراء والمعراج من تفاصيل دينية ، الى جانب ما اضافها عليها ابو العلاء من خيال وثقافة ادبية ولغوية واسعة .

وكما وجه ابن شهيد رسالته « التوابع والزوابع » الى صديقه ابن حزم ، وجه ابو العلاء رسالته ( الغفران ) الى صديقه الشيخ علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح حينما دعه هذا الاخير الى تأليفها .

غير ان رسالة الغفران امتازت على رسالة التوابع والزوابع باتساع نطاق موضوعها وعمق افكارها وكثرة اعداد شخصياتها ، وفيض بحوثها وفردتها اللغوية والادبية ، وللسيدة عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطيء ) فضل تحقيق وشرح رسالة الغفران مما ساعد على فهم لغة المعري والاستفادة مما تضمنته رسالته من تراث وعلم غزير<sup>(٥٦)</sup> .

والبطل المسافر في رسالة الغفران هو شخصية الشيخ ابن القارح وليست شخصية المؤلف نفسه كما فعل ابن شهيد في رسالته . ولعل ذلك راجع الى عاهة الضراوة التي ابتلى بها ابو العلاء فحرمته من نعمة المشاهدة .

ويركب ابن القارح في هذه الرحلة نجيبا من نجب الجنة ، خلق من ياقوت ودر ، فيستقل به في نزهة بالفردوس على غير منهج ، ومع شيء من طعام الخلود<sup>(٥٧)</sup> ، وهناك في الجنة يصف انهارها واشجارها وطعامها وشرابها وجمال حورها من الصالحات الناجيات ، ثم يقيم مأدبة أنيقة يدعو اليها كل من في الجنة من شعراء وادباء وعلماء . وكانت الارحاء التي تقطن بر المأدبة من درر وعسجد وجواهر ، وتبديرها جوار من الحور العين ، وكانت اصناف اللحوم يأتي بها الولدان المخلدون ، ثم يحجي السقاة بأصناف الاشرية والمسمعات بالاصوات المطربة ، والحور يرقصن على ابيات منسوبة للمخليل<sup>(٥٨)</sup> .

كذلك يعقد ابن القارح في الجنة مجالس للادب والمذاكرة ويحضرها الشعراء والادباء وعلماء اللغة فيدور بينهم

(٥٦) ابو العلاء المعري ، رسالة الغفران تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ط ١٩٧٣ .

(٥٧) راجع من رسالة المعري ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٥٨) نفس المصدر ص ٢١٧ - ٢١٩ وانصف هذا العلم المعري المخلل بن احمد البرقياني الذي رآه سنة ١٧٥ هـ

الحوار الذي قد يصل الى الشجار على غرار ما يقع في الدار العاجلة ، ولكن من غير شعور بالعداوة والبغضاء الذي انتزعته الجنة من قلوبهم .

ثم يشير المعري الى رحمة الله الواسعة التي شملت الشعراء والمثحررين بالغفران ، وهو الاسم الذي اختاره عنوانا لرسائله ، فالاعشى صار عشاء حورا معروفا ، وانحناء ظهره قواما موصوفا ، وقد غفر له بسبب مدحه للرسول ( صلعم ) وادخل الجنة على ان لا يشرب فيها خرا<sup>(٥٩)</sup> . وذهب ابن سلمي يعود شابا كالزهرة الجنية وكأنه ما لبس جلابب هرم ولا تأفف من التبرم وكأنه لم يقل : شمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا ابالك يسأم . وقد غفر الله له وادخل الجنة لانه كان مؤمنا بالله قبل الاسلام ولأنه اوصى ابنائه قبل موته بطاعة القائم الذي يدعوه الى عبادة الله<sup>(٦٠)</sup> .

ثم يتناول ابن القراح الى الجحيم ، ويلقى فيها ابليس وهو مضطرب في الاغلال ومقارع الحنيد ، ومع ذلك لا يتورع ان يسأل ابن القراح بخبث عما يفعله اهل الجنة بالولدان المخلدين ، كذلك يلقي شعراء النار امثال بشار بن برد الضريبر الذي اعطي عينين لينظر بهما الى ما انزل به من العذاب . ومثل صخر اخو الحسناء الذي تضطرم النار في رأسه كأنه علم في رأسه نار ، ومثل عترة العبي الذي يتلذذ في السعير<sup>(٦١)</sup> .

ويلاحظ ان شخصيات المعري وان فاقت في عددها شخصيات ابن شهيد ، الا انها تتفق معها في انها شخصيات واقعية معروفة ، ومعظمها من الشعراء والعلماء والادباء ، لأن المقصود في كلتا الرحلتين هو اجراء نوع من النقد الادبي .

هنا ولم يفك المعري ان يشير في رسالته الى مدائن الجن في اطراف الجنة ، ويطلق عليها اسم جنة العفاريات المؤمنين ، ويصفها بانها كانت اقل نورا من مدائن الانس في الجنة وتكتنفها الاشجار الكثيفة والسراديب ، واهلها يدركهم المشيب على عكس اهل الجنة الاناسي فهم شباب دائم . وعندما سأل ابن القراح احد شيوخ الجن ويدعى « أبو هدرش » عن سبب ذلك ، قال « ان الانس اكرموا بذلك واحرمناه ، لانا اعطينا الحولة في الدار الماضية فكان احدنا ان شاء صار حية رقصاء ، وان شاء صار عصفورا ، وان شاء صار حمامة فمعنا التصور في الدار الاخرة ، وتركنا على خلقنا لا تتغير وعوض بنو ادم ، كونهم فيها حسن من الصور ، وكان قاتل الانس يقول في الدار الذاهبة اعطينا الحيلة واعطي الجن الحولة »<sup>(٦٢)</sup> .

اما الحيوان عند المعري فهو عاقل كما هو الحال عند ابن شهيد ، فاسد القاهرة يتكلم مع ابن القراح مينا له سبب

(٥٩) رسالة الفرائد من ١٧٦ - ١٨١ .

(٦٠) رسالة الفرائد من ١٨٢ - ١٨٣ .

(٦١) رسالة الفرائد من ٣٠٨ - ٣٣٣ .

(٦٢) رسالة الفرائد من ٢٩٣ .



احس انه استكمل عدته ، خرج بجول في الارض في سياحات صوفية ، ففضى بقية حياته في رحلة متصلة : طاف اولاً ببلاد الاندلس والمغرب ثم رحل الى مكة وجاوز فيها ، ثم واصل تجواله الى العراق ثم مصر على عهد السلطان العادل الايوبي ، وشارك في حلقات الصوفية بحي القناديل بالقاهرة ، ثم رحل الى دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى حيث طاف باتجاه الاناضول ، وادعى السلطان عز الدين كيكاوس بأن يشتد على النصارى ويشره بنصر قريب لم يلبث ان تحقق باستيلائه على انطاكية .

وفي نهاية المطاف استقر به المقام في دمشق حيث مات ( ٦٣٨هـ - ١٢٤٠م ) ودفن بالتربة الصالحية على سفح جبل قاصيون<sup>(٦٧)</sup> .

ويعتبر ابن عربي - كما يقول استاذنا المرحوم ابو العلا عفيفي - من اغزر كتاب المسلمين علماً ، واوسعهم افقاً ، وادناهم الى العبرية والتجديد في ميدان دخل فيه كثيرون غيره ، ولم يخرجوا منه بمثل ما خرج ، ولا بلغوا فيه الشأو الذي بلغ . لم يشغل نفسه بمشاكل الفلاسفة والرد عليهم ، وبالتأليف في اصول الفقه والمنطق والتصوف كما فعل الغزالي ، او بالطب والرياضة والتصوف كما فعل ابن سينا ، وإنما كرس جهده للكتابة في التصوف في شتى نواحيه النظرية والعملية ككتاب « الفتوحات المكية » الذي ألفه بين ٥٩٨ الى سنة ٦٣٥هـ فقد جمع في هذا الكتاب اشتاتاً من المعارف التي تمثل الثقافة الاسلامية بأوسع معانيها وحشدها جميعاً لخاتمة العلم الاساس الذي ندب نفسه للكتابة فيه ، وهو التصوف ، ولهذا يعد هذا الكتاب اعظم موسوعة في التصوف باللغة العربية ( ٦٨ )

وعلى الرغم من انشغال ابن عربي بما يشغل به الصوفية انفسهم من ضروب المجاهدة - والمراقبة والمحاسبة فان عدد مؤلفاته بلغ على حد قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢هـ نحو مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة وهو عدد لا يكاد العقل يتصور صلوره من مؤلف واحد ( ٦٩ )

### كيمياء السعادة :

والذي يعنيها من هذه المؤلفات هو ما اودعه ابن عربي في فتوحاته المكية من رسوم تصور مواضع العالم الاخر اوقبة الفلك على شكل هيئات دائرية تصور اطباق الجحيم ومساري النجوم ، ودفائر جماعات الملائكة التي تحف بمطلع النور الالهي . وكان يرى ان الوصول الى رؤية الله سبحانه وتعالى لا يتأتى بغير هدى من الله ، اذ ان العقل العادي او الفلسفي لا يصل بالانسان الى المراحل الاولى من هذا الطريق الطويل . اما الوصول الى مدارج الجنة العليا ، فلا يلزم بغير اشراق الهي<sup>(٧٠)</sup> .

(٦٧) راجع ما كتبه عن الشرق الاقصى آسبن بالاحسن ( ترجمة عبد الرحمن بدوي ) شبكة الانبار المصرية ١٩٦٥ ) وكذلك ما كتبه عنه سهرلث بلنثا : تاريخ الفكر الاسلامي من ٣٧١ - ٣٨١ ترجمة حسين مؤنس .

(٦٨) ابو العلا عفيفي : تعريض الحكم للنقد عي . لسان بن عربي للغة فارسية ص ٥ - ٧ ( دار الكتب العلمية بيروت ) .

(٧٠) جوتلث بلنثا : تاريخ الفكر الاسلامي ص ٥١٤ .

وفي هذا المعنى الذي يدور حول تفضيل منح التصوير العاطفي الصوفي على منح العقل الفلسفي الذي يقوم على التحليل والتركيب ، يضع ابن عربي قصته الرمزية ، « كيمياء السعادة » التي اوردتها في فتوحاته (٧١) : وابطال هذه القصة المجازية ، مسافران يتيمان الى هذين النوعين من البشر : احدهما يرمز للدين وهو عالم بالشرعية ، والاخر يرمز للعقل وهو فيلسوف عقلائي . ويشقان طريقهما في وقت واحد الى الحضرة الالهية . ويتمكن المسافران في بداية الرحلة من التخلص من الروابط الارضية والعواطف الضارة ، احدهما بهداية العقل ، والثاني بنور الايمان . ثم يبدأ الراحلان الرميزان المعراج السماوي باجتياز السماوات السبع الفلكية ، وعلى نفس المراحل التي مر بها الرسول في معراجه ، وهي على التوالي :

سواء القمر وفيها ادم

سواء عطارد وفيها عيسى ومحيي

سواء الزهرة وفيها يوسف

سواء الشمس وفيها ادريس

سواء المريخ وفيها هارون

سواء المشتري وفيها موسى

سواء زحل وفيها ابراهيم

ويصل المسافران معا وفي نفس الوقت والسرعة ، احدهما وهو الفيلسوف على مركبه الخاص الذي يرمز للعقل ، والثاني وهو المؤمن على جناح النور والنعمة الالهية وهنا يبدأ الاختلاف في المعاملة التي يلقاها كل منهما . فتابع الشريعة يحتمي به الملائكة المعتمدون في السماوات ، بينما يضطر الفيلسوف الى البقاء بعيدا عن رفيقه ، وهذا الفرق في المعاملة بينهما يملأ تابع الشريعة بالفرح والغبطة ، ويفعم الفيلسوف بالحزن والام .

وبالرغم من ان الفيلسوف لا يظل ضائعا تماما ، اذ تتولى العقول التي تسكن هذه السماوات تعليمه واطلاعه على المشاكل الفلكية وملة تأثيرها على الارض الا ان سعادته تتضاءل عندما يرى ان تابع الشريعة يجد حولا لجميع تلك المشاكل الفلسفية في تعاليم الانبياء بطريقة اسمى واوضح من طريقة العلم الطبيعي .

وتستمر رحلة المسافرين في السماوات الفلكية حيث يلتقيان بعدد من الانبياء الذين يلقون عليها خطبا تعبر عن آراء ابن عربي وفلسفته الصوفية .

واخيرا ينتهي المطاف يتوقف الفيلسوف عن متابعة الرحلة ، بينما يواصل تابع الدين رحلته الى آخر السماوات الفلكية وهي « السماء ذات البروج » التي تتكشف للمؤمن فيها اسرار ظواهر الفردوس السماوي ، ثم يغمره الضوء المنبثق من العرس الالهي ببهائه ، وتحرك الموسيقى المتنبه من السماوات شغاف قلبه حتى يستغرق في ذهول

(٧١) ابن عربي : فتوحات الكلمه اللطيفه من ٣٧٠ وابتداء طلبة سحر بيروت ) وكذلك (صلاح عدل : تثير قلقه الاسلاميه في كوكبيها الاثني لثاني من ٨٨-٩٣ (دار الفيلسوف) .



### الاسراء الى مقام الاسرى :

ثم عرج به حين فارق الماء الى اول سياه وهي سياه الوزارة او سياه الاجسام ، حيث التقى بأتم عليه السلام الذي عاقله واجابه على اسئلته . ثم انتقل بعد ذلك على جواد سايع صبيح من نحاس الى السياه الثانية وهي سياه الكتابة وسياه الارواح . وهناك شاهد المسيح الذي اقبل عليه مرحبا وقد غمره النور ، واخذ يجيئه على اسئلته ، ثم امر كاتبه ان يكتب لابن عربي ظهيرا بالامان ، فصار بينه وبين ملكته ترجمان . ولعل في هذا اشارة الى الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين ، وأمل ابن عربي في ان يتحقق السلام والامان ، ثم انتقل السالك ( ابن عربي ) مع رسوله الى السياه الثالثة ، وهي سياه الشهادة او سياه الجمال حيث التقى بالني يوسف الذي اتصف بالجمال وحضر حفل عرسه على الزهراء او الزهرة وهنأ بضعة آيات ترمز الى كوكب الزهراء او الزهرة رمز الجمال<sup>(٧٤)</sup> والتي كانت تسمى باسمها السياه الفلكية الثالثة كما رأينا في رسالته السابقة كيمياء السعادة .

ومن ثكن	عمرها	له	تنوح	ساجوزاه	وتشعل	قشعري
لها	زهره	الروص	للمك	عرف	وهل	زهرة اخرى
تصلبي سنا فرهرها						

راجع رقة الاسرائيل عظم الاسرى ص ١٩ .

ثم انتقل السالك مع صاحبه الى الساء الرابعة وهي ساء الامارة والاعتلاء حيث قابل النبي ادريس ، ثم انتقل الى الساء الخامسة وهي ساء الشرطة فاعترضه بوابها وحجبها ثم سمحوا له بالدخول حيث قابل هارون ، وفي الساء السادسة او ساء القضاة قابل السالك موسى الكليم وسلم عليه ثم تحدث معه ومع قاضي قضائه في امور تتعلق بأحكام السماوات ، وفي الساء السابعة او ساء الغاية تحدث السالك مع الخليل ابراهيم ورأى سرور حانيته يلوح في البيت المعمور في غلالل من النور .

وهنا يقول ابن عربي : وبعد الخروج عن السبع الطباق توقف البراق والقي الرسول عصا التسيار بسدر الانوار فقلت له : ما هذا النور والبهاء ؟ قال : « سدره المنتهى » ثم تلا : وما منا الا له مقام معلوم » فسكتنا عن تعبير ما رأينا سكوت حصر وعجز لا يقوى معه اشارة ولا رمز .. فغشاها من نور الله ما غشى » (٧٥) .

وكما حدث في المراج للمحمدي يتحدث ابن عربي عن استوائه على متن الرفرف ( المقعد ) حيث الملأ الاشرف ثم طيرانه الى حضرة الكرسي القدسي الذي يعرف به كل امر حكيم . وهناك قدمت له الوصية السنية فحفظها والتزم بها ثم واصل طيرانه على جناح اللطائف متمطيا ظهور الرفارف الى حيث سمع صرير الاقلام ، ودخل في مناجاة مع ربه ذي الجلال والاکرام » (٧٦) .

واخيرا ، لا يفوتنا في هذا المقام ان نشير الى الدور المشر الذي ساهم به متصوفة الفرس في اثراء التراث الاسلامي والادب الفارسي بسياحتهم الصوفية ومظوماتهم الاشراقية ، متخلين من المراج النبوي نبراسا يعتدون بهديه ، ومنهجا ينهجون على منواله ، ونخص بالذكر منهم الشاعر سنائي ( ت ٥٢٦هـ ) في منظومته « سير العباد الى الميعاد » التي تقع في ثمانمائة بيت باللغة الفارسية ، وتصور رحلة صوفية رمزية لمسافرين يرمزان للنفس والعقل الى عالم الافلاك ثم الى عالم الملكوت الاعلى حيث الحضرة الالهية (٧٧) .

### صلى المراج في الأدب الشعبي :

وكان القصص الشعبي من بين الموضوعات الهامة التي تأثرت بالمراج النبوي واتخذت من قصته اساسا للتأمل والتخيل والمحاكاة . ومثال ذلك اقصيص الف ليلة وليلة التي كتبت للعامة وتضمنت خرافات واشعارا وامثالا وحكما ، وبعضها ذو مغزى اخلاقي .

ويولدان هذه القصص وصلت الى العرب عن طريق الفرس وعن طريق كتاب « هزارا فسانة » ومعناه بالفارسية « الف خرافة » والانس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجارتها ، وهما شيرازاد

(٧٥) رسالة الانرا الى مقام الانسرى ص ٣٣ .

(٧٦) رسالة الانرا الى مقام الانسرى ص ٥٣ .

(٧٧) راجع رسالة عبد الله بن جر : رسالة الروح بين يدي منيا وسعي وقتي ص ١٨ - ٣٩ ( مكتبة شباب القاهرة ١٩٧٧ ) وكذلك ( صاحب ظل : نفس الروح ص ٩٨ - ١٠٣ ) .

ويزداد وقد وضعت هذه القصص في قالب عربي إسلامي في العصر العباسي الأول ثم زيد فيها في العصر الفاطمي والمملوكي بقصص شعبية مستوحاة من التراث الثقافي الإسلامي بحيث لم يتبق من التأثير الفارسي سوى بعض الأسماء الفارسية<sup>(٧٨)</sup>.

ولعل إصداء المعراج في هذا الخيال الشعبي تتمثل فيما ابتدعه القصص من أحداث عن المردة والشياطين والحيات والثعابين والحوار العين والجواهر والزرجد والياقوت . . الخ . وفي حكاية أبي محمد الكسلان مع الرشيد عند قوله : فأخذني عبد مارد من عبيدهم فأنحنى وقال : اركب ، فركبت ، ثم طار بي في الجو حتى غاب عن الدنيا ورأيت النجوم كالجبال الرواسي وسمعت تسبيح الملائكة في السماء ، فبينما أنا كذلك إذا بشخص عليه لباس أخضر وله ذوائب شعر ووجه منير ، وفي يده حرية يطير منها الشر قد أقبل علي<sup>(٧٩)</sup> ، وفي قوله : ثم ركب الحكيم الفرس وركب الجارية خلفه ثم حرك لولب الصعود ، فامتأل جوف الفرس بالهواء وتحركت ومجت ثم ارتفعت صاعدة إلى الجو ولم تزل سائرة حتى غابت عن الدنيا<sup>(٨٠)</sup>.

وهناك حكاية الحسن البصري مع الجن الطيار<sup>(٨١)</sup> وحكاية سيف الملوك وديعة الجمال التي طارت بين السماء والأرض<sup>(٨٢)</sup> وحكاية السندباد مع أهل المدينة الطيارين وتعلقه بواحد منهم طار به في الجو حتى سمع تسبيح الملائكة في قبة الأفلاك<sup>(٨٣)</sup> ثم هناك الهوائف والنداءات الخفية المجهولة ونداءات الأغراء المعسولة التي توجه إلى البطل أو الشاطر من نساء جيلات لا متحانه واختبار قوة إرادته وهذه تذكرنا بالنداءات التي وجهت لني ( صلعم ) في ليلة المعراج .

على أن خير نموذج شعبي تأثر بالتراث الديني للمعراج فهي قصة بلوقيا ملك بني إسرائيل التي بدأت شهريزاد تقصها على شهريار في الليلة الثانية والثمانين بعد المائة الرابعة واستمرت تحكيها له بعد ذلك عدة ليال متتابعة والقصة تقوم على فكرة النبوءة اليهودية التي تبشر بظهور النبي محمد ( صلعم ) وأن الملك بلوقيا عرفها من كتاب سري عثر عليه في إحدى خزائن أبيه الراحل إذ قرأ فيه صفة محمد ، وأنه يبعث في آخر الأزمان وهو سيد الأولين والآخرين ، فتعلق قلب بلوقيا بحب محمد ( صلعم ) وترك الملك لأمه وخرج هائبا سائحا للبحث عنه وتقع القصة في ٢٥ صفحة<sup>(٨٤)</sup> وتتمدد فيها الصور والرموز والتشبيهات التي تجسم مختلف القوى في مخلوقات حية وغريزية كالاشجار والأعشاب والملائكة والجان والحيوانات الكاسرة والحيات الضخمة التي هي في حجم النخل والجمال والقبيلة كلها

(٧٨) سيرة الفيلسوف ، هبة ليلة ، ص ١٩ ( طر للوف ١٩٥٩ ) .

(٧٩) قصص هبة ليلة ، كتاب تشب لي جرن / اندر رشدي ص ١٠٠ ص ٥٧٤ .

(٨٠) قصص الفيلسوف ، ص ١٣٣ .

(٨١) من الفيلسوف ، ص ٢٠٣ .

(٨٢) من الفيلسوف ، ص ١١٧ .

(٨٣) قصص الفيلسوف ، ص ٨٨٦ .

(٨٤) هبة ليلة ، كتاب تشب اندر رشدي ص ١٠٠ ص ٧٧٧ - ٧٨٢ .

عاقلة ناطقة تتكلم وتصلي على محمد وتصيح بالتهليل والتسبيح باسمه مما يقوى من غرام بلوقيا في حبه لمحمد ويزيد من اشتياقه اليه فيواصل سياحته للبحث عنه .

وتبدأ الرحلة من مصر الى بيت المقدس حيث يقدم بلوقيا اللبن والخمر الى صديقه ملكة الحيات ثم يتعرف على صديقه عفان الذي يتقن العلوم الروحانية وعلوم الفلك والهندسة والكيمياء فيصحبه في رحلة الى الجبال حيث يذله على نوع من العشب اذا عصره ودهن بمائه قديمه امكنه ان يمشي على اي بحر خلقه الله ، وبهذه الوسيلة يستطيع بلوقيا ان يعبر البحر السبعة التي هي رمز لبحور العالم الاخر او السماوات السبع . وفي خلال رحلته يرى وحوش البحر والبر تجتمع على جزيرة وتحدث اثناء الليل ثم تفرق عند طلوع الشمس .

ثم يقابل ملوك الجان المؤمنين امثال صخر ويراخيا ، ويصف طبقات النار السبع الاولى جهنم وهي اهون عذابا وتليها لظى والجحيم والسعير وسقر والحطمة ثم الهاوية<sup>(٨٥)</sup> ثم يقابل الملائكة العظام وهم : جبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل ويستمر بلوقيا في السير حتى يرى صورة سدرة المنتهى ويجمع البحرين وهو بحر عظيم نصفه مالح ونصفه حلو ، وحول ذلك البحر جيلان من الباقوت الاحمر رأى فيها ملائكة مشغولين - بالتسبيح والتقدس ، فلما رآهم سلم عليهم فردوا السلام فسألهم عن هذا البحر ، فقالت الملائكة : ان هذا المكان تحت العرش وان هذا البحر يمد كل بحر في الدنيا ونحن نقسم هذا الماء ونسوقه الى الاراضي ، المالح للاراضي المالحة والحلو للارض الحلوة وهذا الجبلان خلقهما الله ليحفظا هذا الماء وهذا امرنا الى يوم القيامة » .

وفي نهاية المطاف يؤمن بلوقيا ان زمان بعث محمد بعيد كما اخبره بذلك من قبل كل من الملك جبريل وملكة الحيات وصديقه عفان فينعم على ذلك ويجهش بالبكاء ، والقصة تبدو من شكلها الخارجي ومن تاريخ احداثها واساء ابطاها انها من الاسرائيليات ولكن اذا نظرنا الى مضمونها وجدناه اسلاميا يحاكي كثيرا قصة المعراج النبوي بشيء من الخيال . فالباطل للمجهول الذي وضع سيرة بلوقيا في القصص الشعبي الاسلامي واحد من المسلمين العاشقين او المداحين لمحمد ( صلعم ) اتخذ من النبوة اليهودية اطارا رمزيا ليصنع في داخله ملحمة الشعبية التي استوحاها من التراث الديني للمعراج . فاذا كان معراج الرسول رحلة الى الله وفي العشق الالهي ، فان معراج بلوقيا رحلة الى محمد وفي العشق المحمدي .

### المعراج الاسلامي والكوميديا الالهية لداني :

لقد ثبت تاريخيا ان القرآن الكريم ترجم ملخص له الى اللغة اللاتينية في النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادي<sup>(٨٦)</sup> كما ثبت تاريخيا منذ ١٩٤٩ ان احلى صور المعراج النبوي قد ترجمت من العربية الى الاسبانية

(٨٥) يستخدم ابن عربي اسم سبعين دلا من القرية (هزرتك التكة) ح ٣ من ٤٦١ طعة مصر .

(٨٦) حسن خندان - كوميديا عتي ليجوي - ح ١ (البيوم) ص ٩٥ (دار للفنون) .

القشتالية بامر من الملك الاسباني الفونسو العاشر الملقب بالعالم EL Sabio سنة ١٢٦٤م وقام بهذه الترجمة طيب يهودي يعمل في بلاطه باشبيلية يدعى ابراهيم الفقيه او الحكيم .

وفي نفس تلك السنة (١٢٦٤م) طلب الملك الفونسو العالم الى بونا فكتورا داسينا الايطالي ترجمتها من القشتالية الى اللاتينية والفرنسية لاذاعتها فيها وراء الحدود الاسبانية<sup>(٨٧)</sup> ، لهذا كانت الفرصة سانحة امام الشاعر الفلورنسي الايطالي دانتي البيجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١م) Dante Alighieri لكي يصل الى الترجمة اللاتينية والفرنسية للمعراج الاسلامي . وهناك احتمال في ان يكون استاذ برويتولايني Brunetto Latini او غيره ممن كانوا يترددون بين فلورنسا وبلاط ملك قشتاله فقد ساعد دانتي على ذلك بأن حل له مسودة من الترجمة .

هذا ويبدو من الصعب ان يكون دانتي ملما باللغة العربية لكي يقرأ كتب ابن شهيد واي العلامة المغربي وابن عربي ذات الاسلوب المعقد والغامض في كثير من الاحيان ، ولكن من السهل جدا ان يكون دانتي قد استفاد من ترجمات القرآن الكريم وقصة المعراج النبوي وآراء ابن سينا وابن رشد وغيرهما من التراث الاسلامي الذي تسرب الى اوروا وكان متداولاً باللغة اللاتينية على ايامه ، ولعل اوجه الشبه التي تجمع بين دانتي وبين المغربي وابن شهيد وابن عربي ترجع الى انهم جميعا استقوا من معين واحد رئيسي وهو قصة المعراج الاسلامي<sup>(٨٨)</sup> . والكوميديا الالهية ملحمة شعرية مجموع ابياتها ١٤٢٣٣ بيتا وتنقسم الى ثلاثة اناشيد متساوية الطول : الجحيم والمظهر والفردوس وهي تصور رحلة خيالية قام بها الشاعر دانتي الى العالم الآخر .

وتبدأ الرحلة في ليلة الجمعة ٨ أبريل سنة ١٣٠٠م وتستمر اسبوعا يومين في الجحيم واربعة ايام في المظهر ونهارا واحدا في الفردوس وبقية الوقت في العبور ، وكان دليل دانتي في رحلته عبر الجحيم المظهر الشاعر الروماني القديم وصاحب ملحمة الانابتة ، فرجيليوس (٧١ - ١٩ ق م) الذي كان على غرار جبريل ، ليس مجرد دليل بل كان مرشدا واستاذاً يشرح له الطريق .

ولم يستطع فرجيليوس مواصلة الطريق في الفردوس لأنه مات وثنيا ، فحلت محله بياتريش محبوبة دانتي ، لتكون مرشدته في الفردوس ، ثم يحل محلها سان برناردو في الملكوت الاعلى او الوردة الداتية على غرار ميكائيل واسرافيل وروصوان في المعراج الاسلامي . وفي خلال هذه المرحلة نجد تشابها بين الجحيم الاسلامي وجحيم دانتي في وصف هيب النار ومشاهد المعذنين وآلات التعذيب والوحوش والافاعي الرهيبة ، ثم هناك الاعراف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وعرفها المقسرون المسلمون بانها تل بين الجنة والنار ، فأخذ دانتي منها فكرة اللهب Lībo بمعنى

(٨٧) يوجد نص الاصح في نسخة البوطية بالقاهرة كما يوجد نص افرسي في نسخة الرطبة بباريس لما نص الاسباني القشتالي المنقول عنه مدفون في الانس . وقد تم كل من القشتاني والاسباني مؤلفين مشهور

والقشتاني الايطالي افريكو تشيرولي بشرعارة فرجعة لاتينية وفرنسية لنبذة للمعراج للمسيحي Escala de Mahoma: كل على حدة وفي وقت واحد تقريبا سنة ١٢١٩ رابع . Sendinon Jore munoy - La Escala de Mahoma Traducion del arabe al costellanom Latiny F noosm Ordenada par difuso el Sabion Madrid 1949 & Cerullim Enrico: le Libro della Scala e la questione delle fonti arabo — Spangola della Qvina Comediam Vaticano 1949.

(٨٨) كان الهدف من هذه الترجمة للشرق الايطالي افراتريش رشتيفر قد افني . مجلة بيروت العربية سنة ١٩٧١ . محاضرة فنية حول هذا الموضوع لروبن كون الملحة قد شربنا سطرطاليا

الحفاة او الشفا ، وخصصها لأرواح الاطفال الذين توفاهم الله قبل ان يعملوا وارواح الوثنيين الفاضلين . وفي هذا الكتاب وضع داني ارواح ثلاثة من المسلمين وهم ابن سينا وابن رشد وصالح الدين تقديرا لفضلهم .

ولقد ترجم استاذنا المرحوم حسن عثمان هذه الكوميديا الخالدة الى العربية في ثلاثة اجزاء ( الجحيم ، المطهر ، والفردوس ) مع مقدمة دراسية تحليلية في كل جزء منها ، وقضى في ذلك العمل العلمي الرائع معظم سنوات عمره ، الا انه اسقط من الترجمة جزءا من الجحيم وهو الجزء الخاص بوصف الرسول وعلي بن ابي طالب تخرجاً من ابراهه لأن يسيء الى مكانة الرسول وابن عمه .

وقد علقت رشا حود الصباح على هذا الجزء الناقص : انطلاقاً من المثل القائل بأن « ناقل الكفر ليس بكافر » مع عقد دراسة قيمة تشرح فيها التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى ، التي فرضت نفسها على الشاعر الايطالي وجعلته يتجه هذا الاتجاه في ملحمة (٨٩) ولا شك ان شاعراً كبيراً في مثل ثقافة داني لا بد وان يكون قد استفاد من مختلف أنواع المعارف والعلوم السائدة في عصره عند تصميم بناء روعته الخالدة . ولهذا جمعت كوميديا داني بين عناصر التراث المسيحي اللاهوتي وبين عناصر التراث الاسلامي بالصورة التي جاءت عليها قصة المعراج .

ولا يتسع المجال الآن لتسبع اصول هذه المؤثرات الاسلامية في الكوميديا الالهية ، ووجه الشبه بينها ، فهناك اعمال علمية لها شهرتها وقيمتها قد تناولت هذا الموضوع بالدراسة والتحليل ، نذكر منها ما كتبه المستشرق الاسباني ميغل أسين بلا ثيوس في كتابه الذي وضعه بالاسبانية سنة ١٩١٩م بعنوان « العلم الاسلامي لما بعد الحياة في الكوميديا الالهية » (٩٠) ويقوم على بيان اوجه الشبه بين ما كتبه داني وما كتبه المعري وابن عربي وبعض المفسرين المسلمين حول العالم الاخر .

وكان ذلك قبل اكتشاف الترجمة الأوروبية لفصحة المعراج الاسلامي ، ثم هناك ما كتبه حديثاً سنة ١٩٤٩م كل من ستينيو وتشيرولي حول هذا الموضوع بعد اكتشاف الترجمة الأوروبية المذكورة والتي تعتبر الاساس المباشر الذي تأثر به (٩١) داني ، كذلك ينبغي ان نشير الى الدراسة العلمية المقتلة والمستغنية التي ظهرت في كتاب حول هذا الموضوع بعنوان « تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لداني » للزميل صلاح فضل . على ان المهم هنا ، هو ان كل هذه الدراسات وغيرها التي تناولت هذا الموضوع ، اتفقت على ان كل هذه المؤثرات الاسلامية والمسيحية التي تأثر بها داني ، لا تقل مطلقاً من قيمة عمله الرائع ولا تنقص من اصاليته ، لأن العبرة هنا ليست بالحكم على نوع المادة التي صنع منها عمله وانما بالحكم على موضوعية العمل نفسه .

(٨٩) رشا حود الصباح - تصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى ويكرها في كوميديا الالهية ، عالم الفكر / المجلد الثاني عشر / العدد الثالث ١٩٨٠ .

(٩٠) يوجد ملخص لطيفة لبون لمعربة لوره فرمل نقل جيروك بلان في كتابه تاريخ الفكر الانساني الذي ترجمه الى العربية حين مؤسس من ١٩٣١ و١٩٣٢ وكذلك ترجم عبد الرحمن بلادي الكتاب الذي اهداه لاساتفة لبون بلايوس من عي هيس من عربي (شبكة الانترنت لسنة ١٩٦٥) .

(٩١) سبت الاشدة الى كلبي سغويرتشولي في هذا الصدد

### بعض جهود المسلمين العلمية والعملية في دراسة السماء :

اهتم العرب من قديم بعلماء السماء او الاجرام السماوية التي كانوا يبتدون بها في صحاريهم وبحارهم التي ليس فيها مسالك مألوفة ، ولعل هذا كان من اسباب عبادتهم للنجوم والكواكب ، وقراءة السماء لم تكن ممكنة لاي شخص عادي بل كان لابد لها من علم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . ولعل الآية الأخيرة تشير الى ذلك المعنى<sup>(٩٢)</sup> . ولما جاء الاسلام ، زاد اهتمام المسلمين بعلم الفلك لانه يعينهم على معرفة اوقات الصلاة والصوم ، كما يعينهم في رحلاتهم البرية والبحرية ، ولهذا عكفوا في بداية الامر على نقل وترجمة الكتب الفلكية المشهورة في علوم الاولين الى اللغة العربية ، ومثال ذلك الكتاب الهندي القديم « سوريا سد هانتا » اي « المعرفة من سوريا » امة الشمس » الذي ترجمه ابراهيم الفارابي عن اللغة السنسكريتية بتوجيه من الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور في القرن الثاني الهجري . وقد عرف هذا الكتاب بالعربية باسم « السند الهند » وهو تحريف للعنوان الاصلي ، وعلى منواله جاءت كتب السند هند التي الفت بعد ذلك ، وفي عهد الخليفة المنصور العباسي ايضا ترجمت بعض اعمال العالم السكندري القديم بطليموس الفلوري ( ت ١٧٠هـ ) Claudius Ptoomy ومن اهم كتبه كتابه المعروف باسم المجسطي واسمه باليونانية Megale Suntais , Madthematik , أي كتاب الحساب الأعظم ويبدو أن العرب حولوا لفظه مجال الى مجسطي ويعتبر هذا الكتاب - دائرة معارف في علوم الفلك وموضوعاته تدور حول كروية الارض وحركات الشمس والقمر والنجوم . . . الخ .

وقد استفاد منه علماء المسلمين وشرحوه وأضافوا اليه<sup>(٩٣)</sup> ولم يقتصر علماء المسلمين على ذلك بل استخرجوا من هذه الكتب جداول حسابية او فلكية تبين مواقع النجوم وحركاتها . وقد عرفت هذه الجداول باسم الزيجات او الازياج ومفردها الزيج . كذلك استخدم المسلمون آلات لقياس ارتفاع الشمس والنجوم والكواكب فوق الافق سواء على البر او في البحر ، ومن أهمها آلة الاسطرلاب ، وهي آلة يونانية الاصل عمل العرب على تطويرها واليهام يعزى ابتكار الاسطرلاب المكمل الذي نقله الاوروبيون في العصور الوسطى واستخدموه في قياس ارتفاع الاجرام السماوية<sup>(٩٤)</sup> ، وقد برز علماء مشهورون في هذا المجال الفلكي والرياضي نذكر منهم محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٣٣٧هـ) Algoritmi الذي اشتهر بالزيج او الجلول الفلكي الذي وضعه واطلق عليه اسم « السند هند الصغير » وقد جمع فيه بين مذهب الهند ومذهب الفرس ومذهب بطليموس ( اليونان ) فاستحسن اهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة في الشرق والغرب . كذلك ينسب اليه عمل الربع المجيب على قرص الاسطرلاب ومن هذا

(٩٢) راجع ( جرح قاهر حوري - العرب واللات في المحيط الهندي في العصور القديمة واول العصور الوسطى ترجمة بطرب بكر برابطة عيسى الحجاب (ص ٣٧٦ - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٨) .

(٩٣) صرغ فريخ - تاريخ العلوم عند العرب ص ١٢٤ راجعها بيروت ١٩٧٠ دار فاهم للنالين .

(٩٤) نور عبد السلام : ثلاثة وعلم السطر عند العرب ص ١٦٩ ( الكويت ١٩٧٩ علم للفرقة ) .

الربيع المجيب ابتكر الخوارزمي للمقياس المعروف باسم « عصا الخوارزمي »، هذا الى جانب كتابه « حساب الجبر والمقابلة » الذي ادى الى وضع لفظ الجبر واعطائه مدلوله الحالي في جميع اللغات **Algebre**.

كذلك، نذكر ابا العباس احمد الفرغاني ( ت ٢٤٩هـ ) وهو **Alfraganus** عند الغربيين ، وقد ترجمت كتبه في علم الفلك الى اللاتينية والعبرية واشتهر بدقة حساباته حتى انه يقال ان الولايات المتحدة قد اطلقت اسمه على قطاع من القمر تقديرا لفضله .

هذا ولا يفوتنا ان نشير الى العالم الفلكي الاندلسي ابراهيم بن يحيى الزرقالي (٤٥٢ - ٤٧٢هـ) الذي وضع مع ابن صاعد جداول طليطة المعروفة بالزيج الطليطي ، كما اخترع اسطرلابا جديدا عرف باسم « صفيحة الزرقالي » التي عرفها الغرب باسم **Asafea** وكتب حولها « رسالة العمل بالصفحة » يشرح فيها طريقة العمل بها ، كما ابتكر في الفلك نظريات جديدة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم ، وقد ترجمت اعماله الى اللغة اللاتينية في عهد الملك الاسباني الفونسو العالم السالف الذكر (٩٥) .

اما من الناحية التجريبية التطبيقية ، فنشير هنا الى العالم الاندلسي الكبير « عباس بن فرناس » الذي عاش في القرن الثالث الهجري او التاسع الميلادي في كتف الامير عبد الرحمن الثاني الاموي . واشتهر هذا العالم بتقانه لعلوم الفلك والغنيعة والرياضة والكيمياء . ويروي انه صنع في بيته قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وافلاك وانه استطاع ان يحدد فيها ظواهر الرعد والبرق والمطر بطرق آلية .

فهي دراسة تجريبية تطبيقية لعمليات الظواهر الطبيعية . ويروي عنه كذلك انه حاول الطيران ، فكسا نفسه بقوامد النسر ( اي ريش النسر ) وصنع لنفسه جناحين على هيئة اجنحة الطيور وربطها في جسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين . ثم قام بمحاولته من ناحية الرصافة بقرطبة ، فحلّق في الهواء مدة واستطاع ان يطير الى مسافات بسيطة ولكنه اخفق في تقدير وزن الجسم فسقط على الارض واصيب ببعض الكلمات . ويقال ان اخفاقه يرجع الى عدم اتخاذه ذنبا ( ذيلا ) يمينه على الهبوط .

وكيفها كان الامر فان هذه المحاولة هي اول محاولة للطيران في التاريخ وقد حرصت كلية الطيران المصرية في القاهرة على تكريم هذا العالم عباس بن فرناس فاقامت له نصبا تذكاريا تقديرا لفضله وعلمه .



(٩٥) جوهرة ليل : تلخيص الفكر العربي ، ترجمة حسين يوسف ، ص ٤٥٠ .



عندما نفكر في إعادة كتابة التاريخ ، علينا أن نضع أمامنا هدفين أساسيين ، أولهما تنقية التاريخ مما علق به من شوائب وخرافات وأوهام وبهالغات - وربما افتراءات - ألصقها به الرواة ، وصارت مع الأيام جزءا من الرواية التاريخية . والهدف الثاني هو محاولة تفسير الاحداث التاريخية تفسيراً صحيحاً يتفق مع الواقع والحقيقة ، بعيداً عن الاهواء الشخصية والنمرات الاقليمية او المحلية ، والتشدد الديني ، والتعصب المذهبي ، والتحيز الفكري .

ذلك أن المشكلة الكبرى التي تواجهنا في دراستنا لمصادر التاريخ عموماً ، هي اعتماد اللاحقين على ما دونه السابقون ، ونقلهم عنهم في كثير من الأحيان نقلاً أعمى دون وعي أو تمحيص أو تفقيد . وهذا هو السر في تشابه الروايات - وربما تطابقها - في مختلف كتب التاريخ عن حادث بعينه . وفي كثير من الحالات يكون سبب هذا التشابه أن أصل الرواية واحد ، ذكرها على نحو معين مؤرخ سابق ، ثم نقلها عنه - وعن بعضهم البعض - من جاء بعده من المؤرخين ، حتى ليخيل لمن يرجع الى عشرات المصادر ان الرواية حقيقية ، وأن هناك إجماعاً على صحتها . وهنا يكمن الخطر ، لأن الأصل الذي نقل عنه اللاحقون قد يكون مبالغاً فيه ، أو متحيزاً للجانب معين ، أو غير صحيح .

## أضواء على حركة الردة في صدر الإسلام

سعيد عبدالفتاح عاشور



ومن المواضيع الحساسة في التاريخ الاسلامي التي تتطلب وقفة خاصة طويلة من الباحثين، للحكم عليها

حكماً أميناً صادقاً ، تلك الحركة المعروفة باسم حركة الردة في صدر الاسلام ، ذلك أننا نعتقد أن هذه الحركة أسيء فهمها وتصويرها في التاريخ ، فضلاً عن أنها لم تطل أو تفسر التفسير الواقعي السليم .

فعندما نتتبع مسيرة الاحداث في السنوات الاخيرة من حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - نجد اجماعاً من الرواة وكتاب السيرة والتاريخ على أن الرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة . وبعد ذلك مباشرة - اي في السنة التاسعة للهجرة - أقبلت عليه الوفود تمثل قبائل شبه الجزيرة العربية تعلن اسلامها . ولم يلبث - عليه الصلاة والسلام - أن حج حجة الوداع في السنة العاشرة ، ثم مرض وتوفي في أوائل السنة الحادية عشرة .

وتمة حقيقة أخرى أجمعت عليها المصادر والروايات المعاصرة ، هي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كاد يعود من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة حتى بلغه خروج الأسود العنسي باليمن ( وهي اول ردة في الاسلام ) وتبع ذلك خروج كثير من القبائل في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وخاصة بعد أن شاع خبر مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ثم وفاته ، وعندهذ ( كبرت الارض وتضمرت ، وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة ، الا قريشا وثقيفاً ) على قول الطبري .

وهنا لا بد لنا من وقفة لتقييم الحقائق السابقة :

من الخطأ والمبالغة اعتبار مجيء الوفود الى الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة للهجرة لتعلن اسلامها دليلاً على ايمان القبائل بالاسلام كمقيدة ، والقول بأن ذلك يعبر عن انتشار الاسلام في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية وتغلغل تعاليمه ومبادئه في قلوب الناس . ذلك أنه يتعذر علينا فهم الحقيقة الخاصة بأن آلاف الافراد ، من شتى القبائل المتناثرة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية ، اقتنعوا بالدين الجديد في مدى سنوات قليلة ، مع عدم وجود وسائل دعابة أو اعلام أو معرفة . لو كانت هناك صحافة أو اذاعة أو طباعة ، لقلنا أن الاعلام أتى ثماره ، وأن آلاف النسخ التي طبعت من القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول جذبت الناس الى الصراط المستقيم . ولكننا نعلم من واقع السيرة النبوية والمصادر الاولى ان حفاظ القرآن عند وفاة الرسول (ﷺ) كانوا قليلين ، وقد خشي على القرآن من الضياع عند تناقص عددهم في عهد أبي بكر رضي الله عنه ؛ نتيجة الموت أو الاستشهاد ، فأشار عليه بعض المخلصين من الصحابة بالاسراع في جمع القرآن .

يروى الطبري أن سبعين صحابياً من حفظة القرآن استشهدوا في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب ، الامر الذي أفرغ عمر بن الخطاب ، وجعله يحشى ان يتبدد القرآن ، فذهب الى أبي بكر وقال له : « ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن . واني أرى ان يجمع القرآن » . فقال له ابو بكر ( كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ) ويريوي أبو بكر رضي الله عنه - ما تم بعد ذلك ، فيقول ( فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في

ذلك الذي رأى عمر ( . وكان أن كلف أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت - رضي الله عنها - وعن الصحابة أجمعين بأن يفتا على باب المسجد ويطلبوا من كل من يحفظ القرآن أن يذكر لها ما يحفظ . فوقف عمر وصاحبه على باب المسجد ، ونادى : ( من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به ) .

وتعنيانا من هذه القصة نتيجة واحدة : اذا كان هذا هوشان القرآن الكريم عند وفاة الرسول (ﷺ) واذا كان هذا هو عدد حفاظ القرآن الكريم في تلك المرحلة ، فماذا كان نصيب القبائل العربية الضاربة في شتى أنحاء بولدي شبه الجزيرة . وكتاب الله ؟ وهل ينتظر ان يكون بعضها قد ألم به المأما كافيا واستوعب أحكامه ، لينشرح في ضوءه صدره لدين الله ؟؟

حقيقة ان الرسول (ﷺ) أرسل بعض الصحابة الى القبائل - مثل علي بن أبي طالب - الى اليمن وعمرو بن العاص الى عمان - ولكن هذا حدث في وقت متأخر - في السنة العاشرة للهجرة ، قبيل انتفاضة القبائل فيما عرف باسم حركة الردة . ولم يكن باستطاعة هؤلاء مع قلة عددهم من ناحية ، وسعة انتشار القبائل العربية من ناحية ثانية ، وضيق الوقت وتلاحق الاحداث بسرعة من ناحية ثالثة ، أن يشقوا طريقا للاسلام الى قلوب قطاع عريض من عرب شبه الجزيرة .

وهكذا فان أقصى ما نسمعه عن انتشار الاسلام في تلك المرحلة لا يتعدى اشارات لا يمكن أن نحملها أكثر مما تحتل ، لنقول ان الاسلام كعقيدة لها تعاليمها وبيادها ، وكرسالة لها نظرتها الى الحياة ومشاكلها ... كان بعيدا عن قلوب الغالبية الكبرى من العرب عندئذ . ومن أمثلة ذلك ما يقال من أن البعض - مثل ملوك حير - كتبوا الى الرسول (ﷺ) مقرين بالاسلام ، فكتب اليهم الرسول (ﷺ) ( يأمرهم بما عليهم في الاسلام ، وينهاهم عما حرم عليهم )<sup>(١)</sup> فهل كانت تكفي مثل هذه العملية السطحية لاقناعنا بأن مثل هؤلاء دخلوا فعلا بأحاسيسهم في دين الله ، وتشربت قلوبهم تعاليمه وأركانه وآدابه ؟؟

بل لعله من الغريب أن نسمع عن بعض الرسل الذين أوفدهم رسول الله (ﷺ) الى قبائل العرب لتبصيرهم بالاسلام ، أن الايمان لم يكن قد رسخ في قلوبهم بعد . من ذلك ما يقال من أن هذبة بن علي ملك اليمامة أرسل الى النبي (ﷺ) وفدا ، فيهم جماعة والرجال . وأقام الرجال عند الرسول (ﷺ) حتى قرأ البقرة وغيرها وتفق ، وعندئذ بعثه الرسول معلما لأهل اليمامة ، فاذا به يرتله وينضم الى مسيلمة الكذاب ، ويشهد أن رسول الله (ﷺ) أشرك مسيلمة معه ، فكانت فتنته أشد من فتنة مسيلمة<sup>(٢)</sup> . واذا كان هذا هوشان المعلم الذي

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

(٢) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٢١٥ ( السنة السابعة للهجرة )

Massignon ; Annuaire du Monde Musulman , P. 210 .

أرسله الرسول (ﷺ) الى أهل البصرة ( ليشدد من أمر المسلمين ) فهاذا ننتظر من أناس لم يروا الرسول ولم يسمعوا منه ، ولم يقرأوا بين يديه آية واحدة من آيات القرآن الكريم ، ولم يعرفوا عن الاسلام الا صورة غير واضحة رواها القصاص والخباريون ؟؟

ان يجيء وفد من بضعة أفراد - غالبا دون العشرة - ليعلن دخول قبيلة بأسرها في الاسلام ، لا يعني ان أفراد هذه القبيلة قد آمنوا فعلا بهذه العقيدة الجديدة . والذي نعتقد ان القبائل العربية اهتزت أمام سقوط مكة في قبضة الرسول (ﷺ) ، وإنكسار قريش أمامه (ﷺ) ، وأدركت أنها لا تستطيع الصمود أمام تلك القوة الكاسحة ، فأرسلت وفودها تعلن استسلامها ودخولها في الطاعة . ولما كانت تعلم أن الدخول في الاسلام هو الشرط الوحيد لموادعة المسلمين وإتقاء خطرهم ، فان استسلامها جاء في صورة اعلان اسلامها .

ولا يخفى عنا أن إحلال تعاليم الاسلام في القلوب محل عقائد راسخة موروثية ، يتطلب جهدا واقناعا ووقتا . ذلك أن هذا الأمر لا بد له أولا من تفرغ القلوب والصنوبر من الشحنة الفاسدة الكامنة فيها . وبعد تطبيقها جيدا يعاد شحنها بشحنة أخرى سليمة من تعاليم الاسلام وبمثل ومبادئه . وفي المآل - حالة التفرغ وحالة الملء - لا بد من تتميم العملية تدريجيا - وبأناة وصبر - حتى تكون سليمة مثمرة .

لماذا لم تحدث ردة عن الاسلام في بعض البلاد التي فتحها المسلمون بعد ذلك مثل مصر مثلا ؟ لأن انتشار الاسلام في تلك البلاد لم يتم سريعا في مدى بضع سنوات قليلة ، وإنما استغرق قرونا طويلة . ويعطي المؤرخون - مثل ماسيتون - سنة ٢٣٩هـ (٨٥٣م) أهمية خاصة في تاريخ انتشار الاسلام في مصر ، لأنه منذ هذه السنة أخذت تختفي ثورات الاقباط ، مما يدل على ان غالبية أهل البلاد صارت فعلا من المسلمين<sup>(١)</sup> . وكان ذلك بعد الفتح العربي لمصر بأكثر من قرنين من الزمان . أما في شبه الجزيرة العربية ، فاننا نريد أن تصور الاسلام وقد انتشر بين قبائلها في مدى عامين !!

ثم ان علينا أن نذكر دائما أن الاسلام يمثل من بعض زواياه ثورة اجتماعية بكل معاني الكلمة ، وليس مجرد شهادة ينطق بها أو طقوس وفرائض تؤدي . لقد استهدف الاسلام اخلال مجتمع سليم محل مجتمع فاسد ، واستبدال عادات وتقاليده عنيفة بأخرى كريمة ، ونشر سلوك اجتماعي قويم بدلا من آخر منحرف .

ومن دراستنا للتاريخ نستطيع أن ندرك أن انقلابا عسكريا أو سياسيا يمكن أن ينجح في مدى ساعات ، وأن تحولا اقتصاديا يمكن أن يتم في مدى أعوام قليلة . أما ثورة اجتماعية شاملة فلا يمكن أن تكتمل في مدى جيل واحد ، ولا بد لها من بضعة أجيال لتؤدي ثأرها . ذلك أنه يصعب على البشر أن يتخلل بسرعة عما ورثه عن آبائه وأجداده من عقائد وعادات وتقاليده ، ولد وشب في ظلها ، ورأى أباه وأجداده يدينون بها ، وغدت جزءا لا يتجزأ من تكوينه الروحي والفكري والنفسي . وجاء مصداق ذلك في القرآن الكريم ( بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة

وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة  
وانا على آثارهم مقتدون (٣) وكذلك قوله تعالى : ( واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه  
آباءنا ، أولوا كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ) (٤) وهكذا يبدو أن التمسك بثرات الآباء والاجداد  
وسننهم وعقائدهم وتقاليدهم هو أمر طبيعي في النفس البشرية ، يحتاج تغييره الى جهد كبير ، ووقت ليس  
بقصير .

ولذا نرجح أن القرار الذي اتخذته غالبية القبائل العربية ، في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالدخول في  
الاسلام كان قرارا سياسيا ، استهدفت به زعامات تلك القبائل المحافظة على كياناتها ، ودره خطر المسلمين عنها .  
وليس معنى هذا أن هذه القبائل أرسلت وفودا الى الرسول (ﷺ) تعلن اسلامها أنها فهمت ما هو الاسلام ، أو  
أنها أملت بروحه وأمنت بتعاليمه ، وحرصت على الدخول فيه .

وهنا لا بد لنا من وقفة أمام الآية الكريمة ( قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) (٥) . وفي  
رواية للطبري أن المقصود في هذه الآية أعراب بني أسد في خزيمه (٦) . وأيد أبوحيان هذا الرأي ، وقال أن بني  
أسد بن خزيمه قبيلة تجاور المدينة ، أظهروا الاسلام وقلوبهم دخلت ، انما يحبون المغائم وعرض الدنيا . ويردف ذلك  
بقوله ( مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار ، قالوا : آمنا فاستحققنا الكرامة ) فرد الله تعالى عليهم بقوله : ( قل  
لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ) فهو اللفظ الصادق من أقوالكم ، وهو الاستسلام والانقياد ظاهرا ، ولم يواطىء  
أقوالكم ما في قلوبكم . فلذلك قال : ولما يدخل الايمان في قلوبكم . ولفظ - ولما - هنا فيه معنى التوقيع ، بما يدل  
على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (٧) .

وبسوقنا هذا الى تحديد معنى الاسلام ، والفارق بينه وبين الايمان . قال ابن منظور في لسان العرب  
( الاسلام والاستسلام : الانقياد . والاستسلام من الشريعة : اظهار الخضوع واطهار الشريعة ، والتزام ما أتى به  
النبي (ﷺ) وبذلك يحقن الدم . والاستسلام باللسان والايمان وبالقلب ) (٨) أما الزمخشري فيقول : الايمان هو  
التصديق مع الثقة وطئانية النفس ، اما الاسلام فهو الدخول في السلم ( فاعلم أن ما يكون من الاقرار باللسان

(٣) سورة الزمر ، ٢٢ - ٢٣ .

(٤) سورة لقمان ، ٢٦ .

(٥) سورة المجرات ، ٦٤ .

(٦) تفسير الطبري ، ج ٢٦ ص ١٤٦ .

(٧) أبوحيان - التفسير الكبير ، ج ٨ ص ١١٦ ( طبعة الرياض ) .

(٨) ابن منظور - لسان العرب - مادة سلم .

من غير مواطأة القلب فهو اسلام ، وما واطأ فيه القلب واللسان فهو ايمان <sup>(٩)</sup> ويوضح ابن كثير هذا المعنى فيقول ( ان الايمان أخص من الاسلام ، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الاسلام ثم عن الايمان ثم عن الاحسان ، فترقى من الاعم الى الاخص . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ( سأل رجل النبي ﷺ ) ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك <sup>(١٠)</sup> . روى الامام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنها : أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً . فقال سعد رضي الله عنه : يا رسول الله : أعطيت فلاناً وفلاناً ، ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أو مسلم ؟ <sup>(١١)</sup> .

ويقول الطبري : الاسلام الكلمة والايمان والعمل . وفي تفسير ( قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) يقول الطبري : قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، قل لهم لم تؤمنوا ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل <sup>(١٢)</sup> ويروي ابن كثير في تفسير هذه الآية - عن سعيد بن جبير ويحاهد - ما نصه ( ولكن قولوا أسلمنا ) أي استسلمنا خوف القتل والسبي !!

وفي ضوء هذه التفسير والشروح ، نستطيع أن نقرر موقف القبائل العربية عندما أرسلت وفودها في السنة التاسعة للهجرة تعلن اسلامها . ذلك أن اسلامها كان استسلاما - خوف القتل والسبي - وليس ايمانا بالاسلام كعقيدة وأسلوب ومنهج . لقد خافت هذه القبائل أن يحمل بها ما حل بغيرها ، بعد أن تحقق انتصار محمد - عليه الصلاة والسلام - على قريش ، وبعد أن تم له فتح مكة ، فأسرعت تعلن استسلامها له ، ودخولها في طاعته . ولما كانت سياسة الاسلام واضحة تجاه المشركين ، تلتخص في قوله تعالى ( ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ) فان القبائل العربية عندما أعلنت استسلامها جاء ذلك مصحوباً بإعلانها قبول الاسلام كعقيدة ، دون أن يفهموا عقيدة الاسلام أو يستوعبوها ، وإنما قال القوم ذلك بالسنتهم ( ولم يصدقوا قولهم بفعلهم ) على قول الطبري .

وصفوة القول أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما حج حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، ثم انتقل الى جنات ربه في العام التالي ، لم يكن الاسلام - كعقيدة - قد تغلغل في قلوب الغالبية الكبرى من عرب شبه

(٩) الزمخشري : تفسير الكشاف ، ج ٤ ص ٣٧٦ .

(١٠) مصطفى عمارة : جواهر البخاري وشرح الفسطاطي ص ٥٣ ( طبعة القاهرة ) .

(١١) انظر تفسير ابن كثير .

(١٢) تفسير الطبري : سورة المجرات - ج ٣٦ ص ١٤١ .

الجزيرة ، وأن القبائل التي أعلنت ردتها - قبل وفاته عليه الصلاة والسلام- وعقب وفاته - كانت في حقيقة الامر قد أعلنت استسلامها دون أن يكون معظمها قد آمن بالاسلام . وبناء على ذلك لم تكن هناك ردة عن الاسلام كمقيدة ، وإنما كان هناك خروجٌ عن الطاعة وقرء على السلطة ... طاعة الحكومة الاسلامية في المدينة ، وسلطة قريش التي أخذت تباشرها باسم الاسلام على كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية .



وإذا كانت الغالبية الكبرى من القبائل العربية التي أعلنت اسلامها قد فعلت ذلك حقنا للدماء وخوف السبأ والقتل ، فانه يبدو أنها عندما فعلت ذلك لم تكن تعرف بوضوح ما يلقيه هذا الأمر عليها من التزامات وفروض ، ربما بدت في نظرنا نحن اليوم طبيعية وهينة ، ولكنها سرعان ما بدت غير ذلك في نظر غالبية العرب أنفسهم . حقيقة ان الوفود أظهرت الطاعة والامتثال لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان ( يأمرهم بما عليهم في الاسلام ، وينهاهم عما حرم عليهم ) وعادوا الى ربوعهم وقيائلهم ليبلغهم الرسالة . ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، إذ بدت الصعوبة عند التطبيق ، فانتضح للكثيرين منهم ان النهوض بما عليهم في الاسلام والامتناع عما حرم عليهم ، معناه الخروج عما ألفوه ، وعما وجدوا عليه آباءهم ، وتغيير مجرى حياتهم الدينية والاجتماعية والفكرية ، والحد من حريتهم الشخصية التي طالما اعتزوا بها ، وفاخر بها آباؤهم وأجدادهم .

ومن المعروف أن جو الصحراء يخلق الحرية . وفي بيئة شبه الجزيرة العربية عاش العربي منذ أقدم العصور يعتز بحريته ويحرم عليها ويدافع عنها . ومهما يذاع عن مساوئ العصبية القبلية ، فانا اذا حللنا هذه الظاهرة نلمس فيها مظهرا من مظاهر الحفاظ على حرية القبيلة ، وهي الوحدة الاجتماعية والسياسية والادارية والاقتصادية التي يعتز العربي بانثائه اليها ، ويفخر بها على غيرها من القبائل . ومن واقع هذا الاحساس انفجرت حروب طويلة بين القبائل العربية قبل الاسلام ، وكثير منها استمر بعد الاسلام ، داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها . ويعبر ابن خلدون عن هذه الظاهرة تعبيرا صادقا دقيقا حين يقول ( ان العرب أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض ) .

حقيقة ان الاسلام - كديانة ساهوية كريمة - كفل حرية الفرد وحرية المجتمع ، حرية الفكر وحرية العمل وحرية الحركة ، ولكن الاسلام وضع هذه الحرية في اطار بارز من الانضباط والاعتدال وعدم الاسراف والتسلك بكمار الاخلاق ، مع مراعاة تحقيق التوازن الدقيق بين حرية الفرد وحرية المجتمع ، وبين حرية الذات وحرية الغير . ان لفظ الحرية جميل في معناه ويدلوه وروحه ، ولكن حرية بلا ضوابط ومعناها الانحلال والقوضى والتسيب . وإذا كان الاسلام قد شرع حقوقا للفرد ، الا أنه فرض عليه واجبات تجاه الله ، وتجاه نفسه ، وتجاه المجتمع الذي يعيش فيه ، وتجاه الدولة التي ينتمي اليها ويحيا في ظلها لتوفر له حياة آمنة وتقدم له خدمات متعددة .

ولكن يبدو ان نسبة كبيرة من العرب الذين أعلنوا اسلامهم في حياة الرسول ، سرعان ما ضاقوا ذرعا بالواجبات التي فرضها الاسلام عليهم ، ورأوا فيها انتقاصا من حريتهم الشخصية والجماعية ، وساسا بكبريائهم وأنفتهم ، الأمر الذي أدى بهم الى النفور من الاسلام ، تخلصا مما اعتبروه قيودا فرضها عليهم .

من ذلك أن بعضهم رأى في نهي الاسلام عن الخمر والميسر ، واعتبارها رجسا من عمل الشيطان انتقاصا من حريتهم ، وهم الذين ألفوا شرب الخمر ولعب الميسر . يروي الطبري أن بني حنيفة في البحرين ما كادوا يعلنون ردتهم حتى أفرطوا في الشراب ، فغلب عليهم السكر ، الأمر الذي مكن المسلمين من التغلب عليهم ( فوضوا السيوف فيهم حيث شاءوا ) (١٣) .

أما الصلاة فقد رأى فيها البعض فيدا يجد من حريتهم ، وربما ينتقص من كبريائهم وأنفتهم ، بما تحويه من ركعات وسجادات عدة مرأت يوميا ، الأمر الذي جعلهم يرجون اعفاءهم منها أو التخفيف من عدد مراتها . ومن ذلك أن مسيلة الكذاب عندما تزوج سجاح قالت له ( اصدقني صداقا ) فطلب منها أن ينادي مؤذنها في أصحابها ( ان مسيلة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد ، صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر ) (١٤) . ويذكر صاحب كتاب الاغاني أنه قد وضع عنهم صلاة العصر فقط ، وأن ( بني تميم الى الآن ) (١٥) بالمرل (١٦) لا يصلونها ، ويقولون : هذا حق لنا ومهر كريمة منا لا نرده ) ولا شك في أن مسيلة أراد برفع تلك الصلوات التقرب اليهم بعمل شيء محبب الى نفوسهم ، والتخفيف مما اعتبروه عبثا على كواهلهم ، وتحريرهم مما ظنوه قيودا على حريتهم .

على أنه اذا كان الامتناع عن الخمر والالتزام بأقامة الصلاة من الامور التي يسهل التستر عليها والتهرب منها ، بحيث يستطيع المنافق أن يظهر فيها غير ما يبطن ، فان الأمر اختلف بالنسبة للزكاة . ذلك أنه كان مفروضا في الزكاة ان تدفع للعامل الذي تحدده الدولة ، وان تحمل الى بيت مال المسلمين في المدينة ، حيث يثبت ما يستحق على كل قبيلة دون تظريف أو نقص ، وفق قواعد ثابتة شرعها الاسلام . وفي هذه الحالة كان لا يمكن التهرب من ايتاء الزكاة ، وخاصة أنها ركن من الأركان التي قام عليها الاسلام .

ولو كان العرب الذين أعلنوا اسلامهم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عرفوا شيئا عن جوهر الاسلام ، لأدركوا القيمة الحقيقية للزكاة ، وأهدافها السامية ، في تحقيق الرعاية الاجتماعية لقطاعات عريضة من أبناء

(١٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٠٨ .

(١٤) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٧٤ ( طبعة القاهرة ) .

(١٥) أي الى أيام أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني ( القرن الرابع الهجري - العاشر للميلاد ) .

(١٦) أي بالبدية



المجتمع ، وتكوين الدولة من النهوض بمسئوليات ضخمة على الصعيدين الداخلي والخارجي . ولكنهم في غيبة عن الايمان ، اعتبروا الزكاة عبئا أثني بطريقة عشوائية ، دون أن يعرفوا ما هناك من شروط لوجيها ، مثل البلوغ والعقل والحرية والملكية والتمكن من التصرف في المال وتوافر النصاب والحول .. بحيث لا يكلف الله نفسا الا وسعها . هذا فضلا عن أنهم لم يفتنوا الى حقيقة ما نص عليه الاسلام من أن الزكاة لها مستحقوها الذين حددهم الله تعالى في محكم آياته ( انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ) (١٧) .

ولكن غالبية العرب الذين خرجوا عن طاعة الدولة - والذين عرفوا باسم المرتدين - لم يروا في الزكاة الا اداة يدفعونها لقريش ، وأنها بهذا المعنى تحمل بين طياتها دلالات الذلة والخضوع والاستكانة ، الأمر الذي يتعارض مع كبرياء العربي وأفته . هذا فضلا عما فيها من عبء مادي نعتبره من وجهة نظرنا خفيفا مقننا ، ولكن علينا أن نذكر أن حروباً دارت بينهم وأياما خلد التاريخ أسوأها ، نشبت بسبب النزاع حول مرعى اوناقة أو بعير .

وقد ظهر هذا الاحساس في أواخر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ ما كاد الاسود العنسي يعلن خروجه في اليمن ، حتى أرسل الى عيال النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم : ( أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، وفروا ما جعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه ) (١٨) وفي عبارة ( أيها المتوردون ) تبدو نظرة هؤلاء الخارجيين - أو المرتدين - الى عيال النبي صلى الله عليه وسلم ، واعتبارهم دخلاء متسلطين يعبرون عن سيادة قريش ، دون أن يدركوا روح الاسلام ، وما نادى به من طاعة أولى الامر ، بعد طاعة الله ورسوله . وعندما يقول الاسود العنسي لعيال النبي (ﷺ) ( وفروا ما جعتم فنحن أولى به ) فإنه يطالبهم برد ما جمعو من أموال الزكاة بدعوى أن أهل اليمن أولى بها ، ظنا منه أنهم جمعوا هذا المال لقريش دون أن يدري أن فقراء اليمن أنفسهم وساكينهم هم نصيب من أموال الزكاة .

ولو كانوا أدركوا ما في الآية الكريمة ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها ) (١٩) لعرفوا أن الزكاة هي اسهام مشترك يسهم به القادرون لرعاية شؤون فقراء المسلمين والنهوض بمطالب الدولة الجديدة بما يعود على المسلمين جميعا بالخير . ولكنهم لم يعوا شيئا من أحكام الدين وأهدافه . يروي الطبري أن عمرو بن العاص عند منصرفه من عان - بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - نزل بكرة بن هبيرة بن سلمة بن قشير ، فذبح له وأكرم مثواه . فلما أراد عمرو الرحلة ، قال له قرّة يا هذا : ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالانافة . فان أنتم

(١٧) سورة التوبة ، ٦٠ .

(١٨) تاريخ الطبري : ج ٣ ص ٢٢٩ سنة ١١هـ ( طبعة دار المعارف بالقاهرة ) .

(١٩) سورة التوبة ، ١٠٣ .

أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع . وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم !! وهكذا اعتبر قرة بن هيرة - وهو مسلم - الزكاة ( اتاة ) وليست ركنا من أركان الدين الجديد ، كما اعتبر الغاءها شرطاً لطاعة العرب ، وبقائها مبرراً لعصيانهم<sup>(٢٠)</sup> . ولا شك في أن هذه كانت نظرة غالبية العرب إلى الزكاة عندما أعلنوا إسلامهم دون أن يلموا المأما كافياً بروحه وأحكامه .

كذلك يصور الطبري الموقف بعد وفاة الرسول (ﷺ) فيقول أنه ما كاد أبو بكر يبايع بالخلافة في المدينة ، حتى جاءت وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويعنون الزكاة .... وقدمت هوازن رجلاً وأخرجت رجلاً ، أمسكوا الصدقة<sup>(٢١)</sup> أما مرة وتعلية وعيس ، فقد أرسلوا وفودهم على أبي بكر في المدينة ( على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة )<sup>(٢٢)</sup> . ولذا حرص أبو بكر رضي الله عنه في الكتاب الذي أرسله إلى قبائل العرب المرتدة - أن يحذرهم بأنه أمر جيوش المسلمين بمقاتلتهم إذا أبوا دفع ما عليهم من زكاة ، حتى ولو أعلنوا شهادتهم بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله<sup>(٢٣)</sup> :

ولا أدل على أن قبائل العرب اعتبرت الزكاة اتاة تدفع لقریش من أنه عندما بعث الخليفة أبو بكر - العلاء ابن الحضرمي - على قتال أهل الردة بالبحرين ، استقبله قيس بن عاصم - الذي كان قد ظل على إسلامه - وقدم له الزكاة قائلاً<sup>(٢٤)</sup> :

ألا	أبلغا	عني	قريشا	رسالة
إذا	ما	أنتها	بينات	الودائع

وفي توجيه الخطاب إلى قريش ما يشير إلى أن الطاعة كانت مقدمة لها ، وليست الحكومة المسلمين برئاسة خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأن الزكاة مقدمة لها وليست لبيت مال المسلمين .



ولا شك في أن الاحساس بأن الزكاة اتاة تدفع لقریش تعبيراً عن الخضوع والتبعية ، جاء مصحوباً باستنارة نزعة العصبية القبلية ، وهي النزعة التي تبدو واضحة وسط التيارات التي حركت الردة .

(٢٠) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٢ .

(٢١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٢٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٢٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٠٦ ، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأنصاري ج ١٤ ص ٧٥ .

ذلك أنه من الاحكام المتواترة في كتب التاريخ الاسلامي أن الاسلام وحد العرب في شبه الجزيرة ، وجعل منهم دولة واحدة على رأسها سلطة سياسية عليا ، وأنه لأول مرة في تاريخهم خضع العرب للحكومة واحدة مركزها المدينة ، واعترفوا جميعا لها بالسيادة .

هذا القول في نظرنا يتصف بالشمولية والمبالغة ، ولذا فهو في حاجة الى مراجعة ونقاش :

أولا : متى تم توحيد العرب في ظل حكومة واحدة ؟ هل تم ذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته ؟

ثانيا : هل يعتبر مجيء الوفود الى المدينة في السنة التاسعة للهجرة معلنة دخولها في الاسلام اعترافا منها بالخضوع لحكومة واحدة بالمعنى الدقيق لتلك العبارة ؟ وإلى أي حد كان التطبيق العملي لعملية الخضوع هذه ؟

ثالثا : حتى بعد أن أخذت العقيدة الاسلامية ، تتغلغل في قلوب افراد القبائل المنتشرة هنا وهناك في شبه الجزيرة على المدى القصير أو البعيد ، هل أعطى الافراد ولاهم للدولة أولوية على ولائهم للقبيلة ؟ وهل خضعوا في يوم ما خضوعا تاما لسلطة حكومة اسلامية مركزية أيا كان مركز هذه الحكومة وأيا كان لونها ؟

ان المتتبع لتاريخ العرب داخل شبه الجزيرة منذ ظهور الاسلام - وعلى مر عصور التاريخ الاسلامي حتى يومنا هذا - يجد أن النزعة القبلية التي ميزت هذا التاريخ قبل الاسلام لم تختف . قد نسع في تاريخ شبه الجزيرة العربية عن دول وعن سلطة ، ولكن مثل هذه الظواهر السياسية لم تستطع ان تمحو مطلقا النزعة القبلية ، وما يرتبط بها من روح العصبية . وفي دراستنا لتاريخ هذه الدول ونشأتها ، وما كان يجتلبها من تيارات وخلافات داخلية أدت الى سقوطها ، نلمس أثر العامل القبلي واضحا قويا ، مهما يحاول البعض أن يخفيه أو يستتر عليه . وما زلنا نلمس اليوم في بعض أنحاء شبه الجزيرة أن ولاء الفرد ينتجه نحو القبيلة بدلا من الدولة .

لو كان الأمر مجرد تقاليد وعادات موروثة لأمكن تغييرها أو تعديلها عبر القرون ومع طول الوقت ، ولكن الأمر أبعد من ذلك وأخطر . انها البنية التي فرضت وضعها معنا على سكان بقعة من الارض . انها الظروف الجغرافية التي أكسبتهم اتجاهات فكرية ونفسية واجتماعية معينة ، وحرصت على مر العصور على أن تغذي هذه الاتجاهات ، وتكسيها صفة الثبات والاستقرار . انها الطبيعة التي كيفت البشر تكييفا خاصا ، وصبتهم في قالب ذي أبعاد معينة ، قد يتسع قليلا أو يضيق كثيرا - حسب الظروف - ولكن مع ثبات الجهر ، ويقاؤه لا يتغير على مدى القرون .

وقد أدرك هذه الحقيقة العالم المسلم ابن خلدون عندما عقد فصلا في مقدمته الشهيرة عنوانه ان الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة . وفسر ابن خلدون هذه الظاهرة باختلاف الآراء والأهواء

في تلك الأوطان ، بحيث ( أن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمنع دنيا ، فيكثر الانتفاض على الدولة ، والخروج عليها ، وإن كانت ذات عصبية ، لأن كل عصبية بمن تحت يدها تنظن في نفسها منعة وقوة ) (٢٥) .

وقيل إن يتسرع البعض منها ابن خلدون بتحامله على العرب ، نبادر فنعلن أن هذا العالم الكبير عندما أصدر حكمه السابق فإنه لم يختص به العرب وحدهم ، وإنما عمنه على ( الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب ) واختار أن يستشهد على ما يقول بأهل ملته من المغاربة والبربر ، وليس بالعرب ، فذكر ما نصه ( انظر ما وقع في ذلك بأفريقية والغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد ، فإن ساكن هذه الاوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات ... فعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى ... ولما استقر الدين ( الاسلام ) عندهم ، عادوا الى الثورة والخروج ... ) .

أما العرب بالذات ، فإن ابن خلدون عندما تعرض لهم في مكان آخر من مقدمته ، قال إن الملك لا يحصل لهم الا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجملة . وفسر ابن خلدون ذلك بأن العرب ( أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأثفة وبعد الهمة ، والمنافسة في الرئاسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأثفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس ) (٢٦) .

وهيما يمكن في قول ابن خلدون من مبالغة لا نقرها ، فإنه لمس في النص السابق حقيقتين على جانب من الاهمية :

الاولى : ما هو معروف عن العرب من ( منافسة على الرئاسة ) بين بعضهم وبعض ، وهذه في رأينا ظاهرة متوارنة ترتبط جذورها بروح الحياة القبلية وطبيعة البلاد .

والثانية : أن اجتماعهم واتحاد كلمتهم يكون أكثر وضوحا في ظل الدين ، لا في ظل السياسة والحكم .

وهكذا فإننا نرى أن العرب عندما توحدا بعد ظهور الاسلام ، فإن وحدتهم كانت دينية وليست سياسية . وهذه الوحدة الدينية يقصد بها تحقيق الترابط بين القلوب في ظل الاسلام إيمانا منهم جميعا بأن لا اله الا الله وبأن محمدا رسول الله . وهذا هو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى ( وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ) (٢٧) .

(٢٥) مقدمة ابن خلدون - الفصل التاسع من الفصل الثالث من الكتاب الأول ص ١٦٤ .

(٢٦) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٦٤ .

(٢٧) سورة الانفال ، ٦٣ .

واذا كان الاسلام هو الذي ألف بين قلوب العرب ، وإذا كانت الوحدة التي جمعت العرب في شبه الجزيرة هي قبل أي اعتبار آخر وحدة دينية ، فإن الاسلام - بروحه ومبادئه - لم يتغلغل في القلوب الا تدريجيا وعلى مدى سنوات طويلة ، امتدت الى ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بحقب وأجيال . وبعبارة أخرى ، فانه عند وفاة الرسول (ﷺ) لم تكن هناك وحدة فعلية ، او رابطة دينية اسلامية ألقت فعلا بين كافة قبائل شبه الجزيرة العربية ، وإنما كانت هناك نزعة قبلية وعصبية هدامة ، وضغائن ومناقسات موروثه تطفو على سطح المجتمع حينما ونخبو نارها أحيانا .

وإذا كان الله - عز وجل - قد ألف بين قلوب جماعة من أهل شبه الجزيرة في حياة الرسول ، فإن هذه الجماعة كانت ضيقة النطاق محدودة العدد ، تشمل المؤمنين الذين تغلغل الايمان في قلوبهم ، ومعظمهم من المهاجرين والانصار ، من قریش وثقیف ، ممن خالطوا الرسول ، وتأثروا به ، وانفعلوا بشخصيته ، وتأدبوا بحديثه من قول أو فعل أو تقرير ، واتخذوا منه أسوة حسنة .

والواقع ان الباحث في تاريخ الحركة المعروفة بالردة في صدر الاسلام ، لا يمكنه أن يقلل من أثر عامل العصبية القبلية في تلك الحركة ، وخاصة ما كان بين اليمنية والمضرية من عداوة راسخة الجذور ، وكراهية متأصلة في القلوب ، ظلت تشبه صورة التاريخ الاسلامي - من المشرق والمغرب جميعا - قرونا طويلة . يروي المسعودي (٢٨) أن مفاخرة جرت بين قحطاني وعدنان في مجلس أبي العباس السفاح ، فقال القحطاني مفتخرا على ولد نزار « ماذا أقول لقوم ليس فيهم الا دابغ جلد ، أو ناسج برد ، أو سائس قرد ، أو راكب عرد ، أغرقتهم فأرة (٢٩) وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد !! » (٣٠) .

إذا كان هذا هو الحال بين ربيعة ومضر بعد مرور قرن وثلاث على هجرة الرسول (ﷺ) ، فهل نستطيع في ضوء هذه الاحاسيس أن نفسر اشتداد تيار حركة الردة بين العدنانية بالذات ، بعد أن شاءت الازادة الالهية أن يكون خاتم الانبياء - عليه الصلاة والسلام - من مضر ؟؟ وهنا نحضرننا عبارة نقلها المعاصرون ، ورددها الخليفة المأمون العباسي ، نصها ( ان ربيعة ساخطة على ربهما من بعث الله نبيه من مضر !! ) (٣١) .

وفي تتبعنا لاحداث حركة الردة ، نلمس شواهد عديدة على أثر العصبية القبلية في تلك الحركة . من ذلك أن خالد بن الوليد ما كاد يفرغ من أمر طيء - بعد أن عادت الى الاسلام دون قتال وغدت قوة للمسلمين - حتى

(٢٨) المسعودي مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٨٣

(٢٩) قبل في بعض الأساطير أن سد مأرب تصدع بسبب فأرة تغزت بعض جذرائه .

(٣٠) سورة التل

(٣١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٤٢٢ سنة ٢١٨هـ .

اتجه للمنازلة قيس وبني أسد . وعندئذ قال له طيء : ( نحن نكفيك قيسا ، فان بني أسد حلفائنا ) فقال لهم خالد ( قاتلوا أي الطائفتين شتمتم ) ولكن عدى بن حاتم - وهو القائد الذي وثق فيه أبو بكر وأرسله الى خالد في طيء - امتنع عن محاربة بني أسد ، وقال : ( أنا امتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم : لا لعمرك لا أفعل ) . ويضيف الطبري الى ذلك أن خيل طيء كانت تلقي خيل بني أسد وفزارة قبل قدوم خالد عليهم ، فيتشامون ولا يقتتلون ، فتقول أسد وفزارة : لا والله لا نباع أبأ الفصيل ( خالد بن الوليد ) أبدا . فتقول لهم خيل طيء : أشهد ليقاتلتكم حتى تكونوا أبأ الفحل الأكبر (٣٢)

وماذا نعلل اجراع بني أسد وغطفان وفزارة - وكلهم من العدنانية - مع طليحة يوم بزاخة ، وهو اليوم الذي أنزل فيه خالد بن الوليد هزيمة نكراء بالحلفاء المرتدين ؟ ربما تتضح الاجابة عن هذا السؤال فيما يرويه الطبري من أن عيينة بن حصن الفزاري وقف في ذلك اليوم معلنا تأييده لاسد وغطفان ، وقال ( اني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة . والله لئن نتبع نبيا من الحليفين أحب الينا من أن نتبع نبيا من قريش . وقد مات محمد وبقي طليحة ) (٣٣) .

كذلك روى الطبري أن طلحة التمرعي جاء اليمامة ، فقال : ( أين مسيلمة ؟ ) قالوا ( مه ! رسول الله ) . فقال ( لا ، حتى أراه ) . فلما جاءه قال ( أنت مسيلمة ؟ ) فقال ( نعم ) قال ( من يأتيك ؟ ) قال ( رحمن ) . قال ( أتي نورأو في ظلمة ؟ ) فقال ( أشهد أنك كذاب وأن محمدا صادق . ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر ) (٣٤) .



ويرتبط بالعصبية القبلية وما يتولد عنها من تحاسد وتنافس بين القبائل العربية ، ما نلاحظه في حركة الردة من تسابقين في ادعاء النبوة . ذلك أن المظاهر الأساسية لحركة الردة لم تقتصر على رفض الاسلام أو بعض أركانه ، أو رفض الامتثال لسلطة حكومة مركزية والاعتراف بسيادتها ، وإنما جاءت هذه الحركة مصحوبة ايضا بادعاء بعضهم النبوة ، وهي ظاهرة تستحق الوقوف عندها ومحاولة تحليلها وتفسير ما أحاط بها من ظروف . هل جاء ذلك وليدا لما وصف به ابن خلدون العرب من حب المنافسة في الرئاسة ، وبأن الملك لا يحصل عندهم الا بصفة دينية ( من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ؟ ) .

(٣٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٥٥ ( سنة ١١هـ ) .

(٣٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والسنة ، ص ٢٥٧ .

(٣٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٨٦ .

(٣٥) جمع سحق ، وهي الطريقة من التخل .

هناك حقيقة لا نستطيع أن نغفلها ، هي أن النجاح الكبير الذي حققه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، والزعامة التي صارت لقريش عند وفاته ، غدت مثار حسد كافة القبائل العربية في شبه الجزيرة . ولم تلبث أن أصبحت سيرة الرسول (ﷺ) مثلا يمكن أن يحتذيه أي طموح في أن يحقق لنفسه ولقبيلته نوعا من الاهمية والزعامة في مجتمع جن يحب الزعامة وشغف بسير الابطال ، ودأب على أن ينتدر بهم في رواياته وأشعاره .

ان الكثيرين في ذلك المجتمع كانوا طلاب زعامة ورئاسة ، فلماذا لا يفعلون مثلاً توهمو أن الرسول قد فعل ، ويدعون النبوة ، وبذلك يحققون لأنفسهم ولقومهم ما يتطلعون اليه من زعامة ورئاسة ؟

هكذا حفلت حركة الردة بعدد من أذعياء النبوة ، لعل أشهرهم طليحة وسليمة وسجاح . وهؤلاء حاولوا في تصرفاتهم وأقوالهم أن يتشبهوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وفيما يلي بعض الامثلة نسوقها للوقوف على الاثر الذي تركته شخصية الرسول (ﷺ) في نفوس العرب من ناحية ، ومدى حرص أذعياء النبوة على محاكاته في أقواله وأفعاله من ناحية أخرى :

أنت مسيلة امرأة من بني حنيفة - تكتي بأم الهيثم - فقالت ( ان نخلنا لسحق<sup>(٣٥)</sup> ) ، وان آبارنا لجرز<sup>(٣٦)</sup> ، فادع لماثنا ولنخلنا كما دعا محمد لأهل هزيمان ) . فقال مسيلة ( يا نهار<sup>(٣٧)</sup> ) ما تقول هذه ؟! فقال ( ان أهل هزيمان أتوا محمدا (ﷺ) فشكوا بعد ماثمهم - وكانت آبارهم جرزا - ونخلهم أنها سحق . فدعا لهم ، فجاشت آبارهم ، وانحلت كل نخلة قد انتهت حتى وضعت جرائها لانتهاها ، فحككت به الارض حتى انشبت عروقا ، ثم قطعت من دون ذلك ، فعادت فسيلا<sup>(٣٨)</sup> مكميا ينمي صاعدا ) . قال : ( وكيف صنع بالآبار ؟ ) . قال : ( دعا بسجل<sup>(٣٩)</sup> ) ، فدعا لهم فيه ، ثم تمضمض بقمه منه ، ثم مجه فيه ، فانطلقوا به حتى فرغوه في الآبار ثم سبقوه نخلهم ) . فدعا مسيلة بدلو من ماء ، فدعا لهم فيه ، ثم تمضمض منه ، ثم مج فيه ، فنفقوا فأفرغوه في آبارهم . ويكمل الطبري القصة فيقول : فنارت مياه تلك الآبار ، وطوى نخلهم ، وانما استبان بعد مهلكه<sup>(٤٠)</sup> .

وقصة أخرى رواها الطبري : أتى نهار الرجال بن عنفوة ، وقال لمسيلة : ( يركأ مولودي بني حنيفة ) . فقال له ( وما التبريك ؟ ) قال ( كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم مولود أتوا به محمدا صلى الله عليه وسلم فتحكته ومسح

(٣٦) أي بحدة من الماء .

(٣٧) يعني نهار الرجال بن عنفوة ، كان قد هاجر الى النبي وقرأ القرآن وبلغه في الدين ، فبعثه معلى لأهل الهامة ، ويشغف على مسيلة ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلة ، الا شهد لمسيلة أنه سجع محمدا (ﷺ) يقول أنه قد أشرك معه .

(٣٨) الفسيل ، صغار النخل .

(٣٩) السجل ، دلو به ماء .

(٤٠) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ سنة ١١هـ .

رأسه ) ويعلق الطبري على ذلك قائلا : فلم يؤت مسيلمة بصبي فحنكه وسحق رأسه الاقرع<sup>(٤١)</sup> ولتغ<sup>(٤٢)</sup> ، واستبان ذلك بعد مهلكه .

وثمة قصة ثالثة : قالوا لمسيلمة ( تتبع حيطانهم كما كان محمد (ﷺ) يصنع ، فصل فيها ) فدخل حائط<sup>(٤٣)</sup> من حوائط اليمامة فتوضأ . فقال نهار الرجال بن عنفوة لصاحب الحائط ( ما يمنعك من وضوءه<sup>(٤٤)</sup> ) الرحمن ، فتسقي به حائطك حتى يروي ويبتل ، كما صنع المهريه<sup>(٤٥)</sup> ؟ ) . ففعل ، فعادت يبابا لا ينبت مرعاها<sup>(٤٦)</sup> .

وهذا القصص قليل من كثير ، ذكرنا بعضه بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر ، وإن دل على شيء فأنما يدل على أن أدعياء النبوة وجدوا في الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً يحتذى في أفعاله وتصرفاته ، فحاولوا أن يحاكيوه ليحققوا لأنفسهم مثل ما أراد الله له من رئاسة وجاء .

بل إن أدعياء النبوة حاولوا التشبه بالنبي عليه الصلاة والسلام فيما أوحى إليه به من آيات محكمات . ولما كانت طاقاتهم تنصر عن اختلاق كتاب متكامل يحاكون به القرآن الكريم ، فانهم أتوا بعبارات مسجوعة مهلهلة المعاني ركيكة المضنون ، لا طعم لها ولا روح فيها ، تتصف معانيها بالسذاجة والضحالة ، وسجعها بالتكلف والسخف .

من ذلك أن المسلمين ظفروا برجل من بني أسد كان عالماً بأمر طليحة ، فقال له خالد بن الوليد ( حدثنا عنه وعما يقول لكم ) . فزعم بما أتى به ( والهام والهام ، والصرد والصرود ، قد صمن قبلكم باعوام ، ليبلغن ملكتنا العراق والشام )<sup>(٤٧)</sup> .

ويحكي عن سجاح أنه عندما اجتمع معها حلفاؤها على قتال الناس ، وقالوا ( بن نبدأ ؟ بخضم أم ببهدي أم بعوف والابناء أم بالرباب ؟ ) قالت لهم سجاح ( أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب ) .

(٤١) أي سقط شعر رأسه .

(٤٢) تحول لسانه من السين إلى الصاد ومن الراء إلى الهمزة .

(٤٣) الحائط هنا البستان .

(٤٤) الرضوء - يفتح الواو - الله يتوضأ به .

(٤٥) كان رجل من المهريه قدم على النبي (ﷺ) فأطع وضوءه فقتله معه إلى اليمامة ، فأفرغه في بئر ، ثم نزع وسطي . وكانت أرضه تهوم فروت وحررات وصارت خضراء مهترجة .

(٤٦) تاريخ الطبري : ج ٣ ص ٢٨٥ ( سنة ١١ هـ ) .

(٤٧) المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٦٠ ( سنة ١١ هـ ) .



أما مسيلمة فكان أكثر اقتباساً لألفاظ القرآن الكريم . ويبدو لنا ان السر في ذلك يرجع الى أن مسيلمة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وكلمه . ذكر ابن اسحق ان مسيلمة كان من جملة وفد بني حنيفة الذي قدم على رسول الله (ﷺ) عام الوفود - سنة تسع للهجرة - وأن الرسول (ﷺ) كلمه وسأله (٤٨) هذا فضلاً عن أن مصاحبة نهار الرجال بن عتفة لمسيلمة كان لها أثرها . وقد سبق أن أشرنا الى أن نهاراً هذا كان قد هاجر الى النبي صلى الله عليه وسلم ( قرأ القرآن وفقه في الدين ) (٤٩) حتى ان الرسول بعثه معلماً لأهل اليمامة ، فارتد ( وشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : ان مسيلمة قد أشرك معي ) . ويبدو مما كتبه الطبري وغيره أن مسيلمة كان يستشير نهار الرجال فيما يفعل وفيما يقول ، فكان نهار يحكم خبرته السابقة بأحوال الرسول (ﷺ) ودرايته بالقرآن الكريم وأسابيله وحفظه بعض آياته بلقن مسيلمة الكثير . وهذا هو السر - في نظرنا - في أن مسيلمة كان أكثر ادعاء النبوة محاكاة لألفاظ القرآن الكريم ، ومع ذلك فان أسلوبه انتصف بالتكلف والركاكسة ، ومعانيه بالسطحية والضحالة .

من ذلك أن مسيلمة كان يقول لأصحابه ( لما رأيت وجوههم حسنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الغمر تنسبون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون يوماً وتكفلون يوماً . فسبحان الله ( اذا جاءت الحياة كيف تحيون ، وإلى ملك السماء ترقون . فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولاكثر الناس فيها الثبور ) .

ومن ذلك أيضاً قوله ( سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير اذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع . وأكرم ربكم فحياكم ومن وحشة خلاكم ويوم دينه أنجاكم . فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبار ، رب الغيم والأمطار ) (٥٠) .

وامتد أسلوب المنتبئين في المحاكاة الى التشريع . وكان مما شرعه مسيلمة لأصحابه أن من أصاب ولداً واحداً عقياً لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابناً ثم يمك . وبذلك حرم النساء على من له ولد ذكر .

ولما أدركوا الدور الذي لعبه الوحي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ادعى المنتبئون أن الوحي يأتيهم ، فأخذ بعضهم يصدر أحكاماً ويقول ( بذلك أوحى الي ) . ويقال انه عندما اجتمع مسيلمة بسجاح سأها ( ما أوحى اليك ؟ ) فقالت ( هل تكون النساء يبتدنن ؟ ولكن أنت قل ما أوحى اليك ) قال ( ألم تر الى ربك

(٤٨) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ( تحقيق مصطفى السقا وزميليه ) .

(٤٩) تاريخ الطبري ( تاريخ الرسل والملوك ) ج ٣ ص ٢٨٢ . ابن الاثير الكامل ج ٢ ص ٣٦١ .

(٥٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٧٢ ( سنة ١٩١٠هـ ) .

كيف فعل بالحيلي ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفات<sup>(٥١)</sup> ( وحشي ) ومازال يختلق لها الاقوال حتى قالت ( أشهد أنك نبي !! )<sup>(٥٢)</sup> .

على أنه من الواضح ان هؤلاء الادعياء لم يكن لهم شيء من أدب النبوة . يروي الطبري أن مسيلمة كان ( لا يبالي ان يطلع الناس على قبيح ) . ولعل في أخباره مع سجاح ما يستثير الاشمئزاز ، فضلا عن خروجه على الآداب العامة التي عرف بها أهل البادية .<sup>(٥٣)</sup>

ولم يقف المتنبيون في محاولاتهم التشبيه بالاسلام ونبي الاسلام صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد ، بل أراد بعضهم أن يكون له بيت حرام يتنافسون به البيت الحرام في مكة ، حتى تؤمه مختلف قبائل العرب ويلتفون حوله . وكان أن ضرب مسيلمة حرما باليامة ، نهي عنه وأخذ الناس به ، فكان محرما . ووقع في ذلك الحرم قرى الاحاليف ، أفخاذ من بني أسد كانت دارهم باليامة ، فصار مكان دارهم في الحرم . والأحاليف هم سيحان وغارة وقر والحارث بنو جرة ، فان أخصبوا أغاروا على أهل اليامة ، واتخذوا الحرم دغلا - أي موئلا يستترون به - فان نذروا بهم ودخلوه أحجموا عنهم ، وان لم ينذروا بهم فذلك ما يريدون . فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم ، وعندئذ قال مسيلمة ( انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم ) ثم قال لهم : ( واللبلب الاطعم<sup>(٥٤)</sup> ) ، والذئب الادلم<sup>(٥٥)</sup> والجذع الارلم<sup>(٥٦)</sup> ما انتهكت أسيد من محرم ) وبذلك دافع عن أسيد وبرر عدوانهم وما يأتونه من سلب ونهب . فقالوا له ( أما محرم استحلال الحرم وفساد الاموال ؟ ) ثم عادوا للغارة وتكررت الشكوى ، فقال ( انتظر الذي يأتيني ) . ثم قال ( واللبلب الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس ) فقالوا له ( أما التخييل مرطبة فقد جلدوها<sup>(٥٧)</sup> ) وأما الجدران يابسة فقد هدموها ) . فقال ( اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم ) . وهكذا لم يفلح المتنبيون في وضع اطار لمنهج سليم يحدد المعاملات بين الناس .

وثمة ملاحظة أخيرة على ظاهرة ادعاء النبوة التي واكبت حركة الردة ، هي أن هذه الظاهرة تفجرت في بلاد وعلى أيدي أفراد عرفوا المسيحية وسمعوها بها ، أي أن لهم صلة بالكهانة .

(٥١) الصفات : الغشاء الذي تحت الجلد .

(٥٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٧٢ ( سنة ١١هـ ) .

(٥٣) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة .

(٥٤) الطمعة : صراد الليل .

(٥٥) الأدلم : الأسد الطويل .

(٥٦) الجزع الأرلم : الذعر .

(٥٧) أي قطعوها

ولتوضيح ذلك نقول ان العرب قبل الاسلام - شأنهم شأن معظم الشعوب الوثنية - عرفوا الكهانة ، وامتلأ تاريخهم - وخاصة عرب الجنوب أو حمر - بأخبار الكهان ، مثل ( طريفة الخير ) او ( طريفة الخير ) التي تنبأت بأخبار سد مأرب ، ومثل ( سطيف الفساني ) وغيرها (٥٨) ولكن هذه الكهانة كانت لا تعني أكثر من معرفة العلوم من الغيب ، فادعى صنف من الكهان أن نفوسهم قد صفت ، فهي مطلعة على أسرار الطبيعة ، وادعى صنف آخر ان الارواح المنفردة - وهي الجن - تخبرهم بالاشياء قبل كونها .

أما المسيحية ، فقد عرفت شبة الجزيرة العربية قبل الاسلام عن طريق الاحباش في الجنوب ، وعن طريق الانباط من الشمال ، ووجدت كنيسة كبرى باليمن ، وأخرى في مزون ( صحار ) بعمان . أما الامة فيذكر ابن الاثير أن ملك الامة في السنة السادسة للهجرة كان نصرانيا - اسمه هوذة بن علي - أرسل اليه الرسول سليل بن عمرو يدعو الى الاسلام (٥٩) .

وجاء التقارب بين الكهانة والنصرانية عند العرب في الجاهلية ، من أن قوما من النصارى ذهبوا الى أن السيد المسيح كان يعلم الغائبات في الامور ، ويغير عن الاشياء قبل كونها - أشبه بالكهان - لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب . ولو كانت تلك النفس في غيره من الأشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب . ويضيف المسعودي الى ذلك قوله ( ولا أمة خلت الا وقد كان فيها كهانة ) (٦٠) .

والظاهرة التي تسترعي الانتباه أن غالبية أدعياء النبوة ظهوروا على ارض وفي بلاد عرفت المسيحية ، او اشتهرت بالكهانة هذا وان كان ادعياء النبوة قد اختلفوا عن الطرفين ، لانهم - كما سبق ان اشرنا - حاولوا محاكاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سيرته وأقواله وأفعاله ، فادعوا أنهم أنبياء ، وان الوحي ينزل عليهم ، وشرعوا لاتباعهم ، وطالبوا لانفسهم بسيادة وزعامة عليهم .

لقد شملت حركة الردة - أو التمرد - معظم أنحاء شبة الجزيرة العربية ، شرقها وغربها ، وشمالها وجنوبها ، وقلبها ووسطها ، ولكن هل من باب المصادفة أن يكون أشهر أدعياء النبوة وأقواهم نفوذا في اليمن والامة وبادية الجزيرة في الشمال ؟ فاليمن ارتبط بها الأسود العنسي ، ومسيلمة ارتبط بالامة ، في حين أقبلت سجاس بنت الحارث من بلاد تبهم من اقليم الجزيرة (٦١) على مشارف بلاد الشام ، وهي البلاد التي شهدت مولد المسيحية ، وكان معها ( الهذيل بن عمران في بني تغلب ، وكان نصرانيا ، فترك دينه وتبعها ) (٦٢) .

(٥٨) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٥٥ .

(٥٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ص ٢١٥ ( أسنة السادسة للهجرة ) .

(٦٠) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٩٣ .

(٦١) يقصد بالجزيرة هنا الجزء الشمالي من شبة الجزيرة العربية الذي يعرف باسم بادية الجزيرة . يقول أبو الفداء « ما كان من حد الأنبار الى بالى الى نية وادي القرى ، فهو بادية الجزيرة » . تقويم البلدان ، ص ٨٠ .

(٦٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٣٥٤ ( سنة ١١١ هـ ) .

ولا أقل من أن نستعرض أحداث حركة الردة وتطوراتها ، لنقف على حقيقة العوامل المحركة لها والبواعث الكامنة وراءها ، والتيارات الموجهة لها ، ثم مدى التوافق بين هذا كله من ناحية وما سبق أن أشرنا اليه من آراء وأفكار واتجاهات من ناحية أخرى . ولتوضيح ذلك نقول :

كان بعث الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في شبه الجزيرة العربية ظاهرة فريدة بالنسبة للعرب . حقيقة ان بلاد شبه الجزيرة عرفت في تاريخها القديم أنبياء عديدين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، ولكنهم كانوا يمثلون مصلحين محليين أكثر منهم أصحاب رسائل عالمية . وحقيقة ان بلاد العرب عرفت قبل الاسلام اليهودية والنصرانية ، ولكنها عرفت فيها في صورة تيارات دخيلة وافدة من خارج البلاد ، مما جعل تقبلها ضعيفا ، وانتشارها محدودا ، لا يتعدى مراكز محدودة في جنوب شبه الجزيرة وشمالها .

أما الرسالة المحمدية فكان لها شأن آخر بالنسبة لبلاد شبه الجزيرة العربية وأهلها . لقد بشر بها نبي يتحدر من أصل عربي صريح ، وينتمي الى أشرف القبائل العربية وأعرقها أصلا وأفصحها لسانا وأوسعها شهرة وأوفرها احتراماً وأعظمها مكانة . وجاءت هذه الرسالة مدعمة بكتاب نزل بلسان عربي مبين ، احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مما جعل منه دستوراً خالدا للعرب - وغير العرب من البشر - في كل زمان ومكان .

وعلى الرغم من صعوبة الجغرافيا الطبيعية وعدم سهولة الجغرافيا البشرية وتعقيد الجغرافيا الاجتماعية شبه الجزيرة العربية ، الا أن النبي - عليه الصلاة والسلام - نجح نجاحا منقطع النظير على المدى القصير أو الطويل - في تغيير الكثير من ملامح تلك الصورة في حياته ، أي في السنوات العشر الواقعة بين هجرته الى المدينة ووفاته .

وإذا كانت الهجرة النبوية الشريفة تمثل علامة كبرى على طريق الاسلام وانتشار الدعوة ، فان فتح مكة سنة ثمان للهجرة يمثل العلامة الكبرى الثانية على طريق الاسلام وانتصار الدعوة . ذلك أن مكة كانت أكبر بكثير من مجرد مدينة من مدن الحجاز أو شبه الجزيرة . انها مركز البيت الحرام محج العرب ، ومقر قريش ، سيدة قبائل العرب ، وولاة الكعبة وسدنتها .

وهي يقال من أن بعض القبائل العربية في شتى انحاء شبه الجزيرة استجابت لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنوات السابقة التي أعقبت هجرته الى المدينة ، فان الغالبية الكبرى من تلك القبائل كانت ترقب عن كتب الصراع القائم بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة ، لتحدد موقفها النهائي من الاسلام ودعوته . وفي ذلك يقول ابن هشام - نقلا عن ابن اسحق - ( ذلك ان قريشا كانوا امام الناس وهاديين ، واهل البيت الحرام ، وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم عليها السلام ، وقادة العرب لا يتكرونها ذلك . وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه . فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام ، وعرفت

العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله - كما قال عز وجل - يضرّون اليه من كل وجه ... (٦٣)

ومن الفقرة الاخيرة من العبارة السابقة ، يفهم أن ( العرب ) لم يدخلوا في دين الله أفواجا الا بعد أن ( افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام ، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ) ويعنى هذا أن دخول العرب في الاسلام في تلك المرحلة كان نوعا من الرضوخ أكثر منه اقتناعا بالاسلام كمقيدة .

وهكذا إذا كان قد أطلق على سنة تسع للهجرة اسم ( سنة الوفود ) لأن فيها ( ضربت اليه وفود العرب كل وجه ) (٦٤) ، تعلن اسلامها فاننا ندرّك من واقع النص السابق ان تلك الوفود اقبلت تعلن استسلامها بعد أن عرفت ( أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ) . وبعبارة أخرى فان مجيئها الى الرسول ومبايعتها له واعلان اسلامها ، لا ينبغي أن يفسر في التاريخ على أنه اعتراف بعقيدة الاسلام ، نابع عن اقتناع بتلك العقيدة واستيعاب لاركانها وأصولها .

ولا أدل على ذلك من تحليل سلوك هذه الوفود التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سلوك بعيد عن آداب الاسلام ، ويدل على أن أصحابه لم يتأثروا بروحه . من ذلك أن وفد بني قميم عندما قدم المدينة دخل المسجد ، ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته : أن اخرج البنا يا محمد . فأذى ذلك رسول الله ، ونزل فيهم قوله تعالى ( ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ) (٦٥) . وعندما خرج اليهم ، قالوا : ( يا محمد جئناك نفاخر ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ) ثم جلسوا امام الرسول صلى الله عليه وسلم يفاخرون بأعجادهم وحسبهم ونسبهم . وبدلا من أن يبادروا بمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا بشاعريهم الزبرقان بن بدر ينشد شعرا يقول فيه : (٦٦)

نحن الكرام فلا حي يعادلنا      منا الملوّك وفيّنا تنصب البيع  
بما ترى الناس تأتيننا سرائهم      من كل أرض هوانا ثم تتع  
وهكذا أخذوا يفاخرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن البيع - وهي مواضع الصلوات والعبادات -

(٦٣) السيرة النبوية لابن هشام ( تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وزميله ) الطبعة الثالثة - الجزء الرابع ، ص ٢٠٥ .

(٦٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٦٥) سورة الحجرات ، ٤ .

(٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٠٨ .

تنصب لهم ، وبأن سرارة الناس تأتيتهم من كل أرض لتتبعهم . فهل هذا أسلوب قوم استوعبوا روح الاسلام ، وأتوا ليعلموا دخولهم في دين الله ، وهو الدين الذي يتنادي بأن الله لا يحب من كان مختللاً فخوراً ؟ (٦٧)

أما وقد بني عامر الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيهم عامر بن الطفيل ، الذي أراد أن يغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب أن يخلو به ليقتله بالسيف . فلما أبى الرسول (ﷺ) الانفراد به ، قال له عامر ( أما والله لأملأها عليك خيلاً ورجالاً ) (٦٨) فهل هذا أسلوب رجل قدم ضمن وفد لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وأما وفد بني حنيفة الذي قدم على رسول الله (ﷺ) فكان يضم مسيلمة - كما سبق أن أشرنا - وهو الذي لم يلبث أن أعلن رده فيما بعد وعرف بالكذاب . وعندما عاد الى قومه ( أحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة !! ) (٦٩)

وهذه الامثلة قليلة من كثير . حقيقة ان بعض أعضاء تلك الوفود أسلم وحسن إسلامه ، ولكن البعض الآخر أعلن إسلامه أمام الرسول (ﷺ) ( وصدقه وأمن به ) ، ولكنه ارتد بعد ان عاد الى قومه أو بعد أن سمع بوفاة الرسول (ﷺ) . ومن هؤلاء عمرو بن معد يكرب الذي كان قد قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد من بني زبيد (٧٠) .

ثم ان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - عندما أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ، قال له : ( يسر ولا تعسر ؛ وبشر ولا تنفر ، وانك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ... ) (٧١) . وبذلك لم يكف - عليه الصلاة والسلام - برسم أسلوب الدعوة لمبعوثه ، وإنما لفت نظره الى انه سيواجه قوماً من أهل الكتاب - نصارى ويهود - هؤلاء لا بد لهم من منطق قوي في الدعوة واسلوب متين في الاقتناع ، يفوقان المنطق والاسلوب المتبعين مع سائر العرب الوثنيين .

وعندما أرسل - عليه الصلاة والسلام - خالد بن الوليد في السنة العاشرة للهجرة الى بني الحارث بن كعب بنجران ، أمره ان يدعوهم الى الاسلام ثلاثاً قبل ان يقاتلهم ، فان لم يستجيبوا قاتلهم ، ( فبعث خالد الركبان يضيرون في كل وجه ، ويدعون الى الاسلام ، ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ) . ولا

(٦٧) سورة النساء ، ص ٣٦ .

(٦٨) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢١٤

(٦٩) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٧٠) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٢٠ .

(٧١) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٧

تقتصر أهمية هذه العبارة أن الرسول حدد فيها أسلوب العمل في مواجهة المشركين فحسب ، وإنما ايضا في نوعية هذا الأسلوب ، إذ يبدو أنه حمل بين طياته مزيدا من الترغيب والتهديد ، مما يحصلنا على الظن بأن بعضهم أسلم ليسلم ، ولم يسلم عن اقتناع كاف بالدين الجديد ، مما يفسر حركة الردة فيما بعد . حقيقة ان ابن هشام يروي ان خالدا ( أقام فيهم يعلمهم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ) ولكن إقامة خالد لم تدم طويلا في بني حارث بن كعب ؛ إذ ما كاد يبلغ الرسول (ﷺ) أنهم أسلموا حتى كتب الى خالد يقول له ( أقبل . ولقبيل معك وقد هم ) وبذلك لم تنح الفرصة الكافية لخالد ورجاله لتمكين الدعوة الاسلامية من التغلغل في قلوب القوم .

وينتزع من كتاب كتبه الرسول (ﷺ) لعمر بن حزم الذي بعثه الى بني الحارث ( ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ، وأخذ منهم صدقاتهم ) أن الرسول لم يكتف في تلك المرحلة بتبشير القبائل بالاسلام وأمرهم بتقوى الله ، وإنما حرص على أن يعلم الناس أركان الدين وقواعد الوضوء والصلاة ( بأسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المرافق وأرجلهم الى الكعبين ، ويمسحون برؤوسهم ، كما أمرهم الله ، وأمر بالصلاة لوقتها ، وإتمام الركوع والسجود والخشوع ... وأمر بالسعي الى الجمعة اذا نودي لها ، والغسل عند الرواح اليها ) (٧٢) هذا فضلا عن حرص الرسول (ﷺ) على تحديد الزكاة تحديدا دقيقا - مثلما يدل عليه خطاب الرسول الى ملوك حير - ( من العقار عشر ما سقت العين وسقت السهاء . وعلى ما سقي الغرب نصف العشر . وفي كل عشر من الابل شاتان ، وفي كل عشرين أربع شياه . وفي كل أربعين من البقر بقرة . وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ... ) (٧٣) .

ولكننا نقول ان ورود هذه الاحكام في كتاب زيد به الرسول (ﷺ) مبعوثه الى احدى القبائل لا يكفي . لقد كانت معظم هذه القبائل في حاجة الى اقتناع وترويض وتلقين وتطبيق عملي . فهل كانت تكتفي جهود فرد واحد للنهوض بهذه الامانة وسط عديد الافخاذ والعشائر والقبائل الضاربة في مساحات واسعة متباعدة من البادية ؟ فما بالنا والمدة بين ايفاد أمثال هؤلاء المبعوثين في العامين التاسع والعاشر للهجرة وبين مرض الرسول عليه الصلاة والسلام ووفاته في ربيع الاول في السنة الحادية عشرة كانت قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر ؟

ومها يقال من ان الاسلام هذب أخلاق العرب وقضى على كثير مما كان يسود مجتمعهم الجاهلي من أمراض اجتماعية ، فان علينا أن ندرك أن هذه العملية استغرقت أجيالا ، وربما في بعض جوانبها قرونا ، بمعنى أنها لم تكتمل تماما في حياة الرسول (ﷺ) للأسباب العديدة التي سبقت الإشارة اليها ، وأهمها ضعف وسائل الانتقال ، وصعوبة ظروف البيئة وانعدام وسائل الاعلام من ناحية ، والحرص على الماضي والتمسك بتراته من

(٧٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٧٣) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٥ .

ناحية أخرى . ومع أن كثيراً من القبائل أعلنت إسلامها للرسول (ﷺ) إلا أننا نؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن نسبة كبيرة من هذه القبائل فعلت ذلك رضوخاً للقوة الجديدة . لقد أسلمت لتسلم ، تسلم من القتل والاسر والسبي . وفيما عدا ذلك ظلت رواسب الماضي بأبعاده وأحاسيسه وأوضاعه الخلقية والاجتماعية والفكرية ، حية في القلوب والنفوس والعقول . ولما كان من الصعب التوفيق داخل اطار واحد بين تعاليم الاسلام من ناحية وزعاعات الجاهلية من ناحية أخرى ، فإن الباطن تغلب على الظاهر ، وحدث الانفجار ممثلاً في حركة الردة .

ثم ان هناك انطباعاً آخر غير سليم ، نخرج به من كتابات المحدثين من المؤرخين ، عندما يرددون أن الاسلام وجد العرب ، مما يجعل البعض يظنون أن شبه الجزيرة العربية شهدت وحدة سياسية لأول مرة في عهد الرسول ، وأنه - عليه الصلاة والسلام - ترك العرب عند وفاته في صورة دولة واحدة متأسكة يدينون جميعاً لسلطانها ، ويدركون أن عليهم واجبات تجاهها ، ولهم حقوق قبلها .

والحقيقة هي ان الرسول (ﷺ) وضع بذور الدولة الاسلامية الواحدة بهجرته الى المدينة ، وان دعوته ألقت بين قلوب من آمن بها . ولكن لم يحدث مطلقاً - حتى أيام ازدهار العصر الذهبي للدولة الاسلامية - أن نهجت هذه الدولة في تشديد قبضتها على كافة قبائل شبه الجزيرة العربية ، وجعل أفرادها يقدمون ولاهم للدولة على ولائهم للقبيلة التي ينتمون اليها . حتى عندما أعلنت تلك القبائل دخولها في الاسلام ، وقيلت ان تلتزم بأحكامها ، فانها لم تترك مطلقاً أن يكون ذلك معناه ذوبان الشخصية الاعتبارية للقبيلة داخل المحيط الاسلامي الجديد ، او تفكك الروابط بين أفراد القبيلة ليتجه ولاء الفرد نحو سلطة جديدة عليا ، يفوق أفقها في سعته سلطة القبيلة وشيخها .

وصفة القول أن تأثير الاسلام في السنوات العشر التي أعقبت الهجرة كان أقوى ما يكون في قرش وثقيف ، وفي البيئة التي أحاطت بالرسول (ﷺ) وفي الافراد الذين اتصلوا به اتصالاً مباشراً قوياً ، أعني بيئة أهل البيت وصحبه الكرام ، والاماكن التي عاش فيها بين مكة والمدينة . أما خارج هذه الدائرة ، فيبدو ان تعاليم الاسلام وأدابه ومفاهيمه وروحه لم تكن أحرزت استجابة فعلية في قلوب الغالبية من الناس . وفي تلك الفترة القصيرة .



ولو كانت روح الاسلام قد تغلغلت في نفوس العرب في ذلك الدور المبكر ، لما انفجرت حركة الردة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل ان يموت ، ومن خطأ القول الاعتقاد بأن حركة التمرد المعروفة باسم الردة ظهرت نتيجة لانتشار خبر مرض الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك أنه من الواضح في مصادر التاريخ أن بعض الخارجين - او المرتدين - أعلنوا خروجهم دون ان يسمعو خبر مرضه .



وفي رأينا ان الشراة الاولى التي اشعلت حركة الردة تولدت عندما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم في جمع الزكاة ، تنفيذاً لركن هام من أركان الاسلام يتمثل في قوله تعالى ( وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) (٧١) وكان ذلك في السنة العاشرة للهجرة ، عندما أرسل النبي (ﷺ) مندوبيه بوصفهم ( عمالا على الصدقات ) الى مختلف انحاء شبه الجزيرة لجمع الزكاة من القبائل التي أعلنت اسلامها . وفي ذلك يقول ابن هشام والطبري (٧٢) : « بعث امرأه وعماله على الصدقات على كل ما أوطأ الاسلام من البلدان ، فبعث المهاجر بن أمية بن المغيرة بن النضر الانصاري الى حضرموت على صدقاتها . وبعث عدي بن حاتم على الصدقة - صدقة بني طيء وأسد ، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة . وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم . وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين . وبعث علي بن أبي طالب الى نجران ليجمع صدقاتهم وقدم عليه بجزيتهم ... » .

ومن هذا النص نخرج بحقيقتين لها أهمية واضحة فيا ذهبنا اليه . أما الحقيقة الأولى فتزيتب بما جاء فيه من أن الرسول (ﷺ) بعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة على صنعاء « فخرج عليه العنسي وهوبها » والعنسي هذا هو الاسود العنسي عهله بن كعب بن عوف . فخرج العنسي واعلانه الردة جاء بعد وصول عامل الرسول (ﷺ) الى اليمن لجمع الزكاة ؛ وأعلن العنسي خروجه وردته أثناء وجود عامل الرسول (ﷺ) - المهاجر بن أبي أمية - في صنعاء .

وهنا نكتفي بسؤال محدد : هل من باب المصادفة أن يعلن الاسود العنسي خروجه بعد وصول عامل النبي (ﷺ) الى صنعاء لجمع الزكاة ؟ ولماذا ؟

وأما الحقيقة الثانية فتبدو عند الربط بين النص السابق وبين ما ذكره الطبري في رواية أخرى من أن « أول ردة كانت في الاسلام باليمن ، كانت على عهد رسول الله (ﷺ) على يدي ذي الحمار عهله بن كعب - وهو الاسود - في عامة منذج » (٧٣) .

ومعنى هذا ان حركة الردة انطلقت - أول ما انطلقت - من بلاد اليمن ، وأن خروج الاسود العنسي يمثل الشراة الأولى في تلك الحركة . ولا يسع المؤرخ في تحليله لهذه الحقائق سوى أن يصل الى قناعة بأن حركة الردة منها تنوع أسبابها العامة والخاصة - الظاهرة والباطنة - فانها تبدو مرتبطة بجمع الزكاة ارتباطاً نتيجة سبب . وبها يقال عن تعدد أسباب حركة الردة وتنوعها ، فاننا نرجح ان السبب المباشر الذي أدى الى اشعال فتيل تلك الحركة

(٧١) سورة البقرة - ٤٣ ، ١١٠ .

(٧٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ص ٢٤٦ ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٧ ( طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٢ ) .

(٧٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ١٨٥ ( السنة الحادية عشرة ) .

هو شروع الرسول (ﷺ) في ضبط عملية الزكاة ، وإرساله العمال « على الصدقات الى كل ما أوطأ الاسلام من البلدان » .

والواقع ان حركة الردة بدأت في وقت صعب بالنسبة للمسلمين والدولة الاسلامية ، الناشئة . ذلك أن هذه الحركة جاءت متوافقة زمنيا مع حادثين لها أهميتها وخطورتها على طريق الدولة الاسلامية ، الناشئة ، أولها مرض الرسول (ﷺ) ، وثانيها خروج حملة أسامة .

أما عن مرض الرسول (ﷺ) وهو المرض الذي انتهى بانتقاله الى جنات ربه بعد وقت قصير ، فان الروايات والمصادر المعاصرة تجمع على أنه - عليه الصلاة والسلام - أخذ يشكو في ليال بقين من صفر - أو في أول شهر ربيع الأول - سنة إحدى عشرة للهجرة - أي بعد حجة الوداع (٧٧) ويروي الطبري (٧٨) عن عبيد مولى رسول الله (ﷺ) أنه قال : « لما انصرف النبي (ﷺ) الى المدينة بعد ما فضي حجة الهم ، فتحلل به السير - أي ضعف عن الجد في السير - وطارت به الأخبار لتحلل السير بالنبي (ﷺ) أنه قد اشتكى . فونب الأسود باليمن وسيلمة بالهامة . وجاء الخبر عنها للنبي (ﷺ) ثم ونب طليحة في بلاد بني أسد بعد ما أفاق النبي . ثم اشتكى في المحرم وجعه الذي توفاه الله فيه ... » .

ونخرج من هذه الرواية بحقيقة تاريخية هامة هي أنه ما كادت تطير الأنباء بشكوى النبي ، وتحلل السير به ، حتى ونب الأسود باليمن وسيلمة بالهامة . ويعنى ذلك - وفق هذه الرواية - أن خروج الأسود وسيلمة وطليحة - ومن تلاهم - تعاقب بعد أن شاع خبر مرض النبي عليه الصلاة والسلام . وجاء ذلك في وقت كان عمال الرسول على الزكاة قد أخذوا يباشرون مهامهم ، الأمر الذي حرك استياء كسريين ، فجاء الخبر بمريض الرسول (ﷺ) مشجعا على الخروج والارتداد وعلان العصيان .

وأما الحادث الثاني الهام الذي وافق حركة الردة زمنيا فيتعلق بحملة أسامة بن زيد بن حارثة . وكان الرسول قد ضرب شهر المحرم من سنة إحدى عشرة - قبيل مرضه الذي اعتداه في شهر صفر من نفس السنة - حملة الى الشام ، وجعل لواها لملاهي أسامة بن زيد ، وأمره أن يتجه الى تقوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس . وكان هذا « آخر بعث بعثه رسول الله (ﷺ) » (٧٩) . وقد أُرعب مع أسامة المهاجرون الأولون ، ومن جملتهم « أبو بكر وعمر ، الأمر الذي أتاح فرصة لأقوايل المنافقين ، فكثروا لفظهم بأن الرسول (ﷺ) أمر غلاما

(٧٧) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٩١

(٧٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ١٤٧ ( السنة العاشرة ) .

(٧٩) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٩١

على جلة المهاجرين والانصار. فلما سمع ذلك رسول الله (ﷺ) قال : « ان تطعنوا في امارته فقد طعنتم في اماره أبيه من قبل ، وانه لخليق للامارة وكان ابوه خليقا لها » (٨٠).

ويعني من هذا الأمر أن خروج أسامة جاء مواكبا لابتداء شكوى الرسول (ﷺ) ، ثم لخروج المرتدين في أكثر من جهة من شبه الجزيرة العربية . وحدث كل ذلك وسط بليلة فكرية أحدثها المنافقون ، وهم أشبه شيء بطابور خامس يعمل في جوف الدولة على زعزعة الجبهة الداخلية للدولة الاسلامية . وفي تلك الأزمات المتوakبة قال الرسول (ﷺ) لمولاه أبي موجهة « قد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولا ، الآخرة شر من الأولى » .

وكان الرسول عندما اشتد به الوجع قد انتقل الى بيت السيدة عائشة ليعرض فيه . وعندما بلغته أخبار خروج المرتدين وأراجيف المنافقين ، خرج - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين ، عاصبا رأسه من الصداع ، وقال : « اني رأيت البارحة - فيا يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب ، فكرهتها ، فنفضتها فطارا . فأطها هذين الكذابين ، صاحب الائمة وصاحب اليمن . وقد بلغني أن أقواما يقولون في اماره أسامة ! ولعمري لئن قالوا في امارته ، لقد قالوا في اماره أبيه من قبل ، وان كان أبوه لخليقا للامارة ، وانه لخليق لها ، فانفذوا بعث أسامة » .

وقد يبدو غريبا أن يأمر الرسول (ﷺ) بانفاذ حملة أسامة الى الشام ، وهي تضم قوة حربية كبيرة ، وعددا من الصحابة ، في الوقت الذي ظهر أن الخطر الحقيقي الذي هدد الاسلام ودولته ينبثق من جنوب شبه الجزيرة العربية وليس من شمالها . ولكن حكمة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبعد نظره اختارنا ألا تعطيا المنافقين مزيدا من الفرص للارجاجف والتشكك ، فضلا عن أنه أراد أن يعلم المسلمين ضرورة احترام قرارات القيادة الرشيدة ، وخاصة في وقت الخطر ، والحرص على ان تظهر الدولة في صورة الوائقة من نفسها ، الثابتة في ارادتها ، فلا ترد ولا تكوص .

ولا شك في أن مثل هذه السياسة لابد وان يكون لها آثارها المعنوية في مواجهة الخارجين والمرتدين في اليمن والائمة ، وغيرها من أنحاء شبه الجزيرة العربية . هذا الى أن خروج أسامة على رأس حملته يعبر في صورة أو أخرى عن الاقلال من شأن هؤلاء الخارجين والمرتدين ، والتحقير من خطرهم ، مما تتعكس صورته في الجباب

(٨٠) يعني زيد بن حارثة وأمه أسامة . وكان الرسول (ﷺ) في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة قد استعمل زيد بن حارثة على المسلمين في تلك الغزوة . وقال « ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » . فقال جعفر « ما كنت لأذهب أن تستعمل علي زيدا » . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « امض فانك لا تدري أي ذلك خير » . انظر : ابن الاثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ( مطبعة كتاب الشعب بالقاهرة ) ج ٢ ص ٢٨٣ ترجمة زيد بن حارثة رقم ١٨٢٩ ، ١ ، ٧٩ ترجمة أسامة بن زيد رقم ٨٤ .

المنوي للمسلمين والمرتدين سواء . هذا وإن كان اشتداد المرض على الرسول (ﷺ) ثم وفاته قد عرقلت مسيرة حملة أسامة بعد أن كان قد خرج فعلا ، وضرب معسكره « وأنشأ الناس في العسكر » (٨١) .

وفي الوقت الذي اتخذ الرسول (ﷺ) قراره الخاص بخروج حملة أسامة ، واجه حركة المرتدين في حزم شديد وحكمة بالغة « ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه » . يروي الطبري أن الرسول (ﷺ) بدأ بمحاربة أولئك المرتدين « بالرسل » فأرسل إلى نفر من الأنصار يأمرهم بالقيام على الدين ، ولتنهض في الحرب ، والعمل في القضاء على الأسود والخارجين والمرتدين ، ومعنى هذا أن الرسول (ﷺ) لم يرسل جيوشا من المدينة للقضاء على المرتدين ، وإنما اعتمد على القوى المحلية ، فأرسل الرسل إلى عهاله في تلك الجهات يستحثهم على الاستعانة بالنابئين على الاسلام والصمود أمام المنسحقين ، ومحاربة القضاء على رؤوس الفتنة « إما غيلة وإما مصادفة » . وطلب الرسول من عهاله ابلاغ هذه الدعوة إلى من يرون « أن عنده نجدة » (٨٢)

وسرعان ما بدا أن الأسود العنسي هو أخطر الخارجين - أو المرتدين - وأصلبهم شوكة . وقد وصفته المصادر المعاصرة بأنه كان كاهنا شبيذا - أي مشعوذا - يظهر الأعاجيب ويتصف بقوة الشخصية ، بحيث أنه كان ( يسيي قلوب من مع منقطه ) ولم تلبث أن أيدته مذجج ونجران ، فاشتد ساعده ، وعندئذ أرسل إلى عهال النبي (ﷺ) يقول لهم : « أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، وفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه » مرة أخرى تؤكد على ما في هذه العبارة من احساس واضح بأن الخارجين - أو المرتدين - اعتبروا عهال النبي (ﷺ) دخلاء عليهم ، مغتصبين لأرضهم ، فضلا عما يتضح فيها من أثر العامل الاقتصادي - والزكاة بالذات - في تحريك الأسود العنسي وأتباعه ، إذ يطالب عهال النبي (ﷺ) بأن يوفروا ما جمعوه من أموال الزكاة « فنحن أولى به » .

وبينا عهال الرسول (ﷺ) في حيرة من أمرهم ، إذا بالأسود العنسي يقتحم صنعاء ، وكان الرسول (ﷺ) قد فرق عمل اليمن كلها بين جماعة من أصحابه ، فجعل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء ابن باذام ، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن أبي هالة ، وعلى مأرب أبى موسى الاشعري ، وعلى الجند يعلى بن أمية . وجعل معاذ بن جبل معلما ينتقل في عمالة كل عامل باليمن .

(٨١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ١٨٦ ( سنة ١١هـ ) .

(٨٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٢١ .

وتطورت الأمور بسرعة ، فساء موقف هؤلاء العمال نتيجة لاشتداد ساعد الأسود العنسي ، بعد أن « جعل يستطير استطار الحريق .. وثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، وادنت له سواحل من السواحل ... » وكان أن خرج معاذ ابن جبل هاربا ، حتى مر بأبي موسى - وهو بجارب - فاقترحها حضرموت . ثم نزل معاذ في السكون ، في حين نزل أبو موسى في السكاسك مما يلي المغور . أما الطاهر ابن أبي هالة فكان عندئذ في وسط بلاد عك بجبال صنعاء ، فأنحاز اليه سائر أمراء اليمن ، الا عمرا وخالدا فانها رجعا الى المدينة .

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل بسرعة ، نتيجة لعدة عوامل :

أولا : أن الأسود العنسي - شأنه شأن بقية الادعاء والمرتدين - لم يكن على شيء من حسن الخلق والسيرة مما يقربه الى قلوب الناس ويجعل منه أسوة حسنة لهم . حتى امرأته - آذآذ - قالت فيه : « والله ما خلق الله شخصا أبغض الي منه : ما يقوم الله على حق ، ولا ينتهي له عند حرمة »<sup>(٨٣)</sup> . ولم يسلم أعوانه وأقرباؤه من بطشه ، مما جعله في نهاية الأمر فريسة لتأمر الجميع عليه .

ثانيا : لجأ عمال الرسول في اليمن الى السياسة للتغلب على الأسود العنسي ، حيث أنهم كانوا يفتقرون الى ما كانت لهم من جوع وقوة . ومن ذلك أنهم حاولوا استئالة بعض القبائل « وكاتبنا الناس ودعوناهم » . ثم أنهم حاولوا عن طريق المصاهرة عقد سلسلة من المحالفات ، ومن أمثلتها أن معاذ بن جبل تزوج الى بني بكرة - حي من السكون - امرأة اخوالها من بني زككيل يقال لها رملة ، فهاووا الى جانب معاذ ضد الأسود . وبذلك اشتد جانب المسلمين وقوي ساعدهم ، وخاصة بعد أن أرسل اليهم الرسول يأمرهم بعدم الاستكانة ، وبمجاولة الأسود العنسي ومصالوته « ففرقنا القوة وثقنا النصر »<sup>(٨٤)</sup> .

ثالثا : هناك من قبائل اليمن وعشائرها من ثبتوا على اسلامهم ، ورفضوا مؤازرة الأسود العنسي ، وفقوا الى جانب الاسلام والمسلمين ، بل لقد اعترض بعضهم - مثل عامر بن شهر وذبي زيد وذبي مدان وذبي الكلاع وذبي ظليم - على الأسود العنسي ، وكاتبوا معاذ بن جبل وأمراء المسلمين « وبذلوا لنا النصر ، وكاتبناهم ، وأمرنا ألا يحركوا شيئا حتى نبرم الأمر » . وهؤلاء استجابوا لرسول النبي التي أرسلها لهم ، وأعلنوا ثباتهم على مبدأ الاسلام « واحتاجوا لذلك حتى جاء كتاب النبي (ﷺ) . وانضم الى هذا الفريق جماعة من غير العرب من أهل نجران ، استجابوا للنبي عندما كتب اليهم « فثبتوا وتتحوا وانضموا الى مكان واحد »<sup>(٨٥)</sup> .

(٨٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٨٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٣٠ .

(٨٥) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٢ .

وسرعان ما فتت تحركات المسلمين في عسجد الأسود العنسي ، « فأحس بالهلاك » . على أن الخطر الذي عصف به وأجهز عليه جاء من الداخل وليس من الخارج ، إذ اجتمعت الاطراف المادية له ، ووضعوا خطة تقتله ، فنقبوا عليه داره واغتالوه ، حتى اذا ما طلع الفجر نادوا بالأذان وبأن لا اله الا الله وبأن محمدا رسول الله ، وأن عبيله كذاب ( الأسود ) . ولم يلبث أن تفرق أتباع الأسود « وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الاسلام وأهله ، وتنافست الامارة ، ورجع أصحاب النبي (ﷺ) الى أعماهم ، فاصطلحنا على معاذ بن جبل ، فكان يصلي بنا » (٨٦) .

وشامت الأقدار أن يأتي خبر ذلك النبي (ﷺ) من ليلته ، وأن يتوفى - عليه الصلاة والسلام - صبيحة تلك الليلة . وقد استغرقت حركة الأسود العنسي - من أولها الى آخرها - ثلاثة أشهر ، وقيل أربعة ، عادت بعدها الأمور في اليمن الى ما كانت عليه « واعتذر الناس ، وكانوا حديثي عهد بالجاهلية » (٨٧) .

ولم تكن ردة الأسود العنسي الحركة الوحيدة من نوعها في أواخر أيام الرسول (ﷺ) فقد حدث أيضا في السنة العاشرة للهجرة - والغالب بعد حجة الوداع - أن كتب مسيلمة الكذاب الى الرسول (ﷺ) يدعى أنه أشرك معه . وجاء في كتابه « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . سلام عليك ، فاني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الارض ولقرش نصف الأرض . ولكن قريشا قوما يعتدون » .

وعندما قدم على النبي (ﷺ) رسولان بهذا الكتاب ، قال لهما (ﷺ) : فما تقولان أنيا ؟ قالوا : نقول كما قال . فقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب الى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وفي الوقت الذي أخذ نفوذ مسيلمة يزداد حتى غلب على الجامة ، ادعى طليحة النبوة ، وعسكر بسميراء . وكان أن بعث طليحة ابن أخيه حبال الى النبي (ﷺ) يدعوه الى المواعدة ويخبره خبره . وقال حبال : ان الذي يأتيه ذو النون . فقال : لقد سمى ملكا . فقال حبال : أنا ابن خويلد . فقال النبي (ﷺ) : قتلك الله وحرملك الشهادة .

وعلى الرغم مما كان يعاني منه الرسول (ﷺ) من آلام المرض ، فانه ظل يذب عن الاسلام في مختلف الجبهات وظل طليحة ومسيلمة وأشباههم بالرسل « ولكن قضاء الله حل برسوله الكريم قبل أن يستأصل الفتنة من جذورها .

(٨٦) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٥

(٨٧) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٩ .

وفي اللحظة التي قبض رسول الله (ﷺ) كان أسامة بن زيد قد غادر المدينة على رأس حملته متجها الى حيث قتل أبوه زيد بن حارثة من أرض الشام ، وهي الجهة التي كان الرسول (ﷺ) قد أمره بالمسير اليها ، وعندما بلغ أسامة الحير ، وهو لا يزال على مقربة من المدينة ، توقف عن المسير وقال لعمر - رضي الله عنها - « ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه - يأذن لي أن أرجع بالناس - فإن معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله (ﷺ) وثقل رسول الله (ﷺ) ، وأنقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون ... » .

ويبدو أن أسامة كان يدرك الموقف على حقيقته في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ الامة الاسلامية . حقيقة أن الانصار والمهاجرين استطاعوا في سقيفة بني ساعدة أن يتخطوا الأزمة الخطيرة الخاصة باختيار خليفة لرسول الله (ﷺ) . ولكن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - ولي الخلافة في وقت صعب ، ظهر فيه أن مصير الأمة الناجية غدا في كفة الميزان ، بعد أن « ارتدت العرب ، اما عامة واما خاصة من كل قبيلة ، ونجم النفاق ، وشرأبت اليهود والنصارى . والمسلمون كالغرم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم (ﷺ) ... » .

ولا نستطيع أن ننكر أن انتشار خبر وفاة الرسول (ﷺ) أثار موجة واسعة من التشكك بين بعض العرب في حقيقة رسالته . ذلك أنهم - بفكر الجاهلية وعقليتها - ظنوا أن هذه الشخصية التي لم يرها كثير منهم وإنما سمعوا فقط عنها ، مفروض فيها البقاء والخلود . ولو كانوا قد ألبوا بالقرآن واستوعبوه ، لما وقعوا في هذه الايهام ، ولأدركوا قوله تعالى « انك ميت وانهم ميتون » (٨٨) وقوله عز وجل « وما جعلنا لبشر قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » (٨٩) .

وزاد من موجة التشكك هذه ما حدث من خلاف بين الصحابة أنفسهم حول من يكون له الأمر بعد الرسول (ﷺ) ، إذ قال المهاجرون « منا الأمراء ومنكم الوزراء » فقالت الأنصار « بل منا أمير ومنكم أمير » . وحدث هذا في مرحلة لا تزال نغمة العصبية القبلية متأججة في القلوب ، وكثير من القبائل - كما أسلفنا - تحسد الرسول (ﷺ) وتحسد قريش ، على ما تحقق لهم من مكانة على المستويين الفردي والقبلي . وكانت النتيجة أن أخذت بعض القبائل تستعيد ذكرى أجدادها وأبائهم ، لتحشد المبررات التي تمكنها من المطالبة بالزعامة العليا على العرب جميعا ، مثلاً تحقق لقريش . فلما آل أمر الخلافة الى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لم تستطع هذه القبائل اخفاء خيبة أملها ، وحققها لأن الأمر خرج من يدها ، فأعلنت تمردا ، ورأت في استمرار زعامة قريش بعد وفاة الرسول (ﷺ) نوعا من الازلال لها ، ومنافاة للتقاليد التي جرى عليها العرب من قبل .

(٨٨) سورة الزمر ، ٣٠ .

(٨٩) سورة الانبياء ، ٣٤ .

وقد أدرك كثير من المسلمين أن مثل هذه الظروف تتطلب تجميع قوى الاسلام وحشدتها ، وأشفقوا من أن يترك جوف الدولة الاسلامية مستعلا بالفتنة ، في حين ينتجه جيش كبير بقيادة أسامة بن زيد - يضم صفوة المجاهدين وعلى رأسهم حشد من الانصار والمهاجرين - الى أطراف بلاد الشام . وكان أن واجه بعضهم الخليفة الجديد بهذه الحقيقة ، وقالوا له « ان هؤلاء جل المسلمين . والعرب على ما ترى قد انتفضت بك ، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . ولكن أبا بكر رفض في إصرار أن يستجيب لرأي هؤلاء ، واعتبر ذلك نقضا لقرار اخذته رسول الله (ﷺ) ، فرد عليهم قائلا « والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تحطفتني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق غيري لأنفذته »<sup>(٩٠)</sup> . أما عمر الذي أرسله أسامة الى أبي بكر يستأذنه في الرجوع ، فقد رد عليه أبو بكر قائلا « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد به قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولا شك أن خروج أسامة الى الشام شجع الخارجين والمتردين ، بعد أن أحسوا بنشأت قوى المسلمين في وقت افتقدوا نبههم . وتوضيح إحدى الروايات التي رواها الطبري صدق وفاة النبي (ﷺ) من ناحية ، وخروج حملة أسامة من ناحية أخرى ، في توسيع حركة العصيان والردة ، إذ تقول الرواية « لما مات رسول الله (ﷺ) ، وفصل أسامة ، ارتدت العرب عوام أو خواص ، وتوحي مسيلمة وطلحة ، فاستغلظ أمرهما ، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد »<sup>(٩١)</sup> .

على أن الخليفة أبا بكر أثبت أنه أهل للنهوض بالأمانة ، فأخذ يتصرف في حكمة وشجاعة ورحم ، ورفض أن يسامو المتردين على ركن واحد من أركان الاسلام ، أو يتخلى عن مبدأ من مبادئ السياسة التي وضعها الرسول (ﷺ) . ان الأمر لم يكن مجرد فتنة محلية ، وإنما كان مستقبل الاسلام كمقيدة ورسالة ونظام ، فضلا عن كونه يبرع عن مستقبل أمة ناشئة ، أراد الله تعالى أن يكون خير أمة أخرجت للناس . لقد كان الأمر ايضا يتعلق بمصير دولة وليدة أسست على التقوى ، مفروض فيها أن تنمو وتستمر لتحمل رسالة الاسلام بعيدا الى مختلف أركان العالم .

وكما أطلق على سنة تسع للهجرة اسم « سنة الوفود » لأن فيها « ضربت وفود العرب من كل وجه » على الرسول (ﷺ) تشهرا اسلاما والدخول في دين الله ، كذلك تعتبر سنة احدى عشرة للهجرة « سنة وفود » ولكنها وفود من نوع آخر ، قدمت على خليفة رسول الله (ﷺ) تعلن رجوعها عن الاسلام . وإذا بالخليفة أبي بكر يجد نفسه « وقد جاءته وفود العرب مرتدين .. وارتدت من كل قبيلة عامة او خاصة ، الا قريشا وثقيفا .. وارتدت سائر الناس بكل مكان »<sup>(٩٢)</sup> .

(٩٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٥ ( سنة ١١هـ ) ٧

(٩١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٢ ( سنة ١١هـ ) .

(٩٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .



والحق ان صمود أبي بكر أمام تلك العاصفة استرعى انتباه المعاصرين وغير المعاصرين . وفي ذلك قال ضرار بن الأزور « ما رأيت أحدا - ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم - املاً بحروب شعواء من أبي بكر »<sup>(٩٣)</sup> . ولم يشأ أبو بكر أن ينتظر عودة أسامة وصحبه من حملتهم على الأطراف الجنوبية لبلاد الشام ، وإنما شرع فوراً في التخطيط لمواجهة الأزمة ، حيث ان الموقف لم يعد يحتمل أي تباطؤ ، وأخذ يتطور تطوراً سريعاً اتسعت فيه دائرة الخروج عن الاسلام وطاعة دولة الاسلام .

وقد اختار أبو بكر - رضي الله عنه - أن يقتضي أثر الرسول (ﷺ) في سياسته تجاه المرتدين ، فبدأ بإرسال رسل اليهم يدعوهم الى التوبة والعودة الى حظيرة الطاعة . بذلك « حاربهم بما كان رسول الله (ﷺ) حاربهم بالرسول »<sup>(٩٤)</sup> وفي نفس الوقت كانت وفود المرتدين قد وصلت الى المدينة تحمل ردتها ، فزولوا على وجوه الناس بالمدينة ، فأنزلوهم - ماخلاً عباساً - فتحملوا بهم على أبي بكر ، رفض ذلك بشدة وجرم ، وردهم قائلاً : « لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه »<sup>(٩٥)</sup> .

ويبدو أن وفود المرتدين عندما انقلبوا عائدتين الى عشائروهم وقبائلهم ، أخبروهم بقلة أهل المدينة وخلوها من المدافعين - في غيبة أسامة ورفاقه - وأطمعوهم في الاستيلاء عليها . ومن جهة أخرى فإن أبا بكر أحس بما يتهدد المدينة - عاصمة الدولة ومثوى الرسول عليه الصلاة والسلام - من خطر ، فأقام على حراستها نفراً ، منهم : علي والزبير وطلحة وعبدالله بن مسعود ، رضي الله عنهم . ثم ان أبا بكر رأى أن يبصر أهل المدينة بحقيقة الموقف حتى يأخذوا حذرهم ويكونوا معه في الصورة ، فاجتمع معهم في المسجد ، وقال لهم « ان الارض كافرة »<sup>(٩٦)</sup> ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وانكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم . وقد أبيننا عليهم ، ونبذنا عليهم عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا » .

وكان أن حدث ما توقعه أبو بكر ، فلم تفض ثلاثة أيام حتى طرقت المرتدون المدينة ليلاً ، فثبت لهم المسلمون القائمون بالحراسة ولكن يبدو ان المسلمين لم يستطيعوا ان يحرزوا نصراً سريعاً على المهاجرين ، ولم يتمكنوا من ردهم على أدبارهم بسبب قلة عددهم ، الأمر الذي أطمع المرتدين ، فبعثوا الى قوميهم بالخبر ، فقدموا عليهم . وفي تلك الشدة ، أظهر أبو بكر ثباتاً كبيراً ، « فبات ليلته ينتهياً ، فمضى الناس . ثم خرج على كعبية من

(٩٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٩٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٣ .

(٩٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ص ٢٤٤ . وقد جاء فيه أنه أراد بالمقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يوظف في الصدقة لأن على صاحبه التسليم . وقيل أنه أراد ما يساوي عقلاً من حقوق الصدقة . وقيل أراد بالمقال صدقة العام ، يقال أخذ المصدق عقلاً هذا العام أي أخذ منهم صدقة .

(٩٦) أي مظنة .

أعجاز ليلته يثني ، وعلى ميمنته النعمان بن قمرن ، وعلى مسيرته النعمان بن مقرن ، وعلى الساقية سويد بن مقرن معه الركاب » . وبنى المسلمون خيولهم على أساس مفاجأة العدو « فما سمعوا للمسلمين هسسا ولا حسا حتى وضموهم فيهم السيوف » . وكانت معركة حامية ، أخذ فيها المرتدة على غرة ، بحيث ما كادت تبرزغ الشمس الا وكانوا - على كثرتهم - قد ولوا الأدبار ، والمسلمون يطاردونهم ، وقد ارتفعت أصواتهم بنداء « الله أكبر ... الله أكبر ... » (٩٧) .

وكانت هذه الموقعة « أول الفتح .. فذل بها المشركون .. وعز المسلمون بوقعة أبي بكر .. » ولم يسع المتردون ازاء تلك الصدمة سوى الانتقام ممن كان فيهم من المسلمين ، فوثب عليهم ذبيان وعيس « فقتلوه كل قتلة » ولما سمع أبو بكر ذلك ، حلف ليقطن في المشركين كل قتلة ، وليقطن في كل قبيلة ممن قتلوا من المسلمين وزيادة . (٩٨)

وكان لا تنصار المسلمين ، وبخاصة في انقاذ مدينة رسول الله (ﷺ) من خطر المشركين رد فعل واضح ، سواء في صفوف المسلمين ، أو في صفوف أعدائهم « فازداد المسلمون ثباتا على دينهم في كل قبيلة . وازداد المشركون انكاسا من أمرهم في كل قبيلة » . ولا أدل على صدق هذا النصر من أن بعض القبائل والعشائر سارعت الى ارسال الزكاة الواجبة عليها الى المدينة ، مثل صفوان والزريقان وعدى . (٩٩) .

ولم تكد تمر أيام على هذا النصر حتى وصل أسامة بن زيد عائدا من حملته الناجحة التي استغرقت قرابة سبعين يوما ، أغار فيها على المحققين ، وعاقب بني الضبيب من جذام وبني ضليل من لخم . فلما وصل أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر على المدينة - ويقال استخلف سنانا الضمري - وخرج هولقنال المرتدين ، فالتقى بالابرق ببني عيس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة ، فحلت بهم الهزيمة ، ثم رجع أبو بكر الى المدينة .

ويلاحظ أن أبا بكر لم يشأ أن يشن هجومه الشامل على المرتدين الا بعد أن يستجم جند أسامة ، ويستريحوا من عناء الحملة التي قاموا بها على جنوب الشام ، « فلما أراح أسامة وجنده ظهورهم وحجوا » خرج أبو بكر على رأس الجند الى ذي القصة - وهو موضع على بعد بريد من المدينة تجاه نجد - وهناك « قطع الجند وعقد الألوية » . وقد عقد الحليفة أحد عشر لواءا من المسلمين من أهل القوة ، وحدد لكل منهم وجهته وخطته وهدفه على النحو التالي (١٠٠) :

(٩٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٩٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٩٩) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٦ .

(١٠٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٨ .

- ١ - عقد لخالد بن الوليد ، وأمره بطليجة بن خويلد ، فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالطاح ، ان أقام له .
  - ٢ - وعقد لمكرمة بن أبي جهل ، وأمره بمسيلة .
  - ٣ - وللمهاجر بن أبي أمية ، وأمره بجند العنسي ، ومعونة الانباء على قيس بن المكشوح ، ومن أعانه من أهل اليمن عليهم ، ثم يمضي الى كنده بحضرموت .
  - ٤ - ولخالد بن سعد بن العاص ، وكان قد قدم على حين ذلك فترك عمله <sup>(١٠١)</sup> وبعثه على المحمقين من مشارب الشام .
  - ٥ - ولعمرو بن العاص الى جماع قضاة وديعة والحارث .
  - ٦ - ولخديفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا .
  - ٧ - ولعرفجة بن هرثة ، وأمره بمهرة .
  - ٨ - وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل ، وقال : اذا فرغ من الامة فالحق بقضاة ، وأنت على خيلك تقاقل أهل الردة .
  - ٩ - والطريقة بن حاصر ، وأمره ببني سليم ، ومن معهم من هذان .
  - ١٠ - ولسويد بن معرن ، وأمره بتهامة اليمن .
  - ١١ - ولعلاء بن الحضرمي ، وأمره بالبحرين .
- وبدراسة التوزيع السابق للحملات التي نظمها الخليفة أبو بكر ضد المرتدين ، يمكننا أن نخرج بالحقائق الآتية :

أولا : مدى خطورة الموقف عندئذ بالنسبة للإسلام والدولة الاسلامية . فالخارجون على الدين والدولة انتشروا من مشارف الشام شمالا حتى حضرموت ومهرة واليمن وبحرها جنوبا . ومن البحرين وعبان والخليج شرقا حتى شاطئ البحر الأحمر غربا . ناهينا بالقبائل التي ارتدت في قلب شبه الجزيرة العربية - مثل غطفان وعيس وذبيان ، والقبائل الضاربة في نجد . بل ان بعض القبائل على مشارف الحجاز - مثل هوازن - وعلى أبواب المدينة عاصمة الدولة - مثل بني سليم - أعطيت خروجها وذاتها .

وهكذا ولي أبو بكر منصب الخلافة في وقت بدأ أن البناء الكبير الذي أقامه الرسول (ﷺ) قد أخذ يتزنج ،

(١٠١) كان الرسول (ﷺ) قد أرسل في سنة عشرة للهجرة خالد بن سعيد بن العاص - صحبة فروة بن سبيك الرازي - على مراد وزيد ومطيع كلها ، فكان على الصدقات الى أن توفي الرسول (ﷺ) ( ابن الاثير - الكامل ، ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ) .

وكان القبائل العربية في شتى أنحاء شبه الجزيرة كانت على موعد ، لتعلن النكوص على أعقابها ، والخروج على طاعة الحكومة الإسلامية بالمدينة .

**ثانياً :** يصور لنا هذا الوضع عظم المسئولية التي ألقيت على كاهل أبي بكر ، والجهد الكبير الذي بذله - هو ومن التفت حوله من كبار الصحابة - لانقاذ الموقف . لقد كان عليهم النهوض بعقيدة الاسلام من الكربة التي ألقت بها ، وأحياء شعائر دين الله وتثبيت أوتاده ، وإعادة فتح الأبواب ، وإعلاء سلطة الدولة بعد أن زرع المتعدرون أركانها .

**ثالثاً :** كان المؤمنون في ذلك الدور يمثلون قلة عديدة ، عليها أن تواجه الاكثية الساحقة من الخارجين والمتردين وغير الثابتين على الاسلام . لذا لم يكن أمام المؤمنين سوى سلاح الاعتدال على الله وعلى النفس ، إيماناً بقوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » وعلى رأس كل مجموعة من هذه القلة المؤتمنة ، جعل أبو بكر اللواء لأحد الصحابة المعروفين بحسن البلاء .

هذا وقد تمسك أبو بكر في مواجهة المرتدين بمبادئ ثابتة لا يحيد عنها ، أهمها :

- ١ - عدم التفريط أو التنازل في تطبيق أي ركن من أركان الاسلام ، أو المفاوضة والمساومة على أسس الدين .
- ٢ - دعم الروح المعنوية عند المسلمين بتذكيرهم بأحكام القرآن الكريم ، وما بشر الله به المجاهدين والصابرين من أجر وحسن ثواب ، والتأسي بالأسوة الحسنة من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .
- ٣ - كسب تأييد القلة التي مازالت على اسلامها أو على شيء من اسلامها ، وانعاش بذور الاسلام في قلوب افرادها لتكون عوناً لجيوش المجاهدين ضد أعداء الاسلام .

٤- انتمستك بسياسة الحزم تجاه المشركين . حقيقة ان أبا بكر حرص على أن يدعوهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وحاول في جميع الحالات أن يبدأ اقناعهم بالعودة الى دائرة الاسلام . ولكنه في حالة اصرارهم على موقفهم وعدم استجابتهم لداعي الحق « حلف ليقطن في المشركين كل قنلة » . ولم تلبث سياسة الحزم هذه أن آتت أكلها « فارتداد المسلمون لها ثباتاً على دينهم في كل قبيلة . وارتداد المشركون انعكاساً من أمرهم في كل قبيلة » (١٠٢) .

أما الخطة التي وضعها أبو بكر والاستراتيجية التي اتبناها في التصدي للمرتدين ، فقد قامت على عدة أركان أهمها :

- ١ - اذا كان أبو بكر قد أنفذ أحد عشر جيشاً لمحاربة المرتدين ، فان استراتيجيته تضمنت أحكام التعاون بين هذه الجيوش جميعاً ، بحيث لا تعمل كأنها جيوش منفصلة تحت قيادات مستقلة ، وإنما هي - رغم تباعد المكان -

جهاز واحد ، قد تلتقي - أو يلتقي بعضها ببعض - ثم تفرق لتلتقي . وكان ذلك في الوقت الذي بقي أبو بكر في مقره بالمدينة ، متخذاً منها ما يشبه غرفة العمليات التي يدير منها حركة العمليات الحربية ضد المرتدين . مثال ذلك أن أبا بكر عندما أرسل خالدًا لمحاربة طليحة « أمره أن يبدأ بطيء على الاكتناف ، ثم يكون وجهه على البذاخة ، ثم يثقل بالبطاح . ولا يريم إذا فرغ من قوم ، حتى يحدث اليه ويأمره بذلك » ؟

ب - عندما أرسل أبو بكر جيوشه الاحد عشر الى مختلف أنحاء شبه الجزيرة لمحاربة المرتدين ، احتفظ في المدينة بقوة تحمي قلب الدولة ، وبعدد من كبار الصحابة يستشيرهم ويشاركونه في توجيه سياسة الدولة في تلك الفترة العصيبة ، وذلك تمهيداً مع مبادئ الاسلام في الشورى وعدم الاستبداد بالرأي . وهذا هو السر في عدم ظهور أساء بعض اللامعين من كبار الصحابة في الجيوش التي وجهها أبو بكر ضد الخارجين والمرتدين .

ج - أدرك أبو بكر أن هناك جيوشاً من المسلمين داخل المناطق التي شملتها حركة العصيان والردة . وقد حرص أبو بكر على هؤلاء المسلمين من أن يتعرضوا لنقمة تيار الشرك الذي أحاط بهم . ولذا فانه أمر قادة الجند باستنفار من يرون بهم من أهل القوة من المسلمين من جهة ، وبضرورة « تخلف بعض أهل القوة لمنع بلادهم من جهة أخرى » (١٠٣) .

د - الحرب خدعة . طبق أبو بكر هذا المبدأ في خطته التي وضعها لضرب الخارجين والمرتدين ، فعمل على خديعتهم والتظاهر بأن جيوش المسلمين تنوي شيئاً ، وهي في حقيقة الأمر تستهدف شيئاً آخر . من ذلك أن أبا بكر عندما بعث خالدًا لقتال المرتدين ، فانه أظهر « أنه خارج الى خيبر ، ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالاكثاف ، اكثاف سلمى » . أما خالد فقد أظهر أنه خارج الى خيبر - ملاقاته أبي بكر ومن معه - ثم نصب عليهم . وأنجلت هذه الخدعة على طيء « فبعد ذلك طيئاً وبطاهم عن طليحة » (١٠٤) .



وخير ما يوضح سياسة أبي بكر تجاه المرتدين ، ويلقي أضواء على الخطة التي وضعها لمواجهة حركتهم ، ذلك الكتاب الذي بعث به الى عرب شبه الجزيرة ، وخاصة القبائل التي أعلنت عصياناً وردتها ، وهو كتاب واحد أرسله اليهم جميعاً بنفس الصيغة (١٠٤) ونظراً لأهمية هذا الكتاب - حيث أنه يعكس سياسة أبي بكر والاسلوب الذي اتبعه لمواجهة هذه الفتنة - فاننا سنعمد في دراستنا له الى تقسيمه الى فقرات نتناول كلا منها بالشرح والتعليق :

(١٠٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٨

(١٠٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٣ .

(١٠٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١

**أولاً:** « بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على اسلامه او رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والعمى . فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . نقر بما جاء به ، ونكفر من أبي ، ونجاهده » .

نخرج من هذه الفقرة بما يلي :

١ - حرص أبو بكر على أن يبدأ خطابه باسم الله ، وأن يوضح صفته التي يخاطب بها الناس ويتعامل معهم بقتضائها . انه خليفة رسول الله ، بمعنى أن منزلته من الأمة كمنزلة الرسول (ﷺ) له عليهم ما للرسول (ﷺ) من الولاية العامة والطاعة التامة ، والقيام على شئون دينهم وديارهم .

٢ - وبخلاف ما ذكرته المصادر من أن أبا بكر وجه كتابه هذا الى « قبائل العرب المرتدة »<sup>(١٠٦)</sup> فانتنا نلمس في افتتاحية هذا الكتاب أنه حرص على توجيه هذا الكتاب « الى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على اسلامه او رجع عنه » . ومعنى هذا أنه أراد بكتابه أن يكون بياناً للناس جميعاً ، سواء من بقي على الطاعة أو خرج عنها . وبعبارة أخرى أنه استهدف من هذا الكتاب أن يكون نذيراً للخارجين ، في حين يتخذ من الذين أقاموا على اسلامهم شهداء عليهم .

٣ - وبعد أن يوجه خطابه الى الجميع ، اذا به يختص بتحية الاسلام - بالسلام - من اتبع الهدى فقط ، أي من آمن بالاسلام وثبت عليه ولم يرجع الى الضلالة . أما غيرهم من المرتدين والخارجين فلا سلام عليهم . ويذكر الجميع بشعار الاسلام وأول ركن من أركانه ، وهو شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

٤ - وفي ختام هذه المقدمة يعلن أبو بكر اقراره بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، ونكفيره لكل من ينكر ذلك ، ويتعهد بجهاد الكفار .

**ثانياً:** أما بعد ، فان الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده الى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حياً ، ويحقق القول على الكافرين . فهدى الله بالحق من أجاب اليه . وضرب رسول الله (ﷺ) - باذنه - من أدبر عنه ، حتى صار الى الاسلام طوعاً وكرهاً .

انتقل ابو بكر في هذه المقدمة الى توضيح هذه الرسالة المحمدية ثم بيان الاسلوب الذي اتخذه النبي (ﷺ) لتحقيق هذا الهدف « لينذر من كان حياً ويحقق القول على الكافرين » ثم حرص أبو بكر على أن يذكر الجميع بأن

الرسول (ﷺ) اتبع الحزم في سياسته تجاه المشركين والكفار فحاربهم من أدبر وتولى ، حتى دخل الجميع في الاسلام « طوعا وكرها » .

**ثالثا :** « ثم تولى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمنه ، وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين له ذلك - ولأهل الاسلام - في الكتاب الذي أنزل فقال « انك ميت وانهم ميتون » <sup>(١٠٧)</sup> وقال « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان من فهم الخالدون » <sup>(١٠٨)</sup> وقال للمؤمنين « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » <sup>(١٠٩)</sup> فمن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له ، فان الله له بالمرصاد ، حي قيوم لا يموت ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه يجزيه » .

من الواضح أن أبا بكر أراد بهذه الفقرة من كتابه أن يرد على ذلك الفريق الذي عجب لموت الرسول (ﷺ) فيذكرهم بما جاء في كتاب الله من أن محمدا بشر ، يجري عليه ما يجري على سائر البشر من حياة او موت . وتخصيص فقرة طويلة من كتاب أبي بكر لهذه المسألة بالذات ، بعكس ما كان للأمر من أهمية في تفكير المعاصرين ، وفي ادعاءات الخارجين والمتردين بالذات . من ذلك أنه عندما ذاع خبر وفاة الرسول (ﷺ) قام عبينه بن حصن في غطفان وقال « وقد مات محمد وبقي طليحة » <sup>(١١٠)</sup> أما عبد قيس بالبحرين فقد قالت عندما ارتدت وسمعت موت النبي (ﷺ) « لو كان محمد نبيا لما مات » <sup>(١١١)</sup> وهذان المثالان قليل من كثير .

وفي الوقت الذي أوضح أبو بكر صفة محمد - عليه الصلاة والسلام - البشرية ، أبرز قدرة الله عز وجل ، وأنه حي لا يموت ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، يجزي الصادقين بصدقهم ، ويجزي الذين أساءوا بما عملوا .

**رابعا :** وأني أوصيكم بتقوى الله وحفظكم ونصيبيكم من الله . وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم . وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعصموا بدين الله . فان كل من لم يهده الله ضالا ، وكل من لم يعافه مبتلى . وكل من لم يعنه الله مخذول . فمن هداه الله كان مهتديا . ومن أضله كان ضالا . قال الله تعالى « من هد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » <sup>(١١٢)</sup> ولم يقل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ، ولم يقل منه في الآخرة صرف ولا عدل » .

<sup>(١٠٧)</sup> سورة الزمر ، ٣٠ .

<sup>(١٠٨)</sup> سورة الانبياء ، ٣٤ .

<sup>(١٠٩)</sup> سورة آل عمران ، ٦٤ .

<sup>(١١٠)</sup> الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٧ .

<sup>(١١١)</sup> الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣٠٢ .

<sup>(١١٢)</sup> سورة الكهف ، ١٧ .

وفي هذه الفقرة ينتقل أبو بكر في كتابه بشيء من المنطق الهاديء المقنع الى تقديم النصيح للناس بتقوى الله واتباع ما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام ، والاعتصام بدينه . وهو في خلال ذلك يبشر المهتدين بثواب الله ويحذر الضالين من عذابه . وهكذا فإنه أوضح أن الأمر كله لله ، من ثواب وعقاب .

خامسا : « وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالاسلام وعمل به ، اغترارا بالله وجهالة بأمره ، واجابة للشيطان . قال الله تعالى « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ، افتتخونه وذرته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » (١١٢) وقال « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

في هذه الفقرة اقرب أبو بكر في خطابه من صلب الموضوع ، فأشار الى ما بلغه من ردة بعضهم عن الاسلام وخروجه عن طاعة الله . وأوضح لهم أن هذا من عمل الشيطان ، وحذرهم من المصير الذي ينتظر أولياء الشيطان وحزبه .

سادسا : « واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان . وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله . فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا ، قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه . وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة . وأن يسبي النساء والذراير ولا يقبل من أحد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله » .

بعد أن أوضح أبو بكر في الفقرات السابقة حكم الله في الضالين ، وأظهر أبعاد الأمانة للمقاء على عاتقه بوصفه خليفة رسول الله (ﷺ) في « حراسة الدين وسياسة الدنيا به » على قول ابن خلدون (١١٤) كشف النقاب في هذه الفقرة عن خطته العامة تجاه الخارجين والمتردين . وتقوم هذه الخطة على أساس دعوتهم بالحسنى الى داعية الله ، فان استجابوا قبلت توبتهم ، ومن لم يستجب ليست له الا الحرمة بالنار والقتل بالسيف ، وسبي النساء والذراير .

وهذه السياسة هي التي أخذت بها أئمة الفقهاء ، اذ أجمع جمهورهم على ضرورة امهال من يرتد عن الاسلام ثلاثة أيام لباليها ، يستتاب فيها ، ويدعى الى الاسلام « بلا جوع ولا عطش ، بل يطعم ويسقي من ماله وبلا معاقبة » لأنه ربما قد دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها . ولذا يجب أن يستمهل ليفكر ما قد يؤدي الى زوال

(١١٢) سورة الكهف ، ٥٠ .

(١١٤) سورة فاطر ، ٦ .

(١١٥) المقدمة ، ص ١٦٦ .



المنبهة . فاذا انتقضت هذه المهلة ، ولم يهتد الى الحق وجب قتله ، لأن بقاءه يشكل فتنة تصيب الاسلام وتهدد كيان المسلمين (١١٦) .

سابعاً : وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم . والداعية لأذان . فاذا أذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم . وإن لم يؤذنوا عاجلوهم .. وإن أذنوا أسألوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقرأوا قبل منهم . وحملهم ما ينبغي لهم ....» .

وأخيراً اختتم أبو بكر كتابه بأن حدد أسلوب التفاهم والتوصل الى قرار لحسم الموقف مع المرتدين ، اما السلم واما الحرب ، وقد جعل أبو بكر من الاذان علامة للاستجابة والرضوخ وعلان التوبة والدخول في طاعة الله . فاذا أذن المسلمون من جانبيهم ، وجب على الطرف الآخر أن يؤذنوا ، فيكون ذلك اعلانا لشهادتهم بأن لا اله الا الله وبأن محمداً رسول الله . وفي هذه الحالة يكف المسلمون عنهم . فاذا لم يجب المرتدون بالأذان ، اعتبر ذلك اصراراً منهم على موقفهم في الخروج من الاسلام .

على أن الاستجابة بتريد الاذان ينبغي أن تأتي مشفوعة باقامة ركن آخر من أركان الدين . هو إيتاء الزكاة . وقد سبق أن أشرنا الى أن موضوع الزكاة كان مثار جدل كبير في حركة الردة ، وسبباً أساسياً في خروجهم . لذا احتاط أبو بكر لهذا الأمر ، واعتبر الاذان وحده غير كاف لاعلان الامتثال والطاعة ، وإنما اشترط إيتاء الزكاة ، وهو ما عبر عنه بعبارة « وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم » . ومعنى ذلك أنهم إذا امتنعوا عن دفع ما وجب عليهم من زكاة ، وجب قتالهم دون ابطاء .



هذا وقد حرص أبو بكر على أن يصل كتابه السابق الى القبائل قبل وصول جنده اليها . ويتضح ذلك من عبارة ذكرها الطبري نصها « فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود » (١١٧) .

ثم ان خليفة رسول الله (ﷺ) لم ينس أن يزود أمراء الجند بعهد يوصيهم فيه بمهامهم ويحدد لهم اطار عملهم ، ويرسم لهم أسلوب ذلك العمل . وفيما يلي نص عهد أبي بكر لأمرامه الجند :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله (ﷺ) لفلان ، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام ، وعهد اليه أن ينقي الله ما استطاع من أمره كله ، سره وعلانيته ، وأمره بالجد في أمر الله ؛ ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الاسلام الى أماني الشيطان . بعد أن يعذر اليهم ، فيدعوهم بداعية

(١١٦) الفردير . الشرح الكبير - باب الردة ، ج ٢ ص ٢٧٠ ( طبعة برلن ١٣٩٩ هـ ) وحاشية الدسوقي - ج ٤ ص ٣٧٧ .

(١١٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥١

الاسلام ، فان أجابوه أمسك عنهم ، وان لم يجيبوه شن غاراته حتى يقرأوا له ، ثم ينبتهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب الى أمر الله عز وجل وأقر له ، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله . فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه فيما استسر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه ، لا يقتل من أحد شيئا أعطاه الاسلام ، فمن أجابه وأقره قبل منة وعلمه ، ومن أبى قاتله . فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه ، الا الخمس فانه يبلغناه . وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوننا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ، ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول » (١١٨) .

ونرى أن هذا العهد يتفق مع ما هو معروف من وصايا دأب الرسول (ﷺ) - ومن بعده الخلفاء - على تزويد أمراء الجند بها عند خروجهم للجهاد ، وتضمن طرفا من آداب الاسلام في الجهاد .

وفي هذا العهد نجد الخليفة أبا بكر يوصي أمراء الجند بتقوى الله في السر والعلن ، والجد في أمر الله وفي مجاهدة من تولى ورجع عن الاسلام ، وألا يحملوا الناس الا ما وجب عليهم ، في حدود ما أمر به الاسلام ، مع مراعاة تجنب كل من يستجيب لداعية الله . اما من لم يجب فينبغي أن يقاتل ويقتل دون رحمة أو هوادة . ويذكر أبو بكر أمراء الجيش بحكم الله عز وجل في الغنيمة ، وفقا لقوله تعالى « واعلموا انما غنمتم من شيء فان الله خمسة ولرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١١٩)

وفي جميع الحالات ينبغي على أمير الجيش أن يأخذ حذره من العدو ، ومن عساه يندس في جيشه من عيون العدو وجواسيسه ، وأن يمنع رجاله من الفساد ، وأن يعني بأمر جنده فلا يحملهم فوق طاقتهم ، ويرفق بهم في الصحبة والقول .

وفي ضوء هذه التوجيهات ، خرجت الجيوش الاسلامية الأحد عشر للقضاء على أفدح الأخطار التي واجهت الاسلام وولته في المهد . ولا شك في أن جيوش المسلمين كانت تمثل قلة عديدة اذا قورنت بجمع المرتدين ، بعد أن اتسعت حركتهم حتى استوعبت غالبية قبائل شبه الجزيرة العربية . ولكن المسلمين تسلموا بسلاح الايمان ، وهو سلاح قوي افترق اليه خصومهم ، واستمدوا الثقة من قوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (١٢٠) .

(١١٨) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٥١ - ٢٥٢ .

(١١٩) سورة الانتفال - ٤١

(١٢٠) سورة البقرة - ٢٤٩

ومن بين أمراء الجيوش الاسلامية الذين أبلوا بلاءا حسنا في تلك المعركة المصرية ، برز اسم خالد بن الوليد بوصفه الرجل الذي تحمل العبء الاكبر في احكام الفتنة (١٢١) . وكان الخليفة أبو بكر قد أمر خالدا « أن يبدأ بطيء » ولكن عديا بن حاتم الذي كان أبو بكر قد بعثه قبل خالد الى طيء استنطاع أن يؤثر عليهم ، مستخدما في ذلك أسلوبا يجمع بين الترغيب والتهديد . ذلك أنهم رفضوا الاستجابة له في أول الأمر ، وقالوا « لا نبيع أبا الفيلصل أبدا » وعندئذ أنذرهم عدي ، وقال لهم « لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم ، ولتكننهم بالفحل الاكبر ، فشأنكم به » . وعندئذ خافوا ورضخوا ، وطلبوا امهالهم حتى يستعدوا من عند طلبية رجالهم ، والا قتلهم . وكان أن أسرع عدي الى استقبال خالد - وهو في طريقه اليهم - وطلب منه امهالهم وعدم التسرع بالوثوب عليهم ، حتى تم الأمر وعادت طيء الى الاسلام . وعندما اتجه خالد يريد جديلة ، استمهله عدي بن حاتم مرة أخرى ، وأسرع اليهم يدعهم الى الاسلام فأجابوه ، وانضم الى جيش المسلمين منهم ألف راكب « فكان خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم » (١٢٢) .

وسرعان ما غدت طيء قوة للمسلمين في حريمهم ضد المرتدين ، وخاصة طلبية وأتباعه . ويقال أن خالدا عندما أقرب من طلبية بعث عكاشة بن محسن وثابت بن أقرم ، طلبية ، أي لاستطلاع أخبار العدو ، فقتلهم بها طلبية وقومه وقتلها . وكان أن جزع خالد ورجاله عندما مروا ورأوا ثابت بن أقرم قتلا ، وعكاشة بن محسن صريعا ، وقالوا « قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم » . ولما لس خالد ما حل بأصحابه من جزع ، حاول أن يخفف عنهم وبيعت الطمأنينة في نفوسهم ، فقال لهم « هل لكم الى أن أميل بكم الى حي من أحياء العرب كثير عددهم ، شديدة شوكتهم ، لم يرتد منهم عن الاسلام أحد ؟ » . فقال له رجاله « ومن هذا الحي تعني ؟ فنعم والله الحي هو » . قال لهم « طيء » فقالوا « وفقك الله . نعم الرأي رأيت » فانصرف بهم حتى نزل بالجيش في طيء .

ونخرج من هذه القصة بحقيقة هي أن بعض القبائل التي اعتبرها التاريخ مرتدة - مثل طيء - كانت في حقيقة الأمر ضحية مزيج من عدة أحاسيس وشاعر ، تفاعلت في نفوس أبنائها نتيجة عدم تغفل العقيدة الاسلامية ، في قلوبهم من ناحية ، واستمرار وقوعهم تحت تأثير أوضاع الجاهلية وأفكارها من ناحية ثانية ، وارتباطهم بروابط الأحلاف والمجاملة وحسن الجوار مع القبائل الأخرى من جهة ثالثة . هذا فضلا عما رآه في بعض أحكام الاسلام من تضيق على حريتهم وانقاص من سطوتهم وتحميلهم أعباء ، هم في غنى عن تحملها . ومثل هؤلاء كانوا في حاجة الى مزيد من الانقاع بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتعريف بأحكام الاسلام وأهدافه ، والتبصرة بمزايا الحياة الجديدة تحت مظلة الاسلام . وهذا ما كان يتعدى تحقيقه في بضعة سنين .

(١٢١) انظر ترجمته في كتاب ( أسد الغابة في معرفة الصحابة ) لابن الاثير ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٢ ، ترجمة رقم ١٣٩٩ ( طبعة كتاب الشعب بالقاهرة ) .

(١٢٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٤

ومها يكن من أمر ، فإن الهزيمة حلت بالمرتدين - فريقا بعد آخر - وذلك في مدى أشهر قليلة . أما طليحة فقد انكسر في موقعة بزاخة ، ففر إلى الشام مصطحبا امرأته ، وقال لاتباعه « من استطاع أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » . ولم يلبث أن خضع من كان قد انضم إليه من فزارة وعيينه وأسد وغطفان ، ومن ارتد من طيء ، وقالوا « تدخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا » (١٢٣) .

ويروي الطبري أن طليحة مضى حتى نزل كلب على النقع ، فأسلم . وكان اسلامه هناك حين بلغه أن أسدا وغطفان وعامرا قد أسلموا ، ثم خرج نحو مكة معتمرا في اماره أبي بكر ، ومر بجنابات المدينة ، فقيل لابي بكر « هذا طليحة » . فقال « ما اصنع به ا خلاؤه ، فقد هداه الله للاسلام » . ومضى طليحة نحو مكة فقتل عمرته . ولما مات أبو بكر واستخلف عمر ، أتى طليحة لبيعة عمر ، فقال له عمر « أنت قاتل عكاشة وثابت ! والله لا أحبك أبدا » . فقال « يا أمير المؤمنين ، ما ترى من رجلين أكرمهما الله بيدي ! ولم يهني بأيديها » . فبايعه عمر ، ثم قال له « يا خدع ، ما بقي من كهانتك ؟ » قال « نفخة أو نفختان بالكبر » . ثم رجع إلى دار قومه حتى خرج إلى العراق » (١٢٤) .

وبعد أن حلت الهزيمة بأهل بزاخة ، أقبلت بنو عامر يقولون « تدخل فيما خرجنا منه » . فبايعهم خالد بن الوليد على ما بايع عليه أهل البذاخة ، ولم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان ولا هوزان ولا سليم ولا طيء ، إلا أن يأتوه بالذين حرقوا وعدوا على أهل الاسلام في حلل ردتهم . وعندما أتوه بهم ، أمر خالد باحراقهم بالنيران ، ورضخهم بالحجارة ورمى بهم في الجبال ، ونكسهم في الآبار ... وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك ، فأرسل إليه خليفة رسول الله (ﷺ) يقول « جد في أمر الله قتله ونكلت به غيره » . فأقام خالد على البذاخة شهرا في طلب أولئك « فمنهم من أحرق ومنهم قعطه ورضخه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال » (١٢٥) .

وسرعان ما تجمعت فلال غطفان وهوزان وسليم وطيء وغيرهم من المنهزمين ، والتفوا في ظفر حول سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر ، التي « استكتشف أمرها وغلظ شأنها » . وأمرتهم بحرب خالد . ولكن خالد بن الوليد سار إليها ، وقاتلها بين معه من المسلمين قتالا شديدا حتى سقطت قتيلة ، ومن حولها مائة رجل من أتباعها . وأما سجاح بنت حارث التي تنبأت بعد موت الرسول (ﷺ) فقد خرجت في جماعة من قومها بني تغلب بالجزيرة ، واتجهت إلى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب قد قوي أمره ، فتزوج منها ، وصالحها على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة ، وطلب منها أن تنصرف ، فانصرفت إلى مقرها بالجزيرة . ويقال إنها ظلت هناك في بني تغلب حتى كان عام الجماعة ، فنقلهم معاوية من الجزيرة إلى الكوفة ، فجماعت معهم سجاح « وحسن اسلامها » (١٢٦) .

(١٢٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك - ج ٣ ص ٢٥٦ .

(١٢٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك - ج ٣ ص ٢٦١ .

(١٢٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك - ج ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(١٢٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك - ج ٣ ص ٢٧٥ .

وأما مسيلمة ، فقد وجه أبو بكر خالد بن الوليد اليه ، فأنزل به وبجاءته الهزيمة في يوم عقرباء ، وقتل مسيلمة . وقد أظهر خالد في ذلك اليوم من الشجاعة ما سجلته الأخبار ، فكان ينادي وسط المعركة « يا محمداه » . وكان لا يبرز له أحد من العدو الا قتله (١٢٧) وقبل انه قتل من بني حنيفة في عقرباء بضعة آلاف (١٢٨) .

وهكذا كانت المعركة بين خالد بن الوليد من ناحية ، والمرتين من ناحية أخرى عنيفة ضاربة ، أظهر فيها من الحزم والجندية ما خلد اسمه ، وجعل « له في قتالهم الامر العظيم » . ذلك أنه أدرك أن المعركة بالنسبة للاسلام والمسلمين هي معركة حياة أو موت ، فلم يتردد في موقف من المواقف ، ولم يستسلم للشكوك والظنون ، وإنما جعل من نفسه سيفا مسلولا ضد أعداء الاسلام والمخارجين عليه . على أن يبدو أن افراطه في الحزم وحرصه على حسم الموقف ، أوقعه أحيانا في بعض المخرج . من ذلك أنه قتل مالك بن نويرة في بني يربوع من تميم ، فقال بعضهم انه قتل مسلما لظن ظنه خالد به وكلام سمعه عنه . ومن هؤلاء كان أبو قتاده الذي أنكر على خالد ذلك ، وأقسم أنه لا يقاتل تحت رايته .

ويقال ان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنكر ذلك على خالد (١٢٩) ولكن علينا أن نقدر خطورة الموقف ، وظروف المعركة ، ونقل الامانة التي ألفت على كاهله ، وما كان مطالبا به من حسم للأمر في سرعة وحزم .

وفي ذلك الوقت كان أهل البحرين قد ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي ، وقالوا « لو كان محمد نبيا لم يمت » . ولكن الجارود بن المعلبي العبد نصيحه وأوضح لهم أن محمدا (ﷺ) مات مثله مات غيره من الأنبياء السابقين . فافتتح بكلامه عبد القيس ، من بني بكر ووائل أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم ، حتى بعث اليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي ، وأمره بقتال أهل الردة بالبحرين . ويقال ان المسلمين سمعوا ضجعة في معسكر المشركين ، فدرسوا فيهم من يتعرف خبرهم ، فأخبرهم أن القوم سكارى . وعندئذ « خرج المسلمون عليهم ، فوضعوا فيهم السيف كيف شاؤوا وهرب الكفار ، فمن بين متردد وناج ومقتول وأسور . واستولى المسلمون على المعسكر ، ولم يفلت رجل الا بما عليه » .

ومثال هذا يقال عن نجاح الجيوش التي أرسلها أبو بكر للقضاء على ردة أهل عمان ومهرة وحضرموت وكندة . أما اليمن فيبدو أن الأحوال لم تهدأ بها تماما ، وأن بعض القبائل بها قد ارتدت ثانية ، ومنهم قيس بن عبد يثوث المشكوك . ولكن فيروز تصدى للمرتدين ، كما قدم المهاجرين أمية في جمع من مكة والطائف ، فقبض على قيس وأرسله الى أبي بكر ، وانتهى الأمر باخضاع المرتدين باليمن (١٣٠) .



(١٢٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢١٣ .

(١٢٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢١٧ .

(١٢٩) ابن الاثير . أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٢ ترجمة خالد بن الوليد ( رقم ١٢٩٩ ) .

(١٣٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣٢٣ وما بعدها .

وهكذا تم للدولة الاسلامية في عهد أبي بكر التغلب على أكبر خطر هدها ، وهي بعد في المهد . ويجمع معظم الروايات على أن الفتوح في أهل الردة كانت كلها في سنة احدى عشرة ، الا أمر ربعة بن بجير - في الحيرة جنوب الفرات - فانه كان في سنة ثلاث عشرة (١٣١) .

وتظهر مهارة الخليفة أبي بكر - رضي الله عنه - في أنه حرص على ألا يعطي القبائل العربية فرصة للانفاس وتبديد طاقاتها في مشاكل داخلية تؤثر على مسيره الاسلام والدولة الاسلامية ، وانما اختار أن يواجه امكانات العرب المسلمين في شبه الجزيرة نحو حركة الفتوح - خارج شبه الجزيرة - بغية شق طريق لا يصال الدعوة الاسلامية الى اساع الشعوب المجاورة ، وتطعيم الحكومات التي شكلت حواجز أمام انتشار هذه الدعوة .

يروى الطبري أنه ما كاد خالد بن الوليد يفرغ من أمر اليمامة حتى كتب اليه أبو بكر الصديق - وهو لا يزال مقباً باليمامة - يقول له « سر الى العراق حتى تدخلها ، وأبدأ بفرج الهند - وهي الأبله - وتألف أهل فارس ، ومن كان في ملكهم من الأمم » . وسواء كان خالد بن الوليد قد مضى من اليمامة الى العراق مباشرة ، أو أنه اتجه الى المدينة ، ومنها سار الى العراق حتى انتهى الى الحيرة حسب اختلاف الروايات (١٣٢) فالذي يعنيننا من هذا الأمر أن ذلك حدث سنة اثنتي عشرة للهجرة ، أي عندما تم احماذ جذوة حركة الردة ، بل ربما قبل أن تحمد تماماً آخر بقايا تلك الجذوة في بعض أطراف محدودة من شبه الجزيرة .

وبذلك فتح أبو بكر أمام المسلمين في شبه الجزيرة العربية الباب على مصراعيه لحركة جديدة ، هي حركة الفتوح العربية الاسلامية ، التي أقبلت على الاسهام فيها شتى القبائل العربية - مع ما بينها من بقايا عداوات وتارات قديمة - وانطلقت ضد الفرس من ناحية ، وضد الروم من ناحية أخرى . وقد قدر لحركة الفتوح العربية الاسلامية ان تستمر في عنفها ونشاطها أكثر من قرن من الزمان ، بحيث لم تكن تهدأ وتفتت ، الا وكان الاسلام قد تأصل فعلا في قلوب عرب شبه الجزيرة ، وارتقى معظمهم من مرتبة الاسلام الى مرتبة الايمان .

ومع اتساع الدولة الاسلامية من بحر الظلمات - أو المحيط الأطلسي - غرباً الى بلاد الهند وحدود الصين شرقاً ، شغل العرب بالاسهام في بناء حضارة جديدة ضخمة ، قدر لها أن تصبح أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى ، وهي الحضارة العربية الاسلامية ، وكما يتضح من الاسم المدون لهذه الحضارة ، فانها استمدت عظمتها من العنصر العربي من ناحية ، ومن مبادئ الاسلام ومثله وروحه من ناحية أخرى . وحسب العرب في عهدهم الجديد ، أنهم أحسوا بكونهم بناة الدولة وهماها ، ودعاة الاسلام وحاملو رسالته والمبشرون بعقيدته في مختلف أرجاء الأرض .

(١٣١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣١٤ .

(١٣٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٣ .

-١-

يرتبط تدوين السيرة النبوية بوعي العرب بمفهوم التاريخ من ناحية ، كما يرتبط بوعيهم بحركة التدوين والتأليف من ناحية أخرى .

ومن المعروف أن ابن اسحق هو أول من دون سيرة الرسول عليه السلام ، وكان كما قيل ، من أكثر معاصريه جميعا حفظا لأخبار رسول الله حديث مغايزه .

هو محمد بن اسحق بن يسار بن خيار . وكان جده يسار بن خيار مولى لقيس بن مخزومة بن المطلب ابن عبد مناف، وكان هذا الجده من أصل فارسي، وأسر في العام الثاني عشر من الهجرة في قرية فريية من الأنبار غرب الكوفة . وذلك عندما غزاها خالد ابن الوليد وأخذ منها أسرى وسبأيا . وهناك في المدينة صار ولداً يسار الى قيس بن مخزومة وولد له هناك اسحق ومن بعده محمد بن اسحق كاتب السيرة<sup>(١)</sup> .

وقد ولد محمد بن اسحق في عام ٨٥ هـ على الأرجح ، ونسب في المدينة وأخذ يحصل العلم والثقافة على نحو ما كان يفعل علماء عصره ، وكان القرآن الكريم قد دون منذ زمن مبكر على نحو علمي بحيث لم تترك في تدوينه ثغرة للتدخل فيه . وبهذا اطمأن الجيل الأول من المسلمين الى انهم قد انجزوا الخطوة الأساسية الأولى في ارساء دعائم الاسلام بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على تابعيه بعد ذلك ان يواصلوا حركة التدوين والتأليف .

## السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي

نبيلة ابراهيم سالم

استاذة الادب العربي

كلية الآداب/جامعة القاهرة

(١) سيرة ابن هشام ( تحقيق محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة )

للقدمة : ج ١ ص ٢٤ .

ولا بد أن الجبل الذي عاصره محمد بن اسحق في المدينة كان يحفظ ما كان يحفظه الجبل الأول من الصحابة والتابعين ، ولا بد أن هذا الجبل كان يستوعب بدرجات متفاوتة تراثا ضخما ، جاهليا وإسلاميا ، شعرا ونثرا . وقد كان الاستيعاب مصدره الرواية كما كان ذلك القدر الضئيل من التدوين .

وكان قد انقضى العصر الأول والمسلمون لا يكتبون شيئا باستثناء ما كتبه عبد الله بن عمرو بن العاص فيما يقال . فقد روى البخاري عن ابي هريرة « ما من أحد من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اكر حديثا عنه مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا اكتب »<sup>(٢)</sup> . ومن المعروف ان النبي عليه السلام نهى عن كتابة شيء غير القرآن ، ولكن الرغبة في التدوين مالبثت ان ألححت على نفوس أجيال المائة الثانية من الهجرة او قبل ذلك بغليل عند ما هم الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث فكتب الى واليه في المدينة يقول « انظر ما كان من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولتقشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا » .<sup>(٣)</sup>

عند ذاك بدأت حركة التدوين بتدوين الحديث في شكل أبواب ، كل باب يجمع الاحاديث الخاصة به فباب في الوضوء ، وباب في الصلاة ، وباب في الزكاة ، وهكذا ، وكان من بين هذه الأبواب باب في أخبار رسول الله عن ولادته ورضاعته وبعثته وغزواته وجهاده ، وقد سمي هذا الباب ، باب المغازي والسير ، وقد توسع في هذا الباب الاخير فأصبح يضم أخبارا عن العصر الجاهلي مثل أخبار جرهم ودفن زمر وغير ذلك من الاخبار . وقد عنى بهذا الموضوع جماعة من الصحابة والمحدثين عاشوا في القرن الأول وحقبة من القرن الثاني ، ولم ينقطع التأليف في هذا الموضوع بعد ذلك .

ولولا حفظ الخلف عن السلف هذه الروايات والأخبار لما وصلت الى المؤرخين الكبار مثل الطبري والبلاذري وابن سعد والواقدي .

على ان السيرة التي وصلتنا كاملة ، وهي سيرة محمد بن اسحق ، وصلتنا عن طريق ابي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري الذي توفي على الأرجح في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري . وكان محمد بن أبي اسحق قد استقر في العراق بعد طواف بين الاسكندرية والري والكوفة والجزيرة والحيرة ، وفي العراق اتاحت له فرصة الاتصال بالخليفة ابي جعفر المنصور الذي أمره أن يؤلف في أخبار العرب . وفي ذلك يقول الخطيب البغدادي « دخل محمد بن اسحق على المنصور وبين يديه ابنه المهدي فقال له : اتعرف هذا يا ابن اسحق ؟ قال : نعم هذا ابن امير المؤمنين قال : اذهب فصنّف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى

(٢) السيرة ج ١ ص ١٢

(٣) السيرة ج ١ ص ١٤



يؤكد هذا . فذهب فصف هذا الكتاب فقال : لقد طولته يا ابن اسحق اذهب فاختصره . فذهب فاختصره فهو هذا - الكتاب المختصر ، وألقى الكتاب الكبير في خزنة أمير المؤمنين ( ٤ ) .

ويسير هذا النص الى ان ابا جعفر المنصور عند ما امر محمد بن اسحق ان يؤلف لابنه كتابا في التاريخ لم يطلب منه صراحة ان يؤلف كتابا في السيرة النبوية ، بل حال له « اذهب فصف له ( اي للمهدي ) كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا » ( ومعنى هذا انه طلب منه ان يؤلف كتابا في التاريخ وهو يعني بطبيعة الحال كتابا في تاريخ العرب . ومن الطبيعي أن يكون جوهر الكتاب هو الرسالة المحمدية التي فصلت بين عصرين ، عصر الجاهلية وعصر الاسلام . وبهذا من هذا الخبر انه يمثل لأول مرة مطالبا علميا لم يفكر فيه أحد من خلفاء المسلمين من قبل . اذ كان العرب ابتداء من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي يعتمدون على الرواية في نقل الأخبار التاريخية وكانت الأخبار التاريخية في العصر الجاهلي تختص بأنساب العرب وأيامهم ، ومثل هذه الأخبار لا تغل تاريخ أمة ، فضلا عن انها ليست تاريخا كاملا ، ولا يكون التاريخ متكاملًا وقابلًا للتدوين الا عندما تهي الأمة ذاتها ، وتعي ماضيها ومستقبلها .

ولم يكن الماضي بالنسبة للعربي الجاهلي قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة ، بل كان مجرد تذكر مواقف بطولية عاشتها قبيلته . وهو يتذكرها اما من قبيل الفخر والزهو بحروبها ضد القبائل المعادية الأخرى أو بقصد استشارة الحكم للدخول في حرب جديدة معها . واما المستقبل فقد كان غائبا بالنسبة له ، وغيب هذا المستقبل كان مرتبطا بغيب النظام السياسي المتكامل الذي يجمع شمل العرب تحت تأثيره كما كان مرتبطا بغيب مفهوم متكامل لدين يقدم له مفهوما واضحا لعلاقته بالزمان والمكان ولغاثة الحياة .

لقد كان الانسان الجاهلي يعيش في زمن هو الزمن الحسي المرتبط بفترة بقاءه في الحياة . وهذه الفترة كانت معروفة البداية والنهاية ، فبدايتها الميلاد ونهايتها الوفاة والعدم ، ويتعبّر آخر فان الانسان قدر له أن يوجد في المكان لكي يلاّ فلا يظل فراغا ، ولكن هذا الوجود . في حد ذاته لم يكشف عن هدف محدد او عن غاية ترفع الانسان - بوجوده . ولهذا فقد أفاض الشعراء الجاهليون في تعبيرهم عن هذا الاحساس ، وليست المقدمة الطللية التي تغني بها الشعراء في مطالع قصائدهم سوى تعبير خصب عن تلك النهاية المحتمة وهي الغناء الأبدى ، بل ان الشاعر الجاهلي كان يرى شبح الموت أمامه وهو في غمرة النشوة والاستمتاع بالحياة . يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

وكاس	قد	شربت	ببعلبك	وأخرى	قد	شربت	بقاصرينا
وانسا	سوف	تذكركنا	المنابا	مقدرة	لنا	سا	ومقدرينا

وإذا كانت نهاية الحياة تتحد ، بهذا الزمن القصير فإن وجود الانسان في الارض عبث وضرب من الاعداد . ولا يمكن للانسان وهو يعكس هذا الطلق وهذه الحيرة ان يجد فرصة للتأمل في خلق الكون ووضع الانسان في هذا الكون وعلاقته بالزمن السرمدي . ذلك ان مشكلته كانت تنحصر في هذا الاحساس المفرغ بالزمن الحسي ، أما الزمن الكوني الأبدى فلم يكن سوى تأكيد لمأساة الانسان في الارض . حما ان هناك شعر فاه بعض الشعراء قبل البعثة المحمدية ينسب الى اي حد كان الجاهلي يتوق الى حل يريح ذاته اللغلة ومن ذلك قول الشاعر :

الأ نبي لنا منا فيخيرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا<sup>(٥)</sup>

حقاً إن هناك من الأساطير الجاهلية ما يعبر صراحة عن نزوع الانسان الجاهلي الى تغيير معتقداته التي بدأ تستكك فيها . ومن ذلك ما روى من أن قبيلة مراد كانت تعبد نسراً . وكان هذا النسر يأتيها في كل عام فيفزعون بن فتيانهم ، فابتعن أصابنها الفرعة تدمم للنسر فيحجل نحوها ويأكلها ثم يؤتى له بخمر فيشرب ويستى ثم يخبرهم بما يحدث في عامهم المقبل ويظهر .

ثم حدث أن جاءهم النسر كعادته . فافزعوا بن فتيانهم وأصابن الفرعة إحدى الفتيات ، وكان يعزها ابوها كثيراً فحزن كل الحزن ، فلما رأى الرجال مراد ما هو عليه من حزن قالوا له :

ماذا لو قدينا ابنتك بابنة الهمدان ؟ وكانت هذه الابنة الهمدانية ابنة لرجل مرادي وامرأة من قبيلة همدان ، ثم توفي أبوها وبقيت الأم في قبيلة مراد . ففر رأى مراد على ذلك ، ولما علمت الأم وابنتها بهذا الامر ساءت حال الأم وأخذت البنت تكي ، وصادف هذا قدوم خال الابنة لزيارة اخته ، فلما رأى ماها عليه من حزن سألها عما بها ولكن الأم رفضت أن تبوح له بشيء . اما الابنة فأنها دخلت خباء وأخذت تقول الشعر بصوت عال لتسمع خالها وعرف الخال القصة فقال لاخته : اذا جاءوك فادفعي اليهم ابنتك وانا اتدبر الامر بعد ذلك ، فلما جاءوها دفعت اليهم ابنتها فدفعوا بها في خباء النسر . فلما رآها النسر حجل نحوها . ولكن الخال كان يخفي داخل الخباء فرمى النسر بسهم اصابه واراده قتيلاً ، وأخذ أخته وابنتها وولى هارباً ، فلما أدركت قبيلة مراد ان الحيلة قد تمت عليها غدت السير وراءهم ولكنها لم تدركهم . فكان هذا سبباً في استعجال نار العداوة بين مراد وهمدان الى ان جاء الاسلام فحجر بينهما<sup>(٦)</sup> .

فنحن هنا بازاء اسطورة متأخرة ، ذلك انه لا بد ان تكون هناك اساطير سبقتها تحكي عن عبادة إله النسر وغيره من الآلهة . أما هذه الاسطورة فقد قضت على الآلهة ، اي ان الآلهة قد مات ولم يكن السبب في موته سوى الانسان . ومعنى هذا ان الانسان الجاهلي قد وصل الى مرحلة النسك في عباداته القديمة ، وانه اخذته الجرأة لأن

(٥) د عنت الشراوي : أدب التاريخ عند العرب اسطر قصلي مغزى التاريخ والتفسير القرآني للتاريخ

(٦) السيرطي - المظهر الجاهلي - ص ١٦٤

يعترض عليها وبلغنيها . فإذا ربطنا هذا الفعل بمهمة الاله النسر كما افصحنا عنها الاسطورة من أنه كان يعطي في مقابل أن يأخذ ، وأن ما كان يعطيه هو الكشف عن أحداث المستقبل للقبيلة فإن دلالة هذا أن - القبيلة لم تكن تتعب نفسها في معرفة ما سيحدث من أحداث ، وبتعبير آخر أن الانسان لم يكن يحس بمسؤوليته في صنع تاريخه ، فلما قضى الاله نعبه ولم يعد هناك من يخبر القبيلة بأحداث المستقبل كان على القبيلة أن تقوم بهذه المهمة بنفسها .

كل هذه الاخبار والروايات تؤكد أن العقلية العربية كانت في طريقها الى التحول ، كما أنها تؤكد أنهم كانوا ما زالون يعيشون مرحلة عدم وضوح الرؤية بالنسبة لوعيهم بوجودهم .

## - ٢ -

ثم جاء الاسلام ليغير هذا المفهوم من رؤية غامضة الى رؤية واضحة . فالزمن ذو البعد الواحد أصبح ذا بعدين ، زمن حسي وزمن كوني ، ولا يمكن فصل الزمن النسبي الذي يرتبط بحياة الانسان في الارض عن الزمن السرمدي او الكوني الذي يرتبط بالبعث . وحيث أن الانسان هو الذي سيبت ليحاسب ، فهو يهيم اذن علاقته بالزمن الكوني أي بتلك اللحظة الحاسمة التي يدعي فيها ليحاسب على فعله في الدنيا .

وهذا هو أول تغيير أدخله الاسلام على مفهوم العربي لوجوده في الحياة . وهو مفهوم كفيل بأن يزيل الاحساس بالقلق حيث انه لم يوجد فيها الا ليموت . ثم أكد الاسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسئولية الانسان في الارض ، فهو لم يخلق الا من أجل السعي وراء حياة أفضل ، ولا يتحقق هذا الا من خلال أعمال عمله في اختيار العمل الصالح وتبذ العمل الطالح ، وبهذا يكون الانسان مسئولاً عن النتائج بفدر ما سيكون مسئولاً عن المدمات ، كما انه سيحاسب عن أن ما يفعله يكون وسيلة لبناء وليس معولا لهدم . ذلك ان الحياة بوصفها نظاما كلياً لا يمكن ان تستقيم الا اذا رجحت كفة الخير على الشر . فاذا حدث عكس هذا واستترى الشريرين قوم ، أبأدهم الله وأحل محلهم قوما آخرين ، كما حدث لعاد ونمود وغيرهم .

وهكذا يرتبط أول الحياة بأخرها ، وهكذا يرتبط فعل الانسان في الأرض بمعيار ثابت من القيمة ، وهكذا يرتبط الانسان بالله . وكل هذه المفاهيم جعلت الانسان العربي يعيد تقييمه لموقفه من الحياة ، فبدلاً من المفهوم القديم : أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، أصبح الدين الجديد يحث على أن ينصره مظلوماً ولا ينصره ظالماً . وقد ترتب على هذا أن أصبح هناك نظام شامل للمجتمع بأسره ، وهذا النظام يخضع لمعيار الحق والخير الجماعي . وحاضر هذا النظام يعد حصيلة الماضي ، كما أنه يرسم شكل المستقبل . ومعنى هذا أن الحياة سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بالماضي وتستمر الى المستقبل ، وهذا هو جوهر التاريخ .

وربما احتوت قصة آدم في القرآن الكريم خروجه من الجنة ونزوله الى العالم الأرضي كل هذه المفاهيم

الانسانية . فالقصة لم ترد على نحو ما وردت في التوراة على الرغم من تشابه المصنئين في خطوطها العريضة ، كما أن دلالتها تختلف كلية عن دلالة الفضة التوراتية . فقد قال تعالى في كتابه الكريم قبل أن يخلق آدم : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون . » ( البقرة ٢٩ ) فهذا نص صريح على أن آدم خلق لكي يكون مكانه في الأرض وليس في السماء . ولم تكن إذن أحداث اللجنة سوى برهان على أن آدم لم يخلق على نحو ما خلقت الملائكة ميراثا من العيب ، بل هو معرض للغواية وعليه وحده أن يفصل بين الخير والشر . وبناء على ذلك فإن قصة آدم في القرآن لم تهدف الى اثبات خطيئة آدم كما أقرتها التوراة والانجيل ، بل ان ما فعله آدم يشير الى طبيعة الآدمي ساكن الأرض .

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق في صناعة آدم على هذا النحو وذلك في قوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » قالوا سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » . وليست اسماء المسميات مجرد اسماء ولكنه الادراك الذي يميز بين الشيء وغيره . بل لنقل أنه العلاقة بين الانسان والموضوع . وهنا تتمثل جوهر طبيعة الانسان - وجوه قيمة وجوده في الأرض . ويتحدد هذا الجوهر بان الانسان فكر يتحرك في كل ما حوله ، وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل الى الخارج ، ومرة أخرى من الخارج الى الداخل .

ثم يقول سبحانه وتعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » ( البقرة ٣٦ ) . وهكذا تنتهي قصة آدم بالتصالح بينه وبين ربه على أساس تحمله لتبعاته وادراكه لمسئولياته ، ثم تحسم القضية بقوله تعالى « انا عرضنا الامانة على السموات والأرض فأبين ان يحملها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » . حقا انها مسئوليات جسام تلك التي يحملها الانسان على عاتقه في الارض ، اليس هو المسئول الأول عن صنع حياته بل حياة الجماعة التي يعيش بينها ؟ واذا كانت حياة هذه الجماعة ليست سوى حلقة من حلقات التاريخ البشري أفلا يكون الانسان مسئولاً عن صنع تاريخ البشرية بأسره ؟ .

كل هذه المفهومات أصبحت واضحة في عقل المسلم ، بل انه وسعها وصاغها على شكل مسائل فلسفية او كلامية خاض فيها علماء الكلام والمعتزلة بعد قيام الدولة العباسية . وبعد ان انتقل الجوالادبي والفلسفي كلية الى البصرة ثم بغداد .

وليس غريبا إذن ان يكون مطلب كتابة التاريخ من خليفة عباسي هو أبو جعفر المنصور . وليس غريبا أن يطلب الخليفة المنصور من محمد بن اسحق أن يكتب هذا التاريخ لابنه المهدي . فالخليفة كان يفكر في مسئوليته بقدرا كان يفكر في مسئولية ابنه الذي سيرث الخلافة من بعده . وهذا الابن ، من جهة نظر الأب ، في أشد الحاجة الى العلم بأحداث الماضي للاعتبار بها في صنع الحاضر والمستقبل . وقد سبق أن ذكرنا أن الخليفة لم

يطلب من ابن اسحق أن يكتب السيرة النبوية ، بل طلب منه أن يكتب له في التاريخ ، منذ خلق الله آدم الى اليوم الذي يعيشه ابن اسحق . وهذا يكفي لأن تمثل مقصد أبي جعفر المنصور في أن يكون بين يدي ابنه كتاب يجمع بين ماضي الأمة العربية وحاضرها . وفي بؤرة هذا الماضي والحاضر تقع الدعوة المصحفية بطبيعة الحال ، كما تقع أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وحكمه وتعليقاته ، فمن أجل هذه الدعوة تمت الفتوحات ، ومن أجلها كبرت مسئولية الدولة الاسلامية وكبرت مسئولية الخليفة .

### — ٣ —

على ان الرواية التي دونها ابن اسحق نقلا عن البكائي لا تحتوى على المادة التي طلبها المنصور من ابن اسحق . وإذا كان المنصور قد طلب من ابن اسحق أن يختصر تاريخه كما يقال فلا يعتقد انه اختصر هذا التاريخ الى حد ان قصره على السيرة النبوية . ولهذا فنحن نفترض ان ما حفظ عن ابن اسحق وعلى رأسهم البكائي كان يقتصر على السيرة النبوية وهي التي دونها ابن هشام . فابن هشام لم يؤلف كتابا في تاريخ العرب وإنما ألف كتابا في السيرة النبوية . وإذا كان الجزء الاول من الكتاب الذي يحكي اخبارا قبل ولادة الرسول عليه السلام وبعدها الى ان نزل عليه الوحي ، يرتبط بتاريخ العرب قبل الاسلام ، فان ابن هشام وظف هذا الجزء توظيفا جيدا لخدمة السيرة النبوية . والغرض من هذا هو ابراز المثل الأعلى مثلا في شخصية الرسول عليه السلام . فنحن في عصر شعر الشعب العربي فيه انه في أشد الحاجة الى تمجيد البطولة العربية وتأكيدها . وربما كانت السيرة النبوية بداية تمجيد البطولات العربية في ضوء المثل الاسلامية ففترة الشاعر المحارب في العصر الجاهلي زحزحته سيرة عنتره زمانيا ومكانيا ، فجعلت بطولته تتجاوز الجزيرة العربية ، كما جعلت رسالته انسانية ، فقد كان على عنتره ان ينشر الحق والعدل من خلال دفاعه عن قضية الانسانية جمعا . وحيث ان جوهر الاسلام هو الحق والعدل . فان عنتره اذ فعل هذا كان يهد الفكر العربي لقبول الدعوة الاسلامية .

وربما بدأت في هذا العصر كذلك سيرة الاميرة ذات الهمة ومحمد البطال . فالسيرة تحكي عن الصراع بين العرب والروم ، ولم تكن الحرب بين دولتين بل كانت بين دينين الى حد ان عددا المؤرخون بداية الحروب الصليبية ، كما زحزحت سيرة عنتره بظلمها من فكرة عصره الفوضوي الى فكر انساني منظم ، كذلك زحزحت سيرة الاميرة ابطلها من مكانهم في قلب الجزيرة العربية وجعلتهم يقيمون في مناطق الثغور حيث تدور رحى الحرب بين العرب والروم او لنقل بين الاسلام واعدائه ، وكل هذه الماذج البطولية تكشف عن رغبة جمعية في تأكيد البطولة الاسلامية التي يقف على قممها الرسول عليه السلام .

ونعود الى سيرة ابن هشام فنجد انه يرتب الاحداث بحيث يلتحم بعضها مع بعض في تكوين ملحمة . فهو يبدأها برفع نسب الرسول عليه السلام في ايجاز بالغ الى اسماعيل ثم ابراهيم ثم آدم ، ثم يستطرد بعد ذلك من ذكر الاخبار التي تكشف عن حركة الحياة الفكرية في الجزيرة العربية قبل ولادة الرسول عليه السلام بزين ثم بعد ولادته الى ان نزل عليه الوحي .

وتنوع الحوادث التي تأتي بها السيرة في سبيل الكشف عن هذه الحركة الفكرية الى ثلاثة أنماط من الأخبار، وهي تسهم جميعا في إجلال روح الحياة السائدة في عصر ما قبل الاسلام، فهناك الاخبار التي تتحدث عن بعض جوانب الحياة القبلية وتلتقط السيرة من هذه الاخبار ما يمكن ان يدخل في نسج السيرة النبوية، اي تلك التي تكشف الستار عن طبيعه الدين الذي كان يدين به العرب، أو لتقل مجموعه المعتقدات التي تكيف حياه العربي .

وهناك الأخبار التي تكشف الفئاع عن الأديان السابوة التي سبقت الاسلام، وكانت هذه البقايا تعيش منزوة عن الجو الدني العام . فاذا ماكشف حوربت، وهناك اخيرا الاخبار التي تشير الى مجموعة النبوءات المبشرة بظهور الدعوة المحمدية .

فمن الأخبار الأولى تحكي عن الصراع بين عبد مناف وعبد الدار على مكانهم بالنسبة للكمة « ففقد كل يوم على أمرهم خلفا مؤكدا على ان لا يخذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا .. فخرج ابو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا، فيزعمون ان بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمسن القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفائهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين » (٧)

فمثل هذا الخبر يكشف عن شكل من اسكال الصراع القبلي حول الزعامة وهو يكشف في الوقت نفسه عن معتقد سحري يندرج تحت ما يسمى بسحر المساركة . فاذا اجتمعت ايدى القبائل في جفنة واحدة مملوءة بالطيب، فهذا الفعل يتعل بتأثير السحر الى شعورهم بالالتزام بوجدتهم، كما أن غمس الأيدي في الطيب معناه ان ما يفعلونه ستفوح رائحته مثل الطيب . وكذلك يسر فعل مسح الأيدي المتطية الى هذا الشعور الطيب المشارك بينهم وبين الرمز المقدس .

ومن هذه الاخبار خبر حفر بئر زمزم . فقد جاء الهاتف الى عبد المطلب جد الرسول عليه السلام بأمره بحفر بئر سميت في الليلة الاولى طيبة وسميت في الليلة الثانية برة حتى اذا كانت الليلة الثالثة أمره الهاتف بحفر زمزم فلما سأله عبد المطلب، وما زمزم ؟ قال له الهاتف « لاترتف ابدًا ولا تندم » تسمي الحجيج الاعظم وهي بين الفرت والدم، عند ثرة الغراب الأعصم عند بيرة النمل » (٨) .

فلما تجددت البئر على هذا النحو شرع عبد المطلب في حفرها ولكن فريشا طلبت منه أن تشاركه في هذا الحفر فقال : « ما انا بفاعل ، ان هذا الامر قد خصصت به دونكم ، - واعطيته من بينكم فقالوا له « فانصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها » قال « فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم اليه قالوا : كاهنة بني سعد هذيم قال : نعم فسار جمع عبد المطلب وجماعه قريش حتى اذا كانوا منتصف الطريق نفذ الماء من جماعة عبد

(٧) السيرة ج ١ ص ١٤٣

(٨) السيرة ج ١ ص ١٤٤

المطلب فطلبوا السقيا من جماعة فريش فأبوا أن يدهم بالماء ، وكاد قوم عبد المطلب يهلكون من العطش واستقر رأيهم على أن يظلوا في مكانهم حتى يدفن بعضهم بعضا ولكن عبد المطلب فرأيه بعد ذلك على ألا يستسلموا لمصرهم ، وإن يواصلوا السير ، وما كاد عبد المطلب تمتطي صهوة جواده وأثار الجواد الغبار من تحت رجله ، انبجست عين من الماء تحت حوافره . عند ذلك قال قريش « والله لقد قضى لك علينا يا عبد المطلب . والله لانخاصمك في زمزم أبدا . إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم » فارجع الى سقايتك راشدا . فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا الى الكاهنة وخلوا بينها وبينه »<sup>(٩)</sup> .

ويفبد هذا الخبر السيرة من نواحي عدة أولا - أن هذا الحدث تم مع جد الرسول عليه السلام ، وفي هذا تأكيد لأصالة سلالة النبي عليه السلام . ثانيا - أنه يمثل بداية المعجزات التي تمت مع جده ومع أبيه من بعده كما سنرى . ثالثا : أنه يشير الى الروح القليلة المتمثلة في صراعاتها على الزعامة ومتمثلة في معتقداتها ، ذلك أن الحسم في هذا الموضوع كان سيتم على يد كاهنة بني سعد . وما كانت ستفوله هذه الكاهنة كان سيكون ملزما للطرفين لولا أن المعجزة تمت فحسمت الأمر .

وإذا كان الحدث السابق يتركز حول عبد المطلب جد الرسول عليه السلام فإن الحدث التالي يتركز حول والده عبد الله « وكان عبد المطلب بن هاشم فيما يزعمون » والله اعلم « قد نذر حين لقي من قريش مألقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثم يبلغوا معه حتى يمتنوا لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . فلما توافى بنوه عشرة وعرف انهم سيمتونهو جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم الى الوفاء لله بذلك فاطاعوه وقالوا : كيف نصنع قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ويكتب عليه اسمه ثم اتوني ، ففعلوا ثم اتوا فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة . فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره الذي نذر . فقاطعه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه وكان عبد الله اصغر بنيهم .. كان فيما يزعمون ، احب ولد عبد المطلب اليه ، وكان عبد المطلب يرى ان السهم اذا اخطأ فقد - اشوى » ( أى قد ابقى ) ولكن القدح خرج على عبد الله ، فهم عبد المطلب بذبحه . ولكن قريشا وبنوه اعترضوه ونصحوه ان يرحل الى عرافة في الحجاز لها تابع فيسألها عما هو فاعل فرحل اليها وقالت له : ارجعوا حتى يأتيني تايبي فأسأله . فرجعوا من عندها . فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غذا عليها فقالت لهم : قد جاءني الخبر . كم الدية فيكم قالوا : عشرة من الابل . وكانت كذلك قالت : فارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ثم اضربوا عليها القداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضي ربكم وينجي صاحبكم.<sup>(١٠)</sup> فعاد الجميع الى مكة ثم ضربوا القداح فخرجت على عبد الله فاخذوا يزيدون في الابل وكانت في كل مرة تصيب عبد الله حتى بلغت الابل مائة . وبعدها

(٩) السيرة ج ١ ص ١٥٩

(١٠) السيرة ج ١ ص ١٦٤

ضربوا القداح - فخرجت على الابل . فاعادوا ضرب القداح فخرجت على الابل . فهلل الجميع وقالوا لعبد المطلب : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب . ثم فرت الابل تضحية لئلا .  
فهذا الخبر يؤكد مثل سابقه على معتقدات العرب قبل الاسلام وهي تلك المعتقدات التي الفاها الاسلام من بعد ، كما أنها تؤكد المعجزة التي تمت مع والد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونتنى الى مجموعة هذه الاخبار الأولى أخبار أخرى لاصلة لها بالسيرة النبوية ، ولكنها تأتي لتؤكد ما كان عليه العرب الجاهليون من عبادة الأوثان . فمن ذلك ما روت السيرة من أنه كان لبني ولجكان بن كناية بن خزيمه ابن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد ، صخرة بفلاة من ارضهم الطويلة . فاقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة ليقيها عليه الناس بركته ، فبا يزعم . فلما رآه الابل وكانت مرعية لارتكب . وكان يراق عليها الدماء ، نفرت منه فذهبت في كل وجه وغضب ربه الملكاني فأخذ حجراً فرماه به ثم قال : لا يبارك الله فيك ، نفرت علي إبلي . ثم خرج في طلبها حتى جمعها فلما اجتمعت له قال :

اتيننا الى سعد ليجمع شملنا  
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد  
وهل سعد الا صخرة بنتوفة  
من الارض لا يدعو لفسى ولا رشد (١١)

كما تروي السيرة على سبيل تحليل وجود بعض الاصنام في مكان محدد : وكان اساف ونائلة رجلا وامراً من جرهم فوقع أساف على نائلة في الكعبة فمسخها الله حجراً (١٢) وعلى الرغم من هذا الفعل الآثم الذي ارتكبه اساف ونائلة ، وعلى الرغم من مسخ الله لها كما تروي الاسطورة ، فقد أصبح أساف ونائلة صنمين يعبدان عند وزعم وتنحرفها الذبايح .

اما النوع الثاني من الاخبار فهي تلك التي تختص بهؤلاء الذين يدينون بالدين المسيحي السليم الذي يدعو الى عبادة الاله الواحد . فاذا ظهر احد هؤلاء ودعا الناس الى دينه حورب وتظل حكايتة تروىها الأجيال ، وقد ظهر اثر ذلك في مطلع الاسلام معجزة تؤكد ما حدث ، ومثال هذا حكاية عبد الله بن التامر التي ترويها السيرة في جزئها الأول . وكان عبد الله بن التامر اذا دخل خزان لم يلق أحداً به الا قال « يا عبد الله أتوحد الله وتدخل في ديني وادعو الى فيما فيك مما انت فيه من البلاء ؟ فيقول نعم فيوحد الله ويسلم ويدعو له فيشفي حتى لم يبق بنجران احد في ضر الا انا فاتبته على امره ودعا الله فعوفي حتى رفع شأنه الى ملك بنجران فدعاه وقال : افسدت على اهل قريتي وخالفت ديني ودين اباي ، لأمتلن بك فقال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به الى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع الى الارض ليس به بأس وجعل يبعث به الى مياه بنجران بحورلا يقع فيها شيء الا هلك فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر : انك والله لن تقدر على قتلي حتى توحد الله بما امنت به فانك ان فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني قال : فوحد الله تعالى ذلك الملك وشهد عبد

(١١) السيرة ج ١ ص ٨٩

(١٢) السيرة ج ١ ص ٧٦



الله بن التامر ثم ضربه بعضا في يده فشنجه شجرة غير كبيرة فقتله ثم هلك الملك مكانه . واستجمع اهل نجران على دين عبد الله بن التامر . ثم ان « رجلا من اهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجدوا عبد الله بن التامر تحت دفن منها قاعدا واضعا يده على ضربة في رأسه ممسكا عليها بيده ، فاذا اخرت يده عنها تنبعت دما واذا ارسلت يده ردها عليها فاسكتت دما . وفي يده خاتم مكتوب فيه « ربي الله » فكتب فيه الى عمر بن الخطاب يخبر بامر فكتب اليهم عمر رضي الله عنه ان اقره على حاله وردوا عليه الدفن الذي كان عليه ففعلوا<sup>(١٣)</sup> . ثم تأتي الى النوع الثالث من الاختيار التي يحتوي الجزء الاول من السيرة والذي يمهّد لولادة الرسول عليه السلام ، وهذا النوع خاص بالامارات المبشرة بظهور نبي من بين العرب فمن ذلك ما تحكيه السيرة عن رؤيا ربيعة بن نضر ملك اليمن فقد رأى ربيعة رؤيا ازعجته فنصحه اتباعه ان يرسل في طلب شق وسطيح الكاهنين ليفسرها له فحضر سطيح اولاً واخير ربيعة بالرؤيا قبل ان يخبره هو بها وقال « رأيت حمة خرجت من ظلمة فوقعت بارض نهمة فأكلت منها كل ذات ججمة » وكانت هي الرؤيا بعينها التي رآها ربيعة ثم اخذ سطيح بعد ذلك في تفسيرها له فقال له : ان الاحباش سيفزون اليمن بعد بضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هارين فسأله ربيعة : ومن يلي ذلك من قتلهم واخراجهم قال : يليه ارم بن ذي يزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك احدا منهم باليمن قال : افيدوم ذلك من سلطان ام ينقطع ؟ قال : بل ينقطع قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي . قال : ومن هذا النبي ؟ قال : زجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه الى اخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الاولون والاخرون يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون<sup>(١٤)</sup> .

وبعد فترة وصل شق فقال ما قاله سطيح او كاد .

- ٤ -

ثم تستطرد السيرة الى ذكر ولادة الرسول عليه السلام وحياته في مكة قبل ان يهبط عليه الوحي ، ومن الطبيعي ان الاخبار التي تحكي عن هذا الموضوع تدور جميعها حول النبوة المستقبلية ، ومن الطبيعي ان تتوافر الاخبار وتتضخم بحيث يصعب التمييز فيها بين الواقع والخيال . ولهذا فان ابن هشام كثيرا ما يفتقده السيد الذي يركز عليه من دعم الخبر فيقول على سبيل المثال في خبر حمل أمة بنت وهب بالرسول عليه السلام « ويزعمون فيما يتحدث الناس ، والله اعلم ، ان أمة بنت وهب ام رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها . انك قد حملت بسيد هذه الأمة فاذا وقع على الارض فقولني :

(١٣) السيرة ج ١ ص ٣٤

(١٤) السيرة ج ١ ص ١١

أعينوه بالواحد من شر كل حاسد ثم سمه محمدا . ورأت حين حملت به انه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام » (١٥) .

كما نروي السيرة عن حليلة مرضعة الرسول عليه السلام انها قالت « فوالله انه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا اذ اتانا اخوه يشتد فقال لي ولأبيه « ذاك أخي القرشي قد اخذه رجلان عليها ثياب بيض فاضجعا فشقا بطنه فيها يسوطانه ( سطف اللين والدّم وغيرها أسوطه إذا ضربت بعضه ببعض وحركته ) قالت : فخرجت انا وابوه نحوه فوجدناه قائما منتقما وجهه قالت :فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بني ؟ قال : جاني رجلان عليها ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتسسا ( فيه ) شبتا ولا ادري ما هو قالت : فرجعنا الى خباتنا قالت وقال أبوه : يا حليلة لقد خشيت ان يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل ان يظهر ذلك به ( ١٦ ) .

ثم تتوالى معجزات النبي : وكلما كبر وتوالت معجزاته فيما ان يتعرف على نبوته أهل الكتاب وينصحبون معه أبا طالب أن يخفي أمره عن اليهود حتي لا يتعرض لأذاهم . اذ انهم يعرفون ان كتابهم قد بشر به . أو قد تحدث ظواهر كونية لم تحدث من قبل كما حدث للحيه التي كانت تسكن بئر الكعبة وتحول دون تسقيفها مهددة كل من يقترب منها « فبينما هي ذات يوم وتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله اليها طائرا فاخطفها فذهب بها فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا . (١٧) وأما ان تحدث للنبي نفسه معجزات قبل نزول الوحي عليه كتلك التي ذكرناها سابقا ، او ما ذكره كذلك ابن اسحق نقلا عن بعض اهل العلم « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان اذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه ، البيوت ويقضي الى شعاب مكة ويطون ادينتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر الا قال : السلام عليك يا رسول الله قال : فليفتن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كذلك يرى ويسمع ما شاء الله ان يكت ، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بهراء في شهر رمضان » (١٨) .

ثم يهبط الوحي على الرسول عليه السلام وتبدأ الرسالة ، وهنا تفسح السيرة المجال للتاريخ فتحكي عن وقائع الصراع بين الرسول عليه السلام وبين تبعه من ناحية ، وقريش ومن تبعها من ناحية أخرى ، ولكن محمود ابن اسحق يأتي بين الحين والآخر بما سمعه عن معجزات تمت بعد الدعوة . ولا يسع ابن هشام إلا أن يروي بسندها الذي ذكره محمد بن اسحق ، فهذه رواية يحكيها محمد بن اسحق عن أبيه اسحق بن يسار قال « كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف اشد قريش، فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وسلم

(١٥) السيرة ج ١ ص ١٧٠

(١٦) السيرة ج ١ ص ١٧٦

(١٧) السيرة ج ١ ص ٢٠٩

(١٨) السيرة ج ١ ص ٢٥٢

في بعض شعاب مكة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياركانة الا تنقي الله وتقبل ما ادعوك اليه ؟ قال : اني لو اعلم ان الذي تقول حق لاتبعتك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرأيت ان صرعتك أتعلم أن ما اقول حق ؟ قال : نعم . قال : فقم حتى اصارعك قال : فقام ركانة اليه فصارعه فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم اضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئا . ثم قال : عد يا محمد . فعاد فصرعه . ثم قال : يا محمد والله ان هذا للعجب أنصرعني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعجب من ذلك ان شئت ان اريكه ان اتقيت الله واتبعت أمري . قال : ماهو ؟ قال : ادعوك هذه الشجرة التي ترى فتأنيبي . قال ادعها . فدعاها فاقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فقال لها : ارجعي الى مكانك . قال : فرجعت الى مكانها . قال : فذهب ركانة الى قومه فقال : يا بني عيد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الارض ، فوالله ما رأيت اسحر منه قط ، ثم اخبرهم بالذي رأى والذي صنع « (١٩) .

ثم توجت معجزات الرسول عليه السلام بالاسراء والمعراج ، وتكثر في هذه الحادثة المعجزة الروايات والأقوال : فما رواه ابن اسحق نقلا عن ابن مسعود انه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها في منتهى طرفها فحمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والارض حتى انتهى الى بيت المقدس فوجد فيه ابراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الانبياء قد جمعا له فصل بهم ثم أتى بثلاثة أنية : اناه فيه لبن وانا فيه خر وانا فيه ماء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسمعت قائلا يقول حين عرضت علي : ان اخذ الماء غرق وغرقت امته ، وان اخذ الخمر غوى وغوت امته ، وان اخذ اللبن هدى وهديت امته . فقال : فاخذت اناه اللبن فشربت منه فقال لي جبريل عليه السلام : وهديت أمتك يا محمد « (٢٠) .

وفي رواية أخرى نقلها ابن اسحق عن الحسن انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا انا نائم في الحجاز اذ جاءني جبريل فهزني بقدمه فجلست ، فلم ارسيتا فعدت الى مضجعي فجاءني الثانية فهزني بقدمه فجلست ، فلم ارسيتا فعدت الى مضجعي فجاءني الثالثة ، فهزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقممت معه فخرج الى باب المسجد فاذا دابة لونها أبيض بين البغل والحمار في فخذه جناحان يحفر بها رجله يضع يده في منتهى طرفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفترني ولا أفته « (٢١) .

وفي رواية ثالثة عن قتادة انه قال « حدثت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما دنوت منه لاركيه شمس ، فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال : ألا تستحي ياربقي مما تصنع فوالله يا براق ما ريكك عيد لله قبل محمد اكرم على الله منه قال : فاستحي حتى أرفض عرقا ثم قر حتى ركبته « (٢٢) .

(١٩) السيرة ج ١ ص ٤١٨

(٢٠) السيرة ج ٢ ص ٢٠٢

(٢١) السيرة ج ٢ ص ٢

(٢٢) السيرة ج ٢ ص ٤٠٣

ثم يأتي ابن اسحق برواية اخيرة عن بعض آل ابي بكر عن عائشة انها قالت « ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اسرى بروحه » (٢٣) .

هذا بالنسبة للاسراء ، أما ما قبل المعراج فهو كثير ونحن نكتفي برواية الأخبار المسندة التالية لأنها لعبت دورا كبيرا في الروايات الشعبية . فقد روى ابن اسحق قال « وحدثني من لا أنهم عن ابي سعيد الخدري رضى الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس اتى بالمعراج ولم ار شيئا قط أحسن منه وهو الذي يد اليه ميتكم عينيه اذا حضر فاصعدني صاحبي فيه حتي انتهى بي الى باب من ابواب السماء يقال له باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له : اسما عيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر الف ملك قال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث بهذا الحديث « وما يعلم جنود ربك الا هو » قال فلما دخل بي قال : من هذا يا جبريل ؟ قال محمد ، قال : أو قد بعث ؟ قال نعم : فدعا لي بخير وقاله » . (٢٤) .

ثم يستطرد ابن اسحق فيقول : وحدثني بعض أهل العلم عن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : تلقيتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا : فلم يلقيني ملك الا ضاحكا مستبشرا يقول خيرا ويدعو به . حتى لقبني ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمنثل ماضعوا به ، الا أنه لم يضحك ولم ار منه من البشر مثل ما رأيت من غيره فقلت لجبريل : يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك ، ولم ار منه من البشر مثل الذي رأيت منهم ؟ قال : فقال لي جبريل : اما انه لو كان ضحك الى أحد كان قبلك او كان ضاحكا الى احد بعدك لضحك اليك ولكنه لا يضحك . هذا مالك خازن النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت « لجبريل وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم ( مطاع ثم أمين ) ألا تأمره ان يريني النار ، فقال : بلى . يا مالك أرمح النار ، فقال : فكشف عنها غطاءها فقارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى . قال : فقلت لجبريل : يا جبريل مره فليردها الى مكانها ، قال : فأمره فقال لها : إخبيري ، فرجعت الى مكانها الذي خرجت منه فها شبهت رجوعها الا وقوع الظل حتى اذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها . (٢٥)

ثم يستطرد ابن اسحق في ذكر مآراء الرسول عليه السلام في السموات نقلا عن الاحاديث المروية . فقد رأى في السماء الأولى الذين يضرعون بسوءاتهم . فمن أكله اموال اليتامى الى أكلة الربا ، الى اهل الزنا الى النساء غير الشريعات وغير ذلك .. أما في السماء الثانية فقد رأى عيسى عليه السلام ، وفي الثالثة رأى يوسف ، وفي الرابعة رأى ادریس ، وفي الخامسة رأى هرون بن عمران ، وفي السادسة رأى موسى بن عمران ، وفي السابعة رأى ابراهيم أبا الانبياء .

(٢٣) السيرة ج ٢ ص ٥

(٢٤) السيرة ج ٢ ص ٩٠

(٢٥) السيرة ج ٢ ص ٩١

- ٥ -

ونكتفي بهذا القدر من الاخبار التي رويت بالسيرة ، لأن مايلي ذلك في السيرة النبوية المدونة عن ابن اسحق يفرغ لتاريخ الدعوة : كيف حوربت وكيف انتشرت وكيف هاجر المسلمون الى الحبشة ثم الى المدينة ، ثم يلي ذلك تاريخ غزوات الرسول عليه السلام شرقا وغربا حتى وفاته عليه السلام .

ونحن اذ نهتم بذكر هذه الاخبار السالفة في السيرة فلأنها كانت تختص بفترة حاسمة في تاريخ الدعوة ، وهي التي وقف منها الناس من على بعد يتأملونها ويحيلون الفكر بين ما هو قائم وما سيكون . ولهذا فهي فترة لاقتل\* بالاحداث بعد ما تمثلى\* بالصراعات النفسية . ثم تأخذ الدعوة بعد ذلك في الاستقرار تدريجيا ويصبح الصراع صراعا حربيا بين جماعتين إحداهما أمنت وكونت جيشا بقيادة الرسول عليه السلام ، والأخرى لا تريد ان تستسلم فتكون جيشا ينف مناوئا للقوة المسلمة . وعندما يستقر الاسلام وينتصر المسلمون وتنتشر الدعوة في الداخل وتأخذ في الانتشار في الخارج ، ويصبح للدولة كيان سياسي ودين رسمي هو الاسلام تظل الألسنة تردد اخبار هذا التاريخ الطويل ، وتظل شخصية الرسول عليه السلام هي شخصية البطل المثالي ، وإذا تعلق الشعب بشخصية البطل المثالي فان الروايات تكرر كما هو الحال في الفصل البطولي الذي تلا ذلك حول شخصية البطل من قبل ولادته ، ثم في اثناء ولادته وبعدها ، حتى يصبح بطلا محاربا يخوض المعارك لينتصر وينصر قومه ، ولهذا فان الحقبة الأولى من حياة البطل قبل قيامه بالحروب تحفل دائما بروايات كثيرة منادها الخيال ، أو لنقل بضمنها الخيال ، ذلك ان البطل - الملقب لأمته والذي يدعوا لدعوة جديدة تلغي القديم البالي وتحل محله الجديد النافع ، هذا البطل لابد أن يكون مختارا بعنايه ، إلهية ، ولابد ان تكون هناك بشارات ببلاده ، ثم ان ميلاده لابد ان يكون معجزا ، وتستمر الروايات التي تكشف عن تميزه دينيا واجتماعيا حتى ينبب كل هذا عمليا من خلال عمله البطولي .

وليس غريبا ان تحفل الفصحة النبوية المروية بهذا الجزء بصفة خاصة ولا تحفل بالغزوات . وربما استغلت الغزوات في رواية فقص بطولي فيما بعد كما سنرى وشيكا ، ولكن مثل هذه الروايات انتشرت لأسباب حزبية ثم دونت ، أما الرواية التي مازالت تروي في المناسبات الدينية بصفة خاصة فهي تلك التي تختص بأحداث الجزء الاول والثاني من السيرة قبل ان تبدأ الغزوات وهما الجزء ان اللذان يحفلان بصفة خاصة بالمعجزات ، ونحن نفترض ان ابن اسحق كان اطال هذا الجزء من السيرة اكرم من ذلك ولكنه - اختصره بامر من المنصور ، ومع ذلك فقد وجد ابن هشام نفسه امام روايات كثيرة بعضها - ضعيف السند او قد يرفضه العقل كلية ، ولهذا فقد صرح في مقدمة كتابه ان سترك لنفسه حرية التصرف في مثل هذه الروايات فقال وانا - ان شاء الله - مبتدئ\* هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده وأولادهم - لأصلابهم الأول ، فالأول من اسماعيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد

اسماعيل على هذه الجهة للاختصار الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولا نزل منه من القرآن سي<sup>٢٦</sup> وليس سببا لنبي<sup>٢٧</sup> من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه<sup>٢٨</sup> .

ولهذا فافتنا نجد ان ابن هشام حريص على ذكر السند ضعيفا كان ام هويا فان لم يجد سنداً فانه يبدأ الخبر بعبارة ( ويزعمون والله اعلم ) ثم يترك الفاري<sup>٢٩</sup> يميز بين الخبر القوي والضعيف من خلال درجة السند . وابن هشام اذ يفعل هذا انما يفعله بتأثير الاتجاه العقلي الذي ساد فكر العرب آنذاك .  
ونحاول الآن تقديم بعض الروايات الشعبية المدونة والمروية لنرى :

اولا : الموضوعات الاساسية التي ترتبط بالسيرة من قريب او من بعيد والتي شغلت ضمير الشعب العربي فصاغ حولها قصصاً مختلفة .

ثانياً : كيف ضخّم الخيال الشعبي لبعض الاحداث التي وردت في السيرة ولماذا ؟  
ثالثاً : ما هو النمط الذي يروي اليوم ويمرّس الشعب على روايته في المناسبات الدينية .

- ٦ -

اولا :

اما الموضوع الذي افاضت فيه الروايات العربية متأثرة بالسيرة النبوية فهو موضوع قصص الانبياء ، فقد سبق ان ذكرنا ان السيرة النبوية حرصت على ان تبدأ من الاجداد الانبياء فرفعت نسب الرسول عليه السلام الى اسماعيل وابراهيم عليهما السلام ، بل ان كتاب التاريخ مثل الطبري كانوا يبدأون تاريخهم بأدم ثم يتسلسلون بالتاريخ حتى الرسول عليه السلام ، ولاغرو ان يهتم الضمير العربي بقصص الانبياء بخاصة هؤلاء الذين خصهم القرآن الكريم بكثير من الآيات . وبهنا ان تعرف كيف صاغ الخيال الشعبي مثل هذا القصص متأثراً بالسيرة النبوية بصفة خاصة وبحسه الاسلامي بصفة عامة .

ولنتخذ من قصة ابراهيم عليه السلام نموذجاً لهذا الفصل<sup>(٢٧)</sup> وهنا نجد ان القصة تحذو حذو السيرة النبوية في بنائها العام ، وتتلخص المخطوط الاساسية لهذا البناء فيما يلي :

١ - الاشارة الى الحياة الدينية التي كان عليها الناس من قبل وبعد ولادة النبي .

٢ - ولادة النبي المعجزة والنبأ الذي تبشر بولادته .

٣ - نمو وعي النبي عندما يكبر بما عليه قومه من كفر وطمغان .

٤ - بدء معركة الصراع بينه وبين قومه .

(٢٦) السيرة المقدمة ص ١١

(٢٧) قصة سيدنا ابراهيم - وهي قصة تقع في ست عشرة صفحة - المكتبة التجارية القاهرة .

٥ - انتصاره عليهم .

٦ - وفاته بعد أن يخلف وراءه من يحمل رسالته .

وكما أن السيرة تهتم بحياة الرسول الخاصة التي لاتنفصل بحال من الاحوال عن رسالته الدينية ، كذلك اهتمت سيرة ابراهيم عليه السلام فحكّت عن زواجه وعن اسفاره ، وعن علاقته بأبنائه ، وبذلك تتكامل السيرة من بدايتها الى نهايتها .

كما يتمثل تأثر قصة ابراهيم عليه السلام بالسيرة النبوية في استغلال بعض موضوعاتها الاساسية ، وتعال ذلك استغلالا لموضوع الاسراء ، فهي تحكي نقلا عن محمد بن اسحق أن ابراهيم كان « اذا اراد زيارة هاجر واسماعيل حله البراق فيغدو من الشام فيفيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند اهلك في الشام » .

واذا كانت السيرة النبوية ذكرت حديثا رفعتنا الى عائشة انها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما اسمعه يقول : ان الله لم يقبض نبيا حتى يخبره » <sup>(٢٨)</sup> فان قصة ابراهيم تستغل هذا الحديث في ادارة حوار بين ابراهيم وملك الموت الذي جاءه منتكرا ولم يقدم على قبض روحه إلا بعد ان طلب ابراهيم منه ذلك .

اما الان الانسلاسي العام فينتضخ من خلال ربط قصة ابراهيم عليه السلام بما ورد في القرآن الكريم من آيات بحيث استنفذت القصة جميع الآيات التي وردت عن الرسول الكريم في نسج احداثها ، بل انها لخصت صفات النبي ومعالم شخصيته مستنبطة بما ورد في القرآن الكريم من صفات فهي تقول : « انه النبي تجرى ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضيله وتبجيله في كل امة وذلك بدعائه عليه السلام ( واجعل لي لسان صدق في الآخرين ) وهو المبثلى بأنواع البلاء ، والمشهود له بالوفا ، قال الله تعالى ( واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ) . وقال تعالى ( وابراهيم الذي وفي ) . اي بما أمر به وهو القانت . قال الله تعالى ( ان ابراهيم كان امة قانتا لله خنيفا ولم يك من المشركين ) وهو اول من اقام المناسك بدعائه حيث قال ( وأرنا مناسكنا ) فاستجيب له ، وهو أول من ضحى ، واول من القى في النار ، واول من احيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال ( رب ارنى كيف تحيي الموتى ) واول مهاجر لله وساء حليا ومنيبا وأوبا . قال الله تعالى ( ان ابراهيم حلليم أواه منيب ) وبالإضافة الى كل هذه العناصر التي استغلناها قصة ابراهيم ، فهناك الروايات التي مصدرها الخيال الشعبي ، وعندما تلتحم هذه العناصر الخيالية التي - استمدتها الرواة من السيرة النبوية والقرآن الكريم فان السيرة تبدو في مجملها في اطارها التاريخي كما يبدو الحديث الغريب كأنه طبيعي عندما يؤدي دوره في نسج القصة .

ونحاول الآن أن نقدم ملخصا لقصة ابراهيم لئلا نرى كيف استطاعت ان تجمع بين هذه العناصر جميعا في اطار قصصي متكامل .

كان مولد ابراهيم عليه السلام في عصر الملك النمرود الذي عرف بكفره وطغيانه ، وحذره المنجمون من أنه سيولد في بلده هذا العام غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكا وزوالا لملكه على يديه ويقال « رأى النمرود في

مسامه كوكبا طلع فذهب منه نور الشمس والعمر حتى لم يبق لها ضربه فقال له الكهنة : هو مولود يولد في هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه » . ( نلاحظ هنا تشابها بين هذه النبوة ونبوة ملك اليمن قبل ان يولد النبي عليه السلام بسنتين طويلة ) . عندئذ أمر النمرود بذبح كل غلام يولد في تلك السنة . وحملت أم ابراهيم ، بم ولدته واخفته في مغارة ، وكانت كلما دخلت عليه وجدته يحض أصابعه ، فكان إصبع يدرله اللبن والثاني العسل والثالث السمن والرابع الماء والخامس الخمر . وكان اليوم على ابراهيم كالشهر ، والشهر كالسنة ، فلم يمكث ابراهيم في المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء الى ابيه فاخبره أنه ابنه ( خيال يعتمد على موضع الطفولة المعجزة ) فلما شب عن الطوق أته أمه يوما فقال لها « بأمامه من ربي ؟ قالت : أنا . قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي ؟ قالت : النمرود . قال فمن رب النمرود ؟ قالت : أسكت ، فسكت . فرجعت الى زوجها فقالت : أرأيت الغلام الذي كنا نتحدث عنه انه يغير دين أهل الارض ؟ امه ابنك ؟ .

وتفكر ابراهيم في خلق السموات والأرض فرأى الكوكب قبل الفجر قال : هذا ربي . فذلك في قوله تعالى ( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي ) فلما غرب قال : لا أحب ربا يغيب . ( فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي ) فلما غرب قال : ( لئن لم يهتدي ربي لأكونن من القوم الضالين ) ( فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر ) فلما غربت قال ( يا قوم اني بريء مما يشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين ) . ( هنا تستعين الرواية بالنص القرآني ) .

وكان قومه يعبدون الاصنام فكان أبوه يصنعها ويعطيها لابراهيم لبيعها لهم فكان ينادي عليها فانلا : من يشتري ما يضى ولا ينفع ؟ فلا يشتريه احد ( وحاجته قومه ) .

فقال لهم اتحاجوني في الله وقد هداني . ثم دعا أباه أزرألى دينه وقال له ( يا أبت لم تعبد ما لا يضى ولا ينفع ) فأبى أبوه الاجابة فبلغ ذلك النمرود فدعاء اليه فقال : من ربك ؟ قال ( ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ) أخذ الرجلين فد استوجبا القتل في حكمي ، فأقتل أحدهما واعفي عن الآخر فأكون قد أمت وأحييت . فقال له ابراهيم ( ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ) أي النمرود .

ثم ان ابراهيم أراد أن يظهر الحجة عليهم فلما كان يوم عيدهم خرجوا ولم يبق أحد وأخذ أبو ابراهيم ابراهيم ابنه معه فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال ( اني سقيم ) اشتكي رجلي فتركوه وذهبوا ، فدخل بيت الاصنام وكسرها جميعا تاركا كبير الاصنام بعد أن علق في رأسه الفأس . فلما رجع القوم ودخلوا بيت الاصنام هالهم ما رأوا وتساءلوا عن من يمكن أن يكون قد فعل هذا بألتهتم فرد قوم ( سمعنا نرى يذكرهم يقال له ابراهيم ) فأمر باحضاره وسأله النمرود ( أأنت فعلت هذا بألتهنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون ) فنكسوا رؤوسهم وشاروا في الجواب ، ثم قر رأيهم على أن يلقوه بالنار ، ويقال أن الذي أشار عليه بحرقه هو رجل من الاكراد يقال له شبيب ، وقيل اسمه هنون ، فحسف الله به الأرض وهو يتدخل فيها الى يوم



القيامة ، ( خيال ) فلما أعدوا له النار صاحبت السموات والأرض والجبال ومن فيهن من جميع الملائكة صيحة واحدة وقالت : يارب أنت أعلم ان ابراهيم ليس في الأرض من يعبدك غيره يمتدح فيك فأذن لنا في نصرته ، فقال لهم الله تعالى : ان استعان بكم في شيء أو دعا أحدا منكم فلينصره ، وقد أذنت له بذلك ، وان لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه ، فلما أرادوا العاءه في النار أتاه ملك المياه فقال له : ان أردت أطفأت النار ، فان خزائن المياه والأمطار عندي . وأتاه خازن الريح فقال : إن أردت طهرت النار في الهواء . فقال لهم ابراهيم : لا حاجه بي اليكما تم رفع رأسه الى السماء فقال : اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري . ثم جاءه جبريل فقال له ابراهيم : ألك حاجه ، قال : أما اليك فلا . فقال له جبريل : سل ربك ، فقال : حسينا الله ونعم الوكيل . ( نلاحظ هنا أن القاص يريد أن يبرز قوة شخصية ابراهيم وقوة إيمانه بحيث أنه لا يريد أن يستعين بأي من مخلوقات الله حتى لو كانت مسخرة لمساعدته ) . عند ذاك قال الله تعالى ( يا ناركوني بردا وسلاما على ابراهيم ) . « قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما : لولم يقل سلاما لمات ابراهيم من بردها ولم يبق يومئذ في الأرض نار الا أطفئت » . ثم أخذت الملائكة به وأجلسته الى جانب عين ماء وورد أحمر وزجس أصفر . كما أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة .

وعلى هذا النحو تستمر القصة في سرد سيرة ابراهيم ، فهي مرة تستعين بالأحداث التاريخية التي يدعمها النص القرآني . ومرة أخرى تملأ ما تجده من فراغ قصصي بروايات خيالية او قصص تحليلية طريفة . فإذا قال الله تعالى في كتابه الكريم : « وقد يننا بذبح عظيم . علل القاص كلمة عظيم بقوله : « وكان كبشاً رعى في الجنة اربعين خريفاً ، وهو الذي قر به هابيل ابن آدم عليها السلام وقتل بسببه . فلذلك ساء الله عطيها » . وإذا كان هناك يومان في شعائر الحج ، احدهما يسمى يوم التروية والآخر يوم عرفة ، علل هذه التسمية بقوله : « ثم رأى ابراهيم عليه السلام في منامه قائلاً يقول له : يا ابراهيم ان الله يأمرك بذيبح ولدك ، وكان ليلة التروية . فلما أصبح تروي في نفسه أين الله هذا المنام ام من الشيطان . فمن ثم سمي بيوم التروية . فلما امسى رأى في المنام ثانياً : فلما أصبح عرف ان ذلك من الله ، فمن ثم سمي يوم عرفة » . وهو اذا فص عن الموقف الذي تهيأ فيه ابراهيم لذبح ابنه ، صعد هذا الموقف درامياً حتى يحتمل بطلب اسما عيل من ابيه قائلاً : « يا ابت كبتني على وجهي فمالك اذا نظرت الى وجهي وتركتني وتترك رفة تحول بينك وبين امر الله تعالى » .

وتنتهي قصة ابراهيم عليه السلام بموته . وقد سبق ان ذكرنا ان القصة تفيد من الحديث الذي ورد في السيرة والذي يقول « ان الله لم يفيض نبيا حتى يخبره ، فتفتن في وصف هذا الموقف فتقول « لما اراد الله تعالى يفيض روح ابراهيم عليه السلام ارسل ملكا في صفة شيخ هرم ... فبينما هو يطعم الناس اذا هو بشيخ كبير يشي في الخلوة فبعث اليه بحمار فركبه . فلما اتاه قدم اليه الطعام ، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد ان يدخلها فاه فيدخلها مرة في عينه ومرة في اذنه ثم اذا ادخلها في فمه ودخلت في جوفه خرجت من دبره . وكان ابراهيم عليه

السلام قد سأل ربه الا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأل الموت . فقال ابراهيم للشيخ حين رأى حاله : ما بالك يا شيخ تصنع هذا ؟ قال يا ابراهيم ، الكبير . قال : ابن كم انت ؟ قال : ابن مائتي سنة . فوجد عمره يزيد عن عمر ابراهيم بسنتين . فقال له ابراهيم : انما بيني وبينك سنتان ، فاذا بلغت عمرك صرت مثلك ، اللهم اقبضني قبل ذلك اليوم . فقام الشيخ فقبض روحه عليه الصلاة والسلام .

ولا تنسى القصة في حقاقتها ان تلمح الى ان ابراهيم كان يسير على شريعة الاسلام فتقول : « ان اول من صلى صلاة الصبح آدم صلوات الله عليه حين اهبط من الجنة الى الارض ودخل الليل . ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك ، فخاف خوفا شديدا من الظلمة . فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى ، الركعة الاولى للنجاة من ظلمة الليل ، والثانية شكرا لرجوع ضوء النهار ، فكان ذلك سبب كونها ركعتين وفرضت علينا . واول من صلى الظهر ابراهيم عليه السلام حين امر بذبح الولد ، صلى اربعا : الاولى شكرا لذهاب غم الولد . والثانية شكرا لتزول الفداء . والثالثة شكرا لرضاء الله تعالى حين نودي : قد صدقت الرؤيا . والرابعة لصبر ولده على مرة الذبح ، وكان ذلك منه تطوعا ، وقد فرض علينا » .

وهكذا نرى كيف جمعت القصة بين العناصر المختلفة المنقولة والمؤلفة في تناسق وتناسب تام بحيث لم يطغ عنصر على الآخر . ويبحث اصحاب العصة متكاملة ليست فيها فجوة الا وملئت بحدث .

واذا كانت قصص الانبياء تكاد تنفق حول هذا الشكل من التأليف فان قصة موسى عليه السلام (٢٩) وقد صيغت على نحو آخر . ذلك ان قصة ولادة موسى وحوادث حياته تنتزع على نحو متكامل ، ولكن الحدث الذي ربما شغله أكثر من اي حدث اخر هو كلام الله مع موسى ، ففضلا عن ان هذا الموضوع موجز من القرآن الكريم ، ويكاد يقتصر على رسالة موسى الى فرعون ، فان الخيال الشعبي اغذ منه مجالا خصبا للافاضة في حوار طويل بين الله وموسى بحيث يقف موسى متسائلا عن كل المسائل التي يود الانسان الشعبي المسلم أن يجد لها اجابة شافية فقد سأل موسى ربه على سبيل المثال قائلا « يارب بما اتقرب اليك ؟ قال الله تعالى : يا موسى قل لا إله الا الله فان من قالها على حق ياموسى فلو وضعت السماوات والارض ومن فيها من البحر والبر والسهل والجبل وجعلت في كفة فقول لا إله الا الله افضل .. قال موسى . رب بما اتقرب اليك ايضا ؟ قال من اكثر من الصلاة على محمد وكان قائما بين يدي الله عز وجل وفي يده سبعة الواح من اللون الابيض مكتوب فيها بعلم مأثور من حكمة وعظة . فلما سمع موسى بذكر محمد قال : ومن محمد حتى اعرفه ؟ فلما نطق موسى بهذه الكلمات طار من الالواح ثلاثة من يده وبقي أربعة فقال عز وجل : ما خلقت الجنة الا لمحمد وامته وان تقر بنبوته طارت بقية الالواح من يدك قال موسى يارب آمنت به . ثم قال موسى : يارب من احب اليك انا ام محمد ؟ قال الله تعالى : انت كليمي ومحمد حبيبي والمحبيب افضل من الكلم قال : يارب كيف فضلته على وانت كلمتني بلا واسطة ؟ قال : يا موسى

(٢٩) قصة مناجاة كلم الله سيدنا موسى عليه السلام - المكتبة الأهلية - وادي مدني - السودان

انا اكلمك على جبل الطور واكلم محمدا على بساط من النور ... فسأل موسى : يارب هل كلمت احدا قبلي ؟ قال : نعم كلمت آدم قال : هل تكلم احدا بعدي ؟ قال : اكلم محمدا فاعطيه الرضا عن امته . قال : من احب اليك امة محمد أم بنو اسرائيل ؟ قال الله ياموسى امة محمد احب الى من جميع الامم ، وبنيهم اكرم عندي من جميع الانبياء » .

وهذا تكون قصة « كلم الله موسى عليه السلام » مبشرة برسالة محمد ومؤكدة لانتشار هذه الرسالة بين امة تدعى امة محمد .

على ان القصة تحتوي في حوارها على مسائل اخرى شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصة لان تطرحها على لسان موسى . ولن نخوض في هذه المسائل حيث لاصلة بينها وبين السيرة النبوية ، بل هي اشبه بمسائل ميتافيزيقية ونحن نحيل القارئ على قراءتها مفصلة لطرافتها .

ونخلص من هذا بان هذه القصة التي بين ايدينا تحت عنوان « قصة كلم موسى » ليست في الحقيقة قصة بل هي مجرد حوار بين موسى والله تعالى . وربما سميت قصة على سبيل التجاوز حيث انها تتحدث عن نبي من الانبياء .

ونكتفي بهذا القدر من قصص الانبياء لنفرغ لموضوع آخر انتشر في الروايات الشعبية متاثرا بالسيرة النبوية ونعني بذلك موضوع المعجزات .

#### -٧-

#### ثانيا - القصص المدون عن معجزات الرسول عليه السلام :

ومن المعروف ان الشعوب جميعا تميل الى قص حكايات المعجزات كما تميل الى الاستماع اليها ، ولا غرابة ان تنتزع من السيرة تلك الاخبار التي تشير الى المعجزات او تلك التي يمكن ان تستغل هذا الموضوع فينبغيها القصص الشعبي ويفرد لها قصصا مستقلة . ولا يخرج الدافع وراء مثل هذا القصص عن ثلاثة امور : إما ان يكون الدافع هو رواية معجزات الرسول عليه السلام في حد ذاتها بقصد تأكيدها ، او ان يكون وراء هذه المعجزات دافع اجناعي اخلاقي ، وربما روجت هذه الحكايات بعد تحريرها للدعاية لحزب الشيعة الموالي لعلي بن ابي طالب . قصة عامر اليهودي عابد الاصنام<sup>(٣٠)</sup> تروي بغرض تأكيد - معجزات الرسول ( ص ) . وقصة اليقيم المظلوم تهدف الى التذكير بالقيم الاجتماعية الايجابية التي دعا اليها الاسلام ، أما قصة الغزالة والجمل والتي ما تزال تروي حتي اليوم فانها تشير الى الفرضين معا . واما القصص الذي روج لعلي بن ابي طالب فهو كثير وسنكتفي بالاشارة الى نمط منه في حينه مستغل من السيرة النبوية .

(٣٠) قصة عامر اليهودي - المكتبة التجارية وتقع في ثلاث صفحات .

وتحكي قصة عامر اليهودي عبد الاصنام انه كاله ابنة اصيبت بالفالج والجذام ، وكان ابوها يتوسل لدي الاصنام لكي تشفيها من داءها . وذات يوم بينما كان الاب عامر عاكفا على عبادة صنمه . شاهد نورا ملأ الآفاق ثم كشف الله عن بصيرته فرائء الملائكة عند الكعبة وقد اصطفت وراء الجبال الساجدة والارض الهامدة وسمع مناديا ينادي قد ولد النبي الهادي ، ثم نظر الى الصنم فاذا هومنكوس ، واذا به يسمع صوتا مصدره حجر يناديه : قد ولد النبي الهادي ، فلفت نظر زوجته الى الصوت وبصدره فقالت : له : سل ما اسم هذا المولود الذي شرف به الوجود « فقال له : اسمه محمد المصطفى فقال لزوجته : اخرجي بنا نسير في طلبه لعلنا نهندي الى الحق بسببه ، وفي هذه اللحظة رأى ابنته تنف امامه سليمة معافية ليس بها أي داء ، وكان قد تركها طريحة الفراش في اسفل البيت فسألها ابوها وهو في ذهول تام عما اذا كانت قد شفيت فحككت له انها رأت نورا قد ملأ ما بين السماء والارض وعم الوجود . ثم رأت شخصا امامها يسطع النور من وجهه فلما سألت عن من هو : قبل لها انه سيد ولد عدنان . فلما سألت عن اسمه قبل لها محمد واحد . ثم سألت عن دينه قبل لها حنيفا دين الاسلام . وهو قرشي ويعبد الواحد القهار رب السماوات والارض . فلما سألت عن مصدر الصوت أجابها الصوت : انا الملائكة المبشرون « عندئذ شكت لها دامها فقالت لها الملائكة : توسلي الى الله بجاهه فقد قال الرب القريب الداني اني قد اودعت الانسان سري وبرهاني . فلا اخيب من دعائي فبسطت يدي ودعوت الله بجاهه كما وفقني وهداني . ثم سحبت بيدي علي وجهي وجسدي فاستقيظت وانا صحيحة كما تراني » .

عند ذاك اخذ الاب ابنته بين احضانه وقرران يرحلوا جميعا لنوهم الى مكة لرؤية المولود النبي . وهناك في مكة طرقت بيت أمنة بنت وهب وسالوها عن هذا المولود الذي نور الله به الوجود . فقالت « اني اخاف عليه من اليهود فقالوا لها . نحن فارقتا اوطاننا في محبته وتركنا ديارنا لنرى جمال هذا الحبيب الذي من قصده لا يجيب « فسمحت لهم بالدخول وكشفت الفطاء عن وجه الطفل لتطلعهم عليه « فتبسم وخرج من قمه عامود نور فصاحوا من فرحهم وصفقوا ، ثم قبلوا قدميه وسلموا العهد والامانة . وقالوا : اخفيه عن اعين الناظرين « ثم خرجوا .

ولم يكده عامر يجاوز عتبة الباب حتى شعر برغبة شديدة في رؤية الطفل مرة اخرى فعاد الى ام الوليد ولم تمنعه من رؤيته مرة اخرى « فانكب على قدميه واخذ يقبلها وشهق شهقة وعجل الله بروحه الى الجنة » .

فهذه القصة مع بساطتها استغلّت عناصر كثيرة من السيرة النبوية وهي تلك العناصر التي يحكي عن معجزات الرسول عليه السلام ، فقد استغلّت ماروي في السيرة من ايمان بعض المكابرين والمعادنين المفاجئ لل دعوة سواء كانوا من العرب او من اليهود ، كما استغلّت قصة النبوة التي رأها كسرى وغيره ورأوا فيها اشراقا من النور تم الكون عند ولادة الرسول عليه السلام ، ثم ذلك الخبر الذي يحكي كيف ان الاحجار كانت تحيي النبي عليه السلام قبل ان يهبط عليك الوحي وتقول له « السلام عليه يا رسول الله » .

هذه العناصر جميعا استغلناها القصة لتحكي عن الميلاد المعجز للرسول عليه السلام ، وقد استندت القصة احداثها ليهودي جعلته عابدا للأصنام ، ومعنى هذا انها جعلته كافرا بدينه ، ومع ذلك فقد جعلته مصدقا برسالة الرسول عليه السلام وهو مازال طفلا في المهدي .

اما قصة اليتيم المظلوم<sup>(٢٢٦)</sup> فربما ألقت بتأثير الآية القرآنية ( وأما اليتيم فلا تقهر ) وهي تحكي ان النبي عليه السلام بينما كان عائدا من غزوة من غزواته اذ به يرى طفلا صغيرا مسكينا ناثا على الأرض ومن حوله الاطفال يلعبون فايقظه الرسول عليه السلام وساله عن السبب في عدم مشاركته الاطفال في اللعب فرد عليه الطفل قائلا ولم يكن يعرفه « يا عمي لم تسألني هذا السؤال ما الفائدة التي تعود عليك منه ؟ اني قرأت في التوراة من سأل عا لايعنيه يقع فيا لايرضيه » ثم أنشد شعرا يشكي فيه حال الدنيا وظلم أهلها فاعجب النبي بفصاحة الصبي ، وكان ابدى اعجابه بشعر قال له شعرا آخر احسن منه . وبعد ذلك عرفه الرسول بنفسه فراح الصبي يقبل قدمي الرسول عليه السلام . عند ذاك سأله - النبي ما اذا كان يقبل ان الرسول عليه السلام جده وابوه على بن ابي طالب والحسين والحسين اخواه فتنهّل الصبي وقبل مطلب الرسول عليه السلام على الفور وهناك في المدينة قدم الرسول عليه السلام الصبي الى فاطمة ابنته وزوجة علي بن أبي طالب وطلب منها ان ترعاه رعايتها للحسن والحسين ، فرحت فاطمة بالصبي وضمته الى ابنتها وذات يوم غضبت - فاطمة منه لسلوك لم يعجبها منه فضربته فبكى الصبي ورأه الرسول عليه السلام وهو يبكي فقال لفاطمة « يا فاطمة ما احضرته الا ان تربيته وتحسني اليه وان الله سبحانه وتعالى يغضب على ضرب اليتيم وانه انزل اية في ضرب اليتيم بسم الله الرحمن الرحيم » ( فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدث ) عند ذاك اعتذرت له فاطمة بشدة كما اعتذرت للصبي .

وكان النبي يتهيأ بعد للخروج الى غزوة من غزواته فطلب للصبي ان يخرج معه محاربا فاخذه الرسول عليه السلام معه ودخل الصبي فأصيب بضربة قاتلة اودت بحياته ففلسه الرسول عليه السلام وكفنه وصلى عليه ووراه سبعون الف من الملائكة واودعه قبره وانصرف .

واما قصة الجمل والزاللة<sup>(٢٢٧)</sup> فهي قصة منظومة وما تزال تروي شعرا حتى اليوم وتحكي القصة عن معجزة نطق فيها الجمل والزاللة لكي يشتكيا للرسول عليه السلام من ظلم الانسان ويطلبها منه الانتصار لهما .

واذا كانت هذه القصة في عمومها تعد من قصص الحيوان الرمزي يقوم بوظيفة الكشف عن طبائع الانسان الخسيسة وعن غيائه وقلة حيلته في بعض الاحيان فانها هنا في هذا المجال لا تؤدي هذا الغرض وحده ، بل تؤدي

(٢٢٦) قصة اليتيم المظلوم - المكتبة التجارية وتقع في سبع صفحات .

(٢٢٧) قصة الجمل والزاللة - المكتبة التجارية وهي تقع شعرا في سبع صفحات .

غرضاً آخر أهم منه هو إثبات معجزة الرسول عليه السلام فضلاً عن الإشارة بأخلاقه السامية التي حرص ان ينشرها بين المسلمين . وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه السلام فتقول زجلاً ... /

في أول القول مدحك يانبسي استفتاح يامن تسلم عليك الشمس كل صباح  
ما احلى مدحك وما اخفه على المداح وانا ان مدحت النبي لم على جناح  
وتانسي القول مدحك يانبسي مطلوب وكم من ضيقة تفرجها على المغلوب

ثم يبدأ القاص في سرد أحداث الحكاية مشيراً الى خاتمتها التي تمثل عنصر التصعيد في حوادثها فيقول بعد هذا المدح مباشرة .

جت الغزاة لبنها على الثري مسكوب ضمننتها يا حبيبسي لما أوفت المكتوب  
فهذا البيت يشير الى خاتمة هذه الحادثة كما سترها وهي ان النبي عليه السلام قبل ان يكون رهناً لدى صاحب الغزاة في مقابل ان يفك صاحبها اسرها حتى تذهب لارضاع اطفالها ثم تعود ، ولكن القاص لا يلبث ان يترك موضوع الغزاة بعد هذا البيت ليحكى عن قصة الجمل وكأنه قد التقى بهذه الإشارة ليوحي للمستمع انه سيحكى حكاية تربط بين قصة الغزاة وقصة الجمل في نسيج واحد ومن ثم فهو يعود غير بابط الايات الاولى التي قالها في مدح الرسول عليه السلام بما سيأتي بعد ذلك فيقول :

من بعد مدح النبي اسمع كلام معدود منظوم منشور جواهر كله عقود  
نطق الجمل والغزاة وأسلم ابو مسعود على يد ابن رامة صفوة المعبود

وهذا يكون القاص قد اكد عملية الربط للقصص بين حادثتين هما حادثة الغزاة وحادثة الجمل فيقول :

كان النبي والصحابه جالسين صفين متجمعين باين رامة سيد الكونين  
الا اتى له جمل يبكي بدمع العين نطق وقال السلام عليك منسي يازين  
قال الجمل للنبي ما جئت الا لك وما جرى لي اريد ان انتشك واسالك  
يا مصطفى الحكاية تكتب في اوراق بيني وبين صاحبي يا صفوة الخلاق  
قد كنت ايام الصبا يازكي الأخلاق ولي عز تحت الحمول امشي ولا أنساق  
وانا كنت مكرم وانا له شديد الميل ولي عز تحت الحمول امشي شبيه الخيل  
لما اتانسي القيا يا أحمد حملت الويل بركت وعيت بعد الغندرة والشيل  
وكل يوم يجي صاحبي يشوف حالي يزيد علقسي وينوصي باحمالي  
جا صاحبي يوم شافني كده مسقوم عيان ولا ليس جلد اهم واقم

بكره اذبحه واتني بغيره يقوم  
 بكيت على سقم حالي بعد اجتهادي  
 وقل عني علفي وانقطع زادي  
 خائف من الذبح والسكين والجزار  
 اقصد حماه من قد الها ينجار  
 يجيرني باجسار الناس يوم العرض  
 لاخلصك باذن من السما والأرض  
 واكفيك شره وشر ابيه اذنبه وبلاه  
 من اجل شكوى الجمل والامر لله  
 يرى الصحابة صحابة كاسية النبي بفهام  
 أطرق الباب وصحي صاحبه في الحال  
 للجارية شرح ومعنى يسمع لجواب  
 قلع لها عين من جهله وهو معتد  
 فتح عينيها بعد العمى وارتد  
 فقال لها سيدها منين الفرح جاك  
 فتح عيني بفت بالنور مليانه  
 يبقى سحر جانا في دجل ونفاق  
 انا انظر مراده واشوف ايه الي جابه الدار  
 وقف وقال: ايه مرادك باسحار  
 وصرت من اهل الشرك واتعدت  
 من كثر ما ضربته سقم وضعف حاله  
 سمعك تقول اذبحه للبيت وشكا لي  
 تبقي مروءة عظيمة واكراما لي  
 هذا الكلام غير صحيح ليس معني تأثير  
 وهو جمل اخرس عادم التفسير  
 ماله قصاصة وعن رد السؤال معدوم  
 كنت اعتنقه واصلي كان واصوم  
 نطق الجمل والغزاة يطرب المسع

قال ده جمل حاله بحال الشوم  
 انا سمعت الكلام من صاحبي يهادي  
 امر بذهبي فزاد سقمي وانكادي  
 بقيت واقف وانا في عذر واستعذار  
 فقلت مالي سوى الهادي مجير الجار  
 فانا أتيت قاصد الحمى والغرض  
 قال النبي للجمل ارتاح وحق الفرد  
 لاخلصك باجل من صاحبك واساه  
 سار الجمل والصحابة والنبي قدام  
 سار النبي والصحابة والنبي قدام  
 فعند بيت صاحبه شار النبي ليلال  
 سمعت الجارية نزلت سريع للباب  
 كان سيدها ضربها كف فوق الخد  
 نزلت لقت محمد لم مثيله حد  
 رجعت تزعزت وهي في الحظ فرحانة  
 قالت رأيت نبي بعون نصانه  
 فقال لها راجل ساحر وسحره فاق  
 يبقى سحر جانا يطلب الاسرار  
 نزل يلاقي محمد باهي بالانوار  
 قال النبي: بالعجل قبحت واتعدت  
 لولا الجمل جايشكي من عيا حاله  
 قلت عنه العليق ليش ماله  
 جيته وجيت، سيبه كراما لي  
 قال اليهودي لطفه يا محمد سير  
 كيف ما نطق يهود الصعب والتعسير  
 وهو جمل اخرس نطقه معدوم  
 انا ان سمعته يتكلم كلام مفهوم  
 قال النبي سير بنا في الخلا واسمع

وهكذا يوجد القاص مجالاً في السياق لكي يؤكد مرة أخرى العلاقة بين قصتي الجمل والغزاة فهو يزحزح مطلب اليهودي الذي يتحدى فيه النبي في أن يجعل الجمل ينطق أمامه ، فيجعل له البرهان في معجزة أخرى هي معجزة نطق الغزاة ومن هنا يبدأ في سرد قصة الغزاة فيقول :

سار النبي والصحابة كلهم أجمع والأربعة الأفاضل حريهم يجمع  
والأربعة الي اتسموا كل قوم شديد  
عند بيت مزى في الخلاء بعيد  
مربوطة بجنبه غزاة في أسرها ماسورة  
طلعت ثلاثي محمد عونه بالنور مغمورة  
مصطفى انصفتي بأحجة التضام  
يقي لي ثلاثة ايام مأسورة بالثام  
قال لها النبي عنك يزول الشر  
قالت ادى ثلاث ايام ماعلي مرّ  
حين تمت الغزاة قولها الباب دق  
وهي تقول يا محمد بك الصدق  
فريتي من النار ومن شدة لها ليها  
قالت له بعلي ومن اجلك اسببها  
خدها وروح يا خاص خواص النور  
اليهودي برطلوا بألفين ذهب وكسور  
مانم قول المرأة لما أقبل الصياد  
حتى رأى الهادي محمد صفوة الأجداد  
بعد السلام قال لهم ما تطلبوا صار  
قال له النبي سيب الظبية بالأكام  
الي ابتلت بالحزن والدمع منها عام  
وان تكريمت فيها تقلال الاكرام  
قال اليهودي لطفه الزين انت من  
قال انا احمد وساني الله ياسين  
قال اليهودي زسان عيني تراعيك  
وقعت في ايد من لا نصير لك

والاربعة الأفاضل حريهم يجمع  
ساروا بجنب النبي في النصر مع التأيد  
مربوطة بجنبه غزاة مقيدة تقيد  
مقيدة باكية العين محصورة  
قالت له انا بيك وحق الله منصوره  
ياخاص خواص الانبياء وختام  
عن اولادي وهم في صفه أيتام  
هو مين صيادك الي جهل واغتر  
داير يصطاد الغزلان في الفلا والبر  
في فتحة بابيه رأى حرمه تحب الحق  
اسلمت ، قال النبي صدقت وحق الحق  
هي الغزاة لك أم حد جابيه؟  
ولو كان بعلي يموتني من سبابها  
لأحسن ده بعلي بان منه اسا وشور  
إن راح وجابك لهم مقتول مأسور  
راكب على مهر غالي للقا معتاد  
نزل وبعد النزول سلم سلام اجواد  
مين الي جابكم نحو الحمى والدار  
الي الحزن والبين عليها صار  
ومن بكى اولادها كل درجة بعام  
وان حقا تريد تنطين بلا أوهام  
باللي اتيت للغزاة سنند ومعين  
شفيع في امتي يوم الحساب ضمنين  
دلوقتي أوريك لحرب مني ليك  
لاحاربك واحارب من يحاميك



ولا تكن مدعي تنسدم على اللي فات  
يرضع ولدها اللي قاسو من اللوعات  
انا الغزالة حدايا ما اسببها شي  
يرضع اولدها وترجع على الماشي  
بالتحقيق مانهريش تفضحيني مع الزنديق  
ماغير ارضع وارجع بالعجل تحقيق  
وحلها بعد ما كان القيد ساجنها  
وقالوا قليل ان رجع لضانها  
قال اصوم واصلي واشهد بانك حق  
وماجرى للغزالة بعدما سابت  
تلقى بكاهم روى عشب الجبال ثابت

ثلاث ايام واحنا لم نلافيكي  
نبكي بحرقة على اللي صابنا فيكي  
الا الزمان كادني والغلب غلبني  
اخذني معاه في حبل الذل والتكيد  
وقف ضمني وخلصني من التقيد  
يايخب من كان للمختار وسعى فيه  
ضانته قبل الصياد ما بقصر فيه  
لبنك علينا حرام وحياة حبيب الله  
ياخجلتك يوم القيامة بين ايادي الله  
عند يهودي عنيد ما يفتشش من حد  
هيا ارجعي واقره السلام منا  
قال النبي جتيني ليه بالعجل وبان النصر  
لما سمع نطقها الصياد قال النصر  
قال اليهودي انا لا اسلم ولاسلم

إلا إن سمعت الجمل ينطق ويتكلم

قال النبي خصمك اهو جالك احكي له فصتك وانيه على حالك  
قال الجمل للنبي ماجيت الا لك انبيك على ماجرى لي يازيسن واسلك

قال النبي فض هذا القبح والعياب  
سبب لنا الغزالة واترك لنا اللوعات  
قال اليهودي لطفه الزين ما جاشي  
قال النبي سببها واترك الكلام الواشي  
قال النبي للغزالة ان ضمنك ترجعي لي  
ردت عليه بلسان فصيح صديق  
لما سمع نطقها دنا منها  
وبعد ما حلها بتحقيق بعيد عنها  
قال النبي ان انت تسلم وحق الحق  
من بعد هذا استمع للكلام ثابت  
راحت لأولدها بعد ما سابت

قالوا يا امنا مين كان لاهيكي  
نشوفك بعيدة عنا نوافيكي  
فالميت لهم ارضعوا ما حد يتبعني  
وقعت في ايد صياد شقي وعنيد  
فات التهامي لقاني في بكى وعديد  
وقف ضمني وفعل الخير سعى فيه  
يا لله ارضعوا لأجل ما ارجع ورجعوا  
قالوا يا امنا العول ده ما نرضاه  
كيف ترهني المصطفى عند اليهود واعداه  
كيف ترهني المصطفى اصيل الجد  
كيف ترهني يا امنا اللي من النار يضمنا  
رجع تعدد وزاد بكاهما حصر  
قال ابو يرضعوا بافريد النصر  
من الغزالة وارك للاله سلم

فكم لفيت في العالم بحر سواك انا مستجير بك يا احمد ومن ملاك  
قال اليهودي حقيق اسلمت يا عدنان واتهد ان الكريم واحد ديان  
واشهد بانك محمد للمجالس زان شفع لنا يوم ينصب الميزان  
وان كان سليمان عطي من ربا انعام انت يا مصطفى للانبياء ختام

وبهذا تنتهي قصة الجمل والغزاة وهي قصة محكمة التسج حيث راعي فيها التسلسل الدقيق للأحداث من  
اولها الى اخرها ، وفضلا عن هذا فقد تجاوزت القصة بساطة القص فكسرت التتابع الاقفي بعمق رأسي ، وذلك  
عندما علقت المستمع عند قرب نهاية قصة الجمل ، فبدأت قصة اخرى هي قصة الغزاة بهدف تأييد سر  
الشخصية الشريرة وتأكيد الظلم الذي يعم على الضعيف ثم فلة حيله الضعيف لو لم تسانده قوة عادلة تضع  
الامور في نصابها ، فقد كان من الممكن ان تتابع القصة الاولى قصة الجمل حتى نهايتها بحيث يتحدث الجمل  
مرة اخرى أمام اليهودي عندما يتحدث الرسول عليه السلام قائلا :  
انا ان سمعته يتكلم كلام مفهوم كنت أعتقه وأصلي كما ان وأصوم

ولكن القاص ارجأ الاجابة عن هذا التحدي لكي يجعلها مكثفة او مضاعفة فتضاعف المعجزة في الوقت  
نفسه كما يتعمق مفهوم ظلم الانسان وجبروته الذي يبرر عدم قبوله الدعوة المحمدية بالمنطق والعقل فاذا اسقط في  
يده لم يجد مقرا من قبولها . والجمل والغزاة حيوانان صحراويان ، فالأول رمز للجلد والصبر وقوة التحمل ،  
والثاني رمز للحرية والانطلاق . ولهذا فقد جعل القاص الحيوان الأول يسكو ظلم الانسان عندما تنكر لخدمته  
الطويلة له في صبر وجلد وتحمل . كما جعل الثاني يشكو من أسر الانسان له وحرمانه اياه من حرية الحياة مع  
أبنائه . وفي كلا الحالتين لا يريد الانسان الا أن يشبع بطنه من لحم الحيوانين » .

وبهذا تكون القصة المؤلفة قد حففت غرضها في تأكيد المعجزات النبوية ، وبب الغيم الأخلاقية ، وكشف  
طباع الانسان الخسيسة .

وإذا كانت مهمة الدعوة المحمدية هي اعادة النظام الى الحياة والغاء فوضويتها من خلال تطبيق أسس  
الاسلام العادلة ، فقد انتهت القصة بتحريض المظلوم - وفك قيد الأسر - وخضوع الظالم للنظام الديني العادل .

( ٨ )

وإذا كانت القصص السابقة تركز حول معجزات الرسول عليه السلام إما لغرض أخلاقي أو من أجل تأكيد  
المعجزات في حد ذاتها ، فهناك اتجاه آخر في القصص المتأثر بالسيرة النبوية سحو الى ينتزع حدا من السيرة

ومحبك حوله قصة ، لا ليكون التأكيد فيها على المعجزة ، وإن وجدت ، بل لتأكيد مكانة علي بن أبي طالب وزوجته بنت الرسول عليه السلام ، من الرسول ومن الاسلام . ولدينا نموذجان مدونان لمل هذا المصحص هما قصة معاذ بن جبل ، وقصة علي في حرب تبوك .

أما قصة معاذ بن جبل ، فهي تدور حول الخبر الذي ورد في سيرة ابن هشام على النحو التالي : « قال ابن اسحق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذ بن جبل مع قوم جاءوا اليه من اليمن يطلبون الدخول في دينه ليفقهه الناس في الدين ويعلمهم القرآن وقال له : « يسر ولا تعسر ، ويسر ولا تفر - وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ قل : شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . » (٣٣) .

هذا الخبر اتخذت منه القصة نواة لأحداثها وصاغته على النحو التالي : « حكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في خيمة . إذ دخل عليه عشر من أكابر اليمن ، فقالوا : السلام عليك يا محمد : فقال السلام على من اتبع الهدى . من أنتم ؟ فقالوا : يا رسول الله نحن من أكابر اليمن ، آمنا بك أن تراك وقد جئناك . فأخذهم الى بيته وكانت لبلة عائشة رضى الله عنها . فأمرهم بزيادة فأكلوا وبات النبي صلى الله عليه وسلم راکما ساجدا وهو متفكر في أمرهم إذ هبط عليه جبريل وقال يا محمد ربك يعزتك السلام ويقول لك أرسل معاذ بن جبل الى اليابانيين وأذن بلال أذان الصباح . وصلى النبي بأصحابه وأقبل يدعو المسلمين . فلما فرغ من دعائه قال : يا معشر الناس ان أخي جبريل أماني وأمرني أن أرسل الى اليابانيين معاذ بن جبل . قالوا : نحن طاعتون . فعند ذلك نادى النبي لمعاذ ، فقال لبيك يا رسول الله . فقال : امض الى منزلك وجهز نفسك للسفر ، فاني أريد أن أوجهك مع أهل اليمن لتكون أنت المتولى عليهم وتعلمهم قواعد الدين . فقال معاذ : السمع والطاعة لك يا رسول الله . ثم غضي الفصة فتخلق مشاهد حوارية بين معاذ بن جبل وبين أمه التي توليه على ترك الرسول عليه السلام ، ثم بينه وبين أهل اليمن عندما يصل اليهم ، مستخدمة الشعر الغنائي بين فصول هذه المشاهد .

« أقام معاذ رضي الله عنه في ولايته باليمن سبع سنين ، فلما كان بعض الليالي ، جلس في المحراب بعد أن فرغ من صلاته وتعليمه للناس وجعل يسبح الله تعالى فأخذته سنة من النوم ، فأتاه هاتف وقال له : يا معاذ ، أنت غافل والله لبس بغافل ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فارق الدنيا . فانتبه معاذ من نومه مرعوبا ولعن ابليس ، وحشد وضوء آخر ورجع الى صلاته واتخذ من الليل جانبا ، فغلب عليه النوم فنام فأتاه الهاتف ثانية ، وقال يا معاذ ، ان الرسول صلى الله عليه وسلم فارق الدنيا ، ما هذا الرقاد . انتبه ! قال ابن عباس : فانتبه معاذ من نومه مكروبا وهو يقول : لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ثم جلس في المحراب ينظر وتحت

الصلاة اذ سمع هاتفا يسمع كلامه ويرى شخصه وهو يقول : يا معاذ مضت ثلاثة أيام من حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ ، ما أنا بشيطان ولكن ملك من الملائكة .  
وعندئذ تأكد معاذ من حقيقة الرؤيا ، وقام ودفع الناس وهو يبكي وينتحب وقفل راجعا الى المدينة . وكان أول من قابله فيها أمه التي كانت تبكي لفراق الرسول عليه السلام وفراق ابنها الذي لم يدرك وفاته . وقد كان السؤال الذي يلح على معاذ بن جبل هو : كيف مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا فقد دخل على أبي بكر ليحكي له كيف استقبل الرسول عليه السلام الموت وكيف استقبل المسلمون موته . ولكن أبا بكر الذي كان غارقا في دموعه لم يتمكن من أن يحكي له تفاصيل الحادث وأحاله على عمر بن الخطاب . ثم أحاله عمر على عثمان الذي أحاله بدوره على علي بن أبي طالب .

وأخذ علي بن أبي طالب يحكي له تفاصيل الحادث ابتداء من اللحظة التي خبر فيها الرسول عليه السلام عن طريق جبريل بأن ملك الموت قد أتى ليقبض روحه . « ودخل ( جبريل ) على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال : ما يبكيك يا أخي جبريل فقال يا محمد ، وكيف لا أبكي وملك الموت واقف بالباب ، وهاهو يستأذنك في الدخول . فعند ذلك بكى النبي . فقال له ملك الموت : لا تبك يا محمد والذي بعنك بالحق بشيرا ونذيرا وسراجا ميرا . اني لأرقبك بك .. فعند ذلك قال النبي : يا أخي عزرائيل لا تستعجل علي حتى أودع أصحابي وأحبائي وأنظر الى قرة عيني أم المسلمين فاطمة الزهراء والحسن والحسين » . فسمع عزرائيل له بذلك . فدخل النبي عليه السلام على فاطمة وقال لها : « يا فاطمة اذا كان يوم القيامة يحضر الناس حفاة عراة ، وتكوني أنت في هودج من نور فلا تزال عليها الى أن تفرعي باب الجنة ، ويكون جبريل أخذ بزمام الناقة وهو ينادي : يا جميع الخلائق ، يا أهل الموقف ، غضوا أبصاركم ونكسوا رؤوسكم ، فان فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وسلم جائزة الى الجنة » . ثم أخبرها بعد ذلك أن عزرائيل جاءه ليعقب روحه . وتستطرد القصة فتحكي عن اجتماع النبي عليه السلام بالمسلمين وصلاته بهم الصلاة الأخيرة . ثم تحكي كيف أن عكاشة بن بلال قام بعد الصلاة وذكر الرسول عليه السلام بأن ضربه مرة بفضيب في غزوة بدر ، ولم يعرف حتى هذه اللحظة سبب ضربه له . فأصر النبي أن يقوم ويقبض نفسه منه قبل أن يقبض الله روحه . ولكن عكاسة أصر على أنه ضربه وهو عاري الظهر . عندئذ خلع النبي ملابسه متي يضربه على ظهره كما ضربه من قبل وعندئذ قام عكاشة وقيل النبي وهو يبكي ويقول « ما عاش من يقبض منك يارسر الله ، ولكني سمعتك تقول ما من أنف يشم رائحة جسمي إلا حرمه الله على الناس » .

وتنتهي القصة بمشهد درامي يحضره الصحابة والمقربون من الرسول عليه السلام وهم يشهدون موته .  
أما القصة الثانية التي استلقت كذلك في الدعوة الشيعية فأصلها خبر في السيرة ملخصه أن النبي عليه السلام تهيأ لغزو الروم سنة تسع هجرية . وبعد أن حث الناس على المسير والأغناء على النفقة توجه الى علي ابن أبي طالب وخلفه على أهله « وأمره بالاقامة فيهم . فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه الا استملا وتخففا

منه . فلما قال المنافقون ذلك أخذ علي رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال يا نبي الله ، زعم المنافقون انما خلفتني وتخفتت مني . فقال : كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي . فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك . أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لانبي بعدي ، فرجع الى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سفره . (٢٤) ثم تقضي السيرة فتحكي كيف أن صاحب أيلة صالح الرسول عليه السلام على الجزية ، فعاد الرسول بعدها الى المدينة . والى هنا ينتهي خبر غزوة تبوك .

وقد استغل الفصاح هذا الخبر أروع استغلال في وصف قصة حرب بطولية بين العرب والروم . ولهذا القصة عدة روايات عنزنا عليها في مخططات برلين في ألمانيا الغربية . وتكتفي هنا بعرض رواية منها نختارها من بين الروايات لاكتناها ولأن الفصاح فيها لم يكن يهدف الى حكاية قصة مكتملة فحسب ، بل أراد أن يصور لنا الحركة المتصلة منذ أن نجحت الجيوش الاسلامية لتفتح بلاد الروم حتى تنتهي المعركة . والقصة معروفة بالرجل وقد استخدم فيها اسلوب الحوار الذي يجعل المشاهد نابضة حية بالنسبة للقارئ أو المستمع وتبدأ القصة ببناء من ملك الروم وزيره بولص فتقول :

ان	المسوك	ما	أقاموا	الوزرا	الا	لينفذ	أمرهم	بين	الورا
ساعة	وصول	ذا	الكتاب	لعدنكا	بابولص	انهض	عاجلا	من	وقتكا
واجمع	الأبطال		والجحافل	من	كل	ليث	بطل	مقاتل	
واقض	بهم	من	كل	بد	سبب	واقصد	الى	أرض	المحجاز
واقطعوا	الأرض		باهتامي	ما	بين	يثرب	مع	بلاد	الشامي
وما	لأحمد	عندنا	جوابا	الا	بضرب	السيف		والحرابا	

فلما سمع بولص كلام ملكه كتب الى النبي عليه السلام يحذره من اعتدائه عليهم ويجعله نتيجة عمله . فأرسل الرسول عليه السلام - رسولا من عنده يدعوهم الى دين الاسلام . فلما مثل الرسول بين يدي بولص وقال قوله ، رد عليه بولص غاضبا وقال :

قال	استمع	ياذا	الفتي	كتابتنا	وامض	وبلغ	صاحيك	جوابنا
وقل	له	ما	عندنا	حوابا	الا	بضرب	السيف	والحرابا
نحن	أسود	البر	ما	نبالي	في	ممع	الحيسل	ولا
جهز	لنفسك	والتقينا	عاحلا	فان	عسكرنا	اذا	بواصلا	
أنتم	أسود	البر	والقفارى	واحننا	ليوث	الحرب	في	البراري
وليس	تخددعنا	بذا	الكلام	ونحن	أعلمناك			لاسلام

ولم ينزعج الرسول عليه السلام لرد بولص ، وبدأ يعد العدة للقتال ، فنادى بلال للأذان ولدعوة العرب إلى الاجتماع بالرسول . فلما حضروا قال لهم الرسول عليه السلام :

كونوا	اعلموا	أن	الجهاد	فرض	عليكموا	في	طوها	والعرض
وقد	أمرني	الملك	الجبار	نأخذ	بنأر	جعفر	الطيبار	
ومن	قتل	معه	من	الاسلام	فما	تقولوا	بامعشر	الكرام

فرد المسلمون عليه قائلين :

قالوا	جميعا	يا رسول	الله	يا أكرم	الخلق	على	الاله
احنا	لما	تقول	طايبعينا	وأمرك	المطاع	يا أمينا	
ولو	تقولوا	شيلوا	الجبال	ولو	تقولوا	فانلوا	قاتلنا
ولو	تقولوا	خوضوا	البحر	ولو	تقولوا	هينوا	النفوس

ثم سارت الجيوش بعد ذلك متفائلة مستبشرة . وفي أثناء الطريق تحدث معجزة مع جيش الرسول عليه السلام بحكيها المعبرة لأصحابه فيقول :

فقال	مغيرة	كنت	يا	أصحابي	مع	النبي	المصطفى	الأدبى
نزلت	من	وقتي	عن	حصاني	وقد	جمعت	حنظل	يكفاني
وسرت	طالب	طيبة	الأمينة	وقد	علتني	هبة	السكينة	
فبينما	أقطع	المسبري	فاختلج	يا	موم	في	ضميري	
وقلت	هذا	حنظل	كاللعلمي	والله	ما	فيه	لزاد	مطعمي
ولا	رأيت	أبدا	في	فايدا	تا	الله	ما في	حل
فصرت	أوميه	ونافي	الفرا	حتى	بقي	من	الجميع	عسرا
فبينما	أنا	ساير	بجهدي	فالتقاني	في	الطريق	عبدني	
وكان	ما	بين	العبيد	صالح	وشاطر	في	حرية	وفالح
فقال	يا	مولاي	فين	الزادي	الي	أوهوا	لك	النبي
فقللت	ياذا	الفارس	المغفلا	زودنا	محمد	بالحنظل		
فقال	ابن	السزاد	يا	مولاي	أخبرني	برافع	السهای	
فقللت	له	أوميته	بجمعه	فقال	لي	أحطيت	وفاتك	نفه
أما	علمت	سيدي	أن	النبي	صلى	عليه	ربنا	في

ويستمر العاص الساعر في سرد القصة وتصوير حركتها ، فيصور النبي عليه السلام وقد تجمع حوله الجيوش في شكل كتائب وعين لكل كتيبة . وتأخذ الحماة الأبطال فيهدف أحدهم :

سيروا بنا يا معشر الاسلام على اسم رب ملك بعلام  
أنا الفتى الممداد بن الكندي وفي الفوارس بطل مفند  
أضرب بهم بحسام هندي وأجول في الجيوش وحدي  
واتعزل من وقته وساعته وسارت الأبطال تحت رايته  
وينسد الآخر :

نسير للأعلاج والأورام وافنيهوا بالصارم الحسام  
نسير الى بولص والهرفل التام نقاتله ونفني الليامي

وقيل أن يصل الجيش الى تبوك ، توقف النبي واستدعي عليا وطلب منه العودة الى المدينة لأن الوحي بهط عليه وطلب منه ذلك . فرجع على مدعنا لأمر الله ورغبة الرسول عليه السلام . واستأنف الجيش مسيرته حتى التقى بجيش الروم ودارت رحى الحرب وكانت سحالا بين الطرفين . غير أن جيش الاسلام مني بالهزيمة بعد ذلك ويصور الساعر السعبي استغاثات الأبطال وكأننا نسمعها من خلال ألفاظ القصيدة . فهذا بطل مسلم قد انسحب بكتيبته وجاء يشرح للعائد خالد ابن الوليد سبب هزيمته ويبرر له هزيمته فقال :

لما رأيت القوم كالبحار وأقبلوا من سائر الأقطار  
ولسب جميع رففتي وانهرزت وأبطالنا لعندكم فد عزمت

وجاء العباس عم الرسول عليه السلام يشتكي له كثرة جيوش الروم فيقول :

فقال له العباس يا حبيبي ياصفوة الله العلي المجيبي  
لو سلمونا كلهم أرواحهم كنا عجزنا كلنا عن ذبحهم  
ولكن النبي أخذ يطمئنه فقال له :

قال النبي يا عم لاتياي معنا الاله الواحد المتعالي  
لقد وعدنا خالقي بالنصر وهو معي في عسرها والنصر

فلما تأوتت الأمور بين جيوش المسلمين ، وقد حرص القاص على تأزيمها حتى يصل الى عقدها وهي احساس المسلمين بغياب علي ، جاء العباس الى الرسول عليه السلام وصارحه بسبب اندحار جيش المسلمين :

فعندها قد خرج العباس عم النبي الطاهر الأنفاس  
وسيفه في يده وترسه ينفذ من دم الأعداء نفسه  
ولم يزل سايرا من غير خفا حتى أتى الى النبي المصطفى

وقال للمهادي النبي ياسيدي لو كان معنا فرد فارس واحد  
لا كان محسي عسكر الكفار ويفنسي الأعلاج والفجار  
وكان النبي عليه السلام لم يفهم مغزى قوله :

فَعندها قال النبي المرسل عمن تقول ؟ فقال مولانا علي  
فَعندها قال صاحب السكينة ان عليا ياعم في المدينة  
ويبننا وبينه أيام ونحن يا عم بأرض الشام  
ارجع وقاتل عسكر الجهال وحرّض القوم على القتال

وكانت كلمات النبي هذه بمثابة مفتاح السر . فما كاد يفرغ منها حتى هبط عليه الوحي ليقول للرسول : نادي  
علياً ، فلو أنك بالشرق وهو بالمغرب وتادبته لأجابه . فنادي بـرسول الله على علي وأجابه علي . لييك ، لييك يا  
رسول الله ، وطار على جواده ، وفي لحظة كان بين صفوف المحاربين وبذلك تم النصر للمؤمنين .

وهكذا استغلت القصة الخبر الموجز الذي ورد في السيرة عن ارتقاء الرسول عليه السلام لملي في المدينة ، بينما  
سار هو وجيش المسلمين إلى بلاد الروم ، استغلت هذا الخبر في اثبات مكانة علي الدينية . فالنبي عليه السلام ،  
حسب القصة ، لم يبق في المدينة الا بناء على أمر من الله جاء به جبريل . كما أنه لم يحضر المعركة الا بوساطة  
جبريل .

-٩-

على أنه لا ينبغي علينا أن نترك الحديث عن القصص الشعبي المدون المتأثر بالسيرة النبوية قبل أن نشير  
إلى أكثر موضوعات السيرة إثارة لخيال الرواة ، وتعني بذلك اسراء الرسول عليه السلام ومراحه . وقد تنوعت  
التصوص حول هذا الموضوع وتعددت وانتقلت من الشرق إلى الغرب إلى درجة أنها أصبحت جديرة بدراسة  
مستقلة .

وقد كان من الطبيعي أن يثير موضوع الاسراء والمعراج الخيال الشعبي في أن يتصور دقائق رحلة الرسول  
عليه السلام من مكة إلى القدس ثم من القدس صاعداً إلى السماوات العلى ، وهي التفاصيل التي لم ترد في  
القرآن الكريم . على أن هذا لا يعني أن قصص الاسراء والمعراج قد انتشر على هذا النحو في حياة الرسول عليه  
السلام أو في السنوات التي تلت موته ، ولكن رواجه كان في زمن متأخر . وطوال هذه العصور انشغل الانسان  
بموضوعات تخص العالم الآخر وذكرها له الدين مثل ، الجنة والنار ، وسدرة المنتهى ، والعرش ، والسماوات السبع .  
ولهذا ليس غريباً أن يجد الخيال الشعبي في قصة الاسراء والمعراج مجالا فسيحاً يصور من خلاله كل هذه الجوانب  
في العالم السابوي .



ولا يمكننا الآن أن نقدم رواية كاملة لقصة الاسراء والمعراج ، فان ذلك يستغرق حيناً كبيراً ولكننا نكتفي بأن تأتي بعض النصوص التي تبين كيف تصور الخيال الشعبي العالم الآخر بأبعاده المختلفة : وهذه المقتطفات تأتي بها من مخطوط من مخطوطات برلين ، ( ٣٥ ) ومن الطبيعي أنها وردت في غيره من المدونات . ويذكر في أول هذا المخطوط أنه من تأليف الكسائي ، ولا ندري ما اذا كان هو الكسائي النحوي المعروف أم غيره .

وتبدأ القصة بأن فاطمة ابنة الرسول عليه السلام سمعت رُقاً علي الباب ، فلما فتحت « رأَت شيئاً مهاباً وعليه من الحل والحلل ، وله جناحان وقد سد بها المشرق والمغرب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالدرر والجواهر ومكتوب على جبينه لا اله الا الله محمد رسول الله . فرجعت فاطمة الزهراء الى أبيها وقالت : يا أبا ان في الباب شخصاً قد أهانني وأفزعني ما رأيت مثله أبداً وقال أريد محمداً . قال : فخرج اليه سيد الخلق وجيب الحق فلما رآه جبرائيل قال : السلام عليك يا محمد . قال النبي ( س ) وعليك السلام يا أخي جبرائيل . أمر حدث أو وحى نزل أو وعد حضر ؟ قال جبرائيل : « يا محمد قم والبس ثيابك وسكن روعك فانك تريد ان تناجي في هذه الليلة من لا تأخذه سنة ولا نوم » ثم تصف القصة البراق على نحو ما وصفت السيرة مع بعض الاضافات فعندما تساءلت البراق قائلة « قد ركبني آدم صفوة الله وإبراهيم خليل الله فمن هذا الذي هو اكرم منهما ؟ أجابها جبريل قائلاً : هذا محمد حبيب الله ورسول رب العالمين وفضل من في السماوات والارضين وكل الخلائق يرجون شفاعته يوم القيامة ، الجنة عن يمينه والنار عن شماله فمن صدقه دخل الجنة ومن كذبه دخل النار فقالت البراق : قل لصاحب الوجه الانور والجبين الازهر والحوض الكوثر والشفاعة الكبرى أن يدخلني الجنة بشفاعته حتى اركبه ظهري ويكون يوم القيامة فخري وذخري فقال النبي : يا براق انت في شفاعتي ومعى في الجنة . »

ثم ركبها الرسول ( ص ) وطار به . وتحكي القصة على لسانه عليه السلام بعد ذلك فتقول « فبينما انا سائر واذا انا بمنادي ينادي قف يا محمد قليلاً حتى اكلمك كلمتين فاني انصح البرية لك ولأمتك ، فسرت ولم التفت وكان ذلك توفيقاً من الله تعالى » وتكرر هذا المشهد مرة أخرى ، ثم فاذا بامرأة نافثة شعرها فطلبت منه ان يقف ولم يفعل . فسأل عليه السلام جبريل قائلاً « لاتسمع لك ولا ترى ما ارى ؟ قال : بلى يا محمد سر فسوف يأتيك تأويل ذلك . ثم سارت البراق حتى علت جبال الطور واراض فلسطين فقال لي جبرائيل يا محمد انزل وصل هنا ركعتين فقلت ما هوذا الموضع . قال : هذا الموضع الذي كلم الله به موسى بن عمران ، ثم سرت قليلاً فقال جبرائيل : انزل وصل هنا ركعتين فقلت يا أخي جبريل : امرتني بالصلاة ها هنا فقال : هاهنا ولد أخوك عيسى بن مريم ثم ركبت وسارت البراق . فقلت يا جبرائيل : من الماتف الذي صاح عن يميني ؟ قال : يا محمد ذلك داعي اليهود فلو اجبته لتهودت بعض أمتك . واما الماتف الآخر الذي صاح عن شمالك فذلك داعي النصارى ، فلو اجبته لتنصرت بعض أمتك ، واما المرأة التي رأيتها فهي الدنيا فلو أجبتها لكنت أمتك اختارت الدنيا على الآخرة » .

ثم تصف القصة المراج فتقول على لسان الرسول عليه السلام كذلك « فنظرت الى المراج إذا أصله صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء الدنيا من حسنه وجماله وإذا مراقبه مختلفة الألوان مرقة من ياقوت ومرقة من لؤلؤ ومرقة من الزبرجد ومرقة من الذهب الاحمر ومرقة من النسك الأذفر ، فاخذ جبريل بيدي وجعلني على مرقة من مراقبي المراج وقبل ما بين عيني وضممني الى صدره وقال لي أكرم الخلق على الله سرمي صلوات الله عليك وسلامة ثم كفني بجناحه وعرج بي حتى صرنا في الها فغار بصري من مقامات المتعبدين ومواقف المجتهدين »

ثم تستطرد القصة فتصف عوالم السماء وتبدأ بالسماء الاولى التي يصفها الرسول (ص) بقوله : ثم ارتقينا الى سماء الدنيا فاستفتح لي بابها فقالوا : من معك يا جبريل قال : معي محمد حبيب الله فقالوا : مرحبا بك وبعين معك ، ثم فتح الباب فنظرت الى خازن السماء الدنيا وإذا هو عجيبي الحلقة يقال له اسماعيل وهو جالس على كرسي من نور وحوله سبعون الف ملك مثله ويبد كل واحد حربة لامعة وهم يسبحون الله تعالى وإذا عصي واحد من اهل الارض يتنادون عصي فلان بن فلان فيغضب الله والملائكة لغضبه وإذا استغفر الله وتاب سمعت الملائكة استغفاره وتوبته فينادون ان الله قد رضى على فلان بن فلان، وإذا انا ملائكة بأيديهم الحراب والملائكة يسلمون على ويدعون لأمتي ثم تقدمت امامي وإذا انا بملك نصفه من تلج ونصفه من نار لا التلج يطفى النار ولا النار تطفى التلج وإذا له الف الف راس في كل راس الف الف قم وفي كل قم الف الف لسان يسبح لله تعالى بالف الف لفة ، كل لفة لاتنسبه الاخرى وهو يتنادى اللهم يا من الف بين التلج والنار الف بين قلوب عبادك المؤمنين فتقول الملائكة « آمين » .

وتستمر القصة على هذا النحو من الوصف الخيالي المثير حتى يلتقي الرسول ( ص ) بعزرائيل قابض الأرواح فيجدها الراوي فرصة لأن يسأل السؤال الملح وهو كيف يقبض عزرائيل وحده أرواح الناس جميعا . يقول الراوي على لسان الرسول ( ص ) : « وإذا أنا بملك عظيم الحلقة جالس على كرسي من نور وعن يمينه لوح وعن يساره شجرة وهو تارة يحمد النظر في اللوح وتارة في الشجرة ، وحوله ملائكة غلاظ شداد بعدد التراب وهم يسارعون الى أمره وتبته . فلما رأيته ارتجف قلبي وطار لبني ، فقال جبريل يا محمد لا تفرح منه أتدري من هذا ؟ قلت : لا . قال : يا محمد هذا هادم اللذات ومفرق الجماعات ومغرب الدور ومعمد القبور ، هذا ملك الموت هو ومالك خازن النار ملكان فطان غليظان لا يضحكان الى يوم القيامة . أذن منه وسلم عليه . فدونت منه وسلمت عليه فلم يرد علي السلام . فقال له جبريل : لاترد السلام على سيد الخلق وحبيب الحق محمد حبيب الله ، فلما سمع عزرائيل كلام جبرائيل وثب قائما على قدميه واعتذرمي وهأنني بالكرامة من الله تعالى وقال : أبشر يا محمد فان الحير فيك وفي أمتك الى يوم القيامة . ثم قال النبي ( ص ) يا أخي عزرائيل : كيف تقبض الأرواح وأنت في مكانك ؟ قال : أعلم يا محمد ان الله أيدني بخمسائة من الملائكة ، فإذا بلغ العبد أجله واستوتني رزقه ، أرسلت اليه أربعين ملكا يعالجون روحه من العروق والعصب واللحم ويقبضون روحه من رؤس الأنامل وينقلونها الى

الركب ويريمون الميت ساعة . ثم ينقلونها الى الحلقم فأتوا بها واسلها كالشجرة من العجين وأقبضها بحرمتي هذه .. قلت : وكيف تعرف اذا حضر أجل العبد ؟ قال : يا محمد ، ما من عبد ولا أمة إلا وله في السماء بابان ، باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه وهذه الشجرة التي عن شمالي كل ورقة مكتوب عليها اسم صاحبها حتى اذا قرب أجل العبد اصفرت الورقة التي عليها اسمه فتسقط على الباب الذي نزل منه رزقه وسود اسمه في اللوح المحفوظ فاعلم انه مقبوض فانظر اليه نظرة فيضعف جسده ويقع في فراشه مريضاً فارسل اليه من عند الله اربعين ملكاً يعالجون روحه ، ويهبط الى العبد ملكان من السماء فيقف الواحد عند يمينه والآخر عن شماله فينادي الملك الموكل بعمله : ايها العبد عظم الله أجرك في مصيبتك فقد طويت صحيفة عملك فلا يصعد لك عمل الى يوم القيامة يعني لا من حسنة ولا من سيئة تنقص وينادي الملك الموكل برزقه : ايها العبد عظم الله أجرك في نفسك فقد طويت صحيفة رزقك فلا ينزل لك رزق الى يوم القيامة فعند ذلك يشخص بصره الى السماء فتصغر الورقة لذلك ، فاذا نظر اليها بكى وإذا بكى سقطت الورقة واغلق البابان ؟ .

ثم يقابل الرسول عليه السلام الانبياء في طريقه في السماوات العلوا ، ولم يبق بعد ذلك الا سدرة المنتهى فيقول : « ولم أزل سائراً حتى اخترقت سبعين الف حجاب من الاستبرق وسبعين الف حجاب من السندس الاخضر وسبعين الف حجاب من الضياء ثم انتهيت الى حجاب الدخان ثم الى حجاب الثلج ثم الى حجاب البرد ثم الى حجاب الجبروت ثم الى حجاب الملكوت ثم الى حجاب الجلال ثم الى حجاب الجلال ثم الى حجاب القدرة ثم الى حجاب البهاء ثم الى حجاب البقاء ثم الى حجاب السلطان ثم الى حجاب الوجدانية ثم الى حجاب العظمة واذا النداء من قبل الله يا ملائكي ارفعوا الحجب التي بيني وبين حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم » .

ونكتفي بهذا القدر من قصة المعراج التي كثرت نصوصها وكان لها تأثيرها في رسالة الغفران « لا يبي العللاء المعري وكذلك في رسالة التوابع والزوايع » لابن شهيد فلما وصل كل هذا التراث الى الغرب أثر بدون شك في ملحمة « دانتي الخالدة » « الكوميديا الالهية » على نحو ما وضحه دارسو الادب المقارن .

( ١٠ )

ثم تأتي نهاية المطاف الى النص الذي يروى اليوم في المولد النبوي وفي غيره من الاحتفالات الدينية ويختلف هذا النص عن النصوص المدونة التي سبقت الإشارة اليها مما يدفعنا الى القول بأن الرواية اعتمدوا في هذه الرواية على خيالهم أكثر من اعتمادهم على النص الاصيل للسيرة أو على النصوص المدونة الأخرى . اذ لم تكن الأحداث التي روتها السيرة وألفها الناس هي التي تثير مشاعر الجماعة ، بل هي الاضافات التي تنبع من وحي مشاعرهم وتصورهم كيف احتفل الكون بأسره بميلاد الرسول عليه السلام منذ أن كان بكرة في بطن أمه الى أن خرج الى الوجود .

وتبدأ السيرة المروية بذكر نسب الرسول عليه السلام كما والحال في السيرة الأصلية . وتتوقف عند حادث حفر عبد المطلب لبئر زمزم ، ثم حادث خلاص عبد الله والد الرسول عليه السلام من مأزق تقديمه ضحية للألقة حتى تصل الى حمل أمنة بنت وهب في الرسول عليه السلام . ولتنظر كيف صور الراوي احتفال الكون بأسره بهذا الحدث الجليل .

« وفي أول ليلة من ليالي حمله صلى الله عليه وسلم أغلقت أبواب الجحيم وفتحت أبواب الجنة الرضوانية ، واطلع المحي القيوم وتجلّى برحمته ورضوانه التجلي العام ، واهتز العرش طرباً ومال الكرسي عجباً وانتشرت الرايات الربانية وتلاألت الكائنات بالألوان وتنكست على رؤوسها الأصنام ، ونظقت دواب قريش بالمقالات العربية وقالت حمل يرسل الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة فهو امام الدنيا وسراج الأنعام ، وفرت وحوش المغارب بالبشائر الفولية ، وبشرت حيتان البحر بعضها بعضاً بظهور مصباح الظلام ، ونادى لسان حال الكائنات جاءنا البسر بعد الشدائد العسرية .

ولا يقتصر الاحتفال على هذه الظواهر ، بل ان الأنبياء جميعاً بالغوا بهذا الحدث الجليل وظهروا للمشاركة فيه . وإذا كان الحمل قد دام تسعة شهور ، فان الأنبياء ظهروا على التسوالى ابتداء من آدم حتى عيسى ، كل في شهر . وكان كل نبي يبشرها بما اشتهر به أو عرف عنه . فاذا كان آدم قد أذنب فهو يبشرها بشقيع المذنبين ، وإذا ارتبط نوح بالسفينة فهو يبشرها بسفينة العلوم الدنية كما يبشرها الخليل إبراهيم بأنها حملت يرسل الله الخنيفية . وإذا كان اسماعيل أبا العرب فهو يبشرها بأنها حملت بأفضل من نطق بالعربية . وإذا كان الحديد لان لداد ، فهو يبشرها بأنها حملت بمن كانت الجوامد في يده لينة طرية . وعلى هذا النمو يبشرها موسى بأنها حملت بطور التجليات الالهية ، كما يبشرها عيسى الذي عرف بطهره وتبتهل بأنها حملت بأفضل من حج وصلى وصام وتهدف الرواية بطبيعة الحال أن تشير الى أن محمداً عليه السلام سيجي الى الدنيا وهو يحمل فضائل الأنبياء جميعهم كما يحمل كل ما منحوه من الله من قدرات .

ثم يحين وقت الولادة . وهذا المقام يليق بحضور النساء الطاهرات بالاضافة الى حوريات الجنة ، كما يحضره جبريل مع نفر من الملائكة . فاذا اجتمع كل هؤلاء وحانت لحظة الميلاد تدلت الكواكب وأضيء الكون .

« واشتد بآفة الطلق بلا رجع ولا اسقام ، وكانت السيدة في منزلها فدخلت عليها النسوة المحوريات ومعهن آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران فبدأنها بالتحية والسلام ، وأقبلت حواء في جماعة وجاءت سارة الخليلية وهن يمتنن بها أحسن تهنئة لأجل اغتنام . وفتحت أبواب السماء وزلت الملائكة الروحانية ، وأقبل الأمين جبريل في كوكبة من الملائكة ويده ثلاثة أعلام . ودقت طبول الأفراح في السموات والأرض وعبقت روائح الطيب بين العوالم الجبروتية وتطرر اللأ الأعلى بمنبر لحظات أوقاته العظام » .

« ولما بدا من بطن أمه كالشمس البهية سقط على يد أم عبد الرحمن بن عوف أحد البررة الكرام فسجد لمولاه على الأرض وأومأ بطرفه إلى السماء العلية . ثم عطس فقال الحمد لله رب العالمين بفصيح العربية فقالت له الملائكة يرحمك ربك ياخير الانام ، ثم غشته سحابة من النور فاخذته الملائكة فغيبتنه عن أمه ساعة زمانية وظافوا به جميع الكائنات فعرفه اهل السموات والأرض وكل منهم في محبته هام ، ثم ردت الملائكة إلى أمه وهو ملفوف في ثياب خضر سندسية وملك يقول يا عاز الدنيا ويا شرف الآخرة من قال بمقاتلك وشهد بشهادتك حشر تحت لوائك يوم الزحام » .

وهذا يكون الكون كله قد احتفل بالرسول عليه السلام منذ أول يوم حملت فيه أمه إلى بعد أن خرج منها إلى الدنيا .

وتنازعت الظواهر الكونية على رضاعته ، فقالت الملائكة : ربنا مرنا أن نحمله إلى السموات ونقوم بتربيته حتى القيام . وقال الغمام ربنا مرنا أن نحمله معنا إلى جوانب الأرض الشرقية والغربية . وقالت الوحوش ربنا مرنا أن نحمله إلى أوكارنا . وقالت الطيور ، ربنا مرنا أن نحمله إلى أعشاشنا وتلتزم بكفالاته حتى الانزمام . فخرج النداء بلسان حال القدرة الإلهية : معاشر الخلائق قد جعله الله رضيعا لحليمة فكان لها بذلك الحظ الأوفر والأعنتاء » .

وربما كان هذا هو الجزء الأكبر من السيرة الذي لونه الخيال الشعبي بتصورات فريدة وتستمر السيرة بعد ذلك مستغلة كل ماروي في النص الأصلي من أخبار معجزة سواء في أثناء إقامته عند حليمة أو في أثناء رحلاته مع عمه أبي طالب حتي تزوج خديجة ونزل عليه الوحي بعد ذلك . ولا تخلو الرواية من جزء من قصة الأسراء والمعراج التي سبقت الإشارة إليها . ولا تسرف الرواية بعد ذلك في حكاية صراع قريش مع الرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، كما لا تذكر مغازيه . ذلك أن هذا الجزء التاريخي لا يهمها بقدر ما يهمها وجود الرسول عليه السلام المعجز .

هذه هي الرواية الشعبية للسيرة النبوية . ومن المتفق عليه أنها لم تكتمل علي هذا النحو إلا في عصور متأخرة نسبيا . ولكن روايتها أصبحت بعد ذلك جزءا من حياة الشعوب الإسلامية . وتكثر هذه الروايات بصفة خاصة في مصر . وقد رأى بعض علماء مصر من زمن أن هذه الروايات قد « حشيت بقصص ضعيفة السند لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته في صورته الصحيحة » (٣٦) . ومن ثم فقد دعا وزير الأوقاف محمد نجيب الغرابي في عام ١٣٥٣هـ أهل العلم إلى وضع صيغة جديدة للمولد يراعي فيها تحري الأخبار الصحيحة . وقد قوبلت دعوة وزير الأوقاف بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية . ولم يعارضه من رجال الأدب والرأي سوى الدكتور طه حسين . قال له في رأيه الذي نشره في جريدة الوادي في عدد أول أغسطس سنة ١٩٣٤ ،

(٣٦) زكي مبارك ، المذائع النبوية - دار الكتاب العربي ص ٢٥٠ . نفسه ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

ضمن ما قال : « وأي بأس على المسلمين في أن تتحدث إليهم قصص كهذه الأحاديث الحلوة العذاب فتنبههم بأن أم الطير والوحش كانت محتصم بعد مولد النبي كلها يريد أن يكفله ولكنها ردت عن هذا لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي سيكون إلى حليلة السعدية ؟ وأي بأس على المسلمين في أن يسمعو أن الجن والانس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي ، وأن الشجر أورق لمولده ، وأن الروض ازدهى لمقدمه ، وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم ؟ لم تصح الأحاديث بشيء من هذا ولكن الناس يحبون أن يسمعو هذا ويرون في التحدث به والاستماع إليه تمجيذا للنبي الكريم لا بأس به ولا جناح فيه . وأي بأس على المسلمين في أن يسمعو أن نفرا من الملائكة أقبلوا إلى النبي وهو طفل يلعب فأضجعوه وشقوا عن قلبه وغسلوه حتى طهره ثم رده كما كان ، وأقاموه كأن لم يصبه مكروه ؟ لم يصح الحديث بهذا ولكن المسلمين يتحدثون به ويستمعون له منذ أكثر من اثني عشر قرنا لم يفسد لذلك ذوقهم ولم يضعف إيمانهم .. ان من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى في القصص البريء ، ان من فساد الذوق أن لا يباح للجاعات الا الحق الذي لا حظ للخيال فيه . ان من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين ؟

وهذه الكلمة الرائعة لتلك العقلية المتفتحة نختم مقالنا عن السيرة النبوية في الخيال الشعبي . وأحسب أنه لو كان قد استجيب لدعوة وزير الأوقاف وألف نص ملتمز بالتاريخ والدافع لما التزم به الشعب . فالخيال بالنسبة للحياة الشعبية مع جوهر ابداعها الفني ، وهو يوظف على نحو رائع للتعبير عن متاعبها النفسية وطموحاتها الاجتماعية وانهاراتها الدينية .



نريد في هذا البحث ان نلقي الضوء على دور المسجد في نشأة القصص وتطوره وتشعبه من قصص ديني قائم على الوعظ والتذكير ، الى اشكال اخرى من هذا الفن ، يمكن ان نسميها طبقا لمضامينها وأغراضها بالقصص السياسي ، والقصص الشعبي ، والقصص العسكري أو الحربي ، الى غير ذلك من التسميات التي تدل كل منها على نوع معين ويمتيز اشتغل واشتهر في ميدانه مجموعة من القصاص كان لهم أهمية كبرى في ميادين القتال ، بقدر ما كان لهم من آثار بعيدة المدى في الحياة الاجتماعية والفكرية ، ومن توجيه الناس نحو اتجاهات سياسية معينة وانهاياتهم المذهبية ، لا سيما بعد أن أصبح القصص وظيفة من الوظائف الرئيسية التي حظيت باهتمام الدولة في عالم الاسلام ، مما رفع من شأن القاص وسكانته الاجتماعية ، وزاد من موارده المالية بعد نجاحه في كسب ثقة أولي الأمر ورضاهم ، الى درجة أن زاد بعضهم من اختصاصاته ومسئوليته ، فجمعوا له الى هذا العمل « الدينني - السياسي » أعمالا أخرى لا تقل شأنًا وربما تزيد ، كما هو الحال مع عبد الرحمن بن حجية الخولاني ، قاضي مصر المشهور الذي جمع له واليهما عبد العزيز بن مروان مع القضاء ، القصص والاشراف على بيت المال ، ويبدو ان الفقيه القاص قام بهذه المهام الثلاث على اكمل وجه وأتمه ، فشمله الأمير الأموي برعايته وعطائه حتى أوصل رزقه الى ألف دينار في السنة ، فصدق فيه قول النابغة الذبياني :

وسن اطاعك فانفعه بطاعته  
كما اطاعك وادله على الرشد

#### الكهان والقصص

وعندما نبحث في نشأة القصص الاسلامي ،

## المسجد - والقصص والمذكرون

محمد توفيق بدیع

ان نفوسهم قد صفت حتى امكنها الاطلاع على اسرار الطبيعة وعلى ما تريد ان تكون منها ، بينما ادعى صنف آخر منهم أن الأرواح المنفردة ، ويقصد بها الجن ، تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، لأن ارواحهم صفت حتى صارت تلك الأرواح من الجن متفقه كما اشار الى ما تقول به التصاري الذين ذهب قوم منهم الى أن المسيح كان يعلم الغائبات من الأمور ويغير عن الأشياء قبل كونها ، لأن فيه نفس عالمة بالغيب ، ودلوا على ذلك بأنه لو كانت تلك النفس في غيره من الأشخاص الناطقين لعلم الغيب مثله ، ثم استطرده السعدي مبينا وجهة نظر فريق آخر - تتمشى مع ما نادى به حكام اليونان - أرجعوا فيها أسباب التكهن الى عوامل نفسية تولد من صفاء مزاج الطبايع - وقوة النفس ولطافة الحس ، فاذا قويت وزادت قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف ، وبخبرته بكل معنى شريف . ويقرر العالم الرحالة ان الكهانة يمثل هذا المفهوم النفسي كانت في العرب على الاكثر وفي غيرهم على وجه الندرة ، ثم يعلل أسباب نجاح أقطاب الكهان العرب بقدرتهم على قمع شرور أنفسهم بكثرة الوحدة وإيمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الانس بهم ، لأن النفس كما يقول - اذا تفردت فكرت ، واذا هي فكرت تعدت ، واذا تعدت هطلت عليها سحب العلم النفسي ، فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالثور الثاقب ، وبضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الاشياء على ما هي به وعليه ، وربما قويت هذه النفس في الانسان فاشرقت به على دراية الغائبات قبل ورودها ، ولم يفته أن يشير هنا الى أن أهل اليونان كانوا يبتغون مثل هذه الطائفة من أصحاب النفوس الصافية النورانية بالروحانيين . ( ٢ )

والتعرف على شخصيات القصاص الذين ذاع صيتهم وعلت منزلتهم بين طبقات المجتمع في المدينة الاسلامية علينا أن نتوقف عند العصور الجاهلية للتعرف على أصول هذا الفن ، ومن حسن الحظ ان المصادر التي بين ايدينا قد امدتنا بأخبار مفيدة وطريقة في ذات الوقت عن الكهان الذين يمكن أن نعتبرهم اكثر من غيرهم كالحكام والعرفان - اقرب الناس شيها بالقصاص فما كانوا يجربون به كل من يلجأ اليهم طلبا لمشورة أو محاولة لكشف الاستار عما يحبته المستقبل من احداث .

ولعل ابن خلدون ومن قبله السعدي يأتیان في مقدمة الكتاب العرب الذين خصوا الكهانة والكهان بفصول مفصلة ومفيدة من مؤلفاتها .

فأبو الحسن علي بن الحسن السعدي ( ت ٣٤٦ هـ ) الرحالة والجغرافي والمؤرخ المعروف الذي نعتة المستشرق الروسي كراتشكوفسكي بأنه قاص ماهر ، يقف على قمة المعارف الجغرافية لعصره ، ويتطلع الى الحصول على أحدث المعلومات عن البلاد التي لم يزرها ( ١ ) عقد هذا العالم العربي فصلا طريفا في « مروج الذهب » فصل فيه القول عن الكهانة التي يكن - كما اشرنا - اعتبار القائمين عليها والمشتغلين بها من أوائل القصاص الذين اجتمع اليهم الناس ، وطلب مشورتهم أصحاب السلطان والنفوذ كلما داهمهم الأحداث وأطبقت عليهم الملمات .

تحدث ابو الحسن السعدي في هذا الفصل عن نشأة الكهانة واختلاف الاقوال فيها ، فذكر ان حكام اليونان الذين اشتغلوا بها ادعى صنف منهم

١ - اعطاليس كراتشكوفسكي - تاريخ الادب الجغرافي العربي - الترجمة العربية - ج ١ - ١٨١ - ١٨٣ .

٢ - مروج الذهب للسعدي - ج ٢ - ١٤١ - ١٤٥ .



وتذهب في غيبوبة بعيدة تهذي خلالها بكلمات تتضمن الاجابة على كل ما سأل عنه السائلون فيقلهاها الكاهن منها ويفسرهما لأصحابها .

وبما تجدر الإشارة إليه أنه إذا لم تكن تتحقق تلك النبوءات ، أوجاءت الأحداث والأيام بعكس ما تنبأت به الكاهنة ( بيثيا ) فالذهب كله يقع على الشخص صاحب النبوءة لأنه لم يستطع فهم تفسير ما أخبره الكاهن الذى لابد ان يكون قد تلقى الاجابة الصحيحة التي أوحى بها الى ربيته الكاهنة بيثيا ، الاله العظيم أبطلون المعصوم من الخطأ والصادق داتها .(٣)

ولعل ذلك التفسير يلقي مزيدا من الضوء على مدى الايمان العميق بهذه الآلهة وكل ما تأتي به وكذلك المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها الكهان في ذلك الزمان .

من ناحية أخرى نلاحظ ان وصف المسعودى لهذه الفئة الروحانية هو نفسه ما عبر عنه بعض فلاسفة المسلمين المشهورين كابن سينا ، الذين رأوا في العقل البشري قوة من قوى النفس أطلقوا عليها « النفس الناطقة » وقسموها الى نوعين : الأول عملي يسوس البدن وينظم السلوك ، والآخر نظري يختص بالادراك والعرفه ، يتقبل المدركات الحسية ويستخلص منها المعاني الكلية ، ثم قالوا ان في وسع هذه النفس الناطقة أن تتسوالى مرتبة سامية تستطيع عندها أن تنكشف لها العقول ، وتخلص الى عالم القدس ، عندها تبلغ السعادة التي ما بعدها سعادة ، فالتنفس بهذه الصورة جوهر رוחي متميزة من البدن

ولا نستبعد أن يكون المسعودى قد قصد من كلمة « الروحانيين » التي أطلقها على تلك الفئة ما عرفه الاغريق عن تنبؤ ومعرفة المستقبل الذي اشتهر به بعض آلهتهم مثل زيوس ( Zeus ) الذي كان الناس يتوافدون الى معبده في مدينة دودونا ( Dodona ) أولى غيرها حيث تتواجد معابده ، يستفسرون منه عن أحداث المستقبل - فكان يحصل على اجابات استلهم بطرق عجيبة كان يستخلصها من صوت حفيف اوراق شجرة بلوط قديمة ، او من بعض أوان نحاسية تعلق في أغصانها ، أو من هديل الحمام الواقف عليها ، أو من خرير مياه أحد الينابيع .

أما إلهه أبطلون ( Apollon ) فقد فاق سابقه في هذا الميدان ، فهو الاله الواقعي من الشر وإله التطهير ، وإله النبوءة ، فمكنته هذه الاختصاصات المتعددة من ان يتربع على عرش معرفة الغيب والقدرة على كشف استار المجهول والتنبؤ بالمستقبل .

فكان طالوومشورته ومريدو نبوءاته يتوافدون الى معبده في دلفي قبل الاقدام على بعض الاعمال التجارية الهامة ، بالاضافة الى ما يمس حياتهم الخاصة كالزواج وأسباب العقم ، كما كان يسأله الزعماء والرؤساء ان يتعرف لهم على مستقبل ممالكهم وما يتعلق بحروهم وتأسيس المستعمرات وغير ذلك من شئون الحكم والمملك .

وكان يعمل في معبد الاله ابطلون فريق من الكهنة من اشتهرهم ذلك الكاهن الذي كان يتلقى استئلة الناس وتوصيلها الى كبيرة الكهنة التي تدعى بيثيا ( Pythia ) فكانت تنقص روح الاله

(٣) انظر : د . عبد الطيف احمد علي - التاريخ اليوناني - العصر المملائي ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٧ والمراجع أيضا .

لا تفتنى بانعدامه لأنها من عالم العقول المفارقة والنفس الفلكية . ( ٤ )

ثم عاود المسعودي حديثه عن الكهانة واستماعة الكهان بالجن ، وذكر أن هذا الرأي يتفق مع ما نادى به الغالبية فقال : ذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يغيره بما غاب عنه ، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار بحسب ما يرد إليهم . ( ٥ )

ويلاحظ أن هذا الرأي هو مذهب إليه علماء اللغة عندما فسروا معنى الكهانة والتكهن بمن قضى له بالغيث ، وقالوا أن الكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار ، وأن منهم من كان يذكر أن له تابعا من الجن ورنيا يلقي إليه الأخبار ويطلعه على ما يزعم من الغيب ، لذلك قبل أن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان من العرب في الجاهلية فيؤدون إلى الناس الأخبار بحسب ما يرد إليهم أو يزيدون فيه ، وتقبله الكفار منهم وقد أوضح صاحب « المحبر » ذلك فقال « لا يكون كاهنا حتى يكون معه شيطان تابع له » . ( ٦ )

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال في محكم آياته « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم أنكم لمشركون » . ( ٧ )

كذلك كان من بين كهان العرب من زعم أنه كان يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقفها من كلام من يسأله ، أو من حاله أو من فعله ، وأطلق العرب على مثل هذا الشخص اسم « العراف » الذي كان يدعي معرفة الشيء المسروق ، وسكان الضالة ونحوها ، وكان هؤلاء العرافون دون الكهان في المنزل ، ومن أشهرهم الأبلق الأزدي ، والأجلح الدهري ، ورباح بن عجلة ، عراف اليمامة الذي قال فيه عروة :

جعلت لعراف اليمامة حكمة  
وعراف نجد إنهما شفياني ( ٨ )

أما الفيلسوف العربي ابن خلدون ، فقد كان أكثر توفيقا من المسعودي في كتاباته عن الكهانة فلم يرض عن كل ما ذكره صاحب المروج ، بل وعتقه بأنه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف ، يتقبل ما سمع من أهله ومن غير أهله ( ٩ ) وهو نفس النقد الذي وجهه بعض الباحثين المحدثين للمسعودي عندما أشاروا إلى أنه سطر في مؤلفاته القيمة العديد من الأخبار كما سمعها من الرواة دون تمحيص أو نقد فجاءت كالأساطير ، بعيدة عن الواقع ومجازية للحقيقة . وهذا كان الأمر ، فالملحوظ أن ابن خلدون قد غاص بفكره الناقد وعقله المدقق إلى إعاق أفعال من سبقه من الكتاب لسبر غورها ، واستجلاء حقيقة الكهانة ، وخرج لنا بنتيجة مقبولة وهي أن

(٤) انظر مقال : الدكتور إبراهيم مذكور في الفلسفة في كتاب : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية - القاهرة : ١٩٧٠ ، ص ١٤٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦

(٥) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ ص ١٥٢ .

(٦) محمد بن حبيب البغدادي - كتاب المحرم ٢٩٠ ، أنظر كذلك : لسان العرب لأبي منظور كلمة « كهن »

(٧) الانعام / ١٢١

(٨) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٥٤ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٦ ، انظر كتاب الميراث للمصنف ج ٦ ص ٢٠٤

(٩) المقدمة لأبي خلدون - ص ٦٦ .

في محكم كتابه حيث قال تعالى « ولله غيب السماوات والأرض واليه يرجع الأمر كله . »

وقال تعالى « قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب إلا الله » ( ١٢ ) حتى الانبياء والمرسلين لم يظلموا على الغيب ويتعرفوا على اسراره إلا عن طريق الوحي ، وقد اوضح القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » . ( ١٣ ) ويوضح هذا النص ما كان من احداث الماضي التي دخلت نطاق المجهول من التاريخ الذي لم يعرفه الرسول الكريم ( صلعم ) وهو ما ينطبق ايضا على المستقبل ، كما يتضح في قول الحق تبارك وتعالى على لسان نبيه المصطفى ( صلعم ) « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرراً الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » . ( ١٤ ) فاذا كان الامر كذلك فان كل ما قيل عن الملائكة والجن والشياطين وغيرها من المخلوقات التي يمكنها ان تعلم الغيب يظل مرتبطا هو الآخر بمشئته الرحمن ، فقال تعالى فيما قصه عن آدم عليه السلام « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » . ( ١٥ ) وكذلك من الأخبار عن موت سليمان ، يقول

الكاهن لا يقوى على الكمال في ادراك المعقولات ، لأن وجهه من رحي الشيطان الذي يهيج في قلبه ما يقذفه على لسانه ، فربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب، وفسر العالم الفقيه ذلك قائلا : إن الكاهن يحاول أن يتم نقصه بامر ذلك الهاجس الغريب عن ذاته المدركة ، المباین وشير الملائم لها ، فيعرض له الصدق والكذب معا فلا يكون موثوقا ، كما اشار الى أن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا ، وانتهى الى ان ارفع الكهان مكانة واكثرهم شهرة من استعان بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليقوي على ما في نفسه من نقصان . ( ١٠ ) ولاحظ ان ما ذكره ابن خلدون يتمشى مع الحديث النبوي الشريف الذي اخبره الاسام البخاري منسوبا الى السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت : سألت رسول الله ( صلعم ) ناس عن الكهان فقال : ليس بشيء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا احيانا بشيء فيكون حقا ، فقال رسول الله ( صلعم ) : تلك الكلمة من الحق يختطفها من الجن فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة . ( ١١ )

ويعتبر التنبؤ بالغيب والأخبار بما يمكن ان يقع في المستقبل - على الاقل من وجهة نظر المسلم - من الأمور غير الممكنة ، إن لم تكن مستحيلة على البشر جميعا ، لأنه من شئون الخالق المدبر لأمر العباد ، ومن العلوم التي تفرد بها رب السماوات والارض كما اخبر

(١٠) المصدر السابق ص ٦١ .

(١١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٤ .

(١٢) انظر على التوالي سورة هود / ١٢٣ ، والنمل / ٦٥ .

(١٣) آل عمران / ٤٤

(١٤) الاعراف / ١٨٨ .

(١٥) الفرقه / ٣١ - ٣٢ .

العرب ، والذي غلب الخيال على الحقيقة في كل ما روته المصادر المختلفة عنها .

أما أولها فهو ربيع بن ربيعة بن مسعود ، الذي ينسب الى غسان ، وعرف بسطيط لانه كان جسدا ملقى لا جوارح له ، فكان لا يقدر على الجلوس الا اذا غضب ، حينئذ ينتفخ جسده ويجلس ، ومن رواية أخرى أن جسده كان يدرج كما يدرج الثوب لاعظم فيه الا حجمته الرأس ، وكانت اذا لمست باليد يلين عظمها . وقد بلغ هذا الرجل « العجيب البنية » من الكهانة مالم يبلغه أحد ، حتى عرف : بكاهن الكهان . ( ١٨ )

أما معاصره ، ونده في الكهانة والشهرة ، فهو شق بن صعب بن يشكر ، الذي ينحدر نسبه من أنمار بن ربيعة بن نزار ، وقد عرف هو الآخر بهذا الاسم لأنه كان شق انسان ، له يد واحدة ، ورجل واحدة ، وعين واحدة ( ١٩ ) .

ومن القصص الذي يروي في هذا الشأن أن الأعراب وأشباهم كانوا في جاهليتهم لا يتحاشون الايمان بالهاتف ، بل يتعجبون ممن رد ذلك ، وكانوا يرون أنه اذا ألف الجنى انسانا وتعطف عليه وخبره ببعض الأخبار وجد حسه ورأى خياله ، عندئذ يصيح مع هذا الانسان رثى من الجن ، وقد قالوا ذلك في زعماء من ذوي الأقدار مثل عمرو بن لحي ، وفي كهان مثل شق وسطيط ، وفي عرافين مثل الأبلق الأسدي ، ورياح بن كحل .

الله تعالى « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خُرِثِبت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » . ( ١٦ )

اما الذين ذهبوا الى ان الشياطين كانت تسترق السمع من السماء وتلقي بما سمعته في آذان المشتغلين بالكهانة وغيرهم فلم يفت القرآن الكريم الاشارة الى إفك من ادعى معرفة الغيب عن هذا الطريق وكذبهم - كما اشترنا - فقال تعالى « هل انبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفكاث اثم ، يلقون السمع واكثرهم كاذبون » . ( ١٧ )

كذلك يثبت الأحاديث النبوية كذب الكهان والعرافين وامثالهم من ادعى معرفة الغيب عن طريق الشياطين ، ودمعت من يصدقهم بالكفر والشرك ، فيروي عن النبي ( صلعم ) في ذلك قوله « من أتى عرافا او كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد » .

وبالرغم من كل ذلك فان النصوص المختلفة تقدم لنا صورا عديدة لنسوبات كهان العرب من الرجال والنساء على السواء التي كثر الحديث عنها قرب مبعث نبي العرب ورسول الاسلام ( صلعم ) وهي - كما نرى - لا تتعدى كونها نوعا من القصص الذي يمكن ان يكون قد وضع على ألسنة عدد من هؤلاء الكهان ، مثل سطيط ، وشق أشهر كهان

(١٦) سبأ / ١٤ .

(١٧) الصمراء / ٢٢١ - ٢٢٢ .

(١٨) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ ، وله أيضا : أخبار الريان ، ص ١١٧ ، أنظر كذلك الروض الألف للسهيلي - طبعة بيروت - ج ١ ص ٧ .

(١٩) السهيلي - الروض الألف ج ١ ص ٢٧ ، أما المسعودي فقد سته يحكم العرب في الجاهلية ، وذكراته غير شق بن حويل بن ادم بن سام بن نوح أول كاهن في العرب العاربة - أخبار الريان ص ١٢٢ - ٢٢٣ .

الذي أخذ هذا الفن عن ابن سريج ، والذي نبغ في زمن الوليد بن عبد الملك وغنى في حضرته ، وكان متفوقا على كل معاصريه في الرثاء والنياحة ، هذا المغني الفنان الذي استوطن مكة لم ينبج من ايداء الجن ، فعندما تغني بهذا الصوت .

تشرب لون الراقصي بياضه  
أو الزعفران خالط المسك رادعه  
قله الجن لأنهم - كما قالوا - نهوه أن يتغنى  
به . ( ٢١ )

ومما يستوقف النظر أن المسعودي حاول أن يرجع سبب التشوه الخلقي والنقص الجسدي الذي حدث لبعض كهان العرب إلى تفوق النفس الناطقة على الجسد الميت ، ورأي أنه عندما تقوي النفس وتصفو تغلب على الجسد الذي لا يمكنه الحركة إلا بها ، عندئذ تستطيع هذه النفس القوية أن تعهر الطبيعة وتظهر للانسان أسرارها وتهديه إلى استخراج الغيب وعلم الآتي ، فقال : « فإذا كانت النفس في غاية البروز ، ونهاية الخلو ، تامة النور ، وكاملة الشعاع ، كان تولجها في دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة ، وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأجسام ، وتشويه الخلق ، كما اتصل بنا عن شق وسطيح وسحلقة وزوبعة ، وأشباههم من الكهان » . ( ٢٢ )

ومن القصص الذي ألبس ثوب التاريخ ، أن كلا من سطوح وشق ولدا في اليوم الذي ماتت فيه طريقة الكاهنة ، امرأة عمرو بن عامر ، وأنها أخذت

ومن أعجب ما قالوا به أن من الجن جنس على صرة نصف انسان أطلقوا عليه اسم « شق » وأنه كثيرا ما يعرض للرجل المسافر إذا كان بمفرده ، فربما أهلكه من الفرع ، أو قتله من الضرب ، وساقوا في ذلك العديد من القصص والأساطير ، كحديث علفمه بن صفوان بن أمية الكناني ، جد مروان بن الحكم ، الخليفة الأموي ، فقد خرج علفمة في الجاهلية يريد مالا له بمكة في ليلة أضحيانة ، أي مضنية لا غيم فيها ، فلما انتهى إلى موضع يقال له حائط خرمان ، عرض له شق من الجن له يد ورجل وعين ، فضرب كل منها صاحبه حتى خرا ميتين .

ولم يكن علفمه هذا هو الوحيد الذي راح ضحية الجن ، بل كان هناك العديد غيره مثل حرب بن أمية بن عبد شمس ، والد أبي سفيان ، وقد سافوا في مقتله هو الآخر قصة طريقه ، وذكروا أن الجن قالت فيه هذا البيت من الشعر :

وقبر حرب بمكان قفر  
وليس قرب قبر حرب قبر

وحاولوا التذليل على صحة نسبة هذا الشعر للجن بأن أحدا لا يستطيع أن ينشده ثلاث مرات متصلة لا يتتبع فيها ، في الوقت الذي يمكنه أن ينشد أقل شعر معروف وأشبهه ، عشر مرات متتالية دون أن يتتبع . ( ٢٠ )

حتى المغنين لم يسلموا بدورهم من هذا القصص الأسطوري ، فذكروا أن الغريص ، المغني المعروف

( ٢٠ ) كتاب الحيوان ، للجاحظ ج ٦ ص ٢٠٢ - ٢٠٨ انظر كذلك : المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

( ٢١ ) الأعادي ، لأبي الفرج الأزهري - طبعة بيروت ١٩٥٦ - ج ٢ ص ٢٨٦ .

( ٢٢ ) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٤٤ .

بانتهاه ملكه واستيلاء الأحباش على بلاده ، وبعدما يخرج من عدن ابن ذي يزن ليحرر البلاد من نير الأحباش ، ثم ينقطع سلطانه هو الآخر بظهور النبي العربي القرشي الذي تختاره السماء للتبشير بدين جديد . فلما سأله الملك عن مدى صدق نبوءته أكدها له الكاهن قائلاً : « والشفق والغسق ، والفلق إذا انشق ، ان ما أنباتك به الحق » .

فلما حضر شق ، أخبر هو الآخر تبع اليمن بمثل الذي قاله سطيط مع اختلاف يسير في اللفظ ، دون أن يخرج عن مضمون النبوة ، وإبراز القصد منها . وقد عمر سطيط زماناً طويلاً بعد ذلك الحديث ، وكانت له نبوءات أخرى مع كل من عبد المطلب بن هاشم ، وكسرى أنوشروان ، حيث قضى لجد النبي ( صلعم ) بماء له في الطائف عندما نافره عليه الثقيفون ، وقسر رؤيا ملك الفرس عن ارتجاس الايوان وخود النيران بانتضاء سلطانهم ونهاية دولتهم على يد العرب بعد ظهور رسول الاسلام ( صلعم ) . (٢٤)

فاذا أمتنا النظر في أقوال هذين الكاهنين ، نلاحظ أنها جاءت متمشية مع طبيعة العصر الذي عاشا فيه ، وظروف البيئة ، والمنطقة العربية التي وجدوا فيها ، بالإضافة الى ما كان من استعداد الناس وحاجاتهم في نفس الوقت ، الى دين جديد ينقلهم من الظلمات الى النور ، فقد تنبأ كل منهما ملك اليمن وكسرى فارس بانتضاء ملكيها على يد دولة العرب بعد ظهور نبي الاسلام ( صلعم ) الذي ينتسب الى قريش ، صاحبة المكانة الرفيعة والمنزلة الخاصة عند القبائل العربية كلها ، وعزوا تلك النهاية لسلطان

الكهانة عنها ، فقبل أن تموت أحضر سطيط اليها ، فتلفت في فيه ، وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها ، وكذلك فعلت بشق ، ثم ماتت . ( ٢٣ )

وبما يبعث على الدهشة والعجب في نفس الوقت أن النصوص المختلفة التي أوردت أخبار هذين الكاهنين قد أجمعت - رغم ما ذكرته عن تشبه جسدتهما - على أنها كانا من أشهر كهان العرب وأكثرهم ذكراً عند الكتاب والمؤرخين ، فكان الملوك والرؤساء يتنافسون اليها في الحفصات ليعرفوهم بالحق فيها ، ويفزعون الي لقائهما للتعرف من مدارك غيبها على أحداث المستقبل ، بالإضافة الى تفسير الرؤى ، وغير ذلك من المهول .

ولعل من أشهر ما روى عنها في ذلك شخصوها الى ملك اليمن ربيعة بن نصر عندما استدعاهما لتأويل الرؤيا التي حالته ووقع بها ، بعد أن عجز الكهنة والسحرة والمجمون من أهل مملكته عن تفسيرها ، وكان الملك يشترط عليهم أن يخبروه برؤياه قبل أن يفسروها له قائلاً : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن الى خبركم عن تأويلها ، فانه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، لذلك نصحه رجل منهم بأن يستعين في ذلك بسطيط وشق باعتبارهما أعلم العرب وأقدرهم على تحقيق رغبته ، فبعث اليها ، وكان سطيط أسبق اليه من صاحبه ، فطلب منه الملك أن يخبره بالرؤيا أولاً ، فقصها عليه الكاهن قائلاً : « رأيت خمسة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض نهمه ، فأكلت منها كل ذات حجمة » فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا سطيط ، ثم أمره بتأويلها ، فأخذ الكاهن يسجج له بكلام أخبره فيه

(٢٣) الروض الألف للسهلي - ج ١ ص ٢٧ .

(٢٤) السويدي - أخبار الزمان ص ١١٧ - ١١٨ ، الروض الألف للسهلي ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ ، مقنة ابن خلدون ص ٦٦ .

صاحب من الجن أستمع أخبار السباء من طور سيناء حين كلم الله تعالى موسى - عليه السلام - فهو يؤدي الي من ذلك ما يؤيده . ( ٢٧ )

المعروف أن ابن منبه (ت: بين ١١٠ و ١١٦ هـ) ، الذي كان له أثر كبير في تطعيم القصص الاسلامي بالاسرائيليات ، كان على معرفة واسعة بالتوراة ، كما قرأ العديد من كتب السابقين ، فلما دخل في الاسلام تفقه في الدين واتخذ له مجلسا للوعظ والتذكير كانت تغشاها جموع كبيرة من المسلمين فتحته صاحب « حلية الأولياء » والحكيم الدافع للمشبه ، والحكيم الدافع للمتشفه ، وغدا من أشهر قصاص اليمن ، فقال عنه كذلك ابن خلكان ، أنه صاحب أخبار وقصص ، له معرفة بأخبار الأوائل ، وقيام الدنيا ، وأحوال الأنبياء وسير الملوك . (٢٨)

ولا نستبعد أن يكون الدافع وراء هذا القصص الذي روى على لسان كل من سطحي وشق ابراز أهمية النقلة الجديدة التي أحدثها الاسلام في حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية من جهة ، وبيان الجهد الضخم الذي قام به الرسول الأعظم ( صلعم ) في هذا المجال ، من جهة أخرى ، لاسيما وأن القرآن الكريم قد وضع الاصول لذلك كله ، مما أفسح المجال أمام العرب للاعتزاز بجهدهم في تأسيس دولة الاسلام الأولى ، وتوصيل الدين

تابعة اليمن وأكاسرة الفرس الى ظهور الدين الجديد الذي سيدعو له - كما ذكر سطحي - نبي زكي من أبناء غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يأتيه الوحي من قبل العلي ( ٢٥ ) . كما أشار الكاهنان أيضا في حديثهما الى فكرة البعث والنشور والحساب والجزاء في اليوم الآخر ، وهي من المفاهيم التي لم يعرفها أهل الشرك وعبدة الأوثان في ذلك الزمان ، فقال سطحي لصاحب اليمن : « يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون » .

أما زميله شق فقد أساء - « يوم الفصل » ثم فصل حديثه للملك بانتضاء دولته وانتهاء كل أشكال الانقسام ومظاهر الفرقة بين عرب شبه الجزيرة على يدي « رسول يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل يكون الملك في قومه الى يوم الفصل ، يوم تجزي فيه الولاة ، ويدعي فيه من السباء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن انتفى الفوز بالخيرات » . (٢٦)

وليس من المستبعد أن تكون مثل هذه الأقوال قد وضعها بعض الكتاب أو القصاص على لسان هذين الكاهنين الأسطوريين ، لا سيما من كان لهم معرفة بكتب الأقدمين وأخبار الرسل والأنبياء السابقين ، وما له دلالة في هذا المقام ، أنه يروي عن وهب بن منبه اليهودي اليمني الأصل ، أنه قال ، قيل لسطحي أنى لك هذا العلم ، فقال : لي

(٢٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٨

(٢٦) نفس المصدر ج ١ ص ٩٩ .

(٢٧) الرصد الألب للبهلي - ج ١ ص ٢٧ .

(٢٨) ابن تيمية الأصبهاني - حلية الأولياء ، ج ٤ ص ٢٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٦ ص ٢٥ - ٢٦ .

الجديد الى السعوب المختلفة ، والافئنان بمدح نبيهم وتسليط الأضواء على فضله وسمو مكانته ، وما يروى عن النبي ( صلعم ) في ذلك قوله : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، وكان النبي يبعث الى فومه خاصة وبعثت الى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة (٢٩)

هذا الى جانب ما تحدث به أحبار اليهود وربيان النصراني عن رسولنا الأعظم ( صلعم ) قبل مبعثه بما وجدوه في كتبهم عن صفته ، وأخبار زمانه وما كان من عهد أنبيائهم اليهم فيه ، قال تعالى : « واذا قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة وبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » (٣٠)

ومما يذكر في هذا الشأن ، أن الأنصار من الأوس والخزرج كانوا يتحدثون قبل الاسلام عما كانوا يسمعون من أحبار اليهود الذين يقيمون بين طهرانهم في يثرب قبل المبعث ، وكانوا ينذرونهم به على أمل أنه منهم ، مما جعل عرب المدينة يسرعون الى قبول دعوة نبي العرب ( صلعم ) فقالوا : ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله تعالى وهدها لنا ، لما كنا نسمع من رجال اليهود وكنا أهل شرك ، أصحاب أوثان ، وكنا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا

تزال بيننا وبينهم شروء ، فاذا ثلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقلكم معه قتل عاد وارم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله ( صلعم ) أجنبناه حين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه فأمنّا به ، وكفروا به ، فنزل فينا وفيهم قوله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٣١)

كذلك تحدثت النصوص التاريخية عما كان يسمعه رسول الله ( صلعم ) من بعض زعما العرب الذين اطلعوا على كتب السابقين ودخلوا النصرانية أو اليهودية قبل اعتناهم الاسلام ، كما حدث مع الجارود بن عمرو بن المعل ، زعيم عبد القيس وكان نصرانيا عندما قدم هو وقومه المدينة عام الوفود لاعلان اسلامهم بين يدي الرسول ( صلعم ) ، فتكلم الجارود وقال : والذي بعثك بالحق لقد وجدت صفتك في الانجيل ، ولقد بشر بك ابن البتول ، فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنت محمد رسول الله ، وأمن قومه ، وثبت على ولائه لدينه ولدولته عندما ارتدت القبائل العربية بعد وفاة النبي ( صلعم ) عن الاسلام ومنع قومه من الانجراف في ذلك الطريق ، فاستجابوا لنصيحته وثبتوا على اسلامهم . (٣٢)

(٢٩) صحيح البخاري ج ١ ص ٦٠

(٣٠) الصف / ٦ .

(٣١) البقرة / ٨٩ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥

(٣٢) ابن سيد الناس - عيون الأثر ج ١ ص ٦٩ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦٨ ، سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٢٢ .



أدرك زمان عمر بن الخطاب ، وكانت له قصة أخرى معه ، فبينما كان الخليفة جالسا في مسجد المدينة اذ أقبل عليه سواد فهازحه أمير المؤمنين قائلا : ما فعلت كهانتك يا سواد ؟ فقضب وقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، لقد خلت في واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأخذ من رعبتك منذ وليت ، قد كنت أنا وأنت على شر من هذا من عبادة الأصنام وأكل اللبسات ، أفتميرني بأمر تبت منه . بعد أن أكرمنا الله برسوله وبالإسلام ؟ فتأثر الخليفة من إجابته وكأنه ندم على قوله وقال : اللهم غفرا (٣٤)

هكذا نلاحظ أن بعضا من كهان العرب الذين أدركوا الاسلام دخلوا فيه وتبرأوا من كهانتهم ، واعتبروها من الآثام التي يجب على المسلم أن يتوب منه ، الا ان هذه الحالة لم تكن عامة وشاملة ، فقد استمر فريق آخر يطلب الزعامة ويمارس الكهانة مثل عبيد الدار بن حبيب كاهن جهينة ، وأبو بردة الأسلمي من خزاعة يروى عنه أن رجلا من منافقي الأنصار يقال له قيس وآخر من اليهود اختلفا في حق تداره فيه وكان الذي يميل الى تحكيم نبي الاسلام ( صلعم ) لانه يعلم أنه لن يجوز عليه ، بينا أبى عليه ذلك الأنصاري المنافق ودعاه الى أبى بردة الكاهن ليقضى بينهما فاستجاب له اليهودي فعاب إلحق جل شأنه ذلك الفعل وأزل فيها قوله تعالى « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا

واذا كان بعض كهان العرب الذين عاشوا قبل ظهور نبي الاسلام ( صلعم ) بزمن قد تنبأوا بمجيئه ، مثل سطيج وشق ، فمن الطبيعي أن نجد أخبارا قديمة ( صلعم ) على السنة العديد من كهانهم من الرجال والنساء على السواء ، من الذين عاشوا قبيل مبعثه ( صلعم ) أو حتى بعده . فتحدثنا الأخبار أن سوداء بنت زهرة ، كاهنة قريش قد طلبت من قومها بنى زهرة ان يعرضوا عليها بناتهم فقالت في كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين ، فلما عرضت عليها أمنة بنت وهب قالت : هذه النذيرة ، وفي رواية أخرى هذه ستلد نذيرا . (٣٣)

أما كاهن دوس سواد بن قارب فقد أخبره رثيه في ثلاث ليال متتالية بنزول الرسالة على سيد المرسلين ( صلعم ) قائلا : قم يا سواد واسمع مقالتي واعقل ان كنت تعقل ، قد بعث رسول الله ( صلعم ) من لؤى بن غالب يدعوا الى الله وعبادته وكان ينشده في كل مرة أبياتا من الشعر منها :

عجبت	للجن	وتطلبها
وشدها	العيس	بأقباها
تهوى	الى مكة	تبغى الهدى
ما	صادق	الجن ككذابها
فارجل	الى الصفوة	من هاشم
ليس	قدامها	كأذنانها

فاعتقن الاسلام وحسن اسلامه . وروى أنه

(٣٣) الرض الأغب للسبيل ج ١ ص ٢٤٥ - ١٦٦ ، عين الاترلاين سيد الناس ج ١ ص ٧٥ .

(٣٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، عين الاترلاين سيد الناس ج ١ ص ٧٥ - ٧٦ الرض الامم للسبيل - ج ١ ص ٣٤٢ - ٢٤٤ .

لأم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله (صلم) يحيل إليه انه كان يفعل الشيء وما فعله - ومن رواية اخرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفنانى فيما استفتيته فيه ، أنانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه : ما رجع الرجل فقال مطبوب فقال من طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم قال : فى أى شيء ؟ فى نشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر ، قال وأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان ، فأتاها رسول الله (صلم) فى ناس من أصحابه ، فجاء فقال : يا عائشة كأن مامها نقاعة الحناء ، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين ، قلت يا رسول الله أفلا أستخرجته ؟ قال : قد دعانى الله فكرهت أن أتور على الناس فيه شرا ، فأمر بها فدفت . (٣٦)

ويرى جمهور الفقهاء والمحدثين أن السحر من العلوم الثابتة الحقيقية التي تعلمها الانسان عن طريق الشياطين ، وأن من أشد آثاره ما يفرق بين المرء وزوجه ، وقد أخبر بذلك الحق جل شأنه فى قوله تعالى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما

أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا. وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » ويقال أن أبا بردة أسلم بعد أن اعتنق ولداه الإسلام فأمر النبى (صلم) مناديا فنادى : الا ان كاهن أسلم قد أسلم . (٣٥)

مما سبق نلاحظ أن الكهانة غدت بعد مجىء الاسلام شيئا مكروها بل ومحرمًا يتبرأ منها صاحبها الذى نعته القرآن الطاغوت ، فلا غرو أن ينحسر أمرها ويتنصر عمل المشتغلين بها على الفصل بين المنافقين أو من بقى على دينه القديم ، أو الحاقدين على رسول الاسلام (صلم) الكاهنين لدعوته ، وكان من هذه المجموعة بعض زعماء اليهود الذين وصموا بالكهانة لشدة حسدهم وبغضهم للنبي الكريم (صلم) مثل كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب ، وكلاهما من بنى النضير ، ولبيد بن الأعصم من بنى زريق الذى بلغ حسده وضغنه لرسول الاسلام (صلم) ذروته عندما أخذه عن نسائه فذكر مشهور وكتاب السيرة وكبار علماء الحديث ابن الأعصم قد سحر النبى (صلم) وجعل سحره فى مشط ومشاطة وبغال النخل ودفنه فى بئر فى بستان لقومه بالمدينة ، وذكرت النصوص أن النبى (صلم) مكث متأثرا بهذا « العمل » ما يقرب من سنة كاملة يحيل إليه أنه يفعل الفعل ولا يفعله ، وأخرج صاحبها الصحيحين هذه الواقعة من حديث

(٣٥) سورة النساء / ٦٠ - ٦١ ، انظر: اسباب النزول للراذلي ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(٣٦) صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤ - ١٥ انظر كذلك صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٧٤ - ١٨٥ اشار ابن الاثير كذلك الى لبيد بن الأعصم وقال انه اليهودي الذي سحر النبي (صلم) ، وقال بخلاف الرواة كمثولة المذرة بخلاف القرآن انظر التكميل فى التاريخ ج ٧ ص ٧٥ .

أقرانه من أشرف قريش الى طعام صنعه لهم فدخل عليهم النبي الكريم ( صلم ) وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى الله فلم يستجيبوا له وتناجوا فيما بينهم بظلمهم قائلين ان تتبعون الا رجلا مطبوبا قد أثر فيه السحر فاختلط عليه أمره .<sup>(١١)</sup>

لذلك فان الامام النوى في تفسيره وشرحه لحديث النبي ( صلم ) ينقل عن الامام المازري قوله : ان مذهب أهل السنة وجهور علماء الأمة يرون اثبات السحر كغيره من الحقائق الثابتة خلافا لمن أنكره ونفاه ، ودلل على ذلك بأن الله تعالى قد ذكره في محكم آياته مما يتعلم وأنه مما يكفر به وأنه يفرق بين المرء وزوجه وقال : ان هذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، ونعت من أنكر الحديث « بالمبتدعة » وبين أن ادعائهم بأنه يحيط منصب النبوة وشكك فيها ويمنع الثقة بالشرع هو ادعاء باطل ! لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدق النبي ( صلم ) وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ ، ثم أوضح الامام النوى نقلا عن القاضى عياض قوله : ان روايات هذا الحديث جاءت مبنية على أن السحر انما تسلط على جسد النبي ( صلم ) وظاهر جوارحه دون عقله وقلبه واعتقاده وان جاء من قوله ( صلم ) أنه بخيل

نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم »<sup>(٣٧)</sup>

وعلى ذلك فان معظم فقهاء المسلمين وكبار المحدثين لا يرون ما يحول دون حدوث ما قام به ابن الاعصم اليهودي ، قال تعالى « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »<sup>(٣٨)</sup> .

قال العالم الفقيه المفسر ابو جعفر ابن جرير الطبري في تفسير العبارة الاخيرة يقول المشركون للمؤمنين بالله ورسوله ان تتبعون ايها القوم بأتباعكم محمدا الا رجلا به سحر<sup>(٣٩)</sup>

من ناحية أخرى فقد ذكر الحافظ الفقيه المفسر أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبي في تفسير قول الله تعالى « نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »<sup>(٤٠)</sup> يقول الامام القرطبي ان هذه الآية الكريمة نزلت حين دعا عتبة بن ربيعة

(٣٧) البقرة / ١٠٢ .

(٣٨) القرآن / ٧ - ٨ .

(٣٩) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٥٤ ج ١٨ ص ١٨٣ .

(٤٠) الاسراء / ٤٧ .

(٤١) الجابح لأحكام القرآن للقرطبي - طبعة وزارة الثقافة - القاهرة ١٩٦٧ ج ١٠ ص ٢٧٢ والمرفوع ان السحر عند اللغويين هو كل عمل قريب فيه الى الشيطان ومحرمة منه ويرى بعضهم ان ما جاء في قوله تعالى « ان تتبعون الا رجلا مسحورا » انه يمثل مثنيين احدهما : انه لا تسحر مثنا والثاني انه سحر واريل عن حد الاستواء اطر : لسان العرب لابن منظور كلمة « سحر » .

اليه فعل شيء لم يفعله ونحوه محمول على التخيل بالبصر لا لخلل تطرق الى العقل وليس في ذلك ما يدخل لبسا على الرسالة ولا طعنا لأهل الضلالة .  
(٤٢)

من ناحية أخرى فقد أشار الفقيه المحدث أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمي السهيلي (ت. ٥٨١هـ) الذي يرجع اليه فضل شرح سيرة ابن هشام وتفصيلها بالتحريير والضبط الى فعله ابن الأعصم اليهودي والى حديث الرسول ( صلعم ) ووصفه بأنه حديث مشهور عند الناس ثابت عند أهل الحديث ولا مطعن فيه من جهة النقل ولا من جهة العقل ، وذكر أن المعتزلة وطوائف أخرى ، نعتهم بأهل البدع ، لم يرضوا عنه وطعنوا في امكانية حدوثه بحجة انه لا يجوز على الأنبياء أن يسحروا وقال ، ان بعضهم نزاع الى هذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى « والله يعصمك من الناس » (٤٣) وفند فقيه الأندلس هذه الحجة بأن عصمة الأنبياء إنما وجبت لهم في عقولهم ودياناتهم ، أما أبدانهم فانهم يبتلون فيها ، وذكر أنه يمكن على ذلك أن يخلص اليهم بالجراحة والضرب والسوم والقتل ، وأشار الى ان الأخذة التي أخذها رسول الله ( صلعم ) من هذا

الفن إنما كانت في بعض جوارحه دون بعض ، ثم بين السهيلي أن ما جاء في قوله تعالى « والله يعصمك من الناس » إنما نزل بخصوص حراسة رسول الله ( صلعم ) من أعدائه في الغزو حيث كان الصحابة يقولون بهذا العمل فلما نزلت هذه الآية صرف النبي الكريم ( صلعم ) حراسه وقال : لا حاجة لي بكم فقد عصمتني الله من الناس . (٤٤)

وقد جاءت هذه العبارات القرآنية ضمن آية في سورة المائدة ذكر أنها نزلت بعد منصرف الرسول ( صلعم ) وأصحابه من الحديبية في السنة السادسة للهجرة . ويروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها - في ذلك قولها : سهر رسول الله ( صلعم ) ذات ليلة فقلت يا رسول الله ما شأنك ؟ قال ألا رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ فقلت بيتنا نحن في ذلك سمعت صوت السلاح فقال من هذا ؟ قال سعد وحذيفة جئنا نحرسك فنام رسول الله ( صلعم ) حتى سمعت غطيطة ونزلت هذه الآية فأخرج رسول الله ( صلعم ) من قبة آدم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمتني الله . (٤٥)

ولنا بعد ذلك كلمة تريد أن نعلق بها على كل ما

(٤٢) انظر شرح التورى في صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٧٤ - ١٧٥ وقد أشار بعض علماء اللغة الى ان من انواع السحر الاخذه التي تأخذ العين حتى يظن ان الامر كما يرى وليس الاصل على ما يرى وقد اشار ابن هشام في سيرته الى ذلك عندما ذكر ان لبيد بن الأعصم من عبيد بني رزيم هو الذي اخذ رسول الله ( صلعم ) عن نسائه سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٢ انظر كذلك لسان العرب لابن منظور كلمة « سحر » .

(٤٣) المائدة / ٦٧ .

(٤٤) الرضى الاف السهيلي ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٤٥) اسباب النزول للواحدى - ص ١٢٥ ولعل ما يزيد ذلك ما ذكره ابن اسحق من ان رسول الله ( صلعم ) بعد انتهائه من امر يوم خيبر في السنة التاسعة للهجرة اخذ طريقه مع اصحابه عائتين الى المدينة فلم يخشى غدر أعدائه بقدر ما كان حرصه على الفجر فنزل مع المسلمين من اخر الليل مكانا ليسترهم وبنوا فقال لهم رجل يحفظ علينا الفجر لئلا ننام فنطرح بلال بهذه الهمزة فنام رسول الله ( صلعم ) والمسلمون وقام ابن رباح يصلي ثم استند ظهره الى حجره واستقبل الفجر بريقه ولكن التيم غلبه فنام ولم يوقظ الناس الا من الشمس فقاموا ففصل يوم النبي ( صلعم ) وقال لأصحابه : كانت أنفسنا بيد الله وقرشاه لتبضعها وكان اولي بها فلما ردها اليها صلينا هكذا كان حرصه ( صلعم ) على أداء الفجر اشد من ان يحرسه الصحابة . انظر : سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٥ المغازي للرازي ج ٢ ص ٧٢٢ .

مبعثه ، فقال تعالى : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهفا ، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ، وأسا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وسهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وانا لا ندرى أشر أريد بن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » (٤٧)

وبما يروى في ذلك أن قريشا حين كثر القذف بالنجوم اعتقدت بقيام الساعة ، فقال لهم عتبة بن زبيعة : انظروا الى العيون - وهو النصب من الماء - فان كان رمى به فقد أن قيام الساعة والا فلا . (٤٨)

هكذا انتهت الكهانة ، وانقطع عمل الكهان بعد أن رميت الشياطين بالنجوم قال تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » . (٤٩)

أما أهل الطائف ، فقد فزعوا ، ورهم من هذا الفعل ، ولجأوا الى عمرو بن أمية ، من بنى الحلاج ، وكان من الكهان الذين عرفوا برجاسة العقل ، فسألوه عما رأى في السماء من القذف بالنجوم ، فقال لهم : انظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس في معاشهم هي التي يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي

ذكرناه عن حديث السحر ، فسواء أخذ المحدثون بهذا الحديث أولم يأخذوا به ، وسواء قصد المفسرون بكلمة السحر المعنى الحرفي الظاهر دون الاجتهاد أو تأويل أو أى معنى آخر ، فيبقى المغزى الذي يكمن في روايته هاما ، لأنه يبين الى أى مدى وصل الحقد والبغض والقدرة وغير ذلك من الصفات والمشاعر اللاانسانية التي كانت تملأ قلوب يهود يثرب ، وتسيطر على نفوسهم نحو بنى العرب ورسول الاسلام ( صلعم ) حتى أنهم لم يتركوا سلاحا مشروعا وغير مشروع الا واستخدموه في محاولاتهم المستمرة اليائسة للتخلص منه والقضاء على دولته التي لم يكن ساعدها قد اشتد بعد ، فصديق فيهم قول الحق تبارك وتعالى : « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » (٤٦) .

ولعل انصراف كهان العرب واليهود - بعد مجيء الاسلام - الى السحر وغيره دون الاهتمام بعلمهم الأصل المتعلق بمحاولة معرفة الغيب والآتى من الأحداث يرجع الى أن الشياطين من الجن التي كانت تسترق السمع وتأتيهم ببعض أنبائه قد حيل بينها وبين المقاعد التي كانت تتعدها لاستراق السمع فيها ، فروما بالنجوم ، وعرفت الجن أن ذلك لأمر من الله في العباد لما تقارب أمر النبي ( صلعم ) وظهور

(٤٦) المائدة / ٦٦ .

(٤٧) الجن / ٦ - ١٠ .

(٤٨) الرض الانعام للسبيل ج ١ ص ٢٢٤ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٩ .

(٤٩) الملك / ٥

فيها ، وإن كانت نجوم غيرها وهى ثابتة على حالها ،  
فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق .

ويوضح هذا النص معرفة العرب في الجاهلية -  
كما نعلم - بشيء من علم النجوم لا سيما النجوم  
الزاهرة المتألثة التي كانوا يستعينون بها في التعرف  
على الطرق في الغياي والبحار ، وتفسير بعض  
الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف والمطر ، الى  
جانب قراءة الطالع ومعرفة الحظ وغير ذلك من  
الأحداث التي تهمهم في حياتهم العامة وعلاقاتهم  
الخاصة ، وهو ما كان يطلق عليه التنجيم  
(Astrology) وذلك قبل أن يتعرفوا على أصول  
علم الفلك (Astronomy) .

أما ظاهرة الشهب التي تتساقط من السماء فلم  
يتوصل العرب الى حقيقة دلالتها الا بعد مجيء  
الاسلام وذكرها في القرآن ، ويتضح ذلك فيا روته  
النصوص عن النبي ( صلعم ) وحديثه مع نفر من  
الأَنْصَار عن تلك النجوم التي يرمى به ، فقالوا يا نبي  
الله كتنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك ،  
مُلْكٌ مَلِكٌ ، ولد مولود ، مات مولود ، فقال رسل الله  
( صلعم ) ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى  
كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه حملة العرش  
فسبحوا ، فسبح من تحته حتى ينتهي الى السماء  
الدنيا ، فيتحدثوا به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على  
توهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض  
فيحدثوهم به فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به

الكهان فيصيبون بعضا ويخطئون بعضا ، ثم ان الله  
عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون  
بها ، فانقطعت الكهانة اليوم ، فلا كهانة .<sup>(٥٠)</sup>

وهذا يثبت ما ذكرناه من أن المشتغلين بالكهانة  
كانوا يوهمون الناس بقدرتهم على معرفة الغيب وما  
يأتى به المستقبل . فإذا نحينا الزمان جانبا ، ونظرنا  
الى كنه عمل الكاهن لرأينا أنه لا يختلف كثيرا عن  
القاص الذي يتكسب من وراء عمله ، فكلاهما يحاول  
تعريف الناس بأخبار غابت عنهم أو وقائع مجهولتها  
بالحيلة والخداع ، مستخدما في معظم الأحيان أسلوبا  
متميزا غلب عليه السجع لزيادة التأثير على  
السامعين ، فوثقوا به واعتقدوا ما يقول ، فكل منها  
صنو صاحبه من هذه الوجوه . ونريد أن نلفت النظر  
الى أن هذا التشبيه للكاهن بالقاص لا ينسحب الا  
على ما كان شائعا ومعروفا عن كهان العرب في  
الجاهلية ، فلما جاء الاسلام ، وأظهر حقيقة الكهانة  
وحرمها ، حاول بعضهم الهروب منها بادعاء النبوة  
مثل « صاف » الذي اشتهر « بابن صياد » أو « ابن  
صائد » ، وقد روت لنا النصوص قصته مع رسول  
الله ( صلعم ) ، فعندما علم بأمره وما يدعيه من  
النبوة ويتعاطاه من الكلام في الغيب ، أراد أن يمتحنه  
وبين للناس كذبه وعجزه ، ويكشف لهم حقيقة أمره  
وواقع حاله ، فخبأ له رسول الله ( صلعم ) في يده  
قول الحق تبارك وتعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء  
بذخان مبين »<sup>(٥١)</sup> وأتاه وأصحابه ، وقال له : خبأت

(٥٠) سيرة ابن هشام - ج ١ - ٢١٩ - ٢٢٠ ، الرضى الاف السهل ج ١ - ٢٢٤ - ٢٢٩ ، وانظر كذلك ما ذكره ابن سيد الناس ، عن كاهن بني لخب خطر بن

مالك وبقوه من كهان العرب في عبور الأثر ج ١ - ٧٧ - ٨٠

(٥١) سورة الذخان / ١٠ .

### المتنبون والقصص :

من المفيد أن يكون لنا في هذا المقام وقفة متأنية نكتشف فيها عن حقيقة حركة المتنبين من جهة ، ونبين أوجه الشبه بينهم وبين ما كان يقوم به الكهان والقصاص من جهة أخرى .

من الشائع والمعروف أن الدوافع لحركة المتنبين ، التي اشدت ساعدها بعد وفاة الرسول الكريم ( صلعم ) ترجع الى أسباب دينية واقتصادية ، ولكن الوقائع تشير الى أن العامل السياسي كان له هو الآخر دور فعال ومؤثر في تحريك نفوس المتنبين ، ولانباغ إذا قلنا أنه كان أبعد أثرا وأشد خطرا على دولة الاسلام لو لم تنجح جهود الخلافة في اجهاض تلك الحركة والحاق الهزيمة بزعمائها ، وتغليب المجتمع الاسلامي من شرورهم .

فالذي لا شك فيه أن بعض زعماء القبائل من أصحاب الطموح رأى أن أبا بكر لم يول عليهم من قبل السباء كما كان الحال بالنسبة للرسول ( صلعم ) الذي كان يأتيه الوحي من عند الله تعالى ، فاستغلوا هذا الادعاء للتأثير على أصحابهم والتحلل من نفوذ قریش وسيادتها ، والخروج على سلطان الدولة ، والتمرد على مفهوم السلطة المركزية التي لم يكن العرب وكبار زعمائهم قد اعتادوا عليها وقرسوا فيها ، ويتضح ذلك كله في حركة مسيلمة بن حبيب زعيم بني حنيفة ، وموقفه من سجاح بنت الحارث عندما قدمت على رأس قوتها من بني تغلب الى بلاده ، طمعا في الغزو والفتنة ، فهابها مسيلمة ورغب في

لك يا ابن صياد خبيثا ، فأجابه الكاهن : هو الدخ . وهذه الاجابة المبثورة ظهر عجز هذا المتنبية وانكشف خداعه ، فقال له النبي ( صلعم ) اخساً فلن تعدو قدرك . فأظهرت هذه القصة فشل ابن صياد في معرفة الآفة الكريمة الكاملة ، ولم يهتد الكاهن الا لهذا اللفظ من كلمة « الدخان » فجاءت ناقصة على عادة الكهان الذين لا يلتقى اليهم شياطينهم من الجن الا بقدر ما يحفظ قبل أن يدركه الشهاب الذي يرمى به ، فلا يحفظون منه الا كلمة واحدة أو جزء منها لا يمكنه أن يصل بها الى بيان أمور الغيب وتحقيقها ، بخلاف الأنبياء الذين يوحى الله تعالى اليهم من علم الغيب ما يوحى ، فيكون كاملا واضحا (٥٢)

لذلك وجدنا المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون يصنف مجموعة المتنبين كابن صياد وأمثاله الذين ظهروا بعد الاسلام ضمن فئة الكهان ، بطمعهم في النبوة ؛ ولجؤهم الى الكذب والخذاع ، واستعانتهم على بلوغ مآربهم والتأثير على الناس بالكلام المسجوع ، فقال : ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمرها ككل انسان ، ولا يصدعن عن ذلك ويوقعهم في التكبذب الا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت الذي كان يطمع أن ينتبأ ، وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم . (٥٣)

(٥٢) عن ابن صياد الكاهن وقصته مع النبي ( صلعم ) انظر صحيح مسلم ج ١٨ ص ٤٦ - ٤٩ ، الرض الاثني للسهلي ج ١ ص ٢٢٨

(٥٣) مقدمة ابن خلدون ص ٦٠ - ٦١ .

موادعتها والتحالف معها مقابل أن يعطيها ما كانت تحصل عليه الدولة الإسلامية كزكاة من غلة الأرض ، فعرض عليها ذلك قائلاً : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قریش فحبالك به ، وكان لها ذلك لو قبلت .

وكان مسيلمة عندما طمع في النبوة والرياسة كتب الى النبي ( صلعم ) قبيل وفاته يقول : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد فاني قد أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقریش نصفها ، ولكن قریشا قوم يعتدون .

فلما عرض مسيلمة ذلك العرض على سجاح قبلت بتلك الغنيمة السهلة التي جاءتها دون قتال ، وقالت : لا يرد النصف الا من صنف ، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسيف . فاغبط مسيلمة بموافقتها ، وعرض عليها الزواج وقال : آكل بقومي وقومك العرب . فوافقتة وأقامت عنده ثلاثة أيام ، فسجح لها كلاماً على طريقة الكهان مدحها وقومها ، وأظهر فيه نبوءته وقال : سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير اذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع ، رأيكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فاحيا علينا من صلوات معشر أبرار أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ، ويصومون النهار لرؤيتكم ، رب الغيوم والأمطار . (٥٤)

وما يثبت هذا الدافع السياسي الذي يقف بقوة وتأثير وراء حركة الردة ، ما روته النصوص التاريخية عن طلحة النمرى عندما قدم اليمامة للقاء مسيلمة والتعرف عليه قبل أن ينضم الى حركته ، فلما لقبة سأله عن حاله ، فأجابه مسيلمة بأن الوحى يأتيه في ظلمة ، فقال له النمرى : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر . وانضم اليه ، وقاتل معه حتى قتل في موقعه عقرباء التي انتصر فيها خالد بن الوليد . (٥٥)

ويحكي لنا هذا النص أثر العصبية القبلية في نفوس العرب ، واستمرار تحكمها في حياتهم وفي علاقات القبائل مع بعضها البعض ، كما يظهر رغبة بعض زعماء العرب في التخلص عن نفوذ قریش ونفوذ سلطان الدولة وسلطانها المركزية عن كاهلهم كما ذكرنا .

كذلك لا نرى بأساً في تصنيف ابن خلدون لهم مع طبقة الكهان ، فقد ادعى مسيلمة أن معه رؤيا من الجن ، مما جعل أحد الشعراء يشير الى ذلك عندما وصف خداعه وخيافته قائلاً :

بيضة قارور وراية سادن  
وخلة جنسى وتوصيل طائر (٥٦)

(٥٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٢ ، أنظر كذلك - الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٠ - ٣٥٦

(٥٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٦ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦٢ . وما نجد الإشارة اليه أن السابة يدعون أن بني الصرمثل بني حنيفة بن حذرون من ربيعة من قريش الذين يحملونه هجر من ملك ينسب الى معشر من مزاز

(٥٦) كتاب الحيران للحاج طه ج ٦ ص ٢٥ .



كاهنا ، ناسبا « (٥٩) ، فكان يدعى لخداع الناس أن جبريل يأتيه ويوحى اليه بالخفيف عن أصحابه ، فأمرهم بترك السجود في الصلاة ، وقال لهم : ان الله لا يصنع بتعذر وجوهكم وتقيح أباركم شيئا ، اذكروا الله أعفة قياما . (٦٠) لذلك تبعه - هو الآخر - كثير من العرب عصبية لنسبهم وتخلصا من زعامة قريش وسيادتها ، فكان أكثرهم من أسد وعطفان وطىء ، والقبيلتان الأوليان من غير أبناء الياس بن مضر الذى تنتسب قريش اليه ، بينا الثالثة من القبائل القحطانية .

ولعل ما ذكره الجاحظ عن طليحة عندما نعته بالكهانة واستعمال السجع يؤيد ما أشرنا اليه عن مسيلمة ، ومن قبله سطيع وشق وغيرهما من كهان العرب ، فهذا الارتباط الوثيق والقوى بين الكهانة والكلام المسجوع يجعلنا لانفرق - من هذه الناحية - بينهم وبين المنبيين الذين - كما رأينا - استغلوا هذا الأسلوب نفسه للتأثير على الناس لسهولة استيعابه وحفظه ، بالإضافة الى يسر انتقاله ونقله وانتشاره على نطاق واسع بين الناس ، وهو ما كان يفعله القصاص أيضا ، وقد أوضح ذلك الفقيه عبد الصمد ابن الفضل الرقائشي ، أحد قصاص البصرة المعروفين عندما سئل عن أسباب إيثار السجع على المنثور ، والزمام نفسه بالكلام المغنى الموزون فقال : « ان كلامي لو كنت لأمل فيه الا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني اريد الغائب والمحاضر والراهن والغابر والحفظ اليه اسرع والاذان لساعه انشط وهو

من ناحية أخرى ، نلاحظ أن أحاديث مسيلمة لأصحابه كانت تشبه كلام القصاص ، فكان يسجع لهم الأساجيع مضاهاة لكتاب الله تعالى لترسيخ فكرة نبوته ، وما جاء في ذلك قوله : « لقد أنعم الله على الحبلى - وأخرج منها نسمة تسمى ، من بين صفات وحشى » وفي تفضيل قومه واشتغالهم بالزراعة على من سواهم - وربما قصد هنا قريشا التى كان نشاطها محصورا في التجارة - وحثهم على التصدى لأعدائهم بقوة وحزم قال : « والمبذرات زرعاً ، والمحاصدات حصداً ، والذاريات قمحا ، والطاحنات قمحا ، والغازيات خبزا ، والثارذات ثردا ، واللاقيات لقما ، اهالة وسمننا ، لقد فضلنهم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فاووه ، والباغي فتأووه . (٥٧)

ولم يكتف بذلك ، فحاول أن يشرع لهم بما يرضى أهواءهم ، ويسائر عاداتهم الجاهلية ليزدادوا إقبالا عليه ، وتقسكا به ، فأحل لهم الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة ، فأصفقت معه بنسو حنيفة . (٥٨)

أما طليحة بن خويلد الأسدي ، الذى تنبأ هو الآخر في حياة الرسول (صلمه) ، فقد وصمه الجاحظ بالكهانة لقدرته على السجع وتفوقه في الخطابه وقرض الشعر ، وكلها من الفنون التى كان يتقنها الكهان ويستخدمونها للتأثير على الناس وكسب ثقتهم ، فقال : « كان طليحة خطيبا وشاعرا ، وسجاعا

(٥٧) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٧٢ - ٢٨٤

(٥٨) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٠

(٥٩) الجاحظ - البيان والنبير ج ١ ص ٣٥٩

(٦٠) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٤ .

فما عقد عليه العزم ولم يجد الحارث الكذاب للستر وراء الدين واطهار التقوى والصلاح لتحقيق اهدافه افضل من المساجد مكانا لبيت سموم دعوته فكان يطوف على مساجد المدينة يلقي رواها ويذكر لكل منهم على انفراد امره فمن استجاب له وانخدع بمظهره وحديثه اخذ عليه العهد والميثاق والا طلب منه ان يكتم عليه امره ، وكان يحاول اقناع الناس بما يريهم من اعاجيبه وحيله وبما يسمعونهم من حسن قصصه وسجوع كلامه - فاقبل عليه العامة حتى كثروا فاشتتهر وفشى امره وبلغ خبره الخليفة فجرد له حملة للقبض عليه ولكن الحارث تمكن من النجاة وفر هاربا بنبوته الى بيت المقدس ، واستخفى في موطنه الجديد عن عيون الدولة في مكان سرى أمين فكان أصحابه يخرجون يلتمسون الرجال ويدخلونهم عليه فيخبرهم عن حاله فكان منهم المخدوع المصدق والواعي الذي كشف حقيقة امره كما كان جند الدولة يفتشون ويبحثون عنه حتى قبضوا عليه وساقوه الى أسير المؤمنين في دمشق فحاول عبد الملك اصلاح ذات بينه ولكن دون جدوى فامر بصلبه وقتله فظعن بحربه في صدره ولكنها صادفت احد ضلوعه فانكفأت عنه ولم تتل منه مقتلا فازداد اعتقاد البسطاء والجهلاء من العامة بنبوته وصاحوا : الانبياء لا يجوز فيهم السلاح ، فاسرع أحد الجند بطعنه بين ضلعي طعنه قوية نافذة أنهت حياته . (٦٣)

الواقع ان استغلال المنبيين والطامعين في الزعامة والرئاسة لم يقتصر ظهورهم على بلاد المشرق الاسلامي فقد وجد بعضهم في المغرب ايضا التربة

الحق بالتقيد وبقلة التفلت» . (٦١) فلا غرو ان أصبح الكلام المسجوع الذي اختص به الكهان والمنبيين والقصاص من الاساليب المكرهه - على الاقل في صدر الاسلام - وقد بين ذلك الجاحظ فقال : وكان الذي كره الأسجاع بعينها وان كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان اكثر المجاهلية يتحاكمون اليهم وكانوا يدعون الكهانة وان مع كل واحد منهم رثيا من الجن وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالمجاهلية ولقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم فلما زالت العلة زال التحريم . (٦٢)

اغلب الظن ان المنبيين اتخذوا من المساجد مراكز يعتقدون في رحابها مجالسهم التي يقصون فيها على أصحابهم ويدعون لأفئدتهم ويروجون لأفكارهم ، ويحدثنا ابن الجوزي الفقيه والفاصل والمؤرخ المعروف عن واحد من هؤلاء المنبيين ظهر في دمشق زمن عبد الملك بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) كان يدعي الحارث كان والده ينزل القوطة وقد اشتهر بين اهلها بالزهد والتعب . يعظ الناس ويقص لهم بكلام لم يصغ السامعون الى احسن منه كتب اليه ابنه المنبيه . يطلب منه القدوم اليه للاستعانة به واستشارته في اشياء رأها ويتخوف من ان تكون من عمل الشياطين - فأجابه الشيخ الوالد بفتوى قائلا : يا بني اقبل على ما أمرت به ان الله يقول « هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك اثم » ولست بافكاك ولا اثم فامض لما أمرت به . فزادت هذه الفتوى المضلة لابن الطموح غيا ، وشجعت على الاستمرار

(٦١) البيان والنبية للجاحظ ج ١ ص ٢٨٧ .

(٦٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٦٣) ابن الجوزي - نيل الجبس ص ٣٧٩ - ٣٨١ .

بالتوبذرى - ادعى أنه المهدي المنتظر واتخذ من مسجد مدينة ماسة على ساحل البحر مقرا لدعوته فأقبلت عليه طوائف العامة من البربر الذين كان يملأ قلوبهم الاحساس بانتظاره وأن من ذلك المسجد ستكون أصل دعوته ، فلما كثر أتباعه وخشى زعمائهم اتساع نطاق الفتنة ، دس اليه كبير المصادمة ، وكان يدعي عمر السكسيوي من قتلة في فراشه . (٦٥)

هكذا يتضح من الروايات السابقة دور المسجد الذي حاول المنيثون وامثالهم من الطامعين في النفوذ والرياسة استغلاله والخروج به على غير ما أنشئ له وقام من اجله قال تعالى « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » . (٦٦)

كما تبين ايضا قدرة هؤلاء المخادعين المضللين والطامعين في الحكم والملك على السيطرة بسهولة وسر على العامة من اصحاب النفوس الضعيفة والعقول البسيطة بالكذب والحيل وسحر الحديث مما جعل بعض فقهاء المسلمين وعلمائهم يذمون القصص بصورة عامة ويرونه بدعة ورفقوا بين المشتغلين به وبين المذكرين والوعاظ الذين غلب على مجالسهم القصص القرآني وحديث الايمان باعتباره علم المعرفة بالله وبالعلوم والتفقه في بصائر القلوب كما سنرى فيما بعد .

القصص عند العرب : من الملاحظ أن الذي كان يشتهر من بين العرب بالكهانة أو الحكمة أو

الحصبة والبيئة الصالحة لتحقيق طموحاته ، فتحدثنا النصوص أن أبا عبدالله الشيعي عندما وصل الى ارض كتامة في أواخر القرن الثالث الهجري اتخذها مقرا لدعوته والتبشير بالمهدي المنتظر فاجتمعت اليه قبائل كتامة البربرية فكان يقص عليهم بما أوتي من علم وفهم ودعاء ومكر من اخبار المهدي ويقول « ان للمهدي هجرة تنبؤ عن الاوطان ينصره فيها الاخيار من اهل ذلك الزمان قوم اشتق اسمهم من الكنان وانهم كتامة يخرجون من هذا الفج الذي يسمى فج الاخيار » فاستحوذ على افئدتهم وملك البياهم بمثل هذه الحيل والمكيدات والتارنجيات فذاعت شهرته وعظمت مكانته حتى قاتلت من اجله كتامة قبائل البربر الاخرى التي رغبت ان تاخذه الى مضاربها وتستأثر به في منازلها . (٦٤)

ولاستبعاد ان يكون هذا القصص عن المهدي المنتظر قد ترك في نفوس طوائف العامة من قبائل البربر آثارا راسخة توارثتها الاجيال مع تعاقب القرون والأزمان ، ولم تكن تحتاج لكي تطفو مرة اخرى على سطح الاحداث الا لقاص أوتي من الفطنة ومعرفة باخبار السابقين لتحريك مكتون القلوب بحسن الحديث والقدرة على السجع ، ويمثل تلك الحيل والتارنجيات التي كان يتبناها الاقدمون ، وأغلب الظن أن مثل هذا القاص قد ظهر خلال العصور التالية في بعض المناطق التي تتوافر فيها فرص النجاح ، فيحدث ابن خلدون أنه ظهر ببلاد السوس في أوائل القرن الثامن الهجري رجل من البربر يعرف

(٦٤) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٧ ص ٣٢ - ٣٣ .

(٦٥) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ - ٩٥ .

(٦٦) التوبة / ١٨ .

ليوصيهم فقال لهم : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها . فكان أول من قال هذه العبارة الأخيرة التي ذهبت مثلا . (٦٧)

وبعد مجيء الاسلام ، وجد القصاص سوقا رائجة لدى القبائل المشتركة التي رأت فيهم وفي أحاديثهم وسيلة أخرى من وسائل مقاومة الاسلام ودعوته ، فمن ناحية ، رأى شيوخ القبائل في هؤلاء القصاص الأداة التي يمكن بواسطتها المحافظة على منزلتهم وزعامتهم واقناع عشائهم بعدم الانسياق وراء النبي ( صلعم ) لاعتمادهم أنه طامع في ملك أو جاء . كما وجدوا - من ناحية أخرى - في قصصهم السبيل لمواجهة ما كان يأتي به الوحى الرسول الكريم ( صلعم ) ، لاسيما القصص القرآنى الذى يحكى سير الأنبياء والرسل وأخبار الشعوب والأمم السابقة . وكان من الطبيعي أن يكون قصاص قریش أكثرهم شهرة ، وأبعدهم صيتا ، وأشدهم ذكرا ، باعتبار مكة المعهد الذى ولدت فيه دعوة الاسلام ، فكان زعماؤها ومن ورائهم عشائهم أكثر العرب مناهضة للنبي ( صلعم ) وأشدهم صلابا في مقاومة الدين الجديد .

وتحدثنا النصوص عن واحد من ألمع هؤلاء القصاص ، هو أبو قانده ، ( أو أبو قتيلة ) ، النضر ابن الحارث بن كلفة ، الذى يصل نسبه الى عبد الدارين قصي . رحل النضر في صباه الى بلاد الفرس وملكة الحيرة فسمع من أهلها أخبار الأكاسرة والملوك اللخمين ، وتاريخ الدولتين ، كما عرف عنه

العرفا ، أو يعرف شيئا عن أيامهم كحروب الفجار أو داحس والغبراء أو اليبوس أو غيرها من المعارك والوقائع التي تجلت فيها العصية القبلية وصفات الشجاعة والفروسية والاقدام على ارتداد المخاطر في سبيل المحافظة على القبيلة وشرفها ، أو على حق الاجارة وما كان لصاحبه من أحداث قد تصل الى الاقتتال وعقد الأحلاف ، وطلب الثأر وعدم القعود عنه مهما كانت الظروف ، الى غير ذلك من التقاليد والعدادات القبلية التي كانت تستهوى نفس العربي وتشبع غرائزه ، من كان يعرف شيئا من ذلك ، أو بعضا من قصص العشق والهورى التي تذخر بها أشعارهم وقصائدهم ، أو يحفظ جانبها من تاريخ الممالك المجاورة كالحيرة وأكاسرة الفرس وحروبهم ووقائعهم ، من كان على دراية بشئ من هذا أو ذاك ، فخرج اليه الملوك والحكام والرؤساء يطلبون حكمته ، أو تفسير رؤاهم ، كما كان يجتمع اليه الناس في سمرهم ومجالسهم ليقص عليهم ويحكى لهم شيئا من هذه الأخبار التي ألبست في كثير من الأحيان ثوب القصص والأساطير ، ومن عرف عنه ذلك ، وكيع بن سلمه بن زهر الايادى الذى اشتهر بالفصاحة والحكمة حتى وصف بأنه كاهن وصديق ، فأقام لنفسه صرحا في منطقة الحرورة بالقرب من الكعبة كان أهل مكة يختلفون اليه ، يلقونه فيه ، ويجتمعون به يعظمهم بما أوتي من الحكمة وطلاقة اللسان فكان في قصصه ، يحث عشيرته على التحل بالأخلاق الفاضلة ، والعمل على صلة الرحم ، وحسن الكلم ، ومن مأثور حكمته : ان ربكم ليجزي بالخير ثوبا ، وبالشتر عقابا . فلما حضرته الوفاة جمع قومه من ابياد

(٦٧) ابن حبيب - كتاب العبر - ص ١٦٦ - أما الحرورة فهي رابية صغيرة كانت تعتبر قديما حد المسعد الحرام من جهة الشمال ، وكان يقام بها أحد أسواق مكة العريقة ، ويقال أن قصي بن كلاب حو بها بئرا عرفت باسم الحول كانت العرب اذا قدموا مكة يرونها ويتبركون عليها . انظر أخبار مكة للأزهري ج ٢ ص ٦٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، وضع اللسان للزاهري ص ٥٦ .

وقد حفظت لنا النصوص شيئا من قصصه وطريقته في ذلك فكان يترصد رسول الاسلام ( صلعم ) ويتعقبه في مجالسه التي كان يعقدها في البيت العتيق يدعو فيها الى الله تعالى او يتلو فيها شيئا من القرآن لترغيب الناس في الدين الجديد وهدايتهم الى طريق الرشاد ، فاذا ما فرغ النبي ( صلعم ) من حديثه خلفه النضر في نفس المجلس وحدث المجتمعين عن رستم واسفنديار وما تعلم وسمع وقرأ عن الفرس وغيرهم ، ثم يختم كلامه بأثارة الشك والريبة في كل ما تكلم به الرسول ( صلعم ) قائلا : والله ما محمد بأحسن حديثا مني وما حديثه الا اساطير الاولين اكتبها كيا اكتبتها . فانزل الله عز وجل فيه « وقالوا أساطير الأولين اكتبتها فهي غلى عليه بكرة وأصيلا قل انزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفورا رحيا »

كذلك روى ان النضر استمع مع الملا من قريش من بينهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة المخزومي وعته وشبيهه ابنا ربيعة وأميه وأبينا ابنا خلف استمعوا الى رسول الله ( صلعم ) وهو يحدث الناس بالقرآن ويقص عليهم ما فيه من أخبار الانبياء والرسول مع اقوامهم فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ فأجابهم : والذي جعلها بيته ما ادرى مايقول الا أنني ارى انه يحرك شفثيه يتكلم بشيء وما يقول الا اساطير الاولين مثل ما احذشكم به عن القرون الماضية فانزل الله تعالى فيه « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا

أنه كان يخاطب اليهود والنصارى فسمع منهم كذلك يذكر النبي ( صلعم ) وقرب مبعثه ، فكان يقول : ان جاءنا نذير لتكوني أهدي من احدى الأمم ( ٦٨ ) ، فلما ظهر الاسلام صدقت نبوته في قومه بينما ظل هو من أشد أهل مكة مخالفة للاسلام ، وبغيا على صاحب دعوته ، وقد تميز النضر بوسع معارفه بما مكن له أن يكون من أشهر قصاصي المشركين مخذرا للعرب ولقومه خاصة من خطورة الدين الجديد ، وما كانت تشكله مبادئه السامية من تهديد لقريش بالقضاء على مكانتها المتميزة بين القبائل ، وبالتالي ضياع نفوذ سادتها وسلطانهم وقد وصل بغيه على النبي ( صلعم ) الى حد محاولة اغتياله لولا رعاية الساء ، فيروى عروة بن الزبير بن العوام ( ت ٩٤ هـ ) احد المتقدمين من المهتمين بسيرة النبي ( صلعم ) قال : خرج رسول الله ( صلعم ) يوما يريد حاجته نصف النهار في حر شديد فبلغ اسفل من ثنية الحجون وكان يبعد اذا ذهب لحاجته فرأه النضر فقال : لا أحد ابدا أخلى منه الساعة فأغثاله ، فدنا الى رسول الله ( صلعم ) لكنه انصرف راجعا مرعوبا الى منزله فلقي ابا جهل فسأله : من اين فاجابه النضر : اتبعت محمدا رجاء اغتياله وهو وحده فاذا اسود تضرب بأنيابها على رأسى فاتحة افواهها فذعرت منها ووليت راجعا فقال له أبو جهل : هذا بعض سحره ( ٦٩ ) .

وقد فكر النضر في طريقة اخرى عله يجد فيها الخلاص من النبي ( صلعم ) والنهاية لدعوته فهذه تفكيره الى استغلال علمه ومواهبه الكلامية فاخذ يقص على أهل مكة ويحدثهم فيستملحون حديثه ،

(٦٨) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٧٢ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢١ .

(٦٩) جلال الدين السيوطي - المصالح الكرى ج ١ ص ٢٢١ .

جاءواك بمجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا  
اساطير الاولين » .

وبما تجدر الإشارة اليه ان ابن عباس كان يقول  
« نزل في النضر بن الحارث كل ما جاء في القرآن  
الكريم من آيات فيها عبارة « أساطير الأولين »  
وعدها تسع .

من ناحية أخرى فقد كان النضر بن الحارث مع  
عقبة بن ابي معيط الاموي يشككان وفد قريش الذي  
ارسلته الى أحبار اليهود في يثرب باعتبارهم اصحاب  
كتاب لسؤالهم عن حقيقة امر النبي ( صلعم ) فقال  
اليهود لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فان أخبركم  
بهن فهونبي ، وان لم يفعل فالرجل متقول ففروا فيه  
وأريكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان  
امرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن  
رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها ما كان  
نبأه ، وسلوه عن الروح ما هي ؟ فلما عادا الى مكة  
جمعا قريشا وقالوا : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين  
محمد ، وأخبروهم الخبر فطلبت قريش من الرسول  
( صلعم ) تفسيراً لهذه الاستئلة فاستمهلهم النبي  
( صلعم ) حتى جاءه الوحي بسورة الكهف التي  
تتضمن قصصها اجابة واقية على كل ما سألوا  
(٧٠)

أما نهاية قاص مكة المشهور فكانت بعد غزوة  
بدر الكبرى اذ كان هو وابو جهل عمرو بن هشام  
المخزومي وعقبة بن ابي معيط على رأس المحرضين

لقريش على الخروج لمقاتلة المسلمين في ذلك اليوم  
عندما شعروا بتقاعس أهل الراي بعد نجاة اللطيمة  
ووصولها سالمة الى مكة فلما نشبت المعركة قتل ابو  
جهل على ارضها ، اما صاحبيه فقد وقعا في الاسر  
فأمر النبي ( صلعم ) علي بن ابي طالب بقتل  
النضر ، وعاصم بن ثابت بقتل عقبة ، وبهذه الصورة  
نفذ امر الحق تبارك وتعالى في هذا النفر من رجالات  
قريش الذين ملأ الحقد على الاسلام قلوبهم وأعمى  
بصيرتهم البغسي على الرسول الكريم  
( صلعم ) (٧١) .

تلك كانت لمحة سريعة عن سيرة اشهر قصاص  
العرب الذين كان لهم دور في هذا الفن مع النبي  
( صلعم ) ونشاطه في هذا الميدان الذي حاول فيه  
تقليد القصص القرآني بما قرأه وسمعه من أخبار  
الاولين فلما قامت دولة الاسلام وقضت على كل  
مظاهر الشرك في بلاد العرب اتجه المجاهدون الى  
البلاد المجاورة فحملوا تعاليم الدين الجديد الى  
شعوبها فنشأت بها مراكز متعددة لهذا الفن الذي  
ساعد - دون جدال - على اذكاء الحياة الدينية  
بتعريف المسلمين الجدد بالقصص القرآني وتذكيرهم  
بفضائل الاسلام وشرعيته وأحكامه وإياد الله وضرورة  
الامتثال لأوامره ، والابتعاد عما نهى حتى يسعدوا  
بالعز والرضا في دنياهم ، ويحفظوا بشرة القرب من رب  
العالمين والالتصاق بانفس الملائكة مع الابرار  
والصديقين في آخرتهم ، ولم يجد القصص من مكان

(٧٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ - ٣٢٢ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ اسباب التبريل للمواحد ص ١٤١ - ١٤٢ انظر كذلك عن رسمه واسمها في الرضى الانف للسهيلى  
ج ٢ ص ٥٢ - ٥٣ ، دكتورة دينة طه النعم - القصص والتفصا في الاسلام ص ١٦ - ١٧ .

(٧١) المغازي للرازي - ج ١ ص ٣٧ ، ص ١٤٨ - ١٤٩

خرجت منه ، وعلى حقيقتها ، قال تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » (٧٥) .

فاذا نظرنا في السور المكية نلاحظ أنها تتضمن بالإضافة الى أسس العقيدة ، العديد من القصص القرآني الذي يحكي لنا أخبار الأنبياء والرسل السابقين مع أقوامهم وشعوبهم ، وما انتهى اليه أمر المصدقين بهم والمكذابين لهم لاستجلاء العبرة والموعظة ، ويظهر مثل هذا القصص في سورة يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومريم ، وأهل الكهف ، وطه ، والاسراء ، والانبياء ، والشعراء ، والرحم ، ولقمان ، وسبأ ، والانعام ، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، وغيرها ، ولعل ما تجسده في سورة القصص التي تحدثت بشيء من التفاصيل عن أخبار موسى وبني اسرائيل وفرعون ما أعان الرسول ( صلعم ) وحفزه على الصبر والعزم والتصميم على إعلاء راية الاسلام وهداية الناس ورفع الظلم عنهم ، كذلك تحدثت سورة الأعراف عن قصص الانبياء والرسل ، فروت قصة ناقة النسي صالحو مع التهوديين ، ولوطا مع قومه ، وشعبيا مع أهل مدين ، وموسى مع بني اسرائيل وفرعون ، وغير ذلك من الأخبار والمعارف التي لم تصلنا الا عن طريق ذلك القصص الديني الذي أمر الحق تبارك وتعالى رسوله ( صلعم ) أن يقصصه على الناس ليتدبروا أمرهم

لتحقيق ذلك أفضل من المساجد فمقدوا في رحابها مجالس ذكرهم ووعظهم لأنها المكان الذي يتناسب مع طبيعة هذا اللون الديني من القصص الذي يتشعب بل ويتم الوظيفة الاولى والمهمة الاساسية التي انشئت من اجلها المساجد كدور للعبادة واداء الصلاة وذكر الله تعالى والتقرب اليه .

### القصص في الاسلام

كان رسولنا الأعظم ( صلعم ) المعلم الاول في تاريخ الاسلام والمسلمين ، كذلك يمكن ان نعدده الذكر والواعظ والقاص الاول اذا اخذنا في الاعتبار ان هذه الاعمال الثلاثة مضمون متشابه ومتكامل ، فالذكر كما يقول علماء اللغة يعني الحفظ للشيء وتذكره قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٧٢) وقال تعالى « فذكرها أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » (٧٣) كما ان الوعظ يعني النصيح والتذكير بالعواقب قال تعالى « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (٧٤) وقد لمس الحكماء هذا المعنى فقالوا : السعيد من وعظ بغيره والشقي من اعتظ به غيره .

فاذا انتقلنا الى القاص نجد اللغويين يعرفونه بمن يأتي بالقصة على وجهها متبعا معانيها والفاظها ، فهو يروي القصة من فصحها أي من أصلها الذي

(٧٢) سورة ق / ٤٥ .

(٧٣) الطور / ٢٩ .

(٧٤) هود / ١٢٠ .

(٧٥) يوسف / ٣ انظر كذلك : لسان العرب لابن منظور كلمات ذكر ، وعظ ، قصص

ويتعظوا بمن سبقهم ، قال تعالى : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » وقال تعالى : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .<sup>(٧٦)</sup>

يمثل هذه المضامين الروحية الحالية تقريباً من الأحكام والتشريعات تتوافق هذه السور المكية مع ظروف الدعوة في مرحلتها المتقدمة من جهة ، ومع طبيعة الجماعة الإسلامية من جهة ثانية . فكان من الضروري أولاً غرس قواعد الدين وفضائله في نفوس المسلمين ، والتكئين لها في قلوب تلك الفئة القليلة المؤمنة التي كانت تدوب في المجتمع القرشي المشترك الواسع ، صاحب الكثرة العددية ، والقوة والسطوة ، والذي سلم قيادته طائفاً إلى المأل الذي كان يتمثل في زعماء وكبراء البيوتات الأستقرابية القرشيه الذين استحوذوا على المال والثروة والسلطة والسلطان ، قال تعالى : « وأنطلق المأل منهم أن امشوا واصبروا على آفتكم ان هذا لشيء يراد »<sup>(٧٧)</sup> ، لذلك مكنت الدعوة للدين الجديد ما يقرب من ثلاث سنوات محصورة في نطاق الخاصة من رهنط النبي ( صلعم ) وأصحابه المقربين ، فلما نادى رسول الله ( صلعم ) قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله تعالى ، لم يجد أفضل من البيت العتيق موضعاً يلتقي فيه بأهل مكة والقادمين إليها ، فاتخذ لنفسه في رحابه الطاهرة مجلساً يدعوهم فيه إلى الله عز وجل ، ويجهشهم على نبذ الشرك ورفض الأوثان والأصنام ، فكان يقرأ لهم ما

ينزل به جبريل الأمين من آيات الذكر الحكيم ، ويقص عليهم من قصصه ، يعظهم به ، فكان - كما رأينا - كلما فرغ من مجلسه خلفه فيه شيطان قریش وقاصها المشهور النضر بن الحارث يقص هو الآخر على الناس فصصاً من نوع آخر يحذر به من الخطر المزعوم الذي كان يرى أنه يتهدد قریشاً وأرستقراطيته لو نجحت دعوة الاسلام وارتفع نجم رسوله الكريم ( صلعم ) فكان النضر يقول في مجلسه « يامعشر قریش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتهم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفتهم وعقدتهم . وقلتهم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة يتخالجهم . وسمعنا سجعهم ، وقلتهم شاعر - لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه وزجره ، وقلتهم مجنون ، لا والله ما هو مجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا بسوسته ، ولا تخليطه ، يامعشر قریش فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم »<sup>(٧٨)</sup>

يمثل هذه المجالس ، اتسع نطاق دائرة الحرب والمنافسة بين رسول الله ( صلعم ) وبين قریش ، فشملت القصص كميديان جديد يمكن أن نضيفه إلى

(٧٦) الأنعام / ١٢٦ ، إبراهيم / ٢٥ .

(٧٧) سورة ص / ٦ .

(٧٨) سورة ابن هشام ص ٣٢٠ .



جلس يقص على الناس ويذكرهم ، وهم مقبلون عليه بوجوههم فلما أبصر الرجل النبي ( صلعم ) مقبلا قطع قصصه وقام من مجلسه لرسول الله ( صلعم ) الذي أشار إليه لكي يستمر في حديثه ، وجلس ( صلعم ) في أدنى الناس حتى لا يتخطى أحد ، فلما فرغ الأنصاري من قصصه أمره رسول الله ( صلعم ) ألا يترك مجلسه ولا يقطع قصصه وقال : اني أمرت أن أصبر نفسي مع الذين يدعون ربههم بالقعدة والعشي يريدون وجهه ، ولئن أصبر نفسي مع قوم يذكرون الله عز وجل من حين يصلون الصبح الى أن ترتفع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع مرات رقاب مؤمنات من ولد اسماعيل ، ولئن أقعد مع قوم يذكرون الله عز وجل من حين يصلون العصر الى أن تغيب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب من ولد اسماعيل (٨٠) .

وقد كشفت النصوص النقاب عن شخصية ذلك الأنصاري الذي كان يقص على المسلمين في حضور رسول الله ( صلعم ) فإذا هو عبدالله بن رواحة الذي كان يرى في القصص والتذكير مظهرا من مظاهر الايمان ومقوماته ، فقد روي عنه أنه كان اذا أراد أن يقص للناس قال : تعالوا حتى نؤمن ساعة ، فيجلسون اليه ويقص عليهم ويذكرهم ويفقههم في دينهم فربما خرج عليهم رسول الله ( صلعم ) وهم مجتمعون فيجلس اليهم ويأمرهم أن يأخذوا قياهم فيه ويقول : الحمد لله الذي جعل من أمتي من يذكرهم

أشكال الصراع ومظاهره المختلفة والمتعددة التي دارت بين الحق والباطل ، وظل النبي ( صلعم ) خلال السنوات العديدة التي قضاها في مكة صابرا محتسبا ، مظهرا لأمر الله ، لا يستخفي به ، مبادلا أهل الضلال بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال معبوداتهم ، مفارقا لهم على كفرهم وسوء تفكيرهم ، فزاد حقدهم ، واشتد كيدهم وضغنتهم ، وبلغ ذروته عندما استقر رأي اللأئمة منهم على التآمر على حياته وتدبير اغتياله فحفظته غناية السماء ورعته حتى دخل يثرب سالما ، فبنى مسجده واتخذ منه مكانا في دار هجرته لمجالس علمه وقصصه ، فكان المعلم الأول ، والفاصل الأول كما كان معروفا ومقررا بين صحابته ، وما يروى في هذا الشأن أن الحسن بن علي مر يوما وقاص يقص على باب مسجد المدينة ، فقال له : ما أنت ؟ فقال : أنا قاص يا ابن رسول الله ، قال : كذبت ، محمد القاص ، قال الله عز وجل فاقصص القصص ، قال الرجل : فأنا مذكر ، فقال الحسن : كذبت - محمد المذكر - قال له عز وجل : فذكر لنا أنت مذكر ، فسأله الرجل : فما أنا ، فأجابه الحسن : المتكلف من الرجال (٩٨) .

كان الطبيعي إذن أن يتخرج على يدي الرسول ( صلعم ) فريق من كبار الصحابة كانوا نواة القصص الديني ، كما هو الحال في ميدان العلم ، وتحدثنا النصوص أنه ( صلعم ) خرج من منزله يوما فدخل المسجد فجلس فإذا رجل من الأنصار في

(٩٨) تاريخ البقرى - ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، المتكلف = هو التمس الزناح لما لا يبه .

(٨٠) ابن الجوزي - كتاب القصص والمذكرين - ص ٩٤ - ٩٥ .

طريقه بعد ذلك - وعلى امتداد العصور - الى القصص ، فاستعانوا بدورهم بالشعر لحث الناس على كبح جماح النفس وعدم الانسياق وراء الشهوات وطلب الآخرة بالاقبال على الاعمال الصالحة ، فروي عن سعيد بن المسيب فقيه المدينة وعابدها المعروف ، عندما سئل عن بعض التساك الذين يعيبون الشعر ، قوله : نسكونسكا أعجبنا (٨٢) .

وهذا القول يتماشى الى حد بعيد مع ما اشتهر به العرب ، لأن الشعر - كما هو معلوم - كان على رأس الفنون التي أجادوها في جاهليتهم وبعد الاسلام .

كذلك روي عن الحسن البصري ( ت ) صاحب أكبر وأشهر مجلس للقصص والوعظ بمسجد البصرة في زمانه ، كان هذا الفقيه الزاهد العالم ينشد في مجالس علمه وتذكره وقصصه هذا البيت :

ليس من مات فاستراح بيت  
انما الميت ميت الأحياء (٨٤)

وتحدثنا النصوص أن أبا الفيض ثوبان بن ابراهيم ، المعروف بذي النون المصري ( ت حوالي ٢٤٥هـ ) الذي اشتهر بعلمه وأدبه وحكمته وفصاحته وورعه حتى لقب « بأوحد زمانه » كان هو الآخر يستعمل الشعر في قصصه وتذكره للتدليل على

بأيام الله ، والذي نفسي بيده لئن أصبر على هذا طرني النهار أحب الي من أن أعنت أربع رقاب من بني اسماعيل ، بهذا بعثت ، وبهذا أمرت ، وفي رواية أخرى : بهذا أمرت والى هذا دعوت (٨١) . وكان من محاسن ابن رواحة في مجالس قصصه أنه كان يتجنب كلمة « الرث » كلما وردت في حديثه ، ويستعيز عنها بأبيات من الشعر يكتفي فيها بما كان يفعل رسول الله ( صلعم ) بانصرافه الى قراءة القرآن والعبادة وحياته الخاصة في أوقات السلم التي لا يخرج فيها لمجاهد المشركين ، ويدعو للاهتداء به والسير على نهجه ، فيقول :

وفينا رسول يتلو كتابه  
إذا انشقت معروف من الليل ساطع  
يبيت يحيا في جنبه عن فراشه  
إذا استقلت بالكافرين المضاجع  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا  
به موقنات إن ما قال واقع (٨٢)

ولا نستبعد أن نهج هذا الصحابي الانصاري الجليل في الاستعانة بالشعر في قصصه - وهو الذي اشتهر بين أقرانه بشاعريته - يمثل هذه الصورة التي تتماشى مع ما قصد اليه من تذكير وعظة والاهتداء بسيرة سيد الخلق وامام المرسلين ( صلعم ) ، قد أخذ

(٨١) المصدر السابق ، ص ١٦ ، انظر كذلك : قوت القلوب للكي ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٨٢) ابي الجوري - كتاب القصص والمذكرين ص ٥٠ .

(٨٣) الجاحظ - البيان والبيان ج ١ ص ٢٠٢ .

(٨٤) المصدر السابق ج ١ ص ١١٩ ، انظر كذلك : احمد أمين - محرر الاسلام ص ١٨٥ الذي قال عن الحسن البصري انه كان فقها يستغني عما يمرض من الحوادث فيعتي بهم ، وكان قصاصا يحد من سادات القصاص وأسذنتهم .

وأينا مع عبدالله بن رواحة ، ولا شك أنه كان وغيره كثير مثل أبي بكر وعمر وعلي وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وسلمان الفارسي وأبي موسى الأشعري وأبي ذر الغفاري وأبي الدرداء وعمر بن عاصم ، وعبدالله بن عباس وقيم الداري ، ولا شك أن هؤلاء جميعا وغيرهم من الصحابة والتابعين كانوا نواة مدارس القصص التي انتشرت في الأمصار المفتوحة ، فعندما نزل أبو الدرداء دمشق ، اتخذ من مسجدها موضعا لمجالس قصصه ووعظه ، فلما رأى من أهلها عزوفا عن مجالسه ، وانصرافهم عن العلم والتفقه في الدين إلى أمور الدنيا وجع المال ، أخذ يحثهم على تغيير منهجهم ويذكرهم قائلا : يا أهل دمشق أنتم الاخوان في الدين ، والجيران في الدار ، والانصار على الاعداء ، ما ينعمكم من مودتي ، وإننا مؤمنسي على غيركم ، مالي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ، وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به ، وتركتهم ما أمرتم به ، ألا إن قوما بنوا شديدا ، وجمعوا كثيرا ، وأملوا بعيدا ، فاصبح بنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا ، وجمعهم بورا ، ألا فتعلموا وعلموا ، فإن العالم والمتعلم في الآخرة سوا ، ولا خير في الناس بعدها (٨٦) .

أما عبدالله بن مسعود ، نزيل الكوفة ، وصاحب القراءة المنسوبة إليه ، فكان إذا اتخذ مقعده في مجلس القصص والتذكير افتتح حديثه حائا الحاضرين على التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح قبل أن يذكرهم

فضل القرآن الكريم ، وأثره الكبير في تهذيب النفوس فيقول :

منع القرآن بوعده ووعيده  
مقل العيون بلبيلها أن تهجعا  
فهمسا عن الملك الكريم كلامه  
فهما تذلل له الرقاب وتخضعا

ولما سأله بعض من كان يحضر مجلسه عن الذين قصدهم بهذا الوصف الذي جاء في شعره قال : هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزطهم عن الأزواج ، وحركهم بالادلاج ، فوضعوه على أفئدتهم فانفجرت ، وضموه إلى صدورهم فانشرحت ، فجعلوه لظلمتهم سراجا ، ولنويمهم مهادا ، ولسبيلهم منهجا ، ولطجنتهم أفلاج ، درجوا على شرائع القرآن ، وتخلصوا بخالصة القربان ، واستناروا بنور الرحمن ، فمال لبنا أن أنجز لهم القرآن وعوده ، وأوفى لهم عهوده ، وأحلهم سعوده ، وأجارهم وعيده ، فمالوا به الرغائب ، وعانقوا الكواكب ، وأمنوا العواطب ، وحذروا العواقب .

كذلك كان من حسن كلامه في قصصه ووعظه للناس قوله : إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح (٨٥) .

والغزى الهام الذي يمكن أن نتبينه من كل ما سبق هو أن عددا من كبار الصحابة الذين اشتهروا بالعلم والفقه قد تأثروا بالنبي الكريم ( صلعم ) وساروا على نهجه في هذا الميدان أيضا ، فأخذوا عنه الجلوس إلى المسلمين للقصص والوعظ والتذكير ، كما

(٨٥) أبو عبيد الاصبهاني - حلية الأولياء ج ١ ص ١٣ - ١٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان - ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٨٦) حلية الأولياء لابن نعيم الاصبهاني - ج ١ ص ٢١٣ .

الحاضرين من دفتر، ثم أرفد ذلك بقوله موضحاً حقيقة هذه المجالس فقال : وأن المذكرين به قصاص (٨٩).

أما ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) العالم والفقيه الحنبلي، والقاص أيضاً، فقد فسر ذلك وشرحه فقال : أن لهذا الفن - يقصد القصص - ثلاثة أساء : قصص، وتذكير، ووعظ، فيقال قاص، ومذكر وواعظ، ثم يستطرد لبيان مهمة القاص وعمله فيقول : هو الذي يتبع الفصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها، وهذا لا يذم لنفسه لأن في إيراد أخبار السابقين عبرة لمزدجر، واقتداء بصواب المتبع (٩٠).

وأخيراً نحد محمد بن محمد بن أحمد القرشي، المعروف «بأبن الاخوة» (ت ٧٢٩هـ) الكاتب الذي صنف واحداً من أهم وأشهر كتب الحسبة بعد أن أكملت كل مقومات هذه الوظيفة، واستوفت تماماً اختصاصات المحاسب وتشعبت لتصبح «أمراً بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهياً عن المنكر إذا أظهر فعله» فقد ذكر ابن الاخوة أن العديد من المشتغلين بالعلم كانوا يعتبرون المذكرين والوعاظ فصاصاً أيضاً، فقال : والفقهاء والمتكلمون والأدباء والنحاة يسمون أهل الذكر والوعظ قصاصاً (٩١).

الموت الذي يأتي بغتة، مبيناً لهم أهمية الايمان بقضاء الله وقدره، وأهل العلم والفقه وفضلهم وفائدة الجلوس اليهم فيقول : إنكم في ممر الليل والنهار في أجال مفتوحة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شراً يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، ولا يسبق بطيء بخطفه، ولا يدرك حريص ما لم يقدرله، فمن أعطى خيراً فإله أعطاه، ومن وقى شراً فإله وقاه، المتقون سادة، والفقهاء قادة، ويجالستهم زيادة (٨٧).

هكذا كان الفضص الديني، وثيق الصلة بالوعظ والتذكير شديد الارتباط بهما، قال تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » وقال جل شأنه : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (٨٨) لذلك رأى الفقهاء والمشتغلون بالقصص وغيرهم أن مهمة القاص في هذه الحالة لا تختلف عن عمل الواعظ، وأن قصصه في مضمونه ويجتواه وهدفه هو نوع من التذكير والعبرة والعظة، وقد أشار الى ذلك الجغرافي العربي الكبير المقدس البشاري (ت حوالي ٣٨٨هـ) عندما وصف مجالس المذكرين في بيت المقدس، فذكر أنه رأى لأصحاب الامام أبا حنيفة - صاحب المذهب المعروف - بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرأ فيه المذكر على

(٨٧) ابن الجوزي - كتاب القصص والمذكرين - ص ٤١.

(٨٨) انظر على التوالي القرآن الكريم - الروم / ٥٨، السكوت / ٤٣.

(٨٩) شمس الدين محمد بن أحمد القنسي الشامي - أسنن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٨٢.

(٩٠) ابن الجوزي - كتاب القصص والمذكرين - ص ٩ - ١٠.

(٩١) ابن الاخوة - معالم القرية - ص ٢٧٢.

وأصبح من حق أولى الأمر تعيين القصاص والاشراف عليهم ، وبذلك دخل عمل القاص في نطاق مسئولية صاحب الحسبة في المدينة الاسلامية . وما يستوقف النظر أن صفات القاص التي تحدث عنها ابن الجوزي الفقيه ، لا تختلف كثيراً عن مواصفات المحتسب التي شرطها في القاص ، بعد أن أصبح له الحق في الاشراف عليه ، بل نلاحظ أن المحتسب شدد أيضاً على ضرورة صفات التقوى والتدين والخير ، ولذلك ذكره باسم الواعظ ، وقد أوضح ذلك كله صاحب معالم القرية فقال : يجب على المحتسب أن ينظر في أمر الوعاظ ، ولا يمكن أحداً من يتصدى لهذا الفن الا من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة ، وأن يكون عالماً بالعلوم الشرعية ، وعلم الأدب ، حافظاً للكتاب العزيز ، ولأحاديث النبي ( صلع ) ، وأخبار الصالحين ، وحكايات المتقدمين ، ويمتحن بمسائل يسأل عنهامن هذه الفنون ، فان أجاب والا منع .<sup>(٩٤)</sup>

لذلك وجد القصاص والمذكرون منذ صدر الاسلام في المساجد المكان المناسب لاقامة مجالسهم ، حتى في البيت العتيق ، فروى عن موسى الجهني أنه رأى عطاء بن أبي رباح ، فقيه مكة العرف ، يدعو القصاص لمشاركته في عقد مجلس قصصهم بالمسجد الحرام ، فاجتمع معه خمسة كان من بينهم الفقيه أبو ذر عمر بن ذر ، من قصاص مكة المروفيين .<sup>(٩٥)</sup>

ولكي يبقى هذا الارتباط بين القصاص والوعظ والتذكير قويا ، ويستمر دون انقضاء ، لا سيما بعد ظهور ألوان جديدة من هذا الفن غير القصص الديني ، كان لابد من توافر صفات معينة في القاص حتى يباشر مهمته الدينية على أكمل وجه ، فذكر ابن الجوزي أنه ينبغي أن يكون حافظاً لحديث رسول الله ( صلعم ) عارفاً بصحيحه وسقيمه ومسندته ومقطوعه ومعضله ، عالماً بالتواريخ وسير السلف ، حافظاً لأخبار الزهاد ، فقيهاً في دين الله ، عالماً بالعربية واللغة ، فصيح اللسان .<sup>(٩٦)</sup>

لذلك اهتم الخلفاء منذ عصر الراشدين بأمر القصاص ومدى صلاحيتهم للقيام بهذا العمل الديني الجليل ، فروى أن علياً بن أبي طالب اختبر أحد القصاص قائلاً : أعرف الناس من المنسوخ ؟ فلما أجابه بالاجاب صرح له أن يقص . وفي مرة أخرى شاهد أحد قصاص الكوفة يقص على الناس ، فأراد أن يعلم دخيلة نفسه ، وسدى صدقه فسأله عن الايمان قائلاً ما ثبات الايمان ؟ وما زواله ؟ فقال القصاص : ثبات الايمان الورع - وزواله الطمع ، فاستحسن منه أمير المؤمنين هذه الأجابة ، وقال : مثلك يقص .<sup>(٩٧)</sup>

ولم يتوقف هذا الاهتمام بأمر القصاص ، بل ازداد بمرور الزمن خاصة بعد أن ارتبط عملهم بسياسة الدولة منذ العصر الأموي - كما سنوضحه فيما بعد -

(٩٢) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرون - ص ٢٤ .

(٩٣) نفس المصدر - ص ٢٥ - ١٣٠ .

(٩٤) ابن الاثير - معالم القرية - ص ٢٧١ .

(٩٥) ابن الجوزي - القصاص والمذكرون ص ٢٥ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٤٤٢ .

الى مسلم بن يسار - وسائر المسجد قصاص (٩٧)

وقد أوحى هذا الارتباط الوثيق بين القصص الدينية وبين المسجد الى بعض الباحثين بتسميته « بالقصص المسجدي » (٩٨) ولعل ذلك يؤكد ما ذكرناه من اتساق مهمة القاص اتساقا كاملا مع الوعظ والتذكير وتبصير الناس بما ينفعهم في حياتهم ويفيدهم في آخرتهم ، وليس هناك أشرف ولا أظهر ولا أقدس من بيوت الله لإيجاد الجو الروحي المشوب بالهدوء والوقار والسكينة ، لاتاحة الفرصة أمام الحضور للاستفادة بكل ما يرويه القصاص من أخبار عن الانبياء والرسل مع أقوامهم وشعوبهم كما تحدث عنها الكتاب المبين لتذكير الناس وعظهم قال تعالى « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع » (٩٩) وما يروى عن الخليفة الراشد الرابع ، انه اخرج من المسجد البصرة الجامع القصص الذين لم يلتزموا بأصول هذا اللون الديني من القصص ، فلما سمع الحسن البصري سمح له بالبقاء ، لأنه وجدته يذكر بالآء الله ونعائنه وتقصير العبد في شكره ، ويعرف بحقارة الدنيا وعيوبها وتصرفها ونكت عهدها ، وخطر الآخرة وأهوالها وهكذا - كما يقول الامام الغزالي - هو التذكير المحمود شرعا (١٠٠)

وحتى بعد ظهور القصة الشعبية السذی استخدم كلون من الوان التسلية والترفيه للكسب وجمع المال ، واضطرار من اشتغل بهذا الفن الى الخروج من المساجد الى الأماكن العامة والطرق ، ظل المسجد يلعب دوره التقليدي بالنسبة الى القصص الدينية ، فتذكر النصوص أن الخليفة العباسي في بغداد أمر في سنة ٢٨٩ هـ الا يقعد على الطريق ، ولا في المسجد الجامع قاص ، ولا منجم ، ولا زاجر (٩٦) . ويوضح هذا الأمر استمرار الدور الذي يؤديه القصص الديني وكذلك مدى تأثيره على الحياة الروحية في المدينة الاسلامية رغم وجود تلك الالوان المختلفة والمتعددة التي كانت تجذب اهتمام الناس وتشغل جانبها كبيرا من حياتهم الاجتماعية ، وليس ذلك بغريب على القصص الديني اذا علمنا أنه كان يجمع في مضمونه ومحتواه أهم عوامل الحياة والبقاء في كل الأجواء تحت أية ظروف ، وهل هناك أقوى من الدين والعلم وتقوى الله والتذكير بوجوده من أسباب للانفشاء على هذا اللون من القصص واستمراره ينبض بالحياة لا يقاط الناس من غفوتهم كلها انصرفوا عن الجسدة ؟ بل رأينا - في بعض الأحيان - تفوق مجالس القصص الديني على عدد حلقات العالم فيروى عن ابن عون في ذلك قوله : أدركت هذا المسجد - يقصد مسجد البصرة الجامع - وما فيه حلقة تنسب الى الفقه الا حلقة واحدة تنسب

(٩٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٤٥٣ ، تاريخ الخلفاء - للسيوطي ص ٣٧٠ .

(٩٧) ابن الجوزي - القصاص والتكرين ص ١٧ .

(٩٨) د . ديمة طه التميم - القصص والقصاص في الادب الاسلامي ص ٣٧ .

(٩٩) الانعام / ٧٠ .

(١٠٠) احياء علوم الدين للغزالي - طبع دار النشيد - ج ١ ص ٥٨ ، قوت القلوب للسبكي ج ١ ص ٣٠٢ .

بين المصادر التي استعان بها على جميع المادة اللازمة لإخراج مؤلفه القيم فقال « وما تم لي جمعه إلا بعد جولتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك وبالمجالس القضاء ، ودرسى على الفقهاء واختلفت إلى الأديباء والقراء وكتبته الحديث وبخالطة الزهاد ، والمتصوفين وحضور مجالس القصص والمذكرين . » (١٠٣)

هكذا تظهر أهمية القصص الدينى في الحياة الاجتماعية ، كما يتضح أثره في تطور الفكر الإسلامى ، وبالتالي دور المسجد في الميدان الدينى والأدبى والعلمى .

ولعل السؤال الذى يلح علينا بعد ذلك هو : إلى أى حد استمر القصص الدينى يمثل هذا الصفاء والنقاء معتمداً بالدرجة الأولى على ما جاء في القرآن الكريم وغير ذلك من أمور الدين والشرع دون أن يتأثر بأية مؤثرات أخرى ؟

لقد تعرض العديد من الباحثين للإجابة على هذا السؤال ، واتفقوا على أن القصص الإسلامى تأثر إلى حد بعيد بالأسرائيليات كغيره من الفنون والعلم الإسلامى ، ويأتى كل من تميم الدارى وكعب الأحبار ، وهب ابن منبه في مقدمة القصص الذين سرّبوا الكثير من سير الأنبياء والرسل وأخبار الشعوب والأقوام بالإضافة إلى بعض الأسفار والمعتقدات الدينية كيدابة الخلق ونشأة الكون التي

وقد يتبادر إلى ذهن أن هذا اللون من القصص قد اقتصرت أهميته وأثاره على الجوانب الروحية والدينية فقط لكن الواقع غير ذلك إذ وجد الباحثون والأديباء أن تأثيراته قد امتدت لتشغل كذلك ميدان الأدب ، فكان النواة التي نبتت منها عناصر القصة الأدبية التي انصهرت فيها ثقافات الأمم الأخرى . (١٠٤)

أما عند المؤرخين فقد كان تفسير هذا اللون الدينى من القصص بالإضافة إلى سيرة رسولنا الأعظم ( صلعم ) تشكيلان المادتين الأساسيتين اللتين وجدتا طريقهما إلى مؤلفات الاخباريين والمؤرخين الأول عندما بدأ تدوين التاريخ الإسلامى في النصف الثانى من القرن الأول للهجرة لأسياً في مدرسة مصر التاريخية . (١٠٥)

كذلك لم يحل القصص وما كان يتكلم به القصص في مجالسهم من فائدة للجغرافيين فقد اعترف آخر الممثلين الكبار للمدرسة الجغرافية الكلاسيكية ، أبو عبد الله شمس الدين المقدسى ( ت حوالى ٣٨٨ هـ ) الذى نعت المستشرق كزير بأنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة كما وصف مؤلفه بأنه من أكثر المصنفات قيمة ، اعترف هذا الجغرافى العربى الكبير بأهمية ما كان يسمعه من القصص في مجالسهم التي حضرها خلال تطوافه بمعظم البلاد الإسلامية التي زارها وذكر أن هذا القصصى كان من

(١٠١) د . ديوحة طه النجم - القصص والقصص في الأدب الإسلامى ص ٤٠ انظر كذلك د . شاكرو مصطفى - التاريخ العربى والمؤرخين ج ١ ص ٣٧٥ .

(١٠٢) د . شاكرو مصطفى - التاريخ العربى والمؤرخين ج ١ ص ١٩٣ - ١٠١ - ١٠٢ ح ٢ ص ١٤٣ - ١٤٧ .

(١٠٣) المقدسى - احسن التقاسيم - ص ٢ انظر كذلك - اعطاطوس كرايتشفسكى تاريخ الادب الجغرافى العربى - الترجمة العربية - ج ١ ص ٢٨ .

ويبدون أنها رقية تهما فضل البقاء والاقامة في حاضرة الدولة الاسلامية في صحبة الرسول ( صلعم ) وبقي بها حتى اندلاع نيران الفتنة الكبرى ، فلما قتل عثمان بن عفان رأى الصحابي الجليل أن ينتقل الى أرض فلسطين فخرج اليها ونزل بيت حبرون الى أن وافته المنيعة ففضى بها .

كان لتميم الداري خلال الفترة القصيرة التي قضّاها في مدينة رسول الله ( صلعم ) صحبة مكنته بجانب ما عرف عنه من اطلاع على كتب الأقدمين ، من التفقه في الاسلام فاشتهر بالصلاح والتقوى وكثرة القيام والتهجد حتى روى أنه قام ليلة بأية حتى أصبح ، كما ذكر عنه أنه كان أول من أسرج السراج في المسجد ، وأول من قص في زمن عمر بن الخطاب لذلك كله عرف برأبب أهل عصره وعابده أهل فلسطين (١٠٤) .

يرتبط اسم هذا الصحابي الجليل بحادثتين وقعتا له مع النبي ( صلعم ) جعلناه يحظى بمكانة مرموقة بين الصحابة والتابعين وكذلك بين القصاص ولدى المؤرخين والباحثين .

أولاهما ، قصة الاقطاع الذي طلبه من النبي ( صلعم ) في أرض فلسطين قبل فتح الشام وقد استجاب رسول الله ( صلعم ) لرغبته وكتب له كتابا بذلك فقال صاحب فتوح البلدان « وفد تميم بن أوس أحد بني الدار بن حبيب من لحم ويكنى أبا رقية على

وردت في كتب اليهود والنصارى ، سربوا مثل هذه المفاهيم وغيرها الى القصص الاسلامي وبذلك يمكن القول بأن مثل هذه المؤثرات الخارجية وجدت طريقها الى قصص المسلمين في وقت مبكر وسنفصل في هذا المقام الحديث عن تميم الداري لصحبته من جهة وما نسب اليه عن حديث الجساسة باعتباره أول من جلس للقصص بأمر الخليفة كما أشارت المصادر من جهة أخرى .

فهو تميم بن أوس بن خارجة ينحدر نسبه من الدار بن هاني اللخمي فعرف بالداري وكنى أبا رقية ، ابنته التي لم يولد له غيرها . كان من نصاري قبيلة لحم التي تفرقت بطونها في المناطق الجنوبية من أرض فلسطين ، لاسيا الأجزاء الشرقية والغربية من البحر الميت .

ولما تم لرسول ( صلعم ) فتح مكة ودانت له قرش وفرغ من تبوك واسلمت ثقيف وعرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ( صلعم ) ولا عداوته ضربت اليه الوفود من كل وجه في السنة التاسعة من بعد الهجرة التي عرفت بعام الوفود ، وكان من بين الوفود التي قدمت المدينة لاعلان اسلامها وطاعتها لدولة الرسول ( صلعم ) وفد الدارين الذي كان على رأسه تميم بن أوس وأخوه نعيم ومعها سبعة آخرون من الشيوخ من أبناء مالك والنعمان وبر ، وأعلن جميعهم اسلامهم بين يدي النبي ( صلعم )

(١٠٤) الاستيعاب لابن عبد البر - يهاشم الاسامة ج ١ ص ١٨٤ ، أسد الغابة لابن الاثير ج ١ ص ٢١٥ وقد ذكر في تاريخه « الكامل » أن قيا احدى النبي ( صلعم ) فرسا يقال له الوردي ، فوجه رسول الله ( صلعم ) لسمر بن الخطاب ، تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ٣٢٤ ، أما ابن اسحق مدكران تقدم وفد الدارين الى المدينة وكان في السنة السابعة للهجرة بعد فتح حبرون والرسول ( صلعم ) اوصى لهم من أرض حبرون وليس في فلسطين كما أشار الى اسماهم وفد الدارين سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .



عينون وبيت ابراهيم وما فيهن نظية بت بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه الله فمن آذاهم لعنه الله شهد عتيق بن أبي قبحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وكتب على بن أبو طالب وشهد « ثم أوضح أنه مكتوب على قطعة من الأدم بالخط الكوفي المليح القوي ، وأنه رأى ذلك كله رأى العين ، وتأكد منه ثم قال « فقبلنا تلك الآثار وفتننا منه بمدد الانوار » للتبرك به ، وزيادة التأكيد على أنه من مخلفات النبوة . (١٠٧)

وإذا كان المستنقذ العباسي قد أقر للداريين بما جاء في كتاب النبي ( صلعم ) كما ذكر ابن فضل الله العمري فإن الأمويين من قبلهم قد اعترفوا بهذا الحق فروى عن سليمان بن عبد الملك أنه إذا مر بهذه المنطقة لم يرجع على وقف الدارين وقال « أخاف أن تصيبني دعوة النبي ( صلعم ) . (١٠٨)

أما القصة الشاية التي أظهرت فضل تميم الداروي ومكانته المرموقة عند المسلمين فهي قصة « الجساسة » التي أخبر بها المسيح الدجال تميم ومجموعة من قومه بظهور رسول الاسلام بمكة ، ثم ارتفاع شأنه بالمدينة وقد قصها أبو رقية بدوره على النبي ( صلعم ) الذي حدث بها المسلمين من فوق منبر مسجد الجامع بالمدينة المنورة .

النبي ( صلعم ) ومعه أخوه نعيم بن أوس فاقلعتهما رسول الله ( صلعم ) حبري ، وبيت عينون ومسجد ابراهيم عليه السلام فكتب بذلك كتابا . (١٠٩)

أما المقرئ فذكر ان تميم سأله رسول الله ( صلعم ) أن يقطعه عيون البلد الذي كان منه بالشام قبل فتحه ففعل . (١١٠)

وقد ذكر خبر هذا الاقطاع الصدفي في تذكرته ، القلقشندي في صبح الأعشى وصاحب مسالك الابصار ، وسنشير هنا الى ما جاء في هذا المصدر الذي شاهد مؤلفه نص كتاب النبي ( صلعم ) لتميم الداروي .

يروي لنا ابن فضل الله العمري أنه زار مدينة الخليل وقبر ابراهيم - عليه السلام - في أواخر سنة ٧٤٥ هـ حيث عرض عليه ناصر الدين بن عبد الله محمد ، من سلالة تميم الداروي والقائم على الوقف عرض على صاحب المسالك نسخة من كتاب النبي ( صلعم ) ومعه كتاب آخر بخط الخليفة العباسي المستنقذ بالله ( ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ ) يقر فيه للداريين بمضمون ما جاء في كتاب النبي ( صلعم ) وأحقيتهم في ذلك الوقف ، ونص الكتاب كما أورده العمري هو : ( بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداروي وأخوته حبرون والمطروم وبيت

(١٠٥) البلاذري - فتح البلدان ص ١٥٣ .

(١٠٦) حط المقرئ - ج ١ ص ٩٦ .

(١٠٧) ابن فضل الله العمري - مسالك الاضرار ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٥ ، انظر كذلك صبح الاعشى للقلقشندي ج ٣ ص ١١٨ - ١٢٢ ، د . دية نجم مقال « بنون : تميم الداروي اول قاضي الاسلام عملة كلية الاداب - حامية بغداد - العدد الخامس - نيسان ١٩٦٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٩ .

(١٠٨) البلاذري - فتح البلدان ص ١٥٣ .

حياتها معه فقالت : لقد اغتبطت بنكاحي اياه ، وبما يروى عنها قولها : طلقت زوجي ثلاثا فأمرني رسول الله ( صلم ) أن أعتد عند ابن أم مكتوم ، ولم يحبل لي نفقه ، لذلك كله قبل أن في طلاقها وتكاحها سنن كثيرة مستعملة (١١٠) .

وقد روى عنها جماعة من التابعين من بينهم أبو عمرو شراحيل الشعبي ( ت حوالي ١٠٥هـ ) فقيه الكوفة وقاضيه المعروف ، وهو الذي روت له قصة الجساسة والمسيح الدجال وأخرجتها أشهر كتب الحديث .

وإذا كان القصص والأساطير يغلبان على الكثير من أحداث قصة الجساسة ، فإن ما روي عنها قد حظي بقدر كبير من اهتمام أشهر المحدثين ، والمؤرخين وغيرهم ، لذلك رأينا من المفيد ونحن نبحت في القصص الاسلامي أن نفردها جانباً ، كما وجدنا في رواية إمام أهل الحديث أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ( ت ٢٦١هـ ) أفضل الروايات التي يمكن الرجوع اليها لرسوخ قدمه في هذا العلم ، فقليل عنه وفي وصف « صحبته » وأهميته ، أن من حقق نظره فيه ، واطلع على ما أودعه في اسناده وترتيبه وحسن سياقته ، وأنواع الورع والاحتياط والتحرر في الروايات وكثرة اطلاعه واتساع روايته ، وغير ذلك مما فيه من المحاسن والاعجوبات واللطائف الظاهرات والخفية ، علم أنه إمام لا يلحقه من بعد عصره ، وقل من يساويه بل

وقد أسندت المصادر المختلفة التي تحدثت عن هذه القصة روايتها الى الصحابية الجليلة فاطمة بنت قيس التي ينتهي نسبها الى محارب بن فهر ، فهي بهذا النسب قرشية قهرية كانت من المهاجرات الأول ، ولها صحبة ، كما أنها أخت الضحالك بن قيس الذي خدم الأمويين ثم خرج عليهم وانضم الى جانب عبد الله بن الزبير فقتل في مرج راهط سنة ٦٤هـ وكانت أخته فاطمة تكبره بعشر سنين .

وقد ذكر الطبري هذه الصحابية في حديثه عن أهل الشورى وأشار الى أنه بعد دفن الخليفة عمر بن الخطاب تفرق أهل الشورى يريدون منازلهم فناداهم عبد الرحمن بن عوف الى أين ، ثم طلب منهم أن يتبعوه حتى دخل بيت هذه الصحابية التي نعتها الفقيه بأنها عالية الهمة ذات رأي ، فاجتمعوا في دارها وانتهى أمرهم - كما هو معروف - باختيار عثمان بن عفان للخلافة . عاشت فاطمة بنت قيس بعد ذلك طويلاً الى أن توفيت في خلافة معاوية بن أبي سفيان . (١١٠)

كذلك ذكرها ابن سعد في طبقاته وقال إنها كانت تحت أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي القرشي ، فلما طلقها خطبها كل من معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة العدوي ، فاستشارت النبي ( صلم ) فأشار اليها بأسماء بن زيد وكان أهلها كرهوا ذلك ولكنها فضلت وقالت : لا أنكح إلا الذي قال رسول الله ( صلم ) وقد سعدت في

(١٠٩) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٤ ، انظر كذلك سيرة اعلام النبلاء للحافظ شمس الدين عيني ج ٢ ص ٢٢٦ .

(١١٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٢٧٣ - ٢٧٥ ، الاستيعاب لابن عبد البر عياض الاسامة ج ٤ ص ٣٨٢ ، الاسامة لابن حجر ج ٤ ص ٣٨٤ .

ينكشف التوب عن سابقك فيرى القم فيك بعض ما  
تكرهين ، ولكن انتقلي الى ابن عمك عبدالله بن  
عمرو بن أم مكتوم ، وهو رجل من بني فهر ،  
قريش ، الذي هي منه ، فانتقلت اليه ، فلما انتضت  
عدتي سمعت نداء المنادي ، منادي رسول الله  
( صلعم ) ينادي الصلاة جامعة ، فخرجت الى  
المسجد ، فصليت مع رسول الله ( صلعم ) فكنيت في  
صف النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول  
الله ( صلعم ) صلاته جلس على المنبر وهو يضحك  
فقال : ليلزم كل انسان مصلا ، ثم قال : أتدرون لم  
جئتمكم ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أني والله  
ما جئتمكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جئتمكم لأن تحيا  
الداري كان رجلا نصرانيا فباع فباع وأسلم ،  
وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح  
الدجال ، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين  
رجلا من لحم وجذام فلعب بهم الموج شهرا في البحر ،  
ثم أرقأوا الى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ،  
فجلسوا في أقرب سفينة ، فدخلوا الجزيرة فلقبتهم  
دابة أهل كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره  
من كثرة الشعر ، فقالوا وبلك ، ما أنت ، فقالت أنا  
الجباسة ، قالوا : وما الجباسة ، قالت أهب القوم  
انطلقوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم  
بالأشواق ، قال لما سمع لنا رجلا فرقنا منها ان  
تكون شيطانه ، قال فانطلقنا سراعا حتى دخلنا  
الدير فاذا فيه أعظم انسان رأيناه قط خلقا وأشد  
وثاقا ، مجموعة يده الى عنقه ما بين ركبتيه الى كعبيه  
بالحديد ، قلنا : وبلك ، ما أنت ، قال : قد قدرتم

يدانيه من أهل دهره (١١١) ، هذا بالاضافة الى انه  
من كبار أوائل المحدثين الذين اهتموا بقصة  
الجباسة ، والمسيح الدجال وفصلوا الحديث عنها  
أكثر من غيره .

أخرج الامام مسلم حديث الجباسة عن  
الشعبي - نسبة الى شعب هميران - وهو من أكثر من  
روى عنهم في صحيحه ، لما عرف عنه من شغف  
بتتبع الأخبار حتى اعتبر من أظهر رواة الحديث في  
زمانه .

حدث الشعبي ، أنه سأل فاطمة بنت قيس  
أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات  
الأول ، فقال : حديثي حديثا سمعته من رسول الله  
( صلعم ) لا تسديبه الى أحد غيره ، فقالت : لئن  
شئت لأفعلن ، فقال لها أجل ، حديثي ، فقالت  
نكحت ابن المغيرة وهو من خيار شباب قريش يومئذ ،  
فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله ( صلعم ) فلما  
تألمت خطبني عبدالرحمن بن عوف في نفس من  
أصحاب رسول الله ( صلعم ) وخطبني رسول الله  
( صلعم ) على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد  
حدثت أن رسول الله ( صلعم ) قال من أحبني  
فليحب أسامة ، فلما كلمني رسول الله ( صلعم )  
قلت أمري بيدك فانكحتني من شئت ، فقال انتقلي  
الى أم شريك ، وأم شريك امرأة غنية من الأنصار ،  
عظيمة النفقة في سبيل الله ، ينزل عليها الضيفان ،  
فقلت سأفعل ، فقال : لا تفعلي ، ان أم شريك امرأة  
كثيرة الضيفان فاني أكره ان يسقط عنك حمارك أو

يؤذن لي في الخروج فاخرج فاسير في الارض فلا ادع قرية الا هبطتها في اربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاها ، كلما اردت ان ادخل واحدة او واحدا منها استقبلني ملك بيده السيف صلنا بصدي عنها ، وان على كل نقب منها ملائكة يحرسونها قالت : قال رسول الله ( صلعم ) وطعن بمخصرته من المنبر هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة ، يعني المدينة ألا هل كنت حدثتكم ذلك فقال الناس : نعم فانه اعجيني حديث تميم إنه وافق الذي كنت احدثتكم عنه وعن المدينة ومكة ، الا انه في بحر الشام او بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ، ما هو وأما بيده الى المشرق قالت : فحفظت هذا من رسول الله ( صلعم ) ( ١١١ ) .

هكذا مهدت هذه القصة وحديث الاقطاع الذي أشرنا اليه من قبل بالاضافة الى ما اكتسبه هذا الصحابي من علم وفقه اسلاميين ، وما استوعبه من كتب الاقدمين ، مهد ذلك كله الطريق امام تميم الداري ليكون اول من جلس للقصاص في الاسلام بتكليف من ولي الامر ، فقد ذكر المقرئ ان اول من قص في مسجد رسول الله ( صلعم ) تميم الداري استأذن عمران يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فأذن له ان يذكر في يوم الجمعة قبل ان يخرج عمر ، فلما تولى عثمان بن عفان استأذن منه تميم في

على خبري - فأخبروني ما أنتم ، قالوا : نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتم فلعب بنا الموج شهرا ، ثم أرقانا الى جزيرتك هذه فجلسنا في آخرها فدخلنا الجزيرة فلقيننا دابة أهلك كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر ، فقلنا وبلك ما أنت ، فقالت أنا الجساسة ، قلنا وما الجساسة ، قالت : اعمدوا الى هذا الرجل في الدبر فانه الى خبركم بالاشواق ، فأقبلنا اليك سرا عاوفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة ، فقال : أخبروني عن نخل ييسان . قلنا عن أي شأنها تستخير ، قال أسألكم عن نخلها هل يشمر ، قلنا نعم . قال : أما إنه يوشك أن لا يشمر . قال : أخبروني عن بحيرة الطبرية ، قلنا عن أي شأنها تستخير ، قال : هل فيها ماء ، قالوا : هي كثيرة الماء قال : أما ان ماءها يوشك أن يذهب . قال أخبروني عن عين زغر ، قالوا : عن أي شأنها تستخير ، قال : هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بما العين ؟ قلنا له نعم ، هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها . قال : أخبروني عن نبي الأيمن ما فعل قالوا : قد خرج بكمة ونزل يثرب قال : افاتله العرب ، قلنا : نعم قال : كيف صنع بهم فاخبرناه انه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه قال لهم : قد كان ذلك قلنا : نعم ، قال : اما ان ذاك خير لهم ان يطيعوه واني مخبركم عني ، اني انا المسيح واني أوشك او

( ١١١ ) صحيح مسلم بشرح النووي - النافذة ١١٣٠م - ج ١٨ ص ٧٨ - ٨٤ ، انظر كذلك ما ذكره البخاري في صحيحه ج ٤ ص ١٥٦ - ١٥٧ ، المحاضرات الكبرى للبيهقي ج ٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ ، وبعده طه النعم - مقال في مجلة كلية الاداب جامعة بغداد - العدد الخامس - نيسان ١٩٦٢ بعنوان تميم الداري اول قاض في الاسلام ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

المفرد غير كاف لاستيفاء الهدف من ورائه من تذكير المسلمين وعظهم ، فلما تولى عثمان بن عفان طلب منه تميم ان يسمح له بالاستمرار في قصصه بل وفي زيادة عدد مجالسه فاستجاب الخليفة له ، فكان تميم يلقي المسلمين ويقص عليهم في مجلسه بالمسجد النبوي مرتين في كل يوم جمعة .

ويؤيد هذا الرأي ما روي عن النبي ( صلعم ) فقال : لا يقص إلا أمير أو مأمور أو محتمل ، وفي رواية أخرى عن ابن سيرين فقيه البصرة المعروف عندما قيل له لو قصصت على اخوانك فأجاب : قد قيل لا يتكلم على الناس الا أحد ثلاثة : أمير أو مأمور أو احق ، ثم استطرد مبينا سبب امتناعه قائلا : فلست بأمر ولا مأمور واكمه أن أكون الثالث <sup>(١١٤)</sup> ، ونفهم من هذه الاحاديث انه لا ينبغي القصص إلا لولي الامر يعظ الناس ويغيرهم بما جاء في القصص القرآني ليعتبروا ويتفكروا كما كان يفعل الرسول ( صلعم ) والخلفاء من بعده سواء في قصصهم او خطبهم التي كانوا يتلوها . والثاني هو المأمور الذي يقيمه الامام وهو مثله يعظ الناس ويقص عليهم غير مكتسب من هذا العمل ، أما الثالث فهو القاص الذي ذمه الفقهاء وقالوا انه يمارس عمله متكبيرا ، فهو يراني الناس بقوله وعمله ، فوعظه وجدبته في هذه

ذلك فأذن له ان يذكر يومين في الجمعة فكان تميم يفعل ذلك <sup>(١١٣)</sup> .

أما ابن الجوزي فيقول في روايته التي لا تختلف في مضمونها عن السابقة لم يكن يقص على عهد رسول الله ( صلعم ) ولا أبي بكر ، وكان اول من قص هو تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب ان يقص على الناس قائما فأذن له الخليفة <sup>(١١٤)</sup> .

وقد يجد القارئ في النصوص ما يتعارض مع ما ذكرناه من قبل عن النبي ( صلعم ) انه كان أول من ذكر بالقصص القرآني ومن بعده كبار الصحابة مثل عبدالله بن رواحة وغيره من اشرفنا اليهم ، وذلك قبل ان يقص تميم الداري ، أو حتى قبل ان يدخل في الاسلام ، والواقع ان مثل هذا التناقض غير وارد لأن المصادر عندما ذكرت ان تمما الداري كان أول من قص في الاسلام ربما قصد بكلمة « أول » انه كان اول من انتدب من قبل ولي الامر للقيام بهذا العمل ، ويوضح ذلك ويشته ما جاء بعد ذلك في كلمة « استأذن » فوافق له عمر بن الخطاب ان يتخذ مجلسا في المسجد النبوي ويقص على الناس مرة واحدة كل اسبوع في يوم الجمعة ، قبل ان يأتي الخليفة المسجد للصلاة وإمامة المسلمين كما هو متبع ومعروف ، ثم رأى هذا الصحابي ان هذا المجلس

(١١٣) خط المبرزي ج ٢ ص ٢٤٢ .

(١١٤) ابن الجوزي - كتاب التماس والمذكرين ص ٢٢ قد ذكر ابن الجوزي في رواية أخرى ان عبيد بن عمير هو اول من قص في حلافة عمر بن الخطاب وهو ابو حاسم عبيد بن عمير فائدة اللغوي قاضي مكة أحد أعيان المذكرين بما يقول بجاهد فيه ، وس ابن عباس كنا نغفر بفتحها ابن عباس وبقاستا عبيد بن عمير وقد بلغ من سهره مجالس قصصه ان كبار أبناء الصحابة كانوا يحضرونه وينبهم عبدالله بن عمر الذي كان يكي في مجلسه من شدة تأثره بوعظه وذكر عبيد ، انظر كذلك - البيان والتبيين للمصنف - ج ١ ص ٣٦٧ .

(١١٥) ابن الجوزي - كتاب التماس والمذكرين ص ٢٨ - ٢٩ فرت القريب للمكي ح ١ ص ٣٣٩ .

وما لاشك فيه ان هذه الثقة الكبيرة التي منحتها الطبقة العريضة من غير المتنفذين واصحاب المهن والحرف وغيرهم من طوائف العامة للقصاص كان لها أبعد الأثر في انصرافهم عن العلم والتركيز على كل ما يعينهم على تحقيق رغبتهم من الكسب والحصول على المال ، فاهتموا بالأمور الظاهرية للتأثير على الناس ، كالتأنيق في الملابس وتزيين الكلام وسجعه ، واتخذوا الكراسي بدلا من ان يقصوا قائمين ، مما جعل بعض الفقهاء يقسم المتكلمين طبقا لمجالسهم الى اقسام ثلاثة : اصحاب الكراسي وهم القصاص ، واصحاب الاساطين وهم المفتون ، واصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة <sup>(١١٧)</sup> . ومع مرور الوقت كان لا بد من القصاص ان يتشبثوا بهذه المكانة وتلك الثقة اللتين اكتسبها بعضهم على غير أساس وبدون وجه حق ، فغلب الجهل والخداع والكذب على قصصهم ، واخذوا يفتنون الناس في كل ما يسألون دون علم او معرفة حتى لا تهتز الثقة بهم ويصيب الكساد اسواقهم فتبور تجارتهم وتضييق ارزاقهم ، وتسوق لنا النصوص قصة ابي مرحوم الحجام الذي اشتهر بقصصه في بغداد كمثال لهذا الصنف من القصاص الذي كان الجهل والكذب أشد آفاتهم ، فعندما سأله احد الحاضرين في مجلسه عن المزاينة والمحاولة لم يتردد في الإجابة قائلا : المحاولة خلق الثياب عند

الحالة مجافيان للخليفة ، وربما كان هذا النوع من القصص هو ما انتهى اليه القصاص في العصور المتأخرة بعد أن انصرفوا عن العلم واتخذوا من القصص موردا للكسب ، لذلك ذمهم كثير من العلماء والفقهاء وانكروا قصصهم ، وفيهم يقول ابو طالب المكي ان اكل الدنيا بالدين ، واخذها على الصلاح وبيع العلم بالدنيا والتصنيع والتزين للمعوم من قبيل ما أحدث ، وهو أظهر من ان يدل على فساد عند من عرف ظاهر العلم ، وقد سمي هؤلاء الجاهلون بالعلم علماء ، وجعلهم الناقصون عن الفضل فضلاء لقلة معرفتهم بطريق المتقدمين ، وعدم بصيرتهم بحقيقة علم الدين <sup>(١١٨)</sup> .

يوضح هذا القول ما وصلت اليه مكانة القصاص عند العامة واليسطاء بصورة خاصة فأقبلوا على مجالسهم واعتقدوا في علمهم وفضلهم ، وفضلوهم على كبار أهل العلم والفقه ، وما يروى في هذا الشأن ان والدة ابي -نيفة النعمان فقيه العراق وامام أهل الرأي بها وصاحب المذهب المعروف ، وبالرغم من مكانته المشهود له بها ، فانها لم تقنع بذلك كله عندما افتاحها في امر من الامور وقالت : لا اقبل الا ما يقول به « زرعة » السذي كان يقص على الناس في المسجد ، فلما جاءته واعترف لها ان ولدها افقه واعلم منه وان القول ما قال ، رضيت وانصرفت <sup>(١١٩)</sup> .

(١١٧) أبو طالب المكي - قوت القلوب - ج ١ ص ٣٣٩ .

(١١٨) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكورين ص ١٠٨ .

(١١٩) آدم سيزن - الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧٨ انظر كذلك . د . جيتة طه النجم القصص والقصاص في الادب الاسلامي ص ٥٣ .

### القصص الشعبي :

ولم يتوقف القصص عند هذا الحد ، بل أخذ القصص به الى مسار جديد خرجوا فيه عن الدائرة الدينية الى مجال آخر غلبت فيه المتعة والتسلية على ما عداها من أهداف ، وذلك سعيًا وراء الرغبة في الكسب والحصول على الرزق والمال . وكان لابد أن يصاحب هذا التطور تبديل للمكان التقليدي الذي كانت تعتقد فيه مجالس القصص الديني ليتناسب الموضوع الجديد مع طبيعة هذا اللون ومضامينه وأهدافه أيضًا ، لذلك خرج القصص من المساجد الى الطرقات والأماكن العامة ومناطق تجمع الناس ، كالأسواق والميادين وغيرها .

ويحدثنا صاحب مروج الذهب عن واحد ممن برع في هذا الفن من القصص اشهر ببغداد زمن المعتضد بالله ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) ، يعرف بابن المغازلي كان يتكلم على الطريق ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك ، فلما رآه أحد خدام الخليفة على باب الخاصة يضحك وينادر في حلقته أعجب به واتفق معه على أن يوصله الى مجلس المعتضد بشرط أن يقاسمه نصف جائزته ، فلما حضر ابن المغازلي بين يدي الخليفة العباسي سأله عن قصصه وعده إن

السمسمار ، والمزانية ان تسمي اخاك المسلم زبونا ( ١١٩ ) . فإذا علمنا ان المزانية والمحاكمة من انواع البيوع التي نهى النبي ( صلعم ) عنها في العديد من الاحاديث ادركتنا الى اي حد بلغ استهجار القصص من امثال ابني مرحوم الحجام بقول الناس ، وفي نفس الوقت ! انك الذي انحدر اليه علمهم فجعلوا أبسط امور اشرع من القرآن والسنة التي كانت تشكل أول المبادئ وأهم الأسس لمن يريد ان يشتغل بالقصص ، لهذا كان كثير من العلماء يرون القصص بدعة وينهون عنه ويكرهون مجالسة القصص حتى قال بعضهم : نعم الرجل فلان لولا انه يقص ( ١٢٠ ) . في حين عبر الاديب والفيلسوف أبو حيان التوحيدي عن ذلك بطريقة أخرى صنف بها الناس حسب تفكيرهم وقدراتهم العقلية ، فكتب في مؤلفه الأدبي الأتيق « الامتاع والمؤانسة » يقول : وليس يقف على القاص الا أحد ثلاثة : إما رجل أبله ، فهو لا يدري ما يخرج من أم دماغه ، وإما رجل عاقل فهو يزوره لتعرضه لجهل الجاهل ، وإما له نسبة الى الخاصة من وجه آخر ، فهو يتذبدب عليه من الانتكار الجالب للهجر ، والاعتراف الجالب للوصل ( ١٢١ ) . لهذا كان الاسام أحمد بن حنبل يقول : ما أحوج الناس الى قاص صدوق ( ١٢٢ ) .

( ١١٩ ) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ١١٠ . ويريد ان يوضح هنا ان بيع المزانية هو الخراف في كل شيء لا يعلم كيله ولا عدده ولا وزنه ، كبيع الربط على رؤوس البخل بالتركيلا ، كما كان يفعل العرب في جاهليتهم ، ولا يخطر ببال هذا البيع من غير لأحد الطريقين مبرين المبرين صاحبه عن حقه ويتغاضا أما المحاكمة فهو بيع الزرع في الحقل قبل نضجه ، كبيع القمح في سبيله بكليل مغرم من الحسنة المألفة ، ميداحله الرأ لعدم العلم بالمألفة ، وكذلك المخاضرة من الحضرة ، وتضي بيع الحرب والتأثير وبيعها حصرا ، قبل مضجها وصلحها ، وكلها - كما ذكرنا - من أنواع البيوع التي حرّمها الاسلام ، انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١١٢ ، صحيح البخاري ج ٢ ص ٦٤ - ١٧ ، لسان العرب لابن منظور كلمات ، زين ، حقل ، خصر .

( ١٢٠ ) ثروت القلوب للسكّني ج ١ ص ٣٣٩ .

( ١٢١ ) د . دينة طه النجم - القصص والقصص في الأدب الاسلامي - ص ٤٤ .

( ١٢٢ ) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين - ص ١٩ .

وقصص الناس وأخبار الاجناس ، فكلما حفظ القاص مضاحكهم ونوادهم وغريب أخبارهم ، واستوعب منها أكبر قدر ممكن ، وفي نفس الوقت تمتع بقدر غير قليل من الفطنة والذكاء وسرعة البديهة ، كلما حذى ذلك كله تمتع بمكانة عالية ، واسعة وأقبل الناس على مجالسه ، وازدهروا حول حلقاته ، كما تبين هذه القصة ايضا تشكيلة المجتمع في حاضرة الخلافة العباسية في تلك الفترة وطوائفه وطبقاته المتباينة والمتعددة من ناحية ، وطبيعة الحياة الاجتماعية من ناحية اخرى حيث كثر المال والغنى ، وانصرف الحكام والرعية على السواء الى اللهو والطرب والقناء والشراب وبجالس القصص للضحك والتندر والتسلية وغير ذلك من ملذات الدنيا وشهوات النفس ، وليس أدل على ذلك من امتزاج القصص والخيال بالحقيقة والواقع فيما روته الاخبار عن زواج الخليفة المعتضد بالله - صاحب تلك القصة - من قطر الندى ، اساء بنت خمارويه الطولوني ، صاحب مصر ، فيحدثنا المسعودي أن صداقها بلغ ألف ألف درهم بالاضافة الى المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق ، كما خص الخليفة الزوج والد العروس من الجواهر وشاح وتاج واكليل وغير ذلك من النفائس التي يعجز العقل عن تصورهما وتقدير قيمتهما ، وفي ذلك العرس الكبير يقول ابن العباس الرومي الشاعر :

ياسيد العرب الذي زفت له  
باليسن والبسكات سيده العجم

أضحكه كافأه بخمسائة درهم ، ويروي القاص خبره قائلا : « أخذت في النوادر والحكايات والنفاسة والعبارة ، فلم أوع حكاية أعرابي ولا نخوي ولا مخنت ولا قاص ولا زطي ولا نبطي ولا سندي ولا زنجي ولا خادم ولا تركي ولا شطارة ولا عبارة ولا نادرة ولا حكاية الا أحضرتها وأتيت بها حتى نفذ جميع ما عندي وتصدد رأيي ، وانقطعت وسكت وفترت وبردت » فضحك جميع من بالمجلس الا الخليفة الذي أمره بالاستمرار ، ولما لم يكن في جعبة ابن المغازلي المضحك مزيدا من النوادر وعجز عن اضحاك الخليفة أمر بضربه ، ثم رق لحاله وسأله النصيحة ، وهنا خطر للقاص الأريب ألا يفلت الخادم من أخذ نصيبه هو الآخر من هذه « الجائزة » حسب الاتفاق فقال للخليفة : ياسيدي انه ليس في الديانة أحسن من الأمانة ، ولا أفصح من الحيانة ، وقد ضمنت للخادم الذي أدخلني عليك نصف الجائزة على قلنها وكثرتها ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه بفضلله وكرمه قد أضعفها ، فقد استوفيت نصفها ، وبقي لخادمك نصفها ، فانفجر المعتضد بالضحك حتى استلقى واستحسن هذا الجواب من ابن المغازلي وأمر بضرب الخادم ، ثم أخرج الجائزة وقسمها بين الاثنين (١٢٣) .

وقد أردنا من ايراد هذه القصة بكل هذه التفاصيل القاء الضوء على هذا اللون من القصص الذي كان يتطلب من القارئ عليه والمستغلين به علما وثقافة من نوع آخر ، سادات ولحمته النوادر والملح ،



كلما أديبا يغلب عليه أسلوب الوعظ لاستغلال  
عواطف الناس الدينية (١٢٥) :

ويظهر وصف هذا اللون من قصص  
المكدين وخداعهم في القصيدة الساسانية لشاعر  
الملح والظرف أبي دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي ،  
أحد ندماء الصاحب أبي القاسم اسماعيل بن عباد ،  
وزير فخر الدولة البويهى ، وقد صاغ الشاعر هذه  
القصيدة في بني ساسان ، وهم قوم من العيارين  
والشطار الذين ظهروا وانتشروا في المجتمع البغدادي  
في الفترات التي ساد فيها الاضطراب وعدم الاستقرار  
خلال العصر العباسي الثاني ، وكان لهم حيل ونوادر  
يتكسبون بها ويحصلون على المال من ورائها ،  
ونلاحظ ان ابا دلف وضع في قصيدته المشار اليها  
اصطلاحات وكلمات والفاظ ليبان تفنن هؤلاء المكدين  
في الاحتيال على الناس فكان - على سبيل المثال -  
يصاحبهم من يعرف « بالكوز » الذي يقوم على امر  
« الكوز » الذي تجمع فيه عطايا الناس وتبرعاتهم ،  
وكان من مهمة القاص في قصصه حث الحضور  
ودعوتهم الى عدم التقدير والبذل بسخاء الى هذا  
« الكوز » الذي غلب على مظهره الفقر والحاجة ،  
فيرمي كل بما قدر عليه في « الكوز » فاذا ما انتهى  
المجلس وتفرق الناس قاسم المكون جميعا ما تجمع

أسعد بها كسودها بك أنها  
ظفرت بما فوق المطالب والهمم  
ظفرت بملاى ناظرها بهجة  
وضميرها نبلا وكفيها كرم  
شمس الضحى زفت الى بدر الدجى  
فتكشفت بها عن السدنيا الظلم (١٢٤)

هذه الصورة لجانب من جوانب حياة الطبقة  
الاسترقراطية التي تمتعت بقدر واف من الثراء والغنى  
والجاء والنفوذ والترف والنعيم ، والتي كانت دون  
جدال تقود المجتمع بأسره الى التشبه بها ، توضح  
أسباب تفشي هذا اللون الجديد من القصص الذي  
غلبت عليه المتعة والمسامرة والتسلية فتركزت مهمة  
المشتغلين به حول فكرة التكبس من جانب ، والاهتمام  
بتزيين الكلام وزنته بقدر الامكان من جانب آخر ،  
مما حدا بالباحثين الى الربط بينه وبين المقامات  
للتشابه الواضح بين شخصية القاص وحديثه وهدفه ،  
وبين المكدين الذين لا يستقرون في مكان واحد ،  
وينتقلون دائما وباستمرار داخل المدن ، وبين البلاد  
سعيًا وراء المال والكسب ، فشخصية المكدي بهذه  
الصورة ، كما تظهر في مقامات المهدانسي ،  
والحريري ، ومواعظ أبي الفتح السكندري ، ما هي  
الا صورة أخرى للقاص الذي يستعمل في حديثه

(١٢٤) مرجع الذهب للسعودي ج ٤ ص ١٤٦ - ١٨٢ - أنظر كذلك خطط المزيدي ج ١ ص ٣١٩ ، الذي ذكر ان والد العريس بلغا على رأس كل مرحلة ، وعلى  
امتداد الطريق وبعد المسافة من الفطاح في مصر الى بغداد بالعراق ، قصر لتناول فيه وجوه بكل ما تحتاج اليه الامة - للبيت الليلة واحدة - من عرق وطعم وشراب  
وعدم وحشم ما يتناسب مع شرفها ولباق يكافئها حتى يشعرها كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس ، كما حلها من الملابس والديورات والمنازل والاثاث وغير  
ذلك مما يلزمها ، ما لم يرضه ، ولا يسمح به .

(١٢٥) انظر د . ديمة طه الجيم - القصص والقصص في الادب الاسلامي ص ٧٢ - ٧٤ .

لدى هذا « المكروز » من مال وقد عبر الشاعر عن ذلك كله بهذا البيت الذي يقول فيه :

وسن دروز او حرز  
او كوز بالدغر (١٣٦)

وقد انتقل هذا النوع من قصص المواعظ المغلف بالملح والنوادر وأخبار المكدين وحيلهم الى المغرب الاسلامي ، فتحذثنا النصوص عن واحد من أشهر قصاص المغاربة في هذا اللون من القصص ، هو الأديب أبو عبدالله محمد الكرسوطي الذي ولد ونشأ وتعلم بمدينة فاس ثم رحل في سنة ٧٢٥هـ الى الأندلس واستقر به المقام في غرناطة حاضرة ملوك بني نصر ، زمن السلطان محمد الخامس الغني بالله ، وقد أشار ابن الخطيب الى مجالس الكرسوطي التي كان يظهر فيها بجانب فقهه وأدبه وعظه ، ذلك الفن من قصص الملح والنوادر وحيل المكدين فقال : « كان يفيض من حديث الى فقه ، ومن أدب الى حكاية ، ويتعدى الى ذلك ، الى غريب المنظومات ، مما يختص بنظمه أولو الشطارة من المغاربة ، ويستظهر مطولات القصاص ، وطواوير الوعاظ ، وساطير أهل الكدية ، في أسلوب وقاح يفصحه اعراب » (١٣٧) . ومازالت هذه العادة في بوادي المغرب الى اليوم ، حيث يجتمع الناس الى القصاص الذين يظهرونهم ويذكرونهم بأيام الله ، وسير الأنبياء والرسول ، بالإضافة الى ملح الأخبار عن الأبطال والأدباء

والزهاد والمكدين وغيرهم مما يثير نفوس العامة ويشحذ همهم ويدفعهم الى الحرص على حضور مثل هذه المجالس .

وبع هذه الألوان المختلفة من القصص بقي - كما ذكرنا - القصص الديني يلعب دوره في حياة الناس ، وإن كان هذا الدور يحجبونه أحياناً ويتوارى خلف أي من تلك الألوان الأخرى لهذا الفن ، ولكن ما يلبث أن يعاود ضوؤه الى الظهور مرة أخرى ، فيقوى نوره ، ويلمع بريقه وتزداد فعاليتنه ويشد أثره في نفوس الناس ويمس شفاف قلوبهم كما عهدناه دائماً .

#### صور من تذكير بعض مشهوري القصاص :

ولعل من المفيد في هذا المقام أن نشير في عجالات سريعة الى نماذج من القصاص والوعاظ الذين برزوا في هذا « القصص المسجدي » من بين مئات الأسماء اللامعة التي حفظتها لنا المصادر المختلفة ، وسنحاول في هذه الاشارات القاء الضوء على ما كان يميز كلا منهم ، ويظهر تفوقه على أقرانه مما يوضح بعض مقومات هذا اللون من القصص من جهة ، ويبين أهميته وأثره في الحياة الدينية والاجتماعية في المدينة الاسلامية من جهة ثانية .

ولتكن وقفنا الأولى مع أبي ذر الغفاري ، العابد الزاهد ، الثابت على المشقة والعناء أول من

(١٣٦) انظر القصة بكاملها مع شرح مرادها : شعبة النعم للثاني ج ٣ ص ٢٥٢ - ٢٧٣ ، وكذلك ما ذكره آدم ميزن من كتابه عن الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ وعن البازين والشطار انظر مقال - د . احمد مختار العادي عن الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية بمجلة عالم الفكر - المجلد ١١ ، العدد الاول - يونيو ١٩٨٠ ص ١٢٨ - ١٣٦ .

(١٣٧) انظر : د . احمد مختار العادي - مملكة غرناطة في عهد محمد الخامس ، من مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية بدمرد ١٩٧٢ - باللغة الاسبانية ، ص ١٨١ .

ومن أشهر قصاص البصرة موسى بن سيار الأسواري ، الذي كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان له مجلس مشهور في مسجدها يرتاده العرب الذين يتحللون عن عيين القاص ، والفرس الذين يأخذون الجانب الآخر ، عن يساره ، فكان ابن سيار يعظمهم ويذكرهم ويقص عليهم من كتاب الله ، فيقرأ الآية ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه ناحية الفرس ويفسرهما لهم بلغتهم ، دون أي تداخل أو تأثير من إحدى اللغتين على الأخرى ، فلا يدري كل من حضر مجلسه واستمع إلى قصصه وحديثه بأي لسان هو أبين ، فكان - كما ذكر الجاحظ - من أعاجيب الدنيا (١٢٩) .

ويبدو أن هذه الطريقة ، باستعمال اللسانين ، العربي والفارسي ، كانت شائعة ومعروفة بين كبار الفقهاء والقصاص العجم الذين تزدهم مجالسهم بأعداد وافرة من العنصرين ، العربي والعجمي ، فيحدثنا ابن جبير أنه حضر خلال وجوده بالمدينة المنورة مجلسا للوعظ في مسجدها النبوي الشريف ، وحضرته أيضا الخاتون « سلجوق » ابنة الأمير عز الدين فليح أرسلان الثاني ابن مسعود ، أحد سلاطين السلاجقة ، وكان يعظ في هذا المجلس العالم الفقيه سور الدين محمد بن عبد اللطيف الحنجلندي ، رئيس الشافعية بأصبهان ، الذي رحل إلى بغداد واستوطنها ، وتصادف وجوده في موسم الحج ، فأقيم

تكلّم في علم البهاء والفناء كان هذا الصحابي الجليل يعقد مجلسه في رحاب البيت العتيق ، وما روي عنه ، أنه قام عند الكعبة فقال : يا أيها الناس أنا جندب الفخاري ، هلموا إلى الأخ النصيح الشفيق ، فاكتنفه الناس ، فوعظهم قائلا : رأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا وما يصلحنا ؟ قال حجوا حجة لعظام الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور ، كلمة أخيرة تقوها ، أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم ، تصدق بآمالك لعلك تنجو من عسيرها ، اجعل الدنيا مجلسين ، مجلسا في طلب الآخرة ، ومجلسا في طلب الحلال ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده ، اجعل المال درهماين ، درهما تنفقته على عيالك من حله ، ودرهما تقدمه لأخرك ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده . ثم نادى بأعلى صوته : يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا (١٣٠) .

ولا جدال في أن حديث أبي ذر هذا يوضح فلسفته التي اشتهر بها في الحياة وعرفت عنه في سيرته ، فهو الانسان المحب للناس ، الذي يحس آلامهم ، المؤمن الذي يشعل فكره وعقله القضاء على مظاهر الظلم والشر والعبودية ، وقبل هذا وذلك ، فهو الصحابي الذي وعى علما عجز عنه الكثيرون ، فزهد في الدنيا بكل ما فيها من مفاتن ومباهج ومنعة ونعيم ، فاعتزل مخالطة البرايا إلى أن حل بساحة المنايا .

(١٢٨) أبو نعيم الأصبهاني - حلية الأولياد ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٥ .

(١٢٩) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣٦٨ ، أسطر ذلك ، احمد بن يحيى بن الرزني - طبقات المتزلة - ص ٦٠

يرى عن براعته في الوعظ الديني أن أبا الهذيل العلاف ( ت ٢٣٥هـ ) من أكبر شخصيات المعتزلة في مدرسة البصرة ، والذي كان نسيج وحده ، وواحد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام ، حضر مجلسه ، وسمع قصصه بالعدل ، وحسن ثنائه على الله ووصفه له بالاحسان الى خلقه ، والتفضل على عبيده ، واساءتهم الى أنفسهم ، وتقصيرهم فيما يجب لله عليهم ، فبكى من شدة تأثره بصدق مشاعره ، وحسن بيانه ، لذلك أشتهر أبو الهذيل بالمراد بمجاليه وعظه حتى عرف « براهب المعتزلة » (١٣١) .

وكان من الطبيعي في خضم ذلك الحشد الهائل من الذين اشتغلوا بالقصص أن يظهر من بينهم من يتعصب لقوميته وجنسه دون الآخرين ، كما هو الحال في الفنون الأخرى ، كالشعر مثلاً ، فكان أحد قصاص بني الهجيم بن عمرو التميمي يقول في قصصه إشارة الى ذلك التحيز : اللهم اغفر للعرب خاصة ، وللموالي عامة ، فأما العجم فهم عبيدك والأمر اليك (١٣٢) .

وإذا كان التكسب بالقصص من أهم الأسباب والمظاهر التي أدت الى التغيير الذي حدث في منهج الكثير من المشتغلين بهذا الفن - كما رأينا - الا ان هذا الهدف لم يحل دون وجود بعض القصص الذين ظلوا على العهد بهم ، ملتزمين بكل قواعد القصص

له كرسى بارزاً الروضة الشريفة فصعده وحضر فراهه أمامه فابتعدوا القراءة بتغيات عجيبة ، وتلاحبن مطربة مشجية ، وهو يلحظ الروضة المقدسة فيعلن البكاء ، ثم أخذ في خطبة من انشائه شحيرة البيان ، ثم سلك في أساليب من الوعظ باللسانين ، وأنشد أبياتاً بدعية من قوله . ثم يصف الرحالة الأندلسي مجلس هذا القاص وعيخته فيقول : وأمر هذا الرجل عجيب في قعده وأهيمته وملوكيته وفخامة آله ، وهاء حالته ، وظاهر مكنته ، وفرة عدته ، وكثرة عبيده وخدمه ، واحتفال حاشيته وغاشيته . ثم يعلن على ذلك كله قائلاً : فهو من ذلك على حال يعصر عنها الملوك . ويستطرد ابن جبير بعد ذلك في وصف تبسيط هذا العالم الجليل ، وتواضعه الجم ، كما يبدي إعجابه الشديد به فيقول : وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف ، شاهدنا مجلسه قرأنا رجلاً يذوب طلاقة وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبراً ، على عظيم حريته ، وفخامة بنيتة ، وهو أعطى البسطتين علماً وحسماً ، واستخرناه فأجازنا نرا ونظماً ، وهو أعظم من شاهدناه بهذه الجهات (١٣٠) .

فاذا انتقلنا الى نموذج آخر من كبار قصاص المعتزلة ، نجد أبا موسى عيسى بن صبيح الملقب بالمراد ، من علماء هذه الفرقة ، والمقدمين فيها ، قال عنه ابن المرتضي في طبقاته : « كان من أحسن عباد الله قصصاً ، وأفصحهم منطقاً ، وأثبتهم كلاماً » وما

(١٣٠) رقة ابن جبير - ص ١٨٥ - ١٨٧ .

(١٣١) طبقات المعتزلة لابن المرتضي - ص ٧٠ - ٧١ ، أبو الحسن عبد الرحيم المياطي - كتاب الانتصار - ص ٥٤ - ٥٥ ، الفرق بين الفرق - لعبد القاهر البغدادي ص

١٦٤ - ١٦٦

(١٣٢) الكلل لأبي الهيثم محمد بن يزيد البرد - ج ٤ ص ٦٦ .

المصلون ، فحدثهم عن غربته ، فدفعوه الى فقيه البلد الكبير الليث بن سعد ، فلما سأله عن سبب قدومه الى مصر ، قال : طلبت اكتسب بها ألف دينار ولما استمع الى قصصه أعجب بفصاحته وحسن بيانه ، وقال له : لا يحل لي أن اسمع مثل هذا الكلام وحدي ، فأخذ ابن عمار يقص على الناس وهو يعيش في كثف وجراية أشهر فقهاء مصر وأكثرهم ثراء ، ثم انتقل الى الاسكندرية وقص في مساجدها حتى ذاع أمره ، ولكنه عاد الى القسطنطينية ، واتخذ لنفسه مجلسا ثابتا للقصص والوعظ في مسجدها الجامع ، فكان « شيئا عجيبا » لم يقص على الناس مثله .

وبما يوضح رسوخ قدمه في علم الشرع ، ما روته النصوص عن اجابته لأبي عبد الرحمن بشر بن غياث المريسي ، الذي كتب اليه يسأله عن « خلق القرآن » فأجابه ابن عمار برسالة أظهرت صدق ايمانه وقوة حجته ، قال فيها : نحن نرى أن الكلام في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلف المجيب ما ليس عليه ، وما أعلم خالقا الا الله ، وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله ، ولو كان القرآن خالقا .

لم يكن للذين دعوه الى الله شافعا ، ولا بالذين ضيعوه ماحلا ، فانه بنفسك وبالمختلئين في القرآن الى أسائته التي ساء الله بها لتكون من المهتدين « وذو الذين يلحدون في أسائته سيجزون ما كانوا يعملون » ولا تسم القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين . جعلنا الله واياك « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

الديني وأصوله وسرايمه ، ويعتبر منصور بن عمار السلمي من أبرز هذا الصنف الذي جمع بين القصص المسجدي الذي سدها الوعظ بأمور الدين ، ولحمته التذكير بكتاب الله المبين ، وبين الرغبة في التمسك وجمع الثروة من هذا العمل الديني .

وتتحدث النصوص أن أبا السري منصور بن عمار الذي كان من أهل خراسان ، انتقل الى حاضرة الخلافة العباسية ، ونبت فيها ، واتخذ لنفسه مجلسا في مسجدها يقص فيه على الناس ، فذاع صيته حتى بلغ مسامع الخليفة الرشيد ، فاستدعاه وسأله عن تفوقه ، فأجابه ابن عمار بأنه رأى في منامه رسول الله ( صلم ) ، وكأنه قد نفل في فيه ، فأنحل لسانه وحسن بيانه ، وانطلق بأذن الله . هكذا كانت سيرة الرسول الأعظم ( صلم ) وما اشتهر به وعرف عنه مع أصحابه تحتل جانبا كبيرا من نفوس وعقول كبار الفقهاء والعلماء والمحدثين والقصص والوعاظ وغيرهم من أمثال ابن عمار .

فلما راودته نفسه على الثراء وطلب المال رحل الى مصر ، وصادف وصوله وقت شدة وقحط ، فلما صلى مع الناس الجمعة في مسجد عمرو بالقسطنطينية ، اجتمع اليه الحاضرون وقص عليهم ، ودعا الله عز وجل بالاستسقاء ، ثم رمي بكسائه ودعاهم الى الصدقة ، فجعل الحاضرون يعطوه حتى كانت المرأة تلقى بخرصها وسخاها ، أي بقرطها وقلايتها ، فجمع مالا كثيرا ، وما كاد الناس يشادرون المسجد حتى استجابت السماء لدعائه ، فسقط المطر ، وأزوت الأرض ، فلما حان وقت العصر ، اجتمع اليه

وقد قصدنا من ذكر هذه الرسالة الى بيان ما فيها من المعاني الدينية وما كان يدور في ذلك الزمان من أحداث لا سيما تلك المشكلة التي أثارها المعتزلة ، هذا الى جانب أن تلك الرسالة قد تلقي بمزيد من الضوء على الأسباب التي تكوّن قد حدث بهذا العالم الفقيه الى الخروج من أرض العراق خلال تلك الفترة التي اشتهرت فيها بحجة « خلق القرآن » والتي تعرض لها العديد من المشتغلين بالعلم ممن رفض هذه المقولة ، كما هو معروف ، عندئذ لم يكن جمع المال هو الدافع الوحيد الذي كان يقف وراء رحيل ابن عمار عن العراق .

ومها كان الأمر ، فقد مكث منصور بن عمار في مصر فترة من الزمن ، رايداً بعدها الحنين الى بغداد ، فخرج اليها بعد ان تحققت رغبته بمنحه اللبث بن سعد ألف دينار ، كما دفع اليه بنوه مئلاً (١٣٣) .

فاذا انتقلنا الى نموذج آخر من القصص الذين كانت لهم طموحات أخرى غير جمع المال ، نجد أبا عبدالله محمد الشيرازي ، الذي كان يعرف بالندير الواعظ ، فقد اتخذ في بداية أمره طريق الزهد والعزوف عن مفاتن الدنيا سبيلاً الى نفوس الناس والوصول الى أفئدتهم خلال مجالس قصصه التي كان يعقدها في حاضرة الخلافة العباسية بعد انتقاله اليها ، فتواضع في حياته ، وتيسط في مظهره حتى ليس المرقعة ، فاقتن أهل بغداد به ، وأقبلوا على مجلسه حتى قيل انه كان يحضر خلق لا يحصون ،

فلما ذاع صيته وكثر ماله عمّر مسجداً كان خراباً وسكنه مع مجموعة من الفقراء ، وبلغ من شغفه الشديد بالقصص أنه كان يعلو سطح المسجد في جوف الليل يذكر الناس ويفص عليهم طلباً للمال والشهرة ، فحصل على ثروة كبيرة ، فنزع المرقعة ، وليس الثياب الناعمة الفاخرة ، وصار له أصحاب ومريدون كثيرون فأظهرهم الرغبة في الخروج للغزو ، وجمع المال والطعم في الغنائم ، فانضم اليه جمع من الاتباع ، رحل بهم الى الموصل ، ثم انتقل الى أذربيجان حيث تضاعف أصحابه بن انضم اليهم من تلك النواحي ، فاشتد ساعده حتى كان يضاهي أمير المنطقة تكبرا وعظمة ، فكان تضرب له الطبول في أوقات الصلاة الى أن توفي هناك سنة ٤٣٩هـ (١٣٤) .

هكذا جعل القصص من أبي عبدالله محمد الشيرازي مثالا لا يكاد يكون فريداً في تاريخ المشتغلين بهذا الفن ، فكان نجاحه في مجالس وعظه وقصصه السبب المباشر في الكشف عن الوجه الآخر لشخصيته التي كانت تطلب الزعامة والرياسة وتعشق العظمة والسلطان وحُب الظهور .

وقد لا نبتعد كثيراً عن الحقيقة اذا قلنا أن ابن سميون البندادي ( ت ٣٨٧هـ ) كان أعظم قصاص ومذكر القرن الرابع الهجري ، كما كان أبو القاسم القشيري النيسابوري ( ت ٤٦٥هـ ) أعلام منزلة في القرن التالي .

(١٣٣) تاريخ بغداد للمصنف البندادي ج ٤ ص ٧١ - ٧٩ ، أوتيم الاصبهاني - حلية الاولياء - ج ٧ ص ٣٢٠ .

(١٣٤) المصنف البندادي - تاريخ بغداد - ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج ٢ ص ٦٦٢ - ٦٦٣ .

كالتفسير ، الذي أصبح - في زمانه - أستاذ الجماعة بها ، ذكره صاحب وفيات الأعيان فقال : كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف ، جمع بين الشريعة والحقيقة ، كما كان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء ، هكذا جمع الامام القشيري وتفوق في مختلف العلوم الثقيلة ، كما كان له في العلوم العقلية أيضا باع طويل ، ولم تقتصر اهتمامات العالم الفقيه على تنمية هذا الجانب الفكري والعقلي فقط ، بل امتدت لتشمل كذلك متطلبات الجسم لتقوية بنيته ، فأتقن فنون القتال كالفروسية واستعمال السلاح . ولا شك أن هذا العلم الواسع والثقافة الشاملة والقوة والبأس ، قد أهلته لكي يصبح امام القصاص في زمانه ، وفارس الوعظ والتذكير المجل في مجالسها حتى قيل في قوة إيمانه ، وصدق حديثه ، وسحر بيانه ، ووقع كلامه : « لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لناب » .

وقد أشار الخطيب البغدادي الى قدومه لحاضرة الخلافة العباسية في سنة ٤٤٨هـ ، وقال أنه حدث بها ، وقص في مسجدها ، وكان في كل ذلك ثقة ، حسن الموعظة ، مليح الإشارة (١٣٦) .

فاذا وصلنا الى القرن السادس الهجري ، رأينا آخر صورة تقريبا وصل اليها مجلس القاص الواعظ المذكر ، فاتخذ المنبر مكانا يقف عليه ، وفرشه بالسبط

أما الأول ، فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن اسماعيل ، إمام القدية ، الناطق بالحكمة ، الذي لم يخلف ببغداد مثله ، ذكره ابن خلكان فقال : كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ، ولطف العبارة . ولكي تنبئ هذه الصفة الاخيرة التي كان يمتاز بها ابن سمعون في قصصه ، لا نجد أفضل مما روي عنه عندما حدث يوما وهو على كرسيه في مجلس وعظه فقال : سبحان من أنطق باللحم ، وبصر بالشحم ، وأسمع بالعظم ، إشارة الى اللسان ، والعين ، والأذن . فكانت هذه العبارات والإشارات بحق من لطائف اشاراته . فكان لأهل العراق فيه اعتقاد كثير ، ولم يه غرام شديد ، وتجلى ذلك في القامة الرازية - الحادية والعشرين من مقامات الحريري - فقال مشيرا الى اقبال الناس عليه ، وتهافتهم على مجلسه : رأيت بها ذات بكرة زسرة اثر زسرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ويستنون استنسان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه ، ويحلون ابن سمعون دونه (١٣٥) .

أما خليفته فهو أبو القاسم عبدالكريم بن هوزان بن عبدالمكك القشيري ، مصنف الرسالة المشهورة ، أصله من قشير بن كمب ، قبيلة عربية ، قدم بعض رجالها خراسان كان من بينهم أجداده الذين استوطنوا ناحية أستو ، من ضواحي نيسابور ، التي خرج منها عدد من مشاهير العلماء الذين نسبوا اليها

(١٣٥) وفيات الأعيان لابن خلكان - ج ٤ ص ٣٠٤ ، الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٧ ، ابن العباد الحنبلي - فترات النجف ج ٣ ص ١٢٤ - ١٣٦ .

(١٣٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي - ج ١١ ص ٨٣ ، ابن العباد الحنبلي - فترات النجف ج ٣ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

ويخرج متوافقا كالسيفونية المعبرة التي يلعب فيها كل من بالجلس وشارك فيه ، دوره بايقاع منتظم لا نشاز فيه ، وبذلك وحده تتم الفائدة وتؤدي مجالس القصص أكلها ، وتؤدي الغاية المنشودة منها .

يقول ابن الجوزي : ان الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب ولا يتعرض لما يفسد العوام بل يجتذبهم الى ما يصلح بألطف وجه ، وهذا يحتاج الى صناعة فان من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقاد بببت من الشعر ، فأحوج الناس الى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكن ينبغي ان ينظر في اللازم والواجب وان يعطيهم من ابتليجاف من اللفظ قدر الملح في الطعام ، ثم يجتذبهم الى العزائم ويعرفهم الطريق الحق . ثم يستطرد ابن الجوزي مبينا أهمية معرفة التاريخ وسيرة الانبياء والرسول وغيرهم من السلف الصالح فيقول : ولقد رأيت الاشتغال بالفقه وسإاع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب الا ان يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين ثم يبين أهمية سيرة النبي ( صلعم ) كنموذج يحتذى مما يوضح أهمية القصص القرآني ويذكر ان على القاص ايضا ان يتخذ من سيرة رسولنا الاعظم ( صلعم ) مثالا لكل ما يريد ان يبينه عن النفس الانسانية فيقول الفقيه الحنبلي دون حرج او تكلف ( ومن اراد ان يرى التلطف بالنفس فليُنظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه كان يتلطف بنفسه ويمارح ويخالط النساء ..... ويختار المستحسنات ويستعذب له الماء ،

ليجلب لنفسه قدرا أكبر من الاحترام والتقدير ، واصطحب معه مجموعة من القراء من اشتهروا بحسن التلاوة ، قد يصل عددهم الى العشرين يتبادلون فيما بينهم القراءة بصوت جميل ، لاضفاء جو من المتعة الدينية على المجلس ، فلحلاوة الصوت من الأثر والتأثير ما لم يوجد في غيرها من المواهب ، فليس في الارض من لذة تكتسب من مأكّل أو ملبس أو مشرب أو نكاح أو صيد الا وفيها معاناة على البدن ، وتعب على الجوارح ما خلا السماع . فانه لا معاناة فيه على البدن ، ولا تعب على الجوارح . وهل خلق الله شيئا أوقع بالقلوب ، وأشدّ اختلاسا للعقول من الصوت الحسن ؟ فما بالك اذا جاءك هذا الصوت بكلام الله عز وجل وبما تضمنته بحكم آياته من قصص فيه من الموعظ والتذكير والأمل والرجاء والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ؟ لا شك أنها ستثير كوامن النفس وتبكي المستمع على خطيئته ، وترقق قلبه من قسوته ، وتذكره نعم الملوكوت ، قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (١٣٧).

تلك كانت الصورة العامة لتطلبات مجلس القصص ، أما مضمونه ومحتواه ، فقد بينه العالم والفقيه المشهور أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ، المعروف بابن الجوزي ( ت ٢٩٧هـ ) عندما كتب بحس المؤرخ وفكره ، وفن القاص وفلسفته عن كل ما يلزم القاص في القول والفعل والقصد ، وما يجب على المستمعين له بالمقابل ، حتى يكتمل العمل



يعتقدها العوام وبها العلماء قربة وهي منكر ، وبعد  
وذلك أن المقرئ يطرب ويخرج اللحن إلى الغناء ،  
والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليل ، فيصفق  
هذا ويحرق ثوبه هذا ، يعتقدون أن ذلك قربة (١٣٩) .

ويمكننا أن نتساءل هنا :

إلى أي حد ألزم ابن الجوزي نفسه عند ممارسته  
العملية بتجنب الأمور والأفعال التي وصفها بأنها  
بدع ومنكر وبعد عن الدين ، عندما وقف على  
الناس من فوق المنبر في مجالسه التي شهدتها أحياء  
بغداد وعاشها معه مئات المعجبين بشخصيته وبعلمه  
وبحديثه والمفتونين بوعظه وتذكيره ؟ .

لا نريد أن نتجمل الاجابة قبل أن نصحب  
القارئ في رحلة روحانية عبر القرون الخالية سطر  
أحداثها شاهد عيان أتاحت له الظروف حضور  
مجالس ابن الجوزي الذي وصفه صاحب وفيات  
الاعيان بأنه كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث  
وصناعة الوعظ (١٤٠) .

يحدثنا الرحالة الاندلسي محمد بن أحمد بن جبير  
الكتاني عن بعض مظاهر الحياة في عاصمة الخلافة  
العباسية وجوانبها المضنية أثناء زيارته لها سنة  
٥٨٠هـ حيث كانت شهرة ائمة الوعظ فيها قد طرقت  
اسماعه قبل قدومه إليها فذكر ابن جبير أنه حضر  
جلسة للإمام الشافعي رضي الدين القزويني في

ويختار الماء البارد والافوق من المطاعم لحلم الظهر  
والذراع والجلوى ، وهذا كله رفق بالنافقة في طريق  
السير فأما من جرد عليها السوط فانه يوشك أن لا  
يقطع الطريق وقد قال - صلى الله عليه وسلم - إن  
هذا الدين متين فاولغوا فيه برفق ، فان المنبت لا  
ارضا قطع ولا ظهرا ابقي (١٣٨) .

وأخيرا يبين العالم القاص المجرب نتائج هذه  
التعاليم او ما يمكن أن نسميه « نصائح الحبيب  
المجرب » فيقول : واني مازلت أعظ الناس وأعرضهم  
على التوبة والتقوى فقد تاب على يدي أكثر من مائة  
الف رجل وقطعت من شعور الصبيان اللاهين أكثر  
من عشرة الاف طائفة وأسلم على يدي أكثر من مائة  
الف وجمعت من آلات الوعظ كتباً لم أسبق إلى  
مثلها .

وبما تجد الإشارة إليه أن ابن الجوزي حاول في  
كتاباتنا أن يعطي القارئ الصورة المثالية لكل من  
القاص والمستمع ، فاستنكر بعض الأفعال الشائنة  
والأمور المتداولة التي كانت تجري في مجالس  
القصص كالنطرب والغناء في القراة ، والسجع في  
الدعاء ، واستعانة القاص بأبيات من شعر العنق  
والمحبة وغيرها ، مما كان يثير الوجد في نفوس العوام  
فيمزقوا ثيابهم ويلطموا وجوههم ويسقطوا على  
الأرض ، إلى غير ذلك من الانفصال التي نعتها  
بالمكررات فقال : تأملت أشياء تجري في مجلس الوعظ

(١٣٨) ابن الجوزي - صيد الحاطر - ص ١٠٠ ، ٢٩٦ ، ٢٤١ ، أنظر له أيضا : كتاب التماس والذكرين ص ١٤٦ .

(١٣٩) ابن الجوزي - صيد الحاطر - ص ٩٩ ، أنظر له أيضا : كتاب التماس والذكرين ، ص ٩٥ - ٩٦ ، ص ١٢٠ .

(١٤٠) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ج ٣ ص ١٤٠

« نظاميتها » المشهورة ، كما حضر أكثر من مجلس لابن الجوزي رئيس المناهبة من بينها ذلك الذي كان يعقده كل خميس في رحاب قصر الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) فلما أعجب بعلمه وفننه بقصصه وعظه سمى الى مجلسه الثاني الذي كان يقيمه في ساحة قريبة من داره بالرصافة يوم السبت من كل أسبوع . ويبدو ان الرحالة الأندلسي قد شنف وأعجب باسم المناهبة أكثر من غيره من القصاص الذين استمع لهم وجلس اليهم ، فحضر ثلاثة من مجالس وعظه خلال الفترة القصيرة التي لم تتجاوز الثلاثة عشر يوما التي قضاه خفيفا على أهل مدينة السلام .

سطر لنا الرحالة الأديب بقلمه المعبر وصفا دقيقا ومفصلا لكل ما كان يدور ويجري في مجالس وعظ ابن الجوزي ، جاء - في الواقع - تعبيرا صادقا للشاعر الانسانية التي أحسن ابن جبير وصفها ، وفي نفس الوقت صورة ناطقة للحياة الدينية في المجتمع البغدادي في تلك الفترة .

يقول ابن جبير : شاهدنا صبيحة يوم السبت مجلس الشيخ الفقيه الامام الأجد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي ، بازاء داره على الشطط بالمجانِب الشرقي ، وفي آخره ، على اتصال من قصور الخليفة وهو يجلس به كل يوم سبت ثم يفيض في الاشارة بفضائل ابن الجوزي ومكانته وعلمه وحسن حديثه قائلا : شاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد في جوف الفراء كل صيد ، آية الزمان ، ورقة

عين الايمان ، رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، المشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر ، والفائض في بحر فكره على نفائس الدر ، ثم يستطرده في وصف وقائع المجلس ، ولعل أبرز ما تحدث عنه ابن جبير في هذا المقام ، وصفه لمشاعر الناس وما فعلوه من شدة الوجد ، وعظيم التأثير ، وقد انعكس ذلك كله عليه هو أيضا فأشار الى أن أهوال الرحلة ومتاعبها تهون كلها مقابل الاستمتاع بحضور مثل هذا المجلس ، يقول ابن جبير : أتى ابن الجوزي بعد ان فرغ من خطبته برفائق من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا وذابت بها الأنفس احتراقا ، الى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، كل وتساقطوا عليه تساقط الفرائش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يفتش عليه ، فيرفع في الأذرع اليه . ثم يستطرده قائلا : فشهدنا هولاء يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثييج البحر ، ونمتسف مفازات القفر الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفة الرابعة والوجهة المفلحة الناجحة (١٤١) .

ولزيادة الفائدة ، والافتقار قبل ان نجيب على السؤال الذي طرحناه قبل قليل ، رأينا أن ننقل للقارئ وقائع المجلس الثاني الذي حضره ابن

ويستطرد بعد ذلك الرحالة الأندلسي في وصف وقائع المجلس مبينا طريقة ابن الجوزي في وعظه ، وشدة تأثير حديثه في الناس وانفعالمهم به وتحياهم معه ، كما حدث في المجلس السابق ، فيقول : ثم سلك سبيله في الوعظ ، كل ذلك بديهة لا روية ، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءة على النسق مرة أخرى ، فأريست وإبلها العيون ، وأبدت النفوس سر شوقها المكون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين ، وطاشت الألباب والعقول ، وكثر الوله والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحصيلها ، ولا تميز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا .

ثم أوضح ابن جبير في حديثه المشوق والمعبر كذلك ، ما جاء على لسان ابن الجوزي من شعر الشوق والمحبة ، ونفاذ سهام كلامه الموزون الى قلوب الحضور ، ولم يفت الكاتب الأديب أن يورد لنا مثالا من ذلك الشعر فيقول : وفي أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق ، بديعة التزيين ، تشعل القلوب وجدا ، ويعود موضعها النسيبي زهدا ، وكان آخر ما أنشده في ذلك :

أين فؤادي أذابه الرجد  
وأين قلبي فما صحا بعد  
باسعد زنسي جوى بذكرهم  
بإله قل لي فدبت باسعد

ثم يبين الرحالة العربي أن ابن الجوزي لم يكتف بذكر هذين البيتين مرة واحدة ، بل ردها مرات عديدة حتى تأثر الواعظ نفسه ، وبدأ عليه الانفعال الشديد ، كما ظهرت مثل هذه الانفعالات

جبير ، فيقول : ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ، بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بيهاب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع من حرم الخليفة ، خص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمع من تلك المناظر ، الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ، ويفتح الباب للعامة فيدخلون اليه وقد بسط بالحصر ، وجلوسه بهذا الموضع كل خميس ، فيكرنا لمشاهدته ، وقدنا الى أن وصل هذا الجبر المتكلم ، فصعد المنبر ، وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمه المكان ، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب ، وشوقوا ما شاموا ، وأطربوا ما أرادوا ، وبدت العيون بارسال الدموع ، فلما فرغوا من القراءة ، وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات ، صدع بخطبه الزهراء الغراء ، وأتى بأوائل الآيات في أناتها منتظيات .

ثم يحدثنا الكاتب الأديب ، عن استعمال الفقيه القاص أسلوب السجع فيقول : وشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها ، وكانت الآية « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، ان الله لوفضل على الناس » فهاى على هذا السني ، وحسن أي تحسين ، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه .

ولم يفت ابن جبير أن يشير الى دعاء القاص للخليفة العباسي في هذا المجلس ولأسرته ، فقال : ثم أخذ في الثناء على الخليفة ، والدعاء له ولوالدته ، وكثي عنها بالستر الأشرف ، والجنانب الأرف .

أيضا على الحاضرين الذين استبد بهم الوجد ، فأجهشوا بالبكاء ، حتى ارتفع صوت نحيبهم ، وسقط بعضهم على الأرض ، فيقول : ولم يزل يرددوها والافعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمتع خروج الكلام من فمه ، الى ان خاف الافحام ، فابتدر القيام ، ونزل على المنبر دهشا عجلا ، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفر في التراب .

لا شك انه يمكننا بعد هذا الوصف الحي ، والحديث المستفيض أن نجيب على سؤالنا فنقول دون تردد ، أو بعدا عن الحقيقة أن الاجابة بالنفي .

فابن الجوزي ان كان قد وضع معايير للقصاص وأخرى للمستمعين ، فانه لم يستطع أن يلتزم بها ، وبالتالي لا يمكنه أن يتحكم في مشاعر الناس وعواطفهم ، ولم يغفل ابن جبير عن ملاحظة ذلك عندما قال : وما كنا نحسب أن متكلمي في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل ، فسبحان من يخصص بالكمال من يشاء من عباده ، لا إله غيره .

ويدلل على صحة رأيه قائلا : وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسوء من وعاظ بغداد ، وكنا قد شاهدنا بكمة والمدينة مجالس أخرى ، فصغرت كلها بالنسبة لمجالس هذا الرجل الفذ ، ولم نستطع لها ذكر<sup>(١٤٢)</sup> .

وهكذا يتبين لنا رموز قدم ابن الجوزي وعلمو كعبه في هذا الفن فلا غرابة ان يذاع صيته ، وترتفع

منزلته ، ويرتفع - بحق وجدارة - على عرش هذه الصناعة ، دون منافس أو شريك . فكان لابد لهذا العالم الواعظ القاص النابغ الذكي الأريب أن يحافظ على مكانته ، وينمي شهرته ، لذلك لا نستبعد أن يكون كبير القصاص ، وزعيم الوعاظ قد ترائى له أن أسباب ومقومات كل ما بلغه من مجد وفضل وعظمة وشهرة ، والمحافظة عليها كلها ، لا يمكن أن يتم إلا بممارسة تلك المحظورات ، ومن خلالها . وليس في ذلك ما يبعث على الدهشة ، أو يشير العجب ، فتعامل القاص مع الناس واحتكاكه بالجمهور العريضة التي تتوافد دائما وباستمرار على مجالسه هو وحده الكفيل بلفت الأنظار اليه والحديث عنه ، كما رأينا في حالة ابن جبير نفسه ، ولكي يظل اسم القاص يتردد على ألسنة الناس بالمديح له ، والثناء عليه ، والاعجاب به ، فانه يتعين عليه أن يخاطب عقولهم ، وفي نفس الوقت لا يهمل أحاسيسهم وعواطفهم ، لا سيما وان غالبية من يواظب على حضور مجالس القصص ويدارم عليها هم من طوائف العامة التي تحتاج أكثر من غيرها من طبقات المثقفين وفئات المتعلمين الى ما يحرك نفوسهم ، وإثارة الوجد في قلوبهم ، وهو ما يمكن ان نعبر عنه بفذاء الروح ، ولا نبالغ اذا قلنا ان هذا الغذاء أكثر طلبا لتلك الطوائف وأشد وقعا عليها من غذاء العقل ، هذا الى جانب ما يمكن ان يجنيه القاص ماديا من وراء مثل تلك الشهرة وعلو المنزلة التي تمتع بها ابن الجوزي ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك عندما قال : لقد حسن الي الشيطان الانقطاع عن المجالس ، وقال : لا يخلو من تصنع للخلق ،

(١٤٢) رحلة ابن جبير - ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

غادر المنبر ونزل من فوقه مسرعاً حتى لا يراجع أحد فيها أجاب . فقالت السنة هو ابو بكر لان ابنته عائشة تحت رسول الله ( صلعم ) وقالت الشيعة هو علي لان فاطمة ابنة رسول الله ( صلعم ) تحته (١٤٥) هكذا تخلص ابن الجوزي بتلك الاجابة التي تدل على الحكمة والفطنة والذكاء ، فأرضى الطرفين اللذين كثيراً ما كانت المنافسة بينهما تتحالى الى رحابة الصدر ، وقوة الحجّة وسرعة البديهة .

وما يستحق الاشارة في هذا المقام هو ان استلّة الناس من مجالس القصص كانت تمثل ركناً أساسياً فيها كما كانت الاجابة عليها من اهم عوامل المفاضلة بين القصاص بعضهم البعض لانها تدل على مقدار ما يتمتع به القاص من علم وسعة في الاطلاع ومعرفة بأمر الشرع ودراية بالقرآن والسنة بالاضافة الى قدرته على الاجتهاد والرأي .

فاذا واصلنا إيمان النظر والتدقيق في كل ما كان يجري في مجلس القصص لاستكشاف أهميتها وآثارها في حياة المجتمع الاسلامي كما هو الحال مثلاً في مجالس ابن الجوزي نلاحظ انه اصبح لهذه المجالس ما يمكن ان نسميه « بالمنهج » الذي كان يتبعه كبار القصاص ويسير على مقتضاه مشهور الوعاظ منذ اللحظة التي يرتقي بها المنبر الى ان ينزل عنه معلناً انتهاء المجلس .

فقلت : أما زخرفة الألفاظ وتزييقها واخراج المعنى من مستحسن العبارة ، فضيلة لا رذيلة ، فدعني أجمع ما يسد خلتي ويصونني من مسألة الناس ، أما الانقطاع فينبغي أن يكون العزلة عن الشر لا عن الخير ، فتعليم الطالبين وهداية المريدين عبادة العالم (١٤٦)

فاذا رجعنا بالحديث مرة أخرى الى مجالس ابن الجوزي نستكمل وقائتها الهامة ، نجد في حديث ابن جبير اشارة الى ما كان يدور فيها من أسئلة للحاضرين واجابة القاص الفقيه عليها ، وغالباً ما كان الناس يستفتونه في كل ما يعن لهم من أمور الشرع ، أو بعض القضايا الخاصة ، بالاضافة الى ما كان يدور في الأذهان ويشغل التفكير عن أمور الحكم والسياسة لا سيما ما يتعلق منها بالخلافة ، تلك المشكلة الأولى والمؤمنة التي كانت تتردد باستمرار على ألسنة الناس خاصة بعد تعدد الفرق والمذاهب التي كان لكل منها رأي ووجهة نظر خاصة فيها ، فيقول ابن جبير : وفي أثناء مجلسه يبتدرون المسائل ، وتطير اليه الرقاع ، فيجابوب بأسرع من طرفة عين . ثم يعلق الرحالة ، على أهمية تلك الأسئلة قائلاً : وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل (١٤٧) . وما يروى عنه في هذا الشأن انه سئل يوماً من اهل السنة والشيعة عن المفاضلة بين ابي بكر وعلي فأجاب : افضلها من كانت ابنته تحته ، ثم

(١٤٣) ابن الجوزي - صيد الخاطر - ص ٤١ - ٤٢ . أمر كذلك ما ذكره عما كان يملئه بعض القصاص لاثارة عواطف الناس وشااعهم ، أو لاجالة قلب السامع الذي كن يمحرون مجالسهم . كالتزين بالتياب ، والتبر بالزيت والكون ليعثر وجهه - كتاب القصاص ص ٩٤ - ٩٥ .

(١٤٤) رحلة ابن جبير - ص ٢٠٨ .

(١٤٥) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج ٣ ص ١٤١ .

التي قرئت ، فاذا انتهى الكلام في التفسير أجاب عن مسائل ان سئل ثم امر القراء بالقراءة وبعدها يعظم ثم يستطرد ليوضح طبيعة هذه المواعظ وما يجب ان يتناوله من امور الدين ، كالفرائض والمعاملات وغيرها ، بالاضافة الى ما يفيدهم في دنياهم فيقول : ويدرج في كلامه اخبار الوعد والوعيد والتشويق الى الجنة والتحذير من النار ويأمر بالمحافظة على الصلاة وينهى عن التواني عنها ، ويحث على اداء الزكاة ويذكر الوعيد لمن فرط فيها ، وكذلك الحج والصوم وليبالغ في ذكر بر الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف ، وينهى عن المنكر ، يحوف من الزنا وأكل الربا ويعلمهم عقود المعاملات ويذكر الاحاديث الواردة في جميع ما ذكرنا ، ويذكر حكايات الصالحين ما يصلح ذكره (١٤٧) .

ونريد مرة اخرى ان نقف هنا وقفة متأنية نشير فيها الى ان الحديث في مجالس القصص والوعظ في المعاملات كان هو الآخر من القضايا والمواضيع التي تلقى عناية واهتماما كبيرين لانه يمس الجانب المادي في الحياة التي اهتم بها الدين الاسلامي ويمتزه عن غيره من الديانات السالوية الكبرى السابقة عليه ، هذا بالاضافة الى ما لهذه المعاملات المالية من آثار بعيدة وعصيقة في تحديد علاقات المسلمين ، بل والناس كافة بعضهم ببعض ، وقد تمتد هذه الآثار أيضا لتشمل القصص وعلاقاتهم بالجماهير المترددة على مجالسهم . وتسوق لنا النصوص في هذا الشأن ما يؤيد ما ذهبنا

فاذا صعد القاص جلس ثم حيا الحضور بتحية الاسلام ، ثم يعطي الفرصة للقراء اللذين كانوا يصاحبونه للتلاوة بعد ذلك عليه ان يلقي ما كان يعرف بالخطبة ، التي كان يدعو فيها للامام والرعية ويفسر بعدها ما جاء من الآيات ، ثم يفتح باب الاسئلة للحاضرين ، بعد ذلك يأمر القراء بالتلاوة للمرة الثانية وبعدها تبدأ الفقرة الرئيسية في المجلس فينطلق في حديثه وقصصه وعظه الذي يبين فيه للناس كل ما يهمهم ويفيدهم من أمور الدين والدنيا ، فاذا ما انتهى اعطى للحاضرين فرصة للسؤال عما يلهيهم أو عما جاء في وعظه وقصصه من امور واخيرا ينزل عن المنبر وينتهي المجلس .

وقد اشار الى هذا المنهج الذي كان يتبعه القصاص ابن جبير في حديثه عن المجالس التي حضرها لكبار الوعاظ والقصاص لا سيما خلال وجوده في المهجاز لاداء فريضة الحج ، او في بغداد التي اشتهرت بكبار ومشهورى وعاظها كما ذكرنا (١٤٨) .

من جهة اخرى فقد أشار الى هذا « المنهج » ابن الجوزي في مصنفاته التي اهتم فيها بالقصص والمذكرين ومجالسهم فقال « فاذا ارتقى القاص المنبر سلم على الحاضرين ثم يقرأ القراء على وجه الترتيل والتخزين لا على طريق الألحان ، اذا فرغوا حمد الواعظ الله - عز وجل - وأثنى على رسوله وأصحابه ودعا للامام والرعية ، فاذا كانت له صناعة في انشاء خطبه او كان يحفظ خطبة ذكرها ثم ذكر تفسير الآيات

(١٤٧) رحلة ابن حبير - اطر الصفحات ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١١ .

(١٤٨) ابن الجوزي - كتاب القصص والمذكرين ١٣٧ - ١٤٠ .

ينقص ، بحسب مكانة القاص وشهرته ، كما كان هؤلاء القراء في نفس الوقت يشكلون قاعدة أساسية ، وركنا هاما من أركان المجلس ، ويضفي وجودهم المزيد من الاهمية والتقدير والاكبار للقاص ولجلسه على السواء ، ناهيك عما يتركونه بترتيلهم لأيات الذكر الحكيم من آثار جليلة في نفوس السامعين ، وقد أشار الى ذلك أيضا ابن جبير في وصف مجلس ابن الجوزي فقال : ويتبدى القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فيتنزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلوها على نسق بتطريب وتشويق ، فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة (١٤٩) .

كذلك غدا استعمال المنبر بدلا من الكرسي من المظاهر الجديدة في مجالس القصص ، وكان المنع في أول الأمر أن يتحدث القاص الى الناس وهو قائم ، كما كان يفعل تميم الداري ، ومن جاء بعده ، الى أن ظهر استعمال الكرسي في العصر الأموي ، وأخيرا انتهى الأمر الى ارتفاع المنبر .

وفهم من النصوص أن استعمال المنبر قد اقتصر على فئة معينة من القصاص والمذكرين ، فلم يكن يسمح بارتفاعه الا لمن كان يتمتع بالعلم والفقه والفضل وغيرها من الصفات التي تحدثنا عنها في الشروط الواجب توافرها في القاص الناجح المبرز . فلما أشرفت الدولة على عمل القصص وأصبح من

اليه ، فعندما قدم الفقيه المروزي المشهور ابو الحسين أردشير بن منصور ، بغداد في سنة ٤٨٦هـ ، في طريقه لاداء فريضة الحج ، أعجب فقهاؤها بعلمه ، ففتنوا بهديته ، ورغبوا ان يستفيد به العامة ، فعقد لهم مجالس للوعظ بالمدرسة النظامية كان يحضرها مشايخ الصوفية ، وكبار الأئمة في ذلك الوقت مثل الغزالي ، فأقبل الناس على مجلس القاص الزائر وازدحوا في حلقته ازدحاما منقطع النظير ، حتى روى ان ذرع الأرض التي كان يجلس فيها الرجال بلغ طولها مائة وخمسة وسبعين ذراعا ، وعرضها مائة وعشرين ، وأن من كان يحضر مجلسه من النساء أكثر من ذلك ، ولكن سرعان ما انقلب عليه بعض من كان يحضر مجلسه الذين كانوا - كما نظن - من اصحاب التجارة والنقود والمال عندما تحدث عن الحرام والحلال في البيع والشراء والمعاملات والقروض ، فنهى ان يتعامل الناس ببيع القراضة بالصحيح ، ورأى أنه ربا محرم ، فكانت هذه الفتوى بمثابة ناقوس الخطر الذي دق ايدانا بالرحيل رغم ذلك القبول العظيم ، فحورب الفقيه المروزي في رزقه ، ومنع من الوعظ ، وأخرج من البلد كلها (١٤٨) . وتدل هذه الحادثة على ان سيرة القصص والمذكرين وعلاقتهم بالجاهل كانت تتأرجح بين القبول والرفض والرضا والكراهية والتقدير والاهمال بقدر حكمة الواعظ وحكته وعلمه وثقافته وذكائه وفطنته .

من ناحية اخرى نلاحظ أن فريق القراء الذين قد يصل عددهم الى العشرين قارئاً ، كان يزيد أو

(١٤٨) الكامل في التاريخ - لابن الاثير ج ١٠ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٤٩) رحلة ابن حبر - ص ٢٠٧ .

وقد انتشرت هذه الظاهرة في بلاد الاسلام كلها على ما يبدو فيحدثنا ابن بطوطة في رحلته هو الآخر ، عندما زار الهند - في النصف الاول من القرن الثامن للهجرة - أن سلطانها أبو المجاهد محمد شاه الذي كان يستورد العلماء والفقهاء من البلاد الأخرى كخراسان والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب ، ويوليهم المخطط الرفيعة ، كالقضاء والوعظ والقصص وغيرها وكان يفضلهم على أقرانهم من أهل البلد لعلهم الوفير في أمور الدين والشرع ، كما كان يؤثرهم بعبائهم وأحسانه ، وأمر أن يسموا « الأعرزة » بدلا من الغرباء حتى لا تتأثر مكانتهم الأدبية لدى العامة .

- كذلك كان السلطان محمد شديد الرغبة في الاستفادة من علمهم وسعاهم وحضور مجالس قصصهم ووعظهم ، فلما أراد سماع أحدهم ، وكان يدعى ناصر الدين ، خلع عليه كسوة عظيمة ومنحه عطاء سخيا ، ثم أمر أن يقام له « السراجة » أي ما يشبه الحنية الكبيرة ، ونصب للفقهاء الواعظ فيها منبر صنع من خشب الصندل الابيض المقاصري وكسيت بعض أجزائه بصفائح من الذهب ثبتت بمسامير من نفس المعدن الثمين ، وألصق بأعلاه حجر من الياقوت ، تقديرا من السلطان للعالم الواعظ ، واتخذ السلطان لنفسه سريرا في مواجهة المنبر ، وأحاط به خواصه وحاشيته ، كما حضر المجلس كبار رجال الدولة والعلماء والفقهاء ، ودعى الى هذا المجلس أيضا ابن بطوطة الذي استمع الى خطبة ناصر الدين

حق المحتسب ، بل ومن صميم اختصاصاته الاشراف عليهم واختيارهم ومؤاخذتهم ، نظر صاحب الحسبة كذلك فيمن يسمح له منهم باستعمال المنبر ، ومن يمنح من ارتقائه ، يقول صاحب معالم القربة في أحكام الحسبة : ومن كانت الشروط فيه ، مكن من الجلوس على المنبر في الجوامع والمساجد وفي أي بقعة أحب ، ومن لا يدرى ذلك وكان جاهلا بذلك منع من الكلام ، فان لم يمتنع ودام على كلامه عزز ، ومن عرف شيئا يسيرا من كلام الوعاظ وحفظ الأحاديث وأخبار الصالحين وقصد الكلام يسترزق به ويستعين على قوته فيبيح له بشرط ألا يصعد المنبر ، بل يقف على قدميه . ثم يستطرد ابن الاخرة موضعا أسباب ذلك فيقول : فان رتبة صعود المنبر رتبة شريفة لا يليق أن يصعد عليه الا من اشتهر بما وصفناه . ولكي يبين أهمية المنبر ، وبكأنه من يقف عليه يقول : كان العصر الاول لا يصعد المنبر الا أحد رجلين ، خطيب في جامع يوم الجمعة أو يوم عيد ، أو رجل عظيم الشأن يصعد المنبر يعظ الناس ويذكرهم الآخرة وينذرهم ويحذرهم ويغفرهم ويحثهم على العمل الصالح ، وكان للناس بذلك نفع عظيم (١٥٠) .

ومن الجدير بالذكر ان ضرورة المنبر للقاص الكبير استدعت نصبه له واقامته لكي يقف عليه حتى اذا عقد مجلسه خارج المسجد ، كما ذكر صاحب معالم القربة قبل قليل ، وكما أشار أيضا ابن جبير في كلامه عن مجالس ابن الجوزي التي كان يعقدها في ساحة قصر الخليفة العباسي أو بالقرب من بيته .

(١٥٠) ابن الاخرة - معالم القربة في أحكام الحسبة - ص ٢٧٦ .



للقصص الديني - كغيره من الفنون - أن يساير تلك الأجواء المنتهية التي كانت تمر بها الدولة الإسلامية ، فنفرع عنه مسار جديد يمتشى مع الظروف السياسية المستجدة ، ويساير رغبات المتنافسين ، ويخدم أهدافهم أيضا .

ذكر المقرئ نقلا عن عبدالله بن مغفل قال : أمنا علي - رضي الله عنه - في المغرب ، فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أولا ، وعمر بن العاص ثانيا ، وأبا الأعور ، يعني السلمي ثالثا ، وكان أبو موسى الرابع .

وفي رواية أخرى ذكرها المقرئ أيضا نقلا عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، أن عليا - رضي الله عنه - قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب ، يدعوه ولأهل الشام ، فقال يزيد : كان ذلك أول القصص<sup>(١٥٢)</sup> . أما ابن الأثير ، فقد ذكر أن عليا كان إذا صلى الغداة قنت دعاء على خصومه من مؤيدي معاوية ، فلما بلغ ذلك معاوية فعل هو الآخر الشيء ذاته<sup>(١٥٣)</sup> . ويوضح القنوت في الصلاة والدعاء واللجوء الى الله سبحانه وتعالى فكرة الاحتساب في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات

ووعظه ، فلما فرغ القاص من مهمته نزل عن المنبر ، فقام اليه السلطان وعانقه وأركبه فيلا ، وأمر جميع الحضور بالسير في ركابه ، الذين كان من بينهم الرحالة المغربي ، فساروا جميعا الى سراجة أخرى لتناول الطعام<sup>(١٥٤)</sup> . هكذا كانت مكانة العلماء والفقهاء كبيرة سامية لدى سلاطين الهند ، كما كانت في بلاد العالم الاسلامي المختلفة ، كما كان استعمال المنبر من العلامات المميزة التي تدل على ماوصلت اليه مكانه القاص المرموقة ، وما بلغته شهرته من ذبوع وانتشار حصل عليها بعد رسوخ قدمه وعلو كعبه في كل ما يحتاج اليه القصص من علم وفن وفضل .

### القصص السياسي :

كان لأحداث الفتنة الكبرى التي بدأت في أواخر خلافة عثمان بن عفان ، آثار بعيدة وعميقة في تاريخ الاسلام والمسلمين ، وفي مختلف الميادين السياسية ، والدينية والفكرية ، وغيرها ، والتي كان القصص من بينها أيضا .

ففي تلك الظروف السياسية المضطربة ، ووسط ذلك الصراع الرهيب على السلطة الذي قام بين الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب وبين منافسيه ، لا سيما وإلى الشام ، معاوية بن أبي سفيان ، كان لابد

(١٥١) رحلة ابن بطوطة - ج ٢ ص ٤١ ، ص ٤٣ .

(١٥٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٣ - أنظر كذلك - كتاب الانتصار لابن دقان - ص ٧٢ .

(١٥٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير - ج ٣ ص ٢٢٣ .

والمعروف أن إلهي ( مسلم ) كان أول من قنت في الصلاة - دعا على أهل الشرك - فتحدث الصيوس أه ( مسلم ) احتارسمين شياها من الانصار ، وروي عنهم كانوا أربعين فقط ، من توافروا على العبادة والنسك ، وعرّفوا باسمه و القراء « وقد بنهت الرسول ( مسلم ) الى بعض القبائل العربية في نعد لدعوتها الى الاسلام ، فلقبهم المشركون عند بزموت - يوماء السليم - فقتلهم جميعا فيما عدا اثنا منهم بمكا من البوذة الى المدينة وأبلغا الرسول الله ( مسلم ) محزن حزنا شديدا ، وروي

أيضا ، أن يحاسب الإنسان أجره على الله بالتسليم والصبر .

فإذا أخذنا بتلك النصوص ، وجدنا أنها تبين نشأة ما يمكن أن نسماه بـ « القصص السياسي » الذي أخذ طريقه إلى الأمصار المختلفة ، عندما قنت معاوية ، كما فعل علي بن أبي طالب من قبل ، ودعا على خصومه السياسيين ، ولم يكف وإلى الشام بذلك ، بل أمر أحد القصاص أيضا أن يتخذ له مجلسا بالمسجد الجامع بدمشق مرتين كل يوم ، مرة في الصباح ، والأخرى بعد صلاة المغرب ، يقص خلالها على الناس ما يؤيد به موقفه من الخليفة الشرعي للمسلمين ، ثم يدعو له ولأهل الشام بالنصر والتأييد ، كما يدعو على خصومه بعكس ذلك .

هكذا أصبح القصص من الاعمال الرسمية التي يتولاها رجال متخصصون يأخذون عليه رزقا وأجرا ، وبعد أن آلت الخلافة إلى معاوية ، زاد اهتمامه بهذا اللون من القصص ، فكان يبحث العمال في البلاد المختلفة على ضرورة اتباع هذه السياسة والالتزام بها في مناطق عملهم ، فتحدثنا النصوص أنه أوصى

المغيرة بن شعبة عندما استعمله على الكوفة سنة ٤١هـ ، قائلا له : لا تترك شتم علي فزمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب لأصحاب علي ، والاقتصاص لهم ، والاطراء بشيعة عثمان والادناء لهم (١٥٤) .

وقد ظل القصاص في مجالسهم ، والخطباء على منابرهم ينفذون تعاليم معاوية التي أصبحت ناموسا متبعا لدى من جاء بعده من الخلفاء فكلما رغب احدهم في مهاجمة خصومه قنت في صلاته ودعا عليهم وأمر القصاص بذلك أيضا . وما يروى في ذلك ان عبد الملك بن مروان شكا الى العلماء ما انتشر عليه من امور الرعية وتقوقعه من كل وجه عندما كثر الخارجون عليه والثائرون على دولته فأشار عليه قاضيه ابو حبيب الحمصي بأن يستنصر عليهم برفع يديه الى الله تعالى فكان يفعل ذلك وكتب إلى القصاص في الامصار أن يفعلوه فكانوا بدورهم خلال مجالس قصصهم وفي صلاتهم بالعداة والعشي يرفعون ايديهم اثناء الدعاء على خصوم الخليفة (١٥٥) .

ظلت الامور تسير على هذا المنهج حتى ولى

انه كان يفتي في صلاة الصبح والمغرب ويذكر على القائلين وكان يقول في دعائه : اللهم أشهد وطألك على مصر ، اللهم عليك بني ليان ، وربي ، ورجل ، وذكوان ، وعصية ، فاتهم عصا الله رسولك ، اللهم عليك بني ليان ، وعضل ، والفازة ، كما دعا لبعض الصحابة والمستصميين والقبائل التي آذته وقتلت بهجائه وكان يقول : اللهم أنت الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياض بن أبي ربيعة ، والسنةضمي من المزنيين ، غفار ، غفر الله لنا ، وأسلم ، سالها الله . ويقال انه فعل ذلك خمسة عشر يوما ، وفي رواية شهر اربعين يوما حتى نزل قول الله تعالى : « ليس لك من الامر شيء ، أو ينيب عليهم أو يعذبهم ، فاتهم ظالمون » ( آل عمران / ١٢٨ ) .

أنظر من قدرت النبي ( سلم ) كتاب المغازي للواقدي ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٥٠ ، أسباب النزول للرازي ص ٨٠ - ٨١ ، صحيح البخاري ج ١ ص ١١٢ ، صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(١٥٤) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٤٧٢ ، انظر كذلك ما ذكره من موقف معاوية بن عبد الرحمن بن حسان - أحد رجالات ربيعة - عندما سأله عن علي فاستدح سيرته ورفض تهديد الخليفة الذي أمر رباب بن أبيه ، عامله بالمرأى ان يثقله شر قتله فقبل أنه دفعه حيا . نرى الجزء ص ٤٨٦ .

(١٥٥) خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٥٤ ، كتاب الانصار لابن دقاق ص ٧٢ .

وعمل الخير ، والنهي عن المحرمات والبعد عنها ، وعدم ظلم الناس ، وكلها من فضائل وأصول ديننا الحنيف .

ويبدو أن الأمر سار على هذا النحو في خلافة هذا الامام الزاهد ، فلما جاء خلفاؤه أعادوا الأمر الى سيرته الأولى كما هو الشأن في كل أسرار الدولة الأخرى ، فلما انتقلت الخلافة الى البيت العباسي لم يغيروا شيئا ، ولكنهم حولوا الطعن الى الأمويين بصورة عامة دون استثناء ، وتشير النصوص الى أن المعتضد بالله أمر في سنة ٢٨٤هـ بإنشاء كتاب يقرأ على الناس يبين فيه مثالب الأمويين - وأنه أخرج من خزانة القصر كتابا يرجع الى عصر الخليفة المأمون لكي يعمل له الكتاب والوزراء الكتاب الجديد على نسقه ، وقد وضعه له وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وقد أشار فيه الى متأثر رسول الله ( صلعم ) وآل البيت ، والطالبيين العباسيين ، بينما هاجم فيه الأمويين وطعن في خلافتهم ، الا أن هذا الكتاب لم يقرأ على الناس في المساجد لأن القاضي يوسف بن يعقوب خوف المعتضد من اضطراب العامة وامكانية انحيازهم الى العلويين الذين كانوا دائمي الثورة والمخروج على الحكم العباسي ، فقال القاضي للخليفة محذرا : « اذا سمع الناس هذا كانوا اليهم أميل وكانوا هم أبسط ألسنة ، وأثبت حجة منهم اليوم » .

الخليفة عمر بن عبدالعزيز ( ٩٩ - ١٠١هـ ) الذي اشتهر بشدة التقوى وقوة الايمان حتى ملك عليه حسه من خشية الله وحساب الآخرة كل ما عداه من احساس وكان يقول : ايها الناس انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلمعري لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم (١٥٦) كما اثر عنه ايضا قوله : تهلك العامة بفعل الخاصة ولا تهلك الخاصة بفعل العامة ، والخاصة هم الولاة (١٥٧) .

لذلك كله كان لابد لهذا الخليفة - الراشد الخامس - أن يضع نهاية لذلك التقليد غير المحمود ، فبدأ بنفسه ، وترك الطعن في العلويين ، بل وفي الناس جميعا في خطبه ومواعظه ، وكتب الى عاله بتركه ايضا ، كما أمر في نفس الوقت أن يستبدل بعبارات الطعن ، قول الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وابتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (١٥٨) فاستحسن الناس هذا الفعل منه ، وأكثروا من مدحه .

وما تجدد الاشارة اليه أن هذا النص القرآني مازال الى اليوم وسيبقى الى ما شاء الله من أهم مستلزمات خطبة الجمعة في مساجد الاسلام في معظم البلاد ، لما تضمنته من المعاني السامية ، والدعوة الى الالتزام بتعاليم الدين كالحض على صلة الرحم ،

(١٥٦) الكامل للسرد ج ١ ص ١٥٧

(١٥٧) سراج الملوك للطبري - تباشر مقدمة ابن خلدون - ص ٩٢ .

(١٥٨) تاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٤٢ - ٤٣ ، النص القرآني من سورة النحل / ٩٠ .

وقد أقتنعت هذه النصيحة المعتضد بالله العباسي ، وخشي ضياع الملك فأمسك عما كان ينتويه ، وبذلك لم يصل الى أساع الرعية (١٥٩) .

لم يكن من المستغرب إذن أن يتخذ الفاطميون في مصر من القصص السياسي سبيلا لمنافسة العباسيين في العراق ، ويجدوا فيه أيضا ميدانا صالحا لنشردعوتهم والترويج لها ، وفي نفس الوقت مناهضة الخلافة السنية في بغداد .

من كل ما سبق نلاحظ أن هذا اللون الجديد من القصص قد شق طريقه الى الحياة ، والظهور على مسرح الاحداث منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ، فزاحم القصص الديني ، بل ربما أصبحا توأمين بعد أن تدخلت الدولة في تعيين القصص والاشراف عليهم ومحاسبتهم ، ونلاحظ أنه في كثير من الأحيان كان يوكل القصص الى القضاة الذين وجد فيهم أولياء الأمر القدرة على النهوض بأعباء الاتنين معا : القصص والقضاء بين الناس ، مما يؤكد استمرار العلاقة بين القصصين : الديني والسياسي ، وبدل في نفس الوقت على أهمية هذا اللون الجديد من القصص . لذلك وجد بين الفقهاء والعلماء من قسم القصص الى نوعين :

الأول ، قالوا عنه هو قصص العامة ، والآخر أطلقوا عليه قصص الخاصة . فيقول الليث بن

سعد ، إمام أهل مصر : ان قصص العامة هو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم القاص . ويذكرهم ، وذلك مكروه لمن فعله ، ولن استمعه .

أما قصص الخاصة فهو الذي استحدثته معاوية ، ولى رجلا على القصص فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل ، وحمده ويحمده وصلى على النبي ( صلعم ) ، دعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربيه ، وعلى المشركين كافة (١٦٠)

قد يفهم من هذا القول أن قصص العامة الذي قال عنه الاسام الليث أنه مكروه لمن فعله ولن سمعه ، انه ذلك اللون من القصص الذي امتزجت فيه الاسطورة والخيال ، بالحقيقة والتاريخ ، فبعد عن المعنى الأصلي اللغوي للمفهوم كلمة « قصص » هذا من جانب ، ثم لاستغلال القصص لبساطة العامة وسذاجة الجماهير ، والكذب عليهم وخداعهم لابتزاز أموالهم من جانب آخر ، وما يروى في هذا الشأن أن بشارا بن برد ، الشاعر المشهور ، مر بقاص بالبصرة فسمعه يقول في قصصه لمن حضر مجلسه : من صام رجبا وشعبان ورمضان ، بنى الله له قصرا في الجنة ، صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت الشاعر الضريع الى قائده وقال

(١٥٩) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٤٤ - ٦٣ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٧١ ، المختصر في تاريخ البربر الفداء ح ٢ ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٦٠) حطط الفريزي ج ٢ ص ٢٥٣ انظر كذلك ، فخر الاسلام لابن ابي عمير ص ١٥٩ .

مصوبغا بالصيغة الدينية التي كانت تشكل الجانب المضي فيه ، فلفتي قدرا غير قليل من اهتمام الناس ، فأقبلوا عليه ، وحرصوا على مجالسه لأنه لم يخل من الفائدة . لذلك رأينا اسناده الى القضاة أحيانا ، كما انصرف في أحيان أخرى الى أئمة المساجد الذين كانوا يختارون بعناية من ولي الامر ، ممن كان يتوافر فيهم معرفة أمور الدين وأحكام الشرع . يقول ابن عبدالحكم : عندما استبدل الخليفة المنصور عقبة بن مسلم الذي كان يؤم المسلمين في مسجد عمرو بالقسطاط بالقاص عبدالله بن نعياش ، تأثر عقبة وقال : مالي اعزل ؛ والله ما انا بصاحب خراج ، ولا حرب وإنما انا قاص أصلي بالناس فان كنت أطول فأحيوا أن أقصرُ فصرت ، وان كنت أقصر فأحيوا أن أطول طولت (١٦٣) .

كذلك حدثنا المقرئ بن ابي بكر محمد بن الحسن السويي الصلاة والقصاص في مصر في شعبان سنة ٤٠٣ هـ نسب المصحف الذي يقرأ فيه بالمسجد العتيق بالقسطاط في مؤخرة الجامع حيال الفوارة واصبح ذلك كما قال اشهر من كتب في خطط مصر سنة متبعة لدى القصاص حتى زمانه (١٦٤) .

ساخرا منتهكما على سذاجة السامعين وجهل وكذب القاص : بثت والله الدار هذه في كانون الثاني (١٦١) .

لذلك كان من عمل المجتنب منع مثل هذه التوسيعات من القصاص والوعاظ الذين مزجوا بكلامهم الأكاذيب والبدع التي تدل على ضعالة علمهم واستغلال الناس وابتزاز أموالهم ، وقد أشار الى ذلك ابن الأخوة فقال : ومن المكروهات كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدع في القصاص ، فالقاص ان كان يكذب في أخباره فهو فسق ، والانكار واجب عليه ، وكذا الواعظ المتدع يجب منعه . فلا يجوز حضور مجلسه الا على قصد اظهار الرد عليه ، فان لم يقدر ، فلا يجوز سماع البدعة ، ثم يستشهد على ذلك يقول الله جل شأنه : « فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره » (١٦٢) .

أما النوع الآخر ، وهو قصص العامة ، فعلى الرغم من امتزاجه بالأمور السياسية ، وظهور التملق لصاحب السلطان في ثناياه ، الباحث على تأييده وناصرته ، والدعاء على خصومه ، الا انه ظل

(١٦١) الاغانى لابي الفرج الاصفهاني - ج ٣ ص ١٦٠ ( طعة القاهرة ) والعرف ان كانون الثاني هو من الشهور السريانية التسمية التي تقع في فصل الشتاء وهو يوافق شهر يناير .

(١٦٢) ابن الاخوة - معالم القرية في احكام الحسية - ص ٢٧٣ .

(١٦٣) فتوح مصر واخبارها لابن عبدالحكم - ص ٢٤٢ .

(١٦٤) حطط المقرئ - ج ٢ ص ٢٥٤ ، ابن دقاق الانصارى ٧٣ ، أظهر كذلك : ما ذكرته د . دويقة طه النجم في كتاب . القصاص والقصاص في الادب الاسلامي ص ٤٢ - حيث نقلت عن الابنبيهي ان قصص العامة هو ما يقوم به القصاص الذين يتأصلون اموال الناس بالكلام وقصص الحامسة بني حديث القاص الذي يطلب اليه ان يجلس الى الناس .

وما يؤثر عنه أنه كان يقص على الناس وهو قائم  
وذلك قبل ان يتخذ الكرسي او المنبر كما أوضحنا فيما  
سبق ، في حين كان هذا القاص في ذلك الوقت المبكر  
إذا دعا رفع يديه (١٦٥) .

فاذا عدنا الى مطلع هذا البحث رأينا القاضي  
عبدالرحمن بن حجية الذي جمع له والي مصر في  
خلافة عبدالملك بن مروان القضاء والقصاص  
والاشراف على بيت المال . وقد رزقه أمير البلاد عن  
كل عمل من هذه الاعمال الثلاثة مائتي دينار  
سنويا ، ثم شمله بعد ذلك باحسانه وكرمه ، فأوصل  
مرتبته الى الف دينار وهو دون شك دخل كبير بالنسبة  
للزمان الذي نتحدث عنه ، اذا علمنا ان المأمون  
العباسي في زمن لاحق - كما هو معروف - رزق ابا  
رجب العلاء بن عاصم الخولاني عندما ولاء القصاص  
في مصر سنة ١٨٢هـ عشرة دنانير شهريا فقط وهذا  
بدوره يعتبر كبيرا بالنسبة لاول مرتب حصل عليه  
عامل من دولة الاسلام فعندما استعمل النبي  
( صلم ) عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها في  
السنة الثامنة للهجرة ، منحه درهما واحد في كل يوم  
أي ما يعادل دينارين اثنين شهريا فكان هذا الدرهم  
في ذاك الزمان كافيا لاستيفاء متطلبات المعيشة لوالى

يتضح من النصين السابقين اهمية القاص وما  
كان يحظى به من رضا ولي الامر طالما كان متجاوبا  
مع سياسة الدولة منفذا لأوامرها مهتبا باظهار شرعية  
الحكم وأحقية البيت القائم بالخلافة ، وما يؤكد ذلك  
كله وثبته خضوع القاص حتى في الامصار البعيدة  
عن مركز الدولة لسلطة الخليفة مباشرة فكان للخلفاء  
دون غيرهم الحق في اختيارهم وتوليبتهم وعزلهم ، كما  
أوكلا الى المحتسب مراقبته لان الخلافة كانت تجد -  
على ما يبدو - في هؤلاء القصاص اكثر من اي من  
عمال الدولة الآخرين القدرة على توجيه الناس  
ودفعهم للسير في الاتجاه الذي يتناسب مع مصالحها  
ويرضي أهواها لذلك كان بعضهم يعمر في عمله  
فترات طويلة دون حاجة لاستبداله ، وما يروى في  
هذا الشأن ان سليمان بن عتر التجيبي الذي ادرك  
عمر بن الخطاب قد انتقل من الشام الى مصر بعد  
فتحها واشتهر فيها بالعبادة والنسك ، كما كان أول  
من قص بها سنة ٣٨هـ ، فلما انتقلت الخلافة الى  
معاوية جمع له القضاء والقصاص مدة عامين ، ثم رأى  
الخليفة ان ينحيه عن القضاء لكي يتفرغ للقصاص ،  
فاتخذ لنفسه مجلسا في مسجد عمرو بالفسطاط وظل  
يمارس هذا العمل ما يقرب من سبعة وثلاثين عاما .

(١٦٥) خط القرطبي ج ٢ ص ٢٥٤ قد ذكره باسم سليمان على عكس المصادر الاخرى انظر . ابن عبدالحكيم - فتح مصر ص ٢٣٦ - ٢٣٢ ، من المعاصرة  
للبيروني ج ٢ ص ١٣٦ ، د . دجلة ط النعم - القصاص والقصاص - ص ٣٥

ابن الجوزي : لذلك ولأسباب أخرى عديدة أشرنا إليها في الصفحات السابقة كالرغبة في التكسب والكذب والجهل بأمر الدين وأحكام الشرع ، نادى بعض الفقهاء ببطلان هذا اللون من القصص وقالوا انه لم يكن معروفا زمن الرسول ( صلم ) ولا أبي بكر ولا عمر وأشاروا الى ان نشأته كانت مع أحداث الفتنة - كما أوضحنا أيضا - ومن بين هؤلاء الامام الغزالي الذي اطلق على المشتغلين بهذا القصص السياسي اسم « المرخفون » وبين الاسباب وقال بانحرافهم عن طريق الذكر المحمود فأصبح يشوب قصصهم وعظهم الاختلاف والزيادة والنقص فاختلط فيه الصدق بالكذب ، والتنافع بالضرار (١٦٧) . ولذلك دعا ابن الجوزي القصص الى عدم

المخوض في أحداث الفتنة ، لما أدت اليه من انقسام في الصفوف ، وتفريق لكلمتهم ، ولم يكتف الفقيه القاص المؤرخ بذلك ، فأوجب عليهم الترحم على الصحابة والاشادة بفضلهم (١٦٨) ، وقد التزم هو بهذه الشروط كما يتضح من وصف ابن جبير .

ورغم كل ما قبل في القصص السياسي وما أخذ عليه فانه بقي متأثرا الى حد بعيد بالقصص الديني ممزوجا به - كما ذكرنا - ولارتباط السياسة بالملك أيضا ، فاذا كانت غاية الملك تنفيذ أحكام الله في

مكة فجمع عتاب قريشا في رحاب البيت العتيق وخبطهم معتزا بما أولاه به الرسول ( صلم ) من فضل ورزق جعله غنيا عن سؤال الآخرين فقال : ايها الناس اجاع الله كيد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله ( صلم ) درهما كل يوم ، فليست بي حاجة الى احد (١٦٩) .

قد يظن بعض الناس ان قصاص هذا الفن « القصص السياسي » قد خرجوا بمجالسهم عن نطاق المساجد لكن العكس هو الصحيح فقد ظل المشتغلون بالقصص السياسي يعتقدون بمجالسهم بالمساجد والجامعة منها كلما توافر وجودها لا سيما في صدر الاسلام .

ومع مرور الوقت وتقدم الزمن وانتشار هذا اللون وكثرة المشتغلين به وبالتالي زيادة المقلبين على مجالسهم غلبت الصنعة على القصص ، كما انضم اليهم فريق القراء الذين كانوا يقرأون بتطريب والحنان ، فزاد تأثير ذلك كله في النفوس ، فاذا ما استبد الوجع ببعض الناس فقدوا السيطرة على مشاعرهم وأتوا بحركات هستيرية وقد تكون بعيدة عن المألوف ولا تتناسب مع قدسية بيوت الله ، لذلك رأى بعض القصاص والمبرزين منهم الخروج الى الساحات الواسعة والاماكن الفسيحة كما كان يفعل

(١٦٦) أنظر هل التوابع : الكندي - كتاب الولاة وكتاب القضاء - ص ٣١٧ ، حطط القريري - ج ٢ ص ٢٥٤ ، حسن الحاضرة للسيوطي ، ج ٢ ص ١٣٧ ، سيرة ابن هشام - ج ٤ ص ١٤٣ .

(١٦٧) اشياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - ج ١ ص ٥٧ - ٥٩ .

(١٦٨) ابن الجوزي - كتاب القصص والمذكرين ص ١٤٣ - ١٤٤ .

الحميذة للملك ، المتممة له ، ووجوده دون متماته  
كالشخص المقطوع الأعضاء ، أو الذي يظهر عرياناً  
بين الناس <sup>(١٦٩)</sup> . لذلك كان الحاكم دائماً في حاجة  
الى هذا اللون من القصص السياسي لتظل صورته  
واضحة في عيون الناس بعيدة عن ظلال الشبهة  
وسوء الظن .

خلقه وعباده بكل ما فيها من خير ، و مراعاة لمصالح  
المسلمين ، فان السياسة هي الوسيلة والأداة لتطبيق  
هذه القوانين والأحكام .

وقد أشار المفكر والفيلسوف العربي المعروف ،  
ابن خلدون الى ذلك فقال : ان السياسة هي الخلال

\*\*\*



نزل القرآن الكريم أساساً من أجل هداية الانسان وتوجيهه وتعليمه . ولذلك ، كان من الطبيعي ان يتضمن القرآن الكريم كثيراً من المعلومات عن الانسان . ففي القرآن الكريم معلومات في خلق الانسان وطبيعة تكوينه من مادة وروح ، وما ينشأ عن ذلك من صراع نفسي ، وعن الدوافع المختلفة الفسيولوجية والنفسية التي توجه سلوكه ، وعن الانفعالات المختلفة التي يشعر بها والتي تؤثر في حياته ، وعن وسائل اكتساب الانسان للمعرفة سواء عن طريق الادراك الحسي او العقلي او عن طريق الالهام والرؤيا الصادقة . وفي القرآن الكريم ايضا معلومات عن غو الانسان ومراحلہ ، وعن التعلم ومبادئه ، وعن الشخصية وانماطها وصفاتها المختلفة ، وعن تقويم الانسان وعلاجه النفسي وغير ذلك من المعلومات عن الحياة النفسية للانسان . ولن نستطيع في هذا المقال المحدد أن نتناول جميع ما جاء في القرآن الكريم من معلومات عن الحياة النفسية للانسان ، فهذا أمر يتجاوز كثيراً العدد المحدد لنا من صفحات في هذا المقال . ولذلك فسوف نكتفي في هذا المقال بتناول مبادئ التعلم التي وردت في القرآن الكريم . أما المعلومات الأخرى التي وردت في القرآن الكريم عن الحياة النفسية للانسان فقد تناولها الباحث في شيء من التفصيل في مكان آخر <sup>(١)</sup> .

## مبادئ التعلم في القرآن الكريم

محمد عثمان نجاف

استاذ علم النفس بجامعة الكويت

(١) محمد عثمان نجاف : القرآن وعلم النفس . بيروت : دار الفروق ( تحت الطبع ) . ويقال هذا من مبادئ التعلم في القرآن الكريم « مقتبس من هذا الكتاب المشار اليه » .

ونحن اذا درسنا المنهج الذي اتبعه القرآن الكريم في دعوته لعقيدة التوحيد ، وفي تربيته للمؤمنين ، وغرس المبادئ والقيم الاسلامية في نفوسهم ، لاستطعنا ان نستخلص من هذا المنهج بعض المبادئ العامة لعملية التعلم التي استخدمها القرآن الكريم في تغييره لسلوك المؤمنين ، وفي تعليمهم العقائد والقيم الاسلامية .

وسنرى ان هذه المبادئ التي استخدمها القرآن الكريم في التربية الروحية للمؤمنين لم يكشف عنها علماء النفس عن أهميتها في التعلم الا أخيرا في اوائل القرن العشرين . وسنحاول فيما يلي أن نستعرض مبادئ التعلم في القرآن الكريم .

### الدافع :

للدافع أهمية كبيرة في التعلم . فاذا توفر الدافع القوي للحصول على هدف معين توفرت الظروف المناسبة لكي يقوم الانسان ببذل الجهد الضروري لتعلم الطرق الصحيحة للوصول الى هذا الهدف . واذا جابه الانسان مشكلة وشعر بحاجة الى حل هذه المشكلة ، فانه يقوم في العادة بكثير من المحاولات لحل هذه المشكلة ، حتى ينتهي به الامر الى تعلم الحل الصحيح لهذه المشكلة . وقد بينت كثير من الدراسات التجريبية التي أجريت حديثا على الحيوان والانسان أهمية الدافع في حدوث التعلم . وقد استخدم القرآن الكريم في تربيته الروحية للمسلمين اساليب مختلفة في إثارة دوافعهم الى العلم . فاستخدم الترغيب والترهيب ، واستخدم القصص للتشويق ، كما استعان بالاحداث الجارية الهامة التي تثير دوافع الناس وانفعالاتهم ، وتجعلهم مهتمين بتعلم العبرة من هذه الاحداث .

### أ - إثارة الدوافع بالترغيب والترهيب

حيثما يكون لدى الانسان دافع قوي للحصول على هدف ما ، فان الحصول على هذا الهدف الذي يشبع دافعه يعتبر ثوابا او مكافأة تسبب له الشعور باللذة او السرور والرضا . والفشل في الحصول على هذا الهدف يعتبر نوعا من العقاب الذي يسبب له الشعور بالألم ، او الضيق والكدر . والانسان - وكذلك الحيوان - يميل بطبيعته الى ما يسبب له اللذة ، ويتجنب ما يسبب له الألم . ولذلك كان الانسان ميالا بطبيعته الى تعلم الاستجابات او الأفعال التي تؤدي الى الحصول على الثواب ، وإلى تجنب الاستجابات أو الأفعال التي تؤدي الى الفشل او العقاب . وقد اثبتت التجارب الكثيرة التي أجراها علماء النفس المحدثون هذه الحقيقة .

وقد اهتم القرآن الكريم في دعوته الى الايمان بعقيدة التوحيد بإثارة دوافع الناس بترغيبهم في الثواب الذي سيحظى به المؤمنون في نعيم الجنة ، وبترهيبهم من العقاب او العذاب الذي سيلحق بالكافرين في نار جهنم . وآيات الترغيب التي تصف نعيم الجنة تبعث في المسلمين الامل في الحصول على هذا النعيم ، وتدفعهم الى التمسك بالتقوى والاخلاص في اداء العبادات والعمل الصالح ، والجهد في سبيل الله ، وعمل ما يرضي الله

ورسوله ، أملين أن يكونوا من اهل الجنة . والآيات التي تصف عذاب جهنم تبث فيهم الرهبة من هذا العذاب الاليم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين والمعاصين لأوامر الله تعالى ، ويدفعهم ذلك الى الابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وكل ما يفضض الله ورسوله ، أملين أن ينجيهم الله من عذاب جهنم . وهكذا كان المسلمون متأثرين بدافعين قويين ، أحدهما ، وهو دافع الرجاء في الثواب ، يدفعهم الى القيام بالعبادات والتكاليف وكل ما يأمرهم به الشرع . والآخر ، وهو دافع الخوف من العقاب ، يدفعهم الى تجنب القيام بالذنوب والمعاصي وكل ما ينهاهم عنه الشرع . وشعور الانسان هذين الدافعين القويين المتكاملين والمتفقين في الهدف يجعلانه في حالة استعداد تام وتهيؤ كامل للطاعة التامة لله والرسول ، ولتلبية كل ما يطلب منه من واجبات ومستويات ، ولتسلم كل ما يوجهه اليه الاسلام من نظام جديد للحياة ، وطريقة جديدة في التفكير والسلوك ، ولتجنب كل ما ينهى عنه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وبلاحظ ان القرآن الكريم لا يعتمد فقط في اثارة الدافع لقبول الاسلام على تخويف الناس وترهيبهم من العذاب الاليم في نار جهنم ، وإنما يعتمد أيضا في نفس الوقت على ترغيبهم في الاستمتاع بنعيم الجنة . وذلك لان استخدام الترهيب وحده ، او الترغيب وحده قد لا يكون مفيدا الفائدة المرجوة في تعديل السلوك وتوجيهه ، فاستخدام الترهيب وحده قد يؤدي الى طغيان الرهبة على النفس فتأيس من رحمة الله ، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي الى استيلاء الامل في رحمة الله على النفس مما قد يوكلها الى الدعة والتهاون والفقلة فتتمنى على الله ما ليس لها <sup>(٢)</sup> ، وفي هذا المعنى قال النبي صلوات الله عليه وسلامه . « ليس الايمان بالنعمي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوما ألهمتهم أمانتي المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، ولو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له » <sup>(٣)</sup> .

ولذلك ، فان القرآن الكريم لا يعتمد على الترهيب فقط ، او الترغيب فقط ، وإنما يعتمد على مزيج منها : الخوف من عذاب الله ، والرجاء في رحمته وتوابه . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك في وصف اصفائه من الانبياء وعبياده الصالحين فقال عنهم :

« ... انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » <sup>(٤)</sup> .

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطعما وبما رزقناهم ينفقون » <sup>(٥)</sup> .

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي : منج تربوي فريد في القرآن . مجلة الوعي الاسلامي ( الكويت ) السنة السابعة ، العدد ٨١ ، اكتوبر ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) عن البهي الحارثي ٠ آدم عليه السلام . الطبعة الثالثة . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٤ ، ص ١٨٥ .

(٤) الانبياء . ٩٠ .

(٥) السجدة . ١٦ .

وهذا المزيج من الخوف والرجاء كفيل بإثارة الدافع القوي لدى المسلمين لتعلم ما جاء به الاسلام من نظام جديد في الحياة ، وما تضمنه ذلك من أساليب جديدة في التفكير والسلوك . ومن أمثلة آيات الترغيب والترهيب التي تذكر النعيم الذي سيناله المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة :

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون » . (٦)

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب الجحيم » . (٧)

« فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك اصحاب الجحيم » (٨)

« الملك يومئذ يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك لهم عذاب مهين » . (٩)

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون » (١٠)

ولا تقتصر آيات الترغيب والترهيب في القرآن الكريم على ذكر النعيم الذي سيلقاه المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة فقط ، بل انه يذكر ايضا ما يناله المؤمنون من خير ، وما يلحق بالكافرين من ألم وعذاب في الحياة الدنيا ايضا . ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يناله المؤمنون من خير في الحياة الدنيا :

« ويقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا . ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . (١١)

---

(٦) البقرة : ٨١ ، ٨٢

(٧) المائدة : ٩ ، ١٠

(٨) الحج : ٥٠ ، ٥١

(٩) الحج : ٥٦ ، ٥٧

(١٠) الروم : ١٥ ، ١٦

(١١) هود : ٥٢

« فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويدكم بالموال وبنيين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا » (١٢)

ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يصيب الكافرين من عذاب في الحياة الدنيا :

« .. ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد » . (١٣)

« ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في دارهم جائئين » . (١٤)

#### ب - اشارة الدافع بالقصص :

والقصص من الوسائل الهامة التي استخدمها القرآن الكريم ايضا لاثارة الدافع للتعليم ، وذلك لما تثيره من التشويق لدى المستمعين ، ولما تستدعيه من الانتباه الى تتبع الاحداث التي تروى في القصة . وكان القرآن الكريم يبت في ثنايا القصص ما يريد أن يبلغه للناس من اغراض دينية متعلقة بالمقائد ، أو من عبر وحكم يريد أن يعلمها لهم .

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ... » . (١٥)

وان ما يمتاز به القصص القرآني من جمال فني يجعل ورود الاغراض الدينية الى النفس أيسر وتأثيرها في وجدانهم أعمق . (١٦)

ويلاحظ في بعض قصص القرآن الكريم انه يبدأ أولا بذكر ملخص القصة ، ثم يعرض بعد ذلك تفاصيل القصة من بدايتها الى نهايتها ، كما هو واضح مثلا في قصة « اصحاب الكهف » . وذكر ملخص القصة قبل سرد تفاصيلها انما يؤدي الى تشويق المستمعين واثارة انتباههم لتتبع تفاصيل القصة . (١٧)

ويلاحظ في بعض القصص الاخرى انها تبدأ أولا بذكر عاقبة القصة ومغزاها ، ثم تأتي بعد ذلك تفاصيل القصة

(١٢) نوح : ١٠٠ - ١٢

(١٣) الرعد : ٣١

(١٤) هود : ٩٤

(١٥) يوسف : ١١١

(١٦) سيد قطب . التصوير الفني في القرآن ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٨

(١٧) المرجع السابق : ص ١٤٨ - ١٤٩

القصة ، كما هو ملاحظ في قصة موسى عليه السلام ، الواردة في سورة القصص . وذكر مغزى القصة أولا يؤدي ايضا الى اثارة تشويق المستمعين وانتباههم لتتبع وقائع القصة لمعرفة كيف تحققت هذه الغاية (١٨) .

#### ج - الاستعانة بالاحداث الهامة :

ومن العوامل التي تساعد على اثارة الدوافع والانتباه وقوع بعض الاحداث او المشكلات الهامة التي تهز وجدان الناس وتثير اهتمامهم وتشغل بالهم . ويكون الناس عادة تحت تأثير هذه الاحداث الهامة التي تمر بهم في حالة تهبط واستعداد لتعلم العبرة المتضمنة في هذه الاحداث . وقد استعان القرآن الكريم بالاحداث الهامة التي كانت تمر بالمسلمين لتعليمهم بعض العبر المفيدة لهم في حياتهم . ومن الطبيعي ان يكون المسلمون في اوقات وقوع هذه الاحداث المثيرة لوجدانهم اكثر استعداداً ، واكثر قبولاً لتعلم العبرة واستيعابها (١٩) . ومن امثلة ذلك ما حدث في غزوة حنين حين أعجب المسلمون بكثرتهم وقوتهم وأطمأنوا الى انهم سينتصرون على الكفار ، ونسوا ان النصر بمشيئة الله وحده ، فأراد الله تعالى ان يعلم المسلمين ان الكثرة لا تؤدي بالضرورة الى النصر ، وانما ينصر الله من يشاء من عباده الذين يفر الايمان والتقوى قلوبهم حتى ولو كانوا قلة . (٢٠)

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضائق عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » (٢١) .

#### التكرار :

ان تكرار عرض آراء وافكار معينة على الناس يؤدي عادة الى استقرار هذه الآراء والأفكار وتثبيتها في اذهان الناس . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين اهمية التكرار في عملية التعلم . وقد فطنت المؤسسات التجارية والصناعية الى اهمية التكرار في تثبيت الفكرة في اذهان الناس ، فقاموا باتفاق الاموال الطائلة على الاعلانات التجارية التي تقوم بتكرار عرض افكار معينة على الناس بهدف التأثير في اتجاهاتهم لترويج سلهم التجارية .

(١٨) المرجع السابق ص ١٤٩

(١٩) محمد شبيب : منهج القرآن في التربية . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٧٧

(٢٠) عبدالفتاح جلال : من اصول التربية في الاحلام . من مطبوعات المركز الدروي للتعلم الوطني للكتاب في العالم العربي سويسرا اللباني ، مصر ، ١٩٧٧ ، ص ١١٩

(٢١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦

ونحن نجد في القرآن الكريم تكرارا لبعض الحقائق المتعلقة بالعقيدة والامور الغيبية التي يريد القرآن الكريم ان يشبثها في الاذهان ، كعقيدة التوحيد ، والايمان بالبعث ، ويوم القيامة ، والحساب ، والثواب والعقاب في الحياة الآخرة . ان كثيرا من آيات القرآن الكريم يكرهه المعاني لتثبيتها في الاذهان ، ومن امثلة تكرار عقيدة التوحيد ما جاء في سورة النمل - وهي سورة مكية - من تكرار عبارة « إله مع الله » خمس مرات حتى تثبت هذه العقيدة في الاذهان .

« أمن خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، إله مع الله ، بل هم قوم बदلون . أمن جعل الارض قرارا ، وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، إله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون أمن . يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الارض ، إله مع الله ، قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، إله مع الله ، تعالى عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والارض ، إله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . (٢٢)

وتكررت الدعوة الى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد اربع مرات في سورة هود ، وهي مكية . فقد ذكر القرآن الكريم في هذه السورة ما قاله بعض الانبياء السابقين لاقوامهم حينما كانوا يدعونهم الى عقيدة التوحيد ، فذكر ما قاله نوح عليه السلام لقومه :

« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا الا الله .. » (٢٣) .

ثم ذكر القرآن الكريم ما قاله كل من هود وصالح وشعيب عليهم السلام الى اقوامهم بصيغة واحدة تكررت ثلاث مرات في السورة :

« وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. » (٢٤)

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. » (٢٥)

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. » (٢٦)

(٢٢) النمل : ٦٠ - ٦٤

(٢٣) هود : ٢٥ ، ٢٦

(٢٤) هود : ٥٠

(٢٥) هود : ٦١

(٢٦) هود : ٨٤

كما تكررت عبارة « اعبدوا الله مالمكم من إله غيره » مرتين في سورة « المؤمنون » وهي مكية ، وذلك في الآيتين رقم ٢٣ و ٢٢ .

ولقد جاء في القرآن الكريم أيضا تكرار لقصاص الانبياء لكي تثبت في الالذهان حقيقة أن جميع الاديان من عند الله (٢٧) . فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل جميع أنبيائه الى الناس في فترات التاريخ المختلفة لهدايتهم ودعوتهم الى التوحيد وعدم الشرك بالله ، ولكي يبين أيضا لكفار قريش المصير الذي لقيه من قبل من كذبوا الانبياء ، ويحذّرهم من المصير الذي ينتظرهم اذا ما هم كذبوا النبي صلوات الله وسلامه عليه . فنجد ، مثلا ، في سورة القمر ، وهي مكية ، تكرارا لذكر العذاب الذي سيلقاه الكافرون ، ولانذار الله تعالى لهم بهذا العذاب ، وذلك بهدف اثارة انتباه كفار قريش وتذكيرهم بالمصير الذي لاقاه الذين كذبوا انبياءه من قبل ، وتحذيرهم من لقاء نفس هذا المصير اذا ما استمروا في تكذيبهم للنبي صلوات الله وسلامه عليه (٢٨) . فقد تكررت في هذه السورة الآية التالية ثلاث مرات :

« فكيف كان عذابي ونذر » . (٢٩)

كما تكررت الآية التالية اربع مرات في نفس السورة :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . (٣٠)

وبلاحظ أيضا في سورة المرسلات ، - وهي أيضا مكية - ان عبارة « ويل يومئذ للمكذبين » قد تكررت عشر مرات . وكانت هذه السورة تذكر كثيرا من النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس ، وكثيرا من النعم التي أنزلها الله تعالى بهم ، فكانت هذه العبارة تأتي بعد كل نعمة يذكرهم الله بها ، وبعد كل نعمة يخبرهم منها ، وذلك ليثير انتباههم الى هذه النعم والنعمة ليكون ذلك رادعا لهم عن الهادي في التكذيب ، وزاجرا لهم عن الاستمرار في الكفر . هذا فضلا عما في تكرار جملة واحدة عدة مرات خلال الكلام من تأثير خطابي أمر وهو ما لوف للعرب معهود في خطبهم وأشعارهم » . (٣١)

وفي القرآن الكريم أيضا آيات تتكلم عن البعث ، ويوم القيامة ، ويوم الحساب ، ونعيم الجنة وعذاب جهنم ،

(٢٧) سيد قطب : مرجع سابق ، ص ١٠٩

(٢٨) انظر أيضا في هذا الموضوع : عبدالوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس ، القاهرة ، دار الفلم ، ١٩٦٢ ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢٩) القمر : ١٦ ، ٢١ ، ٢٠ .

(٣٠) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٠ .

(٣١) عبدالوهاب حمودة : مرجع سابق ، ص ٩٦ ، ٩٧ .



وخلق آدم وحواء ، وعداء إبليس لها . ويهدف القرآن من تكراره لذكر هذه الامور الغيبية الى استقرار الايمان بها في النفوس ، والى تثبيت ما ينشأ أثناء سرده لها من عقائد وعبر وعظات .

وليس تكرار القصص في القرآن الكريم تكراراً تاماً ، وإنما كان القرآن الكريم يذكر من القصة الاحداث التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السورة . وإذا كرر القرآن حلقة من القصة فإنه عادة ما يورد فيها شيئاً جديداً لم يذكره من قبل ، ويحدث في الفاظها بعض التعديل ، وتقديم وتأخير مما تتطلبه العبرة المقصودة من ذكر القصة . فالقرآن الكريم لا يسرد قصص الانبياء باعتبارها تاريخاً يراعي فيه الترتيب الزمني للوقائع ، وإنما هو يذكرها لما في احداثها من عبر وعظات . ولذلك فهو يذكر من وقائع القصة ما يناسب العبرة التي يريد أن ينشأ في الناس . (٣٢)

ولا شك أيضاً في أن عرض بعض الأحداث او الافكار في صور أو صيغ مختلفة إنما يؤدي الى إثارة الانتباه ، وينع من حدوث الملل الذي يمكن ان ينتاب الانسان اذا ما عرضت عليه فكرة معينة عدة مرات في صورة واحدة لا تتغير . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين والمتخصصين في الدعاية والاعلان اهمية تغير الصيغة التي يعبر بها عن فكرة معينة لتجنب الملل ، والإثارة الانتباه وهو أمر يراعيه الان القائمون بالاعلان التجاري ..

### الانتباه

ان الانتباه عامل هام في التعلم . فاذا لم ينتبه الانسان مثلاً ، الى محاضرة ما ، فإنه لا يستطيع ان يدرك ما تضمنته من معلومات ، وهو بالتالي لا يستطيع ان يتعلمها وان يتذكرها فيما بعد . ولذلك فإن المعلمين والمربين يحرسون دائماً على إثارة انتباه تلاميذهم حتى يمكنهم استيعاب الدروس وفهمها وتعلمها . ولقد كان استخدام القرآن الكريم للقصص ، كما أشرنا الى ذلك سابقاً ، عاملاً هاماً في إثارة الانتباه الى ما تضمنته من مواعظ وعبر ودعوة الى التوحيد . وقد نوه القرآن الكريم باهمية الانتباه في استيعاب المعلومات وذلك في قوله :

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد » (٣٣) .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية أخرى ذكر الله تعالى فيها أنه اهلك قبل قريش أمماً كثيرة من الكفار كانوا أشد منهم بطشاً . ويشير الله تعالى في هذه الآية الى ان في ذلك عظة لكل من له عقل ، او استمع الى هذا الكلام وفهمه وهو حاضر الذهن مركز الانتباه .

ويشير القرآن الكريم أيضاً الى اهمية الانتباه حيناً ذكر في سورة المزمل ان القيام بعد النوم يجعل الانسان

(٣٢) عبدالرهاب حمودة . مرجع سابق ، ص ١٠٣ - ١٠٥

(٣٣) ق : ٣٧

أكثر انتباهها لمعاني القرآن وأكثر تفهما . ولعل ذلك راجع الى راحة الذهن بعد التزم من جهة . وإلى الهدوء الذي يسببه الليل وعدم الانشغال بالأمور المعيشية التي تشغل بال الإنسان عادة اثناء النهار ، من جهة أخرى . يقول القرآن الكريم :

« ان ناشئة الليل هي أشد وطنا وأقوم قبلا » . (٢٤)

وأشار القرآن الكريم ايضا الى أهمية الانتباه في الفهم والتعلم بقوله :

« وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » . (٢٥)

فلاستماع الى القرآن الكريم والانصات اليه يتضمن معنى الانتباه الى ما يقرأ من آياته لتدبر معناها وفهمها ، وتعلم ما فيها من عقائد وتعاليم وأوامر ونواه وعبر وحكم . ومن الواضح ان في ذلك اشارة الى أهمية الانتباه في الفهم والتعلم .

وما يساعد على تركيز الانتباه ويسهل عملية التعلم عرض المعاني بطريقة مبسطة وموضحة وذلك بتمثيلها بأمور واقعية محسوسة حتى يمكن ادراكها وفهمها . ولهذا فان المتعلمين الان كثيرا ما يستعينون بالوسائل البصرية والسبعية والتجارب العملية في شرح القوانين والنظريات العلمية مما يثير انتباه التلاميذ ويساعد على ادراكهم وفهمهم لها . والفصوص والامثال في القرآن الكريم انما هي اساليب استخدمها القرآن الكريم لتجسيد المعاني العقائدية للدعوة الاسلامية وتقريبها الى الاذهان . فالسامع لقصص القرآن الكريم يتحول الى مشاهد لوقائع واحداث تتجسد فيها هذه المعاني (٢٦) ، ويؤدي ذلك بلا شك الى شد انتباهه الى هذه المشاهد التي تتوالى في الخيال واحدة بعد أخرى . ويؤدي الامثال ايضا في القرآن الكريم نفس هذا الدور ، فهي تقوم بتجسيد المعاني بتشبيهها وتصويرها باشياء محسوسة مما يجعلها اقرب الى ادراك الناس وفهمهم . (٢٧)

ومن امثلة ذلك المثل الوارد في سورة ابراهيم والذي يشبه فيه الله تعالى عدم انتفاع الكافرين بأعالمهم الخيرة في الدنيا لعدم قيامها على اساس من الايمان برماد يطير به الريح الشديد في يوم عاصف فلا يستطيع الانسان الامساك به :

(٢٤) المزل : ٦ . قال ابن كثير في تفسير ذلك « والمقصود ان قيام الليل هو اشد مراعاة بين القلب واللسان ، واعم على التلاوة . ولهذا قال تعالى ( هي اشد وطنا وأقوم قبلا ) اي أجمع للخطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لانه وقت انتشار الناس ولظظ الاصوات ووقاات المعاني . تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٤٣٥

(٢٥) الاعراف : ٢٠٤

(٢٦) محمد علي الشنغري : التوازن في الاسلام . بيروت : الدار الاسلامية ، ١٩٧١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ سيد قطب . مرجع سابق : ص ٦٢ - ٧٣ .

(٢٧) محمد علي الشنغري : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣

« مثل الذين كفروا بربهم اعلمهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (٢٨) .

ومن أمثلة ذلك ايضا المثال الذي شبه به الله تعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي تفيد الناس بشورها الطيب ، والضاربة بجذورها في عمق الارض ، والمرتفعة بساقها واغصانها في عنان السماء ، وتعطي ثمرها في كل وقت حدده الله بمشيئته . وكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمنين ، ويصعد عمله الطيب الى الله تعالى ، وينال بركته وثوابه في كل وقت . كما شبه الله تعالى الكلمة الخبيثة بشجرة خبيثة اقتلعت من الارض فليس لها ثبات فيها . وكذلك كلمة الباطل داحضة لا ثبات لها (٣٨) .

« الم تركيب ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين ، بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار » (٤٠) .

وتبدأ بعض سور القرآن الكريم بحروف مثل : الم ، الر ، المص ، المر ، كهيعص ، طسم . وقد ذكر المفسرون تفسيرات مختلفة للرماد من هذه الحروف . وما قيل في تفسيرها ان المقصود منها اثارة انتباه المشركين للاستماع الى القرآن الكريم لما لها من جرس خاص . فقد كان المشركون قد تواصلوا بعدم الاستماع الى القرآن الكريم ، وكان الابتداء بهذه الحروف يفتح لاستماعها اسراع المشركين ، حتى اذا ما استمعوا تلى عليهم القرآن الكريم المؤلف من هذه الحروف (٤١) .

وما يثير الانتباه أيضا استخدام القسم فاتحة لبعض السور المكية . وقد ورد القسم في القرآن الكريم في بداية خمس عشر سورة (٤٢) . ومن أمثلة ذلك « والصافات ، والذاريات ، والطور ، والنجم ، والسماء ذات البروج ، والسماء والطارق ، والفجر ، والعصر » . وكان ذلك مدعاة لجذب الانتباه الى الاستماع الى القرآن الكريم ، « فان البده به هو جذب لانتباه السامع لوقوع القسم على سمعه في شيء من الرهبة . فاذا حدث ذلك صاحبه نهو نفسي لتلقي ما يقال ، خصوصا وان ما يقال مبني على قسم ، والقسم شيء يهول . وفي هذه الحال يكون الانسان اشد تأثرا بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد عن طريق الجدل والنقاش » (٤٣) .

(٢٨) ابراهيم : ١٨

(٢٩) المنتخب في تفسير القرآن الكريم : الطبعة السادسة - المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بوزارة الاوقاف بجمهورية مصر العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٣٨

(٤٠) ابراهيم : ٢٤ - ٢٧

(٤١) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٣٧ ، تفسير المنار ج ١ ص ١٢٢

(٤٢) عبدالوهاب حوتة : مرجع سابق ، ص ١٦ - ١٧

(٤٣) المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧

وفضلاً عن ذلك فإن أسلوب القرآن الكريم الذي يتميز بالاعجاز البلاغي ، والايقاع الموسيقي انما يهز الوجدان . ويشد اليه الانتباه ويمتاز أسلوب القرآن الكريم ايضاً بتناسق الجرس اللغوي اروع التناسق مع المعاني ، التي تؤدها الالفاظ . مما يعطي للالفاظ بعداً آخر غير البعد الدلالي المعتاد ، وإذا بالانسان يجسد المعنى ضمن سماعه لصوت اللفظ وإدائه<sup>(٤٤)</sup> . ولا شك ان ذلك يشد الانتباه ، ويخلق من الانسان احساساً بالموقف الذي يصوره القرآن الكريم ، مما يؤدي الى دقة الاستيعاب والفهم .

### المشاركة الفعالة :

ان تعلم المهارات الحركية يقتضي ان يقوم المتعلم باداء هذه المهارات بالفعل ، وان يتدرب عليها حتى يتقنها . وليست الممارسة العملية مهمة فقط في تعلم المهارات الحركية ، بل إنها مهمة ايضاً في تعلم العلوم النظرية ، وفي تعلم السلوك الخلفي والفضائل والقيم وآداب السلوك الاجتماعي . فان أداء الفرد بنفسه لما يريد ان يتعلم يساعد على سرعة التعلم وإتقانه . وقد تبين من نتائج إحدى الدراسات التجريبية ان الافراد الذين كانوا يقرأون بانفسهم بعض الحروف والكلمات المقابلة لما كانوا أسرع في حفظها من الافراد الذين كانوا يستمعون فقط الى المجرى يقرأ عليهم هذه الحروف والكلمات ، كما كانوا يرونها في نفس الوقت تعرض امامهم على الشاشة بواسطة فيلم سينمائي<sup>(٤٥)</sup> . وقد بينت نتائج هذه التجربة اهمية المشاركة الفعالة في عملية التعلم .

ونحن نجد في القرآن الكريم تطبيقاً لمبدأ المشاركة الفعالة ، يتضح ذلك من الاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في تعليم المسلمين الخصال النفسية الحميدة ، والاخلاق والعادات السلوكية الفاضلة عن طريق تدريبهم العملي عليها لما كلفهم القيام به من عبادات مختلفة ، فالوضوء واداء الصلاة في مواعيد معينة كل يوم يعلم المسلمين النظافة والطاعة والنظام والصبر والمثابرة ، والصوم يعلمهم ايضاً الطاعة والصبر على تحمل المشاق والعطف على الفقراء ، ومقاومة الدوافع والشهوات ، والحج يعلمهم ايضاً الطاعة والصبر على تحمل المشاق ، ومقاومة شهوات النفس .

وقد عني القرآن الكريم عناية فائقة ، الى جانب تعليم المسلمين الايمان والعقائد الدينية بتوجيههم الى العمل الصالح . فالايان الصادق يجب ان يعبر عنه في سلوك المؤمن وعمله ، وذلك بالتعالي بالاخلاق الفاضلة وحسب الخير للناس ، وبالسبق الى اداء ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه صلاة الله وسلامه . فقد ورد الايمان في كثير من آيات القرآن الكريم مصحوباً بالعمل الصالح . ومن امثلة ذلك :

(٤٤) محمد علي التسخيري ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤٥) محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، الطبعة الثامنة - الكويت : دار العلم ، ص ١٩٥ - ١٩٧

« وىشر الذىن آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار... » (٤٦) .

« والذىن آمنوا وعملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون » (٤٧) .

« ان الذىن آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (٤٨)

« وأما الذىن آمنوا وعملوا الصالحات فيوفىهم اجرهم والله لا يىجب الظالمين » (٤٩) .

« وعد الله الذىن آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » (٥٠) .

« وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا » (٥١) .

« واني لفغان لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » . (٥٢)

#### توزيع التعلم :

بينت الدراسات التجريبية التي قام بها علماء النفس المحدثون أن توزيع التعلم أو التدريب على فترات متباعدة يتخللها فترات راحة يساعد على سرعة التعلم وتثبيتته في الذاكرة ، وأن التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التوزيع افضل كثيرا من التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التركيز ، وهو التعلم الذي يتم في فترة زمنية متصلة دون أن تتخللها فترات راحة . وقد طبق هذا المبدأ في القرآن الكريم اذ أنه نزل على فترات متباعدة في مدة طويلة من الزمن قدرها ثلاث وعشرون سنة ، وذلك حتى يستطيع الناس ان يتعلموه على مهل ، وان يستوعبوا معانيه ، وقد ساعد ذلك على اتقان تعلمه وفهمه وحفظه . ولو كان القرآن الكريم نزل كله دفعة واحدة لكان من الصعب تعلمه ، وفهم معانيه واغراضه .

« وقرأنا فرقنا لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (٥٣) .

(٤٦) البقرة : ٢٥

(٤٧) البقرة : ٨٢

(٤٨) البقرة : ٢٧٧

(٤٩) البقرة : ٥٧

(٥٠) المائدة : ٩

(٥١) الكهف : ٨٨

(٥٢) طه : ٨٢

(٥٣) الاسراء : ١٠٦ . جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم في تفسير هذه الآية « وقد فرقنا هذا القرآن ، ونزلناه متجا على مدة طويلة لتقرأه على الناس على مهل ليفهموه »

### التدرج في تعديل السلوك

ان التخلص من بعض عاداتنا السيئة القوية التي مارستها مدة طويلة من الزمن بحيث اصبحت ثابتة ومستقرة في سلوكنا ليس بالامر السهل بالنسبة لكثير من الناس ، اذ أن ذلك يحتاج الى ارادة قوية ، وجهد كبير ، وتدريب طويل ، وهذا أمر قد لا يطيقه كثير من الناس . ولذلك فان أفضل طريقة يمكن اتباعها للتخلص من عاداتنا السيئة المستحكمة هي ان نعمل على التخلص منها تدريجيا .

ان أحسن طريقة للتخلص من انفعال ما ، كانفعال الخوف مثلا ، هي ان تقوم بالتدرج باحلال انفعال معارض لانفعال الخوف كانفعال السرور او الحب مثلا محل الخوف حتى نصل في النهاية الى التخلص النهائي من الخوف . وقد بينت بعض التجارب التي أجراها بعض علماء النفس المحدثين انه يمكن بهذه الطريقة تخليص الطفل من خوفه من أحد الحيوانات وتعليمه حب هذا الحيوان بدلا من الخوف منه <sup>(٥٤)</sup> . وبهذه الطريقة ايضا يمكن التخلص من عاداتنا السيئة بان نحل محلها عادات معارضة ، وهو اسلوب يتبعه بعض علماء النفس المحدثين في العلاج النفسي .

ولقد كان للعرب قبل الاسلام بعض العادات السيئة المستقرة في سلوكهم ، ولم يكن من السهل في المرحلة الاولى من الدعوة الاسلامية ان يطلب من المسلمين التخلي عن بعض عاداتهم السيئة القوية التي ألفوها مدة طويلة من الزمن ، ولذلك فقد اتبع الاسلام في علاج هذه العادات السيئة اسلوبين ، الاسلوب الاول هو تأجيل علاج هذه العادات حتى يستقر الايمان في قلوب المسلمين بحيث يمكن الاستعانة بقوة الايمان كدافع قوي يسهل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة وتعلم عادات جديدة بدلا منها . ولهذا السبب كانت معظم آيات القرآن الكريم التي نزلت بمكة في المرحلة الاولى من الدعوة الاسلامية تتعلق اساسا بالدعوة الى عقيدة التوحيد . وكان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يتعهد من يؤمن بدعوته بالتربية الروحية لترسيخ الايمان والتقوى في نفوسهم . ولا شك ان ذلك كان مرحلة ضرورية وهامة في الاعداد النفسي للمسلمين بحيث اصبحوا في حالة تهيؤ تام لتغيير سلوكهم وعاداتهم وأفكارهم ونظام حياتهم تغييرا كاملا . كما جلعم ايضا في حالة استعداد لقبول الآيات التي نزلت فيما بعد للنهي عن عادات كانت شائعة بينهم ، ما كان المسلمون في اول عهدهم بالاسلام مستعدين لتقبلها بسهولة كالنهي عن الخمر والربا ، ولكن بعد ان رسخ الايمان في قلوب المسلمين ، كان الايمان دافعا قويا الى الطاعة التامة لله والرسول ، وإلى تقبلهم عن رضا كل ما يؤمرون به حتى ولو كان ذلك يتطلب منهم الامتناع عن عادات قديمة كانت قد استقرت في سلوكهم من قبل لسنوات طويلة . فحينما نزلت آيات تحريم الخمر امتنع المسلمون جميعا عن شربه ، وقاموا بسكب كل ما لديهم منه في شوارع المدينة .

(٥٤) محمد عثمان نجدي : المربع السابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٨

أما الأسلوب الثاني الذي استخدمه القرآن الكريم في علاج المسلمين من عاداتهم السيئة المستقرة القوية فقد كان عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات ، وذلك عن طريق التكوين التدريجي لاستجابة معارضة للاستجابة المطلوب التخلص منها . وقد اتبع القرآن الكريم هذه الطريقة في علاج مشكلة شرب الخمر . فقد عمد القرآن الكريم في أول الأمر الى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وتكريههم لها ، دون ان يقوم بتحريمها تحريماً تاماً . ثم تدرج الى التحريم التام . فكانت أول آية نزلت في الخمر تشير الى ان مضارها أكبر من نفعها ، وفي هذا تنفير للمسلمين منها ، وحث على الامتناع عن شربها ، وقد قام بعض الصحابة فعلاً بترك شرب الخمر بعد نزول الآية ولكنهم لم يتركوها كلهم . قال تعالى :

« وسألوكم عن الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس واتمها أكبر من نفعها » (٥٥) .

ثم انتقل القرآن الكريم بعد ذلك الى درجة اشد حزمًا في تنفير المسلمين من شرب الخمر وفي حثهم على الامتناع عنها ، حينما كان بعض الصحابة يذهبون الى الصلاة وهم سكارى فيخطئون في قراءة القرآن ، فحرم عليهم القرآن الكريم ان يقرؤوا الصلاة وهم سكارى . وفي ذلك في الواقع تحريم لشرب الخمر في معظم اوقات اليوم .

« يا ايها الذين آمنوا لا تقرؤوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٥٦) .

ان الامتناع عن شرب الخمر خمس اوقات في اليوم ، وهي اوقات تشمل معظم ساعات اليوم تقريبا انما كان بمثابة تدريب للمسلمين للاقلاع عن شرب الخمر . وقد جعلهم هذا التدريب منهيئين نفسياً للانتقال الى المرحلة التالية وهي الامتناع نهائياً عن تعاطي الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التي حرمت الخمر تحريماً تاماً .

« يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » (٥٧) .

ان هذا الأسلوب في التدرج في تحريم الخمر قام باضعاف حب المسلمين لها تدريجياً ، وأحل محل الحب استجابة معارضة له هي استجابة النفور والكراهة . وقد تمت هذه العملية تدريجياً حتى وصلت الى النهاية المطلوبة بنجاح تام . فما نزلت آية التحريم حتى قام جميع مسلمي المدينة بالتخلص مما لديهم من غر بسكيه في شوارع

(٥٥) البقرة : ٢١٩

(٥٦) النساء : ٤٣

(٥٧) المائدة : ٩٠ ، ٩١

المدينة . ولو كانت نزلت آية تحريم الخمر في مكة اثناء المرحلة الاولى من الدعوة الاسلامية لما كنا نتوقع ان يكون لها في نفوس المسلمين نفس التأثير الذي أحدثته حينما نزلت في المدينة في وقت كان فيه الايمان قد استقر قويا في قلوبهم ، وكان الامتناع عن شرب الخمر في بعض اوقات اليوم قد هيأهم للاقلاع النهائي عن شربها بمجرد نزول آية التحريم . ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها انها قالت : « انما نزل اول ما نزل منه ( أي القرآن ) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا تاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا لا ندع الخمر ابدا . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا ابدا » (٥٨) .

وقد اتبع القرآن الكريم هذا الاسلوب ذاته في علاج الربا الذي كان متفشيا بين العرب في الجاهلية ، فقام بتجريمه تدريجيا . ويمكن ان نشير الى اربع مراحل مر بها تحريم الربا (٥٩) .

في المرحلة الاولى اظهر الله تعالى عدم رضاه عن الربا ، وذلك في قوله تعالى :

« وما آوتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله » (٦٠) .

وفي المرحلة الثانية نزلت آية كان فيها وعد لليهود بسبب ممارستهم للربا ، وفي ذلك تلويح بالتحريم ، وان لم يكن نصا صريحا بالتحريم .

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلمهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما » (٦١)

وفي المرحلة الثالثة حرم الله تعالى الربا الفاحش الذي كان يمارسه العرب في الجاهلية وذلك بقوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٦٢) .

وفي المرحلة الرابعة حرم الله تعالى الربا تحريما قاطعا بقوله تعالى :

« الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » (٦٣)

(٥٨) البخاري : باب تأليف القرآن

(٥٩) مصطفى الرامي : الاسلام وشكالات العصر - بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٦٠) الزم : ٣٩

(٦١) النساء : ١٦٠ ، ١٦١

(٦٢) آل عمران : ١٣٠

(٦٣) البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦



« يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلکم رؤؤس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون » (٦٤) .

وكانت الآية الاولى التي نزلت عن الربا وهي التي تشير الى عدم رضا الله سبحانه وتعالى عنه مكية . أما الآيات الأخرى التي نزلت بعد ذلك وخاصة آيات التحريم القاطع للربا فهي مدنية ، ومن ذلك يتبين ايضا ان التحريم القاطع للربا قد نزل ايضا بعد أن استقر الايمان في قلوب المسلمين .

والاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا هو التكوين التدريجي لاستجابة النفور والكراهية لها حتى تصل الى درجة من القوة يمكنها ان تتغلب على استجابة الميل والمحبة لها . وبذلك استطاع القرآن الكريم ان يعالج بنجاح هاتين العادتين القويتين المستعترتين في سلوك العرب . وان يقضي عليها باستطوع مخطط في غاية الدقة والحكمة .

وقد توصل بعض المعالجين النفسيين حديثا الى اسلوب في العلاج النفسي مستمد من ابحاث سكينر B. F. Skinner وهو اسلوب يشبه كثيرا الاسلوب الذي استخدمه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا . ويعرف هذا الاسلوب في العلاج النفسي « بالتشكيل » . فاذا أردنا مثلا ، ان نعلم طفلا استجابة صعبة فانه يمكن ان نقوم بتكوين هذه الاستجابة لديه تدريجيا . فمثلا ، ان الطفل الذي لم يتعلم من قبل النظافة والذهاب الى الحمام في الوقت المناسب ويكون قد تجاوز السن الذي يتعلم فيه معظم الاطفال ذلك ، فانه يمكن ان نعلمه ذلك بأن نبدأ بانائه باعطائه قطعة من الحلوى مثلا ، لمجرد ان يقوم باستجابة الذهاب الى الحمام . فاذا تعلم الطفل ذلك ، ينتقل العلاج الى الخطوة التالية وهي ان يطلب منه ان يذهب الى الحمام عند احتمال ظهور حاجته الى الاخراج بطريقة لا ارادية ، ثم يثاب الطفل عندما يتم الاخراج اثناء اكله باعطائه قطعة اكبر من الحلوى ، وبناء كبير من والديه . ثم اخبروا يثاب الطفل ثوابا اكرا اذا اخبر والديه بانه يحتاج الى الذهاب الى الحمام وقيل ان يتم الاخراج بطريقة لا ارادية (٦٥) . ان هذا الاسلوب في العلاج يعتمد اساسا على التكوين التدريجي للاستجابة المطلوب تعلمها عن طريق التعلم التدريجي لانواع من الاستجابات المتوسطة والتي تتجه تدريجيا نحو تكوين الاستجابة المطلوبة . وهذا الاسلوب في العلاج يماثل الاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا .

واتبع جوزيف وولپه Joseph Wolpe ايضا طريقة التدرج في علاج الخوف المرتبط باشياء معينة وذلك عن طريق تكوين استجابة معارضة للخوف كالاسترخاء لسلسلة متدرجة من الاشياء المشابهة للشيء الاصلي

(٦٤) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٦٥) جولييان روزن . علم النفس الاكاديمي ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان جاني . الكويت : دار القلم ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦

المثير للخوف ، ولكنها ترتب في نظام متدرج من اقلها اثاراً للخوف الى اكثرها اثاراً له ، وبحيث يكون الشيء الاصلي المثير للخوف والمطلوب علاج الفرد من الخوف منه في اعلى هذه السلسلة . ثم يبدأ العلاج بتعليم المريض الاسترخاء اثناء تحييل الشيء الأدنى في هذه السلسلة حتى يزول الخوف المرتبط به . ثم ينتقل العلاج الى تعليم المريض الاسترخاء اثناء تحييل الشيء الثاني في السلسلة والذي يثير قدراً أكبر من الخوف ، ويستمر العلاج حتى يزول الخوف المرتبط به . وهكذا يستمر العلاج بالتخلص التدريجي من الخوف المرتبط بهذه السلسلة المتدرجة من الاشياء المثيرة للخوف حتى ينتهي العلاج الى التخلص من الخوف المرتبط بالشيء الذي يوجد في قمة هذه السلسلة وهو الذي بدأ العلاج أساساً للتخلص منه (٦٦) .

ان اسلوب التدريب في تعليم الاستجابات الصعبة او في العلاج النفسي الذي يرمي الى التخلص من بعض العادات او الانفعالات غير المرغوب فيها ، والذي توصل اليه علماء النفس المحدثون اخيراً قد سبق ان استخدمه القرآن الكريم منذ اربعة عشر قرناً من الزمان في علاج تعاطي الخمر والربا .



(٦٦) شيلدن كاشدان : علم نفس الشواذ . ترجمة احمد عبدالعزيز سلامة ، ومراجعة محمد عثمان تجاني . الكويت : دار الفلم ١٩٧٧ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ ؛ ويتشارف م . شومين : علم الامراض النفسية والعقلية . ترجمة احمد عبدالعزيز سلامة القاهرة . دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٨٤٦ - ٨٥٤ .

العدد التالي من المجلة

---

العدد الأول - المجلد الثالث عشر  
 ابريل - مايو - يونيو  
 قسم خاص عن  
 آفاق المعرفة "٣"  
 بالإضافة إلى الأبواب الثابتة





الخليج العربي	٥	باروت
السعودية	٥	باروت
البحرين	٤٠٠	فلوس
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال
الكويت	٣٠٠	فلوس
لبنان	٢,٥	ليرة
الأردن	٢٥٠	دينار
عُربيا	٣	ليرة
المتنامرة	٢٥	دينار
السودان	٢٥٠	دينار
ليبيا	٣٥	دينار
مستقط	٤٠٠	دينار
الجزائر	٥	دينار
تونس	٥٠٠	دينار
المغرب	٥	دينار

#### الاشتراكات

للاشتراك في المجلة تكتب إلى: الشركة العربية للتوزيع - ص.ب. ٤٢٢٨ بيروت









